عِلم الاجتماع السياسي

وقضايا التخلف والتنمية والتحديث

دكتور قبارى محمد إسماعيل
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه


علم الاجتماع السياسي
قضايا التخلف والتنمية والتحديث

أهداءات ٢٠٠٠

ا.د. قبـــاري محمـــد اســـماعيـــل
أستاذ الاجتماع بآداب الإسكندرية

علم الاجتماع السياسي

وقضايا التخلف والتنمية والتحديث

دكتور قباري محمد إسماعيل

أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض »

« لهدمت صوامع وبيع »[1]

« صدق الله العظيم »

(1) سورة الحج الآية ٢٩ .

إهداء

«كنا بالأمس نتساءل : أين نضع السلطة ؟»

«أما اليوم، وقد تعلمنا ما هي «المسئولية»»

«فنقول : لا يعنينا أن نسأل : أين نضع»

«السلطة ؟ بل كيف نمارس السلطة ؟»

«وفي ضوء هذا المعنى أهدي هذا الكتاب»

إلى كل مسئول يمارس السلطة

دكتور قباري محمد اسماعيل

تصدير

«الحمدلله الذى به نستعين ، وبكلمات رسوله»
«نهتدى ونقتدى ، حين يكشف النور المحمدى فى»
« ابداع عن معان لا حصر لها ، ويصوغها فى »
« روعة وبراعة ، تتصف بهما وتتفرد وحدها »
«دون غيرها ، عبقريته السياسية الفذة، فيقول :»
« كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته »
(صدق رسول الله ...)

وبعـــد ...

هذا كتاب فى « علم الاجتماع السياسى وقضايا التخلف والتنمية والتحديث »، دفعت به إلى المطبعة ، بعد أن جمعت أصوله ، وحددت أبوابه وفصوله . ولاشك أن دراسة فى « سوسيولوجيا الظواهر السياسية » ، إنما تتمايز تماماً ، عما نعرفه على نحو تقليدى ومتواتر بل وشائع ، فى سائر المسائل والفلسفات والتيارات السياسية . كما ويبعدنا منهج البحث فى « علم الاجتماع السياسى » تماماً عن فهمنا لطبيعة النظريات السياسية ، حيث لا يهتم الباحث السوسيولوجى بسائر أشكال ومنظورات الفكر السياسى ، بقدر ما يهتم بالتجربة السياسية فى ذاتها ، ولذلك يستند منهج البحث فى علم الاجتماع السياسى إلى وعينا بما هو تجريبى ، وبدراسة الوقائع السياسية Political facts ، بالرجوع إلى الملاحظة العلمية ، اعتماداً على روح البحث الوضعى أو ما يسمى بالتجريب experimentation ، حين

يطبق على تلك الظواهر السائدة فى سائر البناءات والأنساق السياسية .

وقد يطبق عالم الاجتماع السياسى ، منهجاً فينومينولوجياً فى دراسة مقولات السياسة ، على اعتبار أن الشعور الانسانى ، إنما يمتص كل ما يدور فى تيارات السياسة من صراعات . فليس الشعور الانسانى خالياً من الموضوعات وإنما يحتوى على رواسب تاريخية ذات مضامين سياسية ، حين تمتلىء التصورات السياسية بالاحساسات والمشاعر الجمعية Collective feelings ، هكذا تقول لنا « فينومينولوجيا السياسة » . ولقد كان « هيجل Hegel » هو أول من وجه الأذهان نحو الفينومينولوجيا والوعى السياسى ، حين شاهد بعينى رأسه جيوش نابليون وهى تقترب من مدينة « يينا Jena » لكى تقرر مصير الدولة البروسية فتتهاوى وتسقط ؛ ولذلك يرفض هيجل فى كتابه « فينومينولوجيا العقل Phenomenology of Mind » صورية الفكر الكانطى ، فالصورى منفصل عن الواقع ، فيبقى خالياً بلا مضمون ، ولذلك يرفض هيجل ذلك النوع من المنطق الذى يضحى بالخصوبة والحركة والتاريخ ، من أجل التزام الضيق الصورى ، فأكد هيجل على المضمون التاريخى للفكر ، وربط العقل بعجلة التاريخ (1) ، حين يرتبط الماضى بالحاضر ، وبالمستقبل فى تيار شعورى تاريخى ، وبين منطق الصورة ، ومنطق الفحوى نستطيع حصر « الشعور الحضارى أو التاريخى » وسبر غوره ، وضبط حركته واتجاهاته .

فتصبح الفينومينولوجيا السياسية على ما يقول « دلثى » فلسفة من فلسفات التاريخ ؛ بمعنى أن تاريخ الفينومينولوجيا يصبح هو بالضرورة تاريخ الشعور الانسانى الجمعى ، ولا نقصد هنا قصداً دوركايمياً فى فهم أو تفسير الشعور الجماعى ،

---

(1) Hegel, G.W F., The Phenomenology of Mind, Trans by J. Baillie, London. New York. 1931.

ولكن الفينومينولوجيا تدرس الشعور الجمعي، على أنه شعور مثالي ينبض بالحياة، بل إنه « فلسفة الحياة ذاتها » حين تجرى فى تيار الشعور الذى يواجه حضارة ، ويعيش تجربة حية ، كما وقد يعانى أزمة من أزمات العصر .

ويذهب « ولهلم دلتى Wilhelm Dilthey إلى أن الفينومينولوجيا ، هى منهج يقوم أصلا على أنقاض « أزمة العلوم الانسانية » ، تلك التى صدرت مع كتابات « هوسرل » فى الفلسفة ، ودراسات « جورفتش » فى ميدان علم الاجتماع . فقد إتفقت الأنظـــار فى الوقوف أمام التيار الدوركيمى الوضعى الذى يؤكد على ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء Comme des choses وهى فى الواقع لا تتصف بالشيئية ، فهى ليست كالظواهر الطبيعية ، لأنها « كيف بحت » على ما يقول برجسون Bergson لا يخضع للكم والمقدار ، كما لا يمكن التنبؤ به مقدما .

ولاشك أن الموضوعية التى إبتغاها «دوركايم» و«كونت» وغيرهما من سائر الوضعيين ، هى السلبية بعينها ، فهى تحيل علماء الاجتماع أنفسهم أن يتخذوا موقفاً خاصاً ، حين يقف عالم الاجتماع من ظواهر الانسان والمجتمع والتاريخ ، موقف « المشاهد السلبي » لكل ما يقع أو يحدث أو يظهر .

وأغلب الظن أن « دوركايم » بنزعته الشيئية ، قد وقف فقط عند « سطح الظواهر» دون أن يتعمقها أو يسبر غورها . وهنا ينبغى أن نميز بوضوح وجلاء بين « مبدأ التفسير » و « مبدأ الفهم » ، فمن المعلوم لدينا أن « التفسير يتصـــل بتعليل الوقائع والظواهر فى سياق محدد » ، بمعنى أن التفسير إنما يبحث من الخارج عن العلاقة بين تتابع الظواهر أو تواترها داخل أنساق إجتماعية . على حين أن « الفهم » يتصل بإدراك « معنى الظواهر من الداخل » ، ولا يستطيع الانسان أن يتخذ موقفاً حيادياً بالنسبة للظواهر الاجتماعية ، فإنها ليست بالأشياء الخارجية

أو المستقلة ، كما توهم دوركايم ، وإنما هى مرتبطة بعقل الانسان وإرادته ،متعلقة بروحه ونفسه .

وليس من شـــك من أن الزمان التاريخى ، هو إطار سيفى ممتلىء بالتجارب الجمعية[1] .ويحاول « المؤرخ السياسى» أن يسجل الاحداث والوقائع السياسية التى مضت وانقضت ، كما يسجل أيضاً عالم الاجتماع السياسى ، ويرصد كل ظواهر السياسة ، فيدرس ويصنف ما يحدث ، ويسبر غور السلوك السياسى ، بين الدول والأمم ، ويفسر كل ما يوجد « هنا والآن Here and now » على مسرح الأحداث السياسية الدولية ، ويربط ما عن له من ظواهر ، كما ويعالج وقائعه فى ضوء الماضى السياسى ، كما ويصفها فى ضوء الحاضر من حيث تحققها وثباتها ودوامها (٢) .

وهكذا يلقى « التاريخ الاجتماعى » ضوءاً على ماضى « الثورات » بتحليل أيديولوجية « الطبقات » ، ووعيها الطبقى ؛ وأشكال التنظيمات الدينية والسياسية ، التى تبرز ملامح التركيب الاجتماعى لفئات وطوائف وطبقات المجتمع،موضوع الدراســـة .

وإرتكاناً إلى هذا الفهم ، يؤكد عالم الاجتماع السياسى « بوتومـــور Bottomore » على ضرورة المزاوجة بين « ظواهر السياسة » و « وقائع التاريخ » ، كما يؤكد هذا العالم البريطانى نفسه ، على وجوب الجمع بين عمل المؤرخ الاجتماعى Social Historian وميدان البحث فى « علم الاجتماع التاريخى Historical Sociology » لدراسة البناءات الاجتماعية للحضارات القديمة ؛

---

(1) Blondel, Charles , Introduction à la Psychologie Collective; Armand Colin, Paris, 1946.

(2) Nadel, S F., Foundations of Social Anthropology, London. 1961.

والكشف عن التحليلات السياسية والسوسيولوجيـــة للطبقات والطوائف والثورات (١) .

وختاماً أرجو أن أكون قد أضفت شيئاً جديداً ، إلى المكتبة العربية ، فلقد تابعت فى هذا البحث وانتهجت ما ينبغى، نحو القارىء العربى ، وفقنا الله وأعاننا على تحقيق الغاية المنشودة .

المندرة البحرية
يونيـــو ١٩٨٠

ق . ا

(1) Bottomore, T.B., Sociology, A Guide to Problems and Literature, Unwin University Books, London. 1963. PP. 45 — 68.

الباب الأول

البدايات الأولية للتفكير السياسي

* تمهيد
* السياسة كمبحث من مباحث الفلسفة
* فلسفات طوباوية
* الفكر السياسي و « روح العصر »
* « كونت » والسياسة الوضعية
* قواعد المنهج في علم الاجتماع السياسي

تمهيـد :

تكمن « أصـــول الفكر السياسى » بعيدة فى باطن الثقافات القديمة لأنساق هندية ، وحضارات شرقية ، ونظم صينية عتيقة ، عبرت عنها كتابات كونفوشيوس Confucius ، حيث صدرت الطلائع الأولى لتباشير الفكر السياسى العتيق منذ ماض سحيق ، بدأ فيه الانسان ككائن اجتماعي يصنع ثقافته ، ويشيد حضارته ، ويكتب تاريخه .

البدايات الاولية للتفكير السياسى :

ولقد كانت البدايات الأولى للتفكير السياسى القديم ، بمثابة محاولات وتطلعات الانسان وردود أفعاله ونظمه البدائية ، بقصد التكيف إجتماعياً وفيزيقياً فى « بناء اجتماعى » يواجه ظروفاً بيئية قاسية بل وصارمة .

ولما كان ذلك كذلك — فان من يتعرض لمسائل الفكر السياسى القديم ، كان لزاماً عليه أن يطرق أبواب الفكر الشرقى العتيق ، حيث تتفتح حضارات الهند والصين ، ليجد الباحث فى باطن تلك الحضارات أصولا فكرية خصبة الجذور بعيدة الغور تمتد فى ماضى التفكير الاجتماعى . وحين نبحث عن « الأصول » ونفتش عن « المصادر » ينبغى أن يتطرق « مؤرخ علم الاجتماع السياسى » إلى حضارات اليونان والرومان ، وهى إمتداد طبيعى لحضارات الشرق وبخاصة « حضارة مصر الفرعونية القديمة » .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لم ينشأ الأدب اليونانى القديم على سبيل الطفرة وإنما سبقه إلى الوجود ذلك « الخيال الفرعونى » الخصب ، حين ظهر الكاتب المصرى القديم وسجل أدباً إنسانياً رائعاً ، ما زال يفصح حتى الآن عن نفسه ، ويعبر عن تصوراته الدينية العميقة ، فكانت هذه المحاولات والبدايات ، بمثابة النوافذ الأولى التى بدأت الانسانية تطل منها على العالم ، وتتلمس أولى معالم الوجود ، إلى الدرجة التى معها يقول أفلاطون فى محاورة « فيدون » على لسان كاهن فرعونى يخاطب يونانياً بقوله : « إنكم معشر اليونان أطفال ، وستظلون كذلك ، فليست لديكم أية حضارة » وبذلك سجل أفلاطون الحقيقة والتاريخ ، أن « المصرى »

هو الذى علم « اليونانى » فالأول أسبق إلى الوجود وإلى الحضارة والتاريخ .

وبالاضافة إلى كل هذه المصادر الأولية القديمة لتاريخ الفكر السياسى، فاننا إذا ما أرخنا لأصول ومصادر «علم الاجتماع السياسى» نفسه، لوجدناه ابن الثورة البورجوازية التى اندلعت فى فرنسا، والتى نجم عنها كل ما خلفته هذه الثورة الكبرى من تحولات اجتماعية وتغيرات سياسية ، وما صاحب ذلك من تغير هائل فى النظم والدساتير ، وتطور واضح فى قيم الأخلاق ومظاهر الفكر الحر الخلاق .

الثورة كتجربة سياسية :

ولقد أحدثت تلك الثورة الكبرى التى اندلعت فى قلب المجتمع الفرنسى ، الكثير من التحولات الجذرية ، فقلبت البناء السياسى رأساً على عقب ، وتطورت حركة التصنيع لافى فرنسا وحدها بل فى المجتمع الاوروبى برمته . وكان من نتائج هذه الثورة الاخلاقية ، تحطيم العادات والنظم القديمة ، وتدمير التقاليد الاقطاعية الرجعية وإزالة التصورات الطبقية العفنة ، والانماط السلوكية العتيقة، تلك التى أتى عليها الدهر، أى أنها كانت ثورة على القديم ،وحركة مضادة لكل ما هو بال عتيق؛ حيث كانت أوربا فى ذلك الوقت تتردى فى حالة من الفوضى السياسية والاجتماعية، وعاش المجتمع الاوروبى فى حالة من التفكك وعدم النظام ، وهى حالة فريدة لم تجتاح أوربا منذ تجربة « حركة الاصلاح الدينى» أو حتى منذ « سقوط روما» .

وإذا كان «علم الاجتماع السياسى» هو ابن الثورة الفرنسية ، فانه أيضاً ابن الفكر الاجتماعى برمته ، حيث صدر عن الفلسفة الاجتماعية منذ ظهرت وصدرت عند « أفلاطون »[1] و « أرسطو» حيث اختلطت كتابات علم الاجتماع الأولى، وامتزج الفكر الاجتماعى العتيق بالاخلاق والدين والسياسة والميتافيزيقيا .

---

(١) كانت الدراسات السياسية القديمة غارقة فى تأملات الميتافيزيقا ، وأحلام المفكرين وكان أول مؤلف فلسفى منظم صدر فى الفكر السياسى ، هو يوتوبيا أفلاطون، التى حاول أن يحققها فى « الجمهورية » حيث يتولى الفيلسوف مسئولية السلطة السياسية ، استناداً إلى دكتاتورية الفكر التى تدبر شئون الناس وتحكم مجتمع الجمهورية .

إلا أن علم الاجتماع السياسي عند « كونت » قد أحدث ثورة في الفلسفة ، وصارت الوضعية حركة مضادة للميتافيزيقا مؤيدة للعلم . فقلب علم الاجتماع أوضاع الفلسفة التقليدية رأساً على عقب ، حيث حلت النسبية Relativity محل المطلقات absolutes ، وكان الاهتمام بما هو كائن ، ورفض ما ينبغي أن يكون وظهرت الحاجة الماسة إلى وجهة النظر التقديرية ، وإنكار وجهات النظر المعيارية ، مع إتباع منهج الملاحظة ، والأخذ بفكرة « القانون Law » والابتعاد كلية عن منهج « الاستنباط » ، أو الأخذ بفكرة « العلية Causality » .

وإذا ما أرخنا للفكر السياسي والاجتماعي ، فاننا أولا وقبل كل شيء سنحاول بالضرورة أن نعالج « مسألة تاريخية » تتصل بالبدايات الأولية لصدور مثل هذا اللون من الفكر الذي يتسم بطابع حضاري ، كما ويرتبط بأصول ثقافية ومصادر بيئية أو طبيعية . ولاشك أن بداياته التاريخية الأولى ، هي بدايات حضارية ترتبط أصلا بظهور أو تكوين « مجتمعات » ، حيث بدأت بها حضارة الانسان ، وانبثقت بفضلها الطلائع الاولى لاشكال التفكير الاجتماعي وصوره . وهذا هو السبب الذي من أجله تكمن أصول الفكر الاجتماعي وجذوره ـ كما قلنا ـ في باطن الثقافات وجوف الحضارات .

التطور الحضاري للتفكير السياسي :

إذا ما درسنا نظام « الحكم الفرعوني القديم » لوجدنا أن فراعين مصر ، قد ابتكروا طوال عهود المملكة القديمة والوسطى والامبراطورية الحديثة ، « مبدأ الرقابة » كما اصطنعوا « التنظيم المركزي » حيث تركزت السلطة السياسية في الحكومة المركزية ، التي فرضت السلطة المحلية عن طريق الولاة ، لتنفيذ تعليمات « فرعون مصر » .

وظهرت « امبراطورية بابل » في حوض دجلة والفرات ، واتحدت بفضل جهود « حورابي » كل مدن الوادي ، واستتب الامن ، واستقرت موازين القضاء ، وسادت « عدالة القانون » في معاملات البيع والشراء والتجارة وشئون الاسرة ، وتحديد الحد الادنى للاجور وفرض مبدأ الرقابة وتحديد أو تنظيم المسئولية ،

حيث يعدم مثلا تاجر الخمور الذى يأوى فى بيته جماعة من المشاغبين ، كما ويحكم قانون « حمورابى » بقطع يدى الطبيب الذى يجرى جراحة بمضبع من النحاس فيتسبب فى موت المريض ، أو فى فقد عينه ، ويقضى القانون ببتر ثدى المرضعة التى تعهد إلى مرضعة أخرى لتربية الطفل دون موافقة أبويه ، كما ويقضى باعدام عامل البناء الذى يبنى بيتاً يتهدم على ساكنه ويقتله (١) .

ولقد استخدم حمورابى منهج النصح واستعان بمبدأ المشورة الإدارية ، كما استخدم الشهود فى أغراض الرقابة . ولذلك يعتبر قانون « حمورابى » من أقدم القوانين المعروفة فى العالم ،وشهدت بابل فى عهد « نبوخذ نصر » حقبة من الرواج والازدهار ، بفضل انتشار مصانع النسيج ، واستخدام خيوط الغزل الملونة ، لاستخدامها السريع ولتشغيلها اليومى كما استخدمت الالوان فى تلوين البكرات وصباغة الخيوط،وذلك لسهولة الرقابة على سير العمل،مع الاهتمام بتشييد صوامع الغلال وتخزينها بعد كل حصاد ، حيث يعبأ القمح فى جرار ضخمة من الطين ، وفى فوهتها يثبت قصبة ملونة ، يتغير لونها كل عام ، بحيث يمكن معرفة سنة الحصاد لأول وهلة .

وظهرت عند « العبرانيين » مفاهيم التنظيم ، ومبادىء الاستثناءات والتدرج الهرمى **hierarchy**،وكان سيدنا موسىعليه السلام من زعماء العبرانيين ،واشتهر بالقدرة على الحكم والتشريع كما وسجل وصاياه العشر على ألواح اشتهرت باسمه . كما أدرك الصينيون الحاجة إلى التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة ، والاعتراف بمبدأ التخصص ، كما استخدم ملوك الصين المستشارين والوزراء للاستفادة من خبراتهم وبما لديهم من حكمة وموهبة .فاستخدم الملوك«مبدأ الشورى»، وأصبح هذا المبدأ من التقاليد المرعية فى حكومات الصين ، إلى الدرجة التى معها عمل رئيس وزراء أحد ملوك « أسرة شانج » على تنحية الملك من الحكم لمدة ثلاث

(١) كلود ، جورج الابن ، تاريخ الفكر الادارى ، ترجمة الأستاذ احمد حمودة، مكتبة الوعى العربى ، القاهرة.

سنوات ، وذلك لأنه لم يأبه بنصح مستشاريه . ولم يسترد الامبراطور عرشه إلا بعد أن ندم وتاب وأناب ، واحترم مبدأ الشورى كتقليد صيني عتيق . ولقد استعان « الاسكندر الأكبر » أيضاً على غرار الصين بالمستشارين ، وكان على رأسهم معلم الاسكندر الفيلسوف اليوناني « أرسطو » . ومع ظهور المسيحية ، صدرت فكرة « القيادة الروحية » كقاعدة ذهبية ، تستند إلى إرساء مبادىء العلاقات الانسانية ، كما تعبر في نفس الوقت عن مبدأ « وحدة القيادة » .

ولا شك أن نظم الهند القديمة ، وحضارة الصين التي صدرت مع تعاليم « كونفوشيوس » إنما تؤكد حقيقة تلك الجهود الجمعية ، التي صنعت مثل هذه الحضارات الكبرى ، والتي شادت مثل تلك الثقافات الخصبة . كما أن الفلسفات القديمة هي الأخرى ما هي إلا « مرآة » تعكس نظماً وأنساقاً كانت قائمة ، أو أنها « عدسة لامة » لكل ما يدور أو يقع و يحدث داخل إطار تلك التيارات الاجتماعية العتيقة .

ولذلك كان لزاماً علينا ، أن نتتبع أصول أو ماضي التفكير السياسي ، من خلال دراسة أنساق المجتمع الهندي القديم . ونظم الحضارة الصينية العتيقة ، مع التركيز على فهم « اتجاهات الفكر الشرقي » و « فحوى فلسفات اليونان » باعتبارها جميعاً بمثابة المقدمة الضرورية التي لا ينفك عنها فهم « البدايات الأولية لصور التفكير الاجتماعي » .

الفلسفات الطوباوية :

لا شك أن العالم الاجتماعي هو المحور الأساسي لتأملات الانسان ، ومبعث مدركاته ومهبط فلسفاته وفهمه لطبيعة الأشياء من حوله . وفي سياق الفكر الانساني ، وطوال تاريخ حضارة الانسان ، صدرت الكثير من « الفلسفات الاجتماعية Social philosophies » ، وهي فلسفات من نوع خاص ، مثل ظهور

الفلسفات الدينية والأخلاقية كالفلسفة الكونفوشية confucionism القديمة . وهى فلسفة صينية ، تعد من الفلسفات الاجتماعية الكبرى التى صدرت فى الشرق القديم ، بل ولعلهـــا الفلسفة الشرقية الوحيدة ، التى تعبر خير تعبير عن طبيعة العلاقات الاجتماعية فى البناء الصينى القديم .

إذ أن الكونفوشيـة كفلسفة اجتماعيـة ، إنمـا هى مرآة تنعكس عليهـا صور الحياة الاجتماعية ، أو هى « بؤرة » تجمع فى طياتهـــا كل سمات وملامح المجتمع الصينى القديم بثقافته العتيقة التى انبثقت و تبلورت خلال القرون الغابرة ولقد كشفت الديانة الكونفوشية عن مفهومات أولية لمعنى النظم الدينية والعلاقات الاجتماعية .

فالكونفوشية ، بهذا المعنى ، مثال واضح ، من أمثلة الفلسفات الاجتماعية التى مهدت فعلا لظهور علم الاجتماع ، والتى عالجت مسائل سوسيولوجية من الدرجة الأولى ، ولعل فلسفة العبقرى العربى « عبد الرحمن بن خلدون » هى أيضاً احدى الفلسفات الاجتماعية الكبرى ، حيث اتفق علماء الاجتماع وأجمع الكتاب المعاصرون على أن كتابات « ابن خلدون » الاجتماعية ، إنما تعتبر بشيراً لطلائع الدراسات العلمية المبكرة فى « علم العمران » ، الذى هو علم الاجتماع عند ابن خلدون ، وبخاصة حين أشار ذلك الرائد العربى ، فى مقدمته المشهور إلى خصائص « العمران البشرى » .

وليس من شك فى أن الفكر اليونانى الفلسفى ، كان مهبطاً للكثير من التصورات الاجتماعية ، ومصدراً أساسياً من مصادر الفكر الاجتماعى ، حيث انتعشت « النظرية الاجتماعية » إلى حد كبير بتلك الافكار اليونانية القديمة ، تلك الافكار

الاجتماعية الأولى التى التحمت بكتابات « أفلاطون Plato »[1] ودراسات « أرسطو Aristotle » .

وفى العصور الوسطى نستطيع أن نعثر على مظاهر أولية وناضجة للفكر الاجتماعى عند « سانت أوغسطين St Augustine » أما فى الفلسفات الحديثة فيمكننا أن نستشهد بكتابات « جون لوك Locke » و« توماس هوبز Hobbes » و « جان جاك روسو Rousseau » و « فردريك هيجل Hegel » .

ولكن هذه «الفلسفات الاجتماعية» . قد ظلت زمناً طويلا غارقة فى التأملات الميتافيزيقية ، بمعنى أنها لم تكن تتعدى حدود المستوى النظرى ، فلم تخرج عن النطاق التأملى الخالص . ومن هنا ارتبط التفكير الاجتماعى بعجلة الفلسفة ، ولم يستطع علم الاجتماع فى هذه الحقبة من تاريخه أن يتخلص من تأثير التفكير الميتافيزيقى ، حيث إختلطت الكتابات الاجتماعية المبكرة وامتزجت بمشكلات الميتافيزيقيا كما اندمجت دراسات علم الاجتماع فى صلب مباحث الفلسفة .

وبالإضافة إلى ذلك ، إستندت الدراسات السوسيولوجية فى مراحلها الأولية إلى ما يسمى فى الفلسفة ، بوجهة النظر المعيارية Normative ، حيث إستقر التفكير الاجتماعى فيما يجب ، وانشغل أوائل الكتاب الاجتماعيين فيما ينبغى أن يكون عليه « المجتمع » What Ought to be بما يحويه من نظم ومواقف إجتماعية .

---

(١) قسم أفلاطون دولة الجمهورية إلى طبقات ثلاث ، هى الطبقات الحاكمة والحارسة والعاملة ، كما بين لنا أفلاطون فى أسلوب فلسفى ومثالى كيف تتفاعل هذه القوى الطبقية وتتوظف فى بناء الجمهورية . كما حاول أفلاطون فى اليوتوبيا utopia أن يرفع علم السياسة الى أعلى منزلة بين العلوم ، واعتبر « السياسى » أو « رجل الدولة » هو أشرف الرجل الذى يمارس أشرف الاعمال .

ولما كان ذلك كذلك — فقد إنشغلت الفلسفات الاجتماعية بمسائل مجردة abstract ؛ حيث تساءلت فلاسفة المجتمع : ما هى المبادىء التى يقوم عليها المجتمع السياسى ؟ ! وإلى أى حد يمكننا أن نحدد مختلف الملامح والسمات المميزة للمجتمع الصالح ، حتى تتحقق مملكة الله Kingdom of God على الأرض ؟ ! وما هى التزامات الفرد إزاء الدولة ومسئولياته حيال المجتمع ؟!

تلك هى المسائل التى شغلت أذهان الفلاسفة الاجتماعيين منذ « أفلاطون » حتى « هيجل » . ولكن علم الاجتماع السياسى بمعناه الوضعى ، باعتباره دراسة علمية وموضوعية فهو يبحث بفضل مناهج العلوم فى النظم الاجتماعية ؛ كما يدرس ظواهر المجتمع السياسى دراسة علمية، ويعالج التغير الاجتماعى social change ؛ الذى يطرأ على مختلف الظواهر الاجتماعية السائدة فى بنية المجتمع بمعنى أن علم الاجتماع السياسى إنما يدرس ما هو كائن بالفعل ، أو ما هو قائم « هنا والآن Here and now » على حد تعبير الفلاسفة ، ومن ثم يندمج عالم الاجتماع السياسى فى صلب الحياة الاجتماعية بشحمها ولحمها ، كما تتمثل وظيفة علم الاجتماع المعاصر فى معالجة الموقف الاجتماعى الراهن Actuality of Social Situation

فلقد ظهر علم الاجتماع السياسى الحديث تحت وطأة الأزمات المجتمعية societal crisis ولقد صدرت هذه الأزمات فى الواقع ؛ عن إندلاع الثورة الكبرى ؛ التى هى الثورة البورجوازية الفرنسية ، ولقد نجمت أزمة المجتمع السياسى الحديث عما خلفته هذه الثورة الهائلة من التغيرات الاجتماعية والسياسية، وما صاحب ذلك من تغير فى النظم والدساتير ، وتطور فى قيم الأخلاق ومظاهر الفكر الحر .

ولعل هذه الثورة الاجتماعية الكبرى ، التى تمخض عنها ظهور علم الاجتماع قد أحدثت ثورة علمية أخرى حيث تقدمت مناهج علوم الطبيعة ، كما ظهرت

بفضل جهود « لافوازييه » أصول الكيمياء الحديثة . وبفضل هـــذه الثورة السياسية إنقلبت قواعد السياسة وتطورت موازين الاقتصاد ، فحدثت التغيرات الهائلة ، لا فى تاريخ فرنسا وحدها ، بل وفى تاريخ أوربا بأسرها . حيث قلبت هذه الثورة البناء السياسى الأوربى رأساً على عقب .

ومثل هذه الثورة الكبرى التى إندلعت فى قلب المجتمع الفرنسى ؛ والتى أدت إلى تحولات جذرية عميقة فى باطن الحياة الاجتماعية الفرنسية ؛ وبالاضافة إلى ذلك ؛ أحدثت هذه الثورة دفعة هائلة — سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر — كان لها رد فعلها فى تطوير حركة التصنيع فى المجتمع الأوربى برمته .

وكان من نتائج هذه الثورة الاخلاقيه ، تحطيم العادات والنظم القديمة ، وتدمير القوانين العفنة والنظم العتيقة التى أخنى عليها الدهر ، أى أنها كانت ثورة على القديم وحركة مضادة لكل ما هو بال عتيق ، أو هى زمجرة اجتماعية كبرى صدرت لتتحدى كل ألوان الظلم الاجتماعى ، فلقد كانت أوروبا فى ذلك الوقت تتردى فى حالة من الفوضى الاجتماعية ، وعاش المجتمع الاوربى فى حالة من التفكك وعدم النظام **Disorganization** ؛ وهى حالة فريدة لم تجتاح أوربا منذ تجربة حركة الاصلاح الدينى ، أو حتى منذ سقوط روما .

ومعنى ذلك أن وطأة هذه الثورة ، قد كانت سبباً فى بلورة « الفكر الاجتماعى » فصدر علم الاجتماع كى يعبر عن نشأة هذه الازمة الفكرية ، ولكى يقوم بحل هذه الازمة وما نجم عنها من مشكلات ، حيث إنصهر العقل فى بوتقة الثورة فظهر « علم الثورة » ، الذى هو علم الاجتماع .

وإستناداً إلى هذا الفهم ، فلقد انبلج الفكر الاجتماعى المعاصر تحت وطأة الازمة ، وانبثق علم الاجتماع السياسى من الفكر الثورى التغيرى بعد إنصهاره تحت محك التجربة الفرنسية القاسية ، فلقد كانت هذه الحركة الثورية التى إستمرت منذ

١٧٨٩ حتى عام ١٨١٤ ، كانت هذه الحركة التغييرية سبباً فى إطاحة البناء الاوربى الذى ظل « إستاتيكياً Statique » طوال دهور طويلة ، حتى بلغته تلك الثورة الديناميكية ، فأزالت « النظام الإجتماعى العتيق Old Social Order » .

ولقد رد « سان سيمون Saint Simon » هذا الخلل الاجتماعى القائم فى البناء السياسى الاوربى إلى أسباب عقلية وتصورية وفلسفية ، وأرجع الاضطراب الإجتماعى ، إلى تلك التغيرات الجذرية العميقة التى طرأت على مختلف وجهات النظر ، بمعنى أن « الإضطراب الإجتماعى » عند سان سيمون ، إنما صدر أصلا عن « الإضطراب العقلى » .

فلم تكن الثورة الفرنسية عند « سان سيمون » ثورة سياسية Political Revolution ، بقدر ما كانت ثورة فكرية أو عقلية Intellectual Revolution على اعتبار أن الثورة الفرنسية ، لم تكن ثورة على أوضاع سياسية ، بقدر ما كانت ثورة ضد « أنساق فكرية » فطالب الثوار الفرنسيون بأنساق عقلية جديدة new Intellectual Systems على اعتبار أن « النسق الإجتماعى Social System » لم يكن فى طبيعة أمره إلا نسقاً من الافكار والعادات .

ولقد اندلعت الثورة الفرنسية ، لتحطيم وتدمير تلك الإنساق الفكرية القديمة ، وتطبيق الإنساق المتحررة الجديدة ، فحطمت الثورة كل الافكار القديمة التى عنها صدرت الانساق والنظم الاجتماعية العتيقة .

بمعنى أن الثورة الفرنسية ، كانت ثورة على العقل ، كما كانت ثورة فلسفية ؛ قلبت فكر العصور الوسطى ، وانتقلت بالعصر الانسانى إلى فكر العصر الحديث . فكانت الثورة البورجوازية الفرنسية ، قلباً لفكر العصور المظلمة Dark Ages والانتقال به إلى درجة الفكر المتحرر الحديث . تلك هى النظرة الاساسية التى يقول بها « سان سيمون » ، حيث قامت الافكار المتحررة الحديثة ، تلك التى

إنبثقت عن « الروح العلمى Scientific Spirit » ، والتى عنها صدرت النظرة التقدمية لاعادة تنظيم المجتمع Societal Reorganization :

وفى هذا الصدد — اقترح « سان سيمون » علما A science، يستطيع به أن يجمع الكثير من الدراسات المرتبة ، ويكرس إتجاهاته نحو التحديد الاجتماعى العلمى المنهجى . وبذلك إقترح « سان سيمون » علما منظما للظروف والحالات الاجتماعية social condition ، وهذا هو « علم الاجتماع » الذى اقترح « سان سيمون » ضرورة قيامه ووجوده ، بقصد تنظيم وإعادة تكوين المجتمع الأوربى .

ومعنى ذلك — أن « سان سيمون » ، قد نبه الأذهان إلى ضرورة خلق أو إكتشاف بعض المجالات الجديدة فى ميادين الدراسة الاجتماعية ، مثل ذلك الميدان الذى يطلق عليه « سان سيمون » اسـم « الفيزيولوجيا الاجتماعية Physiologie sociale » .

ولكن « سان سيمون » على الرغم من ذلك ، لم يحدد « منهجاً A method» لهذا العلم المقترح ، كما أنه لم يشيد بناءاً فكرياً منطقياً أوحتى ميتافيزيقياً ، لما فى رأسه من شتى الفكر والمشروعات المتعددة . فلم يستطع « سان سيمون » أن يبلور كل هذه الأفكار والمشروعات فى علم منهجى منظم .

علم الاجتماع السياسى والمشكلات الاجتماعية :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ظهرت الكثير من المشكلات التى نجمت عن الحرب ، واتجهت الأنظار نحو دراسة « المشكلات الاجتماعية » ، وازدادت الاهتمامات بمعالجة المجتمع ، نظراً لما حدث فيه من التغيرات الاجتماعية الواسعة المدى التى طرأت على البناء الاجتماعى الأمريكى . فكان من نتائج محنة الحرب العالمية الأولى ، أن اندلعت الثورة فى علم الاجتماع الأمريكى .

وإستناداً إلى هذا الفهم ـــ فقد مهدت ظروف الحرب العالمية الأولى، وهى ظروف إقتصادية واجتماعية، أدت إلى وجود «تغيرات» أو «مشكلات» تحتاج إلى حلول. فاتجهت الأذهان نحو علم الاجتماع، لمعالجة هذه المشكلات التى هى مشكلات المجتمع الأمريكى نفسه، وبذلك صدرت بذور الاتجاه الامبيريقى والعملى فى علم الاجتماع الأمريكى، نتيجة لتلك الظرفية الوضعية، ونتيجة لتلك الشروط الموضوعية التى ظهر فيها علم الإجتماع الامريكى المعاصر، من أجل دراسة وفهم ومعرفة طبيعة المشكلات الاجتماعية التى تختلف عن الحرب العالمية الاولى، مع بذل المحاولات العالمية وتضافر الجهود الاكاديمية لحل هذه المشكلات وضبط هذه «التغيرات» التى طرأت على البناء الاجتماعى الامريكى.

ومن هنا أعلنت الثورة فى علم الاجتماع الامريكى، وقامت الحرب ضد «مشكلات المجتمع» كمشكلات البطالة والفقر والكساد الاقتصادى التى تمخضت عن الحرب العالمية الاولى، وبذلت الجهود من أجل حلها، وكانت صيحة الحرب التى التقت عندها أذهان علماء الاجتماع الامريكان، هى ضرورة أو «وجوب» إعطاء علم الاجتماع أرضاً إمبيريقية صلبة، حتى يستطيع علم الاجتماع بفضلها أن يقف على قاعدة عملية متينة. وكانت القضية المتفق عليها والتى أعلنها علماء الاجتمـــاع الامريكان « Give Sociology a Solid Empirical and Practical Footing ».

ولكى تتوافر هذه الارضية الامبيريقية كقاعدة عملية وصلبة لعلم الاجتماع أنكر علماء الإجتماع الامريكان ذلك الإتجاه الاكاديمى الخالص؛ وخرج علم الإجتماع الامريكى عن نطاق التقليد الكلاسيكى، ورفض البحث النظرى البحت فى الدراسات السوسيولوجية. ونادى بالإنفصال كلية عن الفلسفة؛ بل ووضع علم الإجتماع الأمريكى، اللعنة على أصحاب الإتجاهات النظرية والفلسفية فى علم

الاجتماع . وحاول علماء الاجتماع فى أمريكا أن يحرروا — على حد زعمهم — علم الاجتماع من آثار وحبائل الميتافيزيقا ، ومن ثم يؤكد علم الاجتماع الأمريكى على النظرة الوضعية بكل حذافيرها .

ولقد ساد هذا الاتجـــاه « اللافلسفى » حتى الآن فى كتابات علم الاجتماع الأمريكى ، إستناداً إلى « فرضيةوضعية » وهى توجيه الأذهان نحو فهم المجتمع وتدعيمه ، وهنا يصبح علم الاجتماع فى خدمة المجتمع ، وتتجلى حقيقة « العلم للمجتمع » ، مع رفض ادعاء « العلم للعلم » ؛ حيث يكون فى هذا الادعاء نزعة أنانية خالصة، كما أنها دعوة عقيمة جوفاء ولاتجنى ثمار .

وإذا ما أتيحت الفرصة لعلم الاجتماع أن يثبت أقدامه ، كى يصبح علما بمعنى Science ، فعليه أن يبدأ أول ما يبدأ بدراسة المجتمع ، ومعالجة « طبيعـة المشكلات الاجتمـاعية The nature of Social Problems » ، والنهوض بحلها ، والعناية بمسائل الخدمات والرعاية الاجتماعية ، ودراستها دراسة علمية ، وهنا يصبح علم الاجتماع « علما وضـعياً » ، وقائماً بذاته ، ويكون له دوره الخطير ، ووظيفته فى دعم وضـبط الحياة الاجتماعية وإزالة عوامل الضعف التى تصيب البناء الاجتماعى ، ومعالجة الظواهر الاجتماعية المريضة أو على حد تعبير « دور كايم » « تلك الظواهر المعتلة » التى تتسبب فى خلق المشكلات الاجتماعية ومن هنا يصبح علم الاجتماع « علما علاجيا » له ضرورته الاجتماعية فى تطوير وتغيير المجتمع ، بقصد الاصلاح والتقدم ، حتى تتجه بذلك نحو حياة أفضل .

وتلك هى المهمة الرئيسية التى تقع على كاهـل « علم الاجتمـاع السياسى » الراهن ، والتى يعتمد عليها المجتمع اعتماداً كلياً ، ولذلك لم يكن علم الاجتماع السياسى بالعلم النظرى أو التأملى الخالص ، وهذا هو السبب الذى من أجله تحوّل علم الاجتماع الامريكى إلى « علم تطبيقى Applied science » .

ولعل هذا الاتجاه التطبيقى فى علم الاجتماع الأمريكى ، هو الذى أدى إلى تكوين ذاك التباعد المتبادل بين « علم الاجتماع » من جهة ، و « الفلسفة » من جهة أخرى . ولذلك وقفت الفلاسفة بمعزل عن « العلوم الاجتماعية Social Sciences » على ما يقول « رولو هاندى Rollo Handy » وبخاصة فى مقاله المشهور الذى كتبه فى مجلة « فلسفة العلم Philosophy of Science » والذى نشره هاندى تحت عنوان « Philosophys' Neglect of the Social sciences »(١) وفى هذا المقال المركز ، أكد « هاندى » عزلة الفلسفة عن ميدان العلوم الاجتماعية إلى الدرجة التى معها ، نجد اصرار فلاسفة العلم على عدم الانشغال بعلم الاجتماع ، فلم تلتفت « فلسفة العلوم » إلى مجال علم الاجتماع ومكتشفاته وتحديد منهجه ، من وجهة النظر الميثودولوجية البحتة . على الرغم من أن فلسفة العلوم ، إنما نجدها تنشغل إنشغالا كاملاً بتلك التطورات التى تصيب مناهج « العلوم الفيزيائية physical science » .

ويحاول « ادوارد تيرياكيان Edward Tiryakian » فى كتابه « الوجودية والنزعة السوسيولوجية sociologism and existentialism » أن يقيم تآلفاً مشتركاً بين الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، وأن يوفق ما بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، وأن يجمع الشمل حين يؤلف بين ما تنافر من دراسات سوسيولوجية وما تناثر من كتابات ميتافيزيقية .

ولعله إتجاه له وزنه ، وأمر يستوجب الاهتمام ، من جانب الفلاسفة وعلماء الاجتماع معاً .. وهو أمر يبشــر بتحقيق الكثير ، فيما يتعلق بمستقبل علم

(1) Handy, Rollo, Philosophy's Neglect of The social sciences, article from, Philosophy of Science, April 1958 pp. 117-124.

الاجتماع والفلسفة .

ولعلنا نتنبأ أن تظهر إلى الوجود الكثير من الكتابات الجادة المخلصة التى تعالج مسألة محاولة التوفيق بين مجالات الفلسفة وعلم الاجتماع ، وهى محاولة لاشك أننا سنجنى منها الكثير من الثمار . حيث أن محاولة الفصل بين علم الاجتماع والفلسفة ، إنما تؤدى بلاشك إلى نقص واضح فى دراستنا ، كما وينجم عنها أيضاً القصور البين فى نتائج تلك الدراسة .

فليس من شك فى أن للفلسفة مجالها الفضفاض الوسيع ، حيث تحاول التوصل إلى المعرفة الشمولية الكلية أو العالمية ، وأن تطلق التعميمات الواسعة ؛ حين يصدر الفيلسوف على « الوجود » بعض القضايا المطلقة التى يفرضها على « العالم الطبيعى » فرضا ، فتصبح هذه القضايا أحكاما تحاول أن تبلغ أقصى درجات « التعميم Generalization » .

ولكن الفلسفة على الرغم من تلك المحاولة ؛ لم تحقق موضوعيتها ، حيث أن الفلسفة بتعمياتها ونظراتها المجردة ، إنما ترتبط رغم تجريدها ، باصول اجتماعية ، وجذور ثقافية ؛ حيث أن الفلاسفة ، قد صدروا أصلا عن مجتمعات ونشاوا فى أحضان الثقافات ، ولم ينفصلوا عن هذه الأصول كى يعيشوا فى عزلة أو أبراج عاجية ، فليست الفلسفات فى أنفسها إلا « حالات اجتماعية » تحتمها ضرورة التطور العقلى لمجتمعات الانسان ، وبهذا المعنى يعبر ظهور الفلسفات فى ذاتها ، عن مراحل إنتقال اجتماعية تحتمها فلسفة التاريخ ؛ على حد قول « أوجست كونت » .

كما أن الفلاسفة إنما يعبرون عن الانسان ، فكره ومثله العليا ، على الرغم من أن هذا الانسان « لا يعيش فى فراغ in Vacuo » ، كما أن فكر الانسان وأدوات إدراكه ، ومثله العليا ؛ إنما هى ثمرات جناها الانسان من حياته

الاجتماعية .

لذلك كان فهم الانسان بعيداً عن أوضاعه الاجتماعية ، هو فهم لاينم عن شيء وتلك هي الثغرة القائمة فى كتابات الفلسفة ، والشرخ الواضح فى نظرات الفلاسفة ; كما أنها هى نفسها نقطة الضعف الشديدة التى تعانى منها مباحث الميتافيزيقا ; والتعميمات الفلسفية الفضفاضة ; حيث أننا ينبغى أن نربط بين « الانسان » و « المجتمع » كى نصل إلى فهم أوفى وأدق، كما يمكننا أيضاً أن نتفهم طبيعة المعرفة ، والادراك الحسى ، وأن نصل الى منطق الانسان وفلسفته ومثله العليا ; على اعتبار أنها من وحى الحياة الاجتماعية التى يعيشها الانسان نفسه .. وهذا هو ما فهمناه من جهود وكتابات « ورنر ستارك Werner Stark » فى ميدان « سوسيولوجية المعرفة Sociology of Knowledge »[1] .

ولعلنا نستطيع أن نقدم فى هذا الصـــدد ; بعض التبريرات والأعذار من وجهة نظر جمهور الفلاسفة ، حيث أن ميدان العلوم الاجتماعية social sciences قد كان مغلقاً طوال عصور الفلسفات الكبرى ، إذ أننا نجد أن العلوم الاجتماعية هى علوم حديثة ; نسبياً ظهرت وتطورت ونضجت ، خلال قرن أو حتى نصف قرن من الزمان . ومن ثم لم يعاصرها أصحاب الفلسفات الكبرى ; وأعنى بها فلسفات أفلاطون ، وديكارت ، وكانط ، ولذلك لم يأخذ هؤلاء الفلاسفة فى إعتبارهم ، ضرورة الاهتمام بالظروف والأبعاد الاجتماعية فى دراسة « المنطق » أو فى معالجة « نظرية المعرفة » .

ولكننا إذا ما قمنا بتقديم تلك الأعذار والتبريرات لكبار الفلاسفة القدماء .. فيمكننا أن نتساءل .. وكيف يبرر الفلاسفة المعاصرون مسلكهم فى عدم الاهتمام

(1) Stark, Werner., Toward A Theory of Social Knowledge Revue internationale de philosophie, IV July, p. 307.

بالأبعاد السوسيولوجية وكيف يقدمون مختلف الأعذار بصدد عدم الالتفات إلى مصادر « المعرفة » والمقولات وإكتشاف منطق الانسان وفكره ومثله العليا ، فى ضوء نتائج علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية ؟؟ !

وبالاضافة إلى ذلك يمكننا أن نتساءل أيضاً بالنسبة لموقف علم الاجتماع من الفلسفة .. السياسية فنقول ما هى النتائج التى نجمت عن انفصال علم الاجتماع عن أمه الفلسفة ؟ ! .

فى الواقع ينبغى أن نقرر أن علم الاجتماع السياسى قد أصبح فى نهاية المطاف ، وبعد أن إنفصل عن « الفلسفة الاجتماعية » ، قد أصبح علما وضعياً ، ولقد مكنته تلك الوضعية من أن يصبح « علماً أكاديمياً وقائماً بذاته » ، حين تحـــرر تماماً من مشكلات تبعيته للفلسفة وخضوعه للتيار التأملى الميتافيزيقى . وحين طلق علم الاجتماع الفلسفة ، (1) وانطلق محدداً مجاله الخاص ، وميدانه المستقل بعيداً عن مشكلات الميتافيزيقا . ومسائل الفلسفة الاجتماعية ، وهنا يحق لعلم الاجتماع أن يدعى بحق أنه علمى ومنتهج للطرق العلمية ، ومن ثم يصبح علم الاجتماع السياسى علماً إمبيريقيا empirical science .

ولكن علم الاجتماع ، إنما يعانى الكثير من الصعوبات فى إقامة « نظرية سوسيولوجية Sociological Theory » ، إذ أن علم الاجتماع المعاصر ، إنما يميل فقط إلى التركيز على دراسة وبحث المشكلات الجزئية المحددة بالذات ومعالجة الجزئيات التفصيلية لهذه المشكلات الاجتماعية ، بأسلوب منهجى منظم ، وعلى المستوى العلمى الميكروسكوبى ، وأعنى به المستوى المجهـــرى الدقيق microscopic Level .

ولذلك لم يعالج علم الاجتماع الأمريكى المعاصر ، المشكلات الاجتماعية الكلية ، ولم يتعرض علماء الاجتماع السياسى بمعناه الوضعى لتلك ، المسائل التى تتسم

---

(1) لم يطلق علم الاجتماع الفلسفة طلاقاً تاماً وكاملا ، وإنما هو « طلاق مؤقت أو بائن » ، وذلك حين يتوقف علماء الاجتماع عند مسائل محيرة وصعبة « تدخل فى ميدان « الميتا سوسيولوجيا Meta-Sociology » وهنا يستلهم علم الاجتماع الفكر النظرى الخالص ، ويعود إلى أمه الفلسفة ، لكى تقدم مختلف الحلول لسائر مشكلاته المنهجية والنظرية .

بالشمول والاتساع على نحو فضفاض ، وإنما تعرضوا فقط لمعالجة المسائل السياسية الجزئية ، وحاولوا حلها بتقديم مختلف الحلول الاقتصادية والاجتماعية .

ولعل علم الاجتماع المعاصر ، هو فى مسيس الحاجة إلى إزالة تلك الصعوبات القائمة أمام قيام النظرية السوسيولوجية ، حتى يمكنه معالجة ما يعانيه من قصور منهجى واضح ، ونقص شديد فى تشييد الأساس النظرى .

كما أن علم الاجتماع السياسى المعاصر إنما نجده فى مسيس الحاجة أيضاً ، إلى مواجهة المشكلات الاجتماعية ، وبخاصة تلك المشكلات ذات الأهمية والكلية والشمول ، حتى يمكنه معالجة هذه المشكلات ، وبحثها على مستوى من التحليل يتسم بالسمو والعموم ؛ ووضعها على درجة من التجريد السياسى ، ونزعها عن ملابساتها الحسية وخصائصها الجزئية المشخصة ، حتى يحقق علم الاجتماع تلك النظرة الكلية الشاملة وتلك ضرورة علمية ومنهجية ، نادراً ما يأخذ بها علماء الاجتماع السياسى بمعناه الوضعى .

ومن الملاحظ أن علم الاجتماع الوضعى المعاصر — وأقصد به علم الاجتماع الامبيريقى الأمريكى بالذات — لا ياخذ فى إعتباره تلك النظرة الكلية المجردة ، ولعل السبب فى ذلك هو إبتعاد علماء الاجتماع الامريكان ؛ عن تلك الشطحات الفلسفية ، خشية الوقوع فى التعميمات الميتافيزيقية الفضفاضة ، أو مخافة الانزلاق فى متاهات فلسفية أو تفاسير كلية النزعة ، تتسم بالاتجاه إلى المصادر ذات الصبغة المعيارية .

الامر الذى أدى إلى تعرض علم الاجتماع السياسى المعاصر ؛ لمعالجة المشكلات الاجتماعية الجزئية ، مع عدم التعرض لتلك المشكلات التى تتسم بالكلية والشمول مما أدى أيضا ، إلى تراكم المشكلات والمشروعات . مما عاق تقدم النظرية فى علم الاجتماع ، حيث أصبحت هذه النظرية ، وغير ذات موضوع ، فلم يتوصل علم

الاجتماع السياسى إلى تحقيق العمومية أو « التعميم Generalization » الأمر الذى يعوق تقدم وتطور ميدان الدراسة فى علم الاجتماع على العموم حيث أن طبيعة النظرية السوسيولوجية ، ما زالت حتى الآن تتسم بالغموض والابهام ، نظراً لوجود النقص الواضح والقصور البين ، فى ذلك التركيب الداخلى الذى يؤلف فيما بين الفلسفة والاجتماع ، أو فى ذلك الالتئام أو « الاتساق الباطنى internal coherence » الذى يصل النظرة الفلسفية المجردة بالنظرة السوسيولوجية الممتلئة بالتجربة والواقع ، وهو ما ينبغى أن يتوافر فى دراسات علم الاجتماع ، لتحقيق العمومية generalization وبناء النظرية السوسيولوجية sociological Theory فى علم الاجتماع .

وليس من شك فى أن علم الاجتماع ؛ هو علم كثير المناهج ، قليل النتائج على حد قول « هنرى بوانكاريه Henri Poincaré » ، فى كتابه « العلم والمنهج Science Et Méthode » ، ولذلك وجدنا علم الاجتماع ، من وجهة نظر « علم المناهج Methodology » ، هو فى مسيس الحاجة إلى منهج وحيد ، يحدد موقفه المضبوط ، وسط جوانب الدراسة النظرية والتطبيقية.(1)

وإن كان ذلك كذلك ـ فينبغى أن يتوفر ويتوحد المنهج فى علم الاجتماع ، كى يستعين به كمنهج وحيد ، يتوسط « النظرية البحتة pure theory » و « المادة الامبيريقية Empirical Matter » ، ومن هنا يحقق علم الاجتماع وجوده « روحا » و « جسداً Corpus » ، ونظراً لضرورة التقدم والتطور ، لا ضرر إطلاقا ـ حين يصل علم الاجتماع إلى حالة من الكفاية ـ من أن يأخذ علم الاجتماع بمبدأ تضافر العلوم ، فى سبيل إنماء الحقيقة ، إذ أن التعاون بين العلوم هو أمر مفروض مقدماً ، إذ أن الحقيقة هى المطلوب الأول والأخـــير . كما أن هـذا

(1) Poincaré Henri, Science Et Méthode. Flammarion Paris 1927 pp. 12-13.

التضافر أو التعاون بين العلوم ، إنما يؤدى إلى الفائدة المرجوة ، حيث يجنى منها مختلف العلماء كثيراً من الثمار ، كما تحقق تقدما مباشرا يلحق كل علم منها على حدة.
وعلى هذا الأساس يصبح موقف العلوم الطبيعية وغير الطبيعية ؛ هو فى ذاته موقف تكافلى symbiotic ، يؤدى فى النهاية إلى مبدأ « وحدة المنهج » بين سائر العلوم.

ولعل علم الاجتماع السياسى، هو أكثر العلوم الانسانية حاجة إلى مثل هذا التكافل والتضافر فيما بين العلوم ، حتى تنتعش دراسات علم الاجتماع العام، بهذا اللقاء المتبادل بين مختلف العلوم ، الأمر الذى معه تزداد الحقيقة السوسيولوجية ثراء على ثراء ، بشرط ألا يفقد علم الاجتماع « ذاتيته » أو « شخصيته » فى خضم هذه العلوم .

ويمكننا أن نحدد موقف علم الاجتماع السياسى، بالنسبة إلى سائر العلوم الطبيعية وغير الطبيعية ؛ إستناداً إلى تقسيم العلوم برمتها إلى علوم مجردة abstract وعلوم طبيعية natural ، وعلوم إنسانية أو « إنسانيات Humanities » .

ولاشك أن العلوم المجردة ، إنما تنقسم إلى علوم نظرية بحتة ، كالفلسفة والمنطق وما وراء العلم والرياضيات ، وما يتصل بهذه الدراسات من علوم مجردة فرعية ، أما العلوم الطبيعية ، فهى علوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، وأخيراً نتطرق إلى العلوم الانسانية أو الانسانيات Humanities وهى علوم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا ، على اختلاف أشكالها وفروعها الجزئية .

الفصل الأول

• الفلسفة السياسية

* تمهيد
* السياسة كمبحث مع مباحث الفلسفة
* فلسفة السياسة .. ما هى وكيف تكون ؟
* فينومينولوجيا السياسة
* التفكير السياسى بين اليونان والرومان
* عصر النهضة فى أوربا
* مكيافللى
* توماس مور Moore
* توماس هوبز Hobbes
* مونتسيكو Montesquieu

تمهيـــد :

عركت الفلسفة دهراً ، وانشغلت بها زمناً ؛ واحترفتها سنوات ؛ ثم إنقطعت عنها فجأة ، كي أعود إليها ، لكي أتم ما كان قد إنقطع بيني وبينها من حوار.

ولقد أعجبني ما في « الفلسفة العامة » من مواقف وأنظار، ومدارس تتصارع كلها من أجل الحقيقة ، تلك التي تنبثق مع حرارة الجدل والمناقشات الحامية ، فان أروع ما في الفلسفة هو « حماس الفكر » والتزام العقل ؛ وحب الحق ، وأمانة البحث ، ونبل الغاية والقصد . فلاشك أن كل فيلسوف إذا ما نظرنا إليـه من وجهة النظر السيكولوجية ، لوجدناه صادقاً وشجاعا ، وذكيا وبارعا ، حيث اجتمعت في الفلسفـة ، عظمـة العقـل ، الملتزم بالأمانة والصـدق ؛ والشجـاعة والبراعة ، وتلك هي القيم التي يتحلى بها كل « فيلسوف » بكل ما في هذه الكلمة من إمتلاء .

وإذا كان هذا هو حال « الفلسفة العامة » فما بالنا بالفلسفة حين تصطدم بالسياسة ، فتصبح فلسفة سياسية ، وهي ما يسمى أيضا ، في الدوائر العلمية والاكاديمية بفلسفة السياسة .

في الواقع ، لقد أعجبني ما في الفلسفة السياسية من « قوة التأثير » « فهي تأخذ بنا أحيانا ، كي تحلق بنا بعيداً في يوتوبيا utopia » المدن الفاضلة . أو لكي تدور بنا في أغلب الأحيان ، بين أجهزة « البيروقراطية » ، و « التنظيم والادارة » ، وقد تنطلق بنا فلسفة السياسة نحو « سيكولوجيا الجماهير » ، وتحلل لنا شخصية الزعيم ، أو القائد الكارزمي charismatic leader وترسم لنا الملامح العامة لميتافيزيقا الحكم المثالي، كما تحلل لنا فلسفة السياسية ظواهر « الادارة » و « السلطة » و « القيادة » وخصائص الزعامة ، وتسجل لنا ما يدور حول شخصية الحاكم من هيلمان السلطان .

ومن هنا تصبح « فلسفة السياسة » ترجمة صادقة لكل مواقف الحياة

Life-situation بمعنى أن عالم الفلسفة السيـــاسية ، هو عالم مفعم بالصخب ، كما أنه حياة حافلة بالضجة بين مختلف الفرق ويعبر عنها كل فريق ، تعبيراً خاصاً به و بظروفه ومواقفه وقد يقف معها أو ضدها ، أو يثير الضجة فى صف فلسفة بعينها ، فيدور النقاش ، حول مسائل الفكر الحيوية والمعرفية ، وقد يدور حول موضوعات سوسيولوجية أو سيكولوجية أوحتى منطقية (١) . وإذاكانت الظاهرة الاجتماعية على حد تعبير أوجست كونت Comte ، هى أكثر تعقيداً وتركيباًمن الظواهر الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمائية والبيولوجية ، فان الظاهرة السياسية ، هى أكثر الظواهر الاجتماعية تعقداً ، لأنها تستند إلى كل مايدورفى البناء الاجتماعى من نظم وأنساق Systems وعلاقات ، بالاضافةإلى كل الأجهزة السائدة فى البناء الادارى للدولة . إذ يعتمد السياسى على تنظيم يستند إلى القانون ، لأن رجل الدولة ، هو التطبيق الواقعى لرجل القانون ، فالسياسى يعتمد حقيقة فى كل حركة أو فعل أو سلوك على جهاز له تنظيمه الذى يدعمه القانون ، لأن القانون كما يقال هو سيف العدالة وهو كما يقول «هاملت Hamlet» أيضا ، « سيف السلطان » .

السياسة كمبحث من مباحث الفلسفة :

ولا شك أن « السياسة » هى مبحث من مباحث الفلسفة ، يوضح لنا كيف « تساس » « المدينة الفاضلة » أو « دولة المدينة » ولقد بدأت « فلسفة السياسة » باليوتوبيا utopia الأفلاطونية التى اشتهرت منذ صدرت « الجمهورية » وعلى رأسها « صفوة Elite » تتحقق فى « حكومة الفلاسفة » ، وهم طبقة الحكم ، التى تحكم ولا تملك أو حتى تعمل . فهناك طبقة « العمل » وتتألف من العبيد والرعاع ، كما يدخل فيها طبقة الكادحين من الفلاحين وأصحاب الحرف ، وهذه الطبقة العاملة هى التى تتوظف بوظيفة بعينها فهى تعمل ولا تحكم أو حتى تحارب . لأن هناك « طبقة الجند » التى تحارب ولا تعمل أو تحكم .

وإستناداً إلى هذه التصورية الطبقية المثالية ، لبيروقراطية الحكومة الأفلاطونية

(1) Mannheim, Karl., Ideology and Utosia; Kegan Paul, London. 1940

وهى أول بيروقراطية فلسفية وحالة تفرض نفسها فى « تاريخ الفكر السياسى » . وهى بيروقراطية عقلية مثالية ، لم تتحقق فى العصر الافلاطونى ، وسوف لا تتحقق على الاطلاق نظراً لشدة مثاليتها وشطحاتها وخصوبة خيالها ، بالإضافة إلى تعقد المتغيرات الثقافية ، وتبدل « روح العصر » ، وغلبة التكنولوجيا والتصنيع .

واستناداً إلى هذا الفهم — يمكننا أن نقول إن « السياسة » قد بدأت بالفلسفة ، وتحاول أن تنتهى إلى الوضعية Positivism ، كما تنبأ لها « شيخ علماء الاجتماع » وصاحب الفلسفة الوضعية ، الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت Comte » . ومن هنا بدأ الفكر السياسى ، نحو التعلم واكتساب خصائص العلم ، والاعتماد على « التجربة السياسية » التى قد تعطى فى خصوبة الكثير من المعطيات données التى قد تتصل بتغذية الكثير من « الأنساق Systems » والنظم institutions ، فالتجربة السياسية ، ليست بأحداث معزولة أو وقائع منفصلة ، يطلق عليها قضايا جزئية Singular وإنما نجد أن التجربة « السياسية » هى تجربة كلية تتصل بكل ما يدور فى نظم وأنساق البناء الاجتماعى . فلكل نظام رد فعله فى النسق أو البناء الذى هو جزء فيه . بمعنى أن التجربة السياسية ، ليست بسيطة ، وانما هى غاية فى التعقيد complexity .

ولما كان ذلك كذلك ، فالسياسة ليست مجرد « حديث صحفى » ، أو « أخبار شائعة » ، أو « وقائع Facts » جزئية يكون لها صداها الدولى والعالمى . وإنما قد تشتمل « إقتصاديات السياسة » على « بروتوكولات » ، و « أحاديث إقتصادية صحفية » ، كما يتحقق القرار السياسى الرشيد ، بصدد وقوع أو حدوث « وقائع سياسة حاسمة » ، مثل قيام « ثورة مظفرة » ، أو ظهور « صراع عسكرى مفاجىء » ، أو عملية تأميم ناجحة مثل « تأميم بترول ايران » أو « تأميم قناة السويس » فلقد كان القرار السياسى ، فى كل حالة من تلك الحالات أو التجارب السياسية ، هو « قرار رشيد » مبنى على الدراسة المتأنية ، والعلم بموازين القوى ، والتنبؤ السليم ، بمواقف ومتغيرات . قد تنشأ نتيجة لمثل هذا القرار السياسى ،

الذى لا يصدره سوى « قائد » أو « زعيم » أو « رجل دولة »(١).

التفكير السياسى ومصادره فى الفلسفة والتاريخ :

يسجل لنا تاريخ الفكر الاجتماعى خلاصة جهود العلماء والفلاسفة، التى تمثل فى الحقيقة شطراً هائلا ، من شتى الدراسات ومختلف الكتابات والأبحاث ، ولقد بدأت « طلائع الفكر الاجتماعى » فى محاولاته الأولى،منذ صدرت شمس الفكر،فى حضارات الشرق القديم ، وانطلقت أشعتها وانتشر ضياؤها على أرض اليونان لكى تتحقق فى أنساق الفلسفات القديمة . ولذلك كان للتفكير الاجتماعى مصادره فى الفلسفة ، وسنحاول أن نتتبع تطور هذا التفكير خلال التاريخ . ولنبدأ أولا وقبل كل شىء بحقبة هامة فى التفكير الاجتماعى ، وهى التى تتعلق ببداية ظهور « الفكر الشرقى القديم » :

أ — الفكر الشرقى القديم :

لقد ظهرت الحضارات الآسيوية القديمة فى ربوع الهند والصين ، حيث صدرت تباشير الفكر الاجتماعى العتيق كما تتجلى فى صوره الأولية ، وفى حالاته البدائية الأولى .

ففى الهند ، كان المجتمع القديم عبارة عن « وحدات ذات طبقات متمايزة » واستناداً إلى مبدأ تلاحم الأعضاء وتساند الأجزاء كانت هذه الطبقات تقوم بوظائفها الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع الهندى القديم .

---

(١) حدث بعد تأميم قناة السويس ، أن ثارت المناقشات الحامية ، فى مجلس العموم البريطانى ، بعد الزوابع السياسية التى أثارها « أنتونى ايدن » رئيس وزراء بريطانيا وممثل اليمين البورجوازى المتطرف — وتلميذ « ونستون تشرشل » ،نجم الحرب العالمية الثانية، وصاحب الدهاء السياسى المشهور — أن وقف مستر « آتلى » رئيس حزب العمال وقتها،وقال له قولته المشهورة: « ان كنت تعتقد يا إيدن أننا فى غابة فلسنا فى الغابة أقوى وحوش » .

أما النظم الاجتماعية فى الهند القديمة فكانت مترابطة ترابطاً عضوياً ، بمعنى أن النظرية السياسية الهندية القديمة كانت متكاملة بنائياً ، وكان الدين فى الهند القديمة هو حجر الزاوية فى المجتمع السياسى الهندى برمته ، حيث اتصلت به كل النظم الهندية ، من سياسية واقتصادية وزواجية . ثم بدأ الدين فى الانفصال والانسلاخ عن سائر النظم الهندية ، ولقد عبرت العقيدة البوذية عن ذلك أصدق تعبير ، حين دافعت عن قيمة السلوك الخلقى ، ودوره الاجتماعى ، وفصلت العقيدة البوذية فصلا كاملا بين الدين والسياسة .

أما المجتمع الصينى فكان عمليا ومنظماً ، غنياً بمؤسساته الدينية والحضارية كما كان مستقراً بتراثه حريصاً على تقاليده وأساطيره . ولقد درس الفيلسوف الاجتماعى الصينى « كونفوشيوس Confucius » كل ما يتصل بتراث وأساطير وقيم وتقاليد الصين ، لكى يتمكن من « بناء التنظيم الاجتماعى » القوى المستند إلى الفضيلة . ولقد كان كونفوشيوس عدوا للحكم المستبد أو المطلق ، ولذلك علم كونفوشيوس الناس الفضيلة ، كما أعطى المرتبة الأولى لفضيلة الإقناع ، واحترام العلاقات الاجتماعية (١).

ولقد أشار « كونفوشيوس » فى تعاليمه إلى وظيفة الدين فى المجتمع ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول فى أمانة ، إن فكرة « الوظيفة Function » كما تستخدم فى علم الاجتماع وفى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ليست وليدة الفكر الاجتماعى الحديث ، وإنما هى قديمة قدم الفكر الشرقى السياسى القديم ، كما وترتد جذورها

---

(١) أحكم كونفوشيوس فى نظريته المشهورة للعلاقات الاجتماعية على علاقات رئيسية خمس ، منها علاقات عائلية وأسرية وهى علاقة الأب بابنه ، والأخ الأكبر بالأصغر وعلاقة الزوج بزوجه ، ومنها علاقات سياسية وأخرى اجتماعية مثل تعظيم صلة « الحاكم برعاياه » وتقديس رابطة « الصديق بالصديق » .

إلى الفلسفات الدينية الصينية القديمة .فلقد حدثنا أحد شراح المدرسة الكونفوشية وكبار أساتذتها وأعنى به « صن تسو Hsun Tzu » .

حين كتب منذ ذاك الزمن السحيق فى القرن الثالث قبل الميلاد ، عن وظيفة الدين والطقوس الدينية فى حياة المجتمع فلقد أشار إلى هذه الحقيقة العلمية فى كتابه الذى أصدره تحت عنوان « كتاب الطقوس Book of Rites »[1] .

وبالاضافة إلى كل ذلك، فإن الفلسفة الكونفوشية فلسفة ديموقراطية،إعترفت بمكانة الفرد وقيمته،دون النظر إلى طبقته أو طائفته، بل ولقد شجع كونفوشيوس على الانتقال من طبقة إلى أخرى وكتب الكثير من الكتابات لتحقيق المجتمع المثالى ، وأشار فى كتبه إلى مختلف نظم الإدارة والحكم ، وبذلك كان الفكر الاجتماعى الصينى تحرريا فى كل جوانبه ، أخلاقيا ومثاليا فى كل اتجاهاته يطالب فى سائر تعاليمه بالفضيلة ويؤكد على العدالة ، ويهاجم استخدام القوة والعنف .

ب — الفلسفة اليونانية

كان المجتمع اليونانى القديم ، يتألف من طبقات ثلاثة : طبقة العبيد ؛ وهم الطبقة الثالثة التى خلقت للخدمة والعمل . وطبقة الأجانب الذين كانوا يشتغلون بالتجارة والحرف الفنية الدقيقة . وهم يشاركون العبيد فى هذه الصفة التى تتعلق بالمهنة أو العمل، إلا أن الأجانب يمتازون عن العبيد بالحرية. وهناك طبقة السادة أو الأحرار ، وهم يعملون فى القيادات العسكرية والحربية ، كما يتولون أكبر المناصب الإدارية ويشاركون فى السلك السياسى .

وكان التعاون الاجتماعى عند أفلاطون ، هو الذى يشبع حاجات الأفراد ؛ والانسان يحتاج إلى الآخرين حتى يمكنه أن يواجه الحياة . كما تتوقف أهمية

---

(1) Radcliffe — Brown, A.R., Structure and Function in Primitive Society, London - p. 159.

الفرد الاجتماعية بمدى ما يقدمه إلى مجتمعه ؛ لهذا السبب يؤمن أفلاطون بمبدأ تقسيم العمل واحترام التخصص . لأن المجتمع الذى يشعر فيه الإنسان الفرد بالطمأنينة النفسية نظراً لتكيفه مع عمله وقيامه بوظيفته أو تخصصه حين يوضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب،ذلك هو المجتمع الفاضل الذى ينشده أفلاطون لتحقيق أكبر قدر من الانتاج الاقتصادى والتقدم الاجتماعى .

وفى دراسة ماينبغى أن يكون عليه التنظيم الاجتماعى القديم، كتب أفلاطون كتابه «الجمهورية».فكان بالنسبة لتفكير الاجتماعى اليونانى بمثابة الخلق الذهنى الرائع،كما كان أروع ما صدر عن الفكر الاجتماعى القديم . فلقد هاجم أفلاطون فى هذا الكتاب « الديمقراطية » الفوضوية التى قتلت أستاذه سقراط ، فحاول أن يقيم « اليوتوبيا Utopia» أو مجتمع المدينة الفاضلة الذى ماثل فيه بين «قوى النفس العاقلة والغضبية والشهوية »، من جهة وبين مماثلته لطبقات الدولة «الحاكمة والحارسة والعاملة » من جهة أخرى . ثم يبين لنا أفلاطون فى أسلوب فلسفى جدلى وبنظرة مثالية خالصة، كيف تتفاعل هذه القوى وكيف تتوظف فى بناء الجمهورية فطبقة الحكام ليس لها أن تعمل»، وطبقة العمال ليس لها أن « تحكم » . وطبقة الجند عليها أن تحارب فلا تعمل أو تحكم. ولاشك أن التفكير الاجتماعى عند أفلاطون ، لم يصدر إلاعن نزعة مثالية أو يوتوبية Utopian لتحقيق المدينة الفاضلة . ولا يعنى هذا التقسيم الذى فرضه أفلاطون وجود النظام الطبقى الصارم الذى يتسم بالجمود والانغـــلاق ؛ فالانتســاب الطبقى هنا ليس وراثيا كالانتماء الموجود الآن بين طوائف الهند Castes ؛ حيث ينغلق كل مجتمع على ذاته ، وتتقوقع الطائفة فى «عزلة صارمة لا يبرحها أحد » أو ينتمى اليها دخيل .

وإذا ما انتقلنا إلى استعراض الفكر الاجتماعى عند أرسطو ، لوجـــدناه يذهب أولا وقبل كل شىء إلى أن الأسرة لم تكون إلا كنتيجة حتمية لاشباع

حاجات ضرورية يستشعرها الانسان ، كالحاجة إلى الطعام والأمن والحاجة إلى الشريك الجنسى . والانسان عند أرسطو حيوان سياسى Zoon Politikon بطبيعته لأنه يعيش فى مجتمع ويحترم القانون ، ويخضع للقيم والتقاليد السائدة .

ويتألف المجتمع عند أرسطو من طبقتى السادة والعبيد ، أو من الأحرار وغير الأحرار . لأن العبد ليس قادراً على حكم نفسه ، إذ أنه « آلة » أو « أداة » تحت سلطان السيد الذى يوجهها كيف يشاء كملكية شخصية تؤدى منفعة خاصة .

ولقد رفض أرسطو(١) جمهورية أفلاطون وأنكر « حكومة الفلاسفة » وسيادة الفيلسوف ، وأكد فقط على سيادة القانون ، فلا غنى للحكام عن القانون لأنه من خلق العقل ، واحترام العقل واجب ضرورى بل ومقدس ، وليس القانون عند أرسطو إلا العقل نفسه وقد تجرد عن العاطفة والرغبة أو الهوى Reason uneffected By desire هذه هى « ثقافة العصر الاغريقى » التى أفرزت فلسفات أرسطو وأفلاطون وأستاذهما سقراط ، تلك الفلسفات التى احتقرت العمل اليدوى الذى يقوم به العبيد والرقيق ، ولذلك تحامل أفلاطون على أصحاب الحرف والمهنين ، وكذلك فعل أرسطو بالنسبة للعمال والعمل ، مما يدل على ضيق الأفق واهدار كرامة الانسان من حيث هو انسان .

حـ — الفكر السياسى عند الرومان :

حاول المفكرون الاجتماعيون فى عصور الرومان أن يناقشوا مسائل أخلاقية رئيسية تختلف عن الفلسفات اليونانية الكبرى عند أفلاطون وأرسطو ، ومن هذه المسائل الرئيسية التى شغلت الفكر الاجتماعى الرومانى ، مسألة السعادة

---

(١) الدولة عند أرسطو ظاهرة طبيعية ، تنمو كنبات طبيعى ، فهى تحيا وتتطور ، والانسان مخلوق أو حيوان سياسى ، وتعمل الدولة كظاهرة ضرورية وطبيعية على تدبير شئون الانسان الفرد ، ومحاولة تحقيق وجوده كمخلوق أو كائن حى .

وهى ضرورية بالنسبة لحياة الانسان الفرد مع إشباع رغباته الجنسية والفكرية والثقافية ، مع تحقيق الأمن والطمأنينة واشاعة الغيرية وإنكار الذات ، مع تجنب العنف والظلم والحقد ، ومن هنا يتحقق « السلام الاجتماعى » كما تدعى المدرسة الأبيقورية .

أما المدرسة الرواقية فحاولت إخضاع الرغبات غير الأخلاقية لحكم العقل، مع إشاعة احترام القانون والعدل ، والاصرار على نشر الحياة الفاضلة كما تتمثل فى مبادىء الواجب والمساواة ، وانتهاء الانسان إلى مجتمع أكبر من مجتمع المدينة الصغير المحدود ، إلا وهو مجتمع الانسانية اللامحدود ، حتى يتحقق الكمال الانسانى فى المواطن العالمى « Ctizen of the World » .

ولا شك أن التفكير الاجتماعى الرومانى لم يصدر على سبيل الطفرة ولم ينشأ عن العدم ، وإنما كان مكملا لأنماط التفكير الفلسفى اليونانى ، إلا أن الجانب العملى قد غلب على الرومانى الذى أقر النظام واحترام القانون ، ولذلك قلل كثيراً من دفاعه عن الحريه والديموقراطية .

وكان المجتمع الرومانى يهتم كثيراً بالرق وصنع القلاع وبناء ثكنات الحرب كما ازدرى الرومانى القديم التجارة والاشتغال بها ، ولذلك سخر منها «شيشرون» وفسر سقوط قرطاجة وكورنثة لانتشار أهلها فى الأرض سعياً وراء التجارة .

أما روما فقد امتازت بقنواتها المتعددة وقناطرها الضخمة وطرقها المستقيمة كما اشتهرت بالتخطيط المستطيل والأسوار والصوارى ، والحصون والقلاع ، كما أخذ الرومانى عن اليونانى عشقه للجمال والفن والموسيقى والمسرح وفخامة المعابد والمرافق .

كما ظهرت فى المجتمع الرومانى القديم حالة من الاكتفاء الذاتى ، وانحصر الفكر السياسي وفلسفة الحكم فى طبقة خاصة من قادة الحرب ورجال الدين

وملاك الأرض ، أما الطبقة الكادحة ، فكانت من الفلاحين والرقيق من أسرى الحروب ، ووقعت عليهم جميعاً تبعات العمل اليدوى الحقير .

القانون الرومانى :

لقد صدر هذا القانون القديم فى عهد الامبراطور الرومانى « جستنيان » فى القرن السادس الميلادى[1] . لكى يطبق كل ما جاء فى الفكر السياسى الرومانى ، ولكى يحقق العدالة والأمن فى سائر انحاء الامبراطورية الرومانية .

ولقد ميز الرومان ، بين القانون الطبيعى ؛ وقانون الشعوب ، والقانون المدنى . أما القانون الطبيعى Jus naturale ، فلقد صدر بفضل خصوبة الفكر الفلسفى السياسى لدى اليونان . وأكد « شيشرون » على أن القانون وأحكامه وتطبيقاته ، مستمدة كلها من الطبيعة ذاتها .

هذا عن القانون الطبيعى ، أما قانون الشعوب ، فان قواعده لا تطبق على سائر الكائنات الحية من انسان وحيوان ونبات وطيور ؛ كما أنه لا يستند إلى الغرائز المشتركة بين الانسان والحيوان ، كما هو الحال فى القانون الطبيعى . ولكن قانون الشعوب Jus gentium فهو عبارة عن مجموعة من قواعد القانون الرومانى ، تتعلق بالأجانب والعبيد والأرقاء ، وبسائر الشعوب المقهورة . فلا تصدق على المواطن الرومانى ، وانما يصدق قانون الشعوب ، على كافة الأقاليم والمناطق المغلوبة التى خضعت للرومان ؛ طبقاً لنظم الغزو والرق ، ونتائج الحرب والاستعمار .

ويتصل القانون المدنى Jus Civile بمجموعة القواعد القانونية الخاصة ، بكل مدينة رومانية على حدة ، ويصدق على كل مواطن رومانى . وينقسم القانون من ناحية المصدر ، ومن حيث طريقة تكوينه إلى قانون مدون Jus Scriptum

---

(١) د. صوفى حسن أبو طالب : الوجيز فى القانون الرومانى ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٥ .

أو مكتوب ، وقانون غير مدون jus non scriptum ، والأول منشور وكأنه دستور أو كتاب مسطور ، أما الثاني فهو قائم على العرف والتقليد Tradition مثل الدستور الانجليزي ، فلقد أصبحت قواعده ومواده معروفة وموروثة ، وفي غير ما حاجة إلى نشر أو كتابة . ولقد ارتبط القانون الروماني بالكثير من الشعائر والطقوس ، فاختلط القانون بديانة الرومان حتى أصبح رجال الدين ، هم الذين يشرفون على تطبيق القانون ، فاحتكر الكهنة صنع الدعاوى القانونية .

ولقد امتزجت الأخلاقيات الرومانية التي سادت في مجتمعات الرومان في العصور الوسطى ، وتوافقت الأفكار والقواعد القانونية وامتزجت مع أخلاقيات وأنماط السلوك السائدة ، فالرومان شعب محافظ لم يألف التجديد ، واتسم القانون الروماني بهذا الطابع الأبوي Patriarchal[1] المحافظ الذي يتفق وروح الشعب الزراعي .

ولقد انقسم الشعب الروماني إلى طبقتين ، طبقة الاشراف Patres ، وطبقة العامة Plebeu ، أما طبقة الاشراف فهم الطبقة الغنية التي تتألف من طائفتين ، طائفة النبلاء nobilitas وتتكون من أبناء طبقة الاشراف ومن سلالة الحكام وأعضاء مجلس الشيوخ ، أما الطائفة الثانية من الطبقة الغنية ، هي طائفة الفرسان ordo equestre وتتكون من رجال الأعمال ، وكبار الملاك ، وذوي اليسار من التجار ، الذين كسبوا من استمرار الحروب . أما الطبقة الفقيرة ، فتتكون من صغار الملاك الذين دمرتهم الحروب ، ومن العامة كالأحرار والعتقاء ، من العمال والصناع والعبيد والأرقاء .

ولطبقة العامة تقاليدها ، وعاداتها السائدة بين عامة الشعب ، كما وتتألف طبقة الاشراف من سادة العشائر ، وتعتبر العشيرة وحدة اقتصادية وسياسية ، وتحمل كل عشيرة اسم مؤسسها الأول ، وتضم العشيرة إليها أفراداً بالتبني أو

---

(١) لقد أعطى القانون الروماني للأب الكثير من الحقوق على زوجه وأبنائه ، ومنها حق إعطاء الابن شرعيته ، ويرثه حتى ولو كان ابناً غير شرعي أنجبه أبوه من جارية أو عشيقة . وحين يولد الطفل الصغير ، يتركونه عند باب غرفة الأب ، فإذا خرج عليه الأب ، صار الابن شرعياً وإذا لم يخرج عليه ، صار الابن غير شرعي ، ولا يرثه حتى لو كان من زوجة شرعية .

بتحرير العبيد .

ولقد حقق القانون الرومانى مبدأ المساواة بين الطبقتين، كما حدد أيام التقاضى وأباح الزواج بين العامة والاشـــراف ، واعترف بالحقوق المدنية ، وبتقاليد وعادات العامة(١) . ومن رؤساء العشائر يتكون مجلس الشيوخ Senatus وهو المجلس المختص سياسياً وبحكم الدستور ، باصدار كل قرار ادارى أو عسكرى أو حربى ، كما ويصادق على قرارات المجالس الشعبية ، وهى مجالس تضم سائر الأفراد والزمر والجماعات التى تعيش فى مختلف الولايات والمدن الرومانية ، التى يحكم كل منها حاكم رومانى ، يختاره القيصر ، كما جعل الرومان على رأس كل مدينة قناصلها consules وهم طائفة منتخبة من المجالس الشعبية ، بالاضافة إلى طبقة الرقباء censores ووظيفة المحتسب، كما ويجوز للعامة شغل هذه الوظيفة.

الفكر الاجتماعى المسيحى فى العصور الوسطى :

كان لإنتشار المسيحية أثره الكبير فى إثراء التفكير الاجتماعى ، وكان لذلك صداه فى كتابات الرسول بولس ، والقديس أوغسطين . فظهرت مبادىء الطاعة وتقديس السلطات العليا تمشيا مع عبارة السيد المسيح عليه السلام « اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » . وذلك لأن السلطة العليا فى الفكر الاجتماعى المسيحى، هى سلطة دينية مقدسة ، لأن الملوك هم ظل الله على الأرض .

ولقد كتب أوغسطين كتابه «مدينة الله City of God» ودافع به عن المسيحية ، حين أكد على أن الانسان مكون من عنصرى الروح والجسد ، ولذلك فهو ينتمى إلى وطنين هما السماء والأرض ، وينشغل الانسان عند أوغسطين بأمور دنيوية مبعثها الجسد والشهوات ، وأخرى روحية ودينية ومصدرها الروح والقلب والضمير .

(١) المرجع السابق ص ٣٨ .

ويطلق أوغسطين على مجتمع الأرض «مدينة الشيطان» حيث ينتشر الجشع وتسود الأنانية، ويتحكم حب التملك والرغبة فى السلطان وجمع المال. أما المجتمع الدينى، فهو «مدينة الله ومملكة المسيح» حيث تتغلب قوى الروح حين تنطلق من عقالها، فتزول من مجتمع الانانية ما يسوده من جشع ورغبة فى السلطان والجاه وجمع الأموال، ولذلك يتنبأ أوغسطين بأن مجتمع الخير سوف ينتصر دائماً على مجتمع الشر والباطل.

أما القديس «توماس الاكوينى Thomas Aquinas» فيرى أن الغرض من المجتمع هو تحقيق الخدمات المتبادلة التى تؤدى إلى تحقيق الحياة الفاضلة، ومن هنا جاءت وظيفة «التكافل الاجتماعى» حين تتعاون وتتكامل سائر الفئات والطبقات الاجتماعية فى إطار من الحب والسلام الاجتماعى، فالجندى يحارب كى يدافع عن الوطن، ويعمل العامل ويكدح الفلاح للقيام بخدمات ضرورية لحياة المجتمعات، وربما تأثر «توماس الاكوينى» فى سائر كتاباته الاجتماعية والسياسية، بتحليلات وكتابات الفلاسفة اليونانيين، وبخاصة بما جادت به قرائح القطبين العظيمين أفلاطون وأرسطو.

التفكير الاجتماعى فى الاسلام:

هناك الكثير من الآيات فى القرآن الكريم تشير إلى إبراز دور الدين الاسلامى، كدين ينظم حياة الناس فى الأسرة، والأخلاق والسياسة والاقتصاد، كما تحدد الشريعة الاسلامية، نظم الملكية والزكاة والعدالة والمساواة، كما وتتحكم فى نظم الزواج والطلاق والميراث والتبنى.

وفى صدر الاسلام، كان للخلفاء الراشدين دورهم البارز فى إرساء قواعد النظم الاسلامية سواء فى نظام الخلافة، ونظام القضاء والخراج، وشئون بيت المال

وموارده[١] ، ولقد اشتهر الفاروق عمر ابن الخطاب بفتح باب الاجتهاد في الفقه والتشريع، كما اهتم بشئون المال والادارة . وعلى سبيل المثال فلقد وقف عمر وهو يودع أحد الولاة فسأله : « بماذا تحكم لو جاءك الناس ـ بسارق أو بناهب.فقال: أقطع يده يا أمير المؤمنين .فقال له عمر رضى الله عنه : إذن لو جاءنى الناس بجائع أو عريان فسيقطع عمر يدك . . . إسمع يا هذا . . . إن الله قد خلق هذه الأيدى لتعمل ، فإن لم تجد فى الطاعة عملا وجدت فى المعصيه أعمالا ، فأشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية » .

ولقد شجع بنو أمية وبنو العباس ، العلم والعلماء ، فظهرت طائفة ممتازة من الشعراء والأدباء قلما يجود بهم الدهر ؛ كما ظهرت الفرق الاسلامية والفلاسفة والمتكلمون والأخلاقيون من أمثال الكندى ، والغزالى ، والفارابى ، وابن طفيل وابن خلدون .

وكتب الفارابى « آراء أهل المدينة الفاضلة » متأثراً بالفكر الاجتماعى الأفلاطونى والأرسطى ، الامر الذى معه يمكن اعتبار مدينة الفارابى الفاضلة ، هى « اليوتوبيا العربية الاسلاميه » التى تمثل تقدما واضحاً فى تطور ملامح التفكير الاجتماعى فى الاسلام .

ابن طفيل[٢] :

اشتهر فى الفكر الاسلامى ، وبخاصة حين كتب قصته « حى بن يقظان » وأشار فيها إلى بعض الأنظار الاجتماعية ، كما جمع تصورات الاسلاميين وأفكار الفلاسفة العرب عن الانسان الفرد وموقف المجتمع منه .

ولقد استعار « ابن طفيل » من الفيلسوف الاسلامى « ابن سينـــا » بطل رواية « حى بن يقظان » ، حيث يرمز « حى » عند ابن سينا إلى « العقل الفعال »

(١) حسن ابراهيم حسن ، « النظم الاسلامية » ١٩٤٩ المطبعة الاميرية ، صفحات ١٠٩ حتى ١٢٥ .

(٢) ابن طفيل ، هو أبو بكر محمد ابن عبد الملك بن طفيل . قيل انه ولد فى الفترة ما بين سنتى ١١٠٦ ، ١١١٠ فى بلدة فى شمال غرناطة بالاندلس ، وينتمى الى قبيلة بنى قيس العربية .

لأنه روح منزه عن المادية ، بالاضافة إلى أن «حى» خالد لا يموت ، وهو «يقظان» بمعنى أنه دائم الاشراق والسهر .

هذه هي مقاصد ابن سينا ، ولكن ابن طفيل عالج القصة على نحو مختلف ، فأدارها حول «حى» وتربيته واعداده ، بالنظر إليه ككائن بشرى عاقل ، ووالده «يقظان» هو العقل .

وحاول إبن طفيل أن يعزل «حى» بطل قصته عن كل تأثير إجتماعى خارجى ، حتى يبدأ تربيته وعقله صفحة بيضاء ، خالية من كل علم أو معرفة أو إدراك .

ثم بدأ ابن طفيل يروى لبطل روايته «حى ابن يقظان» قصة الجنس البشرى وكيف ولد الانسان الأول من غير أم أو أب ، حيث تولد عن أمشاج من طين وحرارة ويبوسة ، وبرودة ورطوبة ، ثم تعلق به الروح باذن الله(١) .

وكان إبن طفيل من العلماء الأجلاء العارفين بعلوم المسلمين ، فلم يبخل علينا من معلومات طبية وتشريحية تدور حول تكوين الجنين وتدخل جميعها فى إطار علم «الاجنة embryology» .

وتربى «حى بن يقظان» فى أحضان الطبيعة فكان يأكل الثمار ويحاكى الحيوان ، واتخذ من أعضاء الشجر عصياً يدافع بها عن نفسه ، وحين «ثقف العصا» كانت البدايات الأولى للثقافة ، ثم اهتدى «ابن يقظان» إلى النار ، وبدأ يألف الحيوان ويستأنسه ، ثم غزل الصوف ، وبنى الكوخ وصنع الرماح .

وفى مراحل متأخرة ، عرف «حى ابن يقظان» طبائع النبات وخواصه وأنواعه ، وتطلع إلى صور الحياة فقسمها إلى أجناس وأنواع ، وإلى حركة الشمس وكرويتها ، واستنتج فكرة السببية حين يفسر ما يقع أمامه وما يحدث . ومن هذه الفكرة توصل إلى وجود الله «كخالق» وصانع العالم .

---

(١) نجيب غزول ، (ابن طفيل) ، بيروت ١٩٦٣ .

ولكننا نتساءل : وما الغرض من قصة حى بن يقظان ؟ لقد أخطأ بعض المفكرين حين ذهبوا إلى أن عملية إقصاء «حى» عن المجتمع ؛ هى عملية مقصودة حاول من خلالها «ابن طفيل» أن يؤكد لنا كيف يتفتح عقل الانسان بمعزل عن كل تأثير اجتماعى و«هذا فهم خاطىء» ؛ حيث أن «عقل حى» إنما يمثل عقل النوع البشرى جملة ؛ وابن طفيل لم يكن ليجهل أن هذا العقل مدين للمجتمع فى كل تطوراته وتصوراته . فالاجتماع عند ابن طفيل كان «أصل تطور البشر وتقدمهم» ، ومن هنا تفتح «عقل حى» ، وتطور باحتكاكه بالآخرين ، كما نضجت تصوراته عن طريق العمل من أجل اشباع حاجاته «ولمواجهة ما حوله من أخطار» . ولما كانت «الحاجة هى أم الاختراع» ، تطور الجنس البشرى وتقدم العلم وازدادت دائرة المعارف .

ولقد أسهمت رواية «حى بن يقظان» لابن طفيل، إسهاماً مباشراً فى الفكر الاجتماعى ، فهو يبين أثر المجتمع على الانسان الفرد واكتسابه لانماط سلوكه فى حياته الاجتماعية . ولهذه القصة أمثالها فى حياتنا الواقعية ففى سنة ١٩٥٣ عثروا فى سوريا على طفل يعيش بين الغزلان . كما عثر فى مقاطعة البنغال فى الهند سنة ١٩٢٠ على أسرة ذئاب ومعها بنت لا تتجاوز السنة والنصف من العمر ومعها أخت أخرى وتدور الاساطير فى التاريخ القديم حول نشأة «روملوس وريموس» حيث رضعا من حليب ذئبه على نهر ضفاف التيبر، وقاما بتأسيس روما سنة ٧٥٣ ق م(١)

عبد الرحمن بن خلدون :

فى كتابه «دراسة التاريخ» يقول توينبى Toynbee عن ابن خلدون : «إنه المؤرخ الفيلسوف الاجتماعى العظيم، الذى انتج أعظم كتاب من نوعه ، ألفه عقل

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

إنسانى فى أى زمان أو مكان [١] » .

ويعتبر ابن خلدون بمثابة المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع ، قبل صدوره فى دروس الفلسفة الوضعيـــة عند « أوجست كونت Comte » ولقد أطلق ابن خلدون إسماً إشتهر به وحده دون سائر علماء الاجتماع ؛ حين تكلم عن « العمران البشرى » وأطلق على علم الاجتماع إسم « علم العمران » وبهذا بلغ ابن خلدون فى الفكر العربى ، بل وفى الفكر الغربى أيضاً مبلغ الرواد الأوائل من أساطين التفكير الاجتماعى الاسلامى ، وبخاصة حين كتب « مقدمته » المشهورة باسمه ، التى تعتبر مقدمة لعلم الاجتماع أو العمران على حد تعبيره .

ولقد سبق ابن خلدون الكثير من علماء الاجتماع المعاصرين حين سجل الكثير من نظرياته وآرائه ، فهو يؤمن على سبيل المثال « بدور الحياة البيولوجية » تلك التى تتحكم فى مسار الحضارات والمدنيات . فلقد أشار فى مقدمته إلى فصل تحت عنوان « فصل فى أن للدولة أعمار طبيعية كما للاشخاص » بمعنى أنه يطبق تلك النظرية القائلة بأن دورة الحياة المتدرجة فى مراحل الميلاد والطفولة والشباب والرجولة ؛ والشيخوخة والموت ؛ إنما لا تنطبق فقط على أفراد الحيوان ؛ بل إنها تصدق أيضاً على حياة « الدول » و « المدنيات » و « الحضارات » .

وبذلك يرتفع « الفكر الاجتماعى الاسلامى عند ابن خلدون » إلى درجة النضج والاصالة والخصوبة أيضاً ، حيث حاول أن يشيد علم الاجتماع على أسس وضعية وقواعد علمية تنظم المجتمع وتحدد مسار الظواهر الاجتماعية السائدة فيه ؛ الأمر الذى معه يمكن أن نعتبر ابن خلدون هو أول مؤسس حقيقى لعلم الاجتماع

---

(١) يقصد « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » .

ولفلسفة التاريخ(١) .

عصر النهضة فى أوربا :

ومن أقدم الكتب السياسية والإدارية ، التى ظهرت ، وسجلت الكثير عن القرن الرابع عشر ، تلك الكتب التى نشرت ، فكان لها صداها وأثرها فى وصف اقتصاديات « عصر النهضة Renaissance » ومنها كتاب « أندريا بربارجو : تاجر البندقية » وكتاب « سفن البندقية ، وبناة السفن فى عصر النهضة » .

ولقد أعد هذين الكتابين ، المؤرخ الاجتماعى المعاصر « فردريك لـين » ، ومن هذين الكتابين نستطيع أن نتعرف على الصور المبكرة أو الأولية elementary forms لأنماط الادارة ، وأشكال الممارسة الادارية ، ونجد فى هذين الكتابين وصفاً مفصلا لتقدم التجارة والصناعة فى إيطاليا ، مبعث عصر النهضة ، ومصدر خصوبته وفاعليته .

ويصف كتاب « أندريا بربارجو » أحوال تجارة البندقية ويسرد لنا سيرة « رجل أعمال » من كبار تجار البندقية ، وهو تاجر من الطراز النموذجى المألوف ، الذى يعرف كيف يستخدم المحاسبة كأسلوب إدارى ، كما يعرف كيف يستخدم مبادىء علم إدارة الأعمال ، بطريقة عملية وسيكولوجية . ولقد كان أسلوب المشاركة أو « الشركة partnership » ، وهو الأصل فى كل مؤسسة اقتصادية أو شركة تجارية هو أحد الأساليب الرئيسية المستخدمة فى تنظيم الاعمال الادارية والاقتصادية فى البندقية . كما كان أسلوب المخاطرة المشتركة joint venture هو أسلوب آخر استخدمه البنادقة كطريقة تقليدية فى تجارة إيطاليا خلال عصر النهضة .

---

(١) ولد ابن خلدون فى أول رمضان (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢) فى مدينة تونس . ثم خرج من القرآن وعلم الحديث والفقه والمنطق وسائر العلوم العقلية ، نقلا عن الدكتور عبد الرحمن بدوى « مؤلفات ابن خلدون » منشورات المركز القومى للبحوث ١٩٦٢

ولقد استخدم أسلوب المشاركة كأساس قانونى ، لمنشآت أو تنظيمات ومؤسسات تجارية . كما استخدم تجار البندقية أسلوب المخاطرة المشتركة سواء فى ميدان الاستكشاف والمغامرة أو الفتح والاستعمار ، أو بصدد عقد الصفقات المنفردة .

ولحماية تجارة البندقية الرائجة، ظهرت قوة البندقية البحرية وأسطولها المسلح لكى يحمى التجارة والمصالح المشتركة . وهكذا تكونت ترسانة البندقية ، وبلغت دولة البندقية وأسطولها فى أوج قوتيهما ؛ كما أصبحت ترسانة البندقية هى أكبر مصنع إنتاجى لرواج السلع. وكثيراً ما تدخل مجلس شيوخ دولة البندقية ، لكى يتولى ويمارس بنفسه إدارة ترسانة البندقية .

فلسفة الاقطاع فى العصور الوسطى :

حين ضعفت الامبراطورية الرومانية، كانت الكنيسة هى الدولة القائمة داخل الامبراطورية المفككة ، وكانت «دولة الكنيسة» تقوى يوما بعد يوم، حتى سادت تماما ، وصارت أقوى سلطة فى العصور الوسطى ، ولقد عرفت أوربا نظام الاقطاع بفضل انتشار تعاليم الكنيسه ، والتى ظلت توجهه وترعاه ، وفى هذا العصر الاقطاعى الرهيب ، يخضع كل فرد تحت سلطان أو سلطتين ، إحداهما إرادة تفرض نفسها، أو سلطة تستأثر عليه بجسده ، وتلك هى سلطة « الامير » أو « البارون » . أما السلطة الثانية ، أو الارادة الأخرى إنما تستأثر عليه حين تهيمن على روحه ، وتلك هى سلطة الكنيسة ، التى تتولى إرادة أو « سلطة الله » على « روح الانسان » . فظهرت السلطة الزمنية ، التى هى سلطة الملوك والأمراء والبارونات ، والسلطة الروحية ، التى هى سلطة رجال الكهنة على أرواح الناس كما يسيطر الملوك على حركاتهم وسكناتهم .

وظل الناس زمنا طويلا راضين بهذا النظام ، الذى ظل فى أوربا واستمر

أكثر من ألف عام . فالانسان ، اما « فارس » أو « نبيل » أو « رجل دين » أو « عبد » من رقيق الأرض، يرتبط باقطاعية النبيل، ولا يتركها ، وإنما ينتقل عبيد الأرض مع تلك الملكية من بارون إلى آخر .

وكان للفرسان واجب الطاعة ، وعلى الفلاحين ، أن يقوموا بتقديم كميات معينة مما تغله الأرض ، وكان على الصانع واجب الاحترام والطاعة للفرسان والبارونات ، مع تقديم كميات معينة مما ينتجون ، أما بالنسبة لطبقة الفرسان chevalier ، فلقد كان لها دورها ووظائفها فى المجتمع الاقطاعي ، فلقد كان على الفرسان للبارونات واجب الخدمة العسكرية . كما كان على البارونات وفرسانهم واتباعهم واجب الخدمة العسكرية للملوك ، كان كان للملوك وفرسانهم وعبيدهم من صناع وفلاحين ، واجب الخدمة العسكرية من أجل الدولة برمتها ، هكذا كان النظام السياسى فى العصور الوسطى ، فلم يكن فى استطاعة أى انسان أن يفكر فى تغيير وضعه ، لأن الله هو وحده الذى حدده لكل واحد من بنى البشر .

وكانت طبقة الاتباع والارقاء ، هى الطبقة السفلى ؛ بعد طبقة النبالة وطبقة رجال الكنيسة ، وفى وسط هذا الجو السياسى الخانق ؛ أخذ الاتباع يهجرون الاقطاعيات ، إلى المدن ، حيث التجارة والصناعة ؛ حتى يتحرر الاتباع من التبعية ، حيث أنهم لا ينتمون إلى الطبقات الممتازة ، فنجدهم يفاوضون أسيادهم من النبلاء من أجل تحريرهم ، نظير بعض المكوس المتفق عليها ، حتى يوقع السادة وثائق التحرير والخلاص ؛ للعبيد والارقاء .

وحول الأديرة والأبرشيات ، ظهرت المدن الحرة و « البلديات » ، وكما ظهرت طبقة جديدة ، هى طبقة « البورجوازيين » تلك التى ضمت بينها الكثير من أتباع الارض ، وذوى اليسار من التجار والصناع . وبدأت البورجوازية تشترى من النبالة الأملاك والمقاطعات، بينما تحصل البورجوازية على ألقاب النبالة،

ولكى تصبح الكنيسة الكاثوليكية ، فى مركز أسمى من البورجوازية والنبالة والامراء الزمنيين، وحتى تستطيع السيطرة على كل هؤلاء ،لابد لها من أن تكشف عن « مبرر دينى » . ولقد وجدت ضالتها فى ضرورة ممارسة حق دينى هو « حق مقاومة الظلم والجور» ، ومن هنا وجدت الكنيسة أن الأمير مكلف بمراعاة القوانين الالهية لأنه يتلقى سلطانه من الله . والكنيسة فى روما هى المكلفة بمراعاة القوانين الالهية و « مراقبة السلوك السياسى للامراء ».

حيث أن الأمير ، حين لا يراعى تلك القوانين الالهية ، إنما يعد ذلك خيانة عظمى ، تفقده حق السلطان الالهى ، وفى هذه الحالة يضيع منه حق الحكم ؛ كما يحق للرعايا أن يخرجوا على طاعة الأمير .

ولما كانت الكنيسة ، هى التى تباشر سلطات الله على الأرض ؛ فانها تملك حق خلع الامير ، وأصبح هذا الحق سلاحا يشهره البابا ضد الأمراء . فالكنيسة إذن، هى التى تولّى السلطه من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، ولها السيادة على الامراء والملوك والاباطرة ، تلك كانت هى البيئة التى ولد فيها «توماس مور Moore » و « نيقولا مكيافللى Machiavelli »[1] ، حين كتب الأول كتابه « اليوتوبيا » وكشف فيه عن عيوب المجتمع الاقطاعى الانجليزى فى عهد الملك هنرى الثامن ،

---

(١) ولد مكيافيللى عام ١٤٦٩ فى أسرة معدمة كانت من أعيان فلورنسا فحصل على منصب فى عاصمة الولاية عندما بلغ التاسعة والعشرين . ثم برع فى الكتابة ، وتهيأت له كدبلوماسى فرصة ملاحظة الناس ورصد سلوك الحكومات أثناء عمله ، واتسمت تقاريره التى بعث بها الى حكومته فى دولة فلورنسا بالحنكة والبراعة . ولقد أزعج أسلوب مكيافيللى رؤساءه وكبراءه، وملأ الدنيا وشغل الناس، حينما أغفل اللاهوت وما وراء الطبيعة، كما أنكر الرياء والتظاهر بالتقوى . وتجرأ وكشف عن أجهزة داخلية متصارعة من أجل السلطة ، ظلت خافية وراء حكومة الولاية .

بينما كتب الثانى كتابه « الامير The Prince » الذى يعبر خـــير تعبير عن فلسفة السياسة فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر.

ولقد كان « توماس مور » و « نيقولا مكيافيللى فى الفكر السياسى ، وكأنهما فرسا رهان ، فلقد عاش كلاهما فى عصر النهضة ، وكان كلاهما على طرفى نقيض ، فاذا ما اعتبرنا « توماس مور » هو السياسى الداهية الطيب ، فان « مكيافيللى » هو الداهية الشرير .

فالاول « تقى ورع » وهو فيلسوف فاضل طوباوى المذهب ، إنسانى النزعة Humanitarian ، والثانى داهية دهيـــاء ، وفيلسوف سياسى واقعى المنهج ، لا أخلاقى النزعة ، كثيراً ما يلتمس منه القادة ، ورجال الدولة ، شيئاً من النصح لما له من منزلة وحظـوة واعجـاب . وكان مكيافيللى فى « علم السياسـة » يؤلف ويصنف ، كما أبدع كثيراً فيما ألف وصنف، فكتب كتابين خالدين هما « الامير» و « المحاورات » . وفقد منصبه فى عام ١٥١٢ فى حكومة فلورنسا عنـدما عادت أسرة مديتشس Midicis إلى الحكم ، فكرس عمره للكتابة ، وله مؤلفاته فى الشعر والرسائل والتمثيليات والتاريخ . أما كتاب « المحاورات » فهو تعليق على الاجزاء العشرة من كتـاب « ليفى » « تاريخ روما » . ويعتبر كتـاب « الامير » المقتطف من المحاورات ، رسالة شاملة جامعة ومانعة ، رفعها مكيافللى إلى أحد الامـــراء الشبان من أسرة مديتشس فى محاولة يائسة لاسترضائها . ومن ســـوء الحظ أن مكيافيللى فقد كسب على مر السنين الكراهية ، والسمعة السيئة ، حين استخدم وليم شكسبير Shakespeare شخصيته كنموذج للجشع والطمع والمكر وانعدام الضمير ، حتى بات اسمه كسياسى داهية ، فأصبح عند أغلب الناس ينم عن الخبث والدهاء.

السير توماس مور Sir Thomas Moore

كتب « مور » كتابه الأشهر « اليوتوبيا utopia » أو « المدينة الفاضلة » في وتخيل فيها دولة مثالية ، فاضلة وخيرة . وكان « مور » فيلسوفاً وعالماً ، ومن رجال الفكر الديني ، وسياسياً محنكاً ، يذكرنا بالكاردينال ريشليو Richelieu ودوره السياسي في فرنسا .

ولقد درس « توماس مور » القانون ، وواجه الكثير من الصعوبات والمشكلات القائمة في مجتمعه ، وكشف عن أوجه القصور والفساد ، وانتشار النفاق الاجتماعي فحاول أن يهرب من واقعه الاجتماعي الممض ، إلى واقع مثالي تخيله « مور » وحلم به ، حين يتحقق الخير الاسمى بسيف العدالة ، مع تطبيق القانون ، إستناداً إلى مبادىء الرحمة والانسانية . وكان مور رجلا نبيلا وشجاعا ، لايخشى في الحق لومة لائم ، فلقي مصرعه ، شهيداً لمبادئه وفلسفته ، لأنه لم يستطع أن يوفق بين مبادئه المثالية ، ورغبات مليكه ، وإرادته الصلبة ، وسلطته القاهرة .

ولقد اشتهر « توماس مور » في التاريخ السياسي الانجليزي ، حينما أصر الملك على طلاق زوجته « كاترين » ، وكانت تنتسب إلى أسرة « أراجون » العريقة التي كانت تحكم عرش أسبانيا في ذلك الوقت . وشاءت شهوات الملك الانجليزي الذي كتب عنه « شكسبير » ، أن يطلق زوجته رغم أنف الكنيسة الكاثوليكية ، ليتزوج ابنة الشعب الفتاة الجميلة « آن لوبين » .

---

(١) ولد توماس مور في لندن عام ١٤٧٨ ، ثم حاول أن يخدم الكنيسة الكاثوليكية فدرس الدين ليكون أحد قساوستها ، الا أنه فضل أن يدرس « القانون » بدلا من « الدين » . وتدرج في وظائف الدولة حتى تولى أعلى المناصب السياسية ، فأصبح وكيلا لندن ، ثم تقلد منصب « قاضي قضاة » انجلترا . وهو الفيلسوف الشهير الذي أثار غضب الملك هنري الثامن ، حين عارض منح العرش منحة كان قد غالى في طلبها الملك .

ورفض «توماس مور» واستقال من منصبه كقاضي لقضاة انجلترا، وضرب المثل الأعلى في الشجاعة وانكار الذات . فوجه إليه الملك الطاغية تهمة الخيانة ، نظراً لتحدي الملك ، وادانته للاسف الحكمة الانجليزية ، واعدم «مور» وفصلت رأسه عام ١٥٣٥ ، لكي تظهر من بعده فلسفات سياسية لا أخلاقية صدرت مع كتابات مكيافيللي في ايطاليا ، وتوماس هوبز Thomas Hobbes في انجلترا(١) .

وإذا ما ألقينا ضوءاً على التاريخ الاجتماعي ، للجو السياسي الذي عاشه «توماس مور»، لوجدنا أن سوء الادارة كانت سبباً في وجود المتاعب الاقتصادية، كما كان الشعب الانجليزي يعاني من استبداد الطبقة الحاكمة ، ومن فساد الأمراء والنبلاء .

فكان «مور» يعتبر «الدوق» أو «النبيل» من الكائنات الطفيلية غير المنتجة حين يعيش الأمراء ، على عرق الأجراء ، كما كانت تحيط بالنبلاء طائفة غير منتجة من الحاشية وهي طبقة الانتهازيين، أو هم الرجال الخاوون Hollow Men كما يسميهم «اليوت Eliot» ، وهي طبقة سلبية لم تحترف مهنة ، ولا تعرف كيف تكسب عيشها . كما انتشرت في عصر «مور» وتعددت «البطالة» و «المظالم» ، وتفشى الفقر والفاقة والانظلام ، حين أحال كثير من النبلاء مزارعهم إلى مراعي للماشية ، وطرد الأمراء سائر الأجراء من أراضيهم ، حيث يساق الأجير ، إما إلى البطالة

---

(١) اشتهر عصر توماس هوبز ، بالحروب والمشاحنات والصراعات ، وشهد «تطاير رأس» اعدام الملك شارل الاول « ستيوارت » بعد النضال السياسي بين البرلمان والملك وبين البروتستانت والكاثوليك ، حتى ظن البعض أن كتاب « التنين Leviathan » قد قدم بمناسبة نصر جيش كرومويل، وانتصار الجمهورية في مقاعد البرلمان بعد حرب أهلية بين الملكيين والجمهوريين ، فتحقق النصر للجمهورية ، التي انهارت بعد قليل .

والضياع ، وإما إلى السجن بتهمة التشرد ، رغم أن هؤلاء الأجراء ، لم يتصفوا يوما بالتمرد والثورة ، بل كان يسعدهم أن يقدموا أنفسهم وخدماتهم بأبخس الاجور ، لو تيسر لهم العمل .

ولقد اقترح « مور » فى دولته الطوباوية ، رفض الاسراف الفاضح ، فقد كان يكره الافراط فى الترف والسرف والطعام ، كما رفض « مور » أن يسعى الاجراء نحو الانحلال وبعثرة ما كسبوه بعرقهم من دراهم فى دور القمار وأماكن الميسر وحوانيت الخمر والدعارة ، أى أن دعوة « مور » كانت دعوة « اقتصادية وخلقية » لترشيد الانفاق فى أفراح وأتراح الاثرياء والاجراء .

ولقد سخر « ميكافيللى Machiavelli » من مثالية « توماس مور » ومن « استراتيجية الحرب » التى تنادى بها « يوتوبيا الاتقياء » الذين يعارضون فكرة الحرب ، فيستأجرون جيرانهم ، وغيرهم من سائر المرتزقة للقيام بالدفاع والقتال، نيابة عن أهل المدينة الفاضلة .

نيقولا ميكافيلى Nicola Machiavelli :

حاول ميكافيللى فى كتابه « الأمير » ، أن يبين ماينبغى أن يكون عليه مسلك الامير السياسى أزاء رعيته ، وموقفه من أصدقائه وأعدائه من سائر الملوك

---

(١) كان ميكافيللى ، ينتمى الى أسرة بورجوازية صغيرة ، واشتغل سكرتيراً فى حكومة الجمهورية الفلورنسية ، ولقد أتاح له هذا المنصب أن يترك بلده فلورنسا ، بل والى أن يسافر خارج ايطاليا نفسها ، الامر الذى بفضله برع « ميكافيللى » فى الشئون السياسية والدبلوماسية، ولقد زار ميكافيللى فرنسا فى عهد لويس الثانى عشر فى مهمة رسمية، كما زار ألمانيا ، وأعجب بثراء مدنها وروح أهلها العسكرية ، وبهره هذا الامر، فطالب فى بلده بتكوين حرس فلورنسى، أو جيش وطنى يحمى تجارة ومصلحة فلورنسا العليا ، حتى لا تقع تحت رحمة العصابات والمرتزقة .

والأمراء ، حيث يعيش الأمير ، فى جو من « المخاطر السياسية » من الداخل والمخاوف الخارجية من الدول ، والامارات. ومن ثم ينبغى على الأمير ألا يكون « طيب النية » على الدوام ، وانما ينبغى أن يطرح « القيم الاخلاقية » جانباً وفق ما تقتضيه الضرورة[1].

وفى هذا الصدد يقول « موريس دوفرجيه » حين يميز بين الفلسفة السياسية عند أرسطو ويقارنها بموقف ميكافيللى فى اللا أخلاقية السياسية ، وفى هذا الصدد يقول دوفرجيه[2] :

« لقد ابتكر أرسطو العنصر الأول فى علم السياسية ، وهو استعمال منهج الملاحظة ، كما ابتكر ميكافيللى العنصر الثانى ، وهو المنهج الموضوعى المتجرد من الاهتمامات الخلقية » .

واستناداً إلى هذا المعنى ، حاول ميكافيللى فى كتاباته بصدد مبادىء وقواعد السياسة، أن يستقل تماما، بعلم السياسة ويفصله عن علم الأخلاق، كما كانت الامبراطورية الرومانية هى مثله الأعلى ؛ فاتجه ميكافيللى نحو التاريخ ؛ ونظر إلى المنهج التاريخى المقارن ؛ على أنه المنهج الوحيد والجوهرى فى ميدان البحث السياسى الحديث .

وفى هذا الصدد أيضاً — ذهب ميكافيللى، الىأنه ما دام الشر من طبيعة البشر، ومن خصال الانسان ، فان « السلطة » التى تقيه «واقب هذا الشر ، هى بالنسبة اليه خير قائم بذاته.فالدولة تحمى الانسان من الشرور والاضرار. ولذلك يجب أن تستقل الدولة عن الاخلاقية،ومن ثم لاتخضع السلطة لقواعد الخير والشر ،ولكن

---

(١) سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسى ، الكتاب الثالث : ترجمة الدكتور راشد البراوى ، دار المعارف ١٩٧١ ، صفحات ٤٦٥ ـ ٤٩٢ .

(2) Duverger, Maurice, Introduction to the Social Sciences., trans. by Malcolm Anderson, London. 1964.

السلطة إنما تخضع فقط للقواعد الموضوعية ، تلك القواعد التى تفرضها متطلبات وجود الدولة أو السلطة ، ، حيث تتعارض القواعد الموضوعية للسلطة ، مع تلك القيم والفضائل الفردية التى يتعارف عليها الناس.

وعلم السياسة هو « علم السلطة » الذى هو علم القواعد الموضوعية ، التى تكفل البقاء للدولة ، وللسلطة إرادتها التى تفرض نفسها . فتحاول أن تبقى أبداً قواعدها الفاضلة ، وتنجح فيما تهدف إليه .

ومن هنا يدرس ميكافيللى السلطة والدولة والنظام ، على أنها جميعاً ظواهر سياسية قائمة بذاتها ، ويقول صاحب «الأمير Prince » ، أنه من المرغوب فيه ، أن يتحلى الامير بالفضائل ، فيكون كريما محسنا ، قوى الارادة ، شجاعا ومقداما ، وفيا بالعهد . وهنا يقرر ميكافيللى أيضاً ، أنه من الضرورى أن يكون الامير حر النزعة ، دون أن يؤدى ذلك إلى كسب قلة من الناس . كما يتحتم على الامير أن يعرف كيف يستعمل « الرهبة » ، كما ينبغى عليه أن يكون شديداً وقاسياً ، لان «الرحمة خور فى الطبيعة» ، كما قد تؤدى الرحمة إلى الاضطراب والفوضى ، ولا تفرض السلطة إلا بالقوة والبطش ، وتستطيع القسوة أن تقيم النظام وتحقق الوحدة ، وغالباً ما تقضى على الفوضى ، وبالتالى فان القسوة ، قد تكون فى صالح الجماعة ، والرحمة فى غير صالحها .

فالناس يحبون الامير ، إذا قام بتدبير مصالحهم ؛ وبالتالى فان حبهم أو كراهيتهم ، هى أمور متغيرة طبقاً لتحقيق مصالح الناس أو عدم تحقيقها . ولذلك يجب أن يكون الامير مهاب الجانب ، ويجب أن يخشى بأسه ، على أن يكون كريماً محبوباً ، حيث أن استناد الامير إلى « محبة الرعية » ، إنما يعتمد فى سلطانه على ارادة غيره ، بينما تتوقف إقامة الامير لسياسته على خشية الرعية على إرادة الامير ، ومن ثم فان خشية الرعية هى خير للامير وابقى ، حيث أن ارادة

الأمير هي مصدر السلطة ومبعث القوة ، كما أن مخافة جانبه إنما لاتتغير ، إذ هي قائمة ودائمة بدوام مخافة العقاب الذي يصبه الأمير بلا رحمة على أعدائه .

الغاية تبرر الوسيلة :

وفى السياسة الخارجية ، ينبغي على الامير أن يجمع فى تصرفاته بين أساليب الانسان ، وفضائل الحيوان . حين ينبغي أن يكون ثعلباً وأسداً فى آن واحد . فمن طريق المكر والذكاء يستطيع أن يتبين الشباك التى تنصب له ومن حوله ، ولذلك يستخدم الامير الشجاعة أحياناً والمكر فى أغلب الاحايين .

وفيما يتعلق بالوعود والتعهدات التى يعطيها الامير ، ويأخذ بها على نفسه ، ينبغي أن يكون ثعلباً فلا يراعى الضمير ، وان كان من شأن مراعاة الضمير الاضرار به ، حيث أن الشرور تنتشر بين الناس ، فلا يرعون وعدهم مع الامير ومن ثم يكون الامير أيضاً فى حل من الاخلاق الفاضلة . وعلى الامير أن ينجح فى « تحقيق الغايات مهما كانت الوسائل » فالغاية تبرر الوسيلة ، فى سبيل المحافظة على الدولة .

وبهذه السياسة اللا أخلاقية ، حاول ميكافيللى أن يوحد ويحرر وطنه ايطاليا من السيطرة الاجنبية ؛ وتلك هى الغاية الكبرى التى يهدف إليها ميكافيللى من وراء دولة قوية ؛ وجيش وطنى دائم ، وبذلك فصل ميكافيللى فصلا تاما بين الاخلاق والسياسة ، كما جرد فلسفة الحكم السياسى من قواعد الاخلاق ، حين يجعل السلطة قائمة على فضيلة سياسية هى « فضيلة الخداع والكذب » وبذلك كانت كتابات ميكافيللى ومبادئه وأخلاقياته سجلا حافلا ، يفيد عالم الاجتماع السياسى بالذات ؛ حين يحاول أن يتعرف على مختلف الانماط ومختلف الاساليب السياسية التى انتشرت فى عصر مكيافللى .

مبادىء الامير واهدافه السياسية :

ولعل أهم المبادىء التى توصلت اليها النزعة الميكافيلية فى العلوم السياسية ، مبدأ الاعتماد على موافقة تأييد الجماهير ؛ وعلى الرغم من امكان وراثة الامير للسلطة ، أو حتى إغتصابها حين يظفر بها ويفوز ، إما باستخدام القوة ، أو عن طريق عراقة الدم ، والاصل النبيل ، إلا أن الشرط الجوهرى هو ضرورة تأييد غالبية الشعب .

ومن مبادىء المكيافيلية ، مبدأ الترابط والتماسك فى التنظيم ، حتى يضمن الأمير استمرار حيوية وبقاء الدولة ، عن طريق التمسك بمبدأ الوحـــدة ، والسيطرة الحازمة على الأصدقاء ، ومراقبتهم فى حرص وحذر ، ثم استخدامهم لمصلحته الشخصية ، كما وينصح الأمـــير أن يعيش فى الاقليم الذى يغزوه ، حتى يستطيع أن « يمارس الرقابة الحازمة على من يغزوهم » .

وبصدد مبدأ القيادة ، ذهب مكيافيللى ، إلى ضرورة تدريب الامـــير على كيفية ممارسة واكتساب السلطة ، إلا أن الشرط الجوهرى ، هو توافر الخصائص الذاتية والخصال الشخصية التى ينبغى أن يتميز بها القائد ، وقد يفشل الامير رغم ما تلقاه من دربه وزيادة فى الخبرة ، نظراً لنقصان الخصال اللازمة للامير كقائد أو كسياسى حازم ، يصدر القرارات الرشيدة ، ويرفع الروح المعنوية بين مواطنيه فى زمن الحرب والسلم ؛ وتقديم المنح والمكافآت التشجيعية للفرسان والشجعان ، ولكل من يرفع من شأن المدينة أو الولاية . كما يجب أن يكون « الامير » حكيماً بصيراً بالاجواء من حوله وبسير الاحداث ، كما أن يكون أيضاً خبيراً بنفوس البشر ، قادراً على الاستفادة منها لمصلحته ، بشرط ألا يتكاسل أو يتخاذل ، وإنما ينبغى على الامير أن يتعلم كيف يصدر القرار عندما تسنح الفرصة ، وتسمح الظروف المواتية . ومن ثم يصبح الامير قادراً على تنسم مهب الريح ، ويدرك

إتجاهات الزمن، فيتهيأ لها،فلا يصدر قراره عند ما تأتى الرياح، أو تشتهى السفن.

ويجب أن يكون الامير ذكيا يميز بين النبلاء، ويعرف من يخلص له، ويولى الصالح منهم، طبقاً لدرجة ولائه للامير. فالرغبة فى البقاء، واستمرار الدولة، والحياة السياسية، هى غاية الامير وهدفه الاول. ولذلك ينبغى أن يكون الامير كالرومان، يقظاً، جسوراً، مستعداً لمواجهة الاضطرابات، وان يتخذ التدابير القاسية، ليقضى على كل تمرد فى مهده، ويغفل مبادىء الاخلاق والفضيلة، فيخون الامانة، إذا اقتضت الضرورة، فالغاية تبرر الوسيلة.

ويذكرنا موقف مكيافيللى بالنسبة للامير، بموقف مستشار العلاقات الانسانية، بالنسبة للمدير الذى يحرص على مركزه فلا يتخاذل، ويعنى بكل من يختلط بهم، ويصدر القرار الرشيد، الذى يتمشى مع وقار منصبه، فيكون محبوباً فى مؤسسته كمدير ناجح، فيصبح «قدوة صالحة» فى حب الخير، حين يعتمد على حب الناس له وتأييدهم، كذلك الحال بالنسبة لموقف الامير، وحسن إدارته للدولة، واعتماده على تأييد الناس، وتماسك التنظيم، والرغبة فى التسلط والسيطرة والبقاء. هكذا تكلم مكيافيللى مشيرا إلى أهم المبادىء التى ينبغى أن يستند إليها «الامير».

مبدأ الفصل بين الدين والدولة:

وختاماً — نقول باسم «التحديث الحضارى» Modernization وبصدد الدفاع عن موقف مكيافيللى فى فصل السياسة عن الاخلاق، فنحن نؤيد هذا الزعم، وهذا لا يتعارض إطلاقا مع الدين والقيم والمبادىء، على اعتبار أن رجل «المبادىء» والقيم، هو رجل أخلاق بحسبه وليس بالضرورة هو السياسى المحنك، لسبب بسيط جداً، وهو خلط «الامير» على نحو خاطىء، حين يمزج دون تمايز بين مسلكه السياسى، وهو أمر «دنيوى» بحت، ومسلكه الدينى والاخلاقى، وهو أمر لا يتصل

بشهوات الحكم والسلطان ؛ كما يمكن أن يكون « الامير » « طيباً » أو « متديناً » أو « أخلاقيا » فى حياته الشخصية أو الخاصة ، وهذا لا يتعارض اطلاقا مع سلوكه كرجل دولة ، لانه فى مجال السياسة ، إنما يسلك على نحو خاص ومميز فى كل موقف من مواقف السياسة ، فهى مواقف موضوعية بحتة ولا ترتبط اطلاقا من قريب أو بعيد بجوانب قيمية أو ذاتية subjective ، لان السياسة أمر « عام » و « جمعى collective » و « نافع utilitarian » و « ضرورى » ووضعى positive » . أما السلوك الذاتى ، فهو أمر « فردى individual » و « خاص » و « شخصى Personal » كما أن رجل « المبادىء » و « القيم » و « الدين » ، إذا ماطبق مثل هذه الاساليب الشخصية والاخلاقية فى ميدان العلاقات السياسية والدولية ، فلسوف يخطىء بالقطع ، لانه يطبق « أساليب خاصة » فى ميادين « عامة » ، كما يخطىء « الامير » أيضا ، إذا ما تمسك بالمبادىء والاخلاقيات والقيم ، فى سلوكه السياسى ؛ نظراً لامكان التنبؤ مقدما بكل أنماط السلوك السياسى لكل صاحب « مبدأ أخلاقى » أو « مذهب دينى » نظراً لتمسكه بالمبدأ ، وتطبيقه للمذهب ؛ بما يتفق ويتطابق مع دعاوى قيمية ، ينادى بها «الامير» فيما ينبغى أن يكون عليه أمر « الدعوى » أو « المذهب » أو « العقيدة dogma » وبالتالى يكون لهذا « الامير » الاخلاقى ، أو السياسى المتدين ، أنماط سلوكه المعروفة مقدماً . لذلك يؤيد « علم السياسة » مبدأ « فصل السياسة عن الاخلاق » فلادين للسياسة ولا أخلاق ، وهناك تمايز واضح بالقطع بين «عالم الروح » و « عالم الشهوات » ، فلنفصل إذن بين أمرين ، يتعلق أولهما بشئون الحياة « الدنيا » ؛ والثانى يتعلق بشئون الحياة الاخرى .

ونحن لا نجهل عالم الروح وقلعه الدين وقداسته ، ما للسه فى شئون الدنيا ورغبات الناس الحسية ، فهناك المصالح وهى متغيرة ، وهناك ما ينفع الناس

وهو أمر نسبى Relative ، ومن هنا يجد «رجل السياسة» أن هناك وسائل وغايات ، ومشكلات وحلول ، ولا شك أن القرار السياسى ، إنما يحتاج بالضرورة إلى من يقتنع تماما ، بما يحيط القرار ، فهناك «ظروف وخيارات» يختار منها «الأمير» ، على حد زعم مكيافللى أنسب الوسائل والحلول والخيارات .

أما «المبادىء الخلقية» و «القيم الدينية» فهى دائمة وأبدية ومطلقة absolute ، ولذلك تتغير مواقف السياسى الداهية أو «الأمير المحنك» ، طبقاً لتغير «المصلحة الوطنية» أو نسبية منافع وخيرات الناس . الأمر الذى يذكرنا فوراً بكلمة «ونستون تشرشل Churchill» المشهورة ، حينما اتهمه «هتلر Hitler» بالتعاون مع شيوعية «ستالين Stalin» فصرخ فى البرلمان الانجليزى وصاح بأعلى صوته : «إننى مستعد أن أتعاون مع الشيطان فى سبيل مصلحة بريطانيا العظمى» فالمتغيرات الدولية ، وظروف الزمان التاريخى ، والمصلحة الوطنية ، كلها شروط ضرورية تتحكم فى اصدار القرار السياسى الرشيد.

وبصدد مبدأ الفصل بين الدين والدولة ، أشار الرئيس محمد أنور السادات ، وبكلمات قليلة وبليغة ، بقوله فى مجلس الشعب المصرى ، «لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة» . فكل منها ينفصل عن الآخر تماما كما ينفصل «عالم الروح» عن «عالم الشهوات» ، ولسوف نشير إلى هذا المعنى ، فى الفصول القليلة القادمة وبخاصة عندما نعالج «مبدأ عبادة البطل» ، وإلى ضرورة «تسييس علم الاجتماع» لأن هذا أمر يفرضه «طابع العصر» ومتغيراته ، كما يأخذ به منهج العلم الوضعى ويؤيده «التحديث الحضارى Modernization» .

توماس هوبز Thomas Hobbes :

إذا كان أرسطو ، يذهب إلى أن المجتمع هو ظاهرة طبيعية ، وأن الدولة تنشأ وتنمو كنبات طبيعى «فليس المجتمع بالظاهرة الطبيعية» ، هكذا قال لنـــا

« توماس هوبز » ، وإنما تختلف المجتمعات عنده ، باختلاف الزمان والمكان ، حيث تتمايز النظم السياسية ، فالقانون أمر نسبي Relative ، ولا يصلح الدستور الواحد لكل النظم والدول والشعوب . ومن الحقائق التي توصلنا إليها منذ ألفي سنة « أن الانسان حيوان سياسي Zoon Politikon » حيث يكتسب الفرد من المجتمع كل الصفات والخصائص الانسانية ، ونظراً لوجود التمايز السياسي بين المجتمعات ، فهناك شرط ضروري وجوهري ، يتوافر في كل تنظيم سياسي ، هو شرط التوازن Equilibrium ، وهو شرط يضبط كل أجزاء التنظيم ، ويبقى على نظم التبيعية والسلطة ، إستناداً إلى مبادىء وشروط التعاون والتضامن والتوازن .

وهوبز Hobbes فيلسوف سياسي من أنصار الحكم المطلق ، فلسف لنا الطغيان في كتابه « التنين Leviathan » ، وهو حيوان بحري هائل ، يمثله هوبز بالدولة وهو رمز الشر ، ولعل السبب في وجود هذا الحيوان الهائل هو ذكاء الانسان وأساليبه الملتوية ، فصدرت الدولة لتهذيبه وتاديبه ، وتربيته واعداده ، لأن الانسان شرير بطبعه ، وهو أناني ونفعي ، ويدمر كل شيء من أجل مصلحته ، ولذلك نصحنا هوبز بقوله : « تذأب قبل أن تأكلك الذئاب » ، فالانسان ذئب لأخيه الانسان ، وكانما يقول ، وبأسلوب نفعي جشع « أنا وحدي وبعدي الطوفان » ، « وكل شيء لي ، ولو كان ذلك على حساب الخلية أو الجماعة » ، تلك هي نفعية الانسان الفرد .

هذا هو منطق هوبز السياسي ، ونزعته اللاأخلاقية النفعية ، فهو حسي النزعة يؤمن باكتساب المعارف وصدور المدركات عن التجربة ، وشانه في ذلك شان معظم الحسيين في مدارس الفكر الفلسفي .

ولقد كان هوبز يؤكد الحكم الملكي المطلق ، وأن الملكية هي أكثر أنواع الحكومات استقراراً وانتظاماً ، فكتب هوبز مقالة عن الطبيعة الانسانية

Human Nature ونشرها «فرديناند تونيز Tonnies » تحت عنوان «أسس القانون الطبيعي والسياسي» Elements of Law, Natural and Politic »
ويؤكد « المؤرخ الاجتماعي » كلارندون أن مبادىء مذهب « هوبز » الشريرة ، كانت لا تتفق مع تصورية «آل ستيوارت» في مفهوم الشرعية السياسية ، وأن « هوبز » قد وضع كتاب « التنين » تملقا للثائر الانجليزى « كرومويل »[1].
ويؤكد « جورج سباين »[2] أن هذا غير صحيح ، إلا أن فلسفة « هوبز » لم تكن ذات دعاية طيبة ، لأنه كان مادياً وعلمياً ، يدعم السيادة المطلقة ، وبنزعته المادية العلمية أصبح كما يقول فيه جاليليو : «صنع علماً جديداً من موضوع قديم» واستناداً إلى منطق القوة تقوم الفلسفة السياسية عند « هوبز » ، لأن القوة هي ميل عام لدى البشر ، وهي رغبة لا تهدأ ولا تتوقف إلا بالموت . ولا يحـــترم « هوبز » العهود والمعاهدات ، فالعهود بغير السيف ليست سوى ألفاظ ، إذا لم تكن القوة القادرة على القمع . ولاشك أن فلسفة « هوبز » السياسية ، قد صدرت عن استمرار الحروب الاهلية الانجليزية ، تلك الظروف الاجتماعية القاهرة ، التي تحتاج إلى « القوة » و « الضبط » ، حتى يستتب الأمن والاستقرار ، بعد الفوضى والبوهيمية والمنفعة والانانية ، حين كانت حياة الانسان الانجليزى على حد قوله: «مقفرة ، عقيمة ، كريهة ، بهيمية وقصيرة[3]».

(١) كرومويل : هو صاحب الثورة المشهورة ضد الملكية الانجليزية ، وأقام الحكم الجمهوري ، إلا أنه أخفق في ارساء قواعد الحكم السياسي في بناء جمهورية انجليزية ، وهو صاحب القول المشهور « تسعة مواطنين من أصل عشرة يكرهونني ، وما أهمية ذلك ؟ إذا كان العاشر وحده مسلحاً » .

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٦٢٩ .

(٣) أنظر في هذا الصدد : دوقرجيه ، موريس : في الدكتاتورية ، ترجمة الدكتور هشام متولي ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٦ .

إلا أننا لا نؤيد «هوبز» ، ولا نؤيد الدكتاتورية ولو كانت مستنيرة ، لأن الدكتاتورية تؤدى حتما إلى الطغيان ، وموقف الطاغية يماثل تماما «.. ذلك الذى يجتث الشجرة ليتناول ما عليها من ثمار» هكذا قال لنا «مونتسكيو Montesquieu» فى «روح القوانين». (١)

مونتسكيو Montesquieu وروح القوانين :

هو أول فيلسوف ، ربط بين « مبدأ القانون » ، « مبدأ الطبيعة » فى فلسفته الاجتماعية والسياسية ، والتى نشرها فى « روح القوانين L'esprit des lois » ، فأعلن إمكان تطبيق « القانون الطبيعى » فى دراسة المجتمعات ، عن طريق نقل التعميمات generalizations من مجال ظواهر الطبيعة إلى مجال ظواهر المجتمع ، فأصبح المجتمع طبقاً لهذه النظرة ، نسقاً من الانساق الطبيعية Natural System وهو ما أكده أيضاً الفيلسوف الاخلاقى الانجليزى «دافيد هيوم David Hume» بمعنى أن القانون الاجتماعى ، إنما يحكم ظواهر المجتمع وأنماط السلوك الانسانى تماما كما يحكم القانون الطبيعى ظواهر الوجود الطبيعى .

فالقانون له وظيفته فى المجتمع كقاعدة أو كمعيار للسلوك البشرى لأن القانون وسيلة من وسائل الضبط Control ، بل هو أحد ميكانيزمات الضبط الاجتماعى يقف إلى جانب الدين religion ، والالزام السياسى والاخلاقى ، وسائر الجزاءات

---

(١) سباين جورج ، تطور الفكر السياسى ، الكتاب الثالث ، ترجمة الدكتور راشد البراوى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ ص ٦٢٠.

(٢) هو مفكر سياسى ، ولد عام ١٦٨٩ فى أسرة فرنسية نبيلة ، ودرس القانون فى « بوردو » ، حتى أصبح مستشارا ثم رئيسا لبرلمان بوردو ، بينما كان فى السابعة والعشرين من عمره ، وكان يميل الى العزلة والبحث ، فذاع صيته كفيلسوف وعالم ، وكمفكر سياسى ، واشتهر أيضا بين الناس ، ككاتب وأديب .

الاجتماعية social sanctions التي تفرض على كل من يخدش القيم الشائعة والعامة ولاشك أن القيم نفسها ، ما هى إلا إحدى من ضوابط السلوك البشرى .

والبيئة الطبيعية رد فعلها الواضح وأثرها فى تشكيل وصياغة « نوع القوانين السائدة فى المجتمع ، لأن ظروف البيئة الصحراوية أو الزراعية أو الجبلية ، إنما تفرض نفسها فى تحديد الروح العامة l'esprit général للامة ، وبالتالى أثرها على تفكير المشرع فى تطبيق « روح القوانين » ، حين تصدر نصوص القانون وتنبعث من الروح العامة للامة وأسلوب حياتها الذى تفرضه ظروف البيئة الطبيعية، وأنماط الثقافة السائدة .

ولما كان ذلك كذلك ، فقد أعلن مونتسكيو ، مبدأ النسبية Relativity فى دراسة القوانين الاجتماعية ، وتمايزها طبقا لتنوع البيئات والثقافات ، ولقد ساهم مونتسكيو أيضا ، حين ساعد على وضع البذور الوضعية Positivism فى الفكر السياسى ، فحول الاذهان على حد تعبيره هو نفسه ، نحو التفكير « فيما هو كائن » وأدار ظهره لما ينبغى أن يكون ، طبقا لما تمليه عبارته التى أطلقهــا فى كتابه « روح القوانين[1] » وهى العبارة القائلة : On dit ce qui est et non pas ce que doit etre.

وإلى جانب « النسبية » . « والوضعية » أكد مونتسكيو فى فلسفته السياسية ، على مبدأ قانونى ، وأصل ديموقراطى ، اشتهر به وحده ، هو مبدأ « فصل السلطات

---

(١) كتب « مونتسكيو » كتابه « روح القوانين » الذى ذاع وانتشر حتى أعيد طبعه مرات تزيد على العشرين طبعة، ولقد عرض مونتسكيو فى كتابه هذا القوانين الطبيعية والقوانين الوضعية ، كما أشار الى الحكومات والنظم الديموقراطية والملكية والجمهورية ولما كان مونتسكيو من أعداء الظلم والاستبداد ، عالج فى موضوعاته مسألة « العدالة » كما فصل تماما بين سائر السلطات والمؤسسات السياسية والدستورية.

الدستورية » ؛ وهى السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ،حتى تتحقق العدالة السياسية والاجتماعية، بالفصل بين « قوى forces » أو «سلطات » لكى لا تستبد أى منها، فتستولى على السلطة برمتها ، ولقد اعترف « مونتسكيو » أن الصيغة التى وضعها لمبدأ فصل السلطات قد أخذها عن روح الدستور الانجليزى ، عندما زار مونتسكيو انجلترا.

وحطم مبدأ فصل السلطات ، طغيان السلطة المطلقة ، وهو مبدأ تقدمى ووضعى ، يستنكر كل المبادىء الاوتوقراطيةوالنظم الاقطاعية المستبدة ، ولذلك حطم مونتسكيو كل المبادىء الرجعية المستندة إلى الملكية المقدسة divine Kingship التى تعتمد فى حكمها وسلطانها على الحق الالهى للملوك.وبصدد الفصل بين قوى السلطات، يقول مونتسكيو إن السلطة إنما تمنع سلطة أخرى من أن تستبد، ولا توقف القوة سوى القوة Le Pouvoir arrete le Pouvoir .

ومع مبدأ فصل السلطات ، انتهت التصورية الاقطاعية ، لثقافة العصور الوسطى ، لكى يبدأ عصر الاستنارة enlightenment ، حيث مهد مونتسكيو لحركة التحرير الكبرى بفضل كتابات « فولتير Voltaire » ، « جان جاك روسو Rousseau » ، كما مهدت مجهودات مونتسكيو الرائدة لظهور الفلسفة البيروقراطية التى يمثلها « تورجو Turgot » ، وصدور كتابات كوندورسيه Condorcet وأثرها فى دفع دينامية الفكر فى فلسفات التاريخ ، ولا شك أن مونتسكيو قد ساهم أيضاً فى تشكيل الفكر الوضعى عند « كونت » ، وصدور دروسه المشهورة فى الفلسفة الوضعية Cours de Philosophie Positive .

الفصل الثانى

• قواعد المنهج فى علم الاجتماع السياسى

* تمهيد
* التفكير السياسى والفلسفة الوضعية
* السياسة الوضعية
* الديناميكا الاجتماعية
* مونتسكيو والقانون الاول للاستاتيكا الاجتماعية First law of social statics
* التوافق والتضامن والنظام
* الاسرة والدولة والجنس
* علم السياسة والمنهج الفينومينولوجى

تمهيد :

تنظر مبادىء « الفلسفة الوضعية Philorophie Positive » عند واضعها « أوجست كونت Auguste Ccmte » إلى الظواهر السياسية على أنها أكثر وأشد الظواهر الاجتماعية تعقدا وتركيبا ، حيث أن الظاهرة السياسية على العموم، هي أكثر تعقدا من الظاهرة الدينية أو الخلقية أو حتى التشريعية . ولما كان علم الاجتماع عند كونت هو أعقد العلوم ، استنادا إلى تطور نشأة مناهج وفلسفات العلوم ؛ من الرياضة إلى الفلك إلى الطبيعة ، ثم الكيمياء فالبيولوجيا ، ثم أخيرا علم الاجتماع . إلا أن علم السياسة ، هو علم حديث نسبياً ، وهو أحدث من علم الاجتماع ، ومن حيث نشأته العلمية ؛ صدر علم السياسة منذ قرن أو يزيد الزمان، وبخاصة بعد صدور الاتجاهات العلمية والنزعات الوضعية (1) .

التفكير السياسي والفلسفة الوضعية :

وإذا ماقلنا منذ البداية ، إن علم السياسة ، هو أعقد العلوم ، فما ذلك ، إلا لأن العلم السياسي ، إنما يعتمد مع ميادين أخرى غير سياسية ، فالظاهرة السياسية، لا يمكن دراستها إلا من خلال هذا التركيب الاجتماعي الهائل المؤلف من الظواهر الدينية والأخلاقية والاقتصادية . حيث يعتمد على السياسة ؛ على علوم القانون والدين والاقتصاد ، كما يستند أيضا الى علوم النفس والاجتماع حين يعتمد التنظيم السياسي ؛ على أسس أخلاقية وسيكولوجية ، كما يقوم البناء السياسي على أصول وقواعد اقتصادية وسوسيولوجية .

ويتفق مؤرخو العلم السياسي ، على أن اليونان هم آباؤه ورواده الاوائل ـ لحضارة اليونان ، هي مبعث الفكر السياسي ، إذ أنها أم الحضارات الأوروبية ،

(1) Comte, Auguste , Principes de Philosophie Positive, Paris 1868.

كما أننا نستطيع أن نقول فى عبارة يسيرة « نحن أبناء اليونان »... فلقد صدرت شتى الأنظار والفكر من فلسفات أصدرتها حضارة اليونان ، إذ أنها إبنة حضارات الشرق الأدنى القديم . فلقد أشار « سقراط » الى ضرورة إقامة الدولة على شروط جوهرية تؤسس الحياة الأخلاقية الفاضلة .

ويعتبر أرسطو هو الفليسوف السياسى أو « المعلم الأول » ، الذى احال علم السياسة من مستوى « المحاورة » ، كى يرتقى به إلى « مستوى المحاضرة » ، وانتقل بالفكر السياسى ، من المنهج القياسى الافلاطونى ، إلى استخدام المنهج الاستقرائى وتطبيقه بصدد التفكير العلمى فى مجال التنظيم السياسى . ولذلك تعتبر الكتابات الارسطية السياسية هى أولى الكتابات العلمية .

فلقد تساءلت فلاسفة اليونان عن مفهوم « العدالة » والمساواة ، وعن خصائص المدينة الفاضلة ، وملامح القانون الحق ، والشروط التى يجب أن تتوافر فى الحاكم الصالح والانسان الحر السعيد .

وتلك هى المسائل الجوهرية التى تدور رحاها حول « محور الفكر الفلسفى السياسى اليونانى » ، وهى قضايا علمية ، تعبر عن نزعة الفكر الانسانى فى تحقيق أسلم النظم السياسيه ، وفى تحديد أنماط السلوك السياسى الحق ، حيث يتطلع الفكر السياسى أصلا ، إلى العدالة والحرية والمساواة والسعادة وتحقيق السلام على الأرض .

وتلك كانت محاولة فلاسفة السياسة الاوائل ، ثم تطورت النظرية السياسية ، طوال العصور التى مرت بها فى القرون الوسطى ، وبخاصة عند « سانت أوغسطين Saint Augustin » ، الذى حاول أن يحقق « مدينة الله » على الأرض ، إلا أنها محاولة طوباوية الأصل ، وتحاول تحقيق « ماينبغى أن يكون » ــ

السياسة الوضعية Politique Positive :

ثم صدرت « السياسة الوضعية » لكى تؤكد « الغيرية » وترفض « الانانية »

بالعيش للاخرين Vivre Pour l'antrui [1] كما أن دراسة الأمر الواقع ، هي الدراسة الحقة . ولا يمكن أن نستعيض بالأمر الواجب، بدلا من مجرد الا كتفاء بالامر الواقع، فاهتمت الوضعية السياسية بما يقع ويحدث ، ولم تلتفت إلى «ما يجب» وبذلك يتخلى « علم الاجتماع السياسي» ، عن فكرة « الضمير الفردي» كمصدر تستند إليه الأخلاق أو كمركز للحياة الخلقية Le Foyer d'une vie M rale [2] ؛ حيث تتركز في المجتمع السياسي كل السلطة الخلقية ، كما تصدر عن «الضمير الجماعي » سائر المثل الأخلاقية الجمية ، تلك التي تحقق « مملكة الله » على الأرض .

مصادر السياسة الوضعية ومبادئها :

ولقد حاول « كونت » منذ بداية كتابه الضخم « دروس في الفلسفة الوضعية Course de Philosophie Positive » أن «يعلم الفلسفة » وأن يفلسف العلم» مما جعل الفلسفة الوضعية التي أعلنها كونت « فلسفة متعالية » ولذلك سميت هذه النزعة الاجتماعية الأولى في تحويل مسائل الفلسفة ، وتفسيرها من زاوية «العلم» باسم « السايتنزم Scientism » ، إذ أن كونت قد انتزع منزعا علمياً حين طبق مناهج العلم الوضعي عن ظواهر المجتمع ، فأصبح « متعالماً في موقفه » لأنه طبق منهج العلم في غير ميدانه وموضوعه . كما أن كونت وسائر الوضعيين ، إنما يحاولون إخضاع ظواهر الفكر العليا ، ودراستها تحت محك التجارب ، والتجارب هنا كما يزعم أصحاب النزعة الوضعية في علم الاجتماع ، هي «التجارب الاجتماعية» التي يحملها تيار التاريخ .

---

(1) Comte, Auguste., Pensées et Préceptes, recueillis Par Georges Deherme, Paris 1924. p. 223.

(2) Durkheim, Emile., Sociolog e et Philosophie, press univers. de France Paris. 1963, p. 127.

ومما لا شك أن الصلة وثيقة بين الفلسفة وعلم الاجتماع ، فالفلسفة هى الدراسة المظمة للمعرفة الانسانية ، ويبحث علم الاجتماع عن « المعرفة الكلية » للانسان من خلال ظروفه الاجتماعية ومظاهرها الخاصة والعامة .

وليس من شك أيضاً ، فى أن الغرض الذى من أجله ظهر علم الاجتماع وصدر ، إنما هو دراسة الانسان ونظمه ، بمعنى أن «علة وجوده Rsison d'etre وصدوره » هى بحث مضامين تلك القضية الأرسطية القائلة « إن الانسان حيوان إجتماعى » بمعنى أن الانسان لم يكن كما هو عليه من الانسانية ، إلا بفضل مشاركته فى المجتمع السياسى ومساهمته فى تيار الحياة الاجتماعية ، أو على حد تعبير « إميل دوركايم » فى كتابه الضخم « الصور الأولية للحياة الدينية » حين يقول فى عبارة مشهورة :

« إننا نتكلم لغة لم نصطنعها ونستخدم آلات وأدوات لم نخترعها ، ونقنن ونفرض حقوقاً لم ننظمها . إنه هو المجتمع الذى ندين له ، بمختلف خيرات الحضارة . تلك الخيرات التى منحت للانسان سماته العامة التى تميزه عن سائر الكائنات والمخلوقات . إذ أن الانسان إنما هو إنسان ، من حيث فقط أنه كائن متحضر »(١) .

من هذه العبارة الدوركايمية الرائعة ، يتضح لنا تلك الصلة الوثيقة التى تربط الانسان بالمجتمع ، بل والتى تضفى على الانسان إنسانيته ، إذ أننا لو جردنا الانسان من لغته ودينه ومعتقداته وأزيائه ، فلسوف لا نراه إنساناً ، وإنما نتصوره وحشاً من وحوش الغاب ، حيث أن المجتمع هو العلة الأولية فى تحويل الانسان من حيث هو « كائن بيولوجى » أو كائن عضوى حيوانى ، إلى الانسان ككائن مثقف أو ككائن متدين ومتكلم ومتحضر . فالمجتمع هو علة الثقافة ،

(1) Durkheim, Emile., Les Formes Eléméntaire de la vie Religiesse. Félix Alcan. Paris. 1912.

ومصدر الدين ، ومهبط اللغة ومبعث الحضارة .

وتحاول مبادىء الفلسفة الوضعية أن تدرس المجتمع فى حالته الاستاتيكية الثابتة ، وأن تكتشف قوانين تلك الحالة الاستقرارية ، عن طريق فهم المجتمع أو دراسته كمجموعة من « الانساق » أو « الظاهرات » أو « العلاقات » تلك التى تتصف جميعها بالثبات والديمومة والبقاء ؛ ولا يفوتنا فى الوقت عينه ؛ أن نتوصل إلى تلك القوانين الديناميكية بدراسة المجتمع فى حالته التغيرية ، وما يطرأ على بنائه من سمات تطورية وظواهر تقدمية(١).

وبكلمات أكثر دقة تقول إننا فيما يتعلق بالاستاتيكا الاجتماعية ، إنما نلتفت إلى دراسة « البنـــاء الاجتماعى Social Structure » ، وكل ما يتصل به من جوانب « فيزيقية » أو « ظواهر إستاتيكية » ، يمكن أن ننظر إليها على أنها « وظائف ثابتة » ، وشروط ضرورية لوجود المجتمع .

الديناميكا الاجتماعية :

ولكننا فيما يتعلق بدراسة الديناميكا الاجتماعية ، إنما لا ندرس البناء الاستاتيكى الثابت للمجتمع ، وإنما نلتفت فقط إلى دراسة ما يسمى فى الكتابات السوسيولوجية « بالتغير الاجتماعى Social Change » ، وكل ما يتصل بهذا التغير ، من جوانب « تقدمية » أو « ظواهر تطورية » ، بفضلها نكتشف ونتوصل إلى تلك القوانين الديناميكية التى تحدد لنا حتمية التطور ، والتى ترسم الشروط الضرورية لتغير المجتمع ، وتلك هى الغاية التى يهدف إليها علم الاجتماع الديناميكى ، على إعتبار أن علم الاجتماع الوضعى عند كونت ، لا يقف عند حد الوصف الاستاتيكى ، وإنما يخطو إلى الأمام ، بحركة تقدمية ، بقصد

---

(1) Timasheff, Nicholas., Sociological Theory, Its Nature and Growth, Random, New York, 1955. pp. 22-26.

تغير المجتمع . وإذا ما استعرنا لغة « كارل ماركس » ، فنقول : ليس المهم أن نقف عند حد فهم المجتمع ، وإنما المهم هو تغييره أو تطويره ، ومن هنا يتضح لعلم الاجتماع الوضعى أهدافه التقدمية ومبادئه التطورية التى تنادى بصيحة الحرب على كل ما هو بال عتيق ، من أجل تطوير الانسان وتغيير المجتمع نحو حياة أفضل . إلا أن « ماركس » يتكلم عن التغيير الدموى بالطفرة ، أما « كونت » فيتكلم عن التغير الديناميكى كعملية نمو مستمرة ودائمة .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن « أوجيست كنت » هو الرائد الكلاسيكى الأول الذى عالج مشكلات « النظــام » و « التضامن Solidarité » فى ضوء نظريته فى علم الاجتماع الاستاتيكى استناداً إلى دراساته المتعمقة فى عــلوم البيولوجيا والتشريح . كما أشار إلى مسائل « التطور Evolution » و « التقدم فى ضوء نظريته فى علم الاجتماع الديناميكى ، استناداً الى انشغاله الدائب الدائم بحركة التاريخ التطورية ، وإيمانه العميق بتلك القوانين الصارمة التى يضعها منطق التاريخ ، وهكذا جمع أوجيست كونت ، فيما يتعلق بدراساته الديناميكيــة والاستاتيكية ، بين موقف عالم الاجتماع الوضعى من جهة ، وموقف فيلسوف من فلاسفة التاريخ من جهة أخرى .

إلا أننا إذا ما عدنا قليلا إلى الوراء ، حتى نحفر طويلا فى أعماق الفكر السوسيولوجى ، كى نعثر على تلك الأصول الأولية التى عنها صدر كتابات كونت نفسه فى ميدان الاستاتيكا والديناميكا . فمنذ منتصف القرن الثامن عشر وضع الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى « مونتسكيو Montesquieu » وضع لنا ما نسميه « بنظرية النسق الاجتماعى الكلى » ، حين يفسر « مونتسكيو » معالم الحياة الاجتماعية ، وما يدور فيها من نظم تتعلق بالسياسة والاقتصاد ، والدين ، تفسيراً وظيفياً ، ويردها جميعاً إلى ما يسميه « مونتسكيو » وما اشتهر عنه

باسم « الروح العامة L'saprit Général » ، تلك الروح التى تشيع فى المجتمع ؛ والتى تربط بين شتى العلاقات الاجتماعية(١).

مونتسكيو والقانون الاول للاستاتيكا الاجتماعية :

ويميز « مونتسكيو » بين طبيعة المجتمع nature of society » ، من جهة وبين « مبدأ المجتمع principle of society » من جهة أخرى ؛ ويعنى مونتسكيو بطبيعة المجتمع ، أو يقصد بهذه الطبيعة الخاصة بالمجتمع ، بأنها هى « ما يجعل المجتمع يبدو على ما هو عليه » . أما عن مبدأ المجتمع ، فيعبر عنه مونتسكيو بأنه « ما يجعل ذلك المجتمع يعمل » أى أن طبيعته إنما هى « بناؤه الاجتماعى » ؛ أما مبدأ المجتمع ؛ فانما يعبر عن مجموع القيم Values التى تتفاعل وتتوظف فى هذا البناء .

ويذهب « رادكليف براون Radcliffe - Brown » ، إلى أن نظرية النسق الاجتماعى الكلى ؛ عند « مونتسكيو » هى التى وضعت الركيزة الأساسية التى يرتكز إليها « علم الاجتماع المقارن Comparative Sociology » كما يرى رادكليف براون أيضاً ، أن نظرية مونتسكيو ، بالاضافة الى ذلك . قد وضعت الأسس النظرية لما يسميه « أوجيست كونت » بالقانون الأول للاستاتيكا الاجتماعية the First Law of Social Statics ، ويتعلق هذا القانون الاستاتيكى ، بتلك الارتباطات الداخلية للنظم الاجتماعية فى علاقاتها المتساندة ، تلك التى تحدد ما يسميه رادكليف براون ؛ بشكل أو هيئة أو « صورة الحياة الاجتماعية Form of Social Life » ، أو ما يسميه كونت أيضاً « بعلاقات

---

(1) Radeliffe-Browu A.R., Structure and Function in Primtive Society, Cohen and West, London 1956. P. 6.

التضامن Relations of solidarity»(1) .

تلك العلاقات التي تترابط ترابطاً وظيفياً ، فيذهب كونت إلى أن الوقائع الاجتماعية ، إنما تنقسم إلى مجموعات سياسية واقتصادية ودينية وخلقية ، وتقيم فيما بينها علاقات وظيفية Functional Relations معينة ، وأن أي تغير يطرأ على احدى هذه المجموعات ، إنما يسبب تغيراً مماثلا في المجموعات الأخرى ، أي أن هناك نوعا من «التناظر أو التساند» والاعتماد المتبادل بين مجموعات الوقائع الاجتماعية .

التوافق والتضامن والنظام :

ولاشك أن النظام الاستاتيكي الكلي للمجتمع ، إنما يرجع من وجهة نظر « كونت » إلى تلك النظم التي تفرضها القوانين الطبيعية ، فالتوافق Consensus هو الخاصية الأساسية ، والرابطة الضرورية لكل عناصر ونظم المجتمع .

والتوافق هو أساس « التضامن Solidarité » . على إعتبار أن التضامن الاجتماعي ، هو الركيزة التي يرتكز إليها « تقسيم العمل الاجتماعي » . ومن ثم فان المجتمع يماثل الكائن العضوي إلى حد كبير ، من حيث البناء والوظيفة ، فهناك توافقاً وانساقا في البناء ، كما يجد « تضامناً » في الوظائف ، تتعاون لمصلحة البناء العضوي ، الذي هو البناء الكلي .

وفي ضوء هذا المعنى ، يستخدم كونت فكرة المماثلة analogy العضوية ، على الرغم من أنه ينكر بشدة النظر إلى المجتمع على أنه كائن بيولوجي عضوي إذ أن هناك فارقا أساسياً بين المجتمع والكائن العضوي ، ذلك الذي يحتفظ بهويته دون أن يتغير بناؤه العضوي ، فالخنزير لا يمكن أن يستحيل إلى فرس بحر بحال ، بينما نجد أن المجتمعات قادرة على التغيير والتطور طبقاً لاستخدام مناهج العلوم

(1) Ibid : P. 5.

الطبيعية ، وفقاً لمبادىء علم الاجتماع الوضعي .

ويعتبر مبدأ تقسيم العمل الاجتماعي من المبادىء الجوهرية للفلسفة الوضعية(١) ويعتبر ذلك المبدأ هو السبب الرئيسي لنمو وتعقد المجتمع ، وهو علة التطور التاريخي وأصل التغير الاجتماعي. ولذلك ينبه كونت الأذهان نحو ضرورة دراسة « التضامن » حين عبر عن هذا الاتجاه بقولته الأخلاقية المشهورة « العيش للاخرين » . ومن ثم فان التوافق » و « التضامن » وأفكارنا عن « الوظيفة » و البناء الاجتماعي » إنما تعتبر جميعها من الأجزاء الجوهرية التي ينشغل بها علم الاجتماعي الاستاتيكي .

والفرد والأسرة والرابطة الاجتماعية ، هي عناصر متجانسة Homogeneous في خلايا وأنسجة البناء الاجتماعي . حيث نلحظ بينها مدى الدوام والرتابة في الوظائف والمناشط الاجتماعية ، وهناك روابط اجتماعيـة ، جوهرية تربط الفرد بالأسرة ، ولا يمكن دراسة كل منها منعزلاً عن الآخر .

والأسرة هي الخلية الأولى في البناء الاستاتيكي للمجتمع ، ولها درجة معينة من الوحدة ، كما أن لها شخصية أخلاقية تجعلها تختلف من حيث السمات والملامح عن سائر الوحدات الاجتماعية الأخرى . فتقوم الاسرة على التناغم والتعاطف Sympathy ، كما تنشأ عن الروابط الاجتماعية بين سائر الأسر ما نسميه بالطبقات الاجتماعية ، على اعتبار أن الاشكال المورفولوجية للاسرة ، إنما تتضخم وتتغير وتتمايز ، من الصورة القروية إلى الصورة القبلية . ومن ثم تتغير البناءات الاسرية من القرية إلى القبيلة ومن القبيلة إلى المدينة ، وكلها أشكال مورفولوجية لبناءات استاتيكية تستند إلى التوافق والتضامن .

---

(1) Comte, Auguste., Principes de Philosophie Positire, Paris 1868.

الاسرة والدولة والجنس :

يدرس علم الاجتماع الديناميكى ظواهر التغير والتطور evolution والتقدم progress ، فالديناميكا الاجتماعية عند كونت يمكن إعتبارها دراسة التاريخ دون النظر إلى أسماء «الأبطال» ، إذ أن مهمة علم الاجتماع الديناميكى هي إكتشاف قوانين التغير الحضارى للمجتمع الانسانى .

والتطور الاجتماعى هو دوام التقدم كمبدأ يسود العالم الطبيعى ، مبتدئاً بعالم النبات ، حين تستمر سلسلة التطور الاجتماعى ، وتتصل بتلك المجاميع العضوية الكبرى ، وتطورت الطبيعة الانسانية إستناداً إلى قانون التطور الاجتماعى القائم على مبدأ بيولوجى ، وهو «مبدأ الهدم والبناء» .

حيث ردد كونت — فيما يتعلق بفكرة التطور الاجتماعى — بعض الأفكار الرئيسية التى أعلنها «سان سيمون» ، ومنها أن العداء المستحكم يظهر بوضوح بين الجديد والقديم ، وبين عوامل الهدم والبناء ؛ وعناصر التدهور والتماسك ؛ فهناك حفظ وتغير ، وصيانة وتدهور .

وهناك بعض المراحل التى أكدها كونت ، وتعبر لنا عن تطور «الذكاء» و «الحياة المادية» كما تظهر تغير أشكال الوحدات الاجتماعية ، وتعقد نماذج النظم الاجتماعية ، فمن ناحية الذكاء الانسانى ، فقد تطور أصلا من اللاهوت إلى الميتافيزيقا إلى الحال الوضعى .

ومن حيث تطور الحياة المادية ، فقد ظهرت الحالة الحربية العسكرية ثم الحالة القانونية التشريعية Legal ؛ وأخيراً الحالة الصناعية industrial ، ولقد تغيرت أيضاً أشكال الروابط والعواطف الانسانية ، من حالة التعلق attachement ، إلى حالة الإحترام والتوقير Vénération ، إلى حب الانسانية وفعل الخير . أما عن أشكال الوحدات الاجتماعية ، فقد تطورت من الاسرة

Famille ، إلى الدولة L'etat إلى الجنس Race . أما من ناحية تقدم أشكال النظم الاجتماعية ، فقد تحولت من العائلية domestique إلى الحالة الجمعية collective ، إلى الحالة العالمية univrsel (١) .

ولكن ماذا يدرس علم الاجتماع السياسي ؟

يدرس علم الاجتماع السياسي ، ظواهر المجتمع التي تتصل بالقيادة والسلطة والسيادة ، ويرصد طبيعة الأنساق الاقتصادية والثقافية ويتابع ، التجارب السياسية ، وردود فعلها بين سائر النظم الاجتماعية السائدة ، في البناء الاجتماعي Social Structure ، ويعالج مشكلات ، التنمية ، و ، التخلف ، Underdevelopment ، والتخطيط Planning والتحديث Modernization وكلها قضايا العصر التي يثيرها علم الاجتماع السياسي ، مع تقديم كافة الحلول الناجمة عن مشكلات الانسان وما يعانيه من ظروف وضعية قاهرة .

والظاهرة السياسية ، هي اعقد الظواهر الاجتماعية ، لأن ماهو سياسي ، لاينفصل بالقطع عن الظروف الراهنة ، والواقع الاقتصادي ، ومطالب الوضع الحالي، ومتغيرات العصر السياسية، وأصول البيئة الطبيعية ، والأوضاع الاقتصادية، والتشريع القانوني والديني، بالاضافة الى سيادة المكانة Rank والعرف ، كما هو معروف في المجتمعات القروية في سائر الثقافات المتخلفة .

صعوبات المنهج في علم الاجتماع السياسي :

إن الصعوبات التي يواجهها علم الاجتماع السياسي ليست أخطر بكثير من من تلك التي يواجهها علم الاجتماع نفسه ، بل وسائر الانسانيات Humanities

(1) Comte, Auguste, Discours sur L'esprit Positif, société, positiviste Internationale, Paris. 1923

التى تتصل بفروع علم الاجتماع والسياسة ، فهناك نظريات سوسيولوجية وسياسية وليست هناك نظرية لعلم الاجتماع أو لعلم السياسة .

وعلى الرغم من فيض التحليلات والتجارب والتفاسير ،فما زال الحقل بكراً، ومازال علم السياسة يحبو نحو ظروف أكثر وضعية وأغزر واقعية .

ومن هنا يبدأ علم السياسة استناداً إلى قاعدة أمبيريقية وعلمية صلبة ، نظراً لوجود الأبعاد التاريخية historical dimensions الكامنة فى الظواهر السياسية.

وقدهبطأول درس فى علم السياسة، مع مبادىء، روح القوانين، لمونتيسكيو Montesquieu حين أعلن على العكس من كل الفلاسفة السياسيين من قبله ضرورة الاشارة الى ما هو كائن ، وليس التمسك بأحلام ماينبغى أن يكون ، بمعنى أن علم السياسة ، هو الذى هبط بالفلسفة السياسية من السماء إلى الأرض فاذا بها حية تسعى ، حين تنبض الفلسفة بالحياة ، وتدب فى أوصال الواقع الموضوعى .

وبصددموضوعية علم السياسة كعلم وضعى ، نستطيع أن نقول إن علم السياسة إنه ليس هو العلم الوحيد الذى يقاس من « هاجس الموضوعية Objectivity» على حد تعبير « جان مينو » (١) . على إعتبار أن « علم إجتماع المعرفة Sociology of Knowledge » إنما يبين لنا أن من العبث الايمان سلفاً بحياد الباحث ، فالباحث إنسان ، له طبقته ومجتمعه ومثله العليا ومعتقداته التى قد تتدخل كلها أو بعضها فى أحكامه وإنتقاء وقائعه السياسية .

ولقد إمتاز علماء السياسية الأمريكان ببذل جهودهم للبحث عن الوقائع Facts إلى حد الايمان بمذهب متطرف يعتمد على الوقائع Hyper factualism أو حتى

---

(١) جان مينو : مدخل إلى علم السياسة ، ترجمة جورج يونس منشورات عويدات الطبعة الأولى بيروت نيسان (ابريل) ١٩٦٧ .

عن نزعة مذهبية مصغرة Miniaturisme وهناك خطأ إنزلق إليه كل علماء السياسة، وهو أمر معرض للانتقاد، وهو الحرص على ألا تتخطى الموضوعية العلمية حدودها الحتمية، والمطالبة بأن يكون للعالم حق الادلاء بأحكام قيمية أو تقييمية Value Judgements (١) فلا يمكن أن يتحول علم السياسة إلى علم للأخلاق، فلا أخلاق للسياسة ولا دين.

السلوك السياسى :

يقول معاوية ابن أبى سفيان، وهو من دهاة الساسة الاسلاميين، فى عبارة مشهورة تعبر أصدق تعبير عن طبيعة السلوك السياسى حين صرح بقوله : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما إنقطعت، لو شدوها أرخيتها، ولو أرخوها شددتها ». بمعنى أن السلوك السياسى له قواعده قواعده بمجاله وشروطه، وعلاماته ومتغيراته.

ويدور السلوك السياسى حول « فكرة » أو « قيمة » أو « مثل أعلى »، وهناك شروط ضرورية ينبغى أن تتوافر فى السلوك السياسى، منها أن كل سلوك سياسى، إنما يتضمن فى ذاته طريقة إقناع، وأسلوب قيادة وحكم، لأن السياسة كفن هى « فن اجتذاب الناس لكى يتعاملوا معنا ».

وهناك أنماط متمايزة للسلوك السياسى كالنمط القيادى فى الأنساق القرابية Kinship systems، مثل سلوك « رب الأسرة » أو « رأس العشيرة » أو « شيخ القبيلة » فى المجتمعات التقليدية أو المتخلفة، وفى بيئات بدائية « بدوية » أو صحراوية.

حين يظهر « رئيس القبيلة » أو « عمدة القرية » أو « محافظ المدينة » أو حتى

(1) Durkheim Emile., Sociology and Philosophy, trans. P.F. Pocock. London: 1953.

« ربان السفينة »[1] ، ويمارس كل هؤلاء ألوان من الحكم والسلطة السياسية ، ويسلكون إزاء الناس أنماطاً من السلوك القيادى ، ولا شك أن السلوك السياسى ، هو سلوك قيادى وجماعى من الدرجة الأولى ، لأن السياسى هو الذى يتعامل مع الآخرين ، ويحل مشكلاتهم ، ويعمل على خدمتهم ، ويعانى آلامهم و « سيد القوم خادمهم » على ما يقول الحديث الشريف ، ولقد صدق رسول الله فى هذه الكلمات السياسية الرائعة .

ويخضع السلوك السياسى لقيم وميكانيزمات للضبط ، لأنه « سلوك فوقانى » ينظم سلوك الانسان الفرد ، حين ينتمى إلى « حزب » أو « تجمع مهنى ، أوحرفى أو ينتسب إلى « طبقة » أو « نادى » أو « جماعة دينية » .

ويأخذ السلوك السياسى أشكالا اجتماعية مختلفة ، فقد يكون سلوكاً دبلوماسياً على مستوى الدولة ، أو سلوكاً إدارياً أو تنظيمياً ، تنظمه وتفرضه الحكومة كجهاز بيروقراطى ، مجمول لادارة شئون الدولة ، وقد يتحقق السلوك السياسى ؛ فى قالب إقتصادى ، حين تخطط الدولة برنامجاً اجتماعياً جديداً للاوعية الضريبية ، أو حين تتجه نحو تكوين « أوعية إدخارية » من أجل زيادة الاستثمار .

ويرصد خبراء السياسة ، ظواهر السلوك السياسى بتسجيل مايحدث داخل وخارج حدود الدول ، مع وصف مايجرى خلال الأجهزة والمؤسسات السياسية بمعنى أن ظواهر السلوك السياسى ، هى ظواهر داخلية **internal** وأخرى خارجية **external** .

ويتحقق السلوك السياسى ، فى السلوك الانتخابى ، والتمثيل البرلمانى النسبي ويسجل الباحث فى علم السياسة ، سائر الأحداث والوقائع **Facts** السياسية الكبرى .

---

(١) يسهر ربان السفينة على راحة أعوانه ، ويسلك معهم سلوكاً خاصاً ، ويضبط أنواء البحر وتياراته ، فهو رب الاسرة ، واليه تتجه العيون ، وعليه تقوم المسئولية ، وهذا هو « السلوك القيادى » الذى يعانى مشكلات الكل ويحاول حلها .

فلاشك أن عملية « تأميم » لشركة أو مؤسسة إنما هى عملية أو « حدث سياسى » من الدرجة الأولى.فلقد كانت عملية تأميم شركة قناة السويس ، بمثابة ضربة سياسية من طراز ذكى حين إمتازت بالحركةو الفاعلية والسرعة ، وهى كحركة نجدها قد تمت فى توقيت مناسب مما جعلها حركة ناجحة . وهذه هى سمات كل « قرار سياسى رشيد » ، وقد يجنح السلوك السياسى إلى العنف والاستبداد ، فهناك الفاشيست وغيرهم من النازيين والاستبداديين Tough minded ، وهناك الطابع السياسى المحافظ ، أو الديموقراطى المعتدل Tender minded ولاشك أن عبارة « أنا الدولة L'état C'est moi » التى أطلقها لويس الرابع عشر ملك فرنسا الطاغية، إنما تعبر لنا فى بساطة عن سلوكه السياسى الأوتوقراطى المستبد ، وكيف كان يسوس أمور وطنه فرنسا ، فقد كان يتخذ القرار السياسى بنفسه ، دون الرجوع إلى استشارة مستشار أو ، مجلس الشورى ، فهو وحده « صاحب الآمر والنهى » .

قواعد المنهج فى علم الاجتماع السياسى :

تتمثل أول خطوة من خطوات المنهج فى علم الاجتماع السياسى ، فى جمع المعطيات donnés ولا شك أن اختيار المعطيات ، إنما يتأثر بوجهة نظر الباحث وبنوع موضوعه، ونمط الفكر ، كما يتأثر منهج الباحث وأسلوبه المنطقى ، بنظرته العامة للوجود.

وتسهم عملية جمع المعطيات وطريقة اختيارها فى التوصل إلى الحقيقة ، وذلك بفضل الملاحظة العلمية الدقيقة ، ومن هنا تكتمل العناصر السياسية ، طبقاً للمنهج العلمى وتطبيق القواعد الامبيريقية فى ميدان علم الاجتماع السياسى(١).

وتتحقق الموضوعية فى علم الاجتماع السياسى ، إستناداً إلى توافر شروط ، منها الاختبار الامبيريقى والاصل العقلانى ، أى بالرجوع إلى الاستقراء والقياس

---

(١) دكتور محمد طه بدوى ، المنهج فى علم السياسة ، مطبوعات كلية التجارة بالاسكندرية ١٩٧٩ .

في الاختبار والاستنباط، ويمكننا في ضوء عمليات الاستنباط induction والاستقراء deduction ، أن نحاول التوصل إلى مبدأ التعميم generalization بشرط أن تعتمد المعرفة على الجمع بين ما هو حسي Sensual وعقلي intellectual . ولاشك أن الأصل العقلاني ، هو في ذاته أداة منطقية للاختبار والتعميم ، وهذا هو بالضبط ما يسمى بالاختبارية المنطقية empirisme logique .

والملاحظة L'observation مبدأ حسي من مبادىء علم الاجتماع السياسي ، بشرط ألا ترتبط الملاحظة بأفكار قبلية مسبقة A Priori ؛ يكون لها ردفعلها على توجيه الباحث السياسي ، بل أن يكون البحث السياسي مجرداً عن النزعات الذاتية ، ولا توجهه سوى فروض hypothesis ثم دراسة الوقائع Facts وتجارب والظروف السياسية في ضوء مناهج الاستقراء والاستنباط وعقد المقارنات الجزئية والكلية. وذلك للتمييز بين المقارنات المتقاربة Comparaisons Proches والمقارنات المتباعدة éloignés ، (1) وذلك في ضوء نظرية البناء Structure والوظيفة Function والعملية Process وقد تستخدم مثل هذه المناهج البنائية والامبيريقية المقارنة للقيام بإجراءات التصنيف Clessification والتفسير، وإيجاد علاقات توافق أو إرتباط correlation .

ويستخدم الباحث في علم الاجتماع السياسي ، «مبدأ التحليل الوظيفي والبنائي» كما يستند إلى فكرة النسق السياسي political System حين يعتمد على التوازن والتوافق والتكامل، على اعتبار أن النسق إنما يتوازن لوجود قوى Forces تتصارع في كل بناء سياسي ديناميكي، الأمر الذي يفرض علينا بالطبع دراسة التكامل من

---

(1) Duverger, Maurice., Méthodes des Sciences Sociales, Paris. 1964.

خلال « منظور القوة وإتصال القوة » ، وهذه هي وجهة النظر السائدة في هذه الأيام، بين أقطاب الرأى العام السياسى .

فالسلطة كما يقول Burdeau في كتابه « منهج في العلم السياسي Méthode de Science Politique » ، إنما تتألف من عنصرين قوة مادية Force من جهة ، وفكرة idée أو غاية ، من جهة أخرى ؛ بمعنى أن السلطة هي « قوة مادية في خدمة غايات إجتماعية، أو أفكار أو مبادىء » ، وكلها قوى ومحركات توجه مجالات النسق السياسى .

المجال السياسى وتوازن القوى :

يمكننا أن نقول إن كل مجال سياسى ، وهو مجال جمعى collective دون شك، وتتعدد فيه القوى Forces التى قد تتدافع إلى درجة الصراع العنيف ، فتتغير خريطة المجال السياسى وقواه ، نظراً الظروف الجديدة التى تخلفت عن « صراع القوى » التى صدرت ونشأت وانتصرت ، ثم تبدلت المتغيرات Variables التى كانت قائمة من قبل . وإذا كان « التغير » بطيئاً وبسيطاً سرعان ماتتوازن القوى الجديدة وتتفاعل . وليس المجال السياسى استاتيكياً بل هو مجال ديناميكى متحرك الأمر الذى يفرض ضرورة وجود عملية « التفاعل interaction » المستمرة فى كل مجال سياسى حتى تتوازن القوى ومايتصل بها من ظروف ومتغيرات وفى حالات الثورات والحروب « يحدث التغير السريع والمفاجىء والجذرى » نظراً لصدور الصراعات العنيفة التى تقلب الأشياء والتصورات والقيم رأساً على عقب .

وقد يسقط جهاز الدولة القديمة أولا لكى يتحكم الجديد ويسود بكل قواه وطاقاته المستندة إلى أسس جماهيرية وقواعد شعبية وسرعان مايتكيف المجال السياسى الجديد مع القديم ، وهنا تكون الخصوبة والحيوية والتقدم نحو تنمية سياسية جديدة ، أدت إلى تطوير إقتصادى هائل وتغير اجتماعى جذرى .

ولاشك أن « الحالة الثورية » إنما تؤثر تأثيراً بالغاً على صورة المجال السياسى

Form of political field وتحواه ؛ الأمر الذى يفرض الحاجة الفورية والضرورية الى « التوازن بعد كل ثورة مظفرة ، وهذا أمر قد تفتقر إليه الآن ثورة إيران التى مازالت فى مسيس الحاجة الى حالة من التوازن equilibrium فى المجال السياسى داخل أو خارج إيران نفسها .

وبصدد نظرية المجال السيكولوجى psychological field ، وتأثير الأنماط الدكتاتورية والديموقراطية على طبيعة الأجواء السائدة فى كل مجال ، صدرت دراسات « كورت ليفين Kurt Lewin » و « ليبت Lepitt » وهوايت White . وقاموا بتكوين مجموعات من أطفال المدارس فى سن الحادية عشرة وتخضع كل مجموعة لجو ديموقراطى أو ديكتاتورى أو فوضوى ،على التوالى .مع المراقبة الشديدة للجماعات والملاحظة العلمية الدقيقة لسلوك الأطفال ،ثبت وجود التمايز الواضح فى السلوك بين كل المجموعات تحت تأثير هذه الأجواء المتمايزة .

ولقد ساهمت تجارب « كورت ليفين » وأعوانه فى نظرية المجال السياسى ، وبخاصة فى دراسة أثر « الأجواء الاجتماعية » على روح الجماعات ، وردود فعلها على أنماط الشخصية . وذلك بعد القيام بالعديد من الدراسات النظرية والحقلية ، فى صور السلوك العدوانى وأسبابه الجماعية ، وباستخدام منهج العزل التجريبى لمختلف جماعات العمل (١).

ومايعنينا من كل ذلك ، هو أن هناك « قوى ومتغيرات » تتحكم وتسود فى كل مجال سياسى . وإذا ماقمنا بتحليل هذه القوى السائدة لوجدنا أن هناك ثلاثة أنماط من القوى أولها قوة الدولة ، وهى قوة أخلاقية قاهرة ، وتلك هى« السلطة السياسية »، وهناك قوى أخرى مثل سيادة أو قوة القانون ، وهى سيادة تختلف

---

(١) الدكتور قبارى محمد اسماعيل علم الاجتماع الصناعى ومشكلات الادارة ، منشأة المعارف ١٩٨٠ ص ٣٩٨ .

تماماً عن « سيادة الدولة » كقوة أو سيادة سياسية ، لأن سيادة القانون قد تضعف أو تزول فى كل دولة أوتوقراطية مستبدة. بينما تقوى « سيادة القانون » وتحتل فى الدولة الديموقراطية أعلى مكانة ، وهذا واضح فى كثير من الدول الكبرى النامية سياسياً ، حيث يحكم القانون ويسود كميزان العدل يحقق المساواة بين الناس . وهذه هي سيادة ديموقراطية خلاقة تبرز شعوبها ، وتنمي وعيها ، وتحقق آمالها » .

وقد تسود « المكانة » فى مجتمعات أخرى حين ترتبط المكانة بالعصبية والقبلية وقد ترتبط المكانة بالمال وسيطرة رأس المال على الحكم ، ويظهر ذلك ويتحقق فى النوع الثالث من القوة power وهو «قوة التسلط والنفوذ »، مثل سيادة العرف فى المجتمعات البدوية والصحراوية وسيادة قوى واتجاهات الرأى العام ، وبخاصة فى سائر الحكومات والدول الرأسمالية حين تسود وتتحكم الديموقراطية ولاشك أن سيادة الدولة ، إنما تحمل فى طياتها سائر القوى الكامنة فيها ، سواء أ كانت قوى سياسية ، أو قوى تشريعية، تتعلق بسيادة القانون ، أو قوى التسلط والنفوذ مثل استخدام رأس المال، والأجهزة الديموقراطية وسيطرة اتجاهات الرأى العام السياسى.

ويذهب « جان مينو » الى أن الاتجاه السائد الآن فى علم السياسة ، هو الأخذ بالنزعة الموضوعية Objectivisation ، باستخدام التكنولوجيا الحديثة وأدوات البحث العلمى ، وأجهزة الأعلام والاعلان وسائر برامج الاتصال communication المعروفة لاستخدامها فى التأثير على أيديولوجيات الناس ؛ والسيطرة على اتجاهات الرأى العام القوى وتقوية النفوذ السياسى .

---

(١) مينو جان ، مدخل الى علم السياسة ، ترجمة الأستاذ جورج يونس، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٧ .

علم السياسة والنهج الفينومينولوجي :

لقد نبه عالم الاجتماع الألمانى « كارل مانهايم Mannheim » الأذهان نحو تأكيد الصلة بين الفينومينولوجيا وعلم الاجتماع ، حين حاول أن يدعم شرعية قيام « علم اجتماع المعرفة sociology of knowledge » بالرجوع إلى أثر « الوجود الاجتماعى » فى تشكيل الآراء وصياغة الأفكار والتصورات .

ويذهب « كارل مانهايم » إلى أن احتكاك الوعى السياسى بغيره وانطلاقه من « الآخر » ، واتجاهه نحو الشعور ، وإدراكه أو وعيه فى علاقته بالآخرين ، فيمتلىء الشعور كقالب بعلاقات الآخرين كمضمون أو فحوى للشعور ، حين تتسلل العلاقات ، ويتسرب الآخرون ، نحو تيار الشعور ، واحداً تلو الآخر ، ومن ثم يحتوى شعور الإنسان الفرد على الآخرين واستغراقهم فيه كفحوى أو كمضمون .

وعلى هذا الأساس يؤكد مانهايم ، على شرعية قيام « علم الاجتماع الفينومينولوجى » الذى يعنى بالطبع شرعية وجود « الوعى السياسى الجماعى » كشعور كلى جارف يحمل فى تياره كل ما يتصل بمنطق أو معارف وقيم أو تراث ، أو آداب وفنون ، تتصل جميعاً بوجدان الانسان ، لا كفرد « منعزل » بل كعضو ينتمى إلى مجتمع وينخرط فى أسرة أو زمرة ، ويذهب مانهايم إلى أن هذا « الوعى السياسى الجماعى » لا يصدر إلا عن « تجربة » سياسية كلية وحية » تحدث خلال التاريخ ، ويكون لها رد فعلها فى وجدان المجتمع ككل ، حين يطرأ التغير والتحول على بنيته برمتها .

واستناداً إلى شرعية قيام الوعى الجماعى ، يؤكد مانهايم على ضرورة دراسة علم النفس الفينومينولوجى ، والتاريخ الفينومينولوجى ، ومن هذه الزاوية أيضاً يمكن دراسة أبعاد الثقافة والدين والفن والقيم ، على نحو فينومينولوجى .

وهذا هو السبب الذى من أجله يحذرنا « كارل مانهايم » من أن نغالى ، أو

أن نهتم بأثر « الوضعية الاجتماعية » في الانتاج الفكري ، على اعتبار أن البحوث التجريبية وحدها هي التي تقرر أو تفرض القرار الحاسم بصدد حقيقة الصلات بين الفكر والواقع الاجتماعي .

والصلة بين الفكر والواقع عند « مانهايم » ، ليست صلة آلية تعبر عن علاقة ميكانيكية بحتة بين « العقل » و « الوجود » ، تلك التي تذكرنا بتلك العلاقة المنطقية الصارمة التي فرضتها الفلسفة القديمة كرابط بين « العلة » و « المعلول » ولكن مانهايم يعبر بوضوح عن موقفه ، فيقول ان الفكر يرتبط بالظروف والأوضاع الاجتماعية ، بمعنى أن حيوية وفاعلية الوضعية الاجتماعية ، إنما تشهد الفكر حتى لا يتوقف أو يتجمد ؛ وإنما « يتعدل ويتبدل » مع تغير وتبدل الظروف الثقافية والأوضاع التاريخية ، وليس الفكر آلياً ولا يعمل ميكانيكياً حتى يمكن التنبؤ به مقدماً ، ولكن الفكر يتجدد طبقاً لتبدل حالات المجتمع وتغير ملابساته الظرفية الوضعية .

فالصلة بين الفكر والواقع عند « مانهايم » هي صلة « انسجام » أكثر من كونها « آلية » أو « جبرية » ، فليست هناك حتمية ، بل حركة تبادلية منسجمة وحين تلتحم التصورات والأفكار بالظروف الاجتماعية ، تحدث المعرفة ، وحين يتصل الفكر بالظرفية الوضعية ، تتكون الحقائق وتتألف المعارف ، وبذلك يكون المجتمع هو مصدر المعرفة ومنابعها ، ومبعث الحقيقة ودواعيها ؛ وعلى هذا الأساس تصدر المعارف والحقائق عن الواقع الاجتماعي وعلى نحو مباشر . وهنا يقترح « مانهايم » منهجاً في خطوات ثلاث ، تتعلق الأولى بالانتاج الفكري المنسجم العناصر ، وتتصل الثانية بمقارنة هذا الانتاج الفكري المستقل المنسجم بأنواع أخرى معارضة له ، وتتمثل الخطوة الثالثة في عملية الإرجاع أو العزو ، فترد التصورات إلى مصادر اجتماعية وأصول ثقافية .

واستناداً إلى هذا المنهج إعتبر « كارل مانهايم » ، منهج الاستقصاء التجريبي، هو المنهج الوحيد لدراسة الصلة بين وضعية الحياة والانتاج العقلى . فالعوامل والعناصر الاجتماعية هى المصادر الحقيقيه لبلورة الأفكار وظهور التصورات الجديدة.ولا تؤثر العوامل الاجتماعية فقط على أشكال الفكر ونماذجه ، إنما تسمى هذه العوامل الاجتماعية نحو المحتوى والمضمون ، فتدخل فى بنية الفكر ،وبذلك تصبح الفينومينولوجيا عند مانهايم من المناهج المطلوبة فى دراسة ظواهر المجتمع • الثقافة والتاريخ .

وجملة القول ، لقد اتجه علم الاجتماع المانهايمى نحو الأخذ بمنهج الفينومينولوجيا ، واتخذ موقفاً فلسفياً متأثراً بالنزعة الفينومينولوجية عند « هوسرل Husserl » ، الذى عكف على دراسته الكثيرون من علماء الاجتماع وخاصة « ماكس شلر Max Scheler » الذى استخدم المنهج الفينومينولوجى فى ميدان علم الاجتماع[1] ، فدرس العلاقات والقوى الاجتماعية من زاوية الاتجاه الفينومينولوجى تماماً كما فعل « فيركاندت Vierkandt » حين أدخل تصنيفاً لمختلف أشكال البناءات والروابط الاجتماعية طبقاً للموقف الفينومينولوجى ، الذى هو « حدس أو إدراك مباشر للقيم » وللظواهر الموضوعية بقصد الكشف عن مكنونها الجوهرى العميق[2].

فينومينولوجيا جورفتش :

لقد تأثر « جورفتش » بكتابات علماء الاجتماع الألمان وبخاصة « فرديناند

---

(1) Gurvitch., Georges., The Twentieth Century Sociology., NeW York 1945. p. 609.

(2) Ibid p. 611.

تونيز Tonnies ، حين ميز الأخير بين نوعين من الإرادة ، عضوية من ناحية ، وفكرية من ناحية أخرى .

أما الإرادة العضوية ، فهى مصدر الطاقة ، ومبعث دوافع السلوك الفطرى، ولكن الارادة الفكرية هي الإرادة التي تنجم عن العقل والفكر ، وتوجه الدافع وتسيطر على الانفعال والأفعال،وتنظم الطاقة نحـــو أهداف تحقق التوازن بين حاجات الانسان ، من أجل مستقبل أفضل ، وإذا كانت إرادة الفكر تتجه نحو المستقبل ، فان الارادة العضوية تعبر عن الماضى وتتجه نحـو الأنا .

ولذلك كانت الارادة العضوية عند « تونيز » هى التى تخلق « الحدس » و « الوجدان » و « العبقرية » ، ومن هنا تتعارض إرادة الفكر مع الارادة العضوية . الأولى تريد التوازن بين الغاية والوسيلة ، وتتجه الثانية نحو الحياة بشحمها ولحمها ، الأولى أوجدت « المجتمع gesellschaft » والثانية خلقت « الجماعة gemeinschaft» . فى الأولى يسود التنافس والغربة واستغلال الانسان لأخيه الانسان ، وفى الثانية تسود قيم الفضيلة والاخوة وروابط الدم والجوار ، فى الاولى كبت وضغط ، وفى الثانية حرية وخلق .

ومن الجماعة صدرت الاخلاق وروابط الاخوة والصداقة ، كما عبرت عن الانفعال المتفجر من الارادة العضوية ، لان الجماعة مفهوم رومانتيكى ، وإرادة الجماعة هى إرادة الفضيلة ، أما المجتمع فيسوده التنافس والصراع و « الاغتراب alienation » وتقاس العلاقات فيه بالقيم المادية ، مما يضعف من القيمة الخلقية، ومن المدنية تنتشر الشرور وتعم ، كما ويستشرى الفساد فى المدن ، ومن المجتمع الحضرى يصدر الانحلال وتشيع الرذيلة .

وعلى غرار « كونفوشيوس Confucius » وبتأثير الفكر الشرق القديم ، عالج « تونيز » مسألة الجماعة gemeinschaft فى ضوء العلاقات الاجتماعية الخمس

المشهورة فى الفكر الصينى العتيق ، وهى عـلاقة الأب بالابن ، والاخ الأكبر بالاصغر ، والزوج بزوجته ، والصديق بصديقه ، ثم صلة الحاكم برعاياه . ومن هنا كانت صلات الجماعة عند « تونيز » هى صـلات الدم والمكان والقرابة ، والمشاركة والشعور بالصداقة والولاء .

ويذهب « رودلف هيبرل Rudolf Heberle » إلى أن نظرية « تونيز » فى علم الاجتماع ، إنمـا ترتكز إلى محاور إرتكاز ثلاثة : أولهـا ، « التحليل الفينومينولوجى » لسائر العلاقات الاجتماعية ، كالقرابة Kinship والجوار ، والصداقة ، والمقايضة Barter والعقد contract . والمحور الثانى بينهاهو البحث فى طبيعة الارادة الانسانية ومضامينها الاجتماعية social impl cations أما المحور الثالث فهو ذلك التركيب المتداخل بين مستوى التحليل الفينومينولوجى ، وبين تحليل الارادة الانسانية ، بمعنى أن المحور الثالث إنما يربط بين المستويين الاول والثانى(١).

ويتمايز شكل العلاقة الاجتماعية فى الجماعة ، عن شكلها فى المجتمع . فالاولى جماعية وتقوم على الدين والعرف والسلطة المطلقة ؛ كما يسيطر الاقتصاد على الحياة الاقتصادية . هذه هى طبيعة العلاقة فى الجماعة ، أما عن شكل العلاقة فى المجتمع فتقوم على الفردية والمساواة ، استناداً إلى تدخل أنماط اقتصادية غير إقطاعية ، مثل الصناعة التى تفرض المساواة ، ومثل التجارة والعلم وخـدماته كالطب والمحاماة والصيدلة والتدريس ، وسائر العلاقات المجتمعية التى تميز المجتمع السياسى القائم على « التعاقد contract » .

ويلتزم الانسان باعتباره كائناً اجتماعياً بالتعاقد ، كما يخضع لسيادة القانون

---

(1) Tonnies, Ferdinand., Community and Society, trans by, ch. Loomis Harper,, New York. 1963.

الذى يحل محل العرف الذى كان سائداً فى الجماعة . ومن المميزات الجوهرية التى كانت تميز الجماعة عن المجتمع ؛ ذلك التغير الواضح فى قواعد التشريع القانونى بظهور أشكال جديدة من الجزاءات والنظم القضائية طبقاً لتنوع الحقوق وتعدد المسئوليات .

فالجريمة مثلا ما هى إلا « إجراء » أو « فعل » مضاد للمشاعر العامة . تهدد الانسان الفرد ، وتهدد الحقوق الفردية ، وتدمر روح الجماعة ، وتحطم قيم « الضمير الجمعى » ، بمعنى أن الجريمة هى فعل « غير اجتماعى anti-social » « لا أخلاقى » لأنها « ضد الجماعة » وتتنافى مع تعاليم الدين كما وتخدش المشاعر الأخلاقية(١) .

لذلك كان للقانون والجزاء والعرف وظائفها فى «ميكانيزم» الضبط الاجتماعى كما كان لها ضرورتها لحفظ الحقوق ، وسيادة الجماعة ، وسطوة الضمير ، ودوام المجتمع ، حيث أن وسائل الضبط الاجتماعى ، هى بمثابة عناصر أومراكز قوة، يستخدمها الضمير الجمعى لمقاومة كل الانحرافات أو « التمرد » أو « العصيان » وهنا يتطور الأمر عند « تونيز » وتتحول العلاقات التلقائية Spontaneous Relatic ns السائدة فى الجماعة ، لكى تصبح علاقات ديناميكية متغيرة ، فتظهر علاقة « التعاقد » ، ويحل القانون محل العرف ، والعقد محل التلقائية ، والمسئولية الفردية محل المسئولية الجمعية .

ويؤكد « جورفتش » مع «دوركايم» ، على أن الحقائق الاجتماعية هى « أشياء choses » كما أنها خارجة عن شعور أو ضمير الانسان الفرد ، وأن الوجدان الجماعى ؛ إنما يسمو ويتفوق على الوجدان الفردى ، كما ويتعالى ضمير الجماعة على

(1) Durkheim, Emile., De La Division du Travail Social, Félix Alcan Paris. 1926.

ضمير الإنسان الفرد .

وبالاضافة إلى ذلك ، تؤكد فينومينولوجيا جورفتش ، على أن علم الاجتماع الحالى ، إنما يحاول أن يعمل على إقامة الروابط والعلاقات بين ثلاثة محاور رئيسية لا يمكن فصل أحدها عن الآخر ، وذلك عن طريق الالتفات إلى محاور « الأنا » و « الآخرين » و « نحن » .

والمجتمع عند « جورفتش » عبارة عن « شيء Chose » من جهة ، و « أنا » من جهة أخرى ، ويمكن دراسة المجتمع من حيث هو « شيء » دراســة علمية وموضوعية ، وذلك لأن حقائق المجتمع هي « أشياء منعزلة » ومستقلة عن مشاعر الأفراد وضمائرهم .

فالمنهج العلمى يطبق عند « جورفتش » على المجتمع من حيث هو « شيء » أو « جهاز » أو « ميكانيزم » يمارس ضغطاً أو « قهراً » كما ويلزم الأفــراد بطاعته واحترامه ، لما له من دوام و « قسر » وسيطرة وجبرية .

هذا عن حقائق المجتمع من حيث هو « شيء » ، ولكن حقائق المجتمع ووقائعه ، حين تتصل بتصورات الأفراد ، وتتعلق بوجداناتهم ، وتدور فى فحوى ضمائرهم وذكرياتهم وتخيلاتهم ، فإنها تصبح ذات طبيعة أخــرى تختلف كل الاختلاف عن طبيعة « الشيئية » أو « الميكانيزمية » القاهرة أو الضاغطة ، ومن خلال اختلاف تصورات الأفراد ، وتباين نماذج الواقع الذى يعايشونه ، يتمايز « الإدراك الفينومينولوجى » ، وتتغير التصورات بحيث تمايز أشكال الفهم نظراً لتباين أنماط الفكر والوجود . ومن هنا يمكن دراسة المجتمع دراســة فينومينولوجية على اعتبار أن « فهم الواقع الاجتماعى » ، هو الأصل الذى يسهم فى تكوين الإنسان الفرد والذى يخلق وجوده .

ولما كان الواقع الاجتماعى من وجهة النظــر الفينومينولوجية ، يختلف

اختلافاً نوعياً وجوهرياً ، إستناداً إلى اختلاف «أنواع » أو «نماذج » الوجود الاجتماعى ؛ فلقد ظهرت نتيجة هذا التباين فى نماذج الواقع السياسى، مختلف النظم والجماعات كما تعددت وتنوعت سائر الفئات والطبقــات ، بشكل يتطابق مع اختلاف الأرضية الاجتماعية والثقافية ، تلك التى تكشف عن أنواع مختلفة من « الوجود الاجتماعى » .

وهنا يميز « جورفتش » بوضوح بين منهج « علم الاجتماع القانونى » ودراسة أو فهم « فلسفة القانون Philosophy of Law » حيث يبحث الأول فى وظيفة الواقع الاجتماعى وأثره وتركيبه ، على حين تدرس « فلسفة القانون » مدى التكامل والاتصال الذى يربط الروح بالمجتمع ، والعقل بالوجود ، بمعنى أن « الوجود الاجتماعى » هو الذى يفرض « القيم Values » ويضع التصورات ويصنع الضمائر كما ويخلق الأفكار . ولا شك أن القيم والتصورات والأفكار ، يمكن رفعها إلى مستوى الإدراك أو البحث الفينومينولوجى ، بالاضافة إلى أن ما يدور فى بنية الضمير الانسانى وفحواه ، هى ظواهر ضرورية توحى بروح القانون وتعبر عن فلسفته .

ولما كان ذلك كذلك ـ فلا يمكن من وجهة نظر « جورفتش » أن نفصل علم الاجتماع القانونى ، عن فلسفة القانون ، استناداً إلى وحدة الأصل والمصدر ، حيث ينشأ كل منهما ويصدر عن الوصل بين الروح والوجود الاجتماعى ، أو الدمج بين المجتمع وروحه ، وتلك هى فينومينولوجيا جورفتش التى هى بمثابة التعبير الجوهرى عن « سوسيولوجيا الروح » ، أو « روحية المجتمع » التى لا تفصل بين « ميكانيزم المجتمع » وتصوراته وقيمه ، تلك التى لا يمكن عزلها إطلاقاً عن « الأصول الوجودية » لروح العصر والمصادر الاجتماعية الكامنة فى روح القــانون .

فالوجود الإجتماعي هو « مبعث روح القانون » ، وهذا هو ما يقصده « جورفتش » بسوسيولوجيا روح القانون ، الأمر الذى لا يمكن معه فصل « روح القانون » عن الأرضية الاجتماعية ، كما ولا يمكن نزع القوى الميكانيزمية الضاغطة عن مصادرها الكامنة فى الخلفية التاريخية لروح العصر ؛ وإلا تحول علم الاجتماع القانونى إلى شكل من « أشكال النزعة العقائدية العقلية Rationalisme dogmatique » .

وإنطلاقاً من « أرضية الوجود الاجتماعى » ، بدأ « جورفتش » دراساته فى علم الاجتماع الفينومينولوجى ، استناداً إلى تحليل الإنسان الفرد ، ودراسة ما تراكم فى شخصيته من ركامات إجتماعية ، وبقايا ثقافية ، ورواسب سيكولوجية .

ويحاول علم الاجتماع الفينومينولوجى ، اتخاذ السلوك الاجتماعى ، كأساس لدراسة المجتمع كله . ومن هنا يركز « جورفتش » اهتماماته على دراسة العلاقات والروابط الداخلية التى هى « أساس قيام المجتمع » ، وكلها روابط جزئية وروحية تتولد وتتوحد تلقائياً ، كى تعبر عن المحبة والتكامل والتضامن ، تلك الجوانب النمطية والشعورية القائمة فى « روح الكل » والتى صدرت أصلا عن « روح المجتمع » .

ولا يمكن أن تفسر هذه الروابط الداخلية الروحية تفسيراً ميكانيكياً أو آلياً ، فليست هناك علاقات « فيزيقية » أو سببية ، ولا يربط فيما بينها روحياً سوى علاقات « الحب » و « التعاطف » من ناحية ، وعلاقات « الصراع » و « التنافر » من ناحية أخرى . وكل هذه العلاقات إنما تسبق الميول الأساسية كالشعور والحاجات ، ولا يمكن أن تتجسد تلك الروابط الاجتماعية أو تتحقق تلك الاتجاهات الجمعية سوى فى كائن متفوق ، يتمثل ويتحقق فى « الروح السوسيولوجى » الذى يتعالى ويتسامى على ميول ومشاعر واتجاهات الأفراد .

القصد الفينومينولوجي :

من المبادىء المشهورة فى تطبيق أو دراسة المنهج الفينومينولوجى، عن طريق الاتجاه نحو فهم الموضوعات أو الظواهر ، بمحاولة القيام « بقصد » أو « بجهد ». وفى هذا الصدد يجب أن نتجاوز حدود الأحكام والمدركات الحسية، وهو ما يسميه « هوسرل » بعملية « الرد الفينومينولوجى Reduction Phenomenologique » وذلك بعد محاولة فهم الظواهر ووضع العالم « بين قوسين » .

ويعتبر « القصـــد » عنصراً ضرورياً وجوهرياً فى كل الأفعال القصدية Intentional acts ، كما ينظر « ماكس فبر Weber » إلى عنصر القصد على أنه من أهم عناصر « الفهم Verstehen » حين نحاول تحليل أو تفسير الظواهر . وبذلك نظر « فبر » إلى منهج الفهم على أنه الطريقة المثلى لدراسة التاريخ ووقائعه.

وعلم الاجتماع كما يراه « فبر » هو العلم الذى يحاول تحديد « الفهم التفسيرى explanatory understanding » للكشف عن طبيعة مواقف أو مجـالات السلوك فى ضوء أنماط الفعل الاجتماعى . ولا يصبح الفعل « اجتماعياً » عند « فبر » ، إلا إذا كان « معناه الذاتى[1] Subjective meaning » مرتبطا بالفاعل الاجتماعى، حين يأخذ فى اعتباره « الأشكال المختلفة للنماذج المثالية ideal Types » ومدى تطابقها مع أنماط السلوك السائدة والعامة .

ويفهم « المعنى الذاتى » فى علم النفس المعاصر ، بأنه يتضمن اتجـــاهات

(1) Weber, Max., The Theory of Social and Economic Organization, trans. by Henderson, Glencoe. 1947, pp 88-89.

وانظر أيضاً :

- Weber, Max., Basic Concepts in Sociology, trans. by H. P. Secher, Peter Owen, London, 1962, pp. 34—35.

و « مقاصد لاشعورية unconscious intentions » كما وقد يتضمن هذا الفصل فى نفس الوقت ، بعض الجوانب والاتجاهات النمطية والشعورية .

وتستخدم الفلسفة الوجودية « مبدأ القصدية » ، وهو إتجاه الشعور نحو موضوع ما ، بدونه لايكون الشعور شيئا على الاطلاق،فينبغى أن يكون الفصل تاما بين الشيئية chosisme » من جهة ، والحركة « الشعورية » من جهة أخرى على اعتبار أن كل شعور إنما هو شعور بشىء ما ، ولا يمكن تصور الشعور خاليا من الأشياء أو الموضوعات ، لأن الشعور هو تيار أو مجرى أو « محتوى»لا يمكن تحليله إذا ما سلبنا منه ماهو « مشعور به » . بمعنى أن « موضوع الشعور»لا يمكن فصله أو نزعه عن الصور والقوالب التى تتضمن محتواه القائم فى التيار الشعورى، فليس هناك تيار شعورى بلا موضوعات . وحتى الشعور بالعدم ليس شعوراً فارغا «لأن « العدم » فى هـذه الحالة ، سوف يصبح هو الموضوع الذى يشغل فحوى التيار الشعورى . فليست هنـاك على الاطلاق تيـارات شعورية جوفاء لاتحمل شيأ أو لاتشتمل على شىء ، وإنما لابد وأن يصاغ فى فحوى الشعور « شىء » أو تجرى فى مجراه « أشياء » ، ولاشك أنها « أشياء إجتماعيـــة choses Sociales » تظهر كموضوعات للشعور وتعبر عن محتواه الشعورى ، وما علينا إلا أن نقوم بجهد أو « قصد » نحو فض موضوعات الشعور وتحليلها وسبر غورها ، وهذا هو ما نسميه بالقصد الفينومينولوجى.ولاشك فى أن لغة الفلاسفة ومصطلحات الميتافيزيقا وقوالبها ومقولاتها ، التى استخدمتها الفلسفة أثناء إلتحامها بمعاركها العقلية والايديولوجية ، وبالالتفات إلى « مقاصدها وجهودها الايجابية المستمرة فى « كثرة كيفية » والمتتابعة دوما طوال تاريخها ، الذى يحمل فى طياته وفحواه صراع الفكر وتحدياته وتناقضاته ،بإيجابياته وسلبياته،وبومضاته المضيئة لكل ماهو مظلم ، هى من زاوية علم الاجتماع الفينومينولوجى ، لغة ومصطلحات

شعورية ، مقتطعة من « ديمومة الوجدان التاريخي ومنتزعة من روح العصر » ، لأنها قائمة في مختلف « البناءات الثقافية السائدة في الوجود الاجتماعي ، ثم صيغت كل هذه « الكثرة » في قوالب واجتمعت كل هذه « المحتويات » في صور ومقولات فينومينولوجية مستعارة من « تجلي الفكر في تقدمه وجهوده القصدية » وصراعه الديناميكي التغيري نحو حياة أكثر غنى وفاعلية ، وخصوبة ورفاهية .

وفي ضوء هذه الملاحظات ، تصبح « القصدية » هي المحاولة الأساسية ، و الضرورية في تطبيق المنهج الفينومينولوجي ، كما تصبح القصدية هي الشرط الضروري لامكان الرد Reduction أو الاختزال الفينومينولوجي ، وحينئذ توصف الموضوعات بأنها « أشياء مقصودة » ويظهر موضوع الشعور بوصفه « مايقصد إليه » ومن هنا يصبح الموضوع مقابلا مباشراً للشعور « على إعتبار أن الموضوع هو المحوى » ، والشعور هو « القالب » وعلى هذا الأساس ينكر أصحاب المنهج الفينومينولوجي ، مايسمى بالموضوعية الاجتماعية Social objectiv.ty ، نظراً لوجود العوائق التي تحول دون قيام مثل هذه الموضوعية الاجتماعية .

ولعل التيار الفينومينولوجي كما نجده سائداً في الفلسفات والمذاهب الوجودية إنما يتخذ موقفا مختلفا ، حيث يؤكد المذهب الفينومينولوجي على وجود هوة سحيقة بين « الماهيات » و « الوقائع » . وذلك لوجود أسباب متعددة ، فمن يبدأ بحثه بالوقائع لن يدرك « الماهيات » على الاطلاق .

على هذا الأساس ، أصبح لباب المنهج الفينومينولوجي يدور حول « المعنى » أو « الفهم » الذي تتوصل إليه حين نقصد « الأشياء » ذاتها وننتزع منها « المعنى » لأن أساس أو مبدأ القصد الفينومينولوجي هو « حدس الماهية » .

وينكر المذهب « الفينومينولوجي الوجودي » تلك الفكرة القائلة بأن الحقائق

الإجتماعية هى « أشياء » ، بمعنى أن الفلسفة الوجودية إنما ترفض النزعة الدوركايمية الشيئية التى تؤكد على « وجوب أو ضرورة معالجة الظواهر الإجتماعية على أنها أشياء Comme des Choses » .

وبالإضافة إلى هذا الموقف ، ترفض فينومينولوجيا الوجوديين تصور المجتمع على أنه « كائن مستقل » يوجد خارج ضمير الفرد وشعوره ، حين يتعالى الوعى أو الوجدان الجمعى ، ويتفوق على الوعى أو الوجدان السيكولوجى الفردى .

وإستناداً إلى هذا الفهم، تنكر الفلسفات الوجودية النظرة الدوركايمية الروحية من جهة ، كما وتعترض أيضاً على النظرة المادية الموضوعية، من جهة أخرى ، حيث يرفض المذهب الفينومينولوجى مبدأ « النسبية Ralativity » ؛ كما لا يأخذ أصلا بتلك الموضوعية التى يتشدق بها العلم الوضعى .

ويرتبط الفرد الوجودى بالآخرين إرتباطاً جوهــرياً ، وعلى علم الاجتماع بالمعنى الفينومينولوجى أن يكتشف الروابط الوجودية الأساسية القائمة بين الأفراد . على إعتبار أن كل عمل يقوم به الإنسان الفرد إنما يتضمن فى ذاته ، ويحوى فى طياته إشارة إلى الآخرين . بمعنى أن مجهودات وتصورات وأحكام « الأنا » إنما تتضمن فى ذاتها أيضاً جهود وتصورات وأحكام « الآخرين » ، وهنا نستطيع أن نتفهم ونسترشد بما يقوله هذا التصور الوجودى، وبكلمات مضيئة، حين يعبر على نحو فينومينولوجى « وكأننى أسبح فى بحر متلاطم من الأحكام التى يحملها الآخرون لى » .

ومن ذلك يتبين لنا أن كل ما يحيط بالإنسان الفرد من حضارة مادية أو معنوية ، إنما يشير فى الواقع الاجتماعى الوجودى إلى كل ما يربط الإنسان الفرد من روابط وعلاقات وجودية ، فأبواب الوعى والوجدان مفتوحة دائماً للآخرين ، وقد تنغلق فى حالات « الضجر » و « القلق » .

وتبدأ فينومينولوجيا الوجوديين بإحدى الخطوات الأســـاسية فى الفلسفة الوجودية ، وهى عملية تحليل « الكوجيتو المنعكس Cogito Pre-Reflexif » وهنا يتجلى الفكر كما ينعكس عن واقعه هو نفسه وأى يتجلى الفكر عن واقع الروح الموضوعى، وهذا هو نفس الكوجيتو الذى قامت عليه فينومينولوجيا «هوسرل» على اعتبار أن الشعور هو دائماً الشعور بشىء ما ، ولهذا السبب نفسه ينظـــر الكوجيتو الهوسرلى إلى « الأنا » بوصفها الأساس والمصدر لكل « معنى » أو « فهم » كما أنها مبعث كل « رابطة قصدية » بالموضوع .

ويشب « الوجدان » دائماً إلى الموضوع وإلى العالم ، وهو سر وجود الكائن فى العالم ، وعلة هذا الوجود فبدون الوجدان لايتحقق وجود هذا العالم ، وهنا يتحقق الكائن الوجودى من أن الوجدان الحقيقى « هو الوعى » ، وأن الوجدان الوجودى هو « الوجدان بالعالم » ، أو الوجدان الكونى الشامل . ومن هنا يكون « الوجدان الاجتماعى » هو الشعور بوجود المجتمع « وضغطه وضبطه » .

وإذا كان الجسم فى علاقته بالأنا، إنما يشبه إلى حد بعيد علاقة الفرد بالمجتمع لذلك يكون الجسم مرة هو « الأنا Le moi » ومرة أخرى هو « الشىء » ، كما ويصبح المجتمع نفسه عند « جورفتش » تارة هو « الأنا » وتارة أخرى هو « الشىء chose » القائم كميكانيزم قهرى خارج الأنا الذى هو « المجتمع » .

ويشبه الواقع الاجتماعى « الجسم » من حيث البنية الوجودية ، بمعنى أننى قد أوجد « إجتماعياً » تارة كما أننى قد أوجد « بدنيا » تارة أخرى ، ويعتبر هذا الوجدان الوجودى « واقعة أولية » ولكن الجسم وحيد ، أو هو شىء واحد ، أما المجتمع فهو مؤلف من طبقات متمايزة وفئات متعددة وتنظيمات معقدة ، وهذا التعدد والتشابك والتفاضل والتعقد ، إنما يفسر لنا أصلا تعدد وتشابك وتفاضل مصادر « الوجود الاجتماعى » المختلفة .

الباب الثاني

النظرية السياسية بين التجربة والوعي

* تمهيد
* إنبثاق النظرية السياسية المعاصرة
* الفكر السياسي بين النظرية والتطبيق
* التجربة السياسية
* سوسيولوجية الثورة
* الفكر السياسي و « روح العصر »
* الأبعاد السوسيولوجية في الوعي السياسي

تمهيد :

البناء النظرية السياسية المعاصرة :

لقد ظهرت النظرية السياسية فى أقوى صورها عند « هيجل » و « ماركس » ثم تطور الفكر السياسى ، ونضجت النظرات السياسية وأثمرت عند كبار علماء السياسة المعاصرين ، من أمثال « هارولد لاسكى Harold Lasky » و « موريس دوفرجيه Maurice Duverger » .

ولكننا نتساءل .. ما هى المسائل الرئيسية التى ينشغل بها الفكر السياسى المعاصر ؟ وكيف تعالج النظرية السياسية المعاصرة ، مثل هذه المسائل ؟

فى الواقع ، هناك الكثير من المشكلات والمسائل التى ينشغل بها الرأى العام السياسى والتى يعالجها المشتغلين بعلوم الاجتماع والاقتصاد ، ومثل مسألة الدولة .. ما هى ؟ . والسلطة .. كيف تكون ؟ . و « المواطنة الصالحة ما هى حدودها وملامحها السياسية ، من حيث الحقوق والواجبات ؟ .. وإلى أى حد تتوزع حقوق الدولة وواجبات المواطن ؟ .

ونستخلص من كل هذه المسائل ، ان الفكر السياسى ، إنما ينظر إلى « السلطة » كما يمارسها الحاكم ، ويحدد شروطها السليمة ، على اعتبار أن السياسة برمتها ماهى إلا نشاط فكرى انسانى ، محوره « الانسان » ، ولا يدور فقط حول الدولة أو « صاحب السلطان » . وإنما يكون التفكير السياسى العلمى ، هو التفكير الذى يتعلق بتكتلات بشرية ومصالح جماعية ، بحيث يكون كل تفكير سياسى ؛ هو تفكير من أجل الآخرين ، وهو التفكير النافع والمحدد والنسبى Relative .

وإذا كان علم الاجتماع يدرس العلاقة بين الانسان وأخيه الانسان على العموم فان علم السياسة ، إنما يدرس العلاقة بين « الدولة » و « المواطن » أو الصلة التى

تربط « الحاكم » بالمحكوم . وهذه هي الخاصية المميزة للنشاط السياسي عن غيره من أنواع المناشط الانسانية .

ولقد أصبحت أهم المشكلات التي يعالجها علم الاجتماع السياسي ؛ مشكلة « السلطة » وطبيعة العلاقة بين الحاكم ورعاياه ، أو « الدولة » و « المواطن » .

بمعنى أن علم السياسة ، إنما يبحث ويدرس عدداً من الظواهر السياسية المحددة بالذات ، مثل ظاهرة السلطة ، وكيف تكون الصلة بين الحاكم والمحكوم ، أو بين « الضاغط » و « المضغوط » . وبدون هذه العلاقة لا يمكن أن تتحقق فكرة السلطة التي يمكن تجريدها بعلاقة أزلية قائمة بين « الدولة » و « الفرد »

ولكننا نتساءل .. وما هي تلك « الدولة » التي شغلت وما تزال تشغل تفكير الرأي العام السياسي ؟ .

لقد أكد « سانت أوغسطين » على ضرورة « الدولة » . وعلى وجود ظاهرة « السلطة » إذا أن الانسان الفرد ، في حاجة إلى « سلطة » عليا ، تحكمه ، وتكبح ميوله ونزعاته الشريرة . فجاءت الدولة عند « أوغسطين » تعبيراً عن كبح أو ضغط ميول الانسان الشريرة ، بمعنى أن أصل الدولة عنده هو « الخطيئة الأولى » حين تمرد الانسان المخلوق على إرادة الخالق . فكان من الطبيعي أن تكون الدولة هي « السلطة » التي تتسلط على رغبات الانسان أو « القوة » التي تضبط تمرد الانسان وتحكم سلوكه كما وتكبح جماح شهواته وأغراضه وأهوائه .

ولذلك كانت الدولة عند « تراز ماخوس » هي حكم الأقوى بمعنى أنها مصدر السلطة أو القوة . ولم تكن الدولة موجودة يوما ما ، بالنسبة للانسان البدائي ، كما يظن « هربرت سبنسر » ، ويزعم « كارل ماركس » ، فالدولة عندهما ، هي « كائن صناعي » مشوه . لم يكن موجوداً من قبل . إذ أن الدولة عندهما مخلوق غير طبيعي ، وسيأتي اليوم الذي تزول فيه « الدولة » ، حين تسقط كأوراق

الخريف ، وتنتهي وظيفتها . ويعود الحال إلى ماهو عليه فى الماضى، وهذا مايراه أشياع كل من « سبنسر » و« ماركس».

وفى الحقيقة . ليست الدولة « جماعة » أو « اتحاد association » ، بل إنها تكوين غامض، ذو صفات ميتافيزيقية ، وخصائص خارقة للطبيعة supernatural فالدولة عند هيجل ، هى « وحدة ميتافيزيقية مقدسة » تتسلط فى ماسك صلب ، وهى وحدة كلية مطلقة ، تفرض نفسها على كل فرد ، فالدوله هنا ليست نوعا من الاتحادات أو الجماعات القائمة فى المجتمع ، وانما تكون الدولة هى المجتمع السياسى نفسه ، بمعنى كامل الشمول .

وليس للدولة وظيفة محددة داخل مجتمع سياسى أكبر منها ، بل نجدها هى نفسها تؤلف « المجتمع السياسى » الاسمى والاقوى ، أو « المجتمع الكلى » كقوة أخلاقية قاهرة ومطلقة .

والدولة ها هنا ، هى حارس أخلاقى بأكمله ، وليست مجرد عامل من العوامل داخل عالم أخلاقى منظم ، فالعلاقات الاخلاقية ، إنما تفترض على نحو مسبق ، وجود حياة منظمة وانماط سلوكية مرعية. فالدولة هى الضابط الأخلاقى الاصيل بهذا المعنى ، وليست عاملا من العوامل القائمة فى النسق الاخلاقى .

الفكر السياسى بين النظرية والتطبيق :

الانسان حيوان سياسى Zoon Politikon ؛ على ما يقول أرسطو، فليست هناك أى جماعة انسانية ، وجدت دون تنظيم سياسى أو دون سلطة ، وبذلك يمكن تعريف السياسة ، بأنها علم «التنظيم السياسى Political organization »

ولقد تطورت النظرية السياسية ؛ من الاسطورة Mythe الافلاطونية ، إلى الفكرة السياسية الهيجلية ، وهى الفكرة المطلقة ، أو هى خطى «العقل الالهى على الارض » ، كما تحرر العلم السياسى من الاسطورة الحالمة إلى واقع الفكرة

السياسية l'idee Politique ، ومن مجموع الافكار السياسية ، تتكون النظرية السياسية .

والفكر السياسي القديم ، نجده يعالج الظواهر السياسية من زاوية فلسفية معينة ، فلقد عالج أفلاطون الدولة من زاوية العدالة ، وعالجها أرسطو من ناحية أن الدولة ينبغى أن تحقق «مبدأ الخير» ولكن الانظار السياسية المعاصرة ، إنما تصدر على أساس وضعى ، و هذا هو الاساس الاول فى بناء النظرية السياسية بعد أن شاد لبناته الأولى كل من « مكيافللى » و « مونتسكيو » « كونت » .

ومن هنا ينبغى أن نؤكد أن الاتجاه العلمى فى دراسة السياسة ، إنما يؤكد على ضرورة انطلاقنا من الواقع كأساس ، أو من الوقائع Facts ، حين تصدر الفكرة السياسية ، من أرض التجربة الاجتماعية . فالعلم السياسى ، هو علم وضعى يحقق تطلعاتنا السياسية تحقيقاً علمياً ، حين ينطلق الفكر السياسى من الواقع الاجتماعى ، وحين يستند إلى أرضية الوجود السياسى .

ومن ثم ينبغى على دارس العلوم السياسية ، ان يتفهم الظواهر السياسية ، على نحو موضوعى ، حتى يتوصل الى كنهها وحقيقتها وسبر غورها ، بالتعرف على قوانينها السوسيولوجية العامة .

فالمجتمع هو « المعمل » الذى فى أطاره تدور « التجارب السياسية » ، وعالم السياسة ، هو أشبه بالمهندس الاجتماعى Social engineer ، الذى يحاول أن يتوصل عن طريق فكره وعلمه ومنهجه الوضعى ، فيرسم لنا «هندسة سياسية واجتماعية Social and Political engineering » لشكل المجتمع الذى يحقق الرفاهية والعدالة ، وكما يؤكد الحرية والسعادة . وبكلمات أكثر دقة ، نستطيع أن نقول « إن عالم السياسة هو المهندس الاجتماعى الذى يعمل فى المجتمع ، الذى هو « المعمل السياسى الأكبر » .

وفى الواقع لقد صدرت كل النظريات السياسية ، على الرغم من التزامها أحياناً بالاتجاهات اليوتوبية والمثالية ، إلا أنها صدرت عن واقع التجربة الاجتماعية ، فالفكرة السياسية ، كما يقال هى سجينة التجربة الاجتماعية ، والفكر السياسى عموماً هو رهين الواقع أو الوجود الاجتماعى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن نظرية أفلاطون على الرغم من مثاليتها ، إلا أنها صدرت عن التجربة السياسية اليونانية . ونظرية « جون لوك » انطلقت من واقع التجربة الثورية البيوريتانية ، ودراسة نظرية منتسكيو حول مبدأ فصل السلطات ، وهو مبدأ موضوعى ، مأخوذ من ملاحظة منتسكيو النظام السياسى البريطانى ، ومن هذا المعنى أيضا ، أكد لينين Lenin هذه الصلة الضرورية التى تربط بين النظرية والتطبيق ، أو بين الفكر والواقع ، وأعلن « لينين » استحالة وجود الثورة ، دون نظرية ثورية ، أى أن التطبيق لابد وأن يستند إلى نظرية(1)

ولقد وضع مونتسكيو ، أسس التحليل العلمى فى النسبية Relativism والحتمية determinism ، وكان هذا التحليل العلمى قاصراً من قبل ، على ميدان « الطبيعة « la nature » ، ولم يتعدى الطبيعة ، كى ينطلق إلى المجتمع .

فنبه مونتسكيو الاذهان ، نحو التركيز والتأييد على وجود « الحتمية » فى سياق المجتمع ، تماما كما توجد الحتمية فى سياق الطبيعة — ولذلك نجد مونتسكيو حين يردد كلمته المشهورة فى كتابه « روح القوانين l'esprit des lois » فيقول : « إن القوانين هى الروابط الحتمية ، التى تصدر عن طبيعة الأشياء ، وفى هذا المعنى ، يكون للكائنات جميعها قوانينها » .

ولقد قلنا فى نهاية الفصل السابق ، إن كل كتابات « مونتسكيو » السياسية ،

---

(1) Lenin., Selecled Works., Vol : Progress Publishers, Moscow. 1967.

وبحوثه السوسيولوجية قد اتسمت بالروح الوضعية Positivism . تلك الروح التي تمثل نقطة الارتكاز في المنهج العلمي . بمعنى أننا في دراسة العلوم السياسية ، إنما نأخذ أصلا بدراسة ما هو كائن بالفعل ، ولا ننشغل إطلاقا بما ينبغي أن يكون ، كما أكد مونتسكيو على « النسبية » ، في دراسة الظواهر السياسية استناداً إلى نسبية الزمان والمكان .

وحين يقول مونتسكيو بمبادىء جوهرية للبحث العلمي ، مثل مبادىء « النسبية » و « الوضعية » في دراسة الظواهر ، فقد رفعته تلك المبادىء إلى أن يمجده « أوجست كونت » نفسه ، فاعتبره رائداً من رواد علم الاجتماع الفرنسي ، وعالماً سوسيولوجيا أصيلا ، كما نظر كونت إلى مونتسكيو ، على أنه : « المؤسس الأول لعلم الاجتماع الاستاتيكي الوضعي » .

كما يدرس علماء السياسة ، كتابات مونتسكيو ويعتبرونه العالم السياسي الأول ، وننظر إليه الآن باعتباره الفيلسوف السياسي ، الذي أصدر مختلف الكتابات والدراسات الرائدة ، حول معالجة الظواهر السياسية ، باعتبارها ظواهر علمية ؛ لا كمجموعة من « القواعد العقائدية » أو الدعاوى المذهبية البحتة .

الفصل الثالث

التجربة السياسية

* تمهيد
* ولكن هل «البطل» هو محرك التاريخ ؟
* دور الجماهير والجماعات السياسية
* سوسيولوجية الثورة الفرنسية
* التنبؤ بالثورة
* الكتل والتجمعات السياسية
* الصراع بين الثورة والكنيسة
* التجديد فى بناء القيم
* تعقيب ومناقشة

تمهيد :

وفى ضوء التحليل السياسى للوثائق والسجلات والوقائع ، يؤكد « فوستل دى كولانج » على أن الدين فى المجتمع الرومانى القديم ، كان حجر الزاوية الذى يستند إليه المؤرخ فى دراسة « البناء الاجتماعى الرومانى » ، إلى الدرجة التى معها تنطبق صورة الدين تماماً على الصورة الواقعية أو التاريخية للبناء الاجتماعى الرومانى القديم . فلا يمكننا « أن نؤرخ » لطبيعة النظم السياسية والقضائية للمجتمعات القديمة ، إلا إذا أخذنا فى إعتبارنا « الدين » كركيزة أساسية ترتكز عليها أبنيتها الاجتماعية . وكان فوستل دى كولانج ، مغرماً بالتفسير الاجتماعى للتاريخ ، ويفترض أن علم الاجتماع إنما يستند أساساً إلى التاريخ كما ويعمل التاريخ فى رأيه بطريقة سوسيولوجية [1] وفى ضوء هذا الفهم أرخ « فوستل دى كولانج » ودرس النظم الاجتماعية فى المجتمعات الرومانية واليونانية القديمة ، وأكد على أن النظام الدينى فى المجتمع الرومانى القديم ، كان مرتبطاً أساساً بالأسرة ، وبقوانين الميراث والخلافة ، وبنظم الزواج والملكية والسلطة الأبوية **paternal authority** .

وفى هذا الصدد يقول فوستل دى كولانج فى كتابه الممتع « المدينة العتيقة **La Cité Antique** » أن الدراسة المقارنة للمعتقدات والقوانين إنما تظهر أن الدين البدائى إنما يؤسس الأسرة اليونانية والرومانية حيث أن الدين هو أساس الزواج والسلطة الأبوية ، كما يثبت نظم العلاقات ويؤكد قداسة الملكية وحق الميراث [2] .

ولا يمكن أن تفسر الظواهر السياسية إلا فى ضوء الدراسة الموضوعية الحقة لوقائع

---

(1) Lowie, Robert., The History of Ethnological Theory ; V French Sociology. London 1937.

(2) Radcliffe - Brown., A. R., Structure And Function in Primitive Society., London 1969 pp. 161-162.

التاريخ وذلك لتحليل الوقائع فى ضوء الظروف الحضارية والمواقف الاجتماعية التى أحاطت بأحداث التاريخ السياسى . وبالتالى لاتفسر الظروف السياسية إلا بالاستعانة بعلوم الاجتماع والإقتصاد والدين ، على إعتبار أن ظروف السياسة، ليست نتاجاً مباشراً لدوافع فردية سيطرت على الأبطال ، و « القادة » و « الملوك » بقدر ماتفسرها أسبابها الاجتماعية، التى هى « العلل الحقيقية » الكامنة وراء أحداث ووقائع التاريخ .

ولكن هل البطل هو محرك التاريخ ؟

ليس البطل هو « محرك التاريخ » ، وليس التاريخ هو تاريخ الأبطال و « الصفوة المختارة Elite » على مايذكر « توماس كارلايل Carlyle » وفردريك نيتشه Nietzsche » فإن أمتع مايقرأ الباحث فى التاريخ ، إنما لايتصل بماضى الملوك والعظماء ، وتاريخ الأبطال والزعماء ؛ بقدر مايتصل بدراسة « التاريخ الاجتماعى » الذى يحيط بهؤلاء « الأشخاص » وأدوارهم وأحداثهم. فينبغى أن لاندرس الأحداث كأحداث ، والواقع كوقائع، وإنما علينا أن نلتفت فوراً إلى ماوراء الأحداث ، وما وراء التاريخ meta - History » من وقوى اجتماعية، تعمل على خلق الأبطال والأحداث كما تتتابع على مسرح التاريخ.

بمعنى أن الحدث التاريخى إنما لايرجع إلى الانسان الفرد ، بل يتمخض عن حركة الكتلة الجمعية . فليس التاريخ سجلا للأبطال والفاتحين والغزاة ، وليس قاصراً على الملوك وحدهم ، بقدر ماهو دراسة للظروف والمواقف التى تمليها « العوامل الاقتصادية والعمليات الاجتماعية والمواقف السياسية » وليس البطل إلا « الفرصة الاجتماعية المواتية » ، لأنه وليد الظروف الإجتماعية « والجمعية » والزمان التاريخى ليس قاصراً على الأبطال . فسجل الانسانية حافل بالأحداث التاريخية الجمعية، حيث أن التاريخ هو الزمان الجمعى le temps Collective ؛

على ما يؤكد « دور كايم » (١) ، وهو الزمان الذى يصدر عن طبيعة الحياة الاجتماعية وما يتخللها من تتابع لمختلف الوقائع والأحداث ، بمعنى أن الزمان الجمعى لا يتحقق وجوده إلا فى حياة المجتمعات ، إذ أن التاريخ ليس إلا تاريخاً للمجتمعات ، حين يعبر عن حركة الديمومة الكلية لمجرى الحياة الجمعية (٢) .

دور الجماهير والجماعات السياسية :

فلم يوضع التاريخ للابطال ، وإنما التاريخ هو تاريخ البشر . وصراع الكتل الجمعية وماضى الطبقات ، بآمالها وأحلامها ومخاوفها وأمكانياتها الموضوعية ، تلك الآمال والمخاوف التى تنبثق عن ظروف وضعية يحددها السياق السوسيو تاريخى (٣) .

وليس معنى ذلك أننا نقلل من عظمة الأبطال وننكر وظائفهم التاريخية وأدوارهم الاجتماعية ، وإنما قصدت القول بأن الأبطال هم « منتجات » أو مصطنعات إجتماعية ، صدرت عن جماعات وبيئات وثقافات ، ومن هنا ينبغى أن ندرس هؤلاء الابطال باعتبارهم « ظواهر » أو عناصر اجتماعية ، وأن وجودهم التاريخى إنما يعبر عن « روح العصر » كمرآة تنعكس عليها ملامح الحياة ومواقفها الكلية ، باعتبارهم التعبير الواقعى عن شعور الجماعة نتيجة لانتماء هؤلاء الابطال لمواقف اجتماعية وتاريخية ، وصدورهم عما يسمى بالوجدان أو الشعور الجمعى الذى هو « شعور المجتمع أو وجدانه Consciousness of Society » ،

---

(1) Davy., Georges , Emile Durkheim, Collection Louis-M·chaud Paris. 1927 P. 182.

(2) Durkheim, Emile, Les Formes E'émentaires de la vie Rel'gieuse, Paris 1912 P. 631.

(3) Merton Robert, Sociology of Knowledge, the Twentieth Century Sociology, New York 1945 p. 374.

ولا يصدر هذا الشعور إلا عن « روح الجماعات »، وسيكولوجية الكتل والزمر الاجتماعية ، بمعنى أنه يصدر عن ذلك التركيب الاجتماعي بتصوراته ومشاعره ومكوناته الجمعية[1].

ويحدثنا « هيجل Hegel » عن البطل ودوره أو « وظيفته » التاريخية ، حيث يحقق الأبطال من أمثال « الاسكندر » و « يوليوس قيصر » و « نابليون » إرادة العالم ، وينفذوا حكم التاريخ ، ويفسرو حركة المطلق ، فالأبطال عند هيجل هم « الأدوات » التي تحقق إرادة العالم ، وهم « الآلات » في يد المطلق ، حين تحقق هذه الوسائل المشخصة مطالب المطلق ومنطق التاريخ ، وبعد تحقيق هذه المطالب سرعان ما تتساقط تلك الأبطال وتتهاوى ، مثل تهافت أوراق الخريف .

هذه هي خلاصة الفكرة الهيجلية عن مفهوم البطل وإرادته التي تحقق إرادة حركة التاريخ وروح العالم . وما أقرب هذه الفكرة التي يقول بها هيجل بنظرية « ماكس فبر Weber » عن مقولة « الكارزما Charisma » حين يغلفها إجتماعياً ببعض القيم الدينية والروحية ، فتتحقق السلطة في « الزعيم الروحي » أو تتجسد « القوة » في الرائد السياسي ، أو قد تكمن في كيان المحارب البطل ، فالقائد الكارزمى Charismatic Leader عند فبر ، هو مبعوث العناية الالهية ، ويحقق الخيرات لشعبه ومجتمعه[2] .

وقد يلقى « التاريخ الاجتماعي » ضوءاً علـى ماضى « الثورات » بتحليل أيديولوجية الطبقات ، وأشكال التنظيم الاجتماعي، ومظاهر الحياة الدينية والسياسية

(1) Tiryakian, Edward., Sociologilm and existentialism Printice-Hall. 1962.

(2) Weber, Max., The Theory of Social and economic Organization, trans, by Henderson and Parsons, Glencoe 1967. p. 358.

التى تبرز ملامح التركيب الاجتماعى ، بفئات وطوائف وطبقات المجتمع موضوع الدراسة . ولذلك يؤكد عالم الاجتماع البريطانى « بوتومور Bottomore » على ضرورة المزاوجة بين دراسة البناءات الاجتماعية للحضارات القديمة ، والكشف عن التحليل التاريخى للطبقات والثورات(١) .

سوسيولوجية الثورة الفرنسية :

هناك شروط ينبغى أن تتوافر حين تؤرخ لسوسيولوجية الثورة الفرنسية ، حيث ينبغى أن نحذف « الذات Self » حتى نسمح للظواهر والأحداث أن تفصح عن نفسها ، فيتحاشى الباحث تلك الاحكام المعيارية ، ولا يتخذ من نفسه كوسيلة لتأييد أو رفض نزعات معينة ، فيستهجن أو يستقبح ، فهو ليس « محاميا يدافع عن قضية ولا « قاضياً » يحكم بالادانة ، وانما هو « قاضى تحقيق » يستند إلى المصادر الاجتماعية ، والوثائق اليقينية المؤكدة ، وهذا هو التصور الاخلاقى لواجب المؤرخ الاجتماعى والسياسى الذى « يلتزم الموضوعية فى التاريخ » ومن الخطأ أن ينظر عالم الاجتماع التاريخى إلى الماضى بمنظار الواقع الراهن ، حيث ينزل حياة الماضى عبر الزمن إلى حياتنا الراهنة ، إنما عليه أن يلتمس تلك المعايير الاجتماعية التى سادت « روح العصر » فالحقيقة التاريخية ليست قائمة فى « عقـــل المؤرخ الاجتماعى » ، وإنما هى حقيقة موضوعية ، صدرت عن صراع الكتلة الجمعية ، وحرب الطبقات و « احتكاك الانسان السياسى بالواقع التاريخى » .

والواقعة التاريخية ، هى آخر ما يقع ، إذا ما نظرنا إلى « ماوراء الواقعة من موجهات اجتماعية ، ودوافع طبقية تدفع وقائع التاريخ دفعاً ، بمعنى أن هناك أسباباً ظاهرية للوقائع والاحداث ولكن الاسباب الحقيقية هى أسباب اجتماعية

(1) Bottomore, T. B., Sociology, A Guide to Problems and literature, Unwin University Books, London. 1963.

« وبنائية » باطنة ، تختفي وراء هذه الاسباب الظاهرة ، فقد نقول على سبيل المثال فى تحليل إنفجار الثورة فى فرنسا ، إن الظروف كانت مواتية ، فلم تكن الحكومة قوية ، وكانت الطبقة العاملة تمر بمرحلة بطالة وحرمان ، كما نشأ جيل من « الثوار الاحرار » نظراً لانتشار المظالم وانعدام الحريات ، وتفكك التماسك القائم بين طبقات المجتمع الفرنسى . تلك هى الاسباب الاجتماعية « الباطنه » أو غير المباشرة ، فليس إطلاق النار فى شوارع باريس ، هو السبب الحقيقى لثورة ١٨٤٨ ، وإنما هناك الكثير من الدوافع الاجتماعية والاسباب الجوهرية التى تجعل من إطلاق النار فى شوارع باريس هو السبب الظاهرى الاخير ، وهو « القشة التى قصمت ظهر البعير » فلو أن اطلاق النار لم يحدث لما حال ذلك دون انفجار الثورة ، وإذا ما حذفنا ذهنياً هذا الحادث الظاهرى ، فان الاحداث الباطنة والسوابق الاجتماعية « الكامنة » ، إنما تمثل فى مجموعها الاسباب الحقيقية أو غير المباشرة فى إنفجار الثورة . أما هذا « السبب الظاهرى المباشر » لاطلاق النار فليس سوى « الفرصة المواتية » ، فينبغى أن نميز بين « الاسباب الاجتماعية » والاسباب الظاهرية التى تخلق الفرصة المواتية . فقتل أرشيدوق النمسا فى « سراجيفو » عام ١٩١٤ ، ليس هو السبب الحقيقى لقيام الحرب العالمية الاولى ، وإنما هو « السبب الظاهرى أو الفرصة المواتية » لاشتعال الحرب .

ولقد صدرت الكثير من المدارس السوسيولوجية التى تفسر حركة التاريخ الاجتماعى ، والتى تفرض الاسباب الحقيقية للوقائع التاريخية ، فلقد أكد « ماركس Marx » مثلا على أثر العامل الاقتصادى ودوره فى نشأة النظم وتفسير الحركة الجدلية للتاريخ(١) . بينما يؤكد « ماكس فيبر Weber » على العامل الدينى

(1) Marx-Engels. Selected Works. Vol. 1. Fifth Impression Moscow. 1962. p. 34.

فى تفسير العلاقة بين ظهور الرأسمالية ونشأة البروتستانتية(١) وهناك مدارس أو مذاهب اجتماعية أخرى تفسر « انتشار الديموقراطية فى القرن الماضى كنتيجة لصدور الحركات الثورية والوطنية » ، وتربط هذه المذاهب الاجتماعية بين«ظهور الرق عند الرومان ونشأة المسيحية» ، أو بين التنافس فى الاسواق وقيام الحروب العالمية ، وكلها مدارس فى « التفسير الاجتماعى للتاريخ » ، إما من زاوية الاقتصاد أو الدين أو السياسة ، وكلها زوايا سوسيولوجية الاصل والمضمون .

تفسير الثورة :

وإذا ما حاولنا تفسير « الثورة » نجد أنها ضرورة اجتماعية وظاهرة مشروعة فمن حق الشعوب أن تتمرد وتتذمر ، ومن طبيعة المجتمعات أن تتغير « وتجدد نفسها » . وتعبر « الثورة » عن حالة من التفكك الذى يعترى البناء الاجتماعى ، لوجود « ظواهر مرضية » تتسلل إلى نظم المجتمع ، ولازالة هذه الاعراض والعيوب ، تقوم الثورة بعملية تغيير جـــذرى لاعادة التكامل الاجتماعى واحلال الصحة الاجتماعية ، واستعادة النظم والظاهرات السليمة ؛ بمعنى أننا ينبغى أن نميز بين البناء الاجتماعى فى حالة تفككه واضطرابه Social dysphoria ، وبين رجوع المجتمع ثانية إلى حالة الملائمة والتكامل Social euphoria(٢) .

والثورة هى « هزة جماعية » وحركة اجتماعية « بنائية » ترفض الوضـــع الراهن ، وهى بالنسبة للبناء الاجتماعى تشبه « التشقق الجيولوجى » بالنسبة لباطن

---

(1) Weber. Max., The Theory of Social and Economic Organization. trans by Henderson and Parsons. Glencoe 1967.

(2) Radcliffe-Brown. A.R., Structure and Function in Primitive Society London 1956. p. 206.

الأرض ؛ حيث ينقطع فى الثورات ذلك التتـــابع المستمر أو الرتيب لتطور الأحداث على مسرح التاريخ ، وتكون ، النظم ، فى مسيس الحاجة إلى التغيير والتجديد نظراً لتمزق الصلة بين طبقات المجتمع ، وإذا ما عقدنا المقارنات بين ظواهر الثورات ، وبين العيوب والجيوب الجيولوجية ، لوجدنا أن الظاهرة الجيولوجية إنما تفسرها أسبابها الفيزيقية والأرضية ، نظـــراً لتشقق الأسطح والطبقات وتغير الظاهرات الجيومورفولوجية فى باطن الأرض ، أما الثورة فهى نتاج أعمال وجهود البشر نظراً لتمزق الانسجة والخلايا الاجتماعية . فكما أن الانفجارات البركانية ، هى ظاهرة فيزيقية ولازمة لطبيعة باطن الارض ؛ وهى طبيعة جيولوجية بحته ، فان الانفجارات الاجتماعية ؛ هى ظاهرة تاريخية ولازمة للبناء الاجتماعى الانسانى ، لزوم الانفجار البركانى للبناء الفيزيقى لطبقات الأرض .

وقبل قيام الثورة الفرنسية ، كان المجتمع الفرنسى فى القرون الوسطى ممثلا إلى حد بعيد لكل ملامح البناء الاجتماعى الاقطاعى فى أوربا ، حيث كانت فرنسا هى مركز الاقطاع منذ عهد النهضة . وتاريخ فرنسا الاجتماعى وهو التاريخ الحقيقى لماضى الصراع الطبقى ، فقد كشف « ماركس Marx » فى ضوء هذا التاريخ عن أيديولوجية الطبقات وعن قانون النضال الطبقى ، حيث صدرت على المسرح الفرنسى طبقات متفاوتة الحظوظ والامتيازات كى تتصارع وتصطدم ، وأقام الثوريون حكم البورجوازية الصرف فى نقاء كلاسيكى على حد تعبير ماركس فى مقدمة كتابه « الثامن عشر من برومير لويس بونابرت » .

ولقد ظهر أبطال الثورة الفرنسية من أمثال « دانتون Danton » و « روبسبيير Robespierre » و « سانت جوست Saint-Just » و « نابليون Napolion » هؤلاء الذين نسفوا بثورتهم العارمة أصول الاقطاع . وحصدوا رؤوسه ؛

لإنتشار المبادىء الثورية ؛ وكان شعار « دانتون » الذى هو أكبر معلم عرفه التاريخ فى التاكتيك الثورى . « الجرأة ، الجرأة أيضا ، الجرأة دائما » . (١) ولقد أتاح نابليون تلك الفرص والظروف التى يتسنى فيها وحدها ظهور « المنافسة الحرة Free Competition وتوزيع الأرض المستغلة ، واستخدام الطاقة الانتاجية والصناعية . ثم انطلق نابليون بعد ذلك إلى هدم النظم الاقطاعية فيما وراء الحدود الفرنسية ، إلى المدى الذى كان فيه ذلك ضروريا ، وذلك « لتزويد المجتمع البورجوازي الفرنسي الناشىء بالبيئة الملائمة وسط القارة الأوربية » (٢) .

وإذا ما أرخنا للصراع الاجتماعى الذى ساد المجتمع الفرنسى ، لوجدنا أن العوامل الاقتصادية والدينية والاجتماعية قد إنصهرت بوضوح فى بوتقة الثورة الفرنسية ، فلقد ظهرت الصراعات بين طبقة النبالة وسلطان الحكم الملكى المطلق وشهد القرن الثامن عشر كفاح النبلاء ضد الملكية المتداعية ، وبينما تمتعت الكنيسة بالسلطة الزمنية ، كانت طبقة النبالة تعبث بالعدالة وتقتل القانون ، وتخنق المنافسة ، وتوزع المناصب توزيعا ظالما ، بمعنى أن المجتمع الفرنسى كان منقسما على حد ذاته ، حيث مزقت الصراعات الداخلية بين فئات النبلاء وجماهير الفلاحين . وكان النبيل يتشدق بعراقة أصله البيولوجى الممتد إلى غزاة الفرنجة ، أما العامة فتفتقر إلى هذا الدم الارستقراطى الذى يتوارثه « نبلاء السيف noblesse d'epee » و « نبلاء الرداء noblesse de robe » .

---

(١) لينين : « المختارات » الجزء الاول ، والمجلد الثانى ، دار التقدم ، موسكو ١٩٦٠ ص ٥٧٩ .

(2) Marx Engels. Seleted Works Vol. 1. Fifth Impression Moscow, 1962 p. 247.

وتقوم طبقة النبالة على العموم بخدمة الملك فى الحرب، وحفظ النظام فى الريف ولذلك تمتعت بالاعفاء من بعض الضرائب ، وخصصت لها مناصب محددة ، مثل قيادات القوات المسلحة ، ومناصب السفراء ، والمناصب العليا فى الكنيسة، ولذلك كان نبلاء فرساى يحتكرون أكبر المناصب والمراكز، بينما قنع نبلاء الريف بوظائف فى المرتبة الثانية من الأهمية . وامتيازات النبالة ، هى امتيازات اقطاعية ، منها ما يتصل بالأرض ، ومنها ما يتصل بالأشخاص ، حين يحتكر النبيل ، الطاحون ومعصرة النبيذ والخبز ، كما يفرض سلطانه على دور المحاكم والقضاء فيحصل منها على مورد آخر من الدخل ، وكل هذه امتيازات تتصل بالناس، أما امتيازات الارض فتتصل بالتغاضى عن دفع الضرائب ، حيث تمتلك طبقة النبالة خمس أراضى فرنسا.

ومن حيث المنصب والوظيفة ، تنقسم طبقة النبالة الى من ينتمى الى الاسر الحربية أو أعضاء البرلمان . فالاسر الحربية تحتقر كبار الموظفين وأعضاء البرلمان، وهؤلاء يحتقرون نبلاء المدن وسراة البورجوازيين الذين اشتروا مناصبهم وألقابهم ، ويقول المؤرخ الاجتماعى ، نورمان هامبسن Norman Hampson فى كتابه « التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية Social History of theFrench Revolution » ان شراء وظيفة قائد كتيبة عادية قد تكلف ٤٠,٠٠٠ ليرة فرنسية ، بينما تكلف قيادة هامة من قيادات الجيش أضعاف هذا المبلغ » (١) ومن هنا ظهرت فوارق المكانة أو المركز الاجتماعى Prestige . فعراقة الاصل والوظيفة الاجتماعية ودرجة القرابة من البلاط كونت جميعها شكلا معقداً من المركز أو المكانة كما تعبر جميعها عن سلسلة من الانقسامات الداخلية تميزها درجة من « الاحتقار والاستعلاء» . فنبلاء البلاط

(١) نورمان هامبسن التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية ، ترجمة فؤاد أندراوس ومراجعة الدكتور محمد أنيس وزارة الثقافة دار الكاتب العربى ص ٢١ .

يبدون الاحتقار لنبلاء الريف والأقاليم ، نتيجة لتلك المركزية التى انتهجها لويس الرابع عشر ، حيث « يختار نبلاء البلاط من أسر نبلاء السيف العريقة » .

أما الكنيسة ، فكانت هيئة شبه مستقلة ، تملك معظم أراضى الإقطاع المعفاة من الضرائب ، وتشرف على مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية ؛ وتسيطر على برامج التعليم سيطرة كاملة، وتراقب الصحافة والمطبوعات حماية للدين والأخلاق. وكان رجال الدين يمثلون الطبقة الأولى التى تشرف على تسجيل المواليد والوفيات وتراقب سجلات الزيجات ، فسيطرت الكنيسة على كل منحى من مناحى النظام الاجتماعى الفرنسى ، فكانت مصدراً للعمالة فى المدن ؛ وفى مدارسها يتربى أبناء النبلاء وكبار البورجوازيين ، وفى كنائسها ينظم الصانع والفلاح عمله طبقا لمواقيت الصلاة والعبادة .

التنبؤ بالثورة :

ا ـ فى هذا الجو الاقطاعى الرهيب ، تعقد المجتمع الفرنسى أشد التعقيد ، فسادت التميزات الطبقية واتسعت الفروق الاقتصادية وتوترت الحياة الاجتماعية والدينية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وأصبح مألوفا أن يتنبأ الناس بثورة إجتماعية وشيكة . حيث ازداد وعى الطبقة الوسطى ومكانتها الاقتصادية النامية ، فلقيت الارستقراطية مقاومة عنيفة من « البورجوازية المتطلعة إلى المكانة » ، وشعرت جماهير الفلاحين بوطأة الاتجاهات الاقتصادية الماكسة والناجمة عن ارجحية الإقطاعية ، ولاح شبح الهزة الاجتماعية الكبرى ، قبل حدوث الزلزال الثورى العنيف الذى كان يخبئه القدر لفرنسا (١) . فلقد زادت حدة التناقض بين نظام المراتب الاجتماعى والبناء الاقتصادى الفرنسى ، كما أن مبادىء التنوير وتقدم الحضارة والصناعة وازدياد الوعى الطبقى ، جعل من الثورة العارمة أمرا محتوما .

(1) Marx, Karl., The Poverty of Philosophy, Moscow, 1966 p. 152

ولقد اتسمت حركة « التنوير enlightenment » بهجوم صاخب على الكنيسة ، فأعلن « كوندورسيه Condorcet » في صالونات باريس الحرب على رجال الدين ، وكذلك فعل « فولتير Voltaire » حيث انقلب على اللاهوت الكاثوليكي بسخريته اللاذعة ولهجته العنيفة . وكان العدو الحقيقي لجماهير الفلاحين هو صاحب الأرض الذي يهددهم جشعه بانتزاع أرضهم ، وهذا هو السبب الذي من أجله لم يهجم الفلاحون عام ١٧٨٩ على نفائس النبلاء ، بل على « عقود الملكية الإقطاعية » .

وبدأت النبالة بمعركة دفاعية ضد الطبقة الوسطى وثراءها وطموحها ، حيث أدى بيع الوظائف المدنية والعسكرية إلى دخول وتسلسل الطبقة الوسطى ، حين عجزت النبالة عن الدفع لترفها ولإسرافها الكاذب ، وبدأ البورجوازيون يجلسون على موائد النبلاء ورجال البلاط ولكي يقف هذا التيار البورجوازي الداهم ، أصبحت جميع الترقيات لوظائف الأساقفة قاصرة على النبلاء في ظل حكم لويس السادس عشر فامتلأت الكنيسة بالأساقفة النبلاء . وغرقت الحكومة في القروض والديون ، فطالب « كالون Calonne » المراقب المالي العام بزيادة الضرائب على طبقتي النبلاء ورجال الدين ، لتعزيز مالية الدولة والوفاء بالقروض والديون . واتحدت الطبقة الارستقراطية الممثلة في الكهنة والنبالة ، وتضافرت جهودها ضد « كالون » فعزله لويس ، وجاء بعده « بريين Brienne » رئيس الأساقفة ، إلا أن هذا الأخير لم يستطع أن يجمع الأموال المطلوبة ، فقال « بريين » كلمته المشهورة . « مادام النبلاء ورجال الدين قد تخلوا عن الملك ، حاميهم الطبيعي ، فلابد له من الارتماء في أحضان العامة »[1] . وهنا سارت الأرستقراطية ضد

---

(١) نورمان هامبسن ، « التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسية » ترجمة فؤاد اندراوس ومراجعة الدكتور محمد أنيس ، وزارة الثقافة ، القاهرة ص ٥٤ .

الملك وانتصرت فى جولتها الأولى ، وأحرق الباريسيون دمية تمثل « بريين » التى قدم استقالته لاختلال الأمن والنظام فى المدينة . فطالب الملك بمضاعفة ممثلى الطبقة الثالثة فى « مجلس طبقات الأمة » ، حتى تلعب « طبقه العامة » دورها ضد إتحاد النبالة والكهانة .

بداية الثورة :

ب — لقد شجر الصداع الذى تعبر عنه كلمات «جورج صاند George Sand» فى عبارتها الثورية الخالدة «الحرب أو الموت، الصراع الدموى la lutte Sanguinaire أو العدم le néant » (1) . ولم يكن الصراع بين الأرستقراطية والعامة سياسياً أو إقتصادياً ، بل كان اجتماعياً ؛ حيث صمم النبلاء على الاحتفاظ بألقابهم وامتيازات طبقتهم المنفصلة فى كيان مجتمع المراتب ، تلك الامتيازات التى هى دليل « المكانة الاجتماعية » أكثر منها مصدراً للثروة . ولذلك تمسكت النبالة بحمل الألقاب واحتكار الوظائف القضائية والمناصب العسكرية والبحرية ؛ وطالب النبلاء بالعودة إلى تقاليد الفروسية القديمة وبالغاء شراء الوظائف التى تخلع ألقاب النبالة على من يشترونها ، مع تحريم شراء الضياع والاقطاعيات على الطبقة الثالثة .

وعلى العكس من ذلك ، صممت « الطبقة الثالثة » على قلب مفهوم المجتمع الذى التزم به النبلاء ، وطالب العامة أن تحل « الكفاءة » محل التاريخ البيولوجى وعراقة الدم وأصالة النسب ، وتمسكت جماهير البروليتاريا بمجتمع الفرص المتكافئة فى ميدان التربية والتعليم ، واستبدال النظم العتيقة بأفكار التنوير ، والغاء الامتيازات الطبقية والتطلع إلى نصيب من السلطة السياسية . وكانت هذه المطالب

(1) Marx, Karl., The Poverty of Philosophy, Moscow, Fourth Printing, 1966.

هى نفسها أهداف وتطلعات الطبقة البورجوازية .

وتواترت الأنباء فى ١٣ يوليو ١٧٨٩ عن قيام باريس بالثورة وإشعال النار فى جرك البلدية ، ونهب مخازن السلاح ، ثم نشب القتال بين الجيش وجماهير العامة (١) . فلقد إنتشرت المجاعة ونفذت المؤن وإرتفع ثمن الخبز ، وضاع محصول الغلال الذى أفناه البرد المتساقط ، فنهبت قوافل الطعام ، وأحيط كل مخبز بحشود من الناس ، وعملت رداءة المواصلات على تصديق الناس لأغرب الشائعات وتهويلها ، وبدأت البورجوازية فى إنتهاز الفرصة ، حتى تقلب الحركة من « فتنة » إلى « ثورة » ، فكونت رجال الحرس الوطنى الفرنسى وأمدته بالأموال والسلاح للسيطرة على الموقف ، وتأييد مجلس طبقات الأمة ، فراحت المتاريس ترتفع ، وحفرت الخنادق ، ووصل الثوار إلى مخزن البارود فى حصن الباستيل المشهور ، فحاصروه واستولوا عليه . وانتصرت جماهير البروليتاريا ، حين تهاوى الباستيل رمز الظلم والاقطاع ، وتنازلت الأرستقراطية عن سائر امتيازاتها الطبقية فى ليلة ٤ أغسطس المشهورة .

وإزاء هذه الضربات البروليتارية المظفرة ، حافظ الحرس الوطنى البورجوازى على الأمن والنظام ، وصدر القرار الخاص ببيع أملاك الكنيسة التى قدرها « جارو Garaud » بنحو ثلاثة مليارات من الايرات الفرنسية ، وساهمت كل الطبقات فى شراء ضياع الاقطاع الكنسى ، وكان كثرة المشترين من جماهير الفلاحين ، كما لم ينفر النبلاء من تجريد الكنيسة من أراضيها وممتلكاتها (٢) .

الكتل والتجمعات السياسية :

٥ — فى هذا الجو الاجتماعى المضطرب ظهر أبطال الثورة ، من أمثال « انتون »

(١) المرجع السابق « التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية » ص ٨٠ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

و « روبسبير » و « مارا Marat » و « لافاييت Lafayette » وهم لا يعبرون عن أنفسهم كأفراد ، وإنما يمثلون شراذم من « فرق وجماعات وكتل جمعية » ، صدرت عن طبقات مهنية جمعتها وحدة الآلام والآمال ، فظهر « الجيروند Girondis » و « اليعاقبة Jacobin » وجماعات « الجبليين Montagnards » و « الصان كيلوت Sans-Culottes » وكانت « الكومونات » في أيدى اليسار(١) والقرى في أيدى أعداء الاقطاع ، والبلديات في أيدى البورجوازيين وطبقة الأغنياء من أنصار الملكية الدستورية .

ويمثل « دانتون » و « روبسبير » قادة اليسار من كبار اليعاقبة ، وهم أكثر الطبقات الثورية تطرفا . أما « الجيروند » فهم جماعة من اقليم الجيروند كما يدل على ذلك اسمها ؛ وتضم المحامين ورجال الأعمال من الشبان ، وكانت لهم صحافتهم الخاصة التي تهاجم فيها خصوم الثورة ، فكتبت « مدام رولان Mme Roland » تقول : « إن الحرب الأهلية ستكون مدرسة عظمى للفضيلة العامة ، وأن السلام فيه نكسة لنا ، ولا سبيل أمامنا للتجدد إلا سبيل الدم » .

وكان « الجبليون » ثواراً يشبهون الجيروند في إتجاهات العقيدة والفكر والمزاج ، والأصل الاجتماعي ، فكلاهما متعلق بالثورة وبمبادىء الجمهورية ، وكلاهما يكره الامتيازات ويعادى الاكليروس ، وكلاهما يحلم بالرفاهية الاجتماعية وبناء فرنسا الجديدة وهي أكثر ثراء واستنارة وانسانية .

أما « الصان كيلوت » فهم الذين لا يملكون شيئا على الاطلاق ، حتى بنطلونات الركوب ، لأنهم بسطاء أو « قوم وسط بين البورجوازية وصغار

---

(١) « الكومون la Commune » تعنى مقاطعة ، وهي أدنى وحدة ادارية ، كما أنها مركز للتوطن السكاني ، فقد تتمثل في « قرية » أو في « مدينة » مثل باريس نفسها .

البروليتاريا »، وهم طبقة معدمة لا تملك ، وتمثل طبقة الصان كيلوت العنصر الغالب من سكان حواضر فرنسا ، وهم الباعة وأصحاب الدكاكين والحرفيين ، ويمثل أصحاب الحرف اتجاهاً أكثر يسارية وتطرفاً فى جماعة « الصان كيلوت » ، لأنهم رجال ألفوا شظف العيش ، وعانوا الكثير من ضراوة معاملة السلطة واستبداد النبالة وقسوة الامتيازات ، فنادوا باعدام وابادة جميع أعداء الثورة .

ولقد آمن الجيروند بأن «روبسبيير» وأتباعه من زعماء اليعاقبة إنما يتطلعون إلى دكتاتورية إرهابية دموية ، وحدثت اختلافات هائلة بين سائر « التجمعات والكتل والطبقات » ، فقبل الجيروند محالفة الملكيين ، وقبل الجبليون محالفة « الصان كيلوت » . ولم يخل النضال الثورى من عنصر الصراع الطبقى ، حيث أن الانقسامات داخل المدينة لم تفسر إلا بأسبابها الاقتصادية ، فقام « الصان كيلوت والجبليون » « بالتبشير بحرب الفقراء ضد الاغنياء »(١) .

وفى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ وهو يوم مشهود فى التاريخ الاجتماعى الفرنسى ، تجمع « الصان كيلوت » وجعلوا من أنفسهم « كومونا ثوريا » اشتهر فى التاريخ الفرنسى باسم la Commune du Io Aout حيث توجه « الصان كيلوت » إلى قصر التويلرى ، ووقع بينهم وبين الحرس الملكى قتال دموى عنيف ، إنتهى باحتلال قصر التويلرى ، واستيلاء « الصان كيلوت » على العربات من شوارع باريس ، وطردوا القضاة وضباط البوليس ، وأقاموا المحاكم الشعبية وتعقبوا أعداء الثورة .

وفى نفس هذه الفترة التاريخية ، حاول الجيروند أن يجنوا ثمار ما قام به الصان كيلوت ، فتقلدوا كل الوزارات عدا وزارة العدل التى تولاها العضو اليعقوبى « دانتون » . وأمر الجيروند بوقف الملك وطرد الكهنة العصاة واصدار

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

التشريعات لصالح جماهير الفلاحين . بينما طالب اليعاقبة بخلع الملك ، ومحاكمة من حاربوا فى صفه على يد محكمة ثورية خاصة . إلا أن الجيش البروسى كان قد عبر الحدود الفرنسية فى ١٦ أغسطس ، حتى تمثل حركة ١٠ أغسطس الثورية ، وتقدم البروسيون نحو باريس لحماية « سلطـــان الملك المصلح الطيب » لويس السادس عشر ، وللدفاع عن نظام حكمه الملكى ، واستولى الجيش الغازى على عدد من القلاع الحصينة على الحدود الفرنسية . وبدأت جماعة اليعاقبة فى الاستعداد للدفاع المستميت عن باريس بقيادة مجلس الوزراء تحت زعامة « دانتون » . وهب الباريسيون يحملون السلاح ، وزحفت البروليتاريا دفاعاً عن الثورة ، واتفقت « جماعات الجيروند واليعاقبة والصان كيلوت ، على القيام بحركة موحدة للدفاع الوطنى ، وزحفت الأعداد الهائلة على تلال « فالمى Valmy » حيث كان اللقاء التاريخى الحاسم مع الجيش البروسى الغازى ، وهناك انتصرت الثورة ، وانسحب البروسيون بعد فالمى إلى الحدود ، وأعلنت « الجمهورية » .

ولقد أصبح « حكم الجمهورية » فى نظر اليعاقبة هو « حكم الفضيلة » ، وأعلن روبسبيير الحرب ضد كل الشرور ، حيث تتوحد كل الجهود من أجل قضية الفضيلة فيحكم الشعب « بقانون العقل » ، ويحكم أعداؤه « بقانون الارهاب » . وهكذا تحققت دكتاتورية البروليتاريا قبل ظهور الماركسية ، فرفعت الثورة الشعارات القائلة « لا عفو ولا شفقة على الخونة ، الأمر الذى معه ساد العنف والغضب وسفك الدماء ، وطالب اليعاقبة بأن يكون « الإرهاب هو البرنامج » ، باعلان القبض على كل من تلحقه شبهة العداء للثورة .

الصراع بين « الثورة » والكنيسة :

د ـــ ارتبط الدفاع الثورى الجمعى بالعداء ضد الكنيسة ، فتقرر ألا يترك لكل أبرشية سوى جرس كنيسة واحد ، وان تصهر الاجراس الباقية لصنع المدافع

من معدنها، وأطلقت على المواليد أسماء «غير مسيحية» ، وألغيت الأعياد الدينية وظهر التقويم الثوري الجديد على أساس عشري ؛ وحلت الايام العشرة محل الاسبوع ، واختفت أيام الآحاد ، وشجر الصراع بين الثورة والكنيسة؛ باصدار الأمر بزواج القساوسة والرهبان ، وأن يتبنى كل منهم طفلا أو يعول شيخاً(١). وهاجمت الثورة السلطة الدينية ونددت بالرهبنة والتبتل وعدم الزواج ، لأن الرهبنة خطر على الفضيلة وإهانة للطبيعة ، وانكار لواجب الانجاب للابنـــاء المحبين لوطنهم .

وفى عصر الارهاب ، حلت عبادة الجمهورية والفضيلة ، محل العبادات الخرافية والأوهام الغيبية ، وجردت الكنائس من النفائس والزخارف والآنية المقدسة ، وأرسلت جميعاً إلى الخزانة القومية ، وقامت البروليتاريا بحركة التجريد للضغط على الاكليروس ليستقيلوا أو يتزوجوا ، وقام «الصان كيلوت» بالمواكب الساخرة التى تهزأ بشعائر الكنيسة ، حين يتقدم مواكب جيوش الثورة من يرتدى «برنس الاسقف» ، بينما يستخدم قارع الطبل «عصا الأسقف القرمزية» .

وفى ظل الارهاب الثورى العنيف ، ظهرت التعاليم الجديدة فى فلسفة الثورة الفرنسية ، وصدرت المبادىء التى تؤكد الحرية وتعلى من قيمة الفكر ، وأصبح «العقل فى الجمهورية هو الإله المنظم للكون» ، فالجمهورى الحق لايؤمن بالخرافة ولا يجثوا أمام الأصنام ؛ ولايعبد سوى الحرية ، كما أصبح الصليب أمام الجمهورى شعاراً معاديا للثورة» .

وباندحار النبالة وتجريد الكنيسة ، إزدهرت البورجوازية ، وتحققت البروليتاريا من أنها كانت بمثابة «الأكباش الحديدية»(٢) التى استخدمتها

(١) المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٢) هورو بتز : « أصول فلسفة الطبقة الوسطى » تعريب الدكتور عبد الجليل الطاهر ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٦٠ ص ٣٥ .

البورجوازية لتحقيق أهدافها فى تلك الحركة الثورية التى فيها أصبحت البروليتاريا «ضحية هذا الانتصار المزعزع» ، فشجر الصراع بينها وبين البورجوازية(١)، حين ظهرت حركة «الشبيبة الذهبية jeunesse dor's» ، وهم جماعة يمينية من أبناء البورجوازية الذين هربوا من الخدمة العسكرية ، وهاجموا مبادىء الارهاب ونظامه ، ونادوا بالغاء قانون الاشتباه ، وبوقف اضطهاد الاشراف والاكليروس والتمسك بسيادة القانون الذى يحمى كل الأفـــراد والطبقات ، وبذلك تطهر فرنسا نفسها من الارهاب الثورى العنيف ، بانتهاء حمامات الدم ، وغلق نادى اليعاقبة مع إعدام قادتهم ، فيطر اليمين والجيروند والمعتدلون ، وبدأ عصر أعداء الارهاب ، الذى سمى بعصر «الارهاب الأبيض» .

التجديد فى بناء القيم :

ه ـ فى نهاية المطاف تألفت «جمهورية اجتماعية» يتزعمها البورجوازيين وسقطت قلاع البروليتاريا فى كل مكان، وتركوا مناصب السلطة كى يشغلها المعتدلون. وبذلك كان الأساس النظرى للثورة الفرنسية ، يختلف تماما بل ويناقض ذلك الأساس المادى الماركسى ، حيث نظرت الثورة إلى القيم الخلقية ، كأساس للبناء الاجتماعى ، ولم تنظر إلى «البنية المادية أو البناء الأسفل كأساس يعكس القيم الخلقية» كما يدعى الماركسيون(٢) . ولم تقلب الثورة شكل الملكية ونظامها رأساً على عقب ، لأن الأمر لم يكن سوى تعديلا لنظام الملكية ، أو تعجيلا لاتجاهات وجدت فعلا فى ظل النظام القديم ، فلقد قل عدد ضيـــاع النبلاء ، وازدادت ملكية الفلاحين ، وسادت الأفكار المعتـــدلة والوسيطة ، لا الآراء الاشتراكية

(1) Marx, Karl., The Poverty of Philosophy. Fourth printing. Moscow 1966. pp 105-107.

(2) Marx Engels, Selected Works., Fifth Printing Vol : II Moscow 1962. p. 98.

المتطرفة ، ولم تشرع الثورة أية تشريعات طبقية ، وإنما حاولت إيجاد البناء الاجتماعى المنسجم الذى يضحى فيه كل فرد بمصالحه الاقتصادية الخاصة فى سبيل رفاهية الجماعة ، بالعمل على تخفيف شقاء الانسان الكادح ، وحماية رأس المال الوطنى ، وتوزيع الأرض ، بحيث تشيع العدالة الاجتماعية وتصبح الحالة الراهنة « حالة فاضلة » فلقد جردت الكنيسة وخسرت أملاكها ، وسقط المجتمع الطبقى ، واختفت المشانق الاقطاعية التى كانت الرموز الخارجية للقضــــاء الاقطاعى ، واختفاؤها هو التعبير المادى عن التغيير الذى طرأ على شكل العلاقات الاجتماعية ، مع ظهور الأنماط الاقتصادية الجديدة .

وختاماً ؛ فلقد كانت الثورة العاتية ، كالقطة التى أكلت بنيها ؛ فحصدت المقصلة الثورية رؤوس أبطالها ، ولم يتابع المسار ويجنى الثمار سوى « نابليون » البطل المتطلع الذى كان بمثابة حركة التقدم الضرورية فى « جدل التاريخ » . فكان ظهور نابليون هو نقطة التحول الحاسمة والحتمية فى تغيير التاريخ الاجتماعى لأوربا بأسرها . ولذلك نظر «هيجل» الى نابليون ، على أنه « روح العالم على ظهر جواد » .

ولقد كان « هيجل » معجباً بالثورة البورجوازية التى انتصرت فى فرنسا ، فقلبت النظم الاقطاعية القديمة ، وهدم مدفع نابليون البناء الاجتماعى القديم ، بعد أن كان يظن فيما مضى من العصور الوسطى ، أن الاقطاع هو النظام الازلى الثابت » .

تعقيب ومناقشة :

إن كل ما يعنينا فيما يتعلق « بسوسيولوجيا التاريخ » هو أن كل العمليات والمواقف فى التاريخ إنما تقوم على أساس الفكرة النسبية **Relativity** نظراً لتباين المتغيرات واختلاف العصور والثقافات(١) . كما تلتزم فلسفة الموقف فى

---

(1) Merton, Robert., Social Theory and Social Structure Glencoe. NeW York 1962. p. 503

التاريخ بالمنهج الوظيفي Functional Method فى تفسير الظاهرات والاحداث التاريخية والاجتماعية وتلك هى « محاولة عالم الاجتماع التاريخى » فى دراسته للاتجاه السوسيوتاريخى ، وتلك هى « وجهة نظره البنائية » فى تحليل الوقائع الجزئية بالنظر إلى سياقها العام ، ودون عزلها أو فصلها عن ذلك البناء الكلى التى هى جزء فيه ، حيث يضفى البناء الاجتماعى والسياق التاريخى على مختلف التفصيلات والاحداث الجزئية ومغزاها ومبناها(١) .

بمعنى أننا لا يمكن أن نفصل فصلا تاما بين وقائع التاريخ «فان واقعة إبحار نابليون بحملته من طولون ، لاتنفصل إطلاقا عن عملية غزو مصر » ، كما أن «دعوة محمد على للماليك فى القلعة لا يمكن عزلها عن عملية الغدر بهم» ، فالوقائع التاريخية ليست « منعزلة » أو منفصلة الواحدة عن الاخرى كوقائع الطبيعة ، وإنما هى « معطاة ككل وظيفى » ، تتصل فيه الاحداث وتترابط بحيث يضىء بعضها بعضاً ويفسر السابق اللاحق ، ويكشف المقدم عن التالى. فلا يمكن أن نتصور الاحداث والوقائع فى « عزلتها » بانتزاعها من «بنائها الكلى» ، وإنما نتفهمها فقط بالتحامها فى سياقها التاريخى وإطارها الاجتماعى .

وإرتكانا إلى هذا الاساس ، سيطرت وجهة النظر البنائية على الاتجاه السوسيوتاريخى ، فلا تفهم أية فكرة جزئية إلا من خلال سياقها العقلى الكامن فى بنية « الحقيقة السوسيوتاريخية » ، تلك التى لا تتسم بالثبات الاستاتيكى على ما تصور الفلاسفة ، لكنها حافلة بشتى «القوى» و «الصراعات» و «المتناقضات» المنبثقة أصلا من دينامية العمليات والمواقف ، وما تحوى من دافعيات محركة لمسار التاريخ .

---

(1) ***Mannheim, Karl.,*** **Essays on Sociology of Knowledge, Routledge, London 1963. p. 9.**

وختاما — فان أحداث التاريخ وعملياته ومواقفه لايمكن فصلها عن سياقها الاجتماعى ، أو تفسيرها بعيداً عن « مواقف الحياة life - Situations » فالماضى التاريخى هو جزء لايتجزأ من الماضى الاجتماعى والتراث الثقافى ، كما أن « موقف الابطال » فى التاريخ إنما يتكامل مع طبيعة المواقف السوسيوتاريخية . لان التاريخ نفسه هو حركة جدلية لا يمكن نزعها عن الاطار الاجتماعى التى هى جزء فيه ، حيث تسيطر تلك «الحركة الجدلية » تماماً على مسار التاريخ الاجتماعى وبذلك لايمكن عزلها عن مضمونها الذى يضفى على مسار التاريخ منطقه ومعقوليته كما وقد يعطيه أيضا « المعنى والسياق » و « الفهم والفحوى » فيتبين لنا فوراً مغزاه ومبناه .

الفصل الرابع

• الفكر السياسي وروح العصر

* تمهيد
* سوسيولوجية الفكر السياسي
* منطق الانسان وتصوراته الاجتماعية
* من عصر « الرق » إلى عصر « الصناعة »
* علم الاجتماع السياسي برصد ظواهر الفكر

تمهيد :

يقول « ليون برنشفيج Léon Brunschvicg » : إن تاريخ الفلسفة ، هو تاريخ الذكاء البشري وتقدمه ، وهو سجل يحوى فى طياته أصول الوعى الإنسانى وتطوره [1] ، منذ تطلعاته الأولى التى صدرت مع شطحات « طاليس » و « هرقليطس » ، وتصورات « أرستبوس Aristippe » و « بارمنيدس Parmenides » ، حتى نضجت تلك البدايات والتطلعات فى القرن العشرين وبلغت ذراها حين ظهرت آخر تطورات الوعى والذكاء ، فى صورها وأشكالها المعاصرة عند « برتراندرسل Bertrand Russell » و « جان بول سارتر Jean Paul Sartre » [2] و « هربرت ماركيوز Herbert Marcuse » .

وليست الأفكار وليدة العدم ، ولا تتعلق التصورات فتسبح أو تصدر فى فراغ in Vacuo ولكننا نجد أن للفكرة تاريخاً فى النفس ، وتاريخاً فى الوجود ، بمعنى أن للفكرة ماضيها الاجتماعى الخصب ، الذى يضفى عليها معناها ومبناها كما ويعطيها فى نفس الوقت فهماً أوفى وأدق . فللفكر أصوله فى جوف الماضى ، وجذوره التى تمتد بعيداً فى باطن التاريخ .

وقد تشيخ الفكرة أو تضعف ، وقد يصيبها الهزال ، فتختفى عن المسرح ، إلا أنها مع ذلك لا تموت ، فقد تظهر ثانية فتنبعث فيها الروح ، وتقوى وتتجدد ، حين تنمو وتزدهر وتتكيف مع روح عصر جديد .

---

(1) Brunschvicg, Léon, Le Progrés de la Conscienece, Tome Second. Paris. 1963.

(٢) أنظر فى هذا الصدد : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، راجعها وأشرف على نقلها من الانجليزية الى العربية ، الدكتور زكى نجيب محمود ، سلسلة الالف كتاب ٤٨١ مكتبة الانجلو المصرية .

الفلسفة السياسية ومصادرها الاجتماعية :

إن الفلسفة بالرغم من تعدد اتجاهاتها ومدارسها ، وتعقد قضاياها ، وتشعب فروضها وأحكامها وتعمياتها Ganeralizations الفضفاضة ؛ لم تحقق بعد موضوعيتها .

وإستناداً إلى هذه القاعدة الصلبة ، نستطيع أن نؤكد فى بداهة منطقية ، وأن نعلن فى قوة وبنظرة واقعية ، أن الفلسفة بتعمياتها ونظراتها المجردة ، إنما ترتبط رغم أنها متعالية transcendental بأصول إجتماعية ومصادر ثقافية .

فلم تهبط الفلسفة علينا من السماء ؛ بل صدر الفلاسفة أصلا عن مجتمعات ، ونشأوا فى أحضان الثقافات ، ولم ينفصلوا اطلاقاً عن هذه المصادر الاجتماعية والحضارية . فلا يعيش الفيلسوف فى عزله ، ولايختلى أو يتأمل فى برج عاجى أو فى خلوة « ميتافيزيقية » تفصله تماماً عن أسرته ومجتمعه ، وليست الفلسفات فى أنفسها إلا « حالات إجتماعية » تحتمها ضرورة التطور الأيديولوجى والتقدم العقلى لمجتمعات البشر . وبهذا المعنى ، يعبر ظهور الفلسفات فى حركتها عن « مراحل إنتقال إجتماعية » حتمتها الضرورة الديناميكية لتطور الوعى والذكاء خلال مسار التاريخ .

وإستناداً إلى هذا الأساس ، يصبح فكر الانسان وعقله ، وأدوات إدراكه ومثله العليا ، بمثابة « ثمرات » جناها الانسان ؛ وقطفها من شجرة المجتمع .

إلا أننا نعيب على الفلاسفة ، لهذا السبب نفسه « حينما يجردون عن الانسان فكره ومثله العليا ، على الرغم من أنه مخلوق إجتماعى بطبعه ، له ثقافته وتراثه وتاريخه وماضيه . ولذلك كان فهم الانسان بعيداً عن ظروفه وأوضاعه وحالاته الاجتماعية ، هو فهم أجوف ، ولا يتم عن شىء . وتلك هى الثغرة الأساسية فى كتابات الفلاسفة ، والشرخ الواضح فى كل نسق فلسفى أو بناء ميتافيزيقى بالاضافة

إلى نقطة الضعف الشديدة التي تعانى منها مباحث الميتافيزيقا ، بتعميماتها الفضفاضة ، إنما تكمن فى عدم الالتفات إلى ضرورة الربط ربطاً منطقياً وواقعياً بين « الانسان » و « المجتمع » .

وإستناداً الى هذا الفهم - يمكننا أن نتوصل إلى « فهم أوفى وأدق » لهذا الانسان من خلال ظروفه وإمكانياته وثقافته ، كما نستطيع أن نتعرف على أسلوب حياته وطريقة تفكيره ، وطبيعة معارفه وأحلامه « وذكرياته ومدركاته الحسية . وهنا نصل فوراً « إلى منطق الانسان » ونلتمس فلسفته ، ونتعرف على قيمه ومثله العليا ، وكلها أمور مستوحاه من طبيعة الحياة الجمعية ، التى تفرض على الانسان كل مايتصل بأوضاعه وظروفه وحالاته الشعورية والوجودية .

فلقد ظل الفلاسفة سجناء أفكارهم ، ولعبوا بكرة العقل على أرض « غير مشروعة » ، حين عالجوا التصورات والاحساسات خارج حدود المجتمع ، فجاءت نتائج الفلسفة مخيبة للآمال . الا أن « الأبعاد الاجتماعية » قد أكدت نفسها فى تفسير « العقل والتصورات » ، على أرضية المجتمعات ، مما يفرض على جمهور الفلاسفة إعادة النظر فى « طبيعة الموقف الفلسفى برمته » .

ولكى نعمل على سد هذه الثغرة القائمة فى سائر أنساق الفلسفة ، نستطيع أن نقدم شيئاً من التبريرات والمعاذير ، ومن وجهة نظر جمهور الفلاسفة على الأقل ، حيث ظل ميدان العلوم الاجتماعية مغلقاً طوال عصور الأيديولوجيا ، وظهور الفلسفات الكبرى . فالعلوم الاجتماعية هى علوم حديثة نسبياً ، ظهرت ونضجت وتطورت ، خلال قرن أو حتى نصف قرن من الزمان ، ومن ثم لم يعاصر ظهور العلم الاجتماعى ، أصحاب الأنساق الميتافيزيقية المشهورة ، من أمثال « أفلاطون » و « ديكارت » و « كانط » .

منطق الانسان ولصوراته الاجتماعية :

يستمد الانسان كل مقومات الفكر الأساسية ، كمقولات الزمان والمكان والعلية والعدد ، وهى بمثابة الهيكل الذى يصوغ فيه الفكر قوالبه ، بما ينسكب فيها من فحوى ظروف التاريخ ، وبنية الثقافة وتراث المجتمع ، ومن ثم كانت « الاطارات العامة » للفكر هى من صنع المجتمع .

ففكرة الزمان مثلا ، قد أتت إلينا من إيقاع « حركة الحياة الجمعية » كما صدر المكان عن مواضع القبيلة ، كما لا تتميز مقولة الجنس ومقولة النوع ؛ عن فكرة الجنس البشرى . فالإتحادات والقبائل كانت هى أولى « الأجناس **Genres**» كما كانت العشائر **Clans** هى أولى الأنواع ، وبذلك صدرت الاطارات المنطقية **les Cadres logiques** عن أصولها الكامنة فى الاطارات الاجتماعية **Les Cadres Sociaux**[1].

أما فكرة التناقض **contradiction** ، فقد أتت الينا من أصول دينية ؛ حين يحدث التعارض الثقافى أو التمايز الدينى ، بين ما هو « مقدس **sacré** » وما هو « غير مقدس **Profane** » . فاستطاع الانسان أن يميز منطقياً بين « الصواب والخطأ » ، وهذه هى أمور نسبية واجتماعية ، فما هو حقيقة فى الشمال ، قد يكون باطلا وضلالا فى الجنوب .

وليست المقولات الاجتماعية صوراً جوفاء وفارغة ، كتلك الصور والمقولات الكانطية ، وإنما هى صور ممتلئة بالثقافة ، ومقولات مشبعة بعناصر اجتماعية ، لم يعمل المجتمع على خلقها ، بل وجدها المجتمع فى ذاته[2] حين نشأت كل

(1) Durkheim Emile-, De quelques formes Primitives de Classifications, L'anuee Sociologique, Vol : VI pp. 1-72.

(2) Durkheim, Emile., Les Formes Elémentaires de la vie Religieuse, Paris 1912 p. 207.

(3) Ibid : p. 633.

التصورات والمقولات فى جوف الدين .

وقد انبثقت « التصورات الاجتماعية » وسائر مقولات الفكر ، من تصورات دينية بحتة ، ولما كان الدين جماعياً وجمعياً فهو شيء إجتماعي une Chose Sociale فالدين ليس كشله شيء يتصف بكونه إجتماعياً ، فكل ما هو دينى هو جمعى ، كما تصبح كل التصورات الدينية هى تصورات جماعيـــة . فالدين أو المجتمع هو الأساس الموضوعى للفكر ، إذ أن المقولات ليست عارية عن كل قيمة موضوعية حيث يكمن الأصل التاريخى للمقولات فى الأصل الاجتماعى الذى صدرت عنه[1] بمعنى أن الصور الإجتماعية ، هى الأساس الذى صدرت عنه صور الفكر ـــ فنحن لا نعثر على مقولات الفكر وتصورات العقل ، إلا بانتزاعها من تلك الصور أو التصورات الجماعية ، التى كانت كامنة فى بنية المجتمع .

ولقد ذهبت الفلسفة التجريبية عند كبار ممثليها من أمثال « جون لوك » و « دافيد هيوم Hume » و « هربرت سبنسر Spencer » ويمثل الأخير الاتجاه التجريبى فى الميتافيزيقا ، كما ويمثل الإتجاه التطورى فى علم الإجتماع . ولقد أجمع التجريبيون على أن المقولات والأفكار ، هى تصورات بعدية APosteriori تستند إلى أصول تجريبية ، وعناصر حسية أو شعورية . فقد تشتق التجربة من الاحساس والانفعال والخبرة والشعور . أو قد ترتد إلى عامل الوراثة ، حين تتراكم نتائج التجربة الفردية وتتواتر ، فيحدث التعميم عن طريق تواتر الوراثة على ما يقول « هربرت سبنسر » ، على إعتبار أن التجربة والتداعى لا يكفيان لتفسير عمومية المعرفة ، وفسر التطوريون تلك العمومية بالرجوع إلى « فكرة الوراثة فى النوع » ، واستبدل سبنسر « التجربة الفردية » بتجربة النوع الإنسانى

---

(1) Ibid, p. 26

كما استبدل فكرة التداعى بفكـرة « العادات الموروثة »(١) ، وعلى هذا الأساس أصبح هربرت سبنسر ، هو الممثل الحقيقى للنزعة التطورية فى علم الإجتماع ، وهى نفس النزعة التى أكملت المذهب التجريبى فى الفلسفة.

ولكن المذهب التجريبى يلغى سلطان العقل ؛ ويرى أن الإحساسات والمعطيات الخارجية هى أساس كل علم ، إلا أن التجربة ليست ممكنة ، وليست كافية فى ذاتها حيث تتعارض المعطيات الحسية ، وتضطرب الحالات الجزئية والمشاعر الوقتية ، نظراً لشدة تغيرها وعدم ثباتها ودوامها .

ومن هنا وقعت الفلسفة فى حيرة بين قطبى « الذات » و « الموضوع » ، و « العقل » و « التجربة » ، فحكمت الميتافيزيقا على نفسها بالثنائية ، وهى « ثنائية » بين « المثال » و « الواقع » ، حيث أننا إذا ما أخذنا بالتجربة ، كان فى ذلك إلغاء لسلطان العقل . وإذا ما بهرنا بسلطان العقل والتأملات ، فلسوف يضعف بالتالى إيماننا بالعلم الوضعى ، ونحن إزاء ثنائية كامنة فى الإنسان نفسه ، حين يصبح كائناً ثنائياً مزدوجاً ، فهو من ناحية كائن فردى un être individuel ومن ناحية أخرى كائن إجتماعى un être social نظراً لإنتماء الإنسان الفرد إلى أسرة أو جماعة أو زمرة(٢).

ولقد انحصرت الفلسفة بصدد المعرفة والميتافيزيقا فى النظر إلى الإنسان على أنه « غاية الطبيعة Finai Naturae » فهو الكائن الطبيعى النهائى ، وهذا المخلوق الذى ما بعـده خليقة ، والحقيقة التى لا تتجاوزها أو تتعداها

(1) Janet, Paul. & Séailles, Gabriel., Histoire de la philosophie, quatriéme edition Paris. 1928. p 168.

(2) Davy, Georges , Emile Durkheim. Paris, 1927 p. 188.

حقيقة(١). وفى الرد على مزاعم الفلاسفة ، تقول ليس الإنسان غاية فى ذاته ، ولكنه « المجتمع » الذى جمع فى طياته وفحواه سائر الحقائق والأفكار ، فانصهرت فى جوفه كل المتناقضات ، حيث إجتمعت فيه قوى الخير والشر ، حيث يحوى المجتمع كل ماهو « متعالى » وما هو « متسامى » ، كما لا يخلو فى نفس الوقت عما يثير « الشهوات » و « اللذات » . فالمجتمع حقيقة جامعة وجمعية وقائمة بذاتها sui - Generis ومن نوع خاص ، وهو فى ذاته قد يحقق كل الغايات .

ولكننا نتساءل : إلى أى حد تعبر الفلسفة السياسية عما يدور فى سائر العصور؟ وكيف تكون الفلسفة سجلا لروح عصرها ، ومرآة صادقة تنعكس عليها كل سمات الثقافة السائدة فى بنية المجتمع ؟! .

فى الرد على هذا التساؤل : نقول على سبيل المثال لا الحصر ، لقد عبر الفكر الفلسفى اليونانى عن مصالح طبقية قديمة سادت روح العصر الاستقراطى فعبرت الفلسفة اليونانية عن مصلحة « الأقوى » أو إمتياز « الصفوة Elite » فلقد كانت الطبقة الارستقراطية بامتيازاتها « فوق المصلحة العامة » ، التى هى مصلحة الرعاع ، على حد تعبير أفلاطون ، على اعتبار أن كثيراً من « العامة » أو « العبيد » كانوا يقومون بوظائف « العمل اليدوى » الذى إحتقره سادة أشراف اليونان وفلاسفتهم . فالعبد عندهم ، يقوم بالوظائف الدنيا ، إذ أنه « آلة بيولوجية » وهذه نظرة رجعية و « لا انسانية » ووصمه عار فى جبين الفكر اليونانى . وهذه هى نقطة الضعف البارزة فى فلسفات « أفلاطون » و « أرسطو » ، على الرغم من إشراق الفكر اليونانى وعظمته ، وأثره فى حضارة الإنسان

(1) Durkheim, Emile, Les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse, Paris. 1912. p. 627.

وفكره ومثله العليا ، إلا أن هذين الفيلسوفين رغم كونهما من أساطين الفكر الإنسانى على العموم ، نجدهما ينظران للأسف الشديد إلى « العبد » نظرة خاصة ، فهو فى نظرهما « آلة متكلمة » خلقت للخدمة والعمل اليدوى الحقير ، وهما فى ذلك إنما يعبران عن « روح العصر اليونانى الأرستقراطى » خير تعبير .

فاللذة عند فلاسفة اليونان ، ليست إلا للطبقة الأرستقراطية التى تسعد بالنعيم والخيرات ، أما « الحرمان » و « الفقر » و « التقشف » و « البؤس » ، فللطبقات الدنيا من « عبيد الأرض » أو « القطيع » على حــــد تعبير الفيلسوف الألمانى « نيتشه Nietzsche »[1] .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن فلسفات اللذة والمنفعة ، قد خلقت للسادة والأشراف ، أما فلسفات « الواجب » والألم ، والعمل ، فقد صدرت للعبيد والأرقاء ، وتلك قضية تعبر عن « محصلة نماذج الفلسفة اليونانية » كما صدرت عن روح العصر ، وهبطت الينا بفعل حركة التاريخ ، وهى فى واقع أمرها نماذج وأخلاقيات وفلسفات ، عبرت عن « صور إجتماعية » وعن قيم وأنماط ، منتزعة من الواقع اليونانى التاريخى التى مرت به . فنحن نستلهم الماضى فى تفسير الحاضر ، كما قد يلقى الماضى على الحاضر ضوءاً أو فى وأدق . فاذا ما أردنا مثلا أن ندرس أوضاع المجتمع اليونانى القديم وقيمه وأخلاقياته ، كان لزاماً علينا أن ندرس كتابات « أفلاطون » وأقوال « سقراط Socrates » ودراسات « أرسطو » والرواقيين ، تلك التى تعبر جميعها عن الإتجاهات الإجتماعية المنبثقة عن روح العصر اليونانى القديم .

---

(1) Martindale, Don., The Nature and Types of Sociological Theory. Routledge and Kegan palul, London 1961.

الفلسفة وعصر الايمان بالعلم :

إذا كان القرن السابع عشر هو عصر الإيمان بالعقل Reason فان القرن الثامن عشر هو عصر الايمان بالعلم Science ، فلقد انبهرت كل من فرنسا وانجلترا ، بكل نتائج الحركة العلمية ، طوال القرن الثامن عشر ، وهو عصر الأيديولوجيا التجريبية ، أو الفلسفة الأمبيريقية empirical Philosophy .

وهناك مقدمات فلسفية ضرورية ، قام بها كل من « ديكارت Descartes » و « بيكون Baocn » كتمهيد لسيادة العـلم ، وسيطرة المنهج الوضعى فلقد وضع « ديكارت » القواعد الأولى للمنهج الحق « كطريقة لإحكام العقل Méthode pour bien conduire la Raison » و « للبحث عن الحقيقة فى العلوم Chercher la verité dans les sciences »[1] ولذلك كان المنهج الديكارتى رياضياً ، ومنطقياً ، لأنه منهج فكر بل هو « منهج عمـل الفكر » ؛ إستناداً إلى قواعد الوضوح والتميز والتحليل والتركيب والاحصاء énumération وتدور جميعها حول التيقظ من اليقين القائم فى الأفكار طبقاً لعلامتى الوضوح والتميز ، فلا تقبل إلا القضية الواضحة Proposition claire ، والفكرة المتميزة distincte[2] . وعلينا بصدد التحليل أن نقوم بتحليل القضية إلى جزئياتها ، أما فى قاعدة التركيب ، فعلينا أن نسير بأفكارنا من أبسط القضايا حتى نصل إلى أكثرها تركيباً . وفى القاعدة الرابعة والأخيرة ؛ نقوم باحصاء ومراجعة شاملة لكافة الجزئيات ، حتى نتأكد من أننا لم نغفل شيئاً .

---

(1) Descartes, René., Discours de la Méthoee. Hachette Paris, 1957. p. 23.

(2) Ibid p. 53.

وإذا كان ديكارت قد مهد للعلم ، بما اكتشفه من قواعد للمنهج كطريقة لإقتياد العقل نحو الحقيقة ، فلقد أعلن « بيكون Bacon » الحرب على « أورجانون أرسطو » ومنطقه وما جاء به من أقيسة وقضايا ، فنى مقدمات القياس الأرسطى « مصادرة على المطلوب » لأن المقدمات تتضمن النتائج . فكأن القياس هو نسق إستاتيكى تحليلى لتحصيل حاصل ، لأن النتائج تحوى المقدمات ومتضمنة فيها . فليس هناك جديد فى القضايا ، حيث يفسر القياس ما نعلم دون أن يكشف عما نجهل ، فهو « لغو أجوف » ينمى قوة الجدل ولا يكشف عن شيء[1] .

ولقد حاول « بيكون » فى الأرجانون الجديد novum organum ، أن يحرر العقل من أوهامه idola ، كأوهام القبيلة والكهف والسوق والمسرح وكلها عيوب فى تركيب العقل ، تجعلنا نخطىء فى فهم الحقيقة ، ومن ثم يجب التحرر من هذه الأوهام . حيث تنشأ « أوهام القبيلة » عن طبيعة الإنسان الاجتماعى ، بينما تصدر « أوهام الكهف » عن الطبيعة الفردية الكامنة فى كل منا بما تحويه من استعدادات فطرية أصيلة . أما « أوهام السوق » فهى لغوية أو لفظية ناشئة عن الألفاظ التى تتكون طبقاً للحاجات العملية ، فالبدائى مثلا يجمع تصوراته وألفاظه من محيطه الإجتماعى الضيق المحدود . أما « أوهام المسرح » ، فلقد صدرت عن النظريات التقليدية والأساطير المتوارثة[2] .

---

(1) Levy-B'uhl. lucien., le Philosophie D'auguste Comte. Paris. 1921. pp. 110-118.

(٢) يوسف كرم : « تاريخ الفلسفة الحديثة » ، دار المعارف ، بمصر ص ٤٦ .

سوسيولوجية الفكر السياسى :

لا شك أن الصلة وثيقة بين الفكر والعصر ، وما الفلسفة إلا نبات العصر ، إمتدت جذوره فى بنية الثقافة والتاريخ ، وأنبتت أصوله فى أرضية المجتمعات .

فلكل عصر حضارة ، ولكل حضارة فلسفة ، وليست هناك مسافة أو خلاء بين الفلسفة وعصرها ، وليست هناك فجوة أو ثغرة تفصل الفلسفة عن « روح العصر » . فالفكرة لا تتحقق إلا فى زمن ولذلك كانت الفلسفة عن هيجل هى : « الزمن مدركا فى الفكرة Temps Saisi en Pensée »[1] .

فالفلسفة هى الفكر والعصر معاً ، ففلسفة المثل مثلا تذكرنا بعصر أفلاطون و « فلسفة الشك » تذكرنا بعصر « ديكارت » ، « والفلسفة الوضعية » تذكرنا بعصر « أوجست كونت Comte » . ومن هنا تحققت كل فكرة فى زمن ، والتبست كل فلسفة فى روح العصر . فأصبح الزمان هو الوعاء الذى يحوى فلسفته ، وأصبحت الأفكار هى « فحوى الزمان ومضمون العصر » . فاذا ما تكلمنا مثلا عن عصر النهضة ، فانما نتكلم عن حضارة النهضة ، وفلسفة عصر النهضة ، وإذا ما أشرنا إلى « عصر التنوير Enlightenment » فانما نشير إلى حضارة الاستنارة ، وفلسفة وهج العقل التى انطلقت منها الأفكار الجديدة ، وقوالب الفكر التى صدرت عنها مبادىء الحرية والاخاء والمساواة .

ولقد مرت الفلسفة بعصور مزهرة وأخرى مظلمة . وعاشت الكثير فى تلك العصور ، فعاصرت حضارات ، وتقدمت وتطورت ، وعايشت

---

(1) Cuvillier. A., Introduction à la Sociologie. A. Colin. Paris. 1949. p. 17.

نكسات ، فنكصت على عقبيها . فما كانت تظنه وهما من الاوهام ، أصبح حقيقة عينية واقعة ، وما كانت تراه حقيقة واضحة ومتميزة ، إنقلب نجأة وأصبح ضلالا من الضلالات ، فكانت الفلسفة متفائلة أحياناً ، متشائمة فى كثير من الأحيان .

وقبل ميلاد الحضارات الكبرى ، وظهور الأديان السماوية ، مرت الفلسفة بعصور اليونان والرومان حيث تمجد العقل ، بصدور حضارة مازلنا ندين لها بالكثير ، « فنحن أبناء اليونان » ، من زاويتى الفلسفة والثقافة على أقل تقدير وبذلك كانت حضارة اليونان ومنجزات الرومان ، بمثابة الطلائع القوية التى مهدت ، كمقدمات وقناطر فكرية ضرورية ، لصدور أعظم حضارات البشر وأعنى بها الحضارة الموسوية ، والحضارة المسيحية ، والحضارة الاسلامية .

ومع تطور المجتمعات ، ونضج العقل ، واتساع الأفق ، مرت الفلسفة بعصور « الشك » و « العقل » وبعصور « التجربة والمادة » ، والحدس L'intuition ، حتى بلغت عصر الايمان بالعلم . وكلها عصور تاريخية وإجتماعية فلم يلجأ ديكارت Descartes الى الشك ، إلا حين حاول فقط أن يتمشى مع روح عصره ، فديكارت عايش عصر الشك المطلق ، وعانى من موجة الشك المزعجة ، فانتشر الشكاك فى كل مكان ، وفى هذا الجو الاجتماعى المشحون، والمناخ الفكرى الممهد ، هبطت فلسفة ديكارت الشكية المنهجية البناءة .

ولقد عانت فلسفات الدين والسياسة والاقتصاد ـ وكلها فلسفات حضارية

---

(1) Mannheim; Karl., Essays on Sociology of Knowledge, Routledge, London - 1952.

وأنظر أيضا فى هذا الصدد :

Merton. Robert;, Social Theory and Social Structure, Glencoe, Newyork. 1962.

وأنساق اجتماعية ، الكثير من الصراعات والفتن والحروب ، وكابدت «الميتافيزيقا» وعركت الفلسفة الاحداث الجسام والوقائع الكبرى .

والصراع قديم بين « الفلسفة والدين » نظراً لوحدة الساحة العقائدية وخصوبتها ، فنشبت بينها فى تلك الساحة الأيديولوجية الصراعات والفتن الخطيرة والمريرة ، تلك التى بلغت فى كثير من الأحيان ، درجة الحرب والصراع العسكرى المسلح ، وبخاصة فيما بين مختلف أتباع مدارس الفكر الدينى ، ومذاهب الفكر العقائدى . وتنتهى الحرب بالطبع « بانتصار المنتصر ، وهزيمة المهزوم . أى تنتهى بغالب ومغلوب ، وضاغط ومضغوط ، بفكر قاهر ومذهب مقهور . وقد يحدث التكيف والذوبان « والاندماج amalgamation ، وقد يحدث التنافر والتناحر وقد تتردد فلسفات الحكم الدينى فتصبح « سنية » تارة ، « شيعية » تارة أخرى ، « علمانية » طوراً « دينية» طوراً آخر .وقد تأخذ الحكومة الدينية بمنهج «الحقيقة» أحيانا ، وبمنهج « الشريعة » فى أغلب الأحيان .

وقد تقدس فلسفة الدين « الشكل » ، وتحترم الطقوس والشعائر وقد تثور على هذه القشرة الخارجية فتدعها تتكسر وتتحطم ، حتى تصل فورا الى المضمون الحقيقى ، ليرتوى المؤمن من ذلك النبع الدينى الرقراق الذى يفيض بالمشاعر النقية الأصيلة. وهذا هو المنهج الذى اتبعه المصلح الدينى «مارتن لوثر Martin Luther » حين حطم جمود الشكل الخارجى للعقيدة الكاثوليكية طلبا للنقاء الدينى الخالص.

أما فلسفات السياسة ، فهى فلسفات حكم أو سيادة ، وأنماط سلطة أو قيادة ؛ تدور جميعها حول شكل « الدولة » ككيان معنوى أو « بناء ميتافيزيقى » ، قد يتضمن فلسفات للصفوة Elite وهم فئات أو « طبقات » أو صفوات قيادية تمارس « السلطة السياسية » أو « الضغط الدينى » أو « التحدى الاقتصادى » حتى يظهر فى النهاية شكل « التنظيم Organziation » الذى يفرض « السيادة » أو

« السيطرة domination والسلطة Subordination من جهة ، كما وتصدر من جهة أخرى أنماط من « الولاء » و « والتبعية » .

ولذلك عاشت الفلسفة عصور الظلم والحكم المطلق ، وطغيان حكم الفرد فصدرت ، مذاهب « Hobbes » و « ميكافيللى Machiavelli » و « نيتشة Nietzsche » لكى تعبر عن عصور طغيان الإنسان ، واستبداد « الأمير » وسيادة « الصفوة » . وكلها مذاهب تقنن للديكتاتورية ، وتشرع للاوتوقراطية، وتفرض مبدأ عبادة الدولة . كما عاشت الفلسفة عصر القانون والعدل ، فانتهى عصر الرق والعبيد ، وبدأ عصر تكريم « الذات الانسانية » ومع تقديس الحرية ، واحترام الانسان وحمايته من إستغلال أخيه الانسان .

ومن هنا دخل « تاريخ الاقتصاد السياسى » عصراً جديدا « فعاشت الفلسفة عصور الحرية ، ومارست الدولة المعاصرة نظم الديموقراطية فى الادارة والحكم والتنظيم . ولقد عاشت فلسفات الإقتصاد الكثير ، وتتابعت مدارس «التجاريين» « و الفيزيوقراط Physiocrate » الى مذاهب « الرأسماليين » و « الاشتراكين » ، فترددت الفلسفة الاقتصادية بين اليمين واليسار ، بين « الاقتصاد الحر » والاقتصاد الموجه ، وتلك هى الثنائية ، التى وقعت فيها النظرية الإقتصادية . حيث يحدث التحرش والشجار بين إقتصاديات متصارعة ، وقد تنتصر مدرسة اقتصادية على سائر الاتجاهات المضادة فتسود فلسفة إقتصادية بعينها ، تتمشى مع روح عصرها، والناس على دين ملوكهم .

وفى عصر الايمان بالعلم ، أحدث كانط ثورة فى الفلسفة ، تماما كما فعل « كوبرنيكس » فى ميدان علوم الفلك ــ فلقد قام كانط بنقد المعرفة ، ومباحثها فى سائر مدارس الفكر الفلسفى ، ورفض كانط مواقف « العقليين » و « الحسيين » و « التجريبيين » ، بل وسخر من هذه المواقف فى مرارة ، الى أن يقف من

الميتافيزيقا نفسها موقفاً معادياً . وبصدد نظرية المعرفة بالذات عند كانط ، تصبح الميتافيزيقا خرافة . فالمعرفة الحقة هى المعرفة التى لا تتم بالامدادات التجريبية وحدها أو بالتصورات القبلية الجوفاء ، وإنما يتحقق « بناء المعرفة » حين يقوم الفكر الرابط أو الصانع ، بدمج الامدادات بالتصورات ، وربط المعطيات بصور قبلية فى « العقل الخالص La Raison Pure » هى صور الزمان والمكان والعلية ، وسائر مقولات الفكر الانسانى التى لا يمكن أن يتحرر الفكر منها أو يفكر الانسان بدونها .

هـذه هى ثورة كانط فى نظرية المعرفة بالذات ، التى قد أحدثت فى مدارس الفكر الفلسفى ، ما أحدثته « الثورة الكوبرنيكية » فى علم الفلك (١).

فلقد كانت الفلسفات القديمة تنظر الى الحقيقة على أنها قائمة فى تطابق العقل والوجود ، أو فى إتفاق الفكر والأشياء adaquatio rie et intellectu، تلك هى النظرية التطابقية القديمة فى المعرفة . التى جعلت مقولات منطق أرسطو ، هى حقائق وجودية ، وأفكار واقعية ، فقولات المنطق الأرسطى هى « أجناس

---

(١) كان الظن الخاطىء القديم ، يؤكد على أن الأرض هى مركز الكون ، وأن بقية الاجرام والكواكب انما تدور حول الارض . ثم أعلن الفلكى البولندى « نيقولا كوبرنيكس Copernicus خطأ هـذا الاعتقاد الواهم ، وأثبت أن الشمس هى مركز الكون لا الارض ، وأن كل الاجرام تدور حول الشمس هذه هى الثورة الكوبرنيكية التى حدثت فى علم الفلك . ولقد كان الظن الخاطىء القديم فى ميدان الفلسفة ، هو أن الفكر يتحرك وأن العقل يدور حول « الموضوع » الثابت والساكن ، وأثبت كانط أن الموضوعات هى التى تدور حول الفكر » . فكان العقل فى الفلسفة القديمة هو الذى يدور حول « الموضوع » أو « الوجود » أو « الأشياء » . فصدرت فلسفات يونانية أو انطولوجية من زاوية الوجود . وفى فلسفة كانط النقدية ، « دارت الموضوعات حول الفكر الرابط » وأصبح « الفكر الصانع » هو الحقيقة التى تدور حولها الأشياء ، فصدرت الفلسفات المعاصرة ، من زاوية « الانسان والشعور » أو من ناحية « الأنا » حيث تختفى المركزية وتحقق فقط أمام الذات التى انتهت تقاليد المشروعة ، وهكذا هى الثورة الكانطية فى نظرية المعرفة .

الوجود Genre de L'étre ، حيث كان أرسطو واقعياً يرتب الأشياء فى قائمة مقولاته ، وبالتالى ينظم بمنطقه كل ملامح الوجود وجزئيات الواقع . بمعنى أن مقولات أرسطو هى « صورة منتزعة من مضمونها الواقعى اليونانى » .

ولقد تجمدت الفلسفة منذ أرسطو حتى كانط ، بين قطبى الذات والموضوع، وظل الفلاسفة سجناء أفكارهم ، لأنهم ربطوا عقولهم بالتطابق مع الأشياء ، كما أخذوا يفكرون بقوالب مستعارة من تاريخ الفلسفة ، فأصبحوا أيضا سجناء هذه القوالب المستعارة من هذا التاريخ الميتافيزيقى الطويل. ثم جاء كانطوحطم بثورته الكبرى ، ماجادت به مضامين النظرية التطابقية ، وقضى بصفة نهائية على تلك « الثنائية » التى عاشتها الفلسفة سجينة بين قطبى العقل والواقع ، باقتصارها على ثنائية « الذات والموضوع » .

وإذا كان أرسطو واقعياً فى تنظيم الكون والوجود ، فلقد كان كانط « ذاتيا » ينظم وظائف العقل والمقولات ، وليست قائمة المقولات عند كانط إلا قائمة عصرية ، أو صور حقيقية « لمقولات الفكر الأوربى » الذى صدرت عنهوانبثقت فلسفة كانط ، التى عقدت زواجا كاثوليكيا بين مثالية الفكر الألمانى وخصوبته ، وبين النزعه التجريبة الانجليزية ، فى فلسفة نقدية واحدة ، تصف لنا مضامين ومحتويات الفكر الأوربى كله ، كما وصف كانط اتجاهات الحضارة الاوربية فى القرن الثامن عشر برمته .

ومما يؤكد لنا « سوسيولوجية الفكر» ، هى حضارة كل فلسفة تتضمن أصولا اجتماعية وجذوراً تاريخية ، فلا تعيش الفلسفات على هامش الوجود ، ولا يمكن أن تسبح الأفكار فى العدم ، أو تشطح الأنظار فى فراغ ، فكل مذاهب الفلسفة، هى مواقف تاريخية ، تستطيع أن تؤكد مصادرها . حيث أننا لا يمكن أن نقبل مذهبا أو فلسفة ، إلا بالرجوع إلى المصادر الأولى فلا تأخذ بأى موقف فلسفى

إلا بتقييمه ، على اعتبار أن الماضى إنما يلى ضوءاً أوفى وأدق على كل مواقف الفلاسفة أنفسهم ، فالفلسفة لا يمكن قبولها إلا إذا ما قمنا بمحاولة تقييم لهـــا ؛ ويتمثل هذا التقييم Evaluation فى مدى تطابق مواقف الفلاسفة وتصورهم ، ومدى تأييد حركة التاريخ لكل مذهب من مذاهب الفكر ، حين يشيع المذهب بين الناس ويصبح « أيديولوجيا » متحركة ؛ على اعتبار أن الايديولوجيـــا فى حقيقة أمرها هى « فلسفة شائعة » تتحرك فى عقول الناس وأفهامهم ، فتخلق القيم وتصنع « دافعيات السلوك » ، وترسم أو تسهم فى تغيير « أسلوب الحياة » ، وتطوير نمط الثقافة .

ولقد عجزت الفلسفة بصفة نهائية عن اكتشاف معايير مطلقة الصدق والخطأ تلك المعايير التى أثبت علم الاجتماع نسبيتها ، حيث ترتبط معايير الصدق والخطأ بروح العصر ، الأمر الذى يفقدها عموميتها Generalization فتبقى نسبية Relative ، تتمايز باختلاف الظروف الاجتماعية ، والتيارات الفكرية والمضامين التاريخية والثقافية ؛ وكل ظواهر الفكر التى تحيط بالمجتمع وتشكل روح العصر لأن الفكر نتاج تاريخى ، وافراز حضارى يصدر عن واقع إجتماعى ، ويفرض معايير السلوك ، وليس من شك فى أن روح العصر هى نتيجة حتمية لمراحل تطورية وظروف تاريخية تشكل أنماط الثقافة ، وتحدد تيارات الفكر . وعلى هذا الأساس ، واستناداً إلى فكرة الحتم التاريخى ، ربط مانهايم بين « روح العصر » ، من جهة ، وفكرة الحتم الوجودى للفكر[1] Seinsverbundenheit des wissens » ، من جهة أخرى .

---

(1) Mannheim, Karl , Essays on Sociology of Knowledge Rourtedge & Kegan Paul London. 1952. P. 136.

كانط والواقع الموضوعى:

وإذا ما عدنا إلى موقف كانط ، وفلسفته النقدية التى أخذت بالحساسية Sensibilité ، والفهم L'entendemet ، لوجدنا أن الحساسية ، هى « درجة إدراكية » بمقتضاها يستقبل الانسان العارف المادة الآتية من التجربة الخارجية ، أى أن الحساسية إنما تتأثر بالأشياء وتتقبل المعطيات Donnés أو الامدادات الصادرة إلى الفكر عن الموضوعات المعروضة فى الخارج .

ولقد قلنا إن هذه « المعطيات » تعرض إلى الفكر « كمادة » فحسب ؛ كما ذهب « كانط » إلى أن هذا التأثر الذى تقوم به الحساسية حين تتقبل آثار الأشياء ، إنما هو وعى مباشر — أى أنه يتم دون واسطة — يعبر عنه « كانط » بأنه « حدس Intuition » ، على اعتبار أن وظيفة الحدس الكانطى ، هو وسيلة الفكر التى بفضلها يتقبل الأشياء ، وهما يتصل فكرنا بالموضوعات(1) . وهذا هو ما يسميه كانط « بالحدس الحسى L'intuition Sensible » وهو الحدس الذى بفضله تتم « المعرفة » .

وبهذا المعنى الكانطى ، تعتمد شروط المعرفة من حساسية وفهم ؛ اعتماداً متبادلا ، فلا تقوم المعرفة الترانستدنتالية عن طريق الفهم وحده دون حساسية ، أو عن طريق الحساسية وحدها دون الفهم ، حيث أن الحساسية « لا تبصر شيئاً دون فهم » بينما الفهم دون حساسية ، « هو أجوف وفارغ » .

ولا شك أن هذا الموقف النقدى الكانطى فى تحديد شروط المعرفة ، إنما يلقى ضوءاً « على موقف الانسان العارف عند كارل ماركس » ، وبخاصة بصدد

---

(1) Kant Immanuel Critique de la Raison Pure., Traduction Fran: par A. Tremesaygues. et B. Pacaud. Press: Univ. paris 1950. p. 54.

تمييز الماركسيين ، بين « الاحساس » من جهة ، وبين « الفهم » أو المعنى الكلى من جهة أخرى ، ثم اعتماد الاحساس على الفهم ، واحتياج كل منهما إلى الآخر فى علاقة تبادلية أو « اعتماد متبادل » ، حيث أن الاحساس ، كما ذكرنا ، هو فى حاجة إلى الفهم لتوضيحه وتعميقه ، كما أن الفهم هو الآخر فى حاجة إلى الاحساس كنقطة إبتداء وارتكاز .

إلا أن الماركسيين قد أساءوا فهم الموقف الكانطى من شروط المعرفة الترانسندنتالية Transcendental Knowledge ، فنظروا إلى كانط على أنه من الفلاسفة الرجعيين ، لأن كانط فى زعمهم قد أنكر إمكانية إدراك « العالم Le monde » ومعرفته كجوهر قائم بذاته .

وظن الماركسيون بذلك ، أن هذا الموقف النقدى من المعرفة ، إنما يصرف الجماهير ، ويشغلهم عن « تفسير حركة المجتمع » وتحليل التاريخ . ولذلك كان كانط فى عرف الماركسى « عدواً للثورة » ، وداعياً إلى المساومة والتلفيق بين الفلسفة التجريبية والفلسفة العقلية ، ولكن كانط « لم يوفق بين العقل والتجربة » ولم يلفق بين التصور والواقع ، كما لم يكن عدواً للثورة ، وإنما كانت الفلسفة النقدية فى ذاتها « ثورة » ، ثورة على اضطراب الفكر وتعدد الفلسفات . ثورة على الفوضى من أجل « النظام » ، ثورة الفكر من أجل تحقيق السلام . ثورة العقل من أجل المعرفة .

إلا أن الفلسفة الماركسية المادية ، حين تتعارض مع الكانطية ، إلا أنها تتفق معها فى نفس الوقت حين تعتبر « الشعور هو همزة الوصل بين الانسان والعالم » وأن الاحساس هو القنطرة ، التى لا يمكن عبور غيرها ، كى يثب الانسان إلى العالم ويدركه . وبذلك أخذ الماديون بالمذهب الحسى بكل خفاياه ، ودون أن يرفضوا منه شيئاً .

ولقد تعرض « كارل ماركس فى كتابه « الأيديولوجيا الألمانية German Ideolcgy إلى النظر فى ميدان الأخلاق ، حيث تمسك كانط بأخلاق الواجب ذات الارادة الطيبة Good will ، حتى ولو بقيت إرادة حرة Free will ، ولم تترجم إلى واقع ، وتلك هى الارادة « الصورية الجوفاء » التى يسخر منها الماركسيون والتى ينشغل بها كانط كفيلسوف تقدى ، حيث يحاول بفلسفته فى زعم الماركسيين ، أن ينقذ البورجوازية الألمانية التى تدهورت فى عصره ، ولذلك أصبحت الفلسفة النقدية الترانسندنتالية من الأسلحة الماضية التى تستغلها البورجوازية ضد « الاشتراكية العلمية » التى هى فلسفة الاتجاه المادى الماركسى .

الفلسفة وروح العصر الهيجلى :

لقد عقد « هيجل Hegel » المقارنات ، بين ما يسميه « بالروح الذاتى » وبين نقيضه الذى يتمثل فى « الروح الموضوعى » ، بالاضافة إلى حالة تحقق كل منها واندماجه فى المركب الذى يجمع بينها فى « الروح المطلق » . بمعنى أن هناك تحولات فى تاريخ الفكرة ، أو ماضى الوعى ، بين الذاتى والموضوعى والمطلق .

أ ـــ والقضية الأساسية عند هيجل ، هى القضية القائلة « بأن كل ما هو واقعى هو معقول ، وكل ما هو معقول هو واقعى » . بمعنى أن العقل لا يتقدم أو يسبق التاريخ فى الوجود ، وإنما يلتحم العقل بالوجود خلال حركة الزمان التاريخى ، فليس العقل سابقاً على الوجود الزمنى التاريخى ، وإنما يدخل العقل إلى الوجود التاريخى المسبق ، ومن ثم لا يدفع العقل التاريخ إلى الحركة وإلى الوجود ، ولكننا نتوصل إلى العقل والتصورات بفضل حركة التاريخ ، وندرك الفكر من خلال الزمن . فنحن لا نعرف العقل إلا من خلال سياق التاريخ ، حين نتحول « الغرائز البهيمية » و« الانفعالات العمياء » إلى ما نسميه فى منطق التاريخ بالارادة الخيرة أو الفكر الراجح ، بمعنى أننا نستمد من التاريخ قيماً

نضفيها على سائر الأفكار والإرادات .

وحين يشير « هيجل » إلى « فكرة الروح الذاتي » حين يتعارض مع الموضوعي ويتحقق فى المطلق ، إنما يعبر « هيجل » فى الواقع عن مستويات جدلية تتجلى خلال حركة الفكر حين يتجسم فى التاريخ . فللروح الذاتي مستوياته التاريخية ، التي يعبرها خلال حركة الجدل ، وهي الشعور والتفكير والوعي .

هذا عن طبيعة الروح الذاتي ، أما عن الروح الموضوعي der objektive geist ، فيتحقق فى سياق زمني صارم ، حين يتبدى لنا « الروح الموضوعي » ويتجسم فى « القانون » و « الأخلاق »[1] و « الدين » . أما الروح المطلق فهو « روح الكل allgeist » أو « روح الشعب Volksgeist » الذي عنه تصدر سائر « القيم والمعايير والاساطير » ، ولذلك يتحقق روح الشعب ، ويتأكد حين يتجلى فى « الفن والدين والفلسفة » .

ب — والفكرة الهيجلية ممتلئة بالخصوبة والحركة والنمو والتقدم ، كما أنها كامنة فى الصيرورة والتغير ، ووليدة الصراع القائم فى الوجود ، والتناقض هو الذي يبعث فيها الحياة . ويقول « نيقولا هارتمان «Nicolai Hartmann عن هيجل « إنه كولومبس جديد » ، فان ما عثر عليه فيما أسماه بالروح أو العقل ، وما وصفه بأنه فوق العضوى Superorganic أو فوق الفردى Superindividual قد أدى بعلماء الاجتماع إلى « إكتشاف قارة جديدة للواقع » ، ذلك هو الواقع الاجتماعي Social Reality .

فاذا كان « كانط Kant » قد نظر إلى صور الفكر والمقولات ، فقد إنشغل

---

(1) Wein, Hermann, Trends in Philosophical Anthropology and Cultural Anthropology in Postwar Germany, philosophy of Science, Vol : 24, no. 1, January 1957. p. 48.

« هيجل Hegel » بمادة الفكر وفحوى الصور ، فابتدع منطقاً يبحث فى مضمون الفكر ، ولا يقيم وزناً لصورية للقولات أو فراغها الكانطى . وبهذا الفهم الهيجلى إرتبط الفكر بالتاريخ ، وهذا ما اعترض به « هيجل » على أستاذه كانط ، ورفض إرجاع الحقيقة إلى مجرد قوانين صورية فى العقل ، إذ أن الحقيقة المجردة عن الواقع وعن التاريخ ؛ إنما تصبح عند « هيجل » حقيقة غير ذات مضمون(١) ، ولكننا نجد أن للحقيقة وجودها ومضمونها وحيويتها وبقائها ، حيث « أن للحقيقة تاريخاً فى النفس وتاريخاً فى الوجود » .

ح ــ ولذلك رفض هيجل ذلك النوع من الفكر الذى يضحى بالخصوبة والحركة والتاريخ من أجل التزام الضيق الصورى ، وعاب هيجل على كانط حين يقول بمقولات فارغة جوفاء ، إذ أنها عارية عن المضمون والواقع . وبذلك أكد هيجل على « المحتوى الواقعى للفكر ، والمضمون التاريخى للتصورات »(٢) .

حيث أن المحتوى التاريخى للفكرة ، هو المضمون الذى من خلاله تعيش الفكرة وتنتعش ، فالفكرة قائمة فى التاريخ ولا تسبح فى فراغ ، وإنما تنتقل وتتحرك وتتفجر لما يتميز محتواها من خصوبة وإمتلاء . ولا يتحقق الفكر إلا بارتباطه المستمر بالواقع واحتكاكه الدائم بحركة التاريخ ، فلقد صدرت « مثالية » الفكر الألمانى عن « واقع » الثورة الفرنسية(٣) .

---

(1) Hegel. O.W.F., The phenomenology of Mind, Trans By J Ba·llie., second edition, London. New York. 1931 pp. 329. G 330.

(2) Marcuse, Herbert. Reason and Revolution. Hegel and the Rise of Social Theory, Beacon press Hill, Boston. 1960 p. 121.

(3) Ibid, p. 3.

وهذا هو المثال التاريخى الحى الذى أخذ به هيجل ، كى يؤكد إرتباط حركة الفكر بحركة التاريخ ، وكى يفسر صلة العقل بالواقع ، من حيث أن العقل هو بالضرورة « قوة تاريخية ، يخضع لها كل من فى الزمان والمكان ، كما أن العقل هو باعث التقدم خلال تاريخ الفكر ، بمعنى أن التاريخ بمراحله وأطواره ليس إلا مراحل فكرية عامة(١) . فهناك حركة جدلية فى التاريخ ، وهى حركة معقولة تسير وفقاً « لمنطق محدد ونمط عقلى وعلى عام » .

فكرة الحرية وحركة التاريخ :

ففكرة الحرية مثلا تحققت خلال التاريخ فى مسار ثابت محدد وفقاً لمثلث جدلى . بدأت الحلقة الأولى فيه باستعباد الفرد فى الامبراطوريات الشرقية القديمة ، حيث سادت الضرورة والسلطةالقاهرة ،وفقدالانسانالفردعوامل الأمن والحرية والطمأنينة . وفى حضارة اليونان والرومان ، بدأتالحلقة الثانية بظهور النزعات الفردية الطاغية التى تعتبر عند هيجل هى حركة جدلية نحو النقيض ، من السلطة المطلقة إلى الفردية الطاغية ، فظهر التناقض بين السلطة والحرية ، ولكن المركب بين النقيضين قد تحقق فى المرحلة الثالثة فى حركة الجدل التاريخى حين تمثلت هذه المرحلة النهائية فى بروسيا الملكية ، التى تكونت فيها الصورة الكاملة لمثلث الجدل الهيجلى ،حين تألف النقيضان ، فانتقلت الحرية والسلطة إلى مركب وحيد ، للتغلب على الصراع بين الجزئى والكلى ، وبين الذاتى والوضعى وفى هذا المعنى أطلق إنجلز Engels عبارته المشهورة « أنها عملية تحول الانسان وانتقاله من مملكة الضرورات إلى مملكة الحرية »(٢) .

---

(1) Ibid. p. 10.

(2) Evans-Pritchard, e.e.. Essays in Social Anthropology. Farpe and Faper, london 1952 p. 33.

.. It is the ascent of man from the kingdom of necessity to the kingdom of Freedom.

ولذلك كان هيجل فيما يقول « كارل مانهايم Karl Mannheim » هو الذى دفع بالفكرة الوضعية إلى الأمام ، حين ربط « المطلق » بعملية التاريخ ، والروح بعجلة تطور العالم (١) .

العقل الموضوعى ونمط الثقافة :

أ ــ ولا شك أن فكرة « العقل الموضوعى » عند هيجل ، إنمـــا تشبه فى اطارها العام فكرة « العقل الجمعى » عند دور كايم ، كما توحى أيضاً بفكـــرة « الثقافة » كما يتفهمها علم الاجتماع الأمريكى ، وبخاصة عند « كروبير Kroeber » (٢) فاذا كان هيجل يذهب إلى أن « كل ما هو واقعى هو معقول » ، فان دور كايم وغيره من سائر اتباع المدرسة الفرنسية يذهبون إلى أن « كل ماهو اجتماعى هو معقول ، وكل ما هو معقول هو اجتماعى » .

ويقول هارتمان Hartmann ، إن العقل الموضوعى قد تميز بالتكوين المتجانس Homogeneous Formation الذى يفرض على الانسان ويضطلع به الفرد . وما يسميه هارتمان بالتكوين المتجانس ؛ هو تماما ما نجده عند علماء الاجتماع المعاصرين بما يسمونه بالأنماط pattarns .

ولذلك فاننا يمكن التأكيد على نظرية العقل الموضوعى عند هيجل ، وهى التى تفترض أن الانسان لايولد إلا فى « إطار عقلى عام » يستمد منـــه أنماطه

---

(1) Mannheim, Karl., Essays on Sociology of knowledge London, 1952, p. 175.

(2) Wein, Hermann., Trends in Philosophical Anthropology in Postwar Germany, philosophy of Science Vol. 24. N. 1 January, 1957. p. 49.

السلوكية والثقافية وأساليبه الفكرية - وهذا هو مايعني تماما « رالف لنتون Ralph Linton » وغيره من سائر علماء الثقافة ، حين يذهبون إلى أن الانسان يولد فى ثقافة يستوحى منها فكره ومنطقه ، بمعنى أن الانسان لا يخلق لغته ، أو يصطنع أخلاقه ، وإنما يكتسبها اكتساباً من خلال ذلك « الاطار العقلى العام » ويستوحيها من نمط الثقافة التى يولد فيها ويعيش (١) .

إذن ففلسفة هيجل تعبر عما التقطه هو نفسه من مجتمعه والمانيا ، وما كان يسود فيه من إتجاه عقلى وصارم ؛ حدد بل وفرض على الألمان ، نمط الثقافة .

ب — ومن ثم نجد أن نظرية « العقل الموضوعى » عند هيجل ، إنما تفسر كل النظريات السوسيولوجية للثقافة عند مختلف الانثروبولوجيين الثقافيين من أمثال « كروبير kroeber » ، و « هرسكوفتز Herskovits » ، و « رالف لنتون » ، إلا أننا نأخذ على علماء الأنثربولوجيا الثقافية ، أنهم وضعوا « تمايزاً » وفرضوا « خلاء » أو مفارقة بين الانسان وثقافته ، على حين أننا لا نجد إلا انظاماً كليا أو نسقا ميتافيزيقيا يربط الانسان بالمجتمع ، ويصل الفرد بالثقافة .

ومعنى ذلك أننا من جهة نظر الفلسفة الانثروبولوجية ، وهى مبحث فيما وراء الأنثروبولوجيا Meta - anthropology ، لا نضع تمايزاً بين الانسان ، من جهة ، و « ثقافته » من جهة أخرى ، فليس هناك مفارقة بينهما حيث أنهما وجهان لحقيقة كوزمولوجية واحدة (٢) .

ولقد اعترض « هيرمان Hermanu Wein » الاستاذ بجامعة جوتنجن Gottingen ، على نظريات علماء الاجتماع فى العقل والثقافة ، فى مقالة نشرها فى مجلة « فلسفة العلم philosophy of Science » ، تحت عنوان « إتجاهات

(1) Idid. p. 50.

(2) Idid. p. 56.

الفلسفة الأنثروبولوجية والأنثروبولوجيا الثقافية فى ألمانيا بعد الحـــرب
« Trends in philosophical Anthropology, and Cultural Anthropology in postwar Germany ».

ويقول « هيرمان » فى هذا المقال ، إن كل ما يسميه علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية « Social » تارة ، وبخاصة فى الأنثروبولوجيا البريطانية و « بالثقافى cultural » تارة أخـــرى ؛ وبخاصة فى الدراسات الانثروبولوجية الأمريكية إنما ترجع جميعها إلى مقولة « العقل » أو « الروح » التى أثارها « هيجل » .

العقل الموضوعى والالتزام :

تتمثل الفلسفة عند هيجل فى وعى الانسان الفرد وتجرده فى كل العلاقات حتى يواجه نفسه ، ويثب إلى ذاته ووعيه الأصيـــل المنبثق عن تلك الجوانب الباطنة المشرقة الكامنة فى « الذات العميقة » ، بمعنى أى الفلسفة إنما تصدر عن وعى الإنسان أو « ذاته » فيواجه « الذات Sujet » كبعث كل فكرة .

أما الوعى الموضوعى ، فهو وعى غير ذاتى ، لأنه وعى ؛ لا يتصف بالحرية وإنما هو وعى ملتزم ، لأنه وعى الإنسان المنتمى إلى مجتمع ، أى المنخرط فى زمرة ، حين يواجه نفسه بوصفه جوهراً Substance إجتماعياً .

ولقد وصل هيجل فى مضمون « الوعى الذاتى » ، وربط بين فكرة الإرادة من جهة ؛ وفكرة الحرية من جهة أخرى . بمعنى أن اتجاهات الوعى إنما تحرص كل الحرص على أن تكون متوافقة مع الإرادة،ولما كان الوعى حـــراً بطبيعته، فالارادة حرة ، حيث أن الحرية هى خاصية جوهرية للارادة ، وأن الحرية هى ما ينبغى أن تكون عليه الإرادة .

وعلى هذا الأساس ، فان عودة الإرادة إلى ذاتها هى عودة حرة . أو أنها

محاولة الانتقال من الخارج إلى الباطن ، ومن ثم كان « الوعى » هو بمثابة عودة الإرادة إلى نفسها ، حين تعبر الشخصية الانسانية ، الواعية والحرة ، عما تقتضيه الإرادة النابعة من « الذات العميقة le moi profond » .

واستناداً إلى هذا الفهم ، تحرص الارادة عند هيجل ، على أن « تكون كما يجب أن تكون » ، وحين تصل الإرادة إلى هذا الحال ، فهى إرادة متطابقة أو متوافقة مع « ما يجب » . ومن ثم فهى إرادة واعية ، وبالاضافة إلى ذلك تتميز الإرادة بالحرية ، حين تتوافق الارادة مع ذاتها ، فتصبح إرادة حرة . ومن هنا تحقق « فلسفة الوعى » عند هيجل ، فكرة الارادة التى تصدر عن أحوال النفس الباطنة وترتبط بجوانب الذات العميقة ، وتتصل بأغراضها ومقاصدها . وحين تتوافق الارادة مع ذاتها ، فانها تحقق فكرة « الحرية الأخلاقية » .

الضبط والالتزام الموضوعى :

قلنا إن الوعى الموضوعى ، هو وعى غير ذاتى ، وملتزم بكل الواجبات والمعايير التى فرضتها القواعد الاجتماعية ، والأخلاق الموضوعية ، مثل واجباتنا نحو الأسرة والمجتمع والدولة ، فهناك مصادر للالزام الموضوعى ، « تصدر عن خارج الذات » ، وهذا الالزام الخارجى هو مبعث « القانون والاخلاق والدين » ، وسائر مختلف « الضوابط الاجتماعية » .

وتستهدف الإرادة الواعية الحرة فى فلسفة هيجل ، الاتجاه نحو كل ما هو خير ، حيث يتوافق الخير مع اليقين الأخلاقى ، فالخـــير هو « جوهر الارادة الذاتية » وغايتها ، وينبغى أن تتطابق الارادة الذاتية مع فكرة الخير ، وهذا الخير لا يكون إلا فى الفكر وبالفكر وحده ، بمعنى أن « الخير الهيجلى » هو « جوهر الارادة » ، كما أنه أيضاً « واجب مجرد دون مضمون » ويخضع هذا الواجب المجرد لمحك اليقين الأخلاقى الذى يتميز « فى وضوح وجلاء ما يكون حقاً أو يحدد ما يكون واجباً » ، فيمدنا هذا « اليقين الأخلاقى » عن مصادر الخطأ أو الوقوع

فى الشرور والآثام .

وينبثق الوعى الموضوعى عند هيجل من «روح الجماعة» ، فينبع من ذلك «الروح الموضوعى» الذى يتحقق فى القانون ، ووسائل الضبط الاجتماعى ، بما تفرضه من جزاءات ، يعتبرها هيجل مصادر خارجية للالزام أو الجزاء الاجتماعى Social Sanction . ومن ثم تقوم الرابطة بين «الالزام الاجتماعى» من جهة ؛ ومظاهر الحياة الواقعية من جهة أخرى . الأمر الذى معه ينفصل الانسان الفرد عن «ذاته الواعية» ، ويبتعد عن جوانبه الباطنة الأصيلة ، والمنبثقة عن تلك الذات التحتية العميقة ، ومن ثم يصبح الإنسان بفضل «الوعى الموضوعى» ، «جوهراً إجتماعياً» .

ويتضح لنا من كل ذلك ؛ أن هيجل قد مزج بين «الحرية والواجب» ، بين الوعى والوجود ، بين الارادة الفردية والارادة الجمعية ، حيث ترتبط فكرة الحرية الهيجلية بقيم ملزمة تصدر عن الخارج كما ويصبح «عالم القيم الاجتماعية» هو عالم منفصل من عالم الذات ، ويصدر عن عالم الموضوعات القائمة فى بنيـــة المجتمع . وتعتبر هذه القيم الموضوعية ، هى قيم ملزمة من جهة ، كما أنها قيم تحرر الشخصية الانسانية من الخضوع لسائر النزعات والأهواء ؛ من جهة أخرى .

ويحدد هيجل دور الإرادة الموضوعى بأنه يقوم بوظيفة التوافق أو التطابق بين الارادة الذاتية الفردية ، والارادة الكلية المطلقة ، ومن ثم يتطابق السلوك الفردى مع الواقع الموضوعى . لأن هذا الواقع الموضوعى ، هو بمثابة ذلك «الواقع الاجتماعى» الذى يخلقه مجموع الأفراد ، ويتحقق فى ذلك الواقع الكلى المشخص كما يتمثل فى واقع «الاسرة والمجتمع والدولة» .

ولما كان ذلك كذلك ، فان الأخلاق الموضوعية عند هيجل تؤلف مثلثاً جدلياً أضلاعه ، الأسرة التى تمثل «الفكرة» فى الحقيقة الجدلية ، فنظر إليها على أنها

الموضوع أو الفكرة . أما المجتمع فهو الضلع الثانى الذى يمثل « نقيض الفكرة أو نفى الموضوع » ؛ والدولة هى ذلك « المركب الكلى » الذى يجمع بين النقيضين، ويؤلف مابين الاسرة والمجتمع ، أو الفكرة ونقيضها ؛ ومن ثم صدرت « الدولة » كى تحقق الضلع الثالث والنهائى فى الحقيقة الجدلية ، حتى يكتمل « هذا الثالوث المؤلف من الأسرة والمجتمع والدولة فى مثلث وحيد » .

والأسرة عند هيجل ، هى بمثابة « الروح الاخلاقية الموضوعية » أو المباشرة ، والمجتمع هو مصدر الالزام والجزاء . أما الدولة فهى « الحقيقة العينية المشخصة » التى تفرض قيم الاخلاق الموضوعية ، كما تفرض السلطه فى المجتمع السياسى . ومن ثم كانت الدولة عند هيجل هى شخصية أخلاقية مقدسة ، أو هى « وحدة ميتافيزيقية متعالية » ، تلتزم بالقيام بوظائف العقل والدستور كما تأخذ بالحكم الملكى المستنير ، القائم على العدل بالاشراف على السلطة التنفيذية ، ووضع القيود التى تحدد سلطان الملك المستنير ، ولذلك يحقق الدستور والبرلمان حالة التوازن بين حاجات الدولة ، وحاجات المواطن ؛ وهذا هو السبب الذى من أجله نظر هيجل الى « النظام الملكى البريطانى » على أنه المثل الأعلى للنظم الدستورية فى العالم .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن الأخلاق الاجتماعية ، تنقسم عند « هيجل » الى أقسام متكاملة تربط بين الفكرة والنقيض والمركب بينهما . فهناك أخلاقيات للاسرة وللمجتمع والدولة . والأسرة هى المظهر الأول للحياة الاخلاقية ، لانها نواة المجتمع ؛ وهى كمؤسسة إجتماعية تعتمد على نظم أساسية هى الزواج والملكية والميراث والتربية education . . .

والزواج كنظام اجتماعى هو واجب خلقى ورابطة اجتماعية ، بمعنى أنه إتحاد روحى بين زوجين ، حتى لا يخضع الانسان الفرد للعزلة والانانية ، ولذلك يؤكد هيجل على الزواج المونوجامى Monogamy ، الذى هو زواج الرجل الواحد

للمرأة الواحدة » ويرفض الزواج بالعقد المدنى الذى يقول به أستاذه « كانط Kant » لانه زواج « لا أخلاقى » كما أنه أنانى يقوم على النزوة والهوى . أما الزواج الاخلاقى الحق ، فهو « وحدة روحية » يتنازل فيها كل زوج عن أنانيته ، ومن هنا كان الزواج الهيجلى فعلا أخلاقيا ، وليس مجرد إشباع لشهوة بهيمية .

تلك هى الجوانب الروحية والاخلاقية للاسرة ، أما المجتمع المدنى عند هيجل فهو « وعاء » أكبر ينتقل اليه الإنسان الفرد ، بعد التربية الاخلاقية التى تمت بها داخل الإطار الصغير للاسرة ، حيث تظهر وتتعقد العلاقات والمصالح فى المجتمع ويرتد الانسان إلى « ذرة إجتماعية » ، تعيش فى خضم هائل هو المجتمع بفئاته وطبقاته التى تشبع حاجات الفرد الفسيولوجية ، كما تشبع حاجته ، إلى الامن وهى ضرورات سيكولوجية وأخلاقية .

أما « الدولة » وهى المركب بين الاسرة والمجتمع ، فهى التحقيق الفعلى للفكرة الاخلاقية ، حيث تعارض الدولة كل الاهواء والنزوات الفردية ، ولذلك كانت الارادة الحقيقية للانسان الاخلاقى عند هيجل « هى تلك الارادة التى تصل الى تحررها الكامل داخل إطار الدولة » .

وهناك « بعض نقاط الضعف الشديدة » التى تعانى منها وجهـــة النظر الهيجلية ، فلم يوفق هيجل بين « الحرية الفردية والارادة الجماعية » ، كما أن العقل الذى يوجد فى التاريخ ، لايستتبع التأكيد على أن يكون التاريخ معقولا دائماً ، فقد تسيطر على التاريخ قوى وإرادات « لا معقولة » . وبالاضافة الى كل هذه الانتقادات ، نجد أن افتراض الارادة العقلية للدولة واتحادها مع الارادة الخلقية للذات الفردية ، إنما هو إفتراض ميتافيزيقى ، وهو « تفاؤل هيجلى » لا يؤيده الواقع أو التاريخ وختاماً ، فقد أكد « تاريخ النظرية الخلقية » أن فلسفة هيجل ونظراته الاخلاقية والسياسية ، قد تمخضت وصدرت عنها ، أشد النظم السياسية والادارية

استبداداً وتحكماً ؛ فقد تمثلت سمات الدكتاتورية وملامحها بوضوح فى النظم الفاشية والنازية .

مثلث جدل التاريخ :

لقد بدأ مثلث جدل التاريخ فى الظهور ، بداية نقدية Critique وترنسندنتالية فى ميتافيزيقا كانط ومقولاته الصورية ، ثم تطور « مثلث الجدل » عند هيجل الذى اصطدم بالمنطق الكانطى الصورى ، ورفضه وأنكره حيث لم يلتفت كانط إلى تاريخ الفكرة وفحواها ، وإنما التزم فقط بصوريتها وفراغها .

فأصبح « المثلث الهيجلى » جدلياً Dialectique ملتزماً بخصوبة التاريخ وفحوى ماضى الفكرة . وهنا يصطدم هيجل بفكرة ضرورة إشتقاق المقولات بعضها عن بعض ، إشتقاقاً ضرورياً ، يلزمنا بتتابع منطقى لها يجعلها تنفجر واحدة بعد أخرى ، بقوة المنطق وحده .

ولقد ميز « كانط » بين « الحكم التحليلى » و « الحكم التركيبى » و « الحكم التركيبى الأولى » . أما الحكم التحليلى فهو « لايضيف شيئاً جديداً » إلى الموضوع أى أنه حكم « غير مخصب » ، ولكنه حكم « ضرورى necessary » .

وعلى العكس من ذلك ، فيضيف الحكم التركيبى إلى موضوعه جديداً ؛ وذلك استناداً إلى التجربة ، ومع ذلك فان الحكم التجريبى «حكم غير ضرورى » فى حين أنه « مخصب » ، أما « الحكم التركيبى الأولى » ، فيجمع بين ميزتى النوعين السابقين ، وهما الضرورة والاخصاب ، فى وحدة أعلى هى التركيب بين ما هو « ضرورى » فى الحكم التحليلى ، وما هو « مخصب » فى الحكم التركيبى ، فأصبح الحكم التركيبى الأولى ، ضرورياً ومخصباً .

وتحقق كل فكرة ذاتها بما ينفيها ، فان « الانا المطلقة le moi absolute » عند « فخته Fichte » ، وهى الذات الالهية ، التى لا يمكن أن تحقق وجودها

كاملة ، إلا بأن تعارض ذاتها بما ينفيها ، أى «باللا أنا Le nonmoi » ، وهكذا خلقت الذات المطلقة ، العالم المحدود ، وصدر « الوجود النسبي » عن « الوجود المطلق » .

ولقد جعل إثنان من كبار معاصري هيجل ، وأعني بها « شلنج Schelling » و « فخته Fichte » من ثالوث الفكرة والنقيض ، إلى ما يتفجر منها ويفيض ؛ وهو المركب بين الفكرة والنقيض ، فجعلا من هذا الثالوث إطاراً نظرياً لما إتخذاه من أنظار وأنساق ميتافيزيقية .

ولا مشاحة فى أن ماركس ؛ قد استفاد من إكتشاف هيجل لمقولة التناقض ، ولفكرة المركب Synthése ، حين يأتلف الضدان فى وحدة أعلى ، وأكثر خصوبة . وربما إستفاد هيجل أيضاً من « كانط » حين فتح أمام المنطق طريقاً جديداً ، عندما أكد أستاذه « كانط » إمكان الإئتلاف بين الضدين فى وحدة أعلى.

من عصر « الرق » الى عصر « الصناعة » :

ولا شك أن هيجل هو فيلسوف من فلاسفة التاريخ ، فهو مكتشف مقولة التناقض وأثرها التطورى فى الحركة الجدلية ، ودفع عجلة التاريخ ، من أجل تحقيق فكرة المثلث وأضلاعه . ولكى يطبق هيجل نظريته فى المثلث الجدلى الخالد بين الفكرة ونقيضها والمركب بينها[1] . حاول أن يؤكد على أن منطق

---

(١) ومثال هيجل على ذلك ، ما قام به الفكر الالمانى الكانطى ، حين ألف وجمع بين الفكر الفرنسى العقلى ، والفكر الانجليزى الامبيريقى ، فى فلسفة نقدية وحيدة تجمع بينهما . ويسوق هذا المثال المؤرخ الهيجلى اليسارى « هربرت ماركيوز Herbert Marcuse » فى كتابه «العقل والثورة Reason and Revolution» والذى أصدر له عنواناً ثانوياً ، «هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية Hegel and The Rise of Social Theory» ولقد نقل هذا الكتاب المتع الى اللغة العربية ، الدكتور فؤاد زكريا .

التاريخ هو محرك الجدل ، ومنطق التاريخ هو ببساطة « منطق الاحداث » ، ومنطق الحركة الاجتماعية التي تحدد « منطق الانسان ، وتفرض « ثقافته » وترسم أسلوب حياته .

وإذا كان الانسان فى منطق التاريخ هو مجموع رغبات وارادات وشهوات حية . حيث تميل الطبيعة الانسانية نحو التسلط والرغبة فى التملك ، حتى يصبح الانسان معترفاً به وبارادته وقوته ، وبطبقته وبمكانته ، حين يتميز الانسان أو يعلو بالنسبة للاخرين وفى نظرهم « بكيانه وذاته ووجوده » .

والانسان يريد « السيادة » التي يعترف بها الناس ، ومسلك ، أو أسلوب « السيادة » هو مسلك النضال ، أما أسلوبها فهو أسلوب الصـــراع ، وينتهى النضال والصراع والحرب ، بقضاء فريق على آخر وسيادته وتسلطه ، فيعترف المغلوب بسيادة المنتصر « كما يرضى المهزوم بالهزيمة ، لكى يضمن حياته ، فيفضلها على الغلبة والسيادة .

والانسان الحر إذا ما حكم عليه بالهزيمة والقهر ، حتى يستطيع أن يعيش ويستريح وينعم ، يصبح « عبداً » ، حين يرضى بواقعه ، ولا يخاطر من أجل السيادة أو الحرية . ومن هنا تظهر طبقة السادة وطبقة « العبيد » . وتعمل الاولى بدافع « القهر » ، وتعمل الطبقة الثانية بدافع « الخوف » .

ومع تطور حركة التاريخ ، يبدأ الصراع بين « السادة » و « العبيد » ، حين يشعر العبد بعبوديته وإذلاله ، فيطالب بالحرية ، وفى نفس الوقت يشعر السيد بالسيادة ، ويطالب بالاعتراف الدائم بصلفه وكبريائه واستعلائه .

ولا شك أن اعتراف العبد بسيادة « السادة » ، إنما يقتضى منه القيام بخدمتهم ، حين يكلف العبد بالأعمال . وليست « الخدمة » هى مجرد بذل المجهود القيام بأعمال لها ضرورتها الحيوية والاستهلاكية فى الحياة اليومية ،

بل من شأن « الخدمة » أن تصبح فى يوم ما « عملا Work » ، أو حتى « صناعة industry ».

وهنا يكون من شأن « العبد » أن يتحول فى يوم ما ، إلى « عامل » أو « صانع ». وهذا هو بالضبط ماحدث بالنسبة للزنوج والملونين فى الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة فى ولايات الجنوب ، حين تحول « الانسان الزنجى » من حالة الاسترقاق، فحطم حاجز العبودية ، فلم يعد الزنجى يشعر بنفسه كعبد اشتراه سيده ، بل كعامل أو كصانع يعمل حراً بعرق جبينه.

فلقد بدأ التحول والثورة فى باطن العبودية والاسترقاق ، كما بدأ الصراع والجدل ، فنتج عن هذا « الصراع الباطنى » منطق جديد للتاريخ حين يشعر العبد « بالثورة الداخلية » وعندئذ فقط تتحول « خدمات » العبد إلى « عمل » منظم . وقد يثور العبد ويستمر فى الثورة ، حتى تتحول « الحرف البسيطة » التى تدور حول تربية الخيول و « المهن الكادحة » كالحدادة وصناعة العربات ، تلك التى سادت وإنتشرت ، ثم تطورت إلى أعمال يدوية مريحة وآلية . ولقد استمرت الثورة فعلا ، فحرر العلم Science « العمل والعمال » حين أحال « العلم » العمل الآلى إلى « صناعة industry » و « إنتاج Production » :

فالحرية كانت هى المحرك الأساسى لتطوير « طبقة الخدمة » إلى « طبقة العمل »، وبالعمل تحرر « العبد من الخدمة » .

فقد كان العمل هو ثمن الحرية ، وكانت الحرية هى ثمرة العمل ، فدفع العبيد من أجورهم مايعطيهم « وثيقة الحرية » . فلقد كان العبد فيما مضى ، « خادماً للسيد وللطبيعة » ، إلا إنه إجتهد وكافح لكى يصبح « عاملا » أو خادماً للطبيعة فحسب . وهو الآن كعامل إنما يقوم بأعمال ، لاتتصل به أو بأغراضه . وقد لاتشبع حاجاته أو لذاته الشخصية ، بل وقد لاترضيه هو نفسه ، فهى أعمال تحقق أغراض

الآخرين ، وترضى السادة « من ذوى الياقات البيضاء ، من « أصحاب ومديرى العمل » وتشبع نهمهم وحاجاتهم ولذاتهم الشخصية .

والعبد فى أثناء خدماته وأعماله ، ومن خلال جهوده وسعيه ، إنما يجرد ذاته من رغباته الطبيعية ، ومن طبيعته الحيوانية . لكى يحصل على إرضاء « السادة » حين يقوم بتحويل الأشياء وجعيها قابلة للاستهلاك ؛ وهنا يظهر للعبد « نوع من السيادة على الطبيعة » ، ايشعر « بنوع من الحرية » ، وبخاصة حين ينظر العبد إلى العمل ، وإلى نتائج عمله وصناعته ، وهو حر أيضا فى إمكان تحسينه وتقدمه وتطويره . فيحاول أن يتقن الصنعة ، فيحترف المهنة ؛ وقد يصبح « صانعا دقيقا وماهراً » حين يتحضر العبد ويبنى « العامل » ، ويعمر ويشيد المصانع ، فيدخل العمل « مرحلة الصناعة » .

ومايعنينا من كل ذلك هو أن هيجل ، يعالج على نحو جدلى ذلك التناقض القائم بين « السيد » و « العبد » ؛ فشرحه فى كتابه « فينومينولوجيا العقل The Phenomenology of Mind » الذى كتبه هيجل فى مدينة « يينا Jena » بينما تدك مدافع نابليون ، معاقل العبودية لتحرير الانسان ، وتطبيق مبادىء الحرية والاخاء والمساواة . وكلها قرارات اتخذتها الثورة الفرنسية ، فكتب « هيجل » عن احتمالات تحرير العبد من استغلال الانسان . حيث أن مدافع نابليون التى جاء بها من أجل التحرير ، هى من صنع « العمال » . فالصناعة هى التى تحرر الانسان ، وتؤسس الدولة المعاصرة .

وتقوم « الدولة العصرية » على الحرية والصناعة ، ولا تظهر الحقيقة عند « هيجل » إلا بفضل تلك الحركة التقدمية المتفائلة التى أدت إلى حصول العبد على الحرية . والفارق الجوهرى بين هيجل من جهة ، والماركسيين أو اليساريين من جهة أخرى ، هو أن « هيجل يرى فى الصناعة وسيلة لقيام دولة عصرية حرة » ، بينما يرى

« اليساريون فى الصناعة » وينظرون اليها ، « كمجال للحرية وليست وسيلة لها » وبخاصة حين نظروا إلى دولة العمال والصناع ، على أنها « دولة الأحرار » .

علم الاجتماع السياسى يرصد ظواهر الفكر :

لا شك أن نظرية كانط فى أشكال الأحكام هى التى أعدت للجدل الهيجلى ؛ الذى يستند الى ما يتفجر من الفكرة ونقيضها وما يؤلف بينهما . ولا مشاحة فى أن كانط بفلسفته النقدية وأحكامه التركيبية الأوليــــة أو نزعته الصورية الترنسندنتالية قد دفعت بالجدل الهيجلى إلى الظهور على مسرح الفكر الفلسفى .

ولقد اكتشف هيجل التناقض الذى يعمل فى قلب الوجود ، كحركة مضادة للهوية والذاتية . فاكتشف بذلك دور التناقض فى تطور الفكرة وتاريخها . ففى مقدمة « فاوست » لجوته ، نجد أن دور « ميستوفيل » هو دور الروح الشريرة المدمرة ، كما نلحظ جوته حين يقول « إن دور هذه الروح المدمرة التى تنفى وتهدم ، إنما هو فى نفس الوقت دور « تقدم » و « تطور » و « بناء » .

ولقد قام ماركس بتطبيق مكتشفات « هيجل » و « جوته » ، كما حاول بالنسبة للمتناقضات الاجتماعية ، أن يوفق بين « الأنانيــة » و « الغــيرية » ، كما أكد دور التناقض بالنسبة لتطور المجتمعات وتاريخها ثقافياً وحضارياً . وفى نفس الوقت أكد ماركس على وجود « هذا التناقض الاجتماعى والاقتصادى » ، ودوره فى الصراع الطبقى بين البروليتاريا والبورجوازية .

والامر عندى ، يتمثل فى أن علم الاجتماع حين يرصد ظواهر الفكر ، إنما يؤكد على أن النزعة التقليدية الكانطية ، كانت مصدراً خصباً فى بعث النزعة الهيجلية ، كما أصبحت الهيجلية هى المفتاح الرئيسى الذى بفضله نستطيع أن نطرق أبواب الماركسية . على اعتبار أن الفكر الهيجلى هو الطريق الوحيد الذى

يوصلنا إلى باطن الفكر الماركسى ، فكانت الهيجلية مبعثاً لظهور قضايا علم الاجتماع الماركسى .

فلم يكن « ماركس » إلا « هيجل » نفسه ، وقد تجرد عن « رداء المثال » ، وتخلص من « قشرة الشكل » ، وألقى بظاهر صور الأفكار ، والتفت الماركسى فقط إلى مضامينها التاريخية ومحتوياتها المادية .

ولم يكن « هيجل » مثالياً ، إلا لأنه قد أدار حول الفكر « فلسفته الديالكتيكيه» ، وبذلك أقام الجدل فى إطار مستوى الفكرة ، وفى داخل نطاق المنطق الجدلى . أما تلميذه النجيب « كارل ماركس » فقد أقام جدله على أرضية الواقع الصلب ، حين تصدر الجدلية الماركسية « مادية الأصل والفحوى » ، فلقد أخرج ماركس « الجدلية الهيجلية » من نطاق العقل المحدود ، فاذا بها « حية تسعى فى دنيا المجتمعات » ، وأصبح الجدل اجتماعياً وطبقياً وثقافياً ، وتبدل تقدم الفكر إلى تطور المجتمعات التى يحكمها جميعاً مثلث الجدل ، بما يحويه من صراع يعمل فى قلب الوجود الاجتماعى .

ولقد رفضت الماركسية القول بروح التاريخ ، كما رفضت المطلق absolute وأنكرت النهائى Final والمقدس Sacred ، فليس هناك فى الديالكتيك الماركسى إلا الحركة الدائمة التى لاتنقطع ، حركة الدمار المحتوم على كل شىء وكل فكرة وتلك هى حركة الصيرورة Becoming والفناء ، التى هى حركة التصاعد أبداً . ودون توقف ، مما هو أدنى إلى ما هو أعلى .

وإذا ما عقدنا المقارنات ، بين « هيجل » و « كانط » فيما يتعلق بموقفهما من « نظرية المعرفة» أو « الإبستمولوجيا » ، نقول لقد « أبصر » هيجل المعرفة « بينما « شيدها » كانط فى عقله ، حيث شاهد هيجل المعرفة وهى تنبنى وتتكون خلال عملية التاريخ بانبثاقها وصدورها كنتاج انسانى Human Product ، الا

أن كانط حين شيد نظريته للمعرفه ، لم يلتفت إطلاقا إلى « حركة الإنسان » فى فى مساره وإنطلاقه ، فى تقدمه وصراعه أثناء تدفق زمان التاريخ . وهذا ما ميز فلسفة هيجل وجعله فيلسوفاً للصراع والجدل والتاريخ .

فلم يأخذ كانط فى اعتباره « تجربة الانسان » ، ولم يدخل فى حسابه « تاريخ البشر » ، بينما اهتم هيجل بهذا التاريخ كل الاهتمام . فاللغة مثلا كنسق من التصورات ، ولكنها أداة يستخدمها الناس ويتناقلونها « كوسيلة للاتصال والتفاهم » بالاضافة الى أنها نتاج احتكاك الانسان بالآخرين ، ولقد بلغ هيجل الى أبعد الآماد أثناء مشاهدته لتجربته ورؤيته لواقعه ، وفى اعتباره المعرفة كنتاج للتجربة الانسانية . وذلك حين تصور « الواقع » معقولا ؛ على اعتبار أن « الروح Spirit » انما يكشف عن ذاته ، وأن الواقع الخارجى ، هو من اسقاط الروح الموضوعى Projection ، وغالباً ما يكون هذا الواقع الخارجى هو الصورة التى تبرز فى اطارها « عالم الثقافة World of Culture » هذا العالم الذى يخلقه « روح الشعب Volksgeist » الذى عنه تصدر القيم والأساطير وتنبثق التقاليد والتصورات(1).

وبذلك وضع هيجل فى اعتباره ، الالتفات الى التاريخ ، والنظر اليه كعملية process ، بمعنى أن يكون التاريخ فى فلسفة هيجل ، هو العملية التى بفضلها يتقدم الانسان وينمو الجنس البشرى ويتطور ، فنى التاريخ توجد كل محاولات الانسان وتجاربه ، حتى يمكنه من خلال تجاربه أن يؤكد ذاته وأن ينمى قدراته وطاقاته . والتاريخ هاهنا ، هو « تاريخ الروح » أو ماضى العقل ، حين يحقق ذاتيته ويفجر قواه وفاعليته ، ويكشف عن واقعه الخارجى باسقاط الروح

---

(1) Blondel., Ch., Introduction à la Sociologie Collec. A. Colin Paris 1925. p. 51.

للموضوعى على ذاته ، وبالتالى يربى الانسان نفسه بنفسه ، ويعلم ذاته ، فيسلك سلوكاً اجتماعياً معقولا يتفق مع عالمه الخارجى ، الذى هو عالم الثقافة Culture

وفى هذا العالم فقط ، يستطيع الانسان أن يسلك ككائن عاقل ، فلا يمكن أن نتصور « وجود المجتمع ، أو قيام الثقافة ، دون وجود إنسان ، أو قيام كائن عاقل مسبق . حيث أن الانسان العاقل هو مصدر كل ثقافة ؛ كما أن الثقافة هى أيضاً نتاج مباشر لوجود الانسان العاقل . ولم يشر هيجل على ما فعل ماركس إلى « الوعى Consciousness » أو حتى الى « الوجود الاجتماعى Social existence » وانما ركز فقط على « الروح الموضوعى objective Spirit » ويتضمن ذلك الروح الموضوعى كل ما يتصل بقواعد المجتمع والنظم الاجتماعية Social institutions ؛ وما يتعلق بالأساليب التقليدية للسلوك Conventional modes of behaviour .

هذا عن الروح الموضوعى ، أما عن «الروح الذاتى Subjective Spitrit» فيتألف من طرق الفكر واتجاهات العقل والوجدان . ويؤثر كل من الروح الموضوعى والروح الذاتى على نحو تبادلى ، فلا يبقى أحدهما دون الآخر ، كما تربطهما علاقة تساند وتعامد من جهة ، وتأثير متبادل من جهة أخرى . حيث يؤثر الشعور السائد فى قواعد ونظم المجتمع ، كما تؤثر بالتالى أساليب السلوك التقليدى فى اتجاهات العقل وأنماط الفكر . واذا كان أفراد المجتمع يستطيعون الحياة فى علاقات اجتماعية متبادلة ، واذا استطاعوا أن يكونوا بعض الأهداف والمقاصد المشتركة ، فلابد أن يتوافر عنصر « الانسجام Harmony » ، الذى يحقق التكامل والاتساق بين الروح الموضوعى والروح الذاتى ، وليست العلاقة بينهما « ثابتة » ، وليس الانسجام أبدياً ، فهناك عناصر الهدم والتغير ، تلك التى تنشأ من تناقضات Contradictions تقوم بين سائر العناصر والاجزاء ،

ويتجه التناقض دائماً نحو الحل Solution ، عن طريق إزالة الصراع وحل التناقض أو رفع التعارض .

ومن هنا يحدث التقدم بعد أن يزول التوتر Tension ، ويتوقف الصراع والجدل . إذ أن الجنس البشرى إنما يتطور ويتقدم ، بحكم التناقض ، ونظراً لوجود التعارض والصراع . ولاشك أن التطور البشرى ، هو فى واقع الأمر تقدم « جدلى dialectical » ، أو هو تطور « حركى نشط » ويعبر هذا التقدم عن ذاته فى شكل مناشط إجتماعية Social activities ، تكون مستمرة أبداً ، كما وتدفع حركة التطور دوماً نحو الأمام .

ولقد رفض الماركسيون تصورية « هيجل » عن « الروح اللانهائى » ، فى عملية التحقق الذاتى ، نظراً لما فيها من تجريدات ميتافيزيقية ، ومتاهات فلسفية ، بينما وافقوا على الأفكار الأساسية للنظرية الهيجلية ، مثل الجدل والتناقض ، كما وافق الماركسيون على موقف هيجل بصدد الإنسان والمجتمع والتاريخ ، فمن المتفق عليه مثلا بين الماركسية والهيجلية ، أن قدرات الإنسان — التى تميزه عن سائر الحيوان — هى قدرات متطورة بالضرورة ، حين تتغير وتتبدل على مر الزمان ، نظراً لاحتكاك الإنسان الدائم بالطبيعة ، وإتصاله الدائب بالحياة والمجتمع خلال تقدم حركة التاريخ .

ومن المؤكد مثلا ، أن الأساليب التقليدية للسلوك الإنسانى ، هى نتاج مناشط الإنسان وقدراته ، كما أنها أيضاً نتيجة حتمية لاتصال الفكر المستمر بالواقع الاجتماعى واحتكاكه بالبيئة الطبيعية . ولاشك أن التميز الذى وضعه هيجل بين « الروح الذاتى » و « الروح الموضوعى » ؛ إنما يتصل إلى حد بعيد بذلك التميز الماركسى الذى يفصل بين « الوعى » و « الوجود الاجتماعى » ، حيث يستخدم هيجل كلمة « الروح Spirit » كى تصدق على النظم وأنماط السلوك من جهة ، ولكى

تصدق أيضاً وفى الوقت عينه ، على سائر المعتقدات والتصورات والمشاعر العامة بمعنى أن هناك رابطة جوهرية بين الروح الموضوعى والذاتى ، حيث أن النظم هى « أنماط من السلوك » من جهة ؛ كما أنها من جهة أخرى « قوالب من الفكر والمشاعر » قد صيغت فى قواعد مرعية وعامة ؛ بالاضافة إلى أننا نجـد فى كل نوع من « النشاط الاجتماعى » إنما يتوافر لدينا عنصر « الوعى » ، وهو نوع من التفكير المرتبط بالأشياء والمتصل بالوجود .

هيجل والايديولوجيا :

إلا أن هيجل لم يستخدم اصطلاح « الوجود الاجتماعى » الذى يتحكم فى الوعى . ولم يحدثنا اطلاقاً عن مفهوم « الأيديولوجيا » تلك الكلمة التى اصطنعها ماركس وألح عليها كل الالحاح باعتبارها المفتاح الوحيد لفهم الانسان والمجتمع والتاريخ . ولكننا نلحظ أن التصورية التى استغرقت جانباً كبيراً فى فلسفة هيجـل ، هى « التصورية العالمية » أو ما يطلق عليها هيجل اسم weltanschauung ليقصد بها معنى « التصورية الكلية للعالم »[1] . ولا يمكن أن يحصل على هذه التصورية الكلية المطلقة سوى « كائن عاقل مفكر Rational Being » حيث أن فهم النظم وتحليل الأفكار فى ضوء علاقتها بعضها بعضاً ، ودراسة ماضيها ، وكيف تنشأ وتتطور ، كل هذه جوانب تعتـبر من أخص خصائص الانسان من حيث هو « كائن مفكر » .

بمعنى أن النظرة الكلية للانسان وموقفه من العالم ، وتفسيره للتاريخ ؛ إنما لا يتحقق كل ذلك ، إلا بشروط « الوعى » تلك التى تتوافر فى الانسان من حيث هو كائن « يفهم » و « يحكم » و « يعى » ، ويستخدم أفكاره ويحدد أهدافاً

---

(1) Mannheim, Karl , Essays on Sociology of Knowledge., Routledge and Kegan Paul. London, 1952 p. 38.

خاصة يستطيع تحليلها وتعليها وتفسيرها ، من زاويةموقفه ونظرته الكلية للعالم. إذ أن هناك تصورية للعالم ؛ أو نظرة للوجود ، يستطيع الانسان من خلالها أن يضع نظاماً للاشياء . ومن شأن هذا النظام التصوري للوجود ، يرتبط برباط وثيق بنسق الفكر واللغة language . حيث أن الفكر يصبح بلا وظيفة إذا لم يتصل بالعالم أو يرتبط بالأشياء ، كما تصبح اللغة ناقصة عرجاء إن لم تنتعش بحركة الوجود وتلتحم بتيار التاريخ الاجتماعي .

وبهذا المعنى أصبح الفكر البشرى ظاهرة تاريخية ؛ ونتاج جمعى يتوقف على شروط البيئة وظروف الثقافة Culture ، كما يستند الفكر أيضاً إلى مواقف اقتصادية تؤكد المصالح المادية ولذلك كانت « المنفعة » هى الخلفية الأصلية التى تختفى وتستتر وراء سائر الأيديولوجيات الاقطاعية والبورجوازية ، ويكفى أن ترفع هذا الستار النفعى الجشع ، حتى تنكشف تلك الأيديولوجيات ، وهذا هو أسلوب الماركسى فى دراسة الايديولوجيا ، بالكشف عنها ، حين تفصح عن نفسها ، وتصبح عارية عن ظاهرها الفكرى ، ولا ينكشف لنا فى أيديولوجيا البورجوازية « سوى باطنهـــا النفعى » ، ويرى الماركسى فى النفعية « فلسفة للخنازير » على حد تعبير الفيلسوف « نيتشه Nietzsche » ، حيث تتميز النفعية بالحرص الممزوج بالجبن لتحقيق المنافع والمآرب .

وعلى العكس من ذلك ، فقد أثبتت كتابات مانهايم أن « المنافع » ليست هى الدوافع الوحيدة للسلوك والمواقف البشرية ، وأن « المصلحة » ليست هى القنطرة الفريدة التى تصل العقل بالوجود ، والفكر بالواقع ، ففى ميدان الفن مثلا ، نجد أن المنفعه ليست من عناصر « الخلق الفنى » ، ذلك الذى تتوافر فيه فقط بعض « القواعد والشروط الصادرة عن ظروف المجتمع والتاريخ.. » على إعتبار أن الفن مهما حلق بعيداً فى عالم الخيال ، لوجدنا أن العناصر الاجتماعية

كامنة بالضرورة فى عملية « الخلق الفنى » بمعنى أن « الانسان والمجتمع والتاريخ » هى عناصر ضرورية لتكوين اتجاهات الفن ومذاهبه .

فكرة النسبية والايديولوجيات :

لقد رفض التاريخيون فكرة الانسان الصورى أو المنعزل ، وأنكروا تصورية كانط غير الواقعية ، تلك التى تنظر إلى الانسان على أنه كائن مجرد abstract ، وإلى عقله على أنه عقل خالص ، على حين أننا لا نجد إنساناً بدون تاريخ ، ويستحيل علينا أن نجد « عقلا خالصاً » . فلا يوجد سوى « الانسان المشخص » الذى يحتك بالآخرين ويتأثر بالقيم ويشكل عقله بالتربية وتصاغ شخصيته فى قوالب اجتماعية وصور ثقافية .

فالانسان الواقعى سواء كان فيلسوفاً أم فناناً ، ليس كائناً وحيداً منعزلا و « كأنما ألقى فى هذا العالم » . على ما يقول الوجوديون ، كما أن الانسان ليس كائناً غريباً يعيش خارج جدران المجتمع أو حدود التاريخ ، فاذا ما تناولنا فلسفة الفيلسوف مهما كان فى عزلة ، وإذا ما عالجنا الخلق الفنى لموسيقار أو أديب أو نحات مهما حلق بعيداً فى برج عاجى ، لوجدنا أن الفن قد إنطبع بالطابع الاجتماعى . وأن النتاج الأدبى والفلسفى قد امتزج بالكثير من العناصر الثقافية والاجتماعية .

ولما كان ذلك كذلك — فلقد ذهب التاريخيون والايديولوجيون إلى أن الحقيقة نسبية Relative وليست مطلقة ، لأن الحقائق إنما تقفز قفزاً من عالم الوقائع الاجتماعية والأحداث التاريخية ، ومن هنا كانت نسبية الحقائق التى لا تظهر « بشحمها ولحمها » ولا تتكرر بنفس الصورة ، هى نفسها ، أو بكلمات أخرى لن تتواتر فحوى الظواهر بنفس الشكل وبنفس الموضوعية فى مجتمع

آخر ، أو فى ثقافة أخرى(١).

وهناك الكثير من الكتابات السوسيولوجية التى تؤكد على الفكرة النسبية ، مثل ظهور كتابات لوسيان ليفى بريل Lucien Lévy-Bruhl ، التى تفصل بين منطق الفكر البدائى ومنطق الفكر المتحضر ، ونظرت إلى العقلية البدائية على أنها « سابقة على الفكر المنطقى Prélogique »(٢).

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، حين تنقلب سفينة فى بحر عاصف ، يظن بحارتها ، وهماً أن المعونة سوف تأتيهم فى الحال. بينما يعتقد البدائيون أن « روحاً خبيثة » قد قلبت السفينة ، حيث ينظر البدائى إلى الكون نظرة خاصة(٣) كما يحلل الأحداث والوقائع الفيزيقية تحليلا « غيبياً mystique » ، وتلك هى ملامح وسمات العقلية البدائية. والبدائى كم هو فى مسيس الحاجة إلى تفسير الظاهرات ، وتعليل الأحداث الطبيعية بمعنى أن البدائى لا يلجأ إلى « الغيبيات » إلا لأنه يخفق فى معرفة العلل الحقيقية ، فهو كالمتحضر يستطيع أن « يقارن » وأن « يفسر » بنفس الطريقة ومستخدماً نفس المقولات والقوالب.

على اعتبار أن العقلية البدائية ، إنما تحمل نفس التصورات والمقولات المطلقية ، فهى عقلية حاصلة على « الزمان والمكان والعلية Csusality » ولكنها تفسر وتحلل بطريقتها الخاصة ، ووفقاً لأساطيرها وتصوراتها الجمعية. فقد

---

(1) Stark. Werner., The Sociology of Knowledge, Routledge, London. 1960. p. 27.

(٢) أنظر فى هذا الصدد — دكتور قبارى محمد اسماعيل « علم الاجتماع والفلسفة » الجزء الاول ، صفحات ٩٣ ، ٩٦ دار الكاتب العربى.

(٣) أنظر « نظرة البدائيين الى الكون » للدكتور أحمد أبو زيد ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد الثالث ، ديسمبر ١٩٧٠.

تلقى المعتقدات البدائية ضوءاً على معنى « الوجود » ومغزى الأشياء ، فيلجأ البدائيون إلى قصص القدماء وأساطير الأولين ، حتى يجدوا تفسيراً للأشياء والموجودات .

ولم يكن ماركس وحده ، هو أول من بشر بالفكرة الأيديولوجية ،وما يتصل بها من نسبية ، وخاصة حين ترتبط الفكرة بأصولها الواقعية ومصادرها الاجتماعية . فلقد كان باسكال Pascal فيلسوفاً أخلاقياً ، وعالماً رياضياً ، إلا أنه فى الوقت نفسه ، قد عبر فى عمق واصالة عن نسبية الفكرة الأيديولوجية ، حين قال : « إن ما هو حقيقى فى شمال البرانس pyrenees ، هو خاطىء فى جنوبها » وحين أعلن باسكال هذه القضية ، لم يكن يفكر فى نظريات « أقليدس » الهندسية ، أو حتى فى مدار كوبرنيكس Copernicus وأنظاره الفلكية ، وانما كان باسكال يفكر فقط فى قواعد الأخلاق وقوانين السلوك الاجتماعى . وفى هذا الصدد يسخر « لينين Lenin » بقوله : « لو أن البديهيات Axioms الهندسية كانت تصطدم بمصالح الناس ، لسعوا بكل تأكيد إلى دحضها . كما اصطدمت نظريات الطبيعة بأوهام « اللاهوت القديمة » (1).

وبهذا المعنى الساخر ، قد تتأثر بديهيات الهندسة ونظريات الرياضة ، بالنظرة النسبية ، لو أنها اصطدمت بمصالح الناس ، فالنسبية لنا « أمر انسانى بحت » يصدر عن مجتمعات الناس وطبقاتهم حين تصطدم مصالحهم وأيديولوجياتهم. تلك هى النسبية الاجتماعية ، التى انطلق منها ماركس ومانهايم ، بالرجوع الى البعد الواقعى للفكر والتصورات،على اعتبار أن الظواهر والأحداث الاجتماعية، إنما تخضع عند ماركس لجدل الواقع وقوانينه . الأمر الذى جعل ماركس ينظر

(1) Lenin, Selected Works., Vol : 1. Progress Publishers Moscow. 1967. p. 46.

إلى القانون والأخلاق وما يتصل بها من قواعد ومعايير للسلوك الخلق، على أنها أجزاء متكاملة ومتسائدة فى البناء الأيديولوجى الأعلى.

الايديولوجيا والفلسفة السياسية :

لقد اشتهر « كارل ماركس Marx » بعقد المقارنات، بين « البناء الأسفل » و « البناء الأعلى »، حين ربط التاريخ بالمادة ووصل « البناء الأيديولوجى ideological substructure » بالأساس المادى أو الأسفل، وحين وصل أيضاً « الوعى Consciousness » بتلك الشروط الاجتماعية للوجود، وإذا ما عدنا إلى الوراء لوجدنا أن الفلاسفة الألمان قد أصدروا قبل ماركس، عدداً من الافكار والأنظار الفلسفية لتفسير « الفكر Thought »، وتحليل « المعرفة Knowledge ». فعقد هؤلاء الفلاسفة زواجاً مقدساً بين « الفكر والواقع »، فوصلوا بين العقل والوجود، أو بين « الفلسفة » و « التاريخ History » بحيث نستطيع القول، أن « الأيديولوجيا » بمعناها الوسيع ؛ هى إبنة هذا الزواج الشرعى بين « الوعى والمجتمع »، أو هى وليدة خصوبة الفلسفة التى نضجت وأثمرت على أرضية التاريخ الاجتماعى، « فالايديولوجيا هى الفلسفة الشائعة » بين عامة أو أوساط الناس. وهى الفلسفة حين تمشى على الأرض وتمرح فى عقول البشر، وتتحقق فى أنماط السلوك، فالايديولوجيا إذاً هى « بناء عقلى intellectual structure » يتصل بأفكارنا ومعتقداتنا، وأساليب حياتنا، كما وقد تتضمن الايديولوجيا أيضاً، ما هو أكثر من ذلك حين تشمل كيفية تنظيم المجتمع organization of society.

وقد تكون الماركسية واللينينية Leninism والنازية Nazism، وحتى البوذية Buddhism وهى أخلاقيات بلا دين، أو دين بغير إله(1) وكلها

(1) Durkheim., Emile, Les Formes Elémentaires de la vie Religieuse, F. Alcan-Paris 1912. P. 42.

نماذج من الأيديولوجيات ، ideologies ، أو الفلسفات الشائعة ، التى يكون لها رد فعلها على سلوك الناس وتصوراتهم . فلقد كان الراهب البوذى ، إلى عهد قريب ، يحرق نفسه حياً ، لكى يظهر تمرده ، ورفضه أو اعتراضه السياسى(١).
ومن هنا تعبر الايديولوجيات عن « تصورات الواقع » و « منطق الوجود الاجتماعى » ، وما يسود فى الفكر الشائع بين الناس . فالماركسية واللينينية مثلا من الايديولوجيات التى تحققت فى الواقع السياسى السوفييتى ، وفى روح المجتمع الصينى المعاصر ، فأصبحت الايديولوجيا اللينينية مذهباً فى الحياة ، يشيع مسرفاً فى ماديته بين مختلف الملل والنحل.

وتتعلق الايديولوجيا بالفكرة الشائعة التى تلتحم بالمعتقدات ، وتصل بالاعتقاد إلى حد الإيمان . ولذلك سيطرت الأيديولوجيات على خيال الناس وتصوراتهم الروحية ، فأصبحت الايديولوجيات ، هى « قوى فكرية » موجهة ، ولها صفة « القسر » و « القهر » و « الضغط » فهى « قوى فكرية ضابطة ومشاعة » ، ومارست الايديولوجيا فى نفس الوقت « وظائف اجتماعية Social functions ضرورية كعوامل للضبط control والجزاء Sanction ، فخلقت الايديولوجيات بذلك أنماطاً من « التقليد والتبعية » ، فما كان على الناس سوى « الولاء والطاعة » .

وحين تشيع الفلسفة ، أو تسود المذهبية والعقائدية بين سائر الناس ، تصبح الفلسفات والمذاهب والعقائد من الأسلحة الايديولوجية التى يكون لها صداها فى « إتجاهات الرأى العام » ، حيث تسود وتنتشر وتختلط بالتصورات الجماعية collective representations ، ويكون لها أثرها ورد فعلها فى محيط الثقافة

(1) Corbett, Patrick., ideologies, Hutchinson, 1965. p. 150.

وفى تحديد أنماط السلوك .

وتلك حقيقة يؤكدها علماء الاجتماع الثقافى والصناعى والدينى والسياسى ، كما يؤكدها فى نفس الوقت « علم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge» ومن هنا يمكننا أن نقول فى الرد على « كارل ماركس » ، أن السلاح الايديولوجى الفكرى هو أقوى الأسلحة وأمضاها ، فليس الأساس المادى Infra-Structure أو البناء الاسفل . هو الاصل فى التغير الاجتماعى ، وليس «الجوع» هو الدافع الحقيقى للثورة » ولكن الفكر هو فى واقع أمره « السلاح الثورى الرهيب » فوراء كل ثورة « فلسفة » لتغيير الواقع ، أو مذهب يحرك العقول ، أو «دعوى» تتحكم فى مسالك الجماهير .

ولما كان ذلك كذلك ، فقد تصبح الايديولوجيا ؛ هى الدعوى الدينية أو الخلقية التى تجدد القيم فتتحقق فى الفكر الذى يحرك الجماهير ، أو المذهب السياسى الذى يغير السلوك ويبدل الجماعات ، ومن ثم قد تصبح الايديولوجيا أحياناً هى الثورة التى تقلب الاوضاع بتنمية الانسان ؛ وتطوير الآمال ، وتغيير الاتجاهات والميول .

فالايديولوجيات لها خطرها الذى لا ينكره عالم الاجتماع السياسى ، فيقدر حسابه بميزان دقيق . ولقد ظهرت « النازية Nazism » فى أوائل ثلاثينات هذا القرن ، صدرت كدعوى أيديولوجية مدمرة ، ذات سلاح رهيب . فلقد استطاع «هتلر» فى الحرب العالمية الثانية ، أن يقوم بمحاولة تطبيق أول « اختراع عنصرى » ، كما وضع عقيدة سياسية ، حين بدأ يخطط لتحقيق مبادىء الفلسفة النازية .

والنازية ، هى «أيديولوجية الصليب المعقوف» التى اكتسحت أوربا بأسرها وحاول «هتلر» بالنازية كأيديولوجية جرمانية مضادة لكل الاجناس ، أن

يكتسح فى شهور وباستراتيجية الحرب السريعة والخاطفة ، معظم الدول والشعوب الممتدة من باريس حتى ستالينجراد ، كما سيطرت جيوش النازى على هولندا وبلجيكا وفرنسا والنمسا ، بفضل عملية « تجييش enregimentation » الشباب الألمانى كله ، تحت راية النازية ، وبسبب أيديولوجية متعصبة وضيقة الأفق . فالنازية نزعة ذات صلف عنصرى وكبرياء أجوف ، فهى كأيديولوجية عنصرية تعبر تعبيراً بليغاً عما يسمى « بخرافة الجنس النقى » .

ومن أجل تحقيق هذه الخرافة ، بعثر هتلر فى حرب خاسرة كل طاقات الشعب الشعب الالمانى ، وبانهيار الايديولوجية النازية ، وبفضل تعاون العالم الديموقراطى المتحرر ، كانت النهاية المأساوية للنازية ، حيث ضحت ألمانيا بالكثير ، وضحى الشباب والشعب بكل شىء ، حتى ألمانيا نفسها .

ولقد أخذت المذاهب النازية والفاشية ، وحتى الشيوعية ، بمبدأ عبادة الفرد ، ونحن لاينبغى أن نقدس المبادىء والمذاهب والأشخاص ؛ ففى هذا تحجر وتأخر . بل علينا أن نقدس فقط « الإنسانية » وأن نحترم « الحرية » ، ونشجع الذاتية . ومن الغريب أن يكون فى مبادىء الحرية والاشتراكية والديموقراطية نفسها ، الكثير من العيوب وجوانب النقص ، فباسم الحرية حصدت المقصلة فى ثورة فرنسا الكبرى ، رؤوساً ثورية كانت ذات قدر وزعامة ، مثل « دانتون Danton » و « روبسبيير » ، وذبحت عالماً كبيراً مثل « لافوازييه » الكيموى المشهور ، كما قتلت كاتباً ثائراً ، مثل « ترنك » البروسى ، حتى قيل يومئذ إن الثورة الفرنسية ، كالهرة التى أكلت بنيها فى حماقة ثورية وباسم الحرية . وكم أرتكبت الكثير من الجرائم باسم الديموقراطية والاشتراكية . وهى مبادىء براقة وتأخذ بالأبصار ، وينبغى أن يكون شبابنا منها على قدر من حذر فلا نقف عند حد تقديسها ، وإنما نتقبلها بعقلية متفتحة ، فلا نحيطها بهالة نورانية ؛ كمذهب أو أفكار هبطت إلينا

من عليين . وعلينا ألا نأخذ بفكرة ما على أنها حقيقة نهائية ومطلقة، فليست هناك فكرة علمية تحمل كل الحقيقة ، ولذلك وجب أن نناقش كل فكرة ، وأن ننقد فى موضوعية وأمانة كل مذهب . فنرفض ما يجب رفضه ، ونقبل ما يجب قبوله ، فمن الديموقراطية مثلا نستطيع أن نأخذ مبدأ إحترام الانسان وتكريم الذاتية ،وهذا هو جوهر الفكر الديموقراطى ؛ أما إذا أخذنا بظاهر الديموقراطية ، فتلك هى الديكتاتورية المقنعة .

أما بصدد الاشتراكية ، فعلينا أن نأخذ بمبدأ « الطعام لكل فم » ، وهذا هو أروع ما فى الفكر الاشتراكى . ولكننا ينبغى ألا نكمم أفواه الناس بالطعام فيصبح الانسان عبداً خاضعاً لمنفعته وشهواته . وبصدد الحرية علينا أن نأخذ بمبدأ تحرير الفكر من الخرافة ، والعقول من معوقات التفكير السليم ، كالتعصب الدينى الأعمى ، أو العنصرية وفكرة الجنس النقى . وكلها أفكار مضادة للحرية ، فهناك خرافة الجنس النقى التى يجب أن يتحرر منها « أجناس البشر » فليس هناك أصفر أو أحمر ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ولا تمييز لأبيض على اسود إلا بتكافؤ الفرص وقدرات الذكاء وسمات الشخصية ،اما الدين فللديان ، فلا فرق بين يهودى او مسلم او مسيحى ، ولا تمييز لمسلم على غير مسلم ؛ فكلنا بشر وكلنا من خلق الله ، وكلنا امام الخالق سواء ؛ ولو شاء الله تعالى لوحدما بين الاقوام وسائر الملل والنحل .

وفى الرد على كل الاتجاهات الجمعية Collectivism ومنها تعاليم النازية والفاشية ، نقول إن النزعة التصورية الجمعية إنما تقتل ملكات الانسان الذكائية كى تفسح طريقاً يؤكد سلطة الكتلة الجمعية ، كى تسحق فى طريقها أية صيحة من عقل ، أو صرخة من ذكاء . وينبغى ألا يخضع الفكر لسلطان خارجى ؛ سواء أكان سلطان المجتمع أو طغيان الطبقة . حيث أن روح الطبقة إنما تعمل على

جمود الفكر ، حيث يتعلق الفكر الطبقي على ذاته . ويعارض بدياج نفعي جشع ، بمعنى أن « روح الطبقة أو عقل الجماعة » كلاهما قيد لايتفق وروح الفكر الخلاق وكلاهما حجاب لاينسجم مع طبيعة الفكر المبدع ، بل وتتعارض النزعة الطبقية والجمعية مع الموضوعية ، مما يصعب معه التوصل إلى حقيقة أو يقين .

ففي كل القيود الجمعية والحجب الماركسية المادية ، قضاء على كل مايتمتع به فكر الانسان من أصالة ، ولا يمكن أن تنبثق الحقيقة ، عن « مجتمعات مغلقـــة » أو نزعات « طائفية » أو مصالح طبقية ، فكلها مصادر خارجية ، تتنافى مع الموضوعية الحقة ، ولذلك فالبروليتاريا والطوائف المهنية والمصالح الطبقية تعتبر جميعها من أعداء الفكر أفلا يمكن أن نتصور صدور المعرفة للموضوعية الحقة عن روح الطبقة .

فالحرية واقعة أولية ، والذات الانسانية تتميز بالوعي والاصالة والانفراد uniqueness ، ولقد قامت الفلسفات الوجودية(1) ، وهذا شاهد من تاريخ الفلسفة برد فعل مباشر ازاء النزعات الماركسية والنازية والفـــاشية ، تلك التي تجعل من الانسان فرداً منخرطاً في طبقة أو منتمياً إلى طائفة ، فرداً ينصرفون به ، باسم الحركة التقدمية الجمعية ومن أجلها ، كما يتصرف بالأدوات ، إذ أن روح الجماعة إنما تقتل طبيعة الفكر ، بل وتهبط بمستواه ، وتلك هي نقطة الضعف الشديدة التي تعاني منها وجهات النظر الماركسية والنازية ، كما أن الماركسية في ذاتها فلسفة مادية ، تلتفت الى الجوانب الاقتصادية ، وتغفل عن الجوانب الروحية العليا ، وعالجت حياة الانسان وفكره ومثله العليا ، كما لو كانت عارية عن الروح فأسدلت ستاراً كثيفاً حجب كل شيء ، فلقد قضى ذلك الستار المادي

---

(1) Tiryakian, Edward., Sociologism and existentialism Printice-Hall. 1962.

« الكثيف والمانع » على الروح الانسانى قضاءاً مبرماً .

خاتمة

لقد حارت « الفلسفة السياسية » بين شتى المدارس والعصور ، حيث اصطرعت مذاهب الفلاسفة منذ صدرت شمس الفكر فى اليونان فظهرت فلسفات « الحق » و « الخير » و « الجمال » واختلطت هذه الفلسفات بنزعات « حسية » وشطحات « صوفية » ، فتعددت مدارس الفكر بين « الواقع » و « المثال » ، وتنوعت مواقفها حين تردد بين « السقراطية » و « السفسطة »[1] ، وبين « العقل » و « الوجود » ، حتى صارت الفلسفة فى العصر اليونانى « شكلا معقداً فى وعاء » يجمع بين جوانبه تلك الأصول الأولى لكل ما جادت بين عقول الفلاسفة من « مثاليين » و « عقليين » و « تجريبيين » و « حدسيين » ، فلقد جمعت خصوبة الفكر اليونانى بين أرستقراطية أفلاطون وواقعية أرسطو ، حيث نوقشت فلسفات « اللذة والألم » ومعايير « الخير » و « السعادة » ، كما عولجت قيمة « الواجب » و « المثل العليا » ودرست « الفضيلة » كغاية لكل سلوك انسانى نبيل .

كما سادت فى الفلسفة المعاصرة ، تلك النزعات « التجريبية » و « النفعية » عند « جون ستوارت ميل J. S. Mill » و « هربرت سبنسر Spencer »[2]

---

(١) نسبة الى مختلف المواقف المتعارضة بين « سقراط Socratea » المؤسس الحقيقى لعلم الاخلاق ، وبين « السوفسطائيين » الذين رفضوا المعايير السقراطية لقيم « الخير » و « العدالة » ، حيث يرد سقراط هذه المعايير الى مبادىء كلية وعامة تفسر فى ضوئها سائر الافعال الخلقية ، ولكن السوفسطائيين يرون أنه لا يوجد فى العقل المحدود مثل هذه المعايير الكلية حيث أن الاحكام الخلقية جزئية كما أنها متغيرة مع الظروف والمواقف.

(٢) لقد دارت فلسفات الانطاع فى القرون الوسطى حول استاتيكية المتعة ، =

والقضية الرئيسية عند أصحاب «المنفعة» هي تحقيق «الرفاهية» أو «اللذة» أو «السعادة» لا «لإنسان بعينه» ولكن لأكبر عدد ممكن من البشر (١). ومن هنا صدرت علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسية كعلوم تجريبية، تخضع لها سائر الظواهر للملاحظة والتجربة، كما ويطبق المنهج الاستقرائي بصدد دراسة الظواهر حتى يمكن التوصل إلى «قوانين إمبيريقية» تخضع لها سائر الحقائق والوقائع الاجتماعية. وبذلك يأخذ أصحاب النزعة النفعية Utilitarianism بمناهج التحليل والوصف والاستقراء.

الفلسفة التجريبية القديمة:

تبدأ الاخلاقيات النفعية. بالتجربة كمصدر للمعرفة على إعتبار أن العقل «صفحة بيضاء Tabula Raza» طبقاً للمبدأ التجريبي القائل: لا شيء في العقل، ما لم يكن من قبل في الحس(٢) Nihil est in intellectus quod non ante fuerit in sensus بمعنى أن التجربة هي مصدر ما نكتسبه من أفكار ومعارف، ومن ثم كانت الافكار الأخلاقية هي وليدة «تجارب» وترتبط بمشاعر ومقاييس عملية. وتترابط هذه التجارب السلوكية، فتتكون «العادات»

= وثبات القيم وسيادة العقل، وفرض النمطية والتبعية، وتقديس الحق الالهي للملوك The Divine Right of the King وفي عصر التصنيع، بعد الثورة البورجوازية التي أطاحت بالاقطاع الفرنسي خاصة والاوربي عامة، ظهرت الفلسفات التجريبية والنفعية عند «جون ستيوارت ميل» و«هربرت سبنسر».

(1) Mill, John Stuart., Utilitarianism, edited by Mary Warnock, Colins. London. 1962. pp. 64-68.

(2) Durkheim, Emile., Les Formes Elementaires de la vie Religieuse, F Alcan. Paris. 1912. p. 104.

و « الواجبات » ، حيث أن « الواجب » عند النفعى يمكن تحليله إلى عناصر « أولية بسيطة » فنجد أنه وليد التجربة العملية ، على اعتبار أن « الغيرية Altruism » عند نفعى من أمثال « بنثام Bentham » ما هى إلا أنانية مقنعة ، حيث لا تشهد إلا بعبودية الانسان لمبدأ المنفعة ، فلا يمكن أن يقدم على فعل الخير للاخرين إلا متى ناله من هذا الفعل فظفر بحاجة أو « منفعة » ،أوفاز وأدرك « لذة » . فلقد خلق الانسان عبداً لسيدين هما ، « اللذة والألم » ، يتحكمان فى كل فعل وقول ، ويصدران أمرهما لكل سلوك خلقى ، فاللذة والألم هما أساس « الواجب الخلقى » فى سائر الفلسفات النفعية .

ولكن فيلسوف مثل « كانط Kant » يرى أن اللذة والأنانية والمنفعة لايمكن أن تكون إطلاقا غاية للسلوك الانسانى، وإلا سقط الانسان عبدا خاضعاً لنزواته الحسية الزائلة ، فيقترب بالطبع من مستوى الحيوان ، وليست الانسانية نزعة بهيمية ، فى هذه النظرة دونية ونقص ، ثم إن من اللذة ما يجلب « الضرر» ومن « الألم » ما يحقق النفع ، ولذلك رفض « كانط » مبدأ « اللذة والألم » ، وأنكر الانانية والمنفعة ، وأكد على فكرة الواجب ، ونظر « كانط » إلى قانون الواجب . على أنه القانون الخلقى العام .

حيث أن « القيم الكانطية »لاتستند إلى التجربة أو الاحساسات وإنما تقوم فقط فى بنية العقل الخالص ، وبذلك تجرد كل فعل خلقى من « الغرضية » أو الاهواء النفعية . حيث أن الواجب الخلقى هو « امر مطلق وحتمى » لايخضع لشروط الزمان والمكان « ولا يسعى الواجب الكانطى وراء لذة او متعة مباشرة .

هذه التفاتة عاجلة لألوان من المواقف المتصارعة حول مسائل الفلسفة ، وما يعنينا من هذا الاستعراض السريع هو موقف علم الاجتماع من هذه المسائل

فلقد استغل هذه الخلافات الفلسفية إستغلالاً بارعاً، فاقتحم معاقل «الواجب» و«القيم»، بقصد إنتزاعها وتجريد مسائلها من أصولها العقلية والتجريدية والنفعية، وتفسير القيم والمعايير الأخلاقية من وجهة النظر السوسيولوجية.

بمعنى أن علم الإجتماع القيمي قد قام على أنقاض تلك الصراعات الخاصة بفلسفات الأخلاق، وحاول أن يضفي طابعاً إجتماعياً على فكرة «الواجب» و«الارادة» كما أسهم في تحليل أنماط السلوك الخلقي طبقاً لمبدأ الإلزام الإجتماعي. فتناول دور كايم Durkheim، فكرة الارادة Volonté، كما عالج مشكلة «القيم والأحكام القيمية Jugement de Valeur». كما طرق لوسيان ليفي بريل Lucien Lévy-Bruhl. قضايا «المعياري Normatif» والنسبي Relatif» في الأخلاق وناقش «مشكلة الضمير La Conscience» وغاية السلوك الخلقي.

كما ذهب «البيرباية Albert Bayet» بالوضعية والنسبية في الاخلاق، إلى الحد الذي يصطنع فيه مذهباً علمياً لدراسة الظواهر الخلقية على أنها «واقع معطى»، لايصح إغفاله. فلقد كانت هذه المعطيات donné الاخلاقية هي نقطة البدء التي إنطلق منها علم الاجتماع الاخلاقي. فتحولت الاخلاق من مجال «الواجب» و«المطلق absolute» إلى مجالي «الحادث» و«النسبي».

هجوم على الفلسفات المعيارية:

لقد أخطأ جمهور الفلاسفة، منذ أفلاطون وأرسطو، وإنزلقوا جميعاً إلى نقطة الضعف الشديدة التي تعاني منها كل أنساق الفلسفة على الاطلاق، حين أدلى كل فيلسوف بدلوه، فعالج كل مسألة، وطرق كل باب من أبواب العلم والمعرفة، وكان له بصدد كل دراسة جولة، كما كان له في كل موقف صولة.

ولكن كل فيلسوف، قد ألقى في كل جولاته وصولاته، بتجربة التاريخ وبحركة الزمان، وبموقف المجتمع، وبديناميكية الثقافة، خارج ميدان الدراسة.

فدرس الفلاسفة « العقل » على أنه شيء تام بذاته Sui-generis ، على الرغم من أن العقل ليس شيئاً منفصلا أو منعزلا ، كما أنه ليس « صورياً Formal » يعمل بعيداً عن الواقع .

فلقد أثبت التاريخيون والانثروبولوجيون ، وعلماء الاجتماع الثقافى والدينى والمعرفى ، أن العقل ظاهرة تاريخية ، تتأثر ببنية الثقافة ونظم المجتمع ، حيث يستمد العقل من البناء الاجتماعى ، كل تصوراته ، كما تسكب حركة التاريخ فى « محتوى العقل الانسانى » ، الكثير من المحتويات الخصبة ، فمن الخطأ البين أن ينزلق الفلاسفة ، ويقعوا فريسة التعصب الضيق الأفق ، حين يلعبوا بكرة العقل فى « فراغ ميتافيزيقى » ، وعلى أرضية غير قائمة أصلا ، وغير مشروعة لأنها تقع ببساطة خارج حدود المجتمع والثقافة والتاريخ .

وهناك معايير فى الفلسفة وعلم النفس لتفسير السلوك الخلقى ، ومنها معيار العقل والواجب ، ومنها المعيار العملى البراجماتى حيث تؤكد الفلسفة البراجماتية Pragmatism على أن « العمل المنتج » هو هدف الحياة ، وأن العقل إنما يسخر لاشباع رغبات الانسان ، وتيسير حياته وحل مشكلاته العملية ، بمعنى أن البراجماتية هى مذهب المنفعة فى صورتها العملية ومعيار الصواب عند البراجماتى هو ما يحقق النفع والنجاح ، وتتحول الفكرة الصائبة إلى سلوك ناجح ، لأن « لأن الفكرة البراجماتية هى إما حل لمشكلة ، أو هى « خطة للتغلب على صعوبة » .

ولعل هذه الفلسفة العملية البراجماتية ، إنما صدرت أصلا عن الأخلاقيات السوفسطائية ، ولعل أخلاقيات مونتانى Montagne قد ساهمت هى الأخرى فى إرساء أصول الفلسفة البراجماتية فى الأخلاق ، فالرجل الحكيم عند « مونتانى » ليس هو الأخلاقى الرواقى الذى يحيل القلب البشرى إلى قطعة من الصخر ، وإنما يستمتع بحياته العملية فى اعتدال ، ويتخلى عن الرغبات والافكار التى

لا تتناسب مع الظروف والأوضاع . بمعنى أن الحكيم هو رجل عملى يعرف كيف يعيش وهذا هو « الفيلسوف الاخلاقى الحقيقى عند مونتانى » فالحياة العملية عنده هى « فن تحقيق التوازن » بين الرغبة من ناحية ، والظروف المحيطة من ناحية أخرى . والفضيلة هى أن يحب الانسان الحياة ، ويستمتع بالجمال والصحة ، والواجب هو الاعتدال دون اسراف ، والسعادة هى القناعة بالأمر الواقع حين نحصل على الأشياء ، وحين نعرف كيف نفقدها دون آلام أو حسرات ، فلنطرد من أنفسنا شبح الاحقاد ، ولا نتحسر إذا ما زالت النعم .

وليس هناك من أمراض البشر ما هو أشد وأفتك من « الكبرياء الأجوف» والادعاء الكاذب ، لأن الانسان عند « مونتانى » هو كائن ضعيف يعيش فى أوحال العالم ، ومع ذلك تخلق مخيلته فوق النجوم ، وكأنه مركز العالم ومحرك الكون ، حين يتخيل فى كبرياء عقلى أنه يضع السماوات تحت قدميه ، ولذلك تصدر جميع الشرور فى عالم الانسان عن هذا الكبرياء الذى يجعلنا عرضة للسخرية . فما زالت أحكامنا مريضة ، وما زلنا ننساق وراء أهوائنا الفاسدة ، ولا تتحقق السعادة إلا فى الصفاء الداخلى ، حين نشعر بالفرح العميم بتوازننا وباعتدالنا وبتواضعنا ، كما أننا نتوصل إلى الحقيقة الأخلاقية مع الايمان بنبالة الدين وصحة الواجبات والقواعد الخلقية وفائدة النظم والقيم الاجتماعية ، فمن الجهل أن ندعى العلم ، حتى لا نقع فى مرض الادعاء الكاذب ، لاننا إذا ما عرفنا جهلنا إزددنا علماً وإيماناً . ولاشك أننا نجد فى هذه النظرات الأخلاقية عند مونتانى طعماً سقراطياً واضحاً ، كما يتضح لنا نموذج الاخلاق الابيقورية مؤكداً ، ولاشك أن أخلاقيات مونتانى قد ساهمت فى تكوين فلسفات « ديكارت Descartes » (١)

---

(١) الخير عند ديكارت هو المسرة وصحة البدن، والاخلاق هي طب البدن [illegible] .

و « باسكال Pascal » ، كما نجد فيها الاصول الاولى لمصادر النزعة البراجماتية - العملية فى دراسة الافكار المفيدة ، والسلوك الاخلاقى الناجح .

وفى ضوء هذه النماذج المختلفة من الاخلاقيات المتباينة نستطيع أن نقول إنها نماذج متعارضة تتمثل فيها خصوبة الفكر الفلسفى ، كما ويتألف منها التراث الميتافيزيقى للاخلاق المعيارية .

ولعل السبب الذى من أجله يحتفظ علم الاجتماع الاخلاقى والسياسى بمحصلة ما نجم عن تراث الفكر الفلسفى ، هو أن هذه « النماذج الفلسفية » لم تصدر فى الواقع عن العدم ، وانما صدرت عن « روح العصر » ، وهبطت بفعل حركة التاريخ ، بمعنى أن معايير الفلسفة الخلقية والسياسية ، هى « واردات » مشتقة من طبيعة الحياة الاجتماعية التى مرت بها الفلسفة طوال ماضيها الطويل ، ففلسفات اللذة والالم والمنفعة والواجب ، ما هى إلا « صور اجتماعية » منتزعة من الواقع التاريخى

= فى اللذات إلا بقدر معتدل ، والحكيم الديكارتى هو الذى يكيف رغباته مع ظروفه وأحواله .

وتتمثل الحكمة فى الاعتدال والايمان بالفكر والتنزه عن المادة ، والتمسك بالفضيلة باحترام الارادة وحرية الاختيار .

والفلسفة على العموم ، هى عند ديكارت أشبه بشجرة تمثل الميتافيزيقا أصولها وجذورها وتمثل الفيزيقا أو الطبيعة جذعها ، وعن هذا الجذع تصدر الاغصان التى تمثل كل العلوم ، كالميكانيكا والطب والاخلاق ، ويشبه ديكارت العلوم الاخلاقية بأنها « طب النفوس » . فاذا كانت علوم الطب تصون الاجسام وتصلح الابدان ، فان الاخلاق تصون النفس وتحفظ توازنها وانسجامها وتحقق سعادتها ومسرتها .

أنظر فى هذا الصدد : أندريه كريسون ، تيارات الفكر الفلسفى ، ترجمة نهاد رضا ، منشورات عويدات ، بيروت ، حزيران ١٩٦٢ ، وأنظر أيضا ، محمود الخضيرى فى مقالته الرائعة لترجمة العربية للمقال عن المنهج ، المطبعة السلفية ١٩٣٠ .

التى مرت به ، ولذلك يحتفظ بها علم الاجتماع الاخلاقى ، حتى يلجأ إليها فى تفسير ماضى النظم الاخلاقية ، وحتى يستلهم هذا الماضى فى تفسير الحاضر ، على اعتبار أن الماضى إنما يلقى على الحاضر « ضوءاً أوفى وأدق » ، فاذا ما أردنا مثلا أن ندرس أخلاق المجتمع اليونانى القديم ، كان لزاماً علينا أن ندرس كتابات أفلاطون وأقوال سقراط ودراسات أرسطو والرواقيين ، تلك التى تعبر جميعها عن الاتجاهات الاخلاقية المنبثقة عن روح العصر اليونانى القديم .

ومن هنا لا يمكن أن نفصل « الاخلاق المعيارية » عن حركة التاريخ وماضى المجتمعات ، ومن ثم تخضع هذه « المعايير الخلقية » لشروط مستمدة من الماضى كما تتطور وفقاً لظروف التطور الاجتماعى وطبقا لمنطق التاريخ . حيث « أن المثل الاعلى الرومانى » القديم لايمكن أن تقوم له قائمة فى عصر الذرة والصواريخ .

وبصدد دراسة الظواهر الخلقية والاجتماعيه على العموم ،لايمكن أن توجد ملاحظه علميه دقيقه دون وجود فرض سابق لها ، ولذلك فان التفكير التجريبى الخالص تفكير عقيم ، بل ولا يمكن تصوره ، إذ أن الملاحظه لا تصبح علميه إلا إذا فسرت فى ضوء « فرض » أو « قانون » ، إذ ان مجرد جمع الوقائع وتكديس الظاهرات الاخلاقيه لا يفيد شيئاً ، حيث ان العلم فى الواقع إنما يتألف مع من القوانين لا من مجرد تلك المعلومات التى نجمعها بصدورها عن الظواهر(1) فلاينبغى ان نقف عند وصف الظواهر وتكديسها ، وانما ينبغى على عالم الاجتماع ان يتخذ اولا بعض « الفروض الموجهه » التى بفضلها تتحقق فكرة القانون ، لان غايه العلم هى التفسير ولا يتحقق التفسير إلا فى ضوء قانون يحكم سائر الظواهر والوقائع وهكذا يمكن التنبؤ Prédiction ، وهو الهدف البعيد لكل علم من

---

(1) Comte, Auguste., Cours de Philosophie Positvie, Tome Quatrieme. Paris. 1908. p. 193.

العلوم فيما يقول «كلود برنار» فى مقدمته المشهورة لدراسة الطب التجريبى .

وهناك قاعدة اخرى ينبغى التركيز عليها فى الدراسه العلميه لظواهر الفكر والمجتمع ، وهى قاعدة الايمان بالحقيقه النسبيه Relativity ، حيث ان موجودات العالم التى تحيط بنا هى «أشياء موضوعية» . أما ما نتصوره أو ما نتمثله فهو «تصورات» أو أشياء ذاتية» . ولا ينبغى اطلاقا ان نفرض ما «نتصوره» على موجودات موضوعية ، وانما يتحقق التوازن الحقيقى بين العقل والوجود، فى محاولة اخضاع ما هو «ذاتى» إلى ما هو «موضوعى» . حيث ترتبط تصوراتنا وافكارنا بتصورات اخرى قائمه فى بنيه المجتمع ، كما تتصل افكارنا بأفكار اخرى وردت من حركه التاريخ . واستنادا إلى «بنيه المجتمع» من جهة ، وإلى «روح العصر» من جهة أخرى ، صدرت «كل الحقائق» على الاطلاق ؛ واصبحت كل المعارف والاشياء والتصورات «نسبية Relative» .

الفصل الخامس

الأبعاد السوسيولوجية في الوعي السياسي

* تمهيد
* الشروط الاجتماعيه للوعى
* التمايز بين الوعى والوهم
* ولكن كيف يتكون الوعى الطبقى؟
* سيكولوجيه الطبقة
* بنية الوعى الطبقى
* لوكاتش والوعي الطبقى

تمهيد :

قد توحى دراسة فى « سيكولوجية الوعى الطبقى » بأنها دراسة نفسية ، حين يتبادر إلى ذهن القارىء فوراً ولأول وهلة ، بأنها دراسة خاصة بميدان « السيكولوجيا » ، ولكنها دراسة فى « علم الاجتماع الطبقى » أو فيما يسميه « جان كلود باسيرو Jean-Claude Passeron » بسوسيولوجيا العقليات Sociologie des intellectuels حيث أنها دراسة لمشاعر جماعية وطبقية وهى أدخل إلى ميدان علم الإجتماع منها إلى ميدان علم النفس .

ولقد بدأت الاهتمامات بدراسة « الوعى الجماعى » مع صدور فلسفة هيجل ، وبخاصة فيما أسماه بالعقل الموضوعى der objektive geist . وفى هذا الصدد يقول «نيكولاى هارتمان Nicolai Hartmann » ، إن هيجل هو كولومبوس جديد ، باكتشافه لفكرة « روح الشعب Volksgeist » أو « روح الكل allgeist » ، فان ما عثر عليه هيجل ، قد أدى بعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية ، إلى اكتشاف قارة جديدة للواقع(١) .

فمن هذه المقدمات الفلسفية الهيجلية ، صدرت فى علم النفس الألمانى « نظرية تركيب حالات الوعى » عند « فونت Wundt » ، ولقد أكدت تعاليم مدرسة فونت على وجود ما تدعيه من التفاعل فيما بين العقول الفردية ، وأغلب الظن أن « دور كايم » قد تابع ذلك الاتجاه الألمانى فى مدارس علم النفس ، وتقارات هيجل فى « تكوين بنية روح الشعب » ، فجاءنا « الفكر الدوركيمى » ، بنظرية « العقل الجمعى » .

---

(1) Wein, Hermann , Trends in Philosophical Anthropology and Cultural Anthropology in Postwar Germany, Philosophy of Sbience, Vol. 24 No. 1. January 1957. p. 49.

ولقد صدرت مقولات « الثقافة Culture » و « الأنماط Patterns » عما يسميه هيجل « بالتكوين المتجانس Homogeneous Formation» ويقصد به ذلك الاطار العقلي العام الذي يولد فيه الإنسان ، ويستمد منه أساليب السلوك والفكر والحياة .

« لازارس » و « ستينتال » :

وهناك دراسات « نفس اجتماعية» أو بدايات « سيكوسوسيولوجية» مشهورة قام بها ، العالم الانثروبولوجي « لازارس Lazarus » ومعه العالم اللغوي « ستينتال Steinthal » منذ عام ١٨٦٠ لدراسة ، سيكولوجية الشعوب . ومع البدايات الأولى لصدور علم الاجتماع ، أشار « مونتسكيو Montesquieu » إلى ما أسماه « بالروح العامة للأمة» ، كما إنشغل «جوستاف لوبون Le bon » بالكشف عن « سيكولوجيا الحشود » ، فأصدر عام ١٨٩٤ كتابه « السنن النفسية لتطور الأمم » وذلك بعد محاولات متعددة كتب فيها « لوبون » ، وأطنب ، في حضارات الهند وحضارة العرب ، ثم أصدر في عام ١٨٩٥ كتابه « روح الجماعات » ، وفيه يدرس سيكولوجيا الجماهير Psycholog'e des foules » بالنظر إلى ما يميز الجماعات من «القابلية للإيحاء Suggestion » و« العدوى الانفعالية Contagion» و « الوحدة العقلية L'unité mentale » .

« الجمهرة » عند جوستاف لوبون :

لقد عاصر « لوبون » إنتقال « البناءات الاجتماعية » و « الجماهير » بعد الثورة الصناعية ، من الحالة البورجوازية واقترابها من النظم الاشتراكية . فاهتم بدراسة « الجمهرة » La foule » بظهور طبقات العمال ، ودور الجماهير في العمل السياسي ومع « عصر الجماعات » وصدور الصناعات ظهرت الطاقات الاقتصادية التي تسيطر على نظم الأجور ومشروعات العمل وتنظيمه .

ويذهب «لوبون» إلى أن «النفس الجمعية L'âme Collective» أو روح الجماعة، إنما تمتاز باندفاعها وغضبها، وباستعدادها للتصديق، وإذعانها للتلقين، وبالتقلب، وعدم التسامح. ويقسم «لوبون» الجماعات إلى قسمين: جماعات متجانسة، كالفرق والطوائف والطبقات. أما القسم الثاني فهو الجماعات اللامتجانسة كجماعات المحلفين والمجالس البرلمانية. كما أشار إلى الجوانب و «الأبعاد الإشتراكية والإقتصادية» التي لها أثرها الواضح في تكوين «روح الجماعات»(١).

وقد أدت كل هذه المقدمات النظرية والأصول الفلسفية، إلى الانشغال بما يدور حول هذه المصادر الفلسفية الخصبة، فلقد صدرت عن «نظرية الروح الجمعي» أو الروح الموضوعي الكلي(٢)، فكرة الأصول الأولى التي عنها إنبثقت التقاليد والتصورات، حيث ولدت القيم ونشأت الأساطير الشعبية في أحضان العقل الموضوعي، ونظراً لوحدة الأصل والمكان والاشتراك في العرق أو الأنساب، تتشابه وتتماثل أنماط الفكر والسلوك بين سائر الأفراد؛ حيث يعبر روح الشعب عن ذلك «التضامن الاستاتيكي الثابت» بين أنساق اللغة والدين والفن والأدب والعادات والقانون.

ومنذ انطلقت هذه المعاني، تنبهت الأذهان فوراً نحو مقولة الثقافة، وسمات الشخصية Personality، فالانسان هو حامل ثقافته، حيث يؤثر نمط الثقافة على التركيب الدينامي لكل إنسان يعيش في ثقافة، فتتلقفها وتتكيف معها كل

---

(١) لوبون، جوستاف: «روح الجماعات» ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف بمصر ١٩٥٥.

(2) Blondel, Ch, Introduction à la Psychologie Collective, Armand Colin, paris, 1952. p 51.

شخصية عن طريق التربية والتلقين والتنشئة أو التطبيع الاجتماعي. الأمر الذي اتجهت معه دراسات «ماركس Marx» و«جنزبرج Ginsberg» و«لوكاتش Lukacs» في علم الاجتماع نحو دراسة «الوعي الطبقي» و«سيكولوجيا المجتمعات»، وما تحمله أنساق الطبقات ووعي الجماعات، من معارف ومضامين، تحدد نظام التربية، وتفرض أنماط السلوك، وتضع أسلوب التطبيع الاجتماعي(١).

والدراسة التي نحن بصددها الآن، تعالج «سيكولوجيا الطبقات» في صراعها واحتكاكها ووعيها وبآمالها ومخاوفها وإمكانياتها الموضوعية، ولسوف نعقد المقارنات أولا بين طبيعة كل من «الوعي والوهم»، حين نميز «الوعي الحق» من «الوعي الكاذب»، مما يؤدي بالضرورة إلى تحديد الشروط الاجتماعية للوعي Consciousness، لكي نصل في النهاية إلى ما يسمى بالوعي الطبقي Class Canscìousness الذي يتضمن في فحواه أيديولوجية الطبقة، بكل سماتها وملامحها.

الشروط الاجتماعية للوعي :

ويميز ماركس بين «الوعي Consciousness» من جهة، والشروط الإجتماعية أو ظروف الوجود الاجتماعي من جهة أخرى، على اعتبار أن الثاني هو مبعث وجود الأول، بمعنى أن «الوعي» هو نتاج مباشر للواقع الاجتماعي، وهذا هو السبب الذي من أجله أكد «مانهايم Mannheim» على الأصول التاريخية للفكر، حين ينظر إلى الفكرة كظاهرة تاريخية، فالفكر لا يصدر عن العدم، ولا يعمل في فراغ، وإنما يتجلى الفكر دائماً على أرضية الوجود الاجتماعي

---

(1) Ginsberg, Morris., The Psychology of Society., seventh edttion, London. 1949.

الذى هو أرضية كل فكرة أو إتجاه أو مذهب(١) :

وليس الانسان كائناً مجرداً abstract على نحو ما أشار كانط وفلسفته عن منطق العقل الخالص وموقف الانسان الصورى Formal ، ولكن الانسان هو « كائن من لحم ودم » ، لايعيش كآلهة أبيقورية « فيما بين العوالم » ، وإنما يعيش ويفكر طبقاً لما يمليه « روح العصر » ، وبقوالب مستعارة من تلك الروح التى سرت فى دمه وتسللت إلى لحمه وعظامه(٢) .

وبهذه النزعة ، رد علم الاجتماع الماركسى ، كل المذاهب الفلسفية إلى « أصول وجودية ومصادر مادية » ، اذ أن ظهور « الفلسفات » فى أنفسها ماهو إلا مراحل اجتماعية تحتمها فلسفة التاريخ ، فلا يصدر الفكر خبط عشواء ، وإنما يصدر الفكر أصلا عن الوجود التاريخى ، بمعنى أن كل مذهب فلسفى انما يرتبط بعصر تاريخى ، و « لا تسبح أنساق ومذاهب الفلسفة فى فراغ ميتافيزيقى » ، فلقدظهرت كل الفلسفات لكى تؤكد على وجود أيديولوجيات معينة ، أو للدفاع عن مصالح طبقية ، أو لتأكيد وتأييد مواقف سياسية خاصة .

وبالتالى يمكن تفسير الأفكار والأيديولوجيات ، بالنظر الى طبيعة الموقف الاجتماعى العام ، ذلك الموقف الذى يحدد اطارها ، والذى يضفى عليها مغزاها ومبناها ، فتصبح « الايديولوجيا » بهذا المعنى ظاهرة فكرية عامة ، فيقال مثلا « أيديولوجية العصر » أو « أيديولوجية الطبقة » ، بمعنى مجموع الملامح العقلية السائدة فى ذلك العصر ، أو الخصائص ، الذهنية الكامنة فى روح

---

(1) Mannheim, Karl., Ideology and Utopia. Second Impression London, 1940.

(2) Cuvillier, A., Introduction à la Sociologie. Collec. A. Colin. Paris, 1949, p. 90.

الطبقة ، وقد يقال إن الايديولوجية هى مجموع الأفكار التى تكون « النظرية » أو « المذهب ».

ويذهب « جيرفتش Gurvitch » إلى أن الايديولوجية الماركسية ، إنما تتضمن أحكاماً فى الأخلاق والدين ، وذلك باستنادها إلى الأساس الاقتصادى ، كى يصبح الوضع المادى للطبقة ، هو المصدر الوحيد الذى يفسر المضمون الأخلاقى ومحتواه الداخلى[1] .

وفيما يتعلق بقيم الأخلاق ونسق الدين ، فقد أدخلهما ماركس فى إطار ما يسميه « بالبناء الايديولوجى الأعلى » . على اعتبار أن هذا البناء الأعلى ؛ إنما يستند فى وجوده إلى الاساس « المادى الأسفل material Substructure » الذى هو مصدر كل المناشط الانسانية والمواقف الاجتماعية .

ولقد إنشغلت الفلسفات السياسية فى مختلف دول أوربا منذ القرن الثامن عشر ، بمسألة « أصل الدين » ومنشأ المعتقدات الدينية ، فالتفت الفلاسفة من رواد النظرية السياسية ، إلى مصادر الفكر الدينى ، فاتجهوا نحو نظريات اللاهوت ، ومذاهب الملحدين و « المدميين » ، فدرسو مختلف الفرق والمذاهب، وبخاصة تلك الملل والنحل « العقائدية » أو الشيع التى انقسمت واضطربت حول قبول أو رفض الادلة على الوجود الإلهى ، تلك المسألة التى حارت زمناً بين الفلاسفة فنهم من آمن واتقى ؛ ومنهم كفر وفجر ، ومنهم من عدل وبدل .

ولعل السبب الذى من أجله انشغلت الفلسفة والسياسة فى مسألة تأصيل الدين والمعتقدات تتمثل فى أن الدين ، انما يشبع حاجة الناس الى « الامن والسكينة والايمان » ، حتى يزول عنهم ذلك الخوف المشوب بالدهشة والجهالة.

---

(1) Gurvitch Georges., Twentieth Century Sociology., Philosophical Library New York. 1945. 373.

ولقد مر الفكر الدينى ، بمراحل تطورية وتاريخية متعددة ، منذ بدأ الانسان يثير عدداً من الأسئلة والقضايا ، ثم يضع أو يصطنع لها عدداً من التفـــاسير والحلول ، ومن هنا بدأت « الصور الأولية للحياة الدينية » بطقوسها ومعتقداتها، حين أجابت الطبيعه على ما أثاره الانسان من قضايا غيبية منذ فجر أو طفولة الفكر الانسانى ومع تطور طلائع الجنس البشرى ، فلجأ الإنسان القديم إلى عدد من التصورات « التوتمية Totemique » والتعليلات البدائية(١) . ولم يكن الانسان فى هذه الحقبة البعيدة يستطيع التميز بين « المادة » و « الروح » أو بين « الحى » وغير الحى ، حين كان ينسب إلى الحيوان وغير الحيوان ، القدرة على « السلوك القصدى » بما يحويه من تفكير ومشاعر .

والدين بمعناه القديم كان صلاة يقوم بها الانسان ليتجنب شرور الأرواح والآلهة . وحين إزدادت المعارف وبدأت العلوم ، تعلم الانسان كيف يضع أسئلة أكثر تعقداً وتقدماً ، إلا أنها كانت زائفة ومضللة ، فلجأ الانسان إلى إجابات أكثر زيفاً وحلول أكثر ضلالا ، ثم أصبح الدين فى نهاية المطاف أكثر تماسكاً وأغزر معقولية ، حين استند التفسير الدينى أخيراً إلى مصادر سيكولوجية وأصول علمية . ومن هنا بدأ التفسير الاجتماعى أو السوسيولوجى للفكر الدينى ، منذ التفت عالم الاجتماع الفرنسى « مونتسكيو Montesquieu » إلى وظيفة الدين الاجتماعية ، ووصله بمصادر وشروط ناجمة عن ظروف البيئة تلك التى تعلل وتعلل ظهور الدين وتطوره(٢).

وعلى سبيل المثال ، يعتقد مونتسكيو أن السبب فى إنتشار الاسلام بين

---

(1) Durkheim, Emile., Les Formes Elémentaires de La vie Rèligieuse., Felix Alcan. paris. 1912.

(2) Plamenatz, John., Ideology., Macmillan , 1971. p. 85.

العرب وغيرهم من العجم والبربر ، هو تشابه البيئـــة الجغرافية الذى أدى إلى تشابه فى النظم والعادات بينما تعطل أو توقف إنتشار الاسلام فى أوربا ، نظراً لاختلاف أساليب السلوك وأنماط الفكر ، فلم يكن الاسلام فى ظن أو زعم مونتسكيو ملائماً للبيئة أو الواقع الأوربى .

وفى عصر التنوير enlightenment هاجم الفلاسفة الأحرار طبقة رجال الدين المسيحى ، وسخرت فلسفة التنوير من القساوسة الذين يضحكون على عقول الناس بصكوك الغفران ، بمعنى أن فلاسفة التنوير لم يهاجموا الدين فى ذاته ، ولم يسخروا من الكنيسة ؛ بقدر ما اتهموا القساوسة باستغلال بساطة الناس وسذاجتهم بنشر الخرافات ، والايمان بالخزعبلات بين غير المثقفين من الناس .

وبذلك حاول رجال التنوير التأكيد على حرية الفكر وتربية وتنمية عقول الناس ، وتحريرها من الأوهام والأضاليل ، فهم لم ينكروا الدين ولم يحاولوا نقضه وانتقاده أو إنكاره وتجريحه ، بقدر ما حاولوا منع إساءة إستعمال الشعور الدينى ، أو إستغلال رجال الدين لنفوذهم الروحى ومراكزهم الإقطاعية .

وازاء هذه الحركة المضادة للكهنوت anti-ciricalism التى قام بها المفكرون الأحرار ضد الفكر الاكليروسى الاقطاعى بتقاليده المعوقة للتطور الاجتماعى ، قامت حركة أخرى تأخذ بفكرة أكثر تحرراً وتقدماً ، وتتمسك بالدين بمعناه العميق ، حين تمتد آثاره وتتسلل فى جوانب الوجدان وخبايا الشعور ، فيكون لها صداها ورد فعلها فى محيط الفكر والتصورات . وهنا تصبح للدين وظيفته فى حياة الانسان وموقفه من العالم . وهذا ما أكده الفيلسوف الفرنسى « باسكال Pascal » ، فى كتابه الأشهر « الأفكار Les Pensées »[1].

(١) لم تكن مذكرات هذا الكتاب كاملة ، حيث لم يستكملها باسكال ثم نشرت الاصول المخطوطة بعد وفاته .

وفى هذا الكتاب ، ذهب باسكال الى أن الانسان فى مسيس الحاجة الى الدين والشعور الدينى ، ذلك الشعور الغريب الذى يعطيه « الرضا » ويضفى عليه ذلك الاحساس بالوجود ، فالدين هو همزة الوصل بين الانسان والعالم ، وهو الذى يشعره بمكانته فيه ، ويضفى عليه « انسانيته » تلك التى تميزه عن « الحيوان » ، كما تمنحه احساساً « بهويته his own identity » فيشعر بالرضا عن نفسه ، ولاشك أن الانسان بدون هذه المشاعر والاحاسيس الدينية الضرورية ، سوف يفقد نفسه ويهرب من « ذاته ».

فالدين يشبع حاجة ضرورية للانسان ، وهى الشعور بالأمن بعد خوف ، وبالرضا والايمان بعد يأس وضلال ، ومن هنا يشعر الانسان بوجوده ، باعتباره كائن مفكر وحياته ، هى الاساس الموضوعى لفكره ؛ حين يتأمل وجوده المحدود فى عالم « لا محدود » ، فاذا ما أحس الانسان بأنه بلا « هدف » يفسر حياته ، أو « سبب » يعلل وجوده ، فانه سوف يشعر بالطبع بأنه « كائن ضائع » ، أو « موجود زائل ضعيف » ، يعيش هائماً كقشة أو ريشة فى مهب الريح ، أو كشعاع خافت وضعيف يضيع فى حتمة حالكة ، وهذا هو « الضياع » المقيم ، حين يتخبط الانسان الملحد فى ظلمة الليل البهيم(١).

ولقد كان « باسكال Pascal » رغم ايمانه بعلوم الرياضة والطبيعة ، يخشى طغيان « العنصر الآلى » على الفكر ، وسيطرة الوجود الجامد المانع وهو الوجود « المادى الكثيف » ، حين يحاول أن يفرض نفسه على الوجود الروحى الخلاق ، الأمر الذى يؤدى الى شيوع الحتمية determinism باسم القانون العلمى

(١) لقد انتشرت فئات وجماعات « الهيبز » بين شباب دول أوربا ، لشعورهم بالفراغ الوجودى ، وبخواء نفوسهم وقلوبهم ، نظرا لنقص الوعى الدينى وفقدان الرابطة الوجودية فضاعوا على غير هدى أو أمل أو رجاء .

Scientific LaW ، وذيوع السببية الآلية أو الجبرية المادية ، فى عالم متغير مضطرب ، وفى حياة قلقة بين « المحدود » و « اللا محدود » . ولذلك أكد باسكال على أن الدين هو الحل الحاسم لهذه المسألة حيث يقوم الدين بتقديم « الحلول المريحة » ، والتى تحيل اليأس إلى رجاء فيشيع الأمن ، ويستقر الرضا وتشرح الصدور ، وتطمئن النفس ، وهذا هو دور الايمان ووظيفته .

ولعلنا نجد فى كتابات « روسو Rousseau » آثاراً واضحة لهذه النظرة الروحية العميقة التى خلفها باسكال بفكرته عن الدين ، حيث أعلن روسو أن « الدين » بالاضافة إلى تأكيده على أنماط السلوك الطيب والخلق الكريم ، فهو يمنح شعوراً بالوجود فى العالم ، مهما كان الواقع مراً ومضاً ، وهذا أمر لا يستطيع العلم أن يمنحه للانسان ، مهما بلغ العلم من تقدم يدعو إلى البهر ويأخذ بالألباب .

ولقد كان روسو عدواً للعلم ، كما كان عدواً للمجتمع ، فأكد الحرية الفردية ، وقاد حركة « مضادة للمجتمع Anti-Society » ، حين أثار الكثير من القضايا التى تؤكد « العودة إلى الطبيعة Back to Nature » على اعتبار أن المجتمع هو مصدر الشرور والآثام ، ومبعث الإفساد والانحلال ، إذ أن « كل شىء جميل مادام من صنع الخالق ، وكل شىء يلحقه الدمار إذا ما مسته يد الانسان » .

وكانت مواقف « روسو » و « فولتير » الساخرة ، كفيلة بتكوين « الأيديولوجيات الثورية المضادة » فكانت كتابات أو كلمات ما قبل الثورة ، هى الكلمات والصيحات القوية ، التى حطمت الباستيل ، وأزالت طغيان النبالة والاقطاع ، وحررت دول أوروبا من قيود المجتمع الاقطاعى وأغلاله ، بصدور مبادىء « الحرية والاخاء والمساواة » ، فانهار الاقطاع ، وزال الاستبداد السياسى ، وتحطمت مبادىء العصور الوسطى ، حين سطعت على أوروبا شمس

العصر الحديث ، بعد أن كانت تترنح فى عصورها الوسطى فى ظلمـة الخرافة والاسطورة ، حيث الجهالة والتأخر والاستعباد. وبذلك انبثقت فيها الكثير من القيم التقدمية فى الدين والفن ، وانطلقت بكلمات «روسو» مبادىء الحرية والعدالة واحترام حقوق الانسان ، وبهذه الصيحة التى أطلقها «روسو» تأكدت «حاجة الانسان إلى الدين» التى هى أعمق وأقوى بكثير من حاجته إلى العلم .

ولقد كان «كانط» قبل «روسو» ، قد أعلن أنه لكى يكون الانسان سعيداً عليه أن يؤمن بثلاثة أشياء وهى : الايمان بالله ، وحرية الارادة ، وخلود الروح ولا يستطيع العلم المادى أن يبرهن على صحة هذه الأشياء ، ولكننا نؤمن بها بالقلب ، ولاشك أن «للقلب أسبابه التى لا يدركها العقل على الاطلاق La Coeur a ses raisons que la raison ne connait point [1].

وبهذا المعنى الروحى العميق ، كشف باسكال Pascal عن وظيفة القلب ودوره فى صدور «الحدس الدينى L'intuition Religieuse» ، فهو منبع كل القيم التى لا يدركها عقل ، أو حتى يفضها ويتوصل اليها علم .

التمايز بين الوعى والوهم :

هناك فروق جوهرية بين الوعى والوهم ، فالوهم هو عدم الوعى ، لأن الوهم منفصل عن الواقع ، وهو الذى يؤدى بنا إلى عدم الالتفات إلى «الأساس الموضوعى للفكر» حين نغفل أو نبتعد عن عملية تأصيل الفكر المنفصل عن الواقع ، فالوعى الكاذب هو «وعى ضال ومضلل» ، ولا أساس له من الواقع كما أنه لا يتضمن أية «حقيقة» .

وفى تاريخ الفكر الفلسفى شواهد كثيرة تشير إلى مثل هذا «الوعى الكاذب»

(1) Gurvitch, Georges., Morale Theorique et Science des Moeurs, Press-univers, de France Paris 1948. p. 45

ففي « الأورجانون الجديد Novum Organum » الذي كتبه « بيكون Bacon » في الرد على « أورجانون » أرسطو صاحب المنطق ، شرح بيكون نظريته المشهورة عن « الأصنام Idoles » فأشار إلى أوهام الكهف والقبيلة والسوق والمسرح ، ونظر بيكون إلى هذه « الأوهام أو الأصنام » على أنها مصادر خارجية للخطأ ، بمعنى أنها مصادر مضادة للفكر المنطقي الصحيح ، إذ أن الفكر الحق أو الواضح Clear Thinking ، ينبغي أن يتخلص نهائياً من هذه الأوهام الكاذبة ، والراسخة في نفوسنا فتعتاق التقدم العلمي ، وتقف حجر عثرة إزاء التوصل إلى المعرفة الحقة .

ولقد كشف علماء النفس عن دور « الاهواء » والنزعات أو العوامل الذاتية Personal Factors ، في الابتعاد عن « الموضوعية objectivity » على اعتبار أن الاهواء هي عناصر « خادعة » لا توصلنا إلى الحقيقة ، مما يذكرنا بفكرة « الشيطان الخادع » عند « ديكارت Descartes » ؛ الذي يقلب لنا الباطل حقاً ، والحق باطلا ، فهو ماكر ومضلل « ولا يؤدي بنا إلى حقيقة أو يقين » ، لانه هو « الظل الاسود Black Shadow » الذي لا يصدر عنه سوى الخطأ والوهم والضلال . وإذا ما عدنا إلى ماركس ، نجده ينظر إلى الايديولوجيا على أنها أوهام وأكاذيب . وغالباً ما يطلق عليها ماركس اسم « الوعي الكاذب » بمعنى أن الايديولوجيا ، هي ذلك الفكر المروج للاضاليل ، حين لا يعتمد على أي أساس موضوعي للفكر ، على حين نجد أن « الافكار » هي تصورات مشروطة اجتماعياً ؛ ومرتبطة أصلا بالوجود الاجتماعي Social existence .

ولذلك يتميز « الوعي الحق » عند ماركس عن « الوعي الكاذب » حيث يخضع الاول للشروط الاجتماعية كما يستند إلى مصادر وأصول اقتصادية ؛ بينما لا يتصل الثاني اطلاقاً بالوجود الواقعي ، بالاضافة إلى انفصاله كلية عن

أى أساس مادى . والايديولوجيا عند ماركس هى «جزء من الوعى» ، الا أن هذا الجزء يندرج تحت مقولة « الوعى الكاذب » ، على اعتبار أن هذا الوعى هو « وهم خادع illusion » ولكنه وهم يتميز بالثبات Persistence النسبى والعموم بين مجموعات محددة من الفئات أو الزمر الاجتماعية .

وما قصده ماركس بهذا الوعى الخادع ، أنه تصور محدد أو خاص يتميز بأنه « كلى » و « عام » وله نتائجه وأخطاره الاجتماعية ، وهو يتألف من عدد مترابط أو سلسلة من الاوهام الخادعة والتخيلات المغلوطة ، تلك التى تمتاز بعمومها وانتشارها بين مجموعة من الافراد ممن يتشابهون اجتماعيا فى «مواقفهم» و « أدوارهم » .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يعتبر التصور البورجوازى للدولة مثال من أمثلة « الوعى الكاذب » ، كما أن سائر المعتقدات التى يعتبرها ماركس من قبيل الاوهام المغلوطة ، هى تلك الافكار المتصلة بالوظائف الضرورية للدولة[1]. وبالرغم من أنها أفكار ومعتقدات وهمية وكاذبة ؛ الا أنها ضرورية ؛ ورغم أنها تقوم بوظائف « صورية » وليست حقيقية ؛ الا أنها وظائف ومعتقدات شكلية تحتاج اليها الدولة ، حتى تستطيع أن تتحمل أعباءها وتحمى ذاتها ثم تقوم الدولة بعد ذلك بوظائفها الحقيقية Real Functions .

واستناداً الى هذا الفهم البورجوازى الكاذب ، لطبيعة الدولة ووظيفتها فلقد أكد الماركسيون أن مستقبل المجتمعات أو الدول الشيوعية ، انما لا يحمل فى طياته أية تصورات خاطئة وأوهام خادعة ، وليس هناك مكان فى المجتمع الشيوعى اللاطبقى Classless Society لما يسمى بالوعى الكاذب .

(1) Lenin, Selected works, Vol., I, progress publishers. Moscow 1967. p. 28.

فلسوف لا يقع الناس فى مستقبل المجتمع الاشتراكى فى مرحلة الشيوعية ، تحت تأثير « الطبقية » تلك التى تحجب الرؤية الصادقة ؛ ولسوف تتفهم الشعوب نفسها وتعى ذاتها ؛ ويعرف الناس بطريقة علمية وموضوعية كل ما يتصل بالمجتمع الشيوعى الذى يعيشون فيه .

ولسوف لا يصبح الناس فى المجتمعات الشيوعية ، بعد أن تنهـــار « البنية الطبقية » فى حاجة على الاطلاق الى « دولة » يكون لها مثل هذه « القواعد الضاغطة » و « السلطان المفروض » . حيث لا يوجد فى المجتمع الشيوعى اللاطبقى مكان « للقانون » أو « الاخلاق » أو « السلطة » . بنفس المعانى التى تسود فى « المجتمعات البورجوازية Burgeois Societies » ؛ ومن ثم فلا مكان « للأوهام الخادعة » ولا مكان للوعى الكاذب فى مستقبل المجتمعات الشيوعية اللاطبقية .

وتعتبر « الأخلاقيات » عند ماركس من التصورات التى تحمل عناصر أيديولوجية ، حيث تدور الكثير من الافكار الوهمية حول « القواعد الخلقية Moral Rales » فيخطىء الناس فهمها ومصادرها ، فتنشأ بسببها أوهام وأضاليل ولذلك تدخل الاخلاقيات وكل ما يتصـــل بالمعتقدات والديانات فى زمرة الايديولوجيات ، حيث أن قيم الاخلاق ومعتقدات الدين هى أفكار منفصلة عن الواقع ، ولا يستطيع العلم الامبيريقى أن يبرهن على مدى صدقها أو كذبها ، ولذلك لقد أخطأ ماركس ، وبطريقة متعسفة ، بصدد تفسير ظواهر الأخلاق والدين ، وكانت دراسة الاخلاقيات والقيم الدينية هى نقطة الضعف الشديدة التى يعانى منها « المذهب الشيوعى » ؛ حين نظر ماركس الى الاخلاقيات على أنها مجرد أخيلة « وهمية » .

وحين يقول « ماركس » « ان الدين هو وهم » وهو « أفيون الشعوب » نجد أن الماركسية لم تتفهم حقيقة الدين ، ولم تتعمق فى المعانى الروحية الباطنية ،

فلايعرف ماركس فينومينولوجيا الشعور الديني ، بل لقد توقف ماركس عند « الأساس الأسفل Infra - structure وسطح « البناء الفوقي Supra-structure ».

ولقد عاش ماركس ومات ملحداً متأثراً بماديته التي حرمته تماماً من روعة الشعور الديني ، وتدفقه وإبداعه ، تلك التي كشف عنها وتفهمها ماكس فيبر Max weber ، هذا البروتستانتي المتدين ، الذي كتب في عمق عن « القوى الروحية » كدوافع ثورية ومحركات كاريزمية ، تغير من المجتمعات ، على إعتبار أن الدين في ذاته ـ وليس الإقتصاد ـ هو طاقة دافعة تصدر عنها قوة تطورية خلاقة ومحركة للتاريخ (1) .

ولكن كيف يتكون الوعي الطبقي ؟

لا يصدر الوعي الطبقي على نفس النحو الذي ينطلق فيه « وعي الإنسان الفرد » ، حيث يولد « الوعي الطبقي » في « ماضي التاريخ الاجتماعي » الذي يسجل لنا ظهور وتطور الزمر والطوائف castes ، ومختلف فئات التجمعات الاقتصادية.

ويزداد وعي الطبقة بذاتها ، كلما مرت ظروفها بمراحل تطورية ناجحة خلال حركة مسارها التاريخي . وبالتالي يصبح للوعي الطبقي تاريخه وماضيه بينما تمتاز أحوال « الوعي الفردي » بأنها حاضرة ومتقلبة كما أنها ، مباشرة ومتغيرة . وحين نعقد المقارنات بين الوعي الفردي والطبقي ، لوجدنا أن وعي الانسان الفرد يتميز بأنه وليد الساعة واللحظة ، فهو مؤقت وراهن ومباشر ، لأنه وليد الانتباه . Attention

أما « الوعي الطبقي » فهو وليد التاريخ الاجتماعي ؛ لأنه مهني وإقتصادي وجماعي ، كما يمتاز الوعي الطبقي أيضاً بأنه مرحلي وانتقالي وتطوري ؛ نظراً

(1) Weber, Max The Theory and Economic Organization, trans. by Henderson and Parsons, Glencoe: 1967.

لتحول ظروف الطبقة الوضعية ،وتطور إمكانياتها الموضوعية، أما عن المشاعر الطبقية فيمكن استحضارها « هنا والآن Here and naw » على حد تعبير العلماء. فلو فرضنا مثلاأن إجتماعاً أومؤتمراً سيعقد بين كل الأطباء فى مكان ما ، فلسوف يتوافد على المكان سائر الأطباء يأتون من كل فج عميق . وبعد أن يستقر الجميع فى أماكنهم وتبدأ أعمال المؤتمر ، فاننا نجد « تياراً شعورياً واحداً » بين سائر المجتمعين ، ويؤسس هذا التيار الشعورى الموحد أصلا جوهرياً من أصول الوعى الطبقى ، ثم تدور مناقشات المؤتمر لكى تعبر عن ، مشكلات أو قضايا أو جوانب تشغل مايسود بنيةالوعى الطبقى للاطباء ، وقد يكشف المؤتمر عن طبيعة الرأى العام الذى يسيطر على وجدان الطبقة .

ويمكننا أن نأتى بأمثلة مشابهة « للوعى » من طبقات العمال والفلاحين ، فاذا « كانت الطيور على أشكالها تقع » ، فالناس تتجمع بحكم الطبقة ، وتتوافد حول أفكار معينة ، وتترابط بمشاعر خاصة ، باشتراكهم أو إعتناقهم لمجموعة من المبادىء التى تدور حول مصالحمشتركة. وهذه المبادىء والمصالحهىشعارات تشكل طبيعة الوعى الطبقى . وهنا تصبح الافكار الطبقية بمثابة أسلحة للدفاع عن مصالح الطبقة ، وهذه هى أيديولوجية الطبقة التى تستخدم مبادئها وأفكارها كأسلحة ideas as weapons عن طريق المناقشات ، تلك التى تستخدمها الطبقة للدفاع والمحاورة لكى تحل دائماً كوسيلة لحل المشكلات والمتناقضات أو كبديل لصراع الأفكار conflict of idea .

وعن طريق الحوار الديموقراطى ، والمناقشة الهادفة ، والجدل البناء ، تحل المشكلات ، وتنتظم جداول الأعمال فترقى الأفكار والمشاعروالتصورات الطبقية، الأمر الذى معه « ينضج الوعى الطبقى » ، وتصبح أفكار الطبقة أكثر وضوحاً وتميزاً ، حين تتحقق أحلامها وتزول مخاوفها وأوهامها .

وبصدد الديمقراطية مثلا ، يسود إجتماعات الطبقة سائر المناقشات التى قد تكون حامية الوطيس ، وبخاصة فى عملية الانتخابات ، أو تعيين « الزعامة » أو « القيادة » حتى يصل الكل إلى « اتفاق » بعد صراعات ومناقشات . وهذه هى سمات الوعى الليبرالى الديمقراطى النابع من مناقشات الكل . والذى يؤدى إلى « القرار الديمقراطى » الصادر من « مساهمات الكل » ، ففى الديمقراطية ، يكون « الكل » هو صاحب القرار ، ويحترم الكل هذا القرار الصادر عنهم لأنه قرارهم منهم ولهم ، وهكذا يكون الانسان فى النظام الديمقراطى « سيداً لنظام » وليس عبدا للقوانين الجائرة التى فرضت عليه على نحو دكتاتورى وصارم . والأشكال الديمقراطية هى الأشكال المثالية فى تنظيم الوعى الطبقى ؛ بل وفى سيكولوجية اتخاذ القرار ، الذى يمكن تعميمه وفرضه لأنه نابع من « روح الكل » وصادر عن رأى الجميع ، ويعبر عن حاجات الطبقة ومصالحها ، ويحقق أهدافها وآمالها .

ويشتمل الوجدان الطبقى على مجموعة من التصورات الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية الخاصة بطبقة معينة بالذات . فقد تحدد الطبقة الاجتماعية طبيعة مهنة الإنسان أو حرفته ، ومن خلال « التقييم الحرفى والتمايز المهنى » ، يمكن تقدير درجة المهارة الفنية والمستوى التعليمى والثقافى ، كما يمكن أيضاً تحديد أو تكميم « الدخل » أو « الكسب » ، مع تقدير « الثروة » من خلال « نظام الأجور » و « معدلات الانتاج » . ويمكن أن نأخذ فى إعتبارنا أن درجة تقارب أو تفاوت التمايز المهنى والفنى ، قد تتغير طبقاً لتغير المراتب الفنية والخبرات المهنية ، فالمهنة الواحدة لا يمكن أن تقيم لها أو أن « تثبت لها » اطارات محددة وثابتة من الدخول نظرا للتفاوت الواضح فى درجة المراتب الطبقية داخل هرم العمالة بما يحويه من المراكز ومراتب المكانة Prestige والأدوار Roles التى تقوم بوظائفها

داخل إطار الطبقة من أدناها إلى أعلاها . ومن هنا وجدنا كيف يواجه الباحث الكثير من الصعوبات الإقتصادية والتنظيمية الهائلة التي تمنعه من ترتيب المهن وفقاً لترتيب درجات الدخل . ولذلك إتفق « علماء الإجتماع الطبقي » ، وعلى رأسهم « هالفاكس Halbwachs » و « رايموند آرون Aron » ، على أن أهم ما يميز الوعي الطبقي ، هو أسلوب أو « نوع الحياة mode de la vie » التي يحياها أفراد الطبقة الواحدة ؛ وطبقاً لمبدأ نوع الحياة ، يمكننا أن نميز بين سائر الطبقات ، إستنادا إلى تمايز السلوك وإلى التباين في درجة الوعي ونوعه ، وتوجد فوارق في طبيعة الوعي ، تميز كثيراً بين مختلف أشكال الوعي الطبقي ؛ فهناك الوعي العمالي ، و « الوعي الطبقي بين الفلاحين » ، وهذا التمايز الطبقي بين الفلاحين والعمال ، يشكل الفارق الجوهري الذي يكمن فيما وراء « الصراع الأيديولوجي » الكبير بين مواقف الاشتراكية السوفيتية والاشتراكية الصينية .

وإذا ما قارنا بين « الوعي الطبقي » طبقاً لنوع الحياة ، بين طبقتي الفلاحين والعمال على العموم ، لوجدنا أن الفلاح أكثر ميلا إلى التدين والتقوى ، والمحافظة على التقاليد والعادات ، كما أن الفلاح أكثر إتصالا بالارض وإستقراراً ؛ وميلا إلى التكامل العائلي ، واحتراماً لكبار السن . أما العمال فهم أكثر إستعداداً لتقبل الجديد نظراً لإقامتهم في مناطق حضرية ، والعامل أوسع أفقاً من الفلاح ، لكثرة إحتكاكه بالآخرين فتزداد الخبرة ، كما وتشيع بين العمال روح التحرر من قيود وقيم المجتمع فيقل إحترام العامل للقيم الروحية ، والعامل أكثر إسرافاً من الفلاح القتدى المقتر ، حيث يتقارب الفلاحون في « معيشتهم وتصوراتهم مهما إختلفت ثرواتهم » . ويخشى الفلاح التغيرات الجوية التي قد تصيب المحصول ، أما العامل فهو أقل إحتراسا لمستقبله لاعتماده على عرق جبينه من حرفته وعمل يديه ، ولانعدام خوفه من غدر الأيام ، ولذلك كان العامل أكثر من الفلاح ، ميلا لتنظيم نفسه

داخل « نقابات وتنظيمات » واتحادات وأندية .

سيكولوجية الطبقة :

تمتاز سيكولوجية الطبقة بمجموعة متجانسة من المشاعر والتصورات الطبقية بحيث يكون الوعى الطبقى هو العمود الفقرى لبنية التصورات والمشاعر الكامنة فى سيكولوجية كل طبقة من الطبقات الاجتماعية .

ويتميز الوعى الطبقى بتوافر عناصر إقتصادية وأخرى سيكولوجية ، وتدور أهم عناصر الوعى الطبقى حول « المهنة » و « الدخل وقيمته ومدى إنتظامه » ، وطريقة الكسب ان كانت تجارية أم صناعية ، ولذلك تنسجم كل طبقة فى وعى متجانس متسق التصورات متحد المشـــاعر والذكريات ومن الكتابات السوسيولوجية ، التى لها رد فعلها فى تطور مفهوم الوعى الطبقى ، كتابات « فونت wundt » و « دور كايم » و « جنزبرج Ginsberg » ، فالأول قد أشار إلى فكرة « التركيب أو التفاعل فيما بين العقول الفردية » ، فأخذ « فونت » بفكرة تركيب حالات الوعى(1) . أما دور كايم فهو صاحب نظرية العقل الجماعى حين يؤلف نسقاً من التصورات الجماعية التى حررها دور كايم تماما من « كل الخصائص السيكولوجية والبيولوجية » فتبدلت وتحولت إلى ظواهر قائمة بذاتها Sui-generis ولذلك أصبحت الحياة العامة عند دوركايم هى الأساس الذى تستند اليه بنية الوعى الجماعى » ، وأضحت « التصورات الجماعية » ، هى مهبط التصورات الفردية .

وليست التصورات الجمعية هى مجموع التصورات الفردية ، كما أن العقل الجمعى ليس مجموع العقول الفردية ، إذ أن الكل على ما يقول « الجشطلتيون »

---

(1) Ginsberg, Morris., The Psychology of Soceity, Seventh Edition. London, 1949.

« ليس مجموع الأجزاء » . والكل الكيميائى سماته وصفاته التى تتمايز عن خصائص الأجزاء ؛ فأصبح الكل هو أكبر من مجموع أجزائه[١] . هذه جوانب دور كايمية ، تتيح فهماً أوفى ، أو تصوراً أدق ، لطبيعة الوعى الجماعى ، وإذا ما إتجهنا نحو الماضى البعيد ، لوجدنا جوانب أخرى قد طورت وعمقت دور الطبقات الوسطى ووعيها ، بانتشار مفهومات الحرية ، والوعى بحقوق الانسان تلك المفهومات المتحررة التى صدرت مع كتابات « روسو » وبخاصة بصدد « العقد الاجتماعى » و « إميل Emile » ؛ وأثرهما فى صياغة «إعلان الاستقلال الامريكى » حيث تأثر بكتابات « روسو » الرئيس « توماس جيفرسون Jefferson » وهو أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية الذين اشتركوا فى صياغة هذا الاعلان الامريكى الشهير ، فلقد أثار « روسو » الوجدان الفرنسى حين تكلم عن « حقوق الانسان الثابتة » التى وهبتها له الطبيعة ، كحق الحياة ، وحق الحرية ، فلقد ولد الناس أخياراً وأحرارا ، متساويين فى السعى وراء السعادة والرفاهية[٢] ، وهذا التصور التحررى هو أساس بنية الوعى الجماعى أو الطبقى .

ولا يمكن تعريف « الزمر الاجتماعية Social groups »[٣] أو تحديد

---

(1) Durkheim, Emile., Individual and Collective Representations, Sociology and Philosopby, London. 1958. p. 24.

(٢) سول ، جورج : « المذاهب الاقتصادية الكبرى » ترجمة الدكتور راشد البراوى ، مكتبة النهضة ١٩٦٥ ، ص ٥٣ .

(٣) تعرف الزمرة الاجتماعية بأنها جماعة من الاشخاص تربطهم مصالح وأغراض خاصة وتوحد بينهم مشاعر واتجاهات معينة ، كما تميزهم مجموعة من الحقوق والالتزامات ويشتركون فى عمل جمعى محدد لتحقيق أهداف مشتركة ، كما ويتضامن الكل فى علاقات ومناشط مميزة .

مفهوم الجماعات ، إلا فى إطار ما تقوم به من جهود أو أعمال ، تلك التى تسمى فى علم الاجتماع باسم « المناشط الاجتماعية Social activities » . ولاشك أن « العمل » أو « النشاط » حين يكون جماعياً ودائماً ، لابد وأن يخلق فى الجماعة أو الزمرة الاجتماعية ، مجموعة من « الاهتمامات » أو « المصالح » ، تلك التى تصدر عنها « الافكار ideas » ، ومن خلال « العمل » و « الاحتكاك الاجتماعى Social contact » المستمر بين أفراد الزمرة أو الطبقة ، تنشأ مجموعة من التصورات أو الأفكار الأساسية ، ولكن هناك أيضاً مجموعة من الأفكار الثانوية Secondary ideas لاتنجم عن الاحتكاك أو المناشط الجمعية ، بقدر ماتتصل بما يدور داخل إطار الزمرة أو الطبقة من آراء ومايسود فيها من تصورات ومعتقدات وأيديولوجية الطبقة هى مجموع الافكار الثانوية السائده فى بنيتها و،ايدور داخل الاطار الطبقى من « أفكار أيديولوجية ideological ideas » .

ولذلك تحتوى أيديولوجية كل طبقة ، على مجموعة الأفكار والاتجاهات الثورية التى تصدر عن الوعى الطبقى ، مما يؤكد أن هذه الأفكار إنما تبرز السمات العامة للطبقة ، والتى تضفى عليها شخصيتها ووجودها . بمعنى أن أيديولوجية الطبقة انما تعبر عن ما يجمع أفرادها من « اتجاهات وعلاقات » ، وما يشتركون فيه من آمال ومخاوف ومصالح ، وما يقومون به من « أدوار طبقية » ، وهذه كلها هى شروط « الوجود الطبقى » .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لقد ثار جدل قديم بين « العبد والسيد » ، وكان لكل منها طبقته ومعتقداته وأنماط سلوكه وأساليب تفكيره ، ولقد شبه هيجل « مقولة السيد » بأنها تعبير عن « الوعى بذاته » الذى يمتاز بالعزلة والاستقلال عن الطبيعة ، وتلك هى سمات « السياده » ، أما العبد فمحمول للعمل ، مشغول بالطبيعة مرتبط بالماده ، ثم أصبحت بيده حركة التاريخ ، وكانت طبقة السادة لا تقسم

إلى طبقة العبيد ، فالعبد هو الذى ينتسب إلى سيده ، كما تنتسب الزوجة إلى زوجها ، على الرغم من الفروق فى المواقف والأدوار الاجتماعية . حيث يخلق نظام الاقطاع أيديولوجيات وطبقات ، بينما لا يخلق « نظام الزواج » أية تصورات طبقية ، وإنما يمثل الزواج « نسقاً من العلاقات الصورية Formal » أو المقولات الاجتماعية .

ويميز ماركس الطبقة طبقاً لنوع الملكية وشكلها ، كما يحدد مدى فاعلية تلك الطبقة وتأثيرها فى النسق السياسى وفقاً لتقدير ثرائها وأهميتها مما يضفى عليها طابعاً يعطيها فرصتها أو دورها القيادى فى البناء السياسى . ولكل طبقة آمالها وتطلعاتها ، فطبقة الملاك تريد الثروة وجمع المال ، و « وطبقة الاقطاع » الثرية تبغى السلطة والسيطرة على الحكم بمزيد من القوة والسلطان السياسى ، أما « طبقة العبيد » فتأمل فى التحرر من الظلم الاجتماعى والتخلص نهائياً من إستغلال الانسان لأخيه الانسان .

هذه هى الخريطة الاجتماعية Social map التى تبرز إتجاهات الطبقات ، حيث نجد الكثير من التعارض فى الخطوط العامة ، وعدم تطابق الاتجاهات ، إذ أن « خطوط التقسيم » بين سائر الطبقات إنما تتعارض ولا تتحدد أو تتفق . ولذلك أكد ماركس على أن « ديكتاتورية البروليتاريا » سوف تزيل هذا التعارض وتحل التناقضات . ولقد أعلن « ماوتسى تونج » عدم الاذعان للاتجاه الماركسى الكلاسيكى نظراً لعدم صلاحيته فى معالجة مشكلات « بروليتاريا الفلاحين » ، وإنما أكدت ديموقراطية الصين الجديدة على دور الدكتاتورية المشتركة التى تضم طبقات الفلاحين والمثقفين وكل الطبقات المعادية للاستعمار (١) . وتلك هى الأيديولوجية

---

(١) سيجموند ، بول « أيديولوجيات الأمم الآخذة فى النمو » الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٥ .

الصينية ، المضادة « للاشتراكية السوفيتية الماركسية » .

وفيما يتعلق بطبيعة الافكار الطبقية ومصادرها « يتساءل الزعيم الصينى الراحل « ماوتسى تونج » فى هذا الصدد بقوله :

« من أين تنبع الافكار السديدة ؟ ! أتنزل
« من السماء ؟ .. لا . وهل هى فطرية فى العقل؟
لا إنها تنبع من الممارسة الاجتماعية وحدها ،
« تنبع من ثلاثة أنواع من الممارسة الاجتماعية:
« النضال من أجل الانتاج ، والصراع الطبقى »
« والتجربة العلمية » . (١)

من هذا النص ، يتضح لنا أن « ماوتسى تونج » إنما يعبر تعبيراً واضحاً ومتميزاً عن طبيعة أيديولوجية الطبقة، حيث ذهب ماركس إلى أن الايديولوجيات والافكار إنما تنجم عن مظاهر الحياة الجمعية والاقتصادية ، كما أكدت الايديولوجيا الماركسية على العناصر الاجتماعية فى صدور الفكر وفى إنبثاق المعرفة .

وفى ضوء هذا الفهم الماركسى، يهدف علم اجتماع المعرفة إلى دراسة العناصر الاجتماعية والطبقية فى التفكير ، ووظيفة تلك العناصر فى تكوين صورعامة للعقل داخل إطار الواقع الاقتصادى (١) . ولقد نجمت فكرة الايديولوجيا أصلا فى الفكر الماركسى ، وصدرت عن أنها إنعكاس للصراع السياسى والاقتصادى

---

(١) مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسى تونج . وكالة الصحف العالمية ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٧ ص ٢١٧ .

(2) Stark, Werner., The Sociology of Knowledge, Second impression. Kegan Paul. London. 1960.

والاجتماعى ، الذى يتحكم فى الفكر الطبقى ، فتعبر الايديولوجيات عن تلك المواقف والارتباطات العامة التى تتعلق بصراع الجماعات والطبقات عبر التاريخ[١].

وإستناداً إلى ذلك الفهم ، يرد « ماركس » الايديولوجيات والأفكار إلى تلك المشكلات الاجتماعية التى تنبثق من داخل بنية الطبقة ، على أساس أن الفكر لا يتوقف على مجرد « الوضع الاجتماعى » للفرد ، ولكنه يتوقف أصلا على الوضع الاقتصادى ، ويصدر عن الموقف الاجتماعى والسيكولوجى للطبقة برمتها ، من خلال صراعها وآمالها ومخاوفها[٢] ، وإمكانياتها الموضوعية ، تلك الآمال والمخاوف التى تنبثق عن ظروف وضعية يحددها السياق السوسيو تاريخى .

فاننا حين نتعرف على أيديولوجية العصر أو الطبقة ، وحين نحاول أن نفهم حقيقة جماعة من الجماعات أو الزمر السوسيو تاريخية ، فاننا نعنى بذلك أن نتعرف على خصائص وتكوين البناء الكلى « لروح العصر » أو « فكرة الطبقة » أو « عقل الجماعة » ، ذلك البناء الفكرى الشامخ ، الذى يتألف من مجموع التصورات والآراء والظروف المنبثقة عن نسق الافكار والقيم الاجتماعية . وبتعبير أدق ان ذلك البناء العقلى لروح العصر والطبقة . إنما يعبر على العموم عن موقف الحياة Life-Situation ويفسر الوضع الراهن ، حيث تعبر تلك الأفكار العصرية والطبقية عن وظائف وجودها فى الوسط الاجتماعى[٣] .

ويرى « ميرتون Merton » أن الاتجاه الماركسى إنما يعد محورا أساسيا من

---

(1) Mannheim, Karl., Ideology and Utopia., London 1948 p. 36.

(2) Merton, Robert., Sociology of knowledge, The Twentieth Century Sociology. New York. 1945. p. 374.

(3) Mannheim, karl., op. cit 49-50.

محاور الارتكاز فى « علم إجتماع المعرفة » ، حيث فسر ماركس « الاطارات الوجودية Existential Basis » للمعرفة والايديولوجيات ، تفسيراً إقتصاديا بصدورها عن بنية الفكر الطبقى . حيث التفت ماركس إلى عوامل الانتاج ، باعتبارها الأساس الحقيقى أو « البناء الأسفل Infra - Structure » الذى إليه يستند « البناء الأعلى Supra - Strurture »[1] .

وينبثق الشعور أو الوجدان الطبقى عند ماركس - عن مجموع التصورات الجماعية[2] . التى تترسب فى أعماق الطبقة ، ومن ثم كانت التصورات الجماعية لكل طبقة ، تتصل بمسألة « الأحكام التقويمية Jugement de Valeur » تلك الأحكام التى تعطيها مكانتها فى سلسلة القيم الطبقية .

وإن كان ذلك كذلك — فان الطبقة لدى أصحاب الإتجاه الماركسى هى نقطة البدء فى مستوى التحليل السوسيولوجى فى علم إجتماع المعرفة ، إذ أن الأفراد داخل إطار الطبقة انما تتحقق لدى كل منهم مقولات الفكر التى تترسب فى أعماق الفكر الطبقى ، كما يتولد الفكر عند ماركس ، من ذلك الكفاح بين الطبقات ، « طبقات العمال » أو « البروليتاريا » فى صراعها مع « البورجوازية » و « الارستقراطية » ، ومن ذلك الصراع الطبقى ، تصدر التصورات المنطقية التى ترتبط بتلك المشاعر والمصالح الاقتصادية والعلاقات الطبقية .

وبصدد سيكولوجية الطبقة الكادحة ، لم يغفل علم الاجتماع الماركسى من قيمة الثقافة ، بل وأكد على « وجود علاقة تبادلية » بين « بنية الأساس التحتى Infra - Structure » و « بنية الأساس الفوقى Supra - Stincure » ، وهو

(1) Merton, Robert., op cit. p. 373.

(٢) الأستاذ الدكتور محمد ثابت الفندى ، الطبقات الاجتماعية — دار الفكر العربى فبراير ١٩٤٩ ص ٤٥ .

تبادل أو تفاعل حتمى يربط الايديولوجيا بالأساس الأسفل ؛ ويصل بين الجوانب الفوقية ، كالقانون والسياسة والفلسفة والفن ويربطها جميعاً بالجوانب الاقتصادية التحتية .

بمعنى أن ماركس قد إتفق مع صديقه انجلز Engels فى نهاية المطاف ؛ على رفض قبول فكرة الاستقلال الكلى ، حين يتفضل التركيب الأسفل ؛ عن المظاهر العليا فى حياة « المجتمعات » كما يعبر عنها البناء الفوقى الأعلى . حيث تم طوال التاريخ ، ويدفع عجلة التطور الاقتصادى ،[1] علاقات تبادلية ، بين الظواهر والأيديولوجية ، ومصادرها التى تدعم البنية الاقتصادية . كما أشار ماركس الى الاهتمام بوظيفة الفكر ودوره الأيديولوجى فى بناء الوعى والمشاعر والتصورات وتركيبها جميعاً فى البناء الطبقى .

بناء الوعى الطبقى :

يتألف « بناء الوعى الطبقى » ، من أنساق تصورية ، وأبعاد مهنية وحرفية ، حيث تقوم بنية الوعى الطبقى ، على أسس إقتصادية ، طبقاً لوحدة المهنة أو الحرفة و « نوع الحياة mode de la vie » وتماثل أنماط الفكر والسلوك والتصورات الطبقية ، تلك التى تستند جميعها الى الوحدة العقلية unité mentalé وتشابه الافكار وانسجام التصورات .

وتستند بنية الوعى الطبقى ، الى شروط إجتماعية ، وأبعاد تاريخية ، ومحتويات ثقافية ، وإمكانيات موضوعية . أما الشروط الاجتماعية للوعى ؛ فتستند إلى الاساس الموضوعى للفكر ، على إعتبار أن لكل فكرة أو مذهب أو عقيدة أو إتجاه مصادر إجتماعية وأصول ثقافية . وتحوى الابعاد التاريخية

(1) Gurvitch, Georges, Twentieth Century Sociology, New York. 1945, p. 381.

للوعى ، تلك التطورات المرحلية « للوجدان الطبقى » خلال ماضى الوعى ، أما الامكانيات الموضوعية ، فتعتمد على الظروف الوضعية للطبقة ومركزها ودورها فى الهرم الطبقى ، ويلتقط الشعور الطبقى من بنية الطبقة ، كل ما فيها من تدفق وحركة ، وما تحويه من تنوع متطلع ومندفع نحو المستقبل ، ولاشك أن الثقافة Culture هى بعد جوهرى فى بنية الوعى الطبقى ، لأن الثقافة والفكر والتصورات ، هى أنساق تصوريه وضرورية تؤسس الوعى الطبقى ، فاذا كان « الفكر هو وعى الوعى » ، أو الوعى بذاته ، وإذا كانت الثقافة هى نوع من أنواع الوعى ، « فالفكر هو وعى الثقافة » ، والثقافة هى مضمون الفكر ، والفكر هو القالب الذى يلقف ما فى الثقافة من محتويات وأنماط وأساليب للسلوك والعقل الاجتماعى ، ولقد كنا نفقد مضمون الثقافة لو لم يكن لدينا الوعى ليحمله ، على على اعتبار أن الثقافة هى الفحوى ، والوعى هو الوعاء أو الاناء ، ولقد كنا نفقد الفحوى لو لم يكن لدينا الاناء لنملأه .

ويسجل الفكر والوعى كل ما يطرأ على الجماعة من تغيرات حضارية أو اجتماعية ، ومن ثم كان الفكر عند علماء الاجتماع الثقافى والصناعى والاقتصادى هو جهاز أو « ترمومتر » على درجة عالية من الدقة والحساسية ، لانه يعكس ما يدور فى بنية الوعى الطبقى ، فقد تزول الطبقة بحكم القانون ، ولكن الوعى أو الوجدان الطبقى لا يزال باقياً ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد ثار زعماء فرنسا على طبقة النبالة Noblesse ، وأطاحت بامتيازاتها والقابها وحقوقها ، كما تنازل أصحاب الاقطاع والامتيازات عن حقوقهم ليلة ٤ أغسطس المشهورة ، إلا أنهم رغم ذلك كانوا يحتفظون اجتماعياً وسيكولوجيا ، بما كان لهم من قيمة اجتماعية ومركز مرموق ومكانة ممتازة ، فتمسكوا بألقابهم وعلاقاتهم السائدة وما يربطهم من قيم قائمة فى الوجدان الطبقى ، رغم زوالها باسم القانون .

وعلى هذا الأساس ، تتميز الطبقات بوجود « الوعى الطبقى Class Consciousness » ذلك الذى يبرز معالمها ويضفى عليها وجودها ، بمعنى أن وعى الطبقة ، هو « روح الطبقة » ، ولقد أشار ماركس فى الثامن عشر من برومير Eighteenth Brumaire إلى كلمة مشهورة « للويس بونابرت » ، فقال عن جموع الفلاحين الفرنسيين ، حين تولى سلطانه كرئيس لجمهورية فرنسا : « إنهم طبقة ينقصها الوعى الطبقى ، مما يؤكد ضعفها وسلبيتها فى ذلك العهد » .

ومن خلال ما يصدر عن الوعى الطبقى من تصورات مشتركه ، يتعامل أعضاء الطبقة الواحدة ويتحدون فى « ربط » أو « زمر » ، وكان السادة فى المجتمعات القديمة يتعاملون لاباعتبارهم ، « سادة Masters » بل باعتبارهم «طبقة» وتدافع الطبقة عن وجودها وأهدافها ومصالحها ، فيقع الصراع الأيديولوجى مع الطبقات الأخرى . ويحمى السادة مثلا أنفسهم من ثورة العبيد فيدافعون دائماً عن طبقتهم ويقننون لمصلحتها القوانين ، وكذلك يحمى زنوج أمريكا أنفسهم من طغيان البيض ، حيث يميز المجتمع الامريكى ويفرق بين الأسود والأبيض باسم « العنصرية » ، ولاشك أن هذه التفرقة وصمة عار فى جبين مبادىء « العدالة والحرية والديمقراطية » التى تتشدق بها الولايات المتحدة الأمريكية .

وما يميز الطبقة عن الزمرة الاجتماعية Social group ، هو درجةالاتساع والشمول ، فالطبقة عالمية « لا وطن لها » ، مثل طبقة العامل التى تمتد فيما وراء الامم والدول ، حيث يدخلها العامل فى كل مكان . كما وتختلف الطبقة عن « الطائفة Caste » ، ويمكن النظر إلى « طوائف » الناس و « ومنازلهم » على أنها تشتمل على أنواع من الطبقات . إلا أن « الطائفة » هى « طبقة مغلقة Closed class » ، ولا تطلق إلا على الطوائف الهندية بالذات التى تمنع دخول الافراد أو الخروج منها .

وقد يكون للطبقة أيديولوجيتها الخاصة ، دون أن يتوافر لديها « الوعى الطبقى » ، فقد تتفق الأفكار والارادات والرغبات ، وقد تتشابه المشاعر والآمال مع فقدان عنصر « الوعى الطبقى » ، وهذا هو السبب الذى من أجله يقول ماركس فى « الثامن عشر من برومير » ، كما قلنا نقلا عن « لويس بونابرت » ، إن طبقة الفلاح الفرنسى إنما ينقصها الوعى الطبقى ، ولقد عدد ماركس أسباب فقدان الوعى الطبقى بين فلاحى فرنسا ، ومنها عدم توافر عنصر « التنظيم organization » بينهم ؛ ذلك العنصر الذى يؤكد مصالحهم الطبقية ، ويشجعها ويروجها ، ومنها أيضاً أنهم لا يتعاملون فيما بينهم كطبقة محددة المعالم ، نظراً لإنعدام توافر الأهداف المشتركة Common purpose ، سواء أكانت إجتماعية أم سياسية ؛ بمعنى أنهم ليسوا على « علم تام ودراية حقيقية بوجودهم الطبقى » ، ولا يحرصون على تأكيد هذا الوجود وتدعيم المصادر الحقيقية و « الأسس الموضوعية » التى تدعم مصالحهم الطبقية وتسندها .

لوكاتش والوعى الطبقى :

ومعنى ذلك ، أن إنكار ماركس لوجود الوعى الطبقى بين فلاحى فرنسا فى عصره ، مبعثه أنهم لم يكونوا على دراية بمصالحهم أو وجودهم الطبقى ، ولقد ذهب ماركس إلى ما هو أبعد من ذلك ، حين يشك فى إمكان وجود « الوعى الطبقى بين الفلاحين على العموم » ، حين ينظر ماركس إلى طبقتى البروليتاريا والبورجوازيه ، على أنهما الطبقتان الوحيدتان الحاصلتان على عنصر « الوعى الطبقى » ؛ ولقد اقترب « لوكاتش Lukacs » من هذا الفهم الماركسى للوعى الطبقى فى كتابه « التاريخ والوعى الطبقى History and class Consciousness» حيث أكد فى هذا الكتاب ، على أن البروليتاريا ، إنما تتميز بكثافة أكثر وطاقة أغزر من الوعى الطبقى ، عنها بالنسبة للبورجوازية .

وينشق « الوعى الطبقى » من ثورة البروليتاريا خلال صراعاتها مع البورجوازية فتكتسب الكثير من التجربة وتحقق الأمانى والآمال الجديدة ، فتصبح بذلك حاصلة على « الوعى » عن طريق الكفاح الثورى ، كما تصبح على دراية تامة وكاملة بمصالحها الطبقية ، ومن هنا يتطور « الوعى » خلال النضال ، حيث تتحول آمال الماضى وتتبدل ، وتصبح الأمانى الجديدة مختلفة عن أمانى الآباء والاجداد . وبذلك يتعلم البروليتارى من تجربته الثورية ، وكفاحه المستمر ، أنه لن يحصل على أمانيه ، ولن تتحقق آماله إلا باحلال الاقتصاد الاشتراكى محل الجشع الرأسمالى — وقد يكافح البروليتارى فى شراسة ، وبكل الوسائل باستخدام القوة ، أو بالصراع الدموى ، حتى يتم له تحقيق « الدولة » التى تدعم « الوجود البروليتارى » حين يحصل العمال والشغيلة على الحكم ويحققون أمانيهم وأهدافهم ، وهنا فقط « يتحقق الوعى » ، وتصبح طبقة العمل واعية بذاتها(١).

ولا شك أن نظرية « ماركس » عن « الوعى الطبقى » وخاصة ما يقصده بالوعى البروليتارى ، قد تطورت عند « جورج لوكاتش Georg Lukacs » ، حين أشار الأخير إلى تفوق واستعلاء الوعى البروليتارى على كل أشكال الوعى الطبقى ، ويتفق لوكاتش مع ماركس على أن الوعى الطبقى البورجوازى ، إنما هو صورة من صور « الوعى الكاذب False consciousness » ، ولقد أخطأ البورجوازيون للأسف فهم مصالحهم الطبقية التى يدعمها نظامهم البورجوازى ،

---

(١) يميز الاشتراكيون بين أيديولوجية الثورة ، وأيديولوجية الاصلاح ، الاولى بروليتارية ، والثانية راديكالية ، حيث يؤكد زعماء الاصلاح الدعوة الى التمدين والتحضر والاعتراف بمكانة الفرد السياسية والاقتصادية ، وقد يستخدم الراديكاليون وسائل الاغراء من طريق الشعارات الدعائية التى تنادى بالتقدم وتعميم المجتمع ، بتحقيق مشروعات الاصلاح الاجتماعى .

ولم يدركوا المقصود من وجوده،أو التناقضات Contradictions الكامنة فيه ، ومن ثم لم يعملوا بالطبع على حلها ، وهم لا يدركون أن الرأسمالية ، على حد زعم الماركسيين ، إنما تحمل بذور هدمها ، ، حيث أنهم لن يستطيعوا رفع التناقضات إلا برفض النظام نفسه وبرمته ، ولكنهم يتمسكون بوجودهم الطبقي المؤقت ، الذي يبقى ببقاء النظام البورجوازى ويستمر باستمراره .

الباب الثالث

الأيديولوجيا واتجاهات الرأى العام

- تمهيد
- ماهى الايديولوجيا ؟
- اتجاهات الرأى العام
- شغل الفراغ
- ثقافة ذوى الياقات البيضاء

تمهيد :

إن التقاء « علم الاجتماع السياسي » بالايديولوجيا لم يكن من قبيل الصدفة العمياء وإنما هو لقاء حتمي فرضته الظروف ، حيث أننا إذا ما حاولنا الالتفات إلى تلك الملابسات « الوضعية والظرفية » التي أحاطت بهذا اللقاء التاريخي الحاسم ، لوجدنا أن ميلاد علم الاجتماع نفسه في فرنسا ، قد ارتبط بالايديولوجيات ارتباطاً عضوياً ، فهو ابن الثورة البورجوازية التي أطاحت بالاقطاع الاوربي . ومع كتابات « كوندياك Condillac » و « باسكال Pascal » ومجهودات جان جاك روسو Rousseau » و « سان سيمون » و « أوجست كونت Comte » يمكننا القول بأن علم الاجتماع قد ذاع وانتشر ، منذ صدر أولا كعلم أيديولوجي المولد والبيئة والمناخ .

فلقد كان البناء الاجتماعي الفرنسي في القرون الوسطى ، ممثلا الى حد بعيد لكل ملامح البناء الاقطاعي في أيديولوجيته العامة التي سادت أوربا . حيث كانت فرنسا هي مركز الاقطاع منذ عهد النهضة ، ثم قامت في ثورتها الكبرى بهدم قلاع الإقطاع الملكي والكنسي ، وأقام الفرنسيون حكم البورجوازية في « نقاء كلاسيكي » على حد تعبير « ماركس » في مقدمة كتابه « الثامن عشر من برومير لويس بونابرت »(1).

وهناك مسلمة يسلم بها الانسان تسليما دون مناقشة ، حين يؤكد المؤرخ الاجتماعي ، بأن كل عصر من العصور انما يخضع لاسلوب خاص من الحياة ونمط معين من السلوك ، كما يتميز بسيادة بعض التيارات العقلية وبوجود اتجاهات عقائدية أو فلسفية أو مذهبية . الامر الذي يفسر لنا علة ما نشاهده في كل عصر من عصور التاريخ ، حين تظهر نماذج معينة من الفن والادب والفلسفة . كما

(1) Marx, Engels., Selected works. Vol : 1., Fifth Impression-MoscoW. 1962. p 245.

وتغلب على تلك النماذج بعض السمات أو الخصائص الكلية العامة التي تتسم بها ، وتصدر عنها أنماطاً من السلوك والدافعيات motivations ، تلك التي جاءت إلى الوجود بفضل صدور القيم Values واتجاهات الرأى العام التي تخلق سائر « معايير الفكر » وتحدد إهتماماته وتفرض اتجاهاته ، وتلك هى الأيديولوجيا بمعناها الواسع .

ويتميز « النسق الأيديولوجى » فى المجتمع بالاستاتيكية والنمطية والثبات ، لأنه يتعلق بالفكر والتصورات ، ومن الصعب تغييره لتحكمه وسيطرته على معتقدات الناس واتجاهات الرأى العام ، ولذلك كان النسق الايديولوجى هو آخر ما يتغير فى « أنساق البناء الاجتماعى » كله . على الرغم من تغير أنساق أخرى لا تتحكم فى طبائع البشر ، وهذا هو السبب الذى من أجله تسرع الانساق التكنولوجية فى التغير فى المجتمعات البدائية والبدوية والقروية ، نظـــرا لشدة تعلقها بالمادة ولسهولة التحكم فيها وضبطها والانتفاع منها . أما الايديولوجيات فلا تتحكم فى المادة ، وإنما « تتحكم فينا » ، لانها تختفى فيما وراء سلوكنا ، كعلل أو كقيم أو كدوافع. فالايديولوجيا هى « ما يحرك الجماعات » وهى ما يرسخ فى أذهان الناس من فلسفات ومذاهب وعقائد تلك تخلق بين النـاس تيـاراً شعورياً واحـداً . بمعنى أن الأيديولوجيات على العموم هى موجهات السلوك التى تدفع الناس دفعا ، فهى كل ما يوجه الرأى العام ويؤثر على أفهام الناس ومداركهم وأذواقهم .

وتدور الايديولوجيات حول « أفكار » أو « موضوعات » لها جاذبيتها الخاصة ، وتتسم بالقبول الاجتماعى ، كما وترتبط فى الوقت نفسه بمذاهب الناس ومشاربهم. مثل التصورات والأحكام العامة والقيم الاجتماعية الشائعة ، تلك التى تسيطر على أنماط السلوك الثقافى والتقليدى طبقا لأنساق القيم والثقافة والدين ، ووفقا لما يسود فى بنية المجتمع من العقـائد والمعتقدات والفنون والآداب . ولما كانت

الأيديولوجيا تتعلق بالفكر وترتبط بالاعتقاد الذى قد يصل إلى حد الإيمان، فلقد سيطرت الأيديولوجيا على خيال الناس وتصوراتهم الروحية ، كما كان لها صفة « القسر » و « القهر » و « الضغط » لما فرضته من « قوى فكرية مارست الضبط والجزاء فخلقت « أنماطاً من التقليد والتبعية » ، فما كان على الناس « سوى الولاء والطاعة » .

فمن الواضح لكل ذى عينين ، أن يكون مايحدث الآن فى طهران ، ومايجرى بين ربوع قرى إيران ، هو تجربة جماعية أو عقائدية » ، أسقطت حكومة علمانية ، كى تنادى بحكومة شيعية . فما يحرك « التجربة الايرانية » الآن هو « محرك أيديولوجى شيعى » . وقد يهتم عالم الاجتماع السياسى برصد مايدور حول « التجربة الثورية الايرانية » ، من ظواهر وما يوجهها من محركات ومعتقدات ، وقد ينشغل عالم الاجتماع الدينى ، بمعرفة « دور القيم » و « الحركات الدينية » فى التغير الاجتماعى . حيث يعتبر الدين من أهم العوامل الأيديولوجية والثورية التى أحدثت طوال العصور تغيرات جذرية وحاسمة .

والكتاب الذى بأيدينا الآن ، يعالج موضوعا شائكا وعسيرا ، حين يناقش قضية « علم الاجتماع والأيديولوجيات » . حيث أدلى علم الاجتماع بدلوه فى عالم « الفن والادب » وساهم ، وساهم بسهم وأفر فى دنيا الأساطير والمعتقدات وماقد يكون فيها من سحر أو خرافة ، كما كانت له صولاته فى « سوسيولوجية القيم » وجولاته بين مختلف « الفلسفات » و « المذاهب » و « الحركات العقائدية » .

ولقد كتب « روبرت جراهام » مراسل الفاينانشيال تايمز ، ماشاهده من أحداث إيران ونظام السلطة وبداية « ثورة آية الله الخمينى » على الرغم من الانتعاش الاقتصادى » وتحقيق القوة العسكرية الطيران والبحرية الايرانية » فكان هدف القيادة الرسمية التى تعبر عن فلسفة الشاه ، هى « القوة المادية وسيادة أسرة بهلوى » .

فالمال هو وسيلة الانتعاش، الاستقرار والتقدم ، وبفضله يمكن أن يعيد لايران أمجاد « كسرى، وحضارة فارس.

ومن أجل تأكيد الامجاد الكسروية اوالحضارة الفارسية التي مزجها بتكنولوجيا إيران الحديثة، أقام شاه إيران مأدبة كبرى ، يعيد فيها عظمة الماضى وتراث ايران القديم، فاستضاف الملوك والرؤساء والأمراء ،وأنفق الكثير فى بذخ غير مألوف بين ملوك القرن العشرين ، فأحضر لهم الطواويس المحشوة فوق مأدبة تاريخية كبرى ، ثم ظهرت « الثورة المضادة » حين طغت المصروفات على مسار حركة التنمية فى مجتمع ايران الذى يغلب عليه « الطابع الريفى التقليدى » ، كما لم توفر الدولة المستوى المعيشى المقبول لسائر الحواضر الايرانية، والمدن التى هاجر اليها أهل القرى .

ولقد بدأت عمليات التخطيط والتنمية على نحو تطورى وهادف ، منذ قام « مصدق» عام ١٩٥١ بتأميم صناعة النفط وتسويق البترول الخام وتشغيل حقول النفط وتكريره . وكان مصدق برلمانياً قبل أن يكون رئيساً للوزراء فى إيران، وقام بتطهير إيران من السيادة الأجنبية ، وقاد حملة قوية فى البرلمان ضد الشركة الانجليزية الإيرانية ، إلى أن أممها ، ومنح إمتيازاتها إلى شركات أخرى جديدة .

ولقد كانت قضية مصدق ، هى قضية مبدأ ، ولم تكن قضية خلاف شخصى بينه وبين الشاه ، ولم يكن الشاه يمثل فى نظر مصدق المصالح الأجنبية ، وإنما كانت القضية تتصل بالمصالح الحيوية العليا لايران وشعب إيران ، وفى قمة تلك المصالح « الحفاظ على سيادتها » وممارسة تلك السيادة.

ولقد إكتسب التأميم الذى قام به مصدق طابعاً قومياً ، جعله موجهاً ضد النفوذ الأجنبى لتحقيق الاستقلال الاقتصادى لإيران، ووضع حد للنفوذ الأجنبى فى إستغلال أراضيها واستغلال ثروتها، والشاه محمد رضا بهلوى كم يستتر تلقى تعليمه فى

الخارج ، وفتحت أمامه الآفاق ، وكان موضع إعجاب الجميع ، لاعجابه المنقطع بالثقافة والتكنولوجيا ، مع التشبث بالتحديث Modernization والأنظمة الغربية ، واهتمامه بالتقاليد والتمسك أو التشبث بالقيم ، وسقطت حكومة مصدق بعد إنقلاب ناجح عاد فيه الشاه إلى الحكم .

ومن الأخطاء الأساسية التى يقال إن حكومة الشاه قد وقعت فيها « أسلوب الهياكل الخاوية » فى نظام الحكم ، بحيث يكون الظاهر ديموقراطياً خالصاً ، والباطن ديكتاتورياً بحتاً ، فهناك مناصب وأدوار بيروقراطية تشغلها « الحكومة » و « الوزراء » ، وكلها مناصب وهياكل خاوية فى ظاهرها ، أما باطنها فرجل من رجال البلاط الامبراطورى ينفذ التعليمات المطلوبة . فيوزع الشاه رجاله بين سائر القنوات الإدارية ، ومن أهم أخطاء أبيه القليلة كما يقول الشاه نفسه ، إن أباه اعتمد على دائرة صغيرة من المستشارين الذين كانوا يهابون الشاه الاب ، رضا بهلوى ، فكانوا يتملقونه بدلا من أن يقولوا له الحقيقة ، أما الشاه الابن « محمد رضا » فلقد حاول أن يدعم فى دولة إيران ميزان العدالة الذى يحقق المصلحة العامة .

ولقد تعلم الشاه الكثير منذ إنقلاب مصدق ، فجعل منصب رئيس الوزراء « هو مجرد منصب إدارى بحت ، وجرد الشاه رئيس الوزراء من كل سلطاته ، فحكم أمير عباس هويدا منذ عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٧ . ونظراً لضغوط البورجوازية الايرانية ، أعطى الشاه حكمه نوعاً من الليبرالية ، وكان الناتج هو تغيير شخص رئيس الوزراء ، الذى حركه الشاه ، ونحاه عن منصبه ، ثم وضعه على قمة تنظيم سياسى لكى يرأس الحزب الذى كونه الشاه « استناداً إلى الايمان بالدستور والملكية والثورة البيضاء . ولقد شيد الحزب على أساس محاور ثلاثة هى تمدين المناقشات ، وتنظيم الادارة وتكوين البوليس الشعبى ، ومنظمات الشباب التى تراقب الأسعار ، كما تكونت مجموعات « الولاء » بين الطلبة والعمال لتنظيم المظاهرات المضادة

التجمعات الدينية والسياسية المناوئة لحكم الشاه، ومنها التنظيم الشيعى الموالى لآية الله الخمينى .

ومن الاخطاء الثقيلة التى انزلق اليها حكم الشاه ، هى القضاء المبرم على الاستقلال المعروف لنزاهة السلطة القضائية ، فقد تمكن الشاه من استيعاب القضاء داخل السلطة التنفيذية ، وأصبحت « ارادة القضاء هى ارادة الحكومة » ، وهذا خطأ سياسى بليغ يضر بالصالح العام ، وبنزاهة الحكم لأنه يمس بل ويحطم مبدأ «استقلال القضاء » ، وهو أعلى جهاز تنظيمى فى الدولة ، يعبر عن ميزان الثقة وليس غريباً أن يكون جهاز العدالة هو جهاز القضاء وهو حكم القانون .

وفى «مجلس البلاط» جعل الشاه من رئيس المجلس على قدم المساواة مع رئيس مجلس الوزراء ، وفى أغلب الاحيان يكون رئيس مجلس البلاط من قدامى رؤساء الوزراء السابقين .

ولقد أخذ على «نظام الشاه» مواقفه غير الدستورية حين يقيم أو يصدر «جهاز المفتش الامبراطورى» وهو جهاز بوليسى رهيب يستخدمه الشاه ضد كل أعدائه، وله سلطة التحرى والتحقيق ، وحق التفتيش دون سابق اعلان . وأجهزة الامن هى عيون الشاه وقبضته الفولاذية لاستئصال كل من لا يدين له بالولاء والتبعية، ويمثل « السافاك » رأس الرمح فى أجهزة الامن التى تراقب كل سلبى وانتهازى ، ويقوم جهاز السافاك بالقبض والتحرى والسجن ، كما يقوم بدور المخابرات وبدور البوليس السياسى ، ولا شك أن انسحاب القوات البريطانية من « الخليج العربى » فى ديسمبر من عام ١٩٧١ ، كان له أثره على تحرك الشاه ، لانه كان يمثل المنسوبة بالملعقة الى الدرجة التى معها احتلت قوات ايرانية خلسة ثلاث جزر بالقرب مضيق هرمز ، هى جزر أبو موسى وبعض جزر أخرى تابعة الشارقة ورأس الخيمة .

ولقد بنى الشاه احتلاله لجزر الخليج استناداً الى «ادعاء تاريخى» لاسند له من التاريخ ، واستناداً الى الحاجة الاستراتيجية ، والى الاستقرار الاقليمى ، وتلك هى نفس المبررات التى بررت بها السلطات السوفيتية غزو تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، كما بررت أمريكا فى عهد كنيدى مسلكها، حين فرضت الحصار على كوبا فى بداية الستينات .

ولقد تصور الشاه بعد خروج القوات البريطانية من الخليج ، أنه أصبح الشرطى الجديد للمنطقة ولقد ساندته الولايات المتحدة الامريكية فى ذلك من البداية ، بل وشجعته على القيام بهذا الدور لتحقيق أهداف السياسة الامريكية لوقف التيار والزحف أمام التوسع السوفيتى ، فأنشأت الولايات المتحدة الامريكية القاعدة الجوية والبحرية على بعد مائة كيلو متر من حدود باكستان ، وكل هذه أسباب ظاهرة وقوية لهبوب رياح الصراع الشديدة التى تصاحب الأنواء الدينية فى جو ايران المشبع بالاضطراب الدينى والسياسى .

الفصل السادس

... ماهى الأيديولوجيا ؟

* تمهيد
* موقف علم الاجتماع من الايديولوجيا
* كيف صدرت كلمة الأيديولوجيا ؟
* المفهوم الماركسى للايديولوجيا
* الايديولوجيا ووطأة التصنيع فى المجتمعات البدائية

تمهيد :

ليس من اليسير أن نعالج مسألة شائكة وعسيرة كمسألة الايديولوجيا Ideology ، وبخاصة طبيعتها ومصادرها ، ما هى ؟ وكيف تكون[١] ؟!

وينبغى حين تتتبع مصادر الايديولوجيا وأصولها أن نحلق بعيداً فى سماوات الفكر الفرنسى ، وخاصة فى مقدمات « كونديالك Condillac » ، ونظرات « باسكال Pascal » ، وشطحات « جان جاك روسو Rousseau » المتفائلة .

كما وينبغى أيضا ، أن نشاهد وأن نتابع ونسجل كيف هاجرت تلك المقدمات الفرنسية الى ألمانيا ، حيث نضجت وأثمرت فى باطن الفلسفة الالمانية ، فتمخض العقل الالمانى الخصب عن صدور فلسفات « كانت Kant » و « هيجل Hegel » تلك التى تابعتها دراسات « ماركس Marx » و « كارل مانهايم Mannhe m ».

والايديولوجيا كمقولة اجتماعية ، هى محاولة ربط الفكر بالواقع ووصل العقل بالحياة ، ودمج المنطق بالوجود الاجتماعى ، للتوصل الى ما يسميه عالم الاجتماع الفرنسى المعاصر « أندريه لاموش[٢] André Lamouche »

---

(١) لم ترد الاشارة الى هذا البحث العلمى ، أو حتى نشر أى جزء منه قبل عام ١٩٧٦ ، حيث وردت مادة هذا البحث العلمى الجديد ، تحت عنوان« بين السوسيولوجيا والايديولوجيا » فى كتابنا « قضايا علم الاجتماع المعاصر » الذى صدر عام ١٩٧٦ من منشأة المعارف . وذلك ابتداء من ص ٤٠٢ حتى ص ٤٨١ . ومن تلك الصفحات، حاولت اقتباس هذا البحث وقد لزم التنويه .

(٢) أنظر فى هذا الصدد:

Lamouche, André, Sociologie de la Raison, Dumod, Paris. 1964.

Gurvitch, Georges., Les Cadres Sociaux de la =

« بسوسيولوجية العقل Sociologie de la Raison » .

ولقد ظهر هذا المصطلح الاجتماعي في الوقت الذي رفع فيه الفلاسفة من قيمة الشروط أو « الظروف الاجتماعية Sccial conditions » ، فاهتم الباحثون بربط الفكر بالتاريخ ، ودمج الماضي بالحاضر ، ووصل المقدمات السابقة بالواقع الراهن . فن المؤكد أن « المواقف الاجتماعية » هي التي تخلق الفكر ، وأن التاريخ هو الذي يصنع المقولات Categories ، تلك التي تصدر عن ظروف التجربة السياسية ، وتتجلى على أرضية الوجود الإجتماعي(١).

وعلى نحو مسبق « يسلم المؤرخ الاجتماعي » للفكر بأن كل عصر من عصور التاريخ ، انما يخضع لأسلوب خاص من آداب السلوك ، أو لسيادة نمط معين من الفكر ، يتميز بوجود بعض التيارات أو الاتجاهات العقلية ؛ الامر الذي يفسر لنا علة ما نشاهده في كل عصور التاريخ ، حين تظهر نماذج معينة من الفن والادب والفلسفة ، وتغلب على تلك النماذج بعض السمات أو الخصائص الكلية العامة التي تخلق « معايير الفكر » ، وتحدد اتجاهاته وتلك هي « الايديولوجيا » بمعناها الوسيع .

واستناداً الى هذا الفهم ، لا يكتسب الناس أفكارهم ، أو يشيدون أنظارهم الا بقوالب مستعارة من طبيعة البناء الاجتماعي من عالم التصورات الجمعيـــه . وهذا هو السبب الذي من أجله تختلف الافكار والتصورات من مجتمع الى آخر

= Connaissance, Press univers, de France. 1966.

Gurvitch, Georges.; Dialectique Et Sociologie, Flammarion Paris. 1962.

(1) Mannheim. Karl., Ideology and Utopia, Kegan Paul, London. 1940. p. 240.

كما تتغير أنماط التفكير وتتبدل ، خلال ديمومة الزمان كما تنسال وتتدفق حين تجرى وتتحقق فى « حركة التاريخ » .

وهناك اختلاف فى وجهات النظر حول مفهوم الأيديولوجيا بين الفلاسفة علماء الاجتماع ، حين ينظر الفلاسفة إلى الأيديولوجيا ، على أنها مجموع التصورات والأحكام العامة التى تسود مجتمعاً من المجتمعات فى أى عصر من العصور . وقد يستخدم هذا الإصطلاح فى معان أخرى أكثر تحديداً أو ضيقاً كى يشير فقط الى بعض النماذج أو « الأشكال من الأفكار والمعتقدات » ، تلك التى تتعلق فقط بجماعة أو « زمرة اجتماعية Social group » ، وتلك هى الايديولوجيا بمعناها الضيق .

موقف علم الاجتماع من الايديولوجيا :

أما علماء الاجتماع فينظرون إلى الايديولوجيات على أنها « وقائع Facts » ينبغى دراسة ماضيها ونشأتها وتطورها ، ثم محاولة تقنين القوانين التى تتحكم فى مسارها . على اعتبار أن الايديولوجيات هى ظواهر خاضعة للشروط الاجتماعية بمعنى أنها «مشروطة اجتماعياً Socially Conditioned ». وبالاضافة الى ذلك فان تلك « الايديولوجيات ideologies » إنما تتباين وتتصارع ، حين تتداخل فى البناءات والتنظيمات فتؤدى الى الصراع بين الافكار Conflict of ideas ، حين تعتبر الافكار كأسلحة ideas as weapons (١) وتنظر اليها من خلال التحامها الايديولوجى ، الا أنها تقوم فى نفس الوقت ببعض « الوظائف الاجتماعية Social Functions »(٢) .

(1) Corbett, Patrick., Ideologies, Hutchison; 1965; p. 61-72.

(2) Mannheim, Karl., Essays on Sociology of Knowledge,=

ولسوف نحاول أن نقدم عرضاً لمجموع المفاهيم المتعارضة ، التي تزخر بها النظرية الاجتماعية ، حيث أصبح للايديولوجيا معان فلسفية معقدة نجدها قد إختلطت وامتزجت « بمفهومات إقتصادية ومصادر سيكولوجية »(1) . إلا أن المحور الأساسي انما يدور أصلا حول « المفهوم الماركسي للايديولوجيا ، على اعتبار أن «ماركس» هو أول من وضع هذا المصطلح واستخدمه في علم الاجتماع ولسوف لانقتصر على المفهوم الماركسي فحسب ، بقدر ما سنحاول في نفس الوقت أن نقوم بعقد المقارنات بين سائر المفهومات الأيديولوجية المتصارعة والآراء المتشابكة حيث اختلف حولها سائر المفكرين ، ونجم عن ذلك الكثير من المشكلات المعقدة والإتجاهات المتعارضة.

واذا كانت المذاهب قد اصطرعت على مسرح الفكر الإجتماعي والسياسي حول مسألة الأيديولوجيا وما تثيره من مشكلات وقضايا الا أننا سنحاول التيسير والتبسيط ، ولسوف لا نعقد المسألة بقدر ما نشرح ونعالج « طبيعة الأيديولوجيا » فحواها ومغزاها ، دون الإشارة الى ما دار حولها من الاختلافات المذهبية ، الا ما يلقي فقط ضوءاً أوفى وأدق ، على جوهر « المسألة الأيديولوجية » ، فتزداد لنا وضوحاً وتميزاً .

وتسهم دراسة الأيديولوجيا في ميدان « علم الاجتماع السياسي » مساهمة جادة وسنحاول منذ البداية التركيز على مختلف الاحتمالات الخاصة لكلمة « الأيديولوجيا » ، كي نكشف عن كيفية اختلاف كل استعمال منها عن الآخر ، بقصد ازالة الغموض الذي قد يحيط بالكلمة . ولا يفوتنا الاشارة الى مدى تأثير

= trans. by Paul Kecskemeti, London. 1952.

(1) Corbett, Patrick., Ideologies, Hutchinson. 1965 p. 23.

الفلسفة الالمانية فى بعث المصطلح ، حين شيد ، كانط Kant ، نظريته فى المعرفة تلك التى أنكرها وهدمها ثم أعاد بناءها العبقرى الكانطى النجيب ، فردريك هيجل Hegel ، . كما لا يفوتنا أيضاً مناقشة وجهة النظر السوسيولوجية حـــين يؤكد علماء الاجتماع على الشروط الضرورية للفكر ، على إعتبار أن كل فكرة هى بالضرورة ، مشروطة أو محددة إجتماعياً Socially Determined ، وبالاضافة إلى ذلك ينبغى التركيز على تلك الفرضية القائلة ، بان الايديولوجيا إنما تتألف من مجموع المعتقدات التى يكون لها دورها ووظائفها فى التأثير على السلوك وتبرير أشكال النزوع البشرى . وينبغى التركيز أيضا على التصورية الماركسية الخاصة بتحديد ، أيديولوجية الطبقة Class ideology ، وما يحتويها من ، تصورات ومشاعر وآمال ومخاوف ، تتردد فى حركة وفاعلية وخصوبة ، داخل إطار الوعى الطبقى . وينبغى فى النهاية ألا يفوتنا أن نقارن بين مختلف الاستعمالات السياسية للكلمة .

كيف صدرت كلمة الايديولوجيا ؟

ا ـــ إذا كان الفكر الالمانى يمتاز بالصورية والصرامة والتجريد ، فان الفكر الفرنسى يتصف بالخصوبة والحيوية والسخاء ، وبين ألمانيا وفرنسا حارت كلمة ، الايديولوجيا ، فجمعت بين الصورية والخصوبة . وفرنسا هى مهد الكلمة ، فصدرت ، الايديولوجيا ، كنتاج لفلسفة ، كوندياك Condillac ، تماما كما صدرت كلمة ، سوسيولوجيا Sociologie ، كنتاج لفلسفة كونت الوضعية .

وإذا كان القرن السابع عشر هو ، عصر العقل age of Reason ، ، فلقد مرت أوربا فى القرنين الثامن والتاسع عشر بعصر ، الايديولوجيات age of ideologies ، حين تدفقت النظريات المتشابعة لتدرس ، طبيعة الانسان ، وموقفه من ، المجتمع ، كما شهدت تلك القرون الاخيرة . ثورات سياسية عارمة

أطاحت بنظم إقتصادية،وتهدمت قلاع العصور الوسطى ، فتغير البناء الاوربى وحل المجتمع الصناعى بازدهار البورجوازية واندحار الاقطاع[1] .

وكانت الايديولوجية البورجوازية الناشئة هى أيديولوجية ثورية ووطنية ، تدعو إلى المساواة المطلقة . والاعتراف بحقوق الانسان ، كما كانت أيديولوجية العصر فى تلك الفترة هى ذلك الاطار الفكرى المنسق الذى يدور حول حياة الانسان ومجتمعه وحضارته .

ومن ناحية الاصل التاريخى واللغوى ، تعنى كلمة أيديولوجيا « علم دراسة الافكار » ، إلا أنها كانت تستخدم فى البداية للدلالة على كل فلسفة من الفلسفات « المضادة للميتافيزيقا » ، التى كانت تفسر صدور الافكار باشتقاقها عن « الاحساسات Sensations » .

و « كوندياك » هو أشهر فيلسوف فرنسى يعبر عن الاتجاه الحسى أصدق تعبير ، إذ أنه تربى فى أحضان الفكر الانجليزى التجريبى ، حيث أكدت المدرسة الانجليزية ذلك المبدأ التجريبى القديم القائل « لاشىء فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس Nihil est in intellectu quod non ante Fuerit in » Sensus »[2] .

لقد أصبح الايديولوجيون بهذا المعنى ، هم هؤلاء الفلاسفة الذين أكدوا « الاساس الحسى أو المادى للتصورات والافكار » ولكن عبارة idéologue لم تصدر على وجه الدقة عن « كوندياك » نفسه . بقدر ما طبقت وذاعت وشاعت

---

(1) Marx, Karl. The Poverty of Philosophy, Moscow, 1966.

(2) Durkheim, Emile, Les Formes Elémentaires de la vie Religeiuse, F. Alcan. Paris. 1912. p. 103.

عند اتباعه ، حيث صدرت وانتشرت من بعده .

تلك هى البدايات الأولى للكلمة وقد انحصرت فقط فى محيط الفلاسفة ، إلا أنه يحكى أن « نابليون Napoleon » ، قد أطلق على المعارضين لحكمه ، وعلى الفلاسفة « السلبيين » الذين ترددوا إزاء فتوحاته وغـــزواته ، ولم يشجعوا إتجاهاته العسكرية ، فوصفهم « بالأيديولوجيين » أى « اللاواقعيين » الذين يعيشون فى أبراج من عاج ، وقصور من الفراغ ، حيث الأوهام الكاذبة ، والتأملات الجوفاء .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن كلمة « أيديولوجيا » من الكلمات الفرنسية المصدر ، التى استقرت فى مهدها فرنسا بضع عشرات من السنين قبل أن تكتسب الجنسية الألمانية بهجرتها وانتقالها إلى كتابات « كانط Kant » و « هيجل » وفى ألمانيا طرأ على معناها الكثير من التغير ، بحيث استخدمت كى تشير إلى عدد متكامل متسق من الافكار والمعتقدات ، أو مجموع السمات والاتجاهات السائدة فى « جماعة أو طبقة » .

وفى الفلسفة الألمانية ، قد تطلق كلمة الأيديولوجيا على ما يسميه « مانهايم » أو « الادراك الكونى » الذى يتعلق بالنظـرة العـالمية weltanschauung world-View.(1) وهى نظرة كلية نستطيع بمقتضـاها وفى ضوئها أن نتعرف على « أنماط التفكير السائدة فى الواقع الاجتماعى ، وتلك هى النظرة الايديولوجية العامة ، وتميل الايديولوجيات المحافظة بورجوازية كانت أم اقطاعية ، الى الدفاع عن بقاء الظروف الاجتماعية والاوضاع الاقتصادية الراهنة ، ولذلك فقد تؤدى هذه الايديولوجيات الى تجميد الموقف أو الى تشويه الحقائق

---

(1) Mannheim Karl, Essays on Sociology of Knowledge Routledge & Kegan Paul, London, 1952. pp. 13-14.

عن عمد حتى تلائم مصالحها ، وهذا هو المعنى الذى استخدمه « كارل مانهايم » فى تعريفه للايديولوجيات على أنها تشويه أو « اخفاء متعمد » لحقيقة المواقف الاجتماعية .

وتنقسم الايديولوجيات الى قسمين : أيديولوجيا جزئية ، وأيديولوجيا كلية Total ideology . أما الاولى فتقتصر على الجوانب السيكولوجية البحتة حين ترتكز على تصورات أو مواقف تثير الشكوك من ناحية الخصوم أو أصحاب التصورية المضادة ، ويبدو أن أغلب الايديولوجيات فى صراع نظرا لما قد تحويه من تناقضات،وما قد يثور بين من الافكار من تعارض أو عناد أو تضاد، اذ تتصل جميعها بأجزاء محددة ومتعارضة من الواقع الفكرى ، ومن ثم تستخدم الكلمة للاشارة الى قطاع خاص من الفكر ، وليس للفكر كله أو الواقع التصورى برمته ، بمعنى أن الايديولوجيا تكون « جزئية » أو « ناقصة » حين تقتصر على مجموع الافكار والاتجاهات الخاصة بجزء من الواقع الاجتماعى الكلى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، حين يحدثنا الماركسيون عن « أيويدلوجية الطبقة Class-ideology » ، فهم يقصدون بالطبع التركيز على أجزاء محددة أو دوائر خاصة من واقع الفكر الجمعى ، حيث أن أيديولوجية الطبقة ، لا تستطيع أن تشمل كل الافكار التى تدور فى رؤوس كل أفراد المجتمع[1].

أما القسم الثانى من الايديولوجيات فيتصل بالجوانب الكلية التى تتسع فى مداها لتشمل « مجموع التصورات والتيارات السائدة فى أى عصر من عصور التاريخ » فاذا كان المفهوم الجزئى للايديولوجيا يستند الى أصول سيكولوجية ويعتمد على مصادر نفسية ، فان الايديولوجيا الكلية انما تقوم على أسس

(1) Merton, Robert, Sociology of Knowledge, artic. The Twentieh Century Sociology, New York. 1945, p. 374.

منطقية وعقلية ، استناداً إلى ما يميز اتجاهات التفكير الكلى السائدة فى « روح العصر » أو « وعى الطبقة »(١).

ومع البدايات الأولية للنزعة النفعية Utilitarianism صدر المفهوم الجزئى للايديولوجيا ، حين إرتبطت تباشير الأيديولوجيات منذ البداية عند «ماكيافللى» و « ديفيد هيوم David Hume » واختلطت بالاتجاهات النفعية فى علم النفس الأمر الذى فرض عليها أن يطبقا « مبادىء السيكولوجيا النفعية أو الأنانية » فى ميادين السياسة والإقتصاد ، ومن هنا اتصلت الأيديولوجيا الجزئية إتصالا وثيقاً « بسيكولوجيا المنافع » .

المفهوم الماركسى للايديولوجيا :

ب — وإذا كان هذا المفهوم الجزئى للايديولوجيا قد صدر مع ظهور الرواد الأوائل للنزعة النفعية ، فان المفهوم الكلى للنظرة الأيديولوجية العامة قد واكب تقدم التكنولوجيا . وظهور الطبقة البورجوازية القوية ، الأمر الذى فرض على البروليتاريا ضرورة التسلح بأيديولوجية مضادة للظلم البورجوازى . وبذلك تطورت التصورية النفعية ذات الأساس السيكولوجى الفردى ، كى تظهر التصورية الجمعية ذات الأساس المادى أو الاقتصادى .

و « لأيديولوجيا الطبقات » مصادرها التاريخية ، وأصولها الاقتصادية والاجتماعية ، فهناك نظرة أيديولوجية مشتركة بين أفراد الطبقة ، حين تجمعهم مشاعر واحدة فى الوجدان الطبقى . ولقد أكد ماركس على وجود صراعات طبقية فى باطن الماضى التاريخى ، وكلما توغلنا فى هذا الماضى ، واتجهنا بحركة

---

(1) Mannheim, Karl, Ideology and Utopia, Fourth Edition, Trans. by Louis Wirth and Edward Shils, London 1948. P. 49-50.

تقدم إلى الوراء لوجدناسائر الصراعات القديمة وقد نشبت بين أمراء الاقطاع وعبيد الأرض ، وصدرت بين « فرسان روما وعامة الشعب » ، كما وظهرت أيضاً بين التجار ورؤساء الحرف **artisans** .

ويؤكد التاريخ الاجتماعى لطبقات فرنسا على قيام « علاقات أو صلات أيديولوجية » قد نشأت بين طبقة « رؤساء الحرف » وتلاميذهم وصبيانهم . وكانت هذه الصلات ملؤها الاحترام إلى حد الرهبة والقداسة . ولقد اطلق ماركس على هذه الرابطة اسم «الغشاء الايديولوجى **vetement idéologique**» كرابطة روحية مبعثها الخضوع والطاعة من ناحية التلاميذ الصبية أو الذين يتلقون أسرار الحرفة على أيدى الرؤساء .

ولقد تغيرت هذه النظرة الروحية ، حين تطورت البورجوازية وظهرت الصناعة الكبيرة بدخول أعداد هائلة من العمال كبوادر أولى للصراع الأيديولوجى بين مصالح البورجوازية القوية والبروليتاريا الصاعدة[1] . ولذلك حاول الماركسيون أن يؤكدوا أن هذا « الغشاء الايديولوجى » الذى تمزق قد كانت له أصوله الطبقية ، فراحوا يفسرون « الصراع الطبقى » ، وصدور « الوعى » أو « الفكر البروليتارى » بالرجوع الى أصوله المادية الكامنة فى « علاقات الانتاج» .

وحجة الماركسيين فى ذلك ، أنه فى كل المجتمعات يستخدم البورجوازى والبروليتارى نفس التصورات ونفس اللغة ؛ وهذا هو نمط التفكير السائد فى كل العصور ، حتى فى أشد المجتمعات أخذاً بالاتجاه الرأسمالى . ولذلك وجدنا للبورجوازية سماتها الطبقية التى لا تتحقق الا فى اطار فلسفة أو أيديولوجية عامة لهذه الطبقة .

---

(١) دكتور محمد ثابت الفندى « الطبقات الاجتماعية » . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٩ .

وحين نسمع ماركسيا يحدثنا عن طبيعة « الايديولوجيا البورجوازية Bourgeois ideology » ، فاننا نعرف فوراً مايقصد من الفكر أو من يعنيه من الناس ، وما هو مدار تفكيرهم ومستواه . وقد يسلك البورجوازى « الفرد » مسلكا يتمايز كلية من مسلكه كعضو فى « طبقة » ، ولكنه يمارس نشاطاً إقتصادياً أو جمعياً معيناً .

حيث أن البورجوازى الفرد ، هو فى الواقع انسان أو « فرد عادى » لا يختلف إطلاقا عن الإنسان البروليتارى الفرد ، وخاصة حين يتجرد كل منهما عن تصوراته الطبقية ؛ ويتخلى عن إطار الايديولوجية ، فيصبح كائناً إنسانياً عادياً متحرراً من « قيود الطبقة » أو تصوراتها الجمعية .

ورغم هذا التشابه الواضح فى « فردانية » و « انسانية » كل من البورجوازى والبروليتارى ، بالنظر إلى كل منهما « كأب » أو « كزوج » أو كمواطن » إلا أنهما يتمايزان من جهة أخرى ، من حيث أن البورجوازى إنما يتخذ موقفاً خاصاً فى عملية الانتاج Process of Production . الأمـــر الذى يخلق أيديولوجية تتمايز عن أيديولوجيا البروليتاريا «Proletarian ideology» . تلك التى تصدر فى ضوء ذلك التباين الواضح الذى يمكن تمييزه وتحديده بسهولة ،حين نميز بين العامل « المنتج » أو الإنسان الكادح من جهة ؛ وبين ؛ « صاحب العمل» أو البورجوازى الذى يملك مشروع الانتاج وأدواته ، من جهة أخرى .

بمعنى أن « النشاط الانتاجى » هو العنصر الجوهرى الذى يميز أيديولوجية البورجوازى عن فكر البروليتاريا ووعيها ، ولاشك أن المناشط الانتاجية « Productive activities » ، هى مناشط جمعية Collective ، بالاضافة إلى أنها « عامة Common » .

فالنشاط الانتاجى عند البورجوازى ، هو نشاط إجتماعى ؛ ولا يخص فرداً

بالذات . ومن ثم كانت الأفكار والتصورات الصادرة عن أى نشاط انتاجى جمعى ، هى بالضرورة أفكار وتصورات جماعية .حيث تتولد عن مناشط الانتاج الجمعى مجموعات من الأفكار التى تصدر عن طبيعة النشاط نفسه، ثم تنتقل هذه الأفكار ، عن طريق « العدوى Contagion » بين أفراد الكتلة البشرية المنتجة ، كى تشيع فى بنية الوعى الطبقى وتصبح عامة » .

ولا يمكن أن نحدد طبيعة أى نشاط جمعى ، إلا فى إطار الأفكار الصادرة عن « الكتلة البشرية » صاحبة هذا النشاط . وكما أن الطيور على أشكالها تقع ؛ يتجمع الناس ويتوافد بنى البشر ، حول اشتراكهم فى أعمال خاصة والتفافهم حول أفكار معينة (١) . فالفكرة وليدة الاحتكاك الإنسانى ومن خلق المناشط الجمعية . والفيصل الجوهرى ، بين كل من البروليتارى ، والبورجوازى إنما يتمثل فى موقف كل منهما فى عملية النشاط الانتاجى ، ولاشك أن « نوع النشاط هو الذى يحدد وحده ، دخل كل منهما ويفرض طبقته ومستواه الاقتصادى .

وهذا هو المفهوم المادى للايديولوجيا الذى وضعه كل من « ماركس » و « إنجلز Engels » بالنظر الى مستوى دخل الفرد ، والطبقة الاقتصادية التى ينتمى إليها ، ودوره فى « هرم النشاط الانتاجى » ، بالنظر اليها جميعا على أنها مصادر أساسية تحدد اتجاهات الفكر وتنظم مساراته .

ولقد كشف ماركس وانجلز عن مضمون كلمة أيديولوجيا ، من زاوية تحديد الصلة الجوهرية التى تربط « مناشط الانسان » بمعتقداته واتجاهاته وتؤكد على أفكاره وتصوراته العامة . ولاشك أن هذه النظرة ليست ماركسية خالصة ، فلقد استمدها ماركس فى الواقع من قراءاته المتأنية الجادة لفلسفة أستاذه « هيجل

(1) Corbett, Patrick., Ideologies, Hutchinson. 1965.

Hegel ، تلك القراءات التى تنظر إليها على أنها من المصادر الأصلية الفلسفة الماركسية ، فقد اخترع هيجل معظم المبادىء والأنظار الماركسية ، فهو مخترع الجدل والصراع والتناقض ، إلا أن هيجل لم يخترع ولم يبتكر عبارة « الايديولوجيا » ولم يستخدمها ، ومع ذلك نستطيع فى تأكيد على ، أن نقول إنه كان مبشراً لها ، كما كان نذيراً ، بما تحويه من تناقضات وصراعات .

ومن الاستعمالات الشائعة للايديولوجيا ، هى أنها ذلك الاطار الفكرى المنسق الذى يدور حول حياة الانسان ومجتمعه وثقافته ، كما أنها تطلق لتعنى الاشارة إلى مجموع المعتقدات والنظريات التى تحدد لنا مضامين الفكر البورجوازى وتستند إلى التركيز على أنماط وأساليب السلوك السائدة فى حياة الطبقة البورجوازية ، وهذا هو السبب الذى من أجله يشار إلى « البورجوازيين النظريين » على أنهم من « الايديولوجيين Ideologists » على إعتبار أنهم من مؤيدى « الايديولوجية البورجوازية » ودعاتها .

الايديولوجيا ووطأة التصنيع فى المجتمعات البدائية :

حـ ــ إلا أن كلمة أيديولوجيا هى مخلوق ماركسى ، صدرت وانبثقت عن الفكر الأوربى المنشغل بالصناعة والتقدم التكنولوجى ، فعبر عن وعى مختلف « فئات » الانتاج الاقتصادى واتجاهات طبقاته ، ولذلك يندر أن يستخدم مثل هذا الاصطلاح للتعبير عن اتجاهات ومعتقدات « الشعوب البدائية Primitive People » ، ونادراً ما يستخدم علماء « الانثروبولوجيا الاجتماعية Social anthropology كلمة الايديولوجيا ؛ إلا فى حالة واحدة فقط ؛ وهى دراسة « وطأة التصنيع على المجتمعات البدائية » التى تنتشر فيها «المناجم وصناعة التعدين» فى المناطق الغنية بالمواد الخام .

وفى هذا الصدد ـــ حاول « دانزجر Danziger » دراسة « الايديولوجيا

واليوتوبيا ، فى مجتمعات جنوب افريقيا ، وذلك بالتركيز على دراسة « التغير الاجتماعى » الذى ينجم عن « محنة التصنيع » و « وطأة التكنولوجيا على أنساق بدائية متخلفة ، وكيف يواجه البدائى البسيط ، تكنولوجيا معقدة ومتقدمة عليه بقرون طوال ؛ ومدى تأثيرها على أنماط الثقافة الاستاتيكية والتنظيمات البدائية المتجانسة ، وعلى درجة انحلال أو تفكك البناء الاجتماعى ، مع إلقاء الضوء على العنصر الانسانى إزاء المواقف الاجتماعية الجديدة ، التى هى من خلق « المجال السيكولوجى الجمعى » ولعل « دانزجر » فى هذه الدراسة إنما يشايع إتجاه أستاذه « كارل مانهايم Mannheim »[1] .

وفى حالة دراسة الأيديولوجيا ووطأة التصنيع والتكنولوجيا فى المجتمعات البدائية ، يشير علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى « نسق المعتقدات Belief-System » على أنه التعبير الملائم لمضمون « الايديولوجيا » عند البدائيين . إذ أن التمييز بين المعتقدات الظاهرة والمضمرة ، إنما لا يصدق فقط على المجتمعات البدائية ، فلا يوجد فى هذه المجتمعات الاولية من ينشغل بالكتابة ، أو صنع النظريات ، وصياغة الافكار ، ونشر الايديولوجيات ، ولكن هناك فقط من يعبر عن مجموع المعتقدات فى « نمط سلوكى خاص » أو أسلوب معين من أساليب الحياة ، ولذلك يمكن اعتبار الايديولوجيات فى أوسع معانيها ، هى دراسة « أساليب الفكر الشائعه » ، بما فيها من معتقدات الشعوب البدائيه ، وأنساق القيم السائدة فى سائر أبنيتها التى يدرسها علماء الاجتماع والنفس والانثروبولوجيا الاجتماعيه .

---

(1) Danziger, K., Ideology and Utapia in South Africa, The British Journal of Sociology, March. 1963. p. 64.

الفصل السابع

... اتجاهات الرأى العام

* تمهيد
* قياس شدة الرأى
* سيكولوجية الاشاعات **Rumours**
* طبيعه العلاقات العامه
* العلاقات العامه والاعلام
* صور العلاقات العامة
* استراتيجيه العلاقات العامه

تمهيد :

ترتبط الايديولوجيا بالرأى العام إرتباطاً عضوياً وثيقاً ، فالرأى العام هو الفكر الشائع والنمط العقلى السائد ، الذى يحدد نوع الافكار والميول والاتجاهات، بل ويكشف تفضيلات الناس الاجتماعية والسياسية .

*** شدة الرأى العام :**

إن الأمر الأساسى والهام،فى دراسة «قياس الرأى العام» هو ضرورة اختيار عينة ، ومثالنا على ذلك هو أن « مجلة المختار Readers Digest» قد أشارت إلى إحدى مؤسسات قياس الرأى العام فى أمريكا ؛ تلك التى حاولت أن تتنبأ بنتيجة الانتخابات الأمريكية للرئاسة ، فأرسلت إختباراً إلى عشرة ملايين من الأشخاص وانتهت نتائجها إلى خطأ نهائى مقداره ١٩ ٪ وهذا الخطأ يسهل تفسيره ، إذا أخذنا فى اعتبارنا هذه الحقيقة ، وهى أن هؤلاء الأشخاص قد تم اختيارهم من الدليل السنوى للتليفون ، مما يجعل العينة محصورة فى طبقة خاصة بالأشخاص الذين لديهم تليفون . ولا شك أن مشكلة اختيار العينة فيما يتعلق بالرأى العام هى مشكلة انتخاب وتحديد كى للنسبة التى يمكن بمقتضاها التنبؤ بنتائج الانتخابات وقياس درجة النجاح أو الاخفاق(١) .

وحتى تكون « العينة ممثلة وذات قيمة علمية » ، يجب أن يتوفر فيها شرطان، هما تمثيل المجموع وكفاية الحجم . وبذلك تصبح ممثلة لكل هؤلاء السكان ؛ فالدقة تتوقف على حجم « العينة الممثلة » الجغرافى والمهنى ، كما ينبغى أن تشمل سكان الحضر والريف ، وأن يتوافر فيها عنصر السن حين يوزع « إلى ما فوق ٤٠ سنة أو ما تحت ٤٠ سنة » وإما على ثلاثة أقسام « أصغر من ٢٠ سنة ؛ ومن ٢٠ إلى ٤٠ سنة،وفوق ٤٠ سنة » ، ويستند حجم العينة إلى بعض الخصائص التى

---

(١) قامت جامعة كورنل Cornel University عام ١٩٤٧ ببحث اتجاهات الرأى العام الامريكى ، بصدد موقف الحكومة الامريكية إزاء منظمة اليونسكو ، وتدرجت الاسئلة فى هذا البحث من العام General الى الخاص Special على شكل قمع Funnel ، وذلك حتى يتحقق الهدف الموضوعى من دراسة اتجاهات الرأى العام.

تؤدى إلى النتائج الاحصائية السليمة ، و « يتناسب حجم العينة تقريباً مع الجذر التربيعي لمجموع السكان » . كما يجب أن يتوقف حجم العينة على مدى القابلية للتغيير فى العامل المدروس . فاذا قيس مثلا « طول الطفل » من سن عشرة إلى سن أربعة عشرة ؛ فليس من الضرورى الحصول على عينة كبيرة العدد فى حين أنه لو أردنا « قياس الطول لجميع السكان » لوجب أخذ عينة ضخمة ، كما ينبغى أن يستند حجم العينة بالاضافة إلى ذلك عدد المتغيرات التى يعمل حسابها فى التوزيع الطبقى ، فهناك « معامل ارتباط » فى الواقع بين التوزيع الطبقى وحجم العينة ؛ أما إذا ما كان لدينا «جماعة سكانيه شديدة التجانس »فيكفى أخذ عينة محدودة ، وعلى العكس من ذلك ، فان الجماعه السكانيه المتغايرة فى الفروق بين أفرادها ، من حيث الدخل والمستوى الاقتصادى ، أو الانتساب لطبقه مهنيه أو دينيه أو بالانتماء لفئه من فئات السن أو الجنس.. فلسوف يضطرنا هذا التغاير إلى أخذ عينه أكبر حتى يكون لدينا عدد كاف من الأشخاص لتمثيل كل طائفة .

قياس درجة الشدة فى الرأى العام :

يمكن اتباع بعض الطرق لقياس درجه الشدة فى الرأى العام ، وعلى سبيل المثال ذلك الاختبار الذى تم إجراؤه لمعرفه « اتجاهات الرأى العام الامريكى » فى امكان التدخل intervention « أو عدم إمكان التدخل فى الحرب » ، فكان السؤال هو : هل من الأفضل أن نبقى بمعزل عن الحرب ؟ أم أن نساعد انجلترا مساعدة فعالة حتى ولو تعرضنا للدخول فى الحرب ؟ هذا هو السؤال الرئيسى فى الاختبار ، أما فيما يتعلق بتحديد درجة شدة الرأى ؛ فيطلب من المختبر أن يشفع إجابته باحدى العبارات الآتيه ، كما هو الحال فيما يلى :

١ — إنى لست مقتنعاً بالمرة فى هذا الموضوع .

٢ — انى افترض أن هذا هو خير ما نفعل.

٣ — انى مقتنع تماماً بأن هذا هو ما يجب عمله .

وهناك طريقة أخرى غير تلك ، لقياس درجة شدة الرأى ، حين يطلب من المختبر أن يحدد درجة شدة رأيه على ترمومتر مدرج ، يبدأ من درجة صفر وينتهى إلى درجة مئة . حيث تمثل درجة الصفر أقصى درجة فى « شدة الرأى المعارض » بينما تمثل درجة مئة أقصى درجة فى « شدة الرأى المؤيد » .

ومن هنا يجب أن يقدم للمختبرين صورة ترمومتر حتى تسهل عملية الرسم وحتى لا يشعر المختبر بأية صعوبة فى استخدام التدريج(١) .

الاشاعة Rumour والرأى العام :

هناك خصائص عامة تتسم بها الاشاعة حيث تنتشر الاشاعات دائماً فى ظروف الأزمات ومواقف الاضطرابات ، وقد تدور الاشاعة أيضاً حول حدث هام أو مثير ، وغالباً ما تنتشر الأكاذيب الضخمة بصورة أغزر وأكثر من انتشار الحقائق الصادقة . ومن هنا كانت للاشاعة جوانبها السيكولوجية التى يدرسها علماء النفس الاجتماعى .

ويعبر عالم النفس الاجتماعى « البورت Allport » عن سيكولوجية الاشاعة فى لغة رياضية بالمعادلة الآتية :

ش = د (ه × غ) Rumour = Fc (Imp × ambi)

الاشاعة = دالة (الأهمية × الغموض) importance × ambiguity

Rate, R = function (importance × ambiguity)

ويصر « البورت » بصدد تلك المعادلة ، على النظر إلى هذه العلاقة على أنها هندسية وليست عددية ، لأنه إذا لم يكن للواقعة « أهمية اجتماعية » فان غموضها

---

(1): Cicourel,. Aaron, V., Method and Measuremenf in Sociology, Free Press of Glencoe, London. 1964.

لن يكفى وحده لإحداث أشاعات ، وغالباً ما تعبر الاشاعات عن « معرفة ناقصه بالموقف » ، ولقد وعت « إدارة الأنباء الامريكيه ». تلك الخاصيه فى زمن الحرب وحاولت أن تمنع من تولد الاشاعات عن طريق « إعلام الجمهور اعلاماً تاماً وبقدر الإمكان » .

ولكن الاعلام الدقيق ، لا يزيل الاشاعات ، ومثالنا على ذلك ما لوحظ من تكاثر الاشاعات وانتشارها وترددها بعد نشر أنباء الخسائر فى « بيرل هاربور» حيث دمر اليابانيون معظم قطع الأسطول الامريكى، فالاشاعه لاتشبع فحسب «الحاجه إلى الاستطلاع المعرفى»، ولكنها تتولد أيضاً من الاتجاه الوجدانى للناس حين ينتقل إليهم الخبر أو الحدث فيكون لهذا الحدث الجسيم أثراً عميقاً فى نفوس الناس ، وتكثر حول هذا الحدث سائر الأقاويل المتضاربة ، والاتجاهات المتعارضه إما إلى المبالغه وإما إلى الانكار .

وللاشاعات أسبابها الوجدانيه والسيكولوجيه فى انتشارها وتداولها فقلما تتميز الاشاعه مثلا بالعقل والاتزان والحياد وانما تتميز دائما بالغرابة والاثارة وهذا هو السبب السيكولوجى الذى من أجله تنتشر الاشاعه كما تنتشر « عدوى المرض » Contagion ، وفى أوقات الحروب يقع الناس فى أزمات ويجدون أنفسهم فى مواقف حرجه ويشعرون بحالة من القلق ويسعون إلى طريقة نفسية لتخفيف حدة القلق، ومن هنا تنطلق «الاشاعات».

---

(1) Allport, F. H., Social Psychology., 1924.
——————— Institutional behavior. 1933.

وأنظر أيضاً ، فى هذا الصدد :

Krech., D. and Crutchfield., Theory and Problems of Social Psychology, 1948.

الدعاية والرأى العام :

للدعاية Propaganda أثرها الكبير فى توجيه الرأى العام ، وهناك وسائل تتعلق بابراز عنصر الدعاية وتأكيده عن طريق جذب الانتباه ، وأهم هذه الوسائل والأساليب ، هى التكرار ، مع التبسيط والارضاء والمكافأة gratification(١)

ففيما يتعلق بعنصر جذب الانتباه ، ينبغى فى الدعاية التركيز على الصورة الواضحة والمثيرة . كما ينبغى بعد ذلك تكرار الصورة والإعلان بكل الوسائل الممكنة والسهلة المؤكدة ، كاعلانات الحائط والاذاعة .

فالتكرار Repetition هو الذى يلزم الناس ، وعلى الرغم منهم ، أن يفكروا دائما فى موضوع الإعلان ، فمثلا فى الإعلان عن « عصير التفاح » من الأفضل كثيراً إستخدام أى إعلان للحائط يمثل امرأة رائعة الجمال ، أو رجلا مبتهجا وقويا يشرب كأسا من عصير التفاح بدلا من الاعلان الساذج ، الذى يمثل صورة لثمرة من ثمار التفاح ، حتى ولو تكن هذه الثمرة رائعة وفائقة الجمال والإحمرار والنضج .

وبالاضافة إلى عنصرى جذب الانتباه ، والتكرار ، يجب تبسيط العرض جهد الاستطاعة ، لتمكين الناس من الحفظ فى « سرعة وسهولة » ثم ينبغى أيضا الاستعانة بعنصر الارضاء gratification فكل دعاية يجب أن تعدنا بأشياء سارة حيث أن رؤية هذه الأشياء السارة هى خير — سبيل إلى تصديق الدعاية ، ومثالنا على ذلك ، تلك الاعلانات التى توضع على سيارات الأوتوبيس ومركبات الترام حيث نجد أن هذه اللوحات الإعلانية انما تتعلق كلها بالوازم والأدوات المنزلية « كالصابون المخصص للغسيل » على اعتبار أن الاشخاص الذين ينتظرون

(1) Beugo, Eugene, How to manage for to-morrow. U.S.A. 1975

الأوتوبيس فى مختلف المحطات سوف يمعنون النظر فى تلك الاعلانات وهـــذه طريقة ناجحة من طرق الدعاية لمختلف السلع والمنتجات .

وهناك بعض الدراسات العملية التى صدرت فى ميدان الدعاية وخاصة الدعاية السياسية الألمانية النازية Nazy Propaganda بالذات فى أثنـاء الحرب العالمية الثانية ، فهناك مثلا دراسة عن «معسكر ألمانى لاسرى الحرب الفرنسيين» ، وكان المعسكر الذى نصبت عليه الدراسة ، وهو معسكر يضم الصولات من الاسرى الفرنسيين فى عام ١٩٤٢ . ونحن نعلم أن الصولات إنما يقعون فى ترتيب الوظائف بين الضباط وصف الضباط ، وبسبب عدم تحديد الكادر بالنسبة اليهم لم يقبـل الالمان وضعهم فى معسكرات الضبـاط ، ولم يكن ممكناً مع ذلك وضعهم فى معسكرات الجنود ، حيث أن الصولات انما يتصرفون كما لو كانوا ضباطا ؛ فسببوا بعض الاضطرابات فى المعسكر ، واحدثوا ازعاجا هائلا للسلطات الالمانية(١) ، وكانت العقلية السائدة هى عقلية الشباب الذكى من تغلب عليهم « الثقافة » ومن ينظمون معارضة دائمة ويجعلون من « الاوامر الاوتوقراطية المشددة » من قبيل « الاوامر الديكتاتورية الجوفاء » . فأوفدت « السلطات الالمانية » جنرالا فرنسيا من الموالين للالمان ، فأخذ على عاتقه اصلاح هذا المعسكر بتحسين النظام وتغيير المعاملة وتوجيه الدعاية الناجحة بادخال الاصلاحات المادية ، وتغيير الجو الإجتماعى ، السائد فهدأت « ظروف الاسرى النفسية » حين حل رؤساء فرنسيون للمعسكر بدلا من الرؤساء الالمان .

وكان هذا النظام هو بمثابة محاولة لانشاء نظام للحكم الذاتى ، واستخدم الالمان أسلوب الدعاية والاشاعة ، فاشاعوا بين صولات المعسكر أن الجنرال

---

(1) Merton, Robert , Social Theory and Social Structure', Amertind 1968.

الفرنسي هو مبموث، المارشال بيتان، ، وخلق هذا الإجراء أول الأمر موجة من الدهشه ، واسكن « السلطات الألمانية » أقنعت الأسرى الفرنسيين بكل لباقة بأنه مادام يحكم فرنسا « رجل عسكرى ،لا رجل سياسى ، فان على كل هؤلاء الصولات أن يدينوا بالطاعة لقائدهم العسكرى . كما نظمت محاضرات ثقافية عامة يلقيها أشخاص مثقفون من الألمان والفرنسيين على السواء . وجملة القول أن هناك تبشيراً عقائدياً إنتظم فيه قبل كل شيء ، وروعى عامل التكرار ، فكل شيء يصبح حقيقياً حين يتكرر على يدى أشخاص مختلفين بينما تربطهم قضية واحدة(1) على اعتبار أن الاكذوبة قد تصبح صادقة مع دوام تكرارها ؛ ومن أشخاص مختلفين . ومن خصائص من إحترف الكذب ، أو « الكاذب المحترف » ، هو أن هو أن يظل يكذب ، ويكذب ، حتى يصدقه الناس .

وهناك بعض الخصائص العامة التى تؤدى إلى الدعاية الناجحة تلك التى نستخلصها فيما يلى :

١ ـــ ضرورة الاعتماد على « الحاجات والظروف الوجدانية » عند هؤلاء الذين تستهدف الدعاية اقناعهم ، وتنبغى خلق هذه الحاجات إذا لزم الامر .

٢ ـــ إن المواقف « الغامضة وغير المحددة » إنما تعتبر تربة خصبة للدعاية .

٣ ـــ ضرورة مجاراة « المعتقدات والتقاليد القائمة » من قبل ، كما ينبغى الاستعانة بالأنماط الجامدة السابقة .

٤ ـــ ضرورة تعديل modification الادراك الخاص بالموضوع أكثر من مهاجمة الموضوع فى ذاته .

٥ ـــ ضرورة الاستعانة بالمثيرات التى تجتذب الادراك ، كما ينبغى الاستفادة

---

(1) Duverger, Maurice., Introduction to the Social Science, trans. by Malcolm Anderson, 1964.

من «الدعاية المضادة Counter-Propaganda »وذلك التنبؤ مقدماً بالاعتراضات، والاخذ بالحيطة والحذر ، تفادياً لحدوث المقاومة Resistance . وتستخدم معظم طرق الدعاية في ميدان السياسة ، تماما كما تصلح « أساليب الاعلان والتسويق » في ميدان التجارة والمال .

استراتيجية العلاقات العامة :

من المعروف أن إدارة العلاقات العامة ، إنما تتوظف لوضع الخطط والاهداف والبرامج الخاصة بالمشروع الاقتصادى أو الصناعى — كما تضع الخطة وتحدد استراتيجية المؤسسة ، استناداً إلى فهم حاجة الجماعات وسيكولوجية الجماهير ، ودراسة الاتجاهات الاجتماعية والتفضيلات النفسية والخلقية السائدة بين مختلف الثقافات Cultures والشعوب.

وقد تقوم الجهود الايجابية فى إدارة العلاقات العامة بتحقيق مقاصد مثالية واقتصادية ، حين تقصد إستراتيجية العلاقات العامة « تنمية ثقافة الشعوب » ؛ ورفع مستواها ذوقياً وجمالياً ، باستخدام أفضل الوسائل الممكنة للاقناع ، وتقديم أحسن الفرص السهلة والعملية الممكنة والمتاحة للحياة ، إعتماداً على الاداء الناجح والنافع ، والاعلام الصادق والمفيد ، والابتعاد عن الدعاية الكاذبة ، والشعارات الزائفة .

والعلاقات العامة ،هى وسيلة كل إدارة أو مؤسسة ناجحة ، لنشر كل مايتعلق بالمؤسسة من مناشط activities إنتاجية ، وسلمية ، وتسويقية ، وأقسام فنية ، وورش مهنية ، وبرامج ترفيهية ورياضية ،تخدم أهدافاً مخططة ، يكشف عنها جهاز العلاقات العامة بصورة واضحة ومبسطة وواقعية Real حتى يكون لها صداها فى إتجاهات الرأى العام بين جماهير الانتاج « داخل المؤسسة »،وجماهير الاستهلاك « خارج المؤسسة » .

ولعل أهم الاهداف التى تحققها برامج العلاقات العامة فى المؤسسة ، هو هدف استراتيجى سيكولوجى ، يتعلق بتهيئة الرأى العام واعداده لتقبل مايوجه إليه

من « توجيهات » أو « أخبار » أو « معلومات » كما تنقل التعليمات والأوامر والضوابط والنواهى ، بحيث تقوم استراتيجية العلاقات العـــامة على « الضبط والربط » ، باستخـــدام وسائل الأعــلام information والإتصال communication ، طبقا لاستراتيجية منظمة ومخططة ، تتصل ببرامج العلاقات العامة ، وترشيد وظائفها الاقتصادية ، حتى لا يضيع على المؤسسة الكثير من الجهد والمال ، ويتوفر الوقت الاقتصادى ، ولا يذهب كل هذا سدى .

وإنما تتوحد الجهود وتتضافر ، عن طريق نقل المعلومات الصحيحة ، وباستخدام الاقناع الواضح الرشيد ، كوسيلتين ضروريتين من وسائل التكيف الناجح ، بفضل تقديم وسائل الاقناع وتقدم فن الاعلان ، مع تهيئة الرأى العام للمشاركة فى حل المشكلات الراهنة ، كل ذلك باستخدام أفضل أعلام ممكن ، توصل إليه الخبراء فى ميدان « اقتصاديات الاتصال والعلاقات العامة » .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لقد ثبت أن « السكرتيرات » أو « الزوجات الموظفات » ، يستخدمن جوارب سريعة التمزق ، فحاول خبراء العلاقات العامة فى إحدى مؤسسات القطن ، أن يؤكدوا أفضلية « الجوارب القطن » نظراً لمتانة القطن الطبيعية ، التى تمتاز تماما ، وتتفوق على نوعية « الجوارب النايلون » فيعلن خبراء العلاقات العامة لمؤسسة القطن ، عن طرح أو بيع كميات من « جوارب القطن » التى تغرق السوق لأنها أشد احتمالا من « النايلون » .

وينبغى ألا يفوت « خبراء العلاقات العامة » أن يتوافر فى الاعلان إستغلال العناصر والدوافع السيكولوجية ، التى تتوافر فى النساء ، عن طريق إثارة المرأة وجذب انتباهها ، فمن الخطأ مثلا ، ألا يأخذ الاعلان فى إعتباره « زهو النساء » وغرورهن العتيد ، ومن الامثلة التى استخدمها خبراء العلاقات العامة لشركات ومؤسسات القطن ، انتخاب سنوى لاجمل فتاة مصرية ، يطلق عليها لقب « ملكة

جمال القطن ، وتمنح تذكرة سفر حول العالم ، وهى ترتدى الأقمشة القطنية الفاخرة فتكون أفضل سفير ، وأفضل عرض ، يقدمان أفضل إعلان ممكن ، لتسويق المنتجات القطنية .

طبيعة العلاقات العامة :

حول « منطق الاقناع » و « هندسة الموافقة » تدور مشكلات ومسائل العلاقات العامة ، فالإقناع كفن ، والموافقة كهدف ، كلاهما يعبر عن ملامح جوهرية للخصائص الكلية لدور العلاقات العامة ، فى كل مؤسسة اقتصادية ، أو تنظيم صناعى .

وللعلاقات العامة ، طبيعة وظيفية Functional nature فلاشك أن الوظيفة الجوهرية ، أو الدور الأساسى الذى يلعبه قسم العلاقات العامة فى المؤسسات الصناعية هو التكيف النفسى والاجتماعى ، ومدى استقطاب جماهير العمال ، داخل المؤسسة و « جماهير المستهلكين » خارج المؤسسة .

ولقد شعرت المؤسسات الصناعية والاقتصادية بأهمية الاتصال بالجماهير ، لرواج المنتجات وتوفير الخدمات ، ولذلك تقوم برامج العلاقات العامة الناجحة Effective Public Relations بتقوية الروابط بين المؤسسة والمجتمع ، مع إيجاد نمط معين من الاتصال ، يساعد كل جماعة على تنمية العلاقات بينها وبين سائر الجماعات الأخرى . بحيث تهتم العلاقات العامة أساساً بالكشف عن الاتجاهات والاحتياجات والميول والاهتمامات ، مع الاستفادة من موارد البيئة ، ومن ذوى الخبرة ، وبذل الجهود باستخدام التكنولوجيا الحديثة من أجل إثارة اهتمامات الرأى العام ، بالشرح والصورة المعبرة ، وتجارب المعمل ، وبرامج الدعاية الصادقة Propaganda ، خوفاً من بلبلة الافكار ، واستخدام أساليب الهجوم المضاد ، بالحوار والمناقشة ، وتحويل الانتقادات من أدوات هدم إلى

وسائل بناء(١) .

ونقوم أقسام العلاقات العامة فى سائر المؤسسات والشركات ، على إيجاد نوع من التكامل والمشاركة Participation والتكيف والاتصال الاجتماعى ، بين مختلف القطاعات الموزعة ، وبين سائر أقسام وورش المصانع ، ومهمة العلاقات العامة ، هى الربط بين مختلف الأجزاء والتنسيق بينها ، ومحاولة تيسير الإتصال بين كل أطراف المصنع ، وأنشطة الانتاج فيه .

ويقوم « خبراء العلاقات العامة » بوضع البرامج الخاصة بعلاج ما ينشأ عن ظواهر التجديد innovation ، تلك التى تتسم بالحركة المستمرة مع التغيير والتعديل والتبديل ، حتى يواكب الانسان الصناعى تقدم التكنولوجيا السريع ، وحتى يستطيع أن يواجه تيارات التصنيع ونتائجه ، وما ترتب عليها من تغييرات فى ظروف الاسرة وملامح القرية ، وما أصابها من عوامل الانحلال والتفكك ، الأمر الذى يؤدى إلى الزيادة المستمرة فى التنمية والتحديث Modernization فتتغير الانماط الحضرية ، وتتطور الانماط القروية ، وتظهر « الايكولوجيا الحضرية urban ecology » عن طريق التنمية الدائمة للبيئة ecodevelopment وتطوير الاشكال الاجتماعية ، وتصنيف الاحجام ، وصور العلاقات ، عن طريق ما يسميه « إميل دوركايم Durkheim » و « موريس هالفاكس Halbwachs » « بالمورفولوجيا الاجتماعية La morphologie Sociale »(٢) .

ومع التطور التكنولوجى السريع ، وتعقد ظواهر التصنيع والميكنة

---

(١) العلاقات العامة الناجحة ، ترجمة مصطفى حسن على ، اشراف الدكتور عماد الدين اسماعيل ، سلسلة العلاقات الانسانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .

(1) Durkheim, Emile, Division du Travail, Félix Alcan Paris 1926.

Autcmation وتنهى عصر التكامل العائلى والتماسك القرابى Kinship والعصبية العشائرية ، والتناغم القبلى . ولقد انتهت وظيفة الأسرة الممتدة extended family ، التى كانت تضم الأب والأم ، والجد والجدة وتحررت الادارة التقليدية Traditional من التماسك القرابى ، فهناك ظروف جديدة ، تحررت معهـــا الأنماط التقليدية للادارة ، بالاضافة إلى أن نمو المشروعات الاقتصادية قد ساعد على وجود مشكلات التسويق والاعلان التنافسى بين مختلف المؤسسات الصناعية والإقتصادية ذات الانتاج الواحد . فتعلن كل مؤسسة عن قيمة وأهمية منتجاتها بالكشف عما يميزها عن سائر السلع commodities والمنتجات Products الأخرى ، مما أدى إلى الاهتمام الفورى والضرورى بوسائل الانصال والاعـلام information وهى الركيزة الأساسية التى تستند إليها كل وظائف العلاقات العامة .

وبالاضافة إلى عنصر المنافسة بين أصحاب المؤسسات الرأسمالية ، وماصاحبه من تقدم فى وسائل الاتصال الجماعى ، وبالاضافة إلى هـــذا العنصر التنافسى الدعائى ، وفى مجال الصنـاعة بالذات ، صدرت الطلائع الأولية لمختلف فئـات وطبقات العمال فى المجتمع الرأسمالى مما كان له نتائجه فى وجود نوع من الصراع الفئوى بين جماهير العمال ، فكانت المهمة الجوهرية للعلاقات العامة ، هى أنسنة العلاقات وتخفيف حدة التوتر ، لازالة التعارض والتناقض والكراهية ، مما زاد من أهمية برامج العلاقات العامة(1) .

ومعنى ذلك أن مهمة العلاقات العامة ، هى مهمة « دعائية » ، إلى جانب أنها تقوم بتوثيق الصلات بين فئات الانتاج وفئات الادارة ، وتخفيف الحساسيات وتقليل المسافات ، وبخاصة بعد الأزمة الاقتصادية العالمية المشهورة التى إجتاحت

---

(1) Ellenson, Ann., Human Relations, Printice-Hall 1973.

أوربا منذ أواخر عام ١٩٢٩ ؛ حيث انتشرت البطالة ، وانخفضت أجور العمال وقلت الموارد ، وتكدست المنتجات ، فكان الكساد العالمى ، الذى لفت الأنظار نحو توظيف العلاقات العامة ، والاستعانة بالخبراء ، من أجل تيسير الصلات وترشيد العلاقات ، وإشراك العمال فى الأرباح واصدار القرارات وبرمجة الأمن الصناعى والعلاقات الانسانية ، وتخفيف حدة البطالة ، وعودة العمال إلى مصانعهم .

فكان علم العلاقات العامة ، هو العلاج لحل الأزمة ، وإزالة الصراع الفئوى والطبقى بين فئات العمال بعضهم بعضاً ، وبين طبقة العمال وطبقة الادارة وإعادة الثقة إلى الجميع ، وإبعاد شبح الثورة ، فكان علم العلاقات العامة ، كما يقال هو « ابن المصلحة القومية » ، فقامت أقسام العلاقات العامة فى سائر الشركات والمؤسسات .

ولكن هل تقتصر برامج العلاقات العامة ، على المجتمعات الرأسمالية ، وحدها؟ وألا يوجد ما يشابه هذه البرامج من العلاقات العامة فى سائر الدول الاشتراكية ؟

فى الرد على هذه المسألة يقول الدكتور ميلر Miller [1] وهو أستاذ العلاقات العامة فى جامعة هارفارد الذى يعبر رأيه عن وجهة نظر الكثير من العلماء الأمريكان حين يرى أن العلاقات العامة إنما وجدت لتحمى المؤسسة الرأسمالية وتؤكد الصلات الحسنة بين سائر المؤسسات الاقتصادية وجمهور العمال ؛ وبين المؤسسة الاقتصادية وموظفيها ، وبين المؤسسة وفئات المجتمع فى الخارج ؛ فالعلاقات العامة إذن فى الزعم الأمريكى مقصورة فقط على النظام الرأسمالى ولا توجد إلا لخدمة أغراض المؤسسات الحرة ، فى القطاع الخاص ، أو فى الاقتصاد الذى ينحو نحو الفردية Individualism والرأسمالية ، ولكننا

---

(1) Hill, Michael., The Sociology of Public Administration Michael Hill, 1972.

لا نأخذ بهذا الزعم الغريب ، حيث أن « العلاقات العامة » دراسة انسانية Humanitarian وجدت لخلق الجو الانسانى ، وتأكيد « العلاقات الانسانية » ، أى للقيام بعملية أنسنة للعلاقات وعلى أساس روحى متين ، يوطد الصلة بين المؤسسة وعمالها وجمهورها ويخفف من حدة التوتر بين العامل والآلة ، وبالتالى يكون للعلاقات العامة ، جذورها القائمة فى علوم النفس والاجتماع والادارة ، وأصولها الصادرة عن الانسانيات Humanities .

وإذا كانت هذه هى وظيفة العلاقات العامة، فاننا يمكن أن نتصور وجود مثل هذه العلاقات العامة ، تحت ظل « الاقتصاد الحر » القائم فى الدول الرأسمالية ، كما نتصور وجودها أيضاً تحت ظل الاقتصاد الموجه economie dirigé وهو نمط الاقتصاد القائم فى كل دول « الكتلة الاشتراكية » ، والدول الشيوعية، حيث نجد نفس الاتجاه وتطبق نفس الأساليب ، وبذلك تستخدم « مكاتب العلاقات العامة » فى وظائف متعددة منها ما هو سيكولوجى ، ومنها ما هو ثقافى ، حيث تهتم مكاتب العلاقات العامة ، فى الدول الاشتراكية بالعنصر الانسانى فى عملية الانتاج . أما فلسفة التخطيط فى النظام البورجوازى أو الرأسمالى فلا يعنيها سوى الاهتمام بكمية الانتاج وترشيده .

وظيفة العلاقات العامة :

تشير « العلاقات العامة » إلى مفهومات متعددة ، فقد يقال مثلا : « إنها فن دعوة الناس لكى يتعاملوا معنا » ، ولذلك تقوم العلاقات العامة فى المؤسسة بخلق الوسائل التى يكون من شأنها « التقريب بين الناس » والتكيف معهم ، عن طريق التفاعل والتكامل .

وهذه هى الوظيفة الجوهرية للعلاقات العامة ، التى تتصل بعملية إرجاع عناصر الثقة والطمأنينة إلى سيكولوجية العامل « أو جمهور المستهلكين ، ومن ثم

يصعب فصل مجال العلاقات العامة Public Relations عن مجال الأعلام information والدعاية Propaganda ، وكل ما يتصل بالاذاعة والتلفزة ، والاعلان Advertisement ، فى الصحف والمجلات والنشرات الدورية . والفارق الجوهرى الذى يميز « العلاقات العامة » عن الاعلان أو الأعلام ، هو أن العلاقات العامة ، هى علاقات رسمية Formal وموضوعية objective وترعى الصالح العام ، أما الاعلام أو الاعلان أو حتى الدعاية ، فلا ترعى سوى « الصالح الخاص » .

وينبغى ترشيد الاعلام فى المؤسسات ، حين يصبح الاعلام مفيدا وصادقا ، وحين يستند إلى الحياد وعدم الانحياز فى عملية الاعلان ، التى قد تغالى فى إبراز أهمية أو قيمة العمل الذى تقوم به المؤسسة الاقتصادية ، مع ضرورة انعدام الغش والخداع الذى يلحق بالمؤسسات التجارية ، عن طريق استخدام الاعلام الكاذب ، مما يؤدى إلى فقدان الثقة .

فالعلاقات العامة هى فن أمين ونزيه ، ينقل المعلومات الصادقة عن المؤسسة بلا إضافة أو تمويه ، فلا يتاثر الناس ببرامج الدعاية الطنانة ، فلقد أحدثت الدعاية البورجوازية ما يسىء إليها ؛ وما يسىء إلى مكاتب العلاقات العامة ، حين تحولت إلى « أبواق » للاعلان ، من أجل العائد المجزى ؛ من جراء التسويق ورواج السلع ، وزيادة الدخل ؛ فاستغل البورجوازيون هذه المكاتب استغلالا أنانياً وجشعاً ، وبالتالى أساء الرأسماليون إلى « فن العلاقات العامة » حيث أن وظيفة العلاقات العامة لا تتعلق بنشر الاعلان الكاذب أو غير الحقيقى ، بل تؤكد الصورة الصادقة ، وتعلن الوضع الحقيقى ، وتنشر على الناس ما وراء «الميزانية» من مشروعات ؛ وما حققته المؤسسة الاقتصادية من تقدم فنى أو تكنولوجى ، يهم «الصالح العام» .

وتتوافر فى العاملين وموظفى مكاتب العلاقات العامة ، بعض الخصائص السيكولوجية والثقافية ، ومنها سعة الأفق والثقافة والمرونة ، وسرعة البديهة والذكاء ، وينبغى أن يكون « خبير العلاقات العامة » مخلصاً لوظيفته ، جاداً فى أداء مهمته ، ذكياً فى صلاته وعلاقاته بالناس .

ويذهب « تافرنيير Tavernier » وهو أحد المؤسسين الأوائل للهيئة الفرنسية للعلاقات العامة ، إلى أنه ليس من الصدفة أن تنشأ العلاقات العامة أولا فى الدول « الانجلوسكسونية » لأن هذه الدول قد كان يسودها المذهب « البروتستانتى المسيحى » بينما سادت « الكاثوليكية » الدول اللاتينية ، والفارق الجوهرى بين « البروتستانتية » و « الكاثوليكية » هو أن المذهب الثانى ، كان يحتقر الثروة ، ولا يهتم بالمال ، ويحدثبريراً دينياً للفقر والغنى ، فلم يكن « رأس المال » محل إعجاب الكاثوليك ، بل كانت الثروة فى الدول ملاتنية هى محل حسد

---

(١) يعتقد فرنرزمبارت Zambart ، على العكس من « ماكس فبر » أن اليهود هم المصدر الحقيقى للرأسمالية الحديثة ، وأشار فى ذلك الى نجاح يهود هولندا وفرانكفورت والبندقية ، فى نجاح الحركة التجارية والمالية وتطورها الى الانتعاش والرواج الاقتصادى ، كما كان طرد اليهود من بعض دول أوربا سببا فى الكساد والسكون فى عالم التجارة والمال . ولكن « فبر » يرى على العكس من ذلك ، أن اليهود لم يسببوا نمواً اقتصادياً أو رأسمالياً ، بسبب ما أسماه بالاخلاق المزدوجة ، حين حار اليهودوترددوا بين«أخلاقهم الخاصة»وبين ألوان الاضطهاد والتشريد والكراهية، التى كانوا يلاقونها أثناء حياتهم غير المستقرة ، حين ثارت ضدهم « أخلاقيات البلدان الاوربية » .

ولقد وافق « ستانسلاف أندارسكى » أستاذ علم الاجتماع فى جامعة ردنج فى انجلترا على موقف « ماكس فبر » ، واتفق معه، على أن اليهود لم يلعبوا دوراً أساسياً فى بعث «روح الرأسمالية الحديثة » .

وكتب « ماكس فبر » فى هذا الصدد ، بعض الدراسات السوسيولوجية ، التى تدور رحاها حول أصول « الفكر الدينى البروتستانتى » وبعد عقد المقارنات المستفيضة ، بين البروتستانتية والكاثوليكية ، وديانات الهند والصين ، ودول شرق آسيا ، حاول « فبر » أن يرد على الزعم الماركسى ، حين رفضه وأنكره ، وأكد على أن الدين هو « العنصر الثورى التغيرى » وليس الاقتصاد ، كما أثبت « فبر » أن وظيفة النسق الدينى ، هى وظيفة تغيرية ، تؤثر على تحويل الأنظمة الاقتصادية ، وتطوير الفكر المادى فقلب بذلك « الفلسفة الماركسية » رأساً على عقب ، ورفض « ماكس فبر » المادية الجدلية والتاريخية ، بمعنى أنه رفض جدل التاريخ ، كما رفض أيضاً جدل الطبيعة Dialectic of Nature، على حد تعبير « انجلز Engels » .

« المنافسة » ومكاتب العلاقات العامة :

وإذا ما عدنا إلى دور مكاتب العلاقات العامة ، لوجدنا أنها تتدخل أيضاً فى خدمة« جمهور المستهلكين،حين تحاول أن تقدم السلعة Commodity بأقل سعر ، مع ترشيد تكلفة الانتاج إلى أفضل ترشيد ممكن بتخفيض التكاليف الاجمالية ، والحصول على أفضل كمية وكيفية بصدد الانتاج ومستوى الانتاجية ، مع تخفيف حدة المنافسة Competition التى قد تبلغ أحياناً إلى درجة الصراع Conflict الذى قد يؤدى إلى المنافسة القاتلة Cut throat Competition . عن طريق إغراق Watering السوق بسلع رخيصة ، مؤكدة الخسارة عند البيع ، حتى تطرد من السوق ، مؤسسة أخرى تنتج نفس السلعة ، فتنسحب من ميدان المنافسة بعد أن تتكبد الخسائر الفادحة . وتتجه « مكاتب العلاقات العامة » اليابانية نحو المنافسة الشديدة بين سائر المؤسسات ، طبقاً للمبدأ القائل « السلع الرخيصة تطرد السلع الغالية » .

وفى ألمانيا يقوم نظام « الكارتل Cartel » حين تتفق مكاتب العلاقات العامة على « توحيد سعر البيع » ، أو التوزيع الجغرافى للسوق وتقسيمه فيما بينها ، وقد تتفق أيضاً على « كم الانتاج » المقترح إنتاجه لغزو السوق ، وبذلك تقل حدة « المنافسة » بالاتفاق على شروط الانتاج والتسويق ، والاتفاق على سعر السلعة وتقسيم السوق طبقاً للاتفاق ، على توزيع المنطقة جغرافياً لترويج السلعة .

وظهر فى أمريكا نظام « الثقة trust » بعقد الاتفاق بين المؤسسات والشركات الاقتصادية والصناعية التى تعمل فى « ميدان انتاجى واحد » والتى تشترك فى « عائلة سلمية » محددة ، لإحتكار السلعة والتحكم فى سعرها فى السوق ؛ وهنا تستولى المؤسسات الكبرى ، على أصوات مجالس الإدارة فى المؤسسات الصغرى ، وتحقق المؤسسة الكبيرة مصلحتها على حساب المؤسسة الصغيرة ، وتسيرها كلية لمنفعتها ، واحتكار المؤسسة الكبرى لكل الأصناف ، وذلك بالسيطرة على كل إنتاج المؤسسات الصغرى ؛ وتسييره كلية لمصلحة المؤسسة الكبرى ، مع احتكار « الصنف » أو استغلال سلعة من السلع ، ورفع سعرها فى السوق[1] .

ولقد ظهرت الآن الاتجاهات الجديدة فى مكاتب العلاقات العامة ، والتى تتمشى مع الرأسمالية الحديثة Neo-capitalism ، كما تأخذ بمذاهب الاقتصاد الموجه guided economy . ويدار هذا النوع من الاقتصاد ، لا لمصلحة الرأسمالية الخاصة ، بل للمصلحة الوطنية والقومية ، ولقد تخلت الرأسمالية الحديثه عن نفعية « المذهب الليبرالى » وجشعه ، فى سبيل المصلحة العامة ، الأمر الذى يخفف ويقلل من حدة الصراع والمنافسة ، كما ويحمى العمال مما يهددهم ؛ من ظروف البطالة والعجز والشيخوخة .

(١) الدكتور حسن شحاته سعفان ، دراسات فى علم الاجتماع الاقتصادى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، المطبعة العالمية ١٩٧٠ .

العلاقات العامة والاعلان :

هناك الكثير من الوسائل التى تستخدمها « العلاقات العامة » كالنشر والدعاية فلاشك أن عمليه النشر ، هى عملية اعلامية يقصد بها إظهار الحقيقة بمظهر جذاب، حيث تعمل « إدارة العلاقات العامة » على توثيق الصلة بالجماهير ، وعملاء المؤسسة واصدار مجلة أو جريدة ، توزعها مجاناً ، بشرط ألا تهتم هذه المجلة بمجرد اصدار « اعلانات النشر » ، وإنما تقتصر مهمتها فقط على شرح المنتجات Products ، ونوع السلع ، وكيفية استخدامها ، مع الإشارة إلى خصائص هذه السلع وميزاتها بمعنى أن العلاقات العامة ، إنما تعطى « اعلاناً صادقاً » ، « ووافياً لا زيف فيه » بينما تحاول « إدارة النشر » أن تقدم الاعلان فى شكل مثير ومبالغ فيه .

وهناك ميزات أخرى تميز « إدارة العلاقات العامة » عن الدعاية Propaganda حيث تقوم الدعاية على « الضغط الفوقى » ، أو « فرض تغيير الرأى » بطرق أو وسائل متعسفة ، تستطيع أن تؤثر على التصورات العامة وتوجه الرأى العام ، ولا يمكن أن تستخدم العلاقات العامة مثل تلك الأساليب التى تستخدمها الدعاية، على نحو تعسفى وضاغط ، وانما تستخدم العلاقات العامة الأسلوب الذكى الهادىء والمقنع والرشيد ، وبذلك تحقق مكاتب العلاقات العامة أهدافها ؛ بطريقة لاعنف فيها او قسر .

ولقد استخدمت « النازية » و « الفاشية » أساليب « الدعاية السياسية » التى اشتهر بها ، « هتلر » و « موسولينى » و « جوبلز » حين لا تترك الدعاية السياسية فى النظم الأوتوقراطية المستبدة ، للفرد حرية الاختيار وإنما تضع أمامه الحقائق فى صورة مغلوطة ، أو حماسية تجعله مجبراً على الوقوف معها ، بينما تقوم مكاتب العلاقات العامة ، بشرح المبادىء وتقديمها للمواطنين ، وهم أحرار بعد ذلك فى اختيار ما يرون ، أو الاتجاه مع ما يتصورون أنه الصحيح .

صور العلاقات العامة :

تنقسم « العلاقات العامة » ، إلى نوعين ، أما النوع الأول فهو العلاقات العامة الداخلية internnl Public Relation والنوع الثانى هو العلاقات العامة الخارجية external .

وتنقسم « العلاقات العامة الداخلية » فى المؤسسات الرأسمالية إلى ثلاث أقسام : يتعلق القسم الأول منها بسائر المساهمين فى نطاق الشركات المساهمة ، ويتصل القسم الثانى بتلك العلاقات التى تربط المؤسسة بالمتعهدين ، أما القسم الثالث فيصل بين المؤسسة وسائر الموظفين والعمال ، بمعنى أن العلاقات العامة الداخلية ، إنما تتعلق بالمساهم والمتعهد والمستخدم ، ومن ناحية الموظفين والعمال ، نجد أن المسألة تختلف ؛ حيث أنها علاقة ذات وضع خاص ، فهناك للاسف علاقات عامة ، مع كبار الموظفين ، وعلاقات عامة مع صغارهم ، وعلى أى حال ، هناك نوع من الاتصال Communication بين المؤسسة وموظفيها وعمالها .

كما يجب أن تكون العلاقة بين كبار الموظفين وصغارهم ديمقراطية ؛ وأن تظهر هذه العلاقة بشكل إنسانى لا استعلاء فيه ؛ وينبغى أيضاً أن نفتح الأبواب لكل طارق حتى يتمكن المرؤوسون من الاتصال بكبار رؤسائهم فى جو من الألفة والطمأنينة ، ويمكن إيجاد هذا الجو الديمقراطى فى المؤسسة بوسائل مختلفة منها اصدار « جريدة للمصنع » أو مجلة للشركة حيث تؤدى هذه الجرائد والمجلات وظيفة جوهرية وهى ربط الصلات بين الموظفين والعمال من جهة ، وبين صغار المستخدمين وكبارهم من جهة أخرى ، مما يؤدى إلى نتائج موفقة . كما ينبغى أن تدرس المشروعات التى تقوم بها المؤسسة وأن تكون هذه المشروعات ذات قيادة واعية وادارة حازمه ، ووفق خطة هادفة وعامه تؤدى إلى نتائج مفيدة داخل المؤسسة نفسها ، وهناك أمثلة متعددة تستخدمها الشركات الحديثه من أجل زيادة

التعاون بين الإدارة والعمال ، ومنها تقديم « مكافآت مالية » لتشجيع العامل المنتج في مناسبات عامة ورفع المستوى الفني بواسطة إلقاء المحاضرات وإعداد البحوث ، والدراسات التطبيقية ، والقيام بعقد الندوات الجماعية والعامة(١) .

وللمجلات والصحف المهنية التي تصدرها المؤسسة ، تأثيرها البالغ في تحسين الاتصال بين الموظفين والمؤسسة وبين المؤسسة والجمهور ، ففي « مصنع رينـــو Renault » للسيارات في فرنسا لا يوجد عامل لا يعرف « مدير المصنع » أو لا يطلع أو يعرف كل كبيرة وصغيرة عن المؤسسة ، حيث أن الأمر الهام في دور العلاقات العامة الداخلية هو « ايجاد جو من الثقة والعمل المثمر الجاد ، واحلال « العلاقات الإنسانية محل الحقد والكراهية » .

وكثيراً ما تلجأ بعض المؤسسات الرأسمالية والاشتراكية ، إلى تقريب الفوارق بين فئات العمال والموظفين ، عن طريق البرامج الرشيدة التي تقوم بها « إدارة العلاقات العامة » مثل « إقامة المآدب » الموسمية ، والحفلات الترفيهية ، مما يزيد من درجة انتماء العمال للمؤسسة ، وقد تثار المشكلات في حوار ديمقراطي خلاق ، وتناقش في جو من الألفة على موائد الطعام ، تماماً كما يقوم « السلك الدبلوماسي » بحل أعوص المشاكل السياسية باقامة المآدب ، فتناقش المشكلات في جو دبلوماسي وهذا هو ما تعارفت عليه كل الأنظمة في كل الدول ، وهو ما يسمى بالعرف الدبلوماسي ، وهو أمر أخذت به آداب الاتيكيت في « السلوك السياسي » .

العلاقات العامة الخارجية :

أشرنا إلى دور العلاقات العامة الداخلية ، وأقسامها ووظائفها وبرامجها ،

---

(١) العلاقات العامة الناجحة ، ترجمة مصطفى حسن علي ، اشراف الدكتور حامد الفقي اسماعيل ، سلسلة العلاقات الانسانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٠ .

وعرفنا أنها تتصل فقط بكل ما يدور داخل المؤسسة الاقتصادية . أما العلاقات العامة الخارجية ، فتتجه نحو خارج المؤسسة ، وتتصل بالجمهور ، وتختص بفهم ودراسة سوق الاستهلاك المحلى والعالمى .

ولا شك أن « المجلة المهنية » التى تصدرها المؤسسة ، إنما تهدف إلى إعلام أكبر حجم ممكن من قطاعات العمال ، والتوصل إلى كل قسم وإدارة حتى يطلع عليها كل « موظف » و« عامل » و « إدارى » .

فصحيفة المؤسسة هى أكبر وسيلة مستخدمة فى إدارة العلاقات العامة الخارجية كما ينبغى أن تسمح مكاتب العلاقات العامة ، بزيادة معرفة الجمهور للمؤسسة أو الشركة وقيام « أصحاب المؤسسة » برحلات خارجية واقامة « الحفلات العامة الخارجية » باتصالات مباشرة بالجمهور الخارجى ، عن طريق المسابقات ، وتقديم « الأفلام السينمائية والتلفزيونية » ، مع اصدار « بيانات دورية » لسائر الصحف والمجلات واعداد كتيبات ونشرات خصوصاً حول نشاط المؤسسة وميزانيتها العامة ، تلك التى تطمئن جمهور المساهمين الفعليين والاحتماليين . وتقوم برامج العلاقات العامة الخارجية بتشجيع الرياضة والفن باعتبارهما من أهم « أدوات » الاتصال الاجتماعى ، وفى هذا الصدد أقامت « العلاقات العامة الخارجية » مراكز الخدمة العامة ، والتدريب والتوجيه ، كما استخدمت العلاقات العامة الخارجية الأجهزة الخاصة بالأبحاث فى ميدان « الاتصال الاجتماعى » ، وإقامة التجارب التطبيقية ، والاستعانة بخبراء ومعاهد « قياس الرأى العام »(١) التى تسجل مؤشرات اتجاهاتها

---

(١) فى دراسة عن الاتجاهات السياسية فى فرنسا ، أجرى المعهد القومى الفرنسى دراسة عن « اتجاهات الرأى العام » فى فرنسا عام ١٩٥٠ . حيث حصر هذا البحث كل الاتجاهات السياسية يمينية كانت أم يسارية ، كما تقوم فى مختلف الدول بعض اللجان الرسمية التى تستعين

اتجـاهات الناس وميولهم ، مثل ما قام به المعهد القومى الفرنسى عن اتجاهات الرأى العام فى فرنسا عام ١٩٥٠ .

= بطريقة الاستخبار مثل « لجنة بحث اتجاهات الرأى العام الأمريكى » .

American Association for Public opinion Research

أنظر فى هذا الصدد :

Cicourel, Aaron V., Method and Measurement in Sociology, Free Press of Glencoe, London. 1964.

الفصل التاسع

ثقافة ذوى الياقات البيضاء

- ولكن كيف تكونت طبقة ذوى الياقات البيضاء ؟
- ثقافة الإدارة الصناعية
- أنماط من ذوى الياقات البيضاء
- ثقافات هامشية Marginal Cultures
- الأحزاب السياسية فى الدول النامية
- أدوار ومستويات ذوى الياقات البيضاء

تمهيد :

لقد نمت طبقة ذوى الياقات البيضاء ، حتى إنتشار وتعقد ظواهر التصنيع والتكنولوجيا . وهى طبقة بيروقراطية تسود وتتحكم ، ظهرت كافراز صناعى ، فسادت كطبقة اجتماعية قائمة بذاتها، وتحكمت كصفوة جديدة Neo-Elite ، تحكم باسم القانون، وتتسلط على « بناء القوة » Power Structure داخل كل تنظيم صناعى أو إقتصادى . ولقد صدرت ثقافة ذوى الياقات البيضاء، مما أفرز تموجة التكنولوجيا وأنتشار ثقافة التصنيع ، كثورة عالمية . كما نمت هذه الطبقة عن ذلك « التأثير البيروقراطى Bureaucratic Influence » الحاسم فى كل « بناء اجتماعى » أو فى كل « نسق صناعى » ، والحادث فى كل التنظيمات الاقتصادية السائدة فى مجتمعات بنى البشر (١) .

ولكن كيف تكونت طبقة ذوى الياقات البيضاء ؟ :

ولقد ساعد نمو البيروقراطية ، على زيادة حجم طبقة ذوى الياقات البيضاء ، وضاعف من سلطانها ومهابتها ، حيث تتركز فى أيديها بحكم القانون كل ألوان السلطة السائدة فى كل تنظيم إدارى . كما ويزداد نفوذ طبقة ذوى الياقات البيضاء، كلما إزدادت وتعقدت ميكانيزمات الضوابط البيروقراطية bureaucratic controls .

ولقد أحدثت ثقافة الياقات البيضاء، بين سائر وفئات وأدوار البناء التنظيمى للمصنع ، الكثير من « الفجوات الثقافية cultural gaps » ، وفى هذا الصدد ، يقول « هالفاكس Halbwachs » إن العامل الماهر ، قد ينفق على طعامه أكثر من « موظف بيروقراطى كبير » له نفس الدخل والأجر والوضع الاقتصادى . كما يرى « هومانز Homans » أن الدخل والوظيفة قد يكون لهما أثرهما فى تحديد الوضع الطبقى ، فالعامل الماهر ، هو الذى يعطى دائماً أكثر ، ويحصل دائماً على عائد أكبر، فيشعر بأنه أكبر أجراً وأعلى مكانة Rank ، فيحاول أن ينفق عن

(1) Mills, Wright., White Collar, New York, 1951.

أجره بضع دولارات، فيدفع فى أسلوبه الاستهلاكى قروشاً أكثر من غيره .حتى يشعر الآخرين بأنه أكثر ، أفضلية إذا ما قورن بغيره (١) .

وقد تتأثر شخصية العامل لما تراكم فوق رأسه وعلى حساب أعصابه .من سائر فئات الإدارة الوسطى middle management ،من مهندسين ومديرين ومشرفين وأسطوات ، وكلها طبقات إدارية ووظائف إشرافية، تراكمت فوق طبقة الياقات الزرقاء ، فيمرض العامل المسكين ، وتضطرب شخصيته ، وتهتز أناه ، الأمر الذى يستوجب ضرورة الالتفات إلى تأثير الياقات البيضاء ، وثقافتها الضاغطة الكابتة ، ومحاولة تخفيف حدة البيروقراطية. عن طريق ديمقوقراطية السلطة والحوار والسلوك .

فالديموقراطية سبيل ومنهج Mezhcd ،لأنها طريقة حياة Style of life ، أما أوتوقراطية النظام البيروقراطى، الذى تقوم به طبقة ذوى الياقات البيضاء ، كجهاز يفرض القرار دون سابق إنذار، فهى أوتوقراطية مستبدة ،وقاهرة ، على العكس من الديموقراطية ، كأسلوب أو كطريقة لاصدار ما يرضى عنه ، الكل ، consensus فهو قرار الكل، الذى يتصاعد بالمناقشة المتفتحة الواعية، فينطلق القرار الجماعى من قاعدة ذوى الياقات الزرقاء ، إلى قمة ذوى الياقات البيضاء (٢) .

وتنطلق العلاقة الديموقراطية داخل جدران المصنع،عن طريق احترام الإنسان والاعتراف بقيمته وفرديته ،بدلا من أن تتمسك طبقة الياقات البيضاء بما حولها من هالة السلطة وصولجان الادارة وهيلمان السلطان . فلنفتح فى مصانعنا النوافذ حتى

---

(1) Smelser, Neil., Sociology, An Introduction, Pakistan, India, 1967 P. 66-67.

(2) Selznick. P., Leadership in Administration, American Sociological Review.

تشيع العدالة ، ويسود المناخ الديموقراطى المريح،والجو الإنسانى المنتج والمفيد، حتى يحدث التقارب بين طبقة الإدارة المثقفة ، أو طبقة العمل والعمال من متوسطى التعليم ، ومن ذوى الخبرة الفنية . فيزول التعارض ويذوب الصراع بين سائر الفئات الحرفية والمهنية والفنية .

وفيما يتعلق ببنية الجماعات المهنية Occupational Groups نشر « كنيث براندى Kenneth Prandy »[1] مقاله المشهور عن « التكنولوجيين فى المجتمع الصناعى Technologists in industrial Society » وفيها يقول « كنيث براندى » إن المهندس الذى يعمل ويشرف وينتج فى جماعة الإنتاج الصغيرة ، هو شخصية مهنية مختارة للاشراف الفنى ، على جماعة أو جماعات مهنية ، وتتصل قرارات المهندس وترتبط بالخطة العامة للانتاج . وقد يحدث الصراع الصناعى بين « رؤساء الجماعات المهنية Gang Boss من جهة ، وبين المهندسين من جهة أخرى » ، وهو صراع أيديولوجى وثقافى ومهنى ، نظراً لوجود الفروق الفردية، والمهنية ، ولاختلاف درجة الخبرة بحيث تعمل التكنولوجيا بصفة مستمرة على خلق الصناعات الجديدة وتطويرها ، مما يزعج العمال غير المهرة أو يخل بتحقيق أهداف الخطة ، كما ويعوق حركة الإنتاج . ويقول « ميرتون Merton »[2] إن قرارات المهندسين ، إنما ينبغى ألا تمس النظام Routine كما ينبغى أن تكون إنسانية ترضى العامل ، ولا تثير قلقه أو اضطرابه أو خوفه ، وهنا يقتصر الدور الرئيسى للمهندسين على التوجيه الانسانى ، والمتابعة الديموقراطية ، ورفع الروح المعنوية بين عماله .

---

(1) Restivo, Sol, P., Christopher, K., Vanderpool., Comparative,. Studies in Science and Society, U.S.A. 1974 P. 165.

(2) Ibid : P. 167.

ثالثاً الادارة الصناعية :

لقد أشار « كارل مانهايم » فى كتاباته المتعددة إلى عدد من المسائل التى تدخل فى صلب « سوسيولوجيات » الثقافة culture و « المعرفة Knowledge » حلل فيها وعلى ، أثر سوسيولوجيات المعرفة فى أساليب الدعاية Propaganda والاتصال communication كما كشف عن أيديولوجية جديدة ، انبثقت مع ظهور « طبقة ذوى الياقات البيضاء (١) ».

ويقول « هربرت ماركيوز Herbert Marcuse » إن طبقة العمالة قد ذابت تحت وطأة التنظيمات الصناعية المعقدة ، فتفككت وتفتت وتسلسلت فى مراكز إشرافية ، وأدوار فنيه ، فانقسمت العمالة على ذاتها إلى طبقات متنافسة ، إصطرعت مصالحها فى حرم العمالة (٢) . ولقد كتب « روبرت ميرتون Robert Merton » عن « الآلة والعامل والمهندس the machine, the worker and the Engineer » ووظائف الاخصائين والمشرفين (٣) .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو التأكيد على تفاضل بنية المصنع ، وإنقسام البناء الصناعى كتنظيم as an organization إلى « أدوار Roles » ، أو فئات من العمالة ، كالفنيين من ذوى البلاطى السوداء Black coats ، وكالعمال من ذوى الياقات الزرقاء Blue collar ، وكبار الموظفين والمهندسين من ذوى الياقات البيضاء white collar بكل مالهم من وظائف رسمية داخل البناء التنظيمى للمصنع .

(1) Mannheim, Karl., Sociology of Knowledge, trans by Paul Kecskemeti, Routledge & Kegan Paul, London 1952.

(٢) ماكيوز ، « الإنسان ذو البعد الواحد » ماركيوز ، ترجمة [illegible] ، بيروت ١٩٧٣ .

(3) Merton, Robert, Social Theory and Social Structure Amerind 1968 P. 616.

ولقد أحاطت طبقة ذوى الياقات البيضاء نفسها بهالة من المهابة Prestige التى قد تشجع على نمو الشخصيات الطفيلية ،التى تدور فى فلك طغمة الإدارة العليا، وهذا هو « المرض البيروقراطى الخطير » الذى يصيب الآن « الإدارة الصناعية المعاصرة » . فقد يحرص الرئيس أو الإدارى من ذوى الياقات البيضاء ، على إبقاء « مسافة فاصلة » بينه وبين مرؤوسيه to Keep a distance ، وتمهد هذه الظاهرة السيكولوجية ، فتظهر لنا عن جوانب مرضية تكشف عن حقيقة ثقافية ذوى الياقات البيضاء ، وخطرها وأدوارها ، وأثرها فى هبوط الانتاجية لوجود حساسيات معينة فى «ثقافة المصنع» بين العمال ورؤساء العمل، مما يؤدى إلى وجود فجوات فى قنوات الاتصال . حين يدور حول كل «إدارى» بطانه أو «شلة» من العلاقات غير الرسمية informal التى قد تحجب عنه الرؤية الحقيقية للعمل (١) .

ولاشك أن لتعدد الإشراف الإدارى والفنى أثره على شخصية العامل، الأمر الذى يساعد على زيادة التسلط والكبرياء من جهة الإدارة ، بينما يشعر العمال بالمرارة والحقد فيكون الناتج هو الفشل ، وانفصال طبقة ذوى الياقات البيضاء « عن ذوى الياقات الزرقاء على الرغم من ضرورة التعاون بين المهندس والعامل ، حتى لا تتميع المسئوليات Responsibilities فيحدث التسيب والتنصل من المسئولية ، على حساب « التنظيم » و « الإنتاج » ،فتقل المهارات ويزداد التراخى والاهمال والكسل .

ولقد اهتمت برامج العلاقات الإنسانية Human Relation بحل هذه المشكلات الإدارية ، وتهذيب بيروقراطية ذوى الياقات البيضاء ، حتى يحدث التقارب بين سائر وجهات النظر ، لإعادة التنظيم Reorganization وإحداث التكامل، وسد الثغرات الثقافية cultural gaps بين ثقافة ذوى الياقات البيضاء

(1) Selznick, P., Leadership in Administration, American Sociological Review.

ومنطق العمالة واشاعة الجو الديموقراطى بين جماعات الإنتاج (١).

فلا شك أن أوتوقراطية ذوى الياقات البيضاء، قد تحيل الجماعات الصناعية الصغيرة إلى جماعات عددية aggregate groups وهذه بالطبع جماعات لا تنتج كما أنها جماعات «لا انسانية». أما الجو الديموقراطى، وانبثاق السبيل الإدارى الخلاق creative Method فيحيل كل جماعة عددية، إلى جماعة عضوية organic gronp وهى جماعة «إنسانية منتجة»، بل وهى أكثر انتاجاً وتفاعلا ونشاطاً من الجماعات اللا إنسانية العددية. فالأولى متماسكة ومتكاملة، والثانية مفككة ومنقسمة. ولذلك تعمل «فلسفة العلاقات الانسانية» على تغيير النظرة الثقافية لطبقة ذوى الياقات البيضاء، لتطوير العمل، وزيادة الألفة بين العامل والآلة، مع التجاوب والتعاطف دون قهر أو إجبار (٢).

ولقد أشارت «مارى فوليت» Follet فى كتابها عن «التنظيم الصناعى» Industrial organization إلى ضرورة رفع معنويات العمال، وتنمية شخصية العامل، وتقوية الجسور والقنوات وتوثيق العلاقات بين الياقات البيضاء والزرقاء، وهذه حقيقة أولية من حقائق علم الإدارة والتنظيم، ومن ثم يتحرر الفكر الإدارى من عادات فكرية عتيقة، وتقل حدة السلطة وتسمح ثقافة ذوى الياقات البيضاء، باضفاء جو من الألفة والتعاون، فيصبح العامل أكثر حرية فى تفكيره ومناقشاته، كما يصبح الإدارى أكثر ديموقراطية فى سلوكه وفى علاقاته بالعمال (٣).

---

(1) Hill, Michael, the Sociology of public administration, 1972

(2) Friedman, . c., Industrial Society, the Emergence of Human-relation of automation, Glencoe, 1964.

(3) Follet, M., P Freedom and co-ordiration Management Publication, Truste, London. 1949.

أنماط من ذوى الياقات البيضاء :

لقد ظهرت أنماط متمايزة من ذوى الياقات البيضاء (1)، وصدرت كلها عن «تكنولوجيا العصر»، وارتدت هذه الأنماط «رداء بورجوازياً» تارة، واشتراكياً تارة أخرى حتى ظهرت فى هذه الأيام «أيديولوجيات اليسار الجديد» كى تخلق لنا طبقة جديدة لها سماتها الثقافية، وتصوراتها الاقتصادية، وتطلعاتها الاجتماعية، تلك هى طبقة الماركسية الجديدة Neo-marxism وهى تمثل جناح الفكر اليسارى المتفتح الذى خرج على «اليسار الماركسى» فى ثقافته الكلاسيكى، وتطرفه المعهود، كما خرجت هذه الطبقة، ثقافياً وعقائدياً، على اليمين البورجوازى الخالص وحاولت طبقة «اليسار الجديد» بطريقة جدلية تذكرنا بكتابات هيجل Hegel فاستطاعت أن تولف جبهة أو قضية ثالثة، تخفف من حدة الحوار القائم بين قضايا علم الاجتماع الماركسى من جهة، والنزعة النفعية utilitarianism البورجوازية من جهة أخرى. فغالباً ما يدور ويشتد الحوار وتحتدم المناقشات الحامية، فى مختلف ميادين الفن والأدب والسياسة والاقتصاد، فتكونت «جبهة ثالثة» تحمل أيديولوجيات فنية وأدبية، وترتدى «أردية ثقافية» وسياسية بعينها، تبلورت كلها وتوحدت تصوراتها، وتماثلت تطلعاتها فى وحدة فكرية وفنية، تركزت فى صورة أيديولوجية بعينها، واتفقت نظراتها فى تصورات تقدمية متفتحة ومتجانسة، فاتحدت كلها ثقافياً واقتصادياً وعقائدياً فى وحدة فكرية، تحققت فى «طبقة اليسار الجديد»، تلك التى سادت الآن فى معظم دول آسيا وأوربا وفى سائر المجتمعات الصناعية، والثقافات المتقدمة، وفى معظم الاقتصاديات الرأسمالية، سواء التقليدية منها أو المتخلفة، والمتطلعة منها أو النامية.

---

(1) Mills, Wright., White Collar, New York 1951.

صفوة القوة Power elite :

مع ثورة التكنولوجيا والادارة والتخطيط، ظهرت فى هذه الأيام ، طبقة تكنولوجية معاصرة وهى طبقة متطلعة سياسياً ، تتألف من كبار المديرين ورؤساء مجالس الإدارات ، كما ويدخل فى « طبقة تكنولوجيا العصر » طبقة الصفوة التكنوقراطية Technocratic Elite ، وطبقة الصفوة البيروقراطية bureaucratic elite من كبار رجال الإدارة ، وذوى الخبرة والمهارة التطبيقية ، من العلماء والمخترعين والمستشارين فى عالم الاقتصاد والتشريع، وخبراء الصناعة والاعلام والاعلان (١)،

ولقد عانت « صفوة القوة » المتمثلة فى الطبقة التكنوقراطية المعاصرة ، كثيراً من آلام الحرب العالمية الثانية، وتمزقت أجيالنا وعانت كافة الأمرين وويلات هذه الحرب الأيديولوجية المدمرة، التى قامت وانتهت خلال فترات الطفولة المبكرة، تلك التى إنسحقت تحت ضغط الصراع الدولى بين معسكرين سياسيين ، ومازالت هذه الطبقة تعانى من سياسة « الصراع والتقارب » بين أيديولوجيـــة اليمين وأيديولوجية اليسار .

ولقد تخلت « طبقة اليسار الجديد (٢)» عن ثوريتها الماركسية المعهودة ، لأنها كطبقة تقدمية ، تأخذ بالتطور ، إلا أنها فى نفس الوقت ، وقد أخذت بالأمر الواقع ، ورضيت هذه الطبقة بالوضع الراهن ، وعلى نحو حيادى وإيجابى ،

---

(١) لقد أطلق « رايت ميلز Wright-Mills اصطلاح صفوة القـــوة Power Elite فى كتاب له أصدره ، فى نفس هذا المعنى وشرح « رايت ميلز » فى هـــذا الـــكتاب« بناء القوة » ودور « الطبقات » ووطأة الثقافات ؛ وخاصة طبقة أو ثقافة ذوى الياقات البيضاء ، أنظر فى هذا الصدد :

Mills, Wright., The Power Elite, New York, Oxford university press: 1956.

(٢) لقد أكد على وجود مثل هذه الطبقه كل من « بول باران Paul Baran » و « مانهايم Mannheim » و « شارل بتلهايم Bettelheim » .

واختارت لنفسها الموضوعية التامة . وعلى نحو حيادى وإيجابى ، فلا تتجه إلى اليمين أو إلى اليسار . وهذا هو « الحياد » بمعناه الايجابى ، لا « السلبى » .

ثقافات هامشية :

وإذا ما أردنا أن نطلق بصدد « الصفوة التكنوقراطية technocratic elite» بعض الأحكام السوسيولوجية ، فاننا ينبغى أن نناقش موقفها من قضايا العصر فى « التنمية » و« التكنولوجيا » ، مناقشة موضوعية وواعية ، وأقصد بالموضوعية هنا ، تلك الأحكام المتمثلة بقيم الصدق والحق والعدل ، ويمكن أن يطلق عليها كلها اسما واحداً ، هو « الأحكام ذات النزاهة » ، فلا تنحرف إلى يمين أو يسار .

ولا أقصد بالنزاهة هنا معناها الاقتصادى الساذج أو المألوف ، فى لغتنا العامية ، فالعامل النزيه هو ما يطابق فى تعبيرنا المصرى الدارج نموذج « الشخصية النزيهة » التى تنفق دخلها المحدود عن سعة ، لكى تؤكد نفسها ، وتهتم بمظاهر الوجاهة ، إلى الدرجة التى معها قد تتشبث بعض الفئات الهامشية بكل ما هو جديد فى عالم الموضة وتتمسك بمظاهر النعمة والأبهة ، حتى تترقى طبقياً وتتسلل إلى طبقات أعلى ، وهناك ما يسمى بالانسان الهامشى Marginal ، أو « النزهى » . وهو المعروف فى لغتنا الدارجة ، بأنه الانسان الذى هبطت عليه فجأة ثروة ضخمة ، فورث الأموال الطائلة عن أبيه « الكنزى » وجده « البخيل » ، فماذا يفعل هذا « النزهى » أو ذلك الانسان الهامشى الدخيل ، سوى التبذير بعد تقتير ، والسعة بعد ضيق ، حيث يعيش ويحيا فى شىء من الفتور والكسل و« اللامبالاة » ، « فينفق ما فى الجيب كى يأتيه ما فى الغيب » ، ولذلك قيل فى الأمثال المصرية البلدية : « مال الكنزى للنزهى » ، وهو الانسان التافه غير الطموح ؛ الذى يتمايز تماماً عن « الرجل المكافح » أو « الشاب المثابر » .

فالأول « أنانى » ضيق الأفق ، ويمتاز بالجشع والضحالة والخواء ؛ أما الثانى فهو « الانسان الناجح » الذى يتناول فى لذة ثمرات خبراته وطموحه ؛

ويعيش في رفاهية ، وتلك ميزة طبقية ، وسمة ثقافيـــة ، بين غالبية الخبراء و « المستشارين » في مجال التكنولوجيا والتصنيع ، وكذلك بين معظم « كبار المديرين » ورؤساء مجالس الإدارات من ذوى الياقات البيضاء ، حيث يؤلف هؤلاء ، طبقة بعينها ، ذات أبعاد واحدة من زاوية الفكر والثقافة ونمط الحياة mode de la vie على حد تعبير « موريس هالفاكس Halbwachs » ، وتلك هي نفسها ، طبقة الصفوة التكنولوجية ، التي يكون لها في كل مجتمع ، مثلها وتطلعاتها ، وتستند إلى دورها ووظيفتها ، سواء في توجيه دفة السياسة الداخلية أو الخارجية للدولة ، إستناداً إلى مراكزها القوية في التنظيمات الصناعية والمؤسسات الثقافية والأجهزة البيروقراطية التي تسيطر وتتحكم في سائر أجهزة الحكومة والدولة .

ولاشك أن أجهزة التخطيط في كل دولة نامية ، إنما يقوم بها فقهاء التشريع والقانون ، وخبراء الاقتصاد والصناعة ، ورجال الفكر والثقافة ، ويمثل كل من هؤلاء وأولئك الفئة الأساسية التي تخطط لسائر المشروعات ، وتشرع الحكومة كجهاز بيروقراطي ، سائر التشريعات المنفذة لمثل هذه « الخطط السياسيـــة » و « الهندسات الاجتماعية social geometries » التي يضعها أمثال هؤلاء . من أجل تحقيق التحديث الحضاري Modernization أي قيام الدولة النامية العصرية .

ولا أقصد بالطبع هذا المعنى الطبقي الاقتصادي لمفهوم النزاهة ، وإنما قصدت معناها « الفلسفي الحقيقي » الذي قد يتمشى مع « معايير » المنطق logic وفقه « القانون law » . فالقاضي النزيه هو الذي يحكم دون أي تأثير خارجي ، ومن ثم يكون حكمه حكماً موضوعياً وأميناً ونزيهاً ، والله سبحانه وتعالى هو « النزيه » المنزه عن المكانية والغرضية ، لأنه تعالى لا يتأثر بغيره ، لأنه واحد سبحانه . فينبغي على القاضي النزيه ألا يتأثر بغيره حتى تصبح أحكامه أحكاماً موضوعية ذات نزاهة . ولعل النزاهة في حد ذاتها هي ميزة جوهرية من ميزات « طبقة اليمين المستقل » أو حتى « طبقة اليسار الجديد » ، لأنها كطبقة موضوعية لا تتأرجح بين اليمين واليسار ،

ولا تتأثر إلا بظروفها الوضعية ولا تتجه إلا إلى مصالح شعوبها ، ولا تحقق سوى آمال هذه الشعوب،وهذا هو الهدف البعيد من أهداف علم اجتماع التنمية » .

ولعل الدرس الحقيقى الذى تعلمته المجتمعات النامية من صدور أو خلق « طبقة الياقات البيضاء » . حين سادت وتميزت بفضل خضوعها لتجربة اليسار وتطرفه واليمين وجشعه ، فتكون اليسار الجديد ، وذاعت مبادئه . فى كل مكان، حتى وجد طريقه فى «قلب المجتمع الأمريكى نفسه» ، كى يعبر عن «الثورة المضادة» أو رد الفعل كحركة مضادة counteraction ، لما يحتويه المجتمع الأمريكى من صراعات وتناقضات نجمت عن حضارة التكنولوجيا . فظهرت « الأحزاب السياسية» ذات الاتجاهات المتعارضة، لكى تهضم «ثقافة العصر ومتغيراته»،أو حتى لكى تهدم أنماطاً تقليدية ومتخلفة ، وتشيد لنا الأنساق الحضارية ، بتحديث القيم Modernization of values وتطور النظم ، وتغيير أردية الثقافة ، عن طريق التنمية الإدارية وثورة التخطيط .

الاحزاب السياسية فى الدول النامية :

يفبغى أن تعبر الأحزاب السياسية فى المجتمعات النامية ، عن آمال شعوبها وتطلعات مجتمعاتها ، فتعمل هذه الأحزاب السياسية على « وضع استراتيجيات التنمية والتخطيط » لتطوير مجتمعاتها ، وتغيير تصوراتها أو عاداتها الفكرية،سواء بتعديل الوضع التقليدى السائد،وتبديله بما هو أفضل،أوعن طريق التخطيط العلمى الذى يحقق لكل دولة نامية واقعاً أفضل، عن طريق برامج التنمية والتعجيل بتطبيق تكنولوجيا العصر واستخدامها ، لمحاربة التخلف والبدائية والنمطية .

وعلى هذا الأساس ، يحدد كل حزب برنامجاً يميزه عن غيره من الأحزاب ، بحيث يشمل هذا البرنامج كل ما يعمل على حل المشكلات الجماهيرية الراهنة ، واقتحامها ، بما يحقق صالح الاقتصاد القومى ، وبما يتفق وامكانيات الدولة ،

وبرامج الخطة التعليمية والسياسية ، التى ينادى بها الحزب ، ويخطط لهـا ، ويؤكد قضاياها بالشرح والتحليل ، وباستخدام أدوات الاتصال وأجهزة الأعلام.

وتنبثق برامج الحزب السياسية والاقتصادية والتربوية ، عن ظروف وضعية تعمل هى نفسها على خلق الحزب السياسى نفسه . فلقد خلقت التكنولوجيا الأحزاب السياسية القوية فى اليابان ، ويحقق كل منها مختلف البرامج العلمية التى تخدم الحزب والدولة والمجتمع اليابانى .

ولعل الظروف الوضعية والاقتصادية ، هى أقدر على خلق الأحزاب ، أكثر من الظروف أو الأحداث السياسية ، كما كان الحال فى حزب الوفد ، الذى صدر أصلا فى ظروف تاريخية بحتة ، تتعلق « بالوفد السياسى » الذى كان يمثل مصر فى المحادثات أو المفاوضات التى عقدتها مصر مع انجلترا ، برئاسة الزعيم السياسى الخالد « سعد زغلول باشا » ، حيث تفجرت « ثورة مصر المشهورة » باسم ثورة عام ١٩١٩ بعد عزل أو نفى سعد زغلول باشا ، مما أثار حفيظة المصريين، فخرجت المظاهرات الشعبية الصاخبة تطالب بالحرية والجلاء وعودة « الزعيم الكارزمى » سعد زغلول .

إلا أن حزب الوفد قد تألف بعد ذلك ، من الاقطاع المتحالف مع العمال ، وحقق فعلا بعض المشروعات الناجحة ، « كمشروع الضمان الجماعى » لتأمين الانسان المصرى ، من الفقر والفاقة ، مع صدور أول وزارة وفدية ومصرية للشئون الاجتماعية ، وأول وزارة وفدية ومصرية للتموين والتجارة الداخلية . كما تكونت الإدارات والمصالح التى تخدم « قضية الفلاح » ، وتقدم له الخدمات الخاصة بالتسليف وتقديم التقاوى والأعلاف والبذور ، مما يعمل على تنمية دخل الفلاح المصرى ، إلا أن الأحزاب المطلوبة فى دول العالم الثالث ، يجب أن تكون ذات أيديولوجية خاصة ، تخدم قضايا العمل والعمال . وتحل مشكلات

التكنولوجيا ، مع تقديم الحلول الناجحة والمربحة، لسائر المشروعات الاقتصادية التي تعجل بالتنمية الاجتماعية ، وتحقق آمال الشعوب الكادحة في دول العالم الثالث .

شخصية انسان العالم الثالث :

يمكننا بصدد الإنسان « الأفروآسيوى » الذى يعانى الآن من إنقسام الرأى حول الآيديولوجيات المعاصرة ، بين « شرق وغرب » كما قد يعانى أيضا من « الحياد » بين اليمين واليسار ، فيقع الصراع بين الحياد السلبى ، والحياد الايجابى ، وقد يتردد حتى فى قبول « الحياد الفلسفى » ، ولذلك ينبغى أن نستخدم المنهج الفينومينولوجى Phenomenological Method من أجل تحليل السمات العامة لشخصية الانسان « فى المجتمعات النامية » .

ومع كتابات « زمرمان Zimmerman » و « بولنر Pollner » و « وايدر Wieder » بدأت الاهتمامات المعاصرة بالعالم كظاهرة The World as a Phenomenon ونشأ علم الاجتماع الفينومينولوجى واضحاً برفض الحركة الوضعية Positivism والنزعة البنائية Structuralism والوظيفية Functionalism التى يقول بها بارسونز وميرتون ، والسلوكية Behaviorism التى يأخذ بها « هومانز » ، وظهر المنهج الفينومينولوجى فى علم الاجتماع عند « روبرت أنطونيو Robert Antonio »[1] و « الفرد شوتز Alfred Schutz » بصدد دراسة « فينومينولوجيا العالم الاجتماعى »[2] بالاضافة إلى وجود كتابات رائدة فى علم الاجتماع الفينومينولوجى ، بدأت عند « ماكس فيبر weber و « ماكس شلر Max Scheler » و « كارل مانهايم Mannheim » ودراسات .

---

(1) Antonio, Robert., Phenomenological Sociology, New York. 1973.

(2) Sch tz, Alfred., the Phenomenology of Social World, Evanston, Il : North western university press 1967.

« جيرفتش»(١) و « كازنيف Cazeneuve » . ولقد دارت كل هذه الجهود حول تطبيق منهج « هوسرل Edmund Husserl » فى دراسة الظواهر الاجتماعية والسيكولوجية ، بعد أن ضاق « علم الاجتماع المعاصر » ذرعاً ، وهو يطل على مشارف القرن الحادى والعشرين، بما يعانيه من نقاط الضعف الشديدة ، التى تعانى منها « النزعات الوضعية » و « السلوكية » و « الجمعية » (٢) . وغيرها من سائر ادعاءات علم الاجتماع فى ميدان « النظرية الوظيفية والبنائية » .

أزمة الانسان الافروآسيوى :

ويمكننا بفضل تحليلات « المدرسة الفينومينولوجية » والاتجاهات الماركسية الحدثة ، أن نعقد زواجاً سوسيولوجياً خصباً ، قد يكون له نتاجه ورواجه، بعد سنوات قليله . حيت أن المنهج المستخدم الان فى منظورات علوم التكنولوجيا وسائر علوم العصر ، هو المنهج الفينومينولوجى الانسانى المتحالف ضد الوضعية anti-Positivism » مع خصوبة « اليسار الجديد » وقضاياه التى تتمشى دائماً وبحساب دقيق مع قضايا التنمية ضد الفقر والحاجة .

ولعل أهم قضية من قضايا العصر ، هى « قضية التخلف » ، تلك التى نستطيع أن ننظر اليها من وجهة نظر الماركسية المحدثة ن جهة ، ومن خلال معايير النزعة الفينومينولوجية السوسيولوجية من جهة اخرى ، فنقول « إن الانسان فى المجتمعات النامية » ، يمكننا أن نضعه بين فكى الأمر الواقع من جهة ، والتحدى المستمر

(١) أنظر مقالنا (علم الاجتماع الفينومنولوجى) الذى نشر فى كتابنا (تيارات معاصرة فى علم الاجتماع) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ – ص ١١٦ ومابعدها .

(2) Tiryakian. Edward., Existential Phenoweno1ogy, American Sociological Review 30 (october 1965).

(3) Tiryakian, Edward, Sociologism and Existentialism, Prentice-Hall, 1962.

بارادة التغيير من جهة أخرى ، وهذه هى ظروف الانسان النامى من وجهة نظر ، للنهج الفينومينولوجى وهى بمثابة ظروف الانسان المتخلف ، التى فرضت عليه من الخارج ؛ وجعلت منه « سجيناً » يعيش واقعه ويعانى تجربته ، بحيث يكون « النمط القروى التقليدى أو المتخلف » هو جماع السمات أو « الظروف الوضعية » بالنسبة إليه كانسان ، يعانى واقعه ، ويخلق بالتحدى الدائم توقعات ظرفيه مضادة ، ومتوازنة counterbalance ، تغير من واقعه الذى يتمثل فى ظروف « انسان العصر التكنولوجى » القلق المتوتر الذى يشعر بالاغتراب والاحباط Frustration بل وبالضياع أحياناً .

وهنا يحدث الصراع بين أيديولوجيا القديم ، والجديد ، بين نمط البداوة وغزو التكنولوجيا ، فهناك فى كل عملية « تحديث » تعارض بين القرية والمدينة ، كما توجد مسافات وتغيرات هائلة ، يكون لها رد فعلها الحاسم على « شخصية الانسان النامى » الذى يعيش فى مجتمع مازال تقليدياً أو متخلفاً ، ويحاول بالتطوير والتغيير أن يقتحم منهج « التنمية » .

ويحيل « منهج التنمية » كل سمات ثقافة المجتمع التقليدى من نمط استاتيكى ثابت ، إلى نمط ديناميكى فعال ، يميز بين « البساطة » و « التعقيد » ، ويدفع التحولات التغيرية المستمرة ؛ لتبديل نمط القرية الهادىء ، إلى نمط آخر تكتنفه صراعات التكنولوجيا التى تلهف مسرعة وراء روح العصر ، الذى يدفع الحضارة civilization بخطى أقوى بكثير مما كنا نتصور أو نتوقع .

ولعل السمة الرئيسية القائمة فى بناء كل شخصية من ملايين البشر التى ما زالت تعيش وتعانى « تجربة العالم الثالث المطحون » ، هى تلك السمة التى تجمع بين بساطة الريف التقليدى وسماحه ، وسمات الانسان الحضرى الراهن ، الذى تمتاز شخصيته

بالثقافة والحذر والفهم الذكى.وهذا هو قدر «الانسان المثقف» ودوره فى مجتمعات العالم الثالث ، وما يعانيه من شظف العيش ؛ فيهاجر ليبيع خبرته فى دولة أخرى متقدمة ، وهذا هو « النزيف » المستمر الذى لاينقطع وهو ما يسمى الآن «بنزيف الخبرة» .

دور التنظيمات الثقافية المضادة :

من أجل حل أزمات الانسان الافروآسيوى ؛ هناك مقترحات عاجلة ومخططة ولاشك أن لكل مجتمع من المجتمعات النامية ، تجربته الاقتصادية الخاصة ، التى لا يمكن أن تتطابق مع تجربة مجتمع آخـر وفى نفس الظروف . فكما توجد « الفروق الفردية » فى درجة الذكاء وسمات الشخصية ، توجد « الفروق الثقافية » بين كل مجتمع ، فتتمايز المجتمعات فى درجة النمو أو التحضر التى تكشف عنها سمات الثقافة السائدة فيه .

فلكل مجتمع ظروفه الوضعية المفروضة ، ومشكلاته الخاصة ، تلك التى يعانى منها،فيحاول أن يقوم بردود أفعال كلية ، ومناشط جمعية . من أجل « التنمية » وتغيير « الأمر الواقع » وحل المشكلات بجهود بشرية مضادة counteraction ، من أجل تعديل نمط الحياة ، وتخفيف حتمية الظروف المفروضة، عن طريق التحدى المستمر لإعادة التوازن بعد التكيف مع الجديد ، فليس الانسان فى ذاته ، إلا جماع ظروف ، فرضتها بيئته الفيزيقية ، وحتمتها شروط طبيعية ، تركت بصماتها على شخصية الانسان التقليدى ، فنميز فوراً بين « البداوة» و« التحضر» والتخلف والتقدم ، حيث تكون لكل إنسان تجربته التى فرضت عليه من الخارج ، فعاش سجيناً لها ، منحصراً بين شرطى المكان والزمان ، ويبقى كل واحد منا « سجينا لظروفه» الوجودية، التى فرضت علينا نوعا خاصـا أو موقفا بعينه من مواقف

الحياة ، مع ترجيح « التوقعات المنتظرة من أنماط السلوك الاجتماعى » .

واستناداً إلى كل هذا الأساس ، وارتكانا إلى فهمنا الواضح لأزمة الإنسان « الأفروآسيوى » ، ينبغى أن تقوم مجتمعاتنا ، بردود أفعال مضادة عن طريق تكوين « المنظمات الثقافية المضادة » ، من أجل اعداد المنطقة ثقافيا ، وتهيئة البيئة ، وخلق الجو المناسب ، والمتاح أو الملائم لعملية التنمية والتطوير الاجتماعى . وهناك ردود أفعال أخرى تقوم بها المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، لمواجهة الأزمات الاجتماعية التى خلقتها أمراض التكنولوجيا وانتشار التصنيع ، من تفكك وانحلال ، وضياع . فلقد زادت الانحرافات ، وخفت حدة القانون ، واضطربت ميكانيزمات الضبط فى سائر المجتمعات الصناعية . الأمر الذى يفرض على الدولة الرأسمالية « تكوين تنظيمات ثقافية » مضادة يجب أن تقوى وتشتد وتتعاون ، من أجل مواجهة التهديد المستمر لتكنولوجيا العصر وتنظيماتها المعقدة من « تلوث » فى البيئة والطبيعة ، وانحرافات فى الشخصية والسلوك ، ولذلك تقوم فى الولايات المتحدة « التنظيمات الدينية » القوية ذات المشروعات والبرامج والنشرات ، التى تقلل من حدة « الضياع » و « التفكك » ، وتزيد من درجة التكامل والتضامن .

فهناك « متغيرات » تكنولوجية لها صداها فى علم الاجتماع المعاصر ، مما أدى إلى إثارة الكثير من المسائل والمشكلات الخاصة بالمجتمعات الصناعية نفسها ، مثل مشكلة « التنظيمات الاجتماعية » وردود أفعالها على أنماط الثقافة والشخصية ، ومثل مشكلة « البيروقراطية والديموقراطية » ومشكلة التلوث وايكولوجيا المصنع ، وأمراض الانسان فى البيئة الصناعية .

وتسود كل هذه المشكلات فى سائر المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وتحاول بكل جهدها ، « كبيروقراطيات ناجحة ورشيدة » ، أن تقدم الحلول الفورية لمثل هذه

المشكلات ، التى هى نفسها مشكلات قائمة أمام « بيروقراطية العصر الصناعى » ، التى تحاول أن تدفع عجلة التكنولوجيا والالكترونيات بدرجة رهيبة ، وبسرعة مذهلة .

الأمر الذى يتطلب منا إيجاد البديل الذى يواجه هذا التيار التكنولوجى الجارف الذى قد يجتاح العصر كله فيحيله إلى حرب أو تأهب نووى ، يؤدى إلى سلام كاذب ، يقوم على الرعب والذعر، خوفاً من ضياع حضارة القرن العشرين.

ولا شك أن الحل هو « التيار الايديولوجى المضاد » بالتسلح بقيم الدين ، والتمسك بقواعد الخلق الرفيع ، وتبجيل المثل العليا ، وتعظيم قيم الحق والعدالة والمساواة . والدعوة إلى قيم التضامن والتماسك والتكامل نظراً لوجود وحدة الثقافة الكلية والشمولية . ولقد تحقق رد الفعل الايديولوجى فى نتائج « علم الاجتماع الإدارى » وظهور علوم الاجتماع الصناعى والسياسى المتفرعة عن علم الاجتماع الاقتصادى[١] ، حيث تقدم كل هذه العلوم مجتمعة ، سائر الحلول العلمية لأزمة « الانسان الافروآسيوى » ، فكانت هذه العلوم هى المنقذ لنا من « أزمات العصر » وهى التى تقدم لنا مختلف الحلول لمشكلات « التكنولوجيا » . ولما كانت التكنولوجيا من العلوم الشمولية والتكاملية ، اعتمدت « علوم العصر » أيضاً على تخصصات أخرى فرعية ودقيقة ، مما أدى إلى التعاون بين العلوم من أجل « خدمة قضايا الانسان والتنمية » ، وحل المشكلات الناجمة عن افرازات عصر التكنولوجيا وتلوث البيئة .

« التكامل » و « البنائية » و « الشمولية » .

لاشك أن عملية الحياة life-Process هى فى ذاتها أهم عملية ، واستناداً إلى

(١) أنظر كتابنا « علم الاجتماع الإقتصادى » ومشكلات الصناعة والتنمية » منشأة المعارف ١٩٨٠ .

هذه الحجه ، تشتد سطوة البنـاءات البيروقراطية للدولة ، فقد تقوى الأدوار السياسية التى تقوم بها سائر أجهزة الحزب السياسى الحاكم من أجل إجراء وتنفيذ « برامج مخططة التنمية » وتحقيق هذه البرامج العليـة ، بتغيير « نمط الحياة » على اعتبار أن « عملية الحياة » نفسها هى أهم وأقوى من كل تلك الظروف الفيزيقية ، فتتحدى حتمية البيئة ووضعية الظروف كما وتخلق « المتغيرات التى تساعد على « تبدل نوع الحياة » فى المجتمع النامى .

ولا شك أن « طبيعة المجتمع البنائية » هى السبب فى استقطاب العلاقات ، وتشابك التنظيمات والأدوار ، وتعقد النظم والأنساق ، الأمر الذى أدى بدوره إلى تعدد مداخل علم الاجتماع ، نظراً لتعدد مداخل المجتمع نفسـه ، ومع تعدد العمليات الاجتماعية ، كالصراع والتنافس والتعاون والتكامل ، تتعدد أشـكال وصور المجتمع من « تنظيمات»دينية أو سياسيةأو مهنية أو اقتصادية ؛ويعبر كل تنظيم منها عن « جهاز System يخدم « نظام institution » ، فتتعاون الأجهزة وتتساند مع النظم السائدة فى البناء الاجتماعى .

ولما كان « الشكل المادى » هو الذى يظهر إلى العيان ، تتغير الأشكال التى تطرأ على سطح المجتمع ، فتظهر حقيقة « الوجود الاجتماعى » بداوة ، وتخلفاً أو تقدما ، فيتجلى لنا « المضمون الاجتماعى » الذى يبرز لنا شكله الاقتصادى الذى يتبدى فى الوجود الواقعى المشخص Concrete ، فيتحقق المجتمع كثقافة ، حين نشاهد أو نرى « قبيلة بدوية» ، أو نمطا رعويا ، أو « مجتمعاً قروياً» يعيش على الصيد أو الفلاحة ، أو « نسقا صناعيا » له إيكولوجيته وبيئته ، وتنظيماته، وفى كل هذه الأشكال والصور الاجتماعيه والمضامين الثقافية ، نتابع نظماً قرابية وعائلية وأخلاقية وتشريعات قضائية ، ومقدسات دينية ، تفصح عن نفسها فى

أنماط سلوكية وثقافية، طبقاً لتمايز أشكال وصور الجماعات والزمر السوسيولوجية. الأمر الذى يفرض علينا فى النهاية الاتجاه . نحو التساند والتفاعل interaction ، مما يؤكد وجهة النظر البنائية والوظيفية functionalism التى تتجه نحو « التكامل » و « البنائية » و « الشمولية Holism » .

ويهاجم « هربرت ماركيوز Marcuse » الاتجاهات الجمعية collectivism كما يهاجم « التوتاليتارية الجديدة » Neo-totalitarianism » وهى نزعة كلية ، أو إتجاه أو « نظام سياسى كلى النزعة » ويحتكر كل موارد الدولة (١) .

فلقد سيطرت الثقافة « البورجوازية » على النظام الاقتصادى الجديد. وعجزت البورجوازية عن التوفيق بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، أو بين السعادة العامة والسعادة الخاصة . ولا شك أن السعادة هى هدف كل إنسان ، لإشباع الطاقة أو تحقيق الذاتية ، كما أن السعادة كتحقيق لكل الطاقات إنما تفترض الحرية بل « إن السعادة فى جذورها وباطنها الأصيل هى الحرية نفسها ». ولذلك ارتبطت المتعة البورجوازية بالحرية وبفكرة الفراغ Leisure بشرط أن تنغمس فى لذاتنا إلى الحد الضرورى ، للحفاظ على إنسانيتنا وصحتنا ، على مايقول Spinoza ومن خلال « تسييس النظام البورجوازى » ، خضع الفرد خضوعاً كاملاً لمطالب هذا النظام ، وحين تتحول البورجوازية إلى نظام سياسى واقتصادى فلسوف تصبح

---

(١) لقد ظهر الفكر « التوتاليتارى » وتحقق قبيل الحرب العالمية الثانية ، فى « النازية » و « الفاشيه Fascism » فلقد ظهرت فى ألمانيا وإيطاليا ، منذ ذلك الحين محاولات ليراليه وبورجوازيه لمقاومة الشيوعية الروسية . والنزعة التوتاليتاريه نزعة هيجليه مثالية ، أخذ بها الفيلسوف الأيطالى « جنتايل » وانضم إلى « موسولينى » زعيم الفاشيه، كما أخذ بها « هيدجر » الفيلسوف الوجودى ؛ وانضم إلى « هتلر » حيث « يتمثل الواقع الالمانى وقانونه بالقوهرة ذاته » على حد تعبير هيدجر لتلاميذه .

البورجوازية فى النهاية ، تلك التى تتشدق بالليبرالية ، أشد تحكما وتسلطا من النزعة التوتاليتارية totalitarianism نفسها .

أدوار ومسئوليات ذوى الياقات البيضاء :

ولا شك أن التخطيط Planning فى ذاته ، هو عملية دراسة إمكانيات المجتمع وموارده البشرية ، وطاقاته الفيزيقية والتعدينية ؛ وتنظيم كل هذه العناصر، لتحقيق هدف إجتماعى أو قومى ، بشرط أن يكون هدفا ممكن التحقق والبرمجة ، وبشرط أن يسبقه دراسة استطلاعية ، للتيقن من إمكانية تطبيق برامج ومشروعات الخطة العامة ، على نحو رشيد ، وفى أقصر وقت ممكن .

وهناك تخطيط إختيارى ، وتخطيط إجبارى obligatory ، ويطبق الأول فى دول الغرب المتحررة كانجلترا وفرنسا ، بينما يطبق الثانى فى دول الكتلة الشرقية الاشتراكية ، وقد يختلف التخطيط الاختيارى عن الاجبارى ، فى درجة شمول الخطة ، فالتخطيط الاختيارى هو تخطيط جزئى Partial Planning أما التخطيط الموجه أو الاجبارى ، فهو التخطيط الشامل comprehensive Planning الذى يتحقق على المستوى القومى وبكل قطاعات الدولة الصناعية والاقتصادية .

ويمتاز التخطيط الرشيد بعنصر المركزية . الأمر الذى يفرض وجود أو وجوب ضرورة توافر « طبقة خاصة للتخطيط » فى كل إدارة أو مؤسسة ، بالإضافة إلى ضرورة إتصال « طبقة التخطيط » بطبقة أو أجهزة أخرى تنفيذية ، حتى لا تتأثر الحركة الروتينية الهابطة والصاعدة ، ولا يعوقها عائق يقف كعقبة كأداء فيما بين قوى التخطيط والمتابعة والتنفيذ .

وإذا كانت ظواهر المركزية واضحة فى سائر المجتمعات الشيوعية ، فإنها نقطة الضعف الشديدة التى تعانى منها « الإدارة » فى الدول الشيوعية ، بالاضافة

إلى معاناتها أيضاً من « طول مدة الخطة » إلى جانب المركزية الصارمة ، ولكن دولة شيوعية مثل « الصين الجديدة المعاصرة » قد فضلت الخطط قصيرة الأمد Short term plan فلاشك أنه من المرغوب فيه التي تكون فترة الخطة من القصر بحيث يمكن التنبؤ Prediction ، أو التوقع الذى يسمح بوجود قدر من الدقة ، كما ويسمح أيضاً وعلى الأقل بوجود ما يؤكد « صحة تقديرات جزئية دقيقة ومطلوبة » ، إستناداً إلى مدى سلامة التخطيط ، وصحة توقعاته، وصدق تنبؤاته.

ويحلم الانسان الافروآسيوى ، أو حتى الانسان الاقتصادى العادى ، بمجتمع الرفاهية الذى يخلع « حواجز اللغة واللون والعنصر » ، مع تكوين المقومات الاقتصادية ، لملامح وسمات « البيت السعيد » لأسرة ناجحة ، فى مجتمع نام يحارب الجوع والمرض ويعمل على احترام قيمة الانسان، مع تشجيع الذاتية، والاحساس بالمسئولية ، ويتوصل إلى قانون عادل ، ينصف المظلوم ويتطلع إلى الفكر السياسى الخلاق الذى يغلق المعتقلات ، ولا يفتح السجون . هذه هى تطلعات أو قيم « الانسان العصرى » المتفتح ، الذى يعرف كيف يؤكد ذاته فى مجتمع سريع التغير ، ومتوازن القيم ، له معاييره فى الضبط والتنشئة الاجتماعية، مع الأخذ بكل وسائل الرفاهية باستخدام تكنولوجيا الخدمات المنزلية ، التى تؤدى إلى « السعادة الاقتصادية » والرفاهية السهلة ، التى تحل مشكلات الانسان الكادح ، حتى يستطيع بمدخراته القليلة أن يشترى « التكنولوجيا الرخيصة » . وتختلف هذه الأســـــرة الكادحة بالطبع ، عن ثقافة أسرة أخرى ، تعيشها طبقة ذوى اليسار ، من ذوى الياقات البيضاء (١) .

(١) تطمح كل أسرة وتطمع فى أمتلاك سيارة فخمة ؛ وبيت عصرى مجهز ومكيف ويسمح باستخدام الأجهزة الألكترونيه والأدوات المندسية ؛ من أجل تقــديم مختلف « التسهيلات Facilities » التى تحقق أفضل رفاهية ممكنة ، بتشجيع الأمكانيات ؛ وتغير الظروف نحو حياة أسعد وتفضيلات اجتماعيه أرق وأنبل ..

المسئولية الادارية :

يقال : إن المسئول عن انفاق الملايين ورسم السياسات الاقتصادية المستقلة ، هم « طبقة ذوى الياقات البيضاء » ، وهم يتربعون الآن على قمة كل تنظيم إقتصادى أو مؤسسة بيروقراطية ، أو مشروع صناعى .

ولا يعمل المسئول « الادارى » فى فراغ ، وإنما يعمل فى « تنظيم إنسانى » حيث يلاحظ الباحث فى علم الاجتماع الصناعى ، أنماطاً من السلوك داخل جدران المصنع ، كالسلوك المهنى والحرفى ، والسلوك الفنى والسلوك البيروقراطى ، إما بشكله الروتينى أو الرسمى Formal ، وإما بشكله الادارى النشط والمنتج .

وفى كل تنظيم صناعى ، أصبح القائد مسئولا عن عمله وعن مدى تحقيقه الخطة ، وانجازه للانتاج ، كما أصبح مسئولا أيضاً عن « جو العلاقات الانسانية السائد ، ودرجة اكتسابه للمهارات الفنية والذكائية والرئاسية » ولا شك أن سعة إطلاعه ، ودقة تخصصاته ، وشمول نظرته ، وعمق خبرته وقدراته العلميـــة والتطبيقية ، كلها سمات شخصية ضرورية فى كل « قائد إدارى » يقوم على رأس كل تنظيم .

وترتبط القيادة بموقف دائم بين القائد والمقود ، فتصبح القيادة ، حالة رئاسية دائمة ، تتمتع بالعلم والتخصص وسلطة فرض القرارات التى تصدر عن السلطة الرسمية فى التنظيم . فلاشك أن هناك حركة تفاعل interaction دائمة بين الرئيس وأعضاء جماعتـــه ، وتلعب تلك الحركة دورها بين كل رئيس ومرؤوسيه ، أو بين كل « قائد » أو « مسئول » وتابعيه ، فيكون لهذه العلاقات الإدارية رد فعلها فى عملية الانتاج Production .

ولا شك أن واقع الادارى الناجح ؛ هو واقع إجتماعى ونفسى مريح ، وهذا

السلوك الادارى الاجتماعى ، هو فى واقعه الأصيل « عمل سياسى » ، ولذلك تمتزج فى القائد الادارى ، والبيروقراطى التنفيذى صفات خاصة ينبغى أن تتوافر القيام بعملية « سياسية وإدارية » فى نفس الوقت ، على إعتبار أن « المسئولية السياسية للقائد » إنما تتمثل فى مسئوليته إصدار وتنفيذ القرار الرشيد ، الذى يستند إلى الخبرة والفاعلية .

كما يؤمن القائد الناجح بالهدف ويعمل على دفع التنظيم ، وتطوير أجهزة « القيادة للأمام » لا للخلف ، ومن خصائص « القيادة الرشيدة نفاذ البصيرة وعمق الخبرة » ، والقدرة على تحمل المسئولية ، والتصرف السليم فى المواقف الصعبة ، بإستخدام أفضل أسلوب أو بواسطة حسن استخدام التصرف وسرعة البديهة حينما تسوء الأمور . مع مراعاته للفلسفة الإنسانية . والصلات الروحية العميقة بينه وبين مرؤوسيه ، حتى تزداد معدلات الروح المعنوية ، والمحاولات الجادة الاتجاه الرشيد نحو إصلاح أجهزة الادارة .

الهندسة البشرية (١) :

ويضع « خبراء الصناعة » مختلف الخطط والسياسات التى تنظم علاقة العامل بالمؤسسة ، أو بالآلات ، أو بالمديرين كما يضع المديرون الأسلوب الانسانى فى أداء العمل ، وتحسين ظروفه ورفع معدلاته الكميه والكيفية ، بتنمية أساليب الأمن الصناعى ، والتأهيل المهنى ، مع التدريب والكفاية الانتاجية .

---

(١) يدخل نظام تدريب واختيار الأفراد فى الصناعه تحت ما يسمى باسم الهندسة البشرية Human Engineering حيث تنمى العلاقات الانسانيه فى الصناعه روح التعاون بين الادارة والعمال للتوصل إلى أكبر إنتاجيه ممكنه ، كما تقوم الادارة بتقسيم العمل والتخصص فى مهام التنظيم والتخطيط ووضع جداول الانتاج ، مع التزام الأفراد والإمتثال للقواعد ، وتنفيذهم للعمليات الانتاجيه دون إبطاء .

وقد يرسم « علم الاجتماع الادارى Administrative Sociology » الخطوط العريضة والمنظمة لوظائف الادارة وأساليب الرقابة والمتابعة والتخطيط ، والاشراف والملاحظة ، بالنظر إلى تقييم الوظائف فى جو ديموقراطى مريح ، مع إستخدام مبدأ المكافآت التشجيعية ، والأجور العالية والحوافز التى ترفع من معنويات العمال وطاقاتهم الانتاجية ، تلك الدوافع التى تدفع العامل إلى المزيد من الجهد والرغبة فى الترقى والتنقل الوظيفى نحو الصفوف الادارية الأولى.

موقف الادارة من ذوى الياقات الزرقاء :

لا شك أن نقطة الضعف الشديدة التى انزلقت إليها التنظيمات الصناعية فى الرأسمالية المعاصرة ، هى تلك « البيروقراطية الجوفاء » التى خلقت طبقة من الادارة من ذوى الياقات البيضاء White Collar (١) التى أحاطت نفسها بهالة من المهابة Prestige التى قد تشجع على نمو الشخصيات الطفيلية ، تلك التى تخلق على حساب الانتاج ، جواً مشحوناً بالنفاق الاجتماعى ، المكثف الذى قد يغلف طبقة الادارة العليا ، مما قد يؤدى فى النهاية إلى هبوط مفاجىء فى الانتاجية الكلية العامة للمشروع الصناعى ، وهذا هو « المرض البيروقراطى الخطير » الذى يصيب « الثقافة الصناعية » المعاصرة . فعلى الرأسمالية الصناعية ان تعالج أمراض المصنع وأن تدرس هذه المواقف المرضية والادارية بحذف كل مراكز النفاق التى تتركز حول قيادات الادارة البيروقراطية ، وعلى المخططين الاداريين أن يطهروا مراكز الادارة العليا من النفوذ البيروقراطى واستغلال السلطات بالقضاء نهائياً على كل الاشكال المعاصرة لانماط البيروقراطية باعتبارها افرازات صناعية متراكمة ، تنجم عن الالتحام بطبقة الإدارة مما يعوق بالطبع من فاعلية التنظيم ، ويكون له

(1) Mills, Wright., White Collar, New York. 1951.

دوره على معدلات الانتاج فى « بناء المصنع » .

وهناك سمة صناعية ثقافية تتسم بها المجتمعات الصناعية ، وهى حرص الرئيس فى المصنع على إبقاء « مسافة فاصلة » بينه وبين مرؤوسيه to keep a distance وتمهد هذه الظاهرة السيكولوجية لوجود حساسيات معينة فى « ثقافة المصنع » بين العمال ورؤساء العمل ، مما يؤثر على معدلات الانتاجية ، كما يساعد بالتالى على وجود « فجوات فى قنوات الايصال » ، حين يحيط كل « رئيس » أو مشرف نفسه « بشلة » أو « بمجموعة » من العلاقات الوثيقة التى قد تحجب عنه الرؤية الحقيقية للعمل (1).

والتغلب على هذه المسافات الفاصلة التى خلقها التنظيم والعمل ، ينبغى القيام بمناقشات واجتماعات دورية وعقد لقاءات ودورات تدريبية وحفلات ترفيهية ، ورحلات سياحية ، حتى يحدث التكيف السليم بين الرؤساء والعمال ، عن طريق الاختلاط بين العامل ورؤسائه من مهندسين وملاحظين ومشرفين .

ولكن ما هو دور الاخصائى الصناعى ؟

يهتم الاخصائى الصناعى ، بدراسة سلوك العمال داخل المصنع وخارجه من خلال معرفته بشخصية العامل وظروفه وإنتاجيته ، فى ضوء مدى تكيف العامل مع البيئة الصناعية ومدى فهم العمال لطبيعة الآلات ومرونتها أو قابليتها الانتاجية وضرورتها بالنسبة لزيادة الانتاج طبقاً لحالتها الفنية ، الأمر الذى يؤدى إلى زيادة أرباح العمال .

---

(1) Selznick, P., Leadership in Administration, American Sociological Review.

أنظر أيضاً فى هذا الصدد :

Hill Michael , The Sociology of Public Administration, 1972.

ويدخل نظـام تدريب العمال على الآلات وتوجيهم مهنياً لرفع معدلات الانتاجية بين العمال ، تحت ما يسمى « بالهندسه البشرية » ، حيث يهدف الادارى الناجح فى كل تنظيم صناعى إلى زيادة الاهتمام ببرامج التدريب ، بالاضافة إلى التوجيه أو الارشاد المهنى Vocational Counselling .

ويشتغل الاخصائى الصناعي ، أولا وقبل كل شيء ، بعلاقات العمل وحل مشكلات العمال ، ودراسة ظروف العمل الفيزيقية كالاضاءة والتهوية ، حتى يحمى العامل ويحرص على راحته ، كما يرفه عنه ببرامج الترفيـه من رحلات ورياضة وغيرها من الطرق المختلفة لشغل الفراغ Leisure time .

هذا عن « المشكلات الفيزيقية » للعمل ، وهناك مشكلات أخرى « إنسانية » و « صناعية » يلتفت إليها عالم الاجتماع الصناعى ، حين يرصد « ظواهر الصراع الصناعى » و « التنظيم » و « الادارة » والتكامل . فى ضوء نماذج الاشراف الأوتوقراطية والبيروقراطية والديموقراطية ، كما يتابع فى نفس الوقت أحدث الطرق المستخدمة فى ميدان العلاقات الانسانية Human Relation [1] .

وقد يصادف الاخصـائى الصناعى فى طريقه حالات متعددة من « حوادث العمل» التى قد تؤدى إلى العجز الكلى أو الجزئى ، وعليه أن يقوم بتأهيل مثل هذه الحالات تأهيلا مهنيا،ومن هنا تستخدم دراسة « التأهيل المهنى Rehabilitation» كوسيلة للأمن الصناعى وبتركيب « أعضاء آلية» لمساعدة ذوى العاهات بدلا من الأعضاء العاجزة ، مما يرفع من معنويات العامل فيزداد نشاطه وحبه للعمل بعد أن ضمن لنفسه الأمن والأمان .

---

(1) William, Michael, Human Ralation, Longmans 1967.
أنظر أيضاً فى هذا الصدد :
Ellenson, Human Relation, Printice-Hall., 1973.

وقد يتطرق الأخصائي الصناعي بطريقة فعالة ومنتجة ، إلى مجالات العمل فيكون له دوره في زيادة معدلات الإنتاج حين يصبح الأخصائي نشطا ومخلصا ومهتما بحالات العمال ويحل مشكلاتهم ، وبالاضافة إلى ذلك ، تكون ظروف العمل ، وصعوبات أو حل مشكلات الإنتاج ، هي أهم الوظائف الضرورية ، التي يقوم بها الأخصائي الصناعي الذي يعمل دائما على تحسين الاضاءة والتهوية والألوان القاتمة ، وكلها مصادر حيويه وأصيلة في كل عملية إنتاجية ، وقد تتدخل في سرعة حلول التعب والملل إلى نفس العامل مما يقلل من إنتاجيته ويضعف من نشاطه وحيويته إذا ما أهملت الإدارة العناصر الفيزيقية في ظروف المصنع الايكولوجيه.

بنيه المجتمع الصناعي :

تتألف بنية المجتمع الصناعي من جماعات صناعية صغيرة ،وفئات مهنية ،ذات أيديولوجيات مختلفة ، قد تحدث فيما بينها « فجوات ثقافية Cultural gap » وتدرس علوم الإدارة الصلة الوثيقة بين تخطيط الادارة العليا direction ، والإدارة التنفيذية administration داخل نطاق « بناء بيروقراطي » ، ينظم « عمليات الإتصال » للوصول إلى أهداف التخطيط ومتابعة إجراءات التنفيذ ، داخل نطاق المؤسسة الإنتاجية ، وتقيم الإدارة الهندسية لكل مشروع صناعي سائر المهندسين على إختلاف تخصصاتهم المهنية . وبالإضافة إلى ذلك ، تحدد الإدارة رؤساء الأقسام الصناعية ، وتنظم علاقاتهم بالإدارة المتوسطة ، تلك التي تتألف من صغار الإداريين ، ورؤساء العمل والعمال ، وصغار المشرفين والفنيين .

والبيروقراطية المعاصرة بما تحتويه من مؤسسات وتنظيمات هي إفراز صناعي، نجم عن إنتشار ظواهر التصنيع والتكنولوجيا في سائر المجتمعات والثقافات . والبيروقراطية « تنظيم » organization ، كما أنها في ذاتها تنميط Patternization ، إلى الدرجة التي معها يمكن أن نقول إن « البيروقراطية »

تتصل فى معناها البسيط بما يدور ويتواتر على نحو مستمر فى حياتنا وعلاقاتنا ، مما يضبط أنماط السلوك ، ويفرض أسلوباً أو نزوعاً خاصاً لا يحيد عنه الإنسان الإجتماعى . وتلك الظواهر والضوابط التى تسير على وتيرة واحدة هى ما يسميه رايموند ماك Raymond Mack و جون بيز John Pease بيروقراطية الحياة الإجتماعية Bureaucratization of Social life [1].

التأثير البيروقراطى : Bureaucratic Influence :

وينجم التنظيم البيروقراطى عن « بناءات صناعية » أو مؤسسات إقتصادية وإدارية كبرى ، تصاحبها أثناء نموها وتطورها ، زيادة مستمرة فى حجم طبقة « ذوى الياقات البيضاء » ، مما يضاعف من ضروراتهم وسلطاتهم ومهابتهم فى كل تنظيم إدارى ، وفى أية مؤسسة صناعية، حيث تتكثف الأعمال الإدارية ، وتتركز فى أيديهم السلطة طبقاً للقانون ، الأمر الذى يزيد من أهمية هذه الطبقة ودورها ووظائفها كلما إزدادت أهمية «الضوابط البيروقراطية bureaucratic controls».

ولا شك أن هناك « فجوة ثقافية cultural gap » بين سائر فئات وجماعات البناء البيروقراطى للدولة أو المؤسسة الصناعية ، فهناك حساسيات واضحة بين « ذوى الياقات البيضاء » من جهة ، و « ذوى الياقات الزرقاء » من جهة أخرى . ويقول هالفاكس Halbwachs إن «العامل الماهر » قد ينفق على طعامه أكثر من موظف كبير من ذوى الياقات البيضاء white-collar Man له نفس الدخل والأجر والوضع الإقتصادى . كما يرى « هومانز Homans » أن الدخل والوظيفة قد يكون لهما أثرهما فى تحديد الوضع الطبقى ، فالعامل الماهر هو الذى

(1) Mack, Raymond & John Pease, Sociology and Social life., Van Nostrand Company. 1973. p. 181.

يعطى فى عمله أكثر من غيره ، ولذلك نجده يحصل على « ما هو أكثر » حتى يشعر بأنه أعلى مكانة Rank » كما أنه يحاول فى نفس الوقت أن ينفق بضع دولارات أكثر من غيره حتى يشعر الآخرين بأنه أكثر أهمية أو أفضلية ، إذا ما قورن بغيره (١).

ومن هذا التأثير البيروقراطى الواضح فى مختلف القطاعات ، تتأثر « شخصية الموظف » كما تتأثر أيضا ، شخصية العامل » ، لما تراكم فوق رأسه ، وعلى حساب أعصابه ، سائر فئات الادارة الوسطى من « أسطوات » و «ملاحظين» من ذوى البلاطى السوداء Black Coats ، بالاضافة إلى « ذوى الياقات البيضاء » من مهندسين ومديرين ، وكلها طبقات إدارية تتراكم فوق العامل المسكين ، فتضطرب شخصيته ، وتمرض نفسه ، وتهتز أناه .

ولما كان الانتاج هو الهدف والغاية ، فينبغى أن نهتم بنقطتين هامتين ، أولها : أن نخفف من حدة البيروقراطية وتأثيرها الضاغط الكابت ، مما يؤثر على صحة العامل النفسية . والنقطة الثانية ، وتتعلق بالصحة الجسمية والفيزيقية للعامل، فلقد ثبت وجود معدلات الارتباط الواضحة بين مؤشرات « الانتاج » و « الصحة العامة »، وثبت أيضا أن إنتشار « الأمراض » وتدهور الصحة ، وضعف العامل هى من العوامل البيولوجية التى تؤدى إلى إنخفاض « مستوى الانتاج » بالنسبة للمصنع وعلى مستوى « بناء الدولة الاقتصادى » ، و « إنتاجية العامل » العادى ، ومقدار مايبذله من الجهد . وفى جمهورية مصر العربية ثبت أن «مرض البلهارسيا» يعانى منه الفلاح المصرى ، فى دلتا النيل وقرى الصعيد ، مما أدى إلى إنخفاض

---

(1) Smelser, Neil., Sociology., An Introduction, Pakistan, India, 1967: p. 66 7.

الانتاجية العامة فى جمهورية مصر العربية.

وعملية « التنمية الصناعية » هى فى حقيقة أمرها عملية صناعية وإقتصادية ، تستهدف بذل الجهود الذاتية والرسمية Formal « من أجل زيادة متوسط الدخل الحقيقى للفرد . ولاشك أن التطوير الصناعى هو «عملية مستمرة تستهدف تغيير الانسان » ، كما تهدف أيضا إلى تغيير وتطوير سائر المجتمعات التقليدية . وفى كل دولة من الدول النامية ، تحتاج المشروعات الصناعية والرأسمالية ، إلى معدلات الاستثمار المرتفعة ، التى تؤدى إلى زيادة « الأوعية الادخارية » تلك التى تمتص بدورها كل المدخرات مما يدفع عجلة « الاستثمار عن طريق الادخار » ، نحو تطوير الصناعة ، وتنفيذ « مشروعات » تؤلف فيما بينها « علاقات تكاملية » فى صناعاتها ، مما يؤدى إلى الوفورات الاقتصادية «وإلى الحد من إستيراد الواردات الخارجية » ، الأمر الذى يقلل من النفقة ، عن طريق إنشاء وحدات إنتاجية محلية، تحقق وتنتج ما هو أفضل من المطلوب إستيراده من الخارج.

ولاشك أن « المشروع الصناعى» فى حاجة إلى مايدعمه من تشجيع الدولة مثل « فتح باب القروض » ، نظراً لضآلة رؤوس الأموال المحلية ، وضآلة الدخول الفردية . ولا يتحقق المشروع الصناعى الناجح إلا باستخدام الوسائل العلمية وتطبيقها فى ميادين « التنظيم » و « الإدارة » ورفع مستوى الانتاجية والأداء فى « بنيه المجتمع الصناعى» .

طبقة العمل الصناعى :

تختلف بنية المجتمع باختلاف الطبقات الاقتصادية والصناعية ، وتختلف « الطبقات » من حيث هى كذلك ، عن « الأمم » ، فلم تنشأ الطبقات أولا حتى تتولد عنها الأمم وتصدر . وإنما الأمر الحقيقى والواقعى ، هو صدور الحضارات

والأمم ، وفى قلب الأمم نشأت الطبقات وترعرعت .

وما يؤكد هذه الحقيقة فى مفهوم الطبقة ومقارنته بمفهوم أكثر إتساعاً وهو مفهوم الثقافة culture ، وبخاصة تلك الانماط القديمة التى كانت سائدة فى « الأندية والصالونات » فعندما هاجر نبلاء فرنسا بعد الثورة الكبرى إلى ألمانيا وروسيا والنمسا ، لم يجد نبلاء فرنسا فى « ثقافة الأندية والصالونات » ، جواً غريباً عنهم رغم انتقالهم وهجرتهم ، حيث أن طبقة النبالة كانت قد انتشرت كمجموعة من التصورات وأنماط من السلوك وقواعد من الآداب . وهاجرت من فرنسا إلى ألمانيا فتشابهت « العناصر الثقافية » لطبقة النبالة فى أوربا وتماثلت أنماط الفكر والسلوك والترف . فكان الاحتكاك الثقافى التاريخى الذى حدث بين النبالة الفرنسية والنبالة الألمانية ، حيث هاجرت ، الكثير من سمات الفن الفرنسى وثقافة قصور الاقطاع كالروكوكو Rococo ، وهو يعتبر كنوع متطور من فن الباروك Baroque الذى ظهر فى نهاية عصر النهضة ، ويعبر عن الفخامة والعظمة ودقة الزخرفة . ولذلك امتلأت بعد الثورة الفرنسية ، قصور النبلاء الألمان ، بنوع ألمانى ركيك ، من « الروكوكو الفرنسى » الأصل والمولد والحضارة .

وحين وجد نبلاء فرنسا فى ألمانيا « وطناً طبقيا » عاشوا بسهولة ، وسرعان ما تكيف النبيل الفرنسى تكيفا واضحا مع الثقافة الخاصة بأخيه الألمانى. واستناداً إلى هذه الأسانيد الواقعية والتاريخية ، تقول « إن الطبقة لا وطن لها ، ولا تحدها حدود دولية فهى طبقة عالمية تشيع فى الأرض لكى تشمل العالم كله ، وتصدق عليها كلمة Cosmopolite .

ومن الأخطاء الجسيمة التى إنزلق اليها علماء الاجتماع ، فيما يتعلق بالحرية فى طبقات العمل الصناعى ، أن يظن علماء الاجتماع أن « النمو الصناعى » هو العلة

الجوهرية وراء كل تطور صناعي مفيد . فلقد أدت الصناعة إلى تحرير العمال من الرق والحرمان ، كما أدى التصنيع إلى خلق المساواة بين الناس ، حيث يضيق النمو الصناعي من ايجاد الحواجز المفروضة على المراتب الاجتماعيـة ، فيعمل على إزالة الحواجز ليتدفق ويخلق الفرص الجديدة والمراكز الجديدة والأعمال الجديدة. ومن هنا يشعر العامل بحرية الحركة ، في دينامية نشطة داخل التنظيم الصناعي . فيكون الحراك الاجتماعي مرنا ومفتوحا ومشروطا بشروط الخبرة وتحقيق النمو الصناعي المأمول . ولقد ظن علماء الاجتماع أيضا هذا الظن الخاطيء ، حين توقفوا عند فهم أهداف التصنيع وتوسيع نطاق التعليم وتقدم أدواته التكنولوجية ، حتى تخف بذلك حدة التناقض بين الفئات الدنيا .

إلا أننا في الرد على هذا الاتجاه ، نقول أن التصنيع لا يؤدي بالضرورة إلى مجتمع العدالة والمساواة . فهناك تفاوت اجتماعي واضح بين دخول العمال في الاتحاد السوفييتي استناداً لتطبيق سياسة الحوافز وهي سياسة إقتصادية منتجة لأن التصنيع السريع لا يحققه إلا الحافز المغرى والربح أيضا، الذي قد يرفع من درجة ذوي الياقات الزرقاء إلى مستوى ذوي الياقات البيضاء (١) .

---

(١) لقد قصد رايت ميلز Wright Mills ، باصطلاح White Collar بأنها فئة موظفي الطبقة الوسطى ، وكل من يعمل في مهن غير يدوية . ويطلق على العمال اصطلاح ذوي الياقات الزرقاء Blue Collar Workers .

وإذا نظرنا إلى العاملين من ذوي الياقات البيضاء ، لوجدنا أنهم قد يصلوا إلى أدنى المراتب في الطبقة الوسطى ، إلا أنهم يمثلون « الطبقة الوسطى الدنيا » أو أسفل الطبقات المتوسطة . ويمتاز كل فرد من ذوي الياقات البيضاء بأنه لا يملك أي مشروع من المشروعات فالمشروع الصناعي بعيد عن الملكية الشخصية ولا دخل له بالانسان الفرد أو السلطة ، فليست هناك ملكية أو سلطة خاصة بذوي الياقات البيضاء . بمعنى أن الكتابيين والعاملين في مهن =

ولا شك أن التفاوت الشديد فى دخول العمال وأجورهم بعد تطبيق سياسة الحوافز فى الاتحاد السوفيتى، قد أحدث ثغرات واضحة وبدلاً من درجة التفاوت الاجتماعى التى تزداد إتساعاً بين فئات العمال وطبقات العمل الصناعى .

= النقل والتسويق والأعلام والبيع بالأضافة إلى العاملين فى المهن الفنية العليا، هم وكبار الموظفين بالمؤسسة أو المشروع لا دخل لهم بملكية المشروع أو حتى المساهمة فيه ، ومن ثم فلا يتسلط أحد منهم على المشروع أو يتحكم فى انتاجيته أو إدارته .

أنظر هنا الصدد :

Mills, Wright., White Collar, New york. 1951.

الفصل التاسع

شغل الفراغ

- إقتصاديات الفراغ والإنسان الاجتماعي .
- برامج الفراغ .
- الفراغ والطبقة الاقتصادية .
- الشباب والفراغ .
- إقتراح مخطط .
- خاتمة

تمهيد :

قد تكون لمشكلة شغل الفراغ Leisure جانبها الاجتماعى ، إنما لا يفوتنا أيضا وفى نفس الوقت دراسة جانبها الاقتصادى والسياسى، بالالتفات إلى الوجه الواقعى والسائد بين طبقات الناس على إختلاف المذاهب والمشارب، وكيف يقضون وقتهم فى أعمالهم وأسواقهم ، فقد يهتم السياسى بالدرجة الأولى بما يقضيه الناس ويشغلون فيه الفراغ سواء فى جدهم أو هزلهم، ولهوهم وعبثهم .

الفراغ والانسان الاجتماعى :

إن الشعور بمشكلة الوقت والفراغ ، هو شعور طبيعى ومألوف بين طبقات الناس على إختلاف مشاربهم وأذواقهم . ويشعر بها الإنسان منذ قديم الزمان ، فهى مشكلة مزمنة، يشعر بها الراشد . والمراهق، ويعانيها الكهل والطفل . وهناك دراسات خاصة فى هذا الصدد تتصل بسيكولوجيا الأطفال ، وسوسيولوجيا الشباب وتتعلق بكيفية إستغلال الشاب لفراغه بأفضل أسلوب ممكن لقطع الوقت الاقتصادى .

فالمشكلة هى مشكلة كل فئات العمر من شباب وشيوخ ، وكل طبقات السن من رجال وأطفال . فهناك فروع متخصصة فى ميدان علم الاجتماع ، تدرس ما يسمى بسوسيولوجيا الأطفال Sociologie de l'enfant ، وكيف تتكون جماعات الطفل الصغير ، وصداقاته ، ودراسة لعبه وألعابه ، وتحليل شخصيته من خلال « جماعات اللعب » ففيها ما يعلل ميوله العدوانية حين يكون عدوانيا agressive ، وفيها ما يعلل قدراته التعاونية ، وفيها أيضاً ما يفسر علاقاته بالآخرين إما عن طريق « الزعامة » أو « التبعية » والاستكانة .

وقد تعانى مختلف فئات الجنس من الرجال والنساء من مشكلة الفراغ، وقضاء

الوقت باستخدام وسائل الترفيـــه ، وبرامج التسلية ، كالعروض والمشاهد الاستعراضية ، والرقصات الجماعية ، أو الغناء والسمر ، وبعث البهجة والنشاط والحيوية ، وقضاء الوقت الممتع ، طلباً للراحة ورغبة فى الإستجمام والاستفادة من الأجازات على نحو علمى وسليم .

والرجل أسلوبه فى شغل الفراغ ، الذى يتمايز تماماً عن المرأة ، كما تقضى الفتاة الصغيرة وقتها بطريقة خاصة ، قد لا تألفها المرأة الناضجة ، وقد لا تستسيغها زوجة أوأم وإنما تتوافق فقط مع شابة عذراء . فلكل سن أو جنس ، ولكل فئة عمرية طريقتها الخاصة اللاهية أو الجادة فى الاستمتاع بالوقت المسعد السعيد، حين ينشر الانسان البشر والبهجة فيسعد الآخرين من حوله بطريقة خاصة ، تتفق وأنماط الثقافة . وتتوافق مع الميول والاتجاهات ، وتألفها كل الفئات الشبابية على إختلاف دخولها وطبقاتها .

ولاشك أن هناك ألوان مختلفه من برامج شغل الفراغ، إما عن طريق السياحه أو الرحلات ، وإما بالقراءة الجادة الممتعه ، بمعنى أن هناك درجات من « الترفيه والإمتاع والمؤانسه » ، وسط جماعات تتقارب فيما بينها عناصر الثقافه ، وتتشابه أنماط الفكر والسلوك ، فى فئات واحدة ، تجمع فيما بينها وحدة العمر فتتقارب الطبقات وتمتزج فيها الصداقات الوطيدة بين شباب الجنسين ، فى سلوك ديموقراطى وفى جو إجتماعى مرح، يخلق روح الفريق المتعاون الذى يقضى وقتاً منظماً ومبرمجاً ، وتحت إشراف منضبط وموجه من الآباء والأساتذة .

ولقد أثبتت الدراسات السيكولوجيه، وفى ميدان علوم الصحه النفسيه بالذات، أن النجاح فى إستخدام الوقت وحسن إستغلاله ، إنما يتحقق فيما يثير البهجة والمتعه من جهـه ، وفى الإنشغال بالنافع المفيد من جهة أخرى .

الفراغ والطبقة الاقتصادية :

ومن المألوف أن تتأثر «الطبقة الاقتصادية» بطريقة شغل الفراغ ؛ التى تختلف باختلاف درجات «الغنى والفقر» وتمايز «طبقات العلم والفكر» وأنماط «الثقافة والتخلف»، حيث نلحظ فى وضوح كامل أن للبدائى والقروى والحضرى، ألعابه وملاهيه، كما نلحظ أيضاً أن للجاهل والمتعلم والمثقف أسلوبه، وللفيلسوف والكاتب والفنان ، طرائقه فى الإشباع والامتاع .

وهناك مؤسسات لشغل الفراغ ، كالملاهى والمقاهى ودور السينما والمسرح والسيرك ، والنوادى الرياضية والاجتماعية ، وكلها أماكن لقضاء الوقت الصحى والممتع ، وشغل الفراغ الاقتصادى ، وتختلف هذه المؤسسات الرياضية والاجتماعية، طبقاً لدرجة نمو المجتمع المحلى، واستعداده للتنمية والتطوير. واستناداً إلى دراسة ظواهر اللعب واللهو ، والتسلية والغناء ، يمكننا أن نتوصل إلى السبب المباشر فى وجود الفلكلور ، بكل نماذجه وأنماطه، حين نجد أن للشعوب والجماعات والثقافات ، فنونها ورقصاتها ، الأمر الذى يؤكد لنا كيف ينبع «الفن القومى الأصيل» من روح الشعب ، ويجسد آماله ، ويعبر عن آلامه ، ولكل فن طريقته فى التعبير ، ففى فن الموسيقى مثلا نجد كيف تعبر آلات الموسيقى ، عن كل مايدور فى المجتمع ، حيث تظهر الموسيقى فى كل مجتمع لكى تسجل لنا وترصد أفراحه وأتراحه . والغناء فن يشارك الموسيقى الجادة أحياناً ، اللاهية فى أغلب الأحيان . ولا شك أن الدين كنسق اجتماعى عتيق ، هو الذى يفسر لنا ، ويعلل المصادر الأولية للرقصات البدائية التى كانت تدور يوماً ما حول «التوتم»[1]

(١) «التوتم» هو المعبود الحيوانى ، الذى فيه تتجسد أرواح الآلهة فى العقيدة التوتمية.

Totemism أنظر أيضا فى هذا الصدد :

Durkheim, Emile., Les Formes Elémentaires de La vie Religieuse, Félix Alcan Paris 1912.

Totem » ، وهي مشهد من الكهنة الذين كانوا يرتلون التراتيل الدينية في شكل غنائي ممتع ، وفي نمط فكلوري مصحوب بأنغام من الموسيقى التي قد تضفي جواً جنائزياً تارة ، أو دينياً ومقدساً تارة أخرى .

والكورس Chorus ، هو مشهد غنائي ، والكورال Choral هو ترتيل ديني . ولقد صدرت أوائل الثقافات القديمة ، منذ صدرت الحضارات الأولى ، في الهند والصين ، وأقيم المسرح القديم أمام المذبح ، وأعد رجال الدين النماذج الأولى لصدور الفن في ميادين الغنـــاء والانشاد الديني ، والتراتيل ، والرقصات الدينية الممزوجة بالتعبد والتقرب والاسترحام ، طلباً لعفو الآلهة ورضاهم .

ولقد أكد لنا « إميل دوركايم » في كتابه عن « الصور الأولية للحياة الدينية » أن « الدين » كظاهرة إجتماعية ، هو أقدم النظم ، وأن تصورات الدين وطقوسه ، هي أوائل التصورات والطقوس ، وأن « الإنسانية » برمتها ، قد أطلت على الوجود من « عيون الدين » ونوافذ « العقيدة » . ففي جوف الدين ولد العلم الفلسفة والفن . ولذلك صدرت كل فنون الرقص والتعبير الحركي ، والايقاع والباليه ، عن مصادر دينية وتصورات وعبادات ، وبذلك بدأت فنون الرقص في المعابد ، حيث ظهرت مختلف الأنساق القديمة من الفنون ثم دخلتها سائر العادات الشعبية على مر الزمان ، فأصبح « الفكلور الشعبي » حقيقة موضوعية في « دنيا الفن والرقص الشعبي » بعد أن كانت هذه الفنون قد امتزجت من قبل ، بأمشاج من سحر ودين .

الشباب والفراغ :

وكم نحن فى جمهوريتنا ، وفى سائر مدننا وقرانا ، فى حاجة إلى تنمية عاجلة وسريعة ، وكم نحن فى بلدنا نتطلع لفلسفة تربوية جديدة ، تعيد النظر فى هياكل وبرامج التنمية والتعليم ، وإلى تغيير جذرى وتطوير جوهرى فى طرق ومناهج التدريس ، حين نخلف وراء ظهورنا ، تربية عتيقة ولا جدوى منها ، فهى بتلقينها ضاغطة خانقة ، « تفرض مادة جامدة » وتخلق شخصية فارغة ومقصوعة ، تتميز بأنها ناقصة الذكاء ، فاقدة الفحوى ، فينبغى ألا نأخذ بتعليم ملقن ، يقضى على ملكات الإنسان ، ولا يخلف لنا سوى نماذج متجانسة من بنى البشر ، حين تتواتر وتتدافع نحو التخرج كل عام ، وفى أنماط استاتيكية دفعات فجة وزائغة البصر ، وهى نماذج تحققت فى صور عقلية متشابهة ، وصيغت فى قوالب جامدة . فتوحدت جميعها فى نفس الشكل والمضمون .

ونظراً لخطورة كل هذه الأسباب والنتائج ، فعلى رجال التعليم ومخططى التربية أن يعملوا على خلق المناهج وتطوير البرامج ، وتحرير الفكر ، وتشجيع القدرات الذاتية ، وإنعاش ذكاء الإنسان ، وتنمية شخصيته ، بالكشف عن مواهب الفرد وإمكانياته ، ودفع طاقاته الخلاقة ، نحو العمل المنتج ، ونحو الإحساس بأهمية أو « قيمة الزمن كعنصر اقتصادى » .

اقتراح مخطط :

ا — ولكى يحقق التعليم الجامعى أهدافه ، علينا أن نصمم برامج العمل ، وأن نحدد مجالات التطوير ، فنرسم إطاراً مخططاً يتجه العمل فى مساره ، مع معرفة وفهم الاجراءات العملية والتطبيقية ، لتحقيق « الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية للجامعات » .

فى جمهورية مصر العربية ، هناك قطاعات قروية وحضرية وبدوية ، وكلها مناطق ومواقع تحتاج إلى الكثير من الجهود فى ميادين الرعاية والثقافة والتنمية بفضل وسائل الإعلام السمعية والبصرية، مع تنظيم الخدمات، وتوجيه الطاقات، وشحذ الهمم ، بخلق وتنمية « القيادات » الأنشطة والمنتجة ، وبناء « الكوادر » الوطنية والمخلصة .

ولا شك أن القطاع القروى فى جمهوريتنا ، إنما يشكل القاعدة العريضة والأساسية فى الاقتصاد المصرى . بالاضافة إلى أن « القرية المصرية » هى أكثر القطاعات على العموم حاجة إلى الرعاية والخدمات ، حيث تعانى القرى فى مصر الكثير من صنوف النقص والتخلف على المستوى الزراعى والصحى ، وفى الميدان التعليمى والحضارى ، ومن ثم كان لزاماً على جامعتنا أن تقوم بسد الكثير من جوانب النقص فى القرية المصرية .

وبالنسبة لطلبة جامعة الاسكندرية بالذات ، تتعدد القرى المتاخمة ، التى تعيش كمجتمعات هامشية Marginal ، حيث تحاط الاسكندرية من كل جانب بمناطق زراعية وبيئات قروية ، على شكل « عزب صغيرة » مثل « عزبة سعد » أو « عزبة عبد اللاه » أو عزبة « أبو سليمان » . ونظراً لقرب هذه العزب ، فيسهل على طلاب جامعة الاسكندرية ، التردد عليها أو القيام بالمسوح الزراعية والطبية، والصناعية ، مع تقديم مختلف الحلول لتنمية هذه المناطق ، وعلاج ما تعانيه من مشكلات إقتصادية واجتماعية وثقافية .

ب ــ واستناداً إلى هذا الاقتراح المخطط ، تتعاون كليات الزراعة والطب والهندسة ، ومعاهد الصحة والتمريض ، وأقسام الاجتماع فى كليات الآداب والتربية والخدمة الاجتماعية ، بالإضافة إلى جهود طلاب كليات التجارة والحقوق

فى نشر الوعى الاقتصادى والثقافى ، وقد يشارك طلاب «مدارس المعلمين العامة» فى بذل كل جهد فى جمع المادة العلمية المطلوبة . وفى محو الأمية وتعليم الكبار .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو التأكيد على «وظيفة الجامعة» بإلتحامها بالمجتمع ، واقتحامها لحل المشكلات ، فتخطط «هيئات التدريس» البرامج العلمية والتطبيقية ، لكيفية إستغلال هذه الامكانيات ، والطاقات . بالاضافة إلى الافادة من ترابط الجهود وتكثيفها ، ومن أجل رفع مستوى الحياة فى هذه المناطق ، وتنميتها زراعياً واقتصادياً وتربوياً وثقافياً ، فتتغير بالضرورة وبفضل هذا التخطيط ، «خريطة القرية» إيكولوجياً وبيئياً واقتصادياً وسيكولوجياً ، فتتجه «ظواهر الحياة القروية» نحو ما هو «أفضل» وما هو «أمثل» .

جـ — وهناك إمكانيات بشرية وعلمية ، وطاقات وخبرات يمكن أن توجهها الجامعة ، بإستغلال المعامل وأماكن البحث العلمى المزودة بأحدث نتاج تكنولوجى وبالاستعانة بالآلاف من الشباب الجامعى الطموح وتتاح أيضاً ، جهود مكثفة بين كليات الجامعة ، يمكن أن تتعاون لكى تنظم لنا صفوف المشتركين من الطلاب ، وتحدد لجان النشاط ونوعيته ، كلجنة التربية ، ولجنة تنمية المجتمع ، ولجان الرعاية الاجتماعية والخدمة العامة ، بالاضافة إلى لجان طبية وزراعية وعلمية وإقتصادية .

ومن الإمكانيات الفنية القائمة الآن ، وجود إدارة الرعاية الاجتماعية فى الجامعة التى قد تشارك فى أنشطة رياضية وفنية وعلمية ، بإستخدام فرق الجوالة وتحويل طاقات الطلاب إلى أعمال «إقتصادية منتجة ومنظمة» تحت إشراف هيئات التدريس بالجامعة ، كل فى نطاق عمله ومجال تخصصه . وهكذا تكون وظيفة الجامعة فى التنمية ، ودور الأستاذ فى التوجيه والإشراف ، ومن هنا يستطيع

« الطالب الجامعى » أن يقوم بوظائفه العملية والاقتصادية ، فطالب الطب مثلا ، ينشغل بالجوانب المرضية والعلاجية ، عن طريق التوجيهات أو الإرشادات الصحية . وطالب الآداب والتربية والخدمة الاجتماعية ، لا يفكر أو يدبر إلا فى علاج مشكلة شائعة ، هى « تعليم الكبار» عن طريق « محو الأمية» ونشر الوعى بين أهل القرى .

أما طالب الزراعة ، فيقوم بالتوجيه والارشاد الزراعى ، كما « يعلم ويتعلم من الفلاح» ، حين يصطدم بخبراته العملية ، فتهتز نظراته العلمية ، ويضعف إيمانه بالنظريات الجافة التى فقدت الحياة . وهكذا يعمل ويفكر الطالب ، ويمارس بالفعل « مايفكر فيه » ، كما يطبق عملياً ما كان قد تلقاه من دروس نظرية . وهذا هو اقتراح مخطط ، للتعليم كعملية إنتاجية ، و « نموذج تصورى »، للتربية بالممارسة والخبرة والتجربة ، « برنامج عمل» ، أرجو أن يحظى باهتمامات رجال التخطيط والاقتصاد والتربية فى مصر .

وتتجه الأذهان فى هذه الأيام ، نحو تغيير النظرة إلى التربية والتعليم بمنظور جديد يعالجها كعملية إنتاجية . لأن العملية التعليمية هى عملية إقتصادية ، لا تفتح «إلا كرأسمالى مستثمر يظهرعائده فى المستقبل القريب أو حتى البعيد ».ولعلماءالتنمية إهتمامات بارزة بعمليات التربية والتثقيف والتعليم ، لأن مشكلة التنمية فى جوهرها هى مشكلة « إنسانية » قبل أن تكون « مشكلة إقتصادية » لها أصول إنتاجية وجذور مادية . ومن أجل هذا يقول السير بيرسى نن: Percy Nunn وهو من كبار المربين : Nothing good can enter the human world except in through the free acivities of every man or woman ».

لا خير يمكن أن يصيب هذا العالم ، إلا عن طريق النشاط المطلق للأفراد، نساءاً كانوا أو رجالا » .

أ ـ وهناك ضرورة تربوية ملحة فى هذه الأيام ، تقتضى توظيف التربية والثقافة والفكر الجامعى الخلاق من أجل دفع عجلة التنمية الاقتصادية . وعلينا أن نفكر فى عمق ، وفى ضوء ما تمليه تلك الضرورة فى ظرف اقتصادى عصيب ، فنعمل دوماً وبلا إنقطاع . فى ميدان التنمية مع ما يواكبها من تربية وتثقيف . فن المقطوع به علمياً أن « التعليم دوره فى حل مشكلات التنمية الاجتماعية والاقتصاديه » ، وهذا ما يقوله خبراء التنمية والتعليم .

وترتبط التنمية بالتعليم ، حين تترابط الجهود العلمية، وتتعاون كل الامكانيات التربوية والطاقات الجامعية ، وبتخطيط علمى منظم، من أجل تطبيق كل ما جادت به قرائح وخبرات علماء الاجتماع الثقافى والاقتصادى والتربوى والتنموى من شتى الدراسات النظرية والتطبيقية ، وممارسة تلك الدراسات ممارسة عملية فى الحقل الميدانى .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نملأ ذلك الفراغ القائم بين « النظرية » و « التطبيق » ، وبالتالى يمكن الاستفادة من العلم والتجارب فى ميادين التنمية ، عن طريق تطوير العملية التعليمية وربطها باحتياجات اجتماعية، وتخطيط برامج التربية طبقاً لاحتياجات المجتمع ومطالب « الهيكل الاقتصادى » وحاجاته .

ودعماً لمبادىء المشاركة العملية ، وبعثاً لروح المساهمة ، مع تعميق مفهوم « العلم للمجتمع » وتوسيع نطاق المناشط الممتدة فى حقل التطبيق والتجريب . كان لزاماً على الجامعات ، كمعقل أصيل من معاقل الفكر ، أن تعمل وأن تنطلق وأن تفسح طريقاً للآلاف من الشباب لبذل الجهود فى ميـــادين التنمية والرعاية والارشاد والخدمات العامة .

ب ـ ومن هنا ينبغى أن يتحول قادة التربية والفكر ومخططو التعليم الجامعى

فيتجهوا بكل طاقاتهم نحو دراسة مواقع حياتنا العملية بأسلوب علمي ومتكامل ، حين ينتشر طلاب جامعاتنا في « قراهم » و « كفورهم » ، وينتقل علماؤنا إلى مختلف مراكز البحث العلمي ، وينطلق الباحثون والدارسون بين سائر « المعامل » و « المصانع » و « المزارع » حتى تؤدى الجامعة والمعاهد والمدارس ، دورها الاجتماعي الصحيح ، وتصبح مراكز أساسية للاشعاع الثقافي والفني والاقتصادي والصحي .

فالمناهج الحالية التي تعتمد على الدراسة النظرية وحدها ، دون تجريب أو تطبيق ، تصبح مناهج سلبية وعرجاء ، إذ أن « النظرية » لا تستطيع الوقوف على أقدامها ، حين لا تستند إلى « الممارسة العملية » . وفي هذا المعنى يقول مفيستوفيل في مأساة « جوته Goethe » المشهورة « فاوست » إن النظرية رمادية اللون يا صديقي ، ولكن شجرة الحياة خضراء إلى الأبد » . فالدراسة النظرية الجافة لا نجني منها ثمار ، إلا إذا ارتبط العلم بالعمل ، والنظر بالتطبيق ، ومن هنا تتصل التربية بالحياة ، وترتبط المدرسة والجامعة بالمجتمع ، وتستند الثقافة إلى أصول اقتصادية وجذور واقعية .

ولما كان ذلك كذلك ، فإن الدراسة النظرية المجردة إنما تعجز عن القيام بدورها الاجتماعي ، حين لا تحاول في حماس علمي وفي غيرة وطنية وروح قومية جادة ، أن تعمل دوماً على فهم ودراسة تلك الدراسات النظرية الزاخرة ، وتطبيقها في واقعنا الاجتماعي المحلي .

د — وإنطلاقاً من هذه المزاوجة بين الفكر والعمل ، والتكامل بين قطاعات الثقافة والتربية ، والتنمية والانتاج ، نستطيع أن نقترح مشروعا ، أو أن نخطط برنامجاً تكاملياً ، تقوم به الجامعة بأساتذتها وطلابها وبكل كلياتها ومعاهدها ، فتشارك كليات الطب والعلوم والصيدلة والزراعة ، في مشروعات تنمية المجتمع ،

كما تتوظف معاهد التمريض ومراكز الصحة العامة، فى نشر الوعى الصحى، وتسام كليات الآداب والتربية ومعاهد المعلمين، بكل أقسام الاجتماع والخدمة الاجتماعية، فى رفع المستوى التعليمى والثقافى، بمحو الأمية وتعليم الكبار فى المناطق التى تحتاج إلى مثل هذه الخدمات.

الوقت الاقتصادى :

مع صدور مشكلة الفراغ، ظهرت السلبية واللامبالاة، وانتشرت روح التمرد والتفكك، وضعفت سطوة القانون، مع فقدان المعايير، فانتشرت فئات وجماعات «الهيبز» لشعورهم بالفراغ والخواء. ولعل السأم boardom والملل monotony والضياع، كلها ظواهر تعبر عن أبلغ درجات الفراغ.

والانسان الذى يعرف قيمة الوقت الاقتصادى، هو إنسان يحترم العمل ولا يشعر بالملل والخواء، لأن الفراغ دون عمل أو أمل، يقلل من طموح الانسان ويضعف من حماسه. وشغل الفراغ باللعب والترويح Recreation والتسلية والانتعاش، يصرف الطاقة الزائدة Surplus energy عن الحاجة كما يحقق «النشاط الترويحى» حالة من التوازن Equilibrium فى حياة الانسان النفسية والاجتماعية فينفس الانسان عن الحبيس من الطاقة، ويستهلكها فيما هو «نافع ومفيد».

ويهتم «علم الاجتماع الشبابى»، ببرامج شغل الفراغ وتنظيم الرحلات والسياحة. فليس الوقت فراغاً زمنياً، وإنما هو شىء له قيمته الاقتصادية، فالوقت لازم وضرورى وشرط فى كل عمل، وجهود فى كل سلعة. ولقد ظهرت أهمية شغل الفراغ بعد أن ظهرت الانحرافات الواضحة فى أنماط سلوك الشباب، سواء أكانت بين جماعات متطرفة دينياً، أو منحلة سياسياً، الأمر الذى يفرض ضرورة التخلص من «أنماط السلوك الانحرافى» بين الشباب.

ويعلى علماء الاجتماع، أن يواجهوا خطر الجماعات العقائدية الدينية والسياسية

وأثرها على توجيه الشباب ، فتظهر أشكالا من الانحرافات الدينية واللادينية .
وعلينا بالتوعية الدائمة ، والتوجيه الدينى السليم ، واحترام ونقاء الشعور الدينى ، الخالص ، دون النظر إلى عامل سياسى أو دنيوى. ومن هنا يستطيع عالم الاجتماع الدينى والثقافى والتربوى أن يخلص شبابنا من الأيديولوجيات الضارة ،عن طريق إعداد البرامج فى ميدان تنظيم « شغل أوقات الفراغ Leisure » .

٤ – مشكلة الفراغ الاقتصادى :

إذا كان « الوقت من ذهب» كما يقول المثل المألوف، فالوقت ليس شيئاً تافهاً ، وإنما هو شيء له قيمته، وليس الوقت فراغاً زمانياً ، وإنما للوقت دوره ووظيفته فى تحقيق المصالح والآمال ، وقضاء حاجات النـاس ومناشطهم . فالوقت لازم وضرورى كشرط يتوافر فى كل عمل . والعمل هو الواجهـة الحقيقية لكل نتاج إقتصادى أو فنى، حيث يبدع الفنان ويخلق الأديب والفيلسوف، كما ويعمل الفكر دائماً من أجل الحياة ، فتزداد الخبرة ، مع زيادة عمق النمو الحضرى ، ومن هنا كان للوقت قيمته فى الثقافات الغربية، بل وهو أكثر أهمية وقيمة منه فى « الثقافات الاستاتيكية » أو التقليدية . فلا قيمـــة للزمان والمكان عند البدائى والقروى والبدوى ، وفى دراسة عن الزمان عند الفلاح الجزائرى فى Kabyle ، قام بها « بورديه Bourdieu » . تبين أن « مفهوم الوقت هومفهوم ثقافى ونسبى » . وليس للوقت عند الفلاح الجزائرى أية قيمـة إقتصادية . وإن كانوا فى قرى الجزائر يربطون بين الوقت ومناشط إقتصادية مثل فكرة السوق الذى يقام كل أسبوع فى شتى القرى التى تختار كل منها يوما للسوق التجارى . ولذلك حين يريد الفلاح الجزائرى أن يعبر عن مفهوم زمانى مستقبل يشير إلى معنى الأسبوع القادم، فإنه لا يعرف معنى الأسبوع لغة ، وإنما يقول لنا فى« السوق القادم » ، وفى هذا المعنى يتضمن الزمان للقروى الجزائرى فى الواقع ، تصورات استاتيكية ومفهومات

قدرية ، ومقاصد إقتصادية (١).

وقد يسبب الملل والضيق والضجر ، كحالات نفسية تبعث على الاهتمام بالترفيه وتؤدى إلى « قتل الوقت » فى ما لا ينفع ومن ثم يستهلك الإنسان وقته دون أى تقييم إقتصادى ، بل نقول إن « وقت الملل » هو ضياع بلا قيمة إقتصادية ، وهو وقت سيكولوجى ، وليس وقت عمل أو جهد مبذول أو « قصد إقتصادى مقصود ».

ولا شك أن الفراغ هو السبب المباشر للاستهلاك ، ولذلك تمتلىء المقاهى فى أحياء العمال والفلاحين حيث تنتشر المخدرات ، نظراً لشدة الاحساس بالفراغ ، فيزداد الاستهلاك كلما إزدادت حدة الفراغ ، وشدة الإحساس به .

ولاشك أن « الانتظار » مثلا هو حالة من الفراغ ، فيزداد الملل كلما إزدادت فترة الانتظار دون عمل أو مجهود ، فيكون المنتظر قلقاً وملولا ، فيمضى الوقت وكأنه الجمر ، فيزداد حنقه واستهلاكه للتدخين وتناول المرطبات والأطعمة ، أثناء فترات الانتظار ، وفى حالات الفراغ من العمل فى أوقات الظهيرة وفى المساء .

وفى حالات الانتظار يمر الوقت ثقيلا ، ولذلك تنجح المشروعات الاستهلاكية بجوار محطات القطار ، وفى كل أماكن الانتظار المألوفة ، وفى المطارات العالمية .

وقد يكون للوقت قيمة بورجوازية ولذلك يختلف قضاء الوقت بين طبقات الناس ومشاربهم . ومن هنا صدق المثل القائل « خبرنى كيف تقضى وقتك أخبرك من أنت » .

فنحن نعرف كيف يقضى العامل وقته ، الذى يتمايز عن كيفيه قضاء الوقت بين الفلاحين ، وشتان ما بين أوقات الترفيه بين طبقات الادارة البيروقراطية من

(1) Bourdieu, Pierre., The Attitude of the Algerian Peasant toward Time, article from, Mediterranean Country men, Mouton, 1963. P. 56.

جهة ، وبين طبقات العمالة المنفذة ، من صغار الموظفين والمشرفين على العمال من جهة أخرى .

والانسان فى حالات فراغه وانتظاره أو فى أجازته أو انقطاعه عن العمل هو أكثر استهلاكاً منه فى حالات إنتاجه وعمله. بمعنى أن الفراغ من العمل هو السبب الحقيقى لكل عملية استهلاكية .

ولذلك يقال إن الفراغ مفسدة ، لأنه يزيد من شعور الانسان بعدم الرضا والضياع ، إذا ما شغل الانسان وقته بما لا ينفع الناس ، أو يعود بالخير عليهم . هذه حقيقة تؤكدها دراسات سوسيولوجيا الشباب ، وسوسيولوجيا الأطفال Sociologie de l'enfant ولذلك علينا أن نشغل أطفال المدارس والشباب وطلاب الجامعات فى أوقات فراغهم الصيفية ، بالعمل الناجح والمفيد ، فلنشغلهم بما ينفع ، بدلا من قضاء الوقت فيما يضر الصالح العام من إنحرافات سلوكية قد يعاقب عليها القانون. فلنشغل الناس بقضاء وقت إقتصادى نافع وممتع ، بدلا من التزام ما لا يليق من السلوك الانحرافى وإرتكاب المعاصى التى تفضى إلى الجريمة والجناح . الأمر الذى يزيد من حدة التفكك والصراع مما قد يؤدى بدوره إلى التمرد والثورة . وإذا ما عرفنا قيمة الوقت الإقتصادى ، لفهمنا إختلاف قيمة هـذا الوقت ، وتقييمه طبقاً لمحكات خاصة نظراً لإختلاف لون الثقافة والإدراك والطبقة .

٥ - إقتصاديات شغل الفراغ Leisue Timre :

ظهرت أهمية دراسات شغل الفراغ ، بعد أن ظهرت الإنحرافات الواضحة فى أنماط سلوك الشباب ، سواء أكانت بين جماعات متطرفة دينياً ، أو هدامة سياسياً ، فينبغى أن نتخلص نهائياً من أنماط السلوك الانحرافى بين الشباب، ولابد

من الدعوة إلى « الضبط أو الانضباط » ، حتى يذوب هذا التطرف الدينى أو السياسى ذوباناً ، داخل إطار من الفهم والوعى والدراسة والعلم . ومن ثم كانت مسألة شغل أوقات الفراغ.. بالنسبة للشباب هى مشكلة جوهرية من مشكلات علم سوسيولوجيا الفراغ Sociology of Leisure . ومن أجل الفهم نواجه كل « وسائل الاعلام» الفكرى وأدوات الاتصال الجماهيرى من خلال الكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئية بفضل مجهودات « الصحافة وأجهزة الراديو والتليفزيون والترانستورز . وينبغى أن نشرح قضايا المجتمع ومشكلاته حين ينتقل الاعلام إلى القرية وإلى المدينة ، وحتى تتطهر هـــذه المنطقة العربية كلها من التأثير الايديولوجى ، ومواجهة تلك الجماعات المنحرفة ذات « التعصب الدينى الواضح » بالمناقشة والفهم ، لأنها من أخطر هذه الجماعات المتطرفة ، وأكثرها قسوة وبطشاً وأبعدها أثراً فى نفوس الشباب تحت ستار الدين وباستغلال « طهارة الشعور الدينى النقى » ، فى سبيل مصلحة « من وراء « هذه الجماعات الغريبة على الثقافة «المصرية» والتى لا يمكن أن تكون « جماعات مصرية » ، لأن مصر لن تخلق مثل هذه «الجماعات الدينية المتطرفة » على الاطلاق ، فلابد من وجود مصادر وثقافات أخرى « غير مصرية » ، وراء هذه الجماعات الدينية المتطرفة .

وعلينا أن نواجه خطر الجماعات الدينيـــة المتطرفة على إتجاهات الرأى بين الشباب المصرى ، وهو أمر من ناحية « الأمن الدولى » « خطر عالمى ومعروف » ينتشر بين شباب العالم فتظهر « أشكالا من الإنحرافات الدينية واللادينية ». ونحن كأساتذة فى الجامعة وكآباء لمثل هؤلاء الشباب ، ينبغى أن نعلن الحرب العلمية والفكرية ، ضد هذه الجماعات الدينية المتطرفة ، حتى يميز شبابنا بين الأصيل والدخيل ، بين الحقيقة والضلال . من أجل الحفـاظ على قيم مصر ومثلها العليا ،

وحتى لا تتدهور أخلاقيات الشباب وتفسد أجيالنا بتسلسل النزعات الهدامة والاتجاهات العنصرية التى تسبب الانحلال الخلقى .

لذلك كان على علماء النفس والاجتماع والدين الاهتمام بمشكلة شغل أوقات الفراغ بين أجيال الشباب فى الجامعة والمصنع ، فى القرية والمدينة ، حتى تصاغ أنشطة الشباب وتصب فى « قنوات مشروعة دينياً وإجتماعياً وخلقياً » .

ولذلك فإن نشر الوعى الدينى بين الشباب ، هو أمر مطلوب ، حتى يستطيع أن يقاوم التيارات المتطرفة ، وأن يدافع عن الدين الحق إزاء البدع والضلالات ، فكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . وهناك كتب دينية من نوع خاص تنتشر فى مكاتب النشر كما ويغلب عليها الطابع الدينى المتطرف ، وعلينا أن نعيد النظر إلى هذه الكتب ، وأن نقرأ ما جاء فيها ، حتى نقدم للشباب الصالح منها ، ونبعد عنه ما قد يثير فيه « البلبلة » بفضل إنتشار الأفكار الدينية الغريبة عن الدين الإسلامى الحنيف .

وكم يكون طالب الجامعة ، فى حاجة إلى قراءة الكتب الجادة التى تنفع ، فتمكث فى الأرض ، أما ما لا ينفع فهو قبض الريح ، فيذهب كالزبد جفاء . والقراءة متعة ، وترقية للفكر والمشاعر ، وهى وسيلة جوهرية من وسائل شغل أوقات الشباب بين « جماعات الطلاب » و « عمال المصانع » فقد تحقق قراءة كتاب مفيد متعة وفهماً وتسلية ، بالنسبة للمشتغلين فى العمل الصناعى ، والمهن أو الحرف الفنية والصناعية ، التى قد تتطلب الراحة والترفية بعد مجهود العمل المضنى الذى يبذل فيه العامل مجهوداً جسمياً وعضلياً . ومن هنا تصبح القراءة ضرورة للتسلية وترفيه وتثقيف العامل والفلاح والطالب ، إذا إنتشرت الكتابات التى تثقف الإنسان

وتنميه ، بتربية فكره وعقله ، وترقية مشاعره وذوقه وخلقه ، وتشبع القراءة حاجات الشباب النفسية والاجتماعية ، وتزيدهم فهماً لدينهم ودنياهم .

ولا شك أن مرحلة الشباب ، هي أهم مراحل العمر بالنسبة للإنسان الفرد ، فالشباب هم « ربيع المجتمع » وأمله وقوته وعدته . هم « الطاقة الحقيقية الكامنة » في كل مجتمع ، والتي هي في مسيس الحاجة إلى ما يوجهها نحو « المفيد والنافع » من جهة ، كما ويبعدها عن « السلبي » و « الهدام » من جهة أخرى . وحبذا لو إنتشرت الكتابات المنطلية لسائر العمال ، والتي تخاطبهم والتي تثقف « الإنسان الصناعي » وترقى من مشاعره وتنمى خلقه وذوقه . وذلك لقضاء وقت فراغ مريح مع كتاب ممتع ، وسهل ، وسلس العبارة ، يتذوقه العامل والمهنى ، ويتغذى عليه بلغته القريبة إلى سيكولوجيا طبقات العمال فتشبع حاجاتهم ، وتزيدهم فهماً ووعياً . فكم يحتاج العمال كطبقة إلى ما يوجهها إلى النور ، وإلى مايدفعها نحو النافع المفيد للعمل والوطن ، بعيداً عن كل سلبية أو إنهزامية .

وعلينا أن نشجع العامل المثقف ، بتنمية شخصيته وقدراته وذكائه ووعيه ، ولاشك أن العامل المثقف أكثر إنتاجاً من العامل غير المثقف ، ومن ثم أصبحت الثقافة ودورها الدفاعي بالنسبة لفئات قوى الشعب العامل ، كالمذبة بالنسبة للذباب ، حتى لا يتأثر العمال بحركات دخيلة أو « نزعات فوضوية » . وبالثقافة يصبح العامل أكثر وعياً ونشاطاً واعتداداً بذاته ، فلا يتشدق بكلمات بيغاوية لا يتفهمها ، ولا يواكب النزعات المتطرفة ، التي تقتل ملكات الإنسان الذكائية ، فيتجمد فكره ، حين ينخرط في « طبقة » أو ينتمي إلى « طائفة » ، فيصبح العامل فرداً يتاجرون به باسم الحركة الشيوعية التقدمية ومن أجلها ، كما يتصرف بالأدوات . فأصبحت حياة العامل عارية عن الروح حين أسدل عليها الشيوعيون ستاراً كثيفاً ، فقضى على « الروح الإنساني » قضاءاً مبرماً .

فالفراغ كما نعلم مفسدة ، والوقت كما درسنا كالسيف ، والكتاب خير صديق لكل عامل وفلاح ، والقراءة كبدأ وهدف ، وكضرورة للتقدم ، هى الحقيقة النهائية والمستمرة التى لا تتوقف ، فلقد مات « الجاحظ » وعلى صدره كتاب .

ولكن مـاذا يقرأ شباب العمال ؟

ينبغى أن نحدد لشباب الصناعة ماذا يقرأ ؟ فأين هى صحف العمال وقصص الشباب ، أين أدب العمال الذى يشبع حاجاتهم ، وأين كتب ومجلات ، وفلسفة الشباب ، على إعتبار أن « مشكلة شغل الفراغ الصناعى » ، هى مشكلة جوهرية من مشكلات العمال اليومية .

الايديولوجيات الضارة وتنظيم الفراغ :

ينبغى أن يقوم « خبراء الصناعة » بتنظيم برامج ترفيهية لشغل الفراغ بين جماعات العمال . حتى تزداد قيمة الوقت بمعناه الاقتصادى ، وتتقارب وجهات النظر بين فئات العمال ، حين يشعر كل منهم بأهمية التعاون و « التضحية » و « النجاح » و « الانتاج » ، فيكون مثلنا الأعلى هو « العامل المثقف المنتج المتفوق » المدرب المهذب الذى يعرف كيف يقضى وقتـــاً طيباً نافعاً ومفيداً بعيداً عن الايديولوجيات الضارة والأفكار الهدامة .

وعلى النقابات أن تقوم بدورها الترويحى بين جماعات العمال ، وتوجيه الأنشطة الثقافية وتحقيق البرامج الاجتماعية والرياضية . فالفراغ هو الوقت الضائع دون منفعة أو عائد ، وبلا عمل منتج ، فهنـاك ساعات متعددة يقضيها العامل بعد إنقضاء فترة عمله اليومية ، فيفرغ من وقته الضرورى للعمل ، ويدمن الكثير من العادات الضارة كالتدخين وتعاطى المخدرات .

والبطالة مثلا ، لا تسمى فراغاً ، لأن البطالة فراغ إجبارى ودون عمل .
ولكنا نقصد بالفراغ ، هو حالة الخلو من العمل الضرورى ، وانقضاء ساعات
العمل ، بوقت أكثر راحة وترفيهاً .

وبذلك يتأثر أسلوب شغل الفراغ من مهنة إلى أخرى ، فالذى يفرغ من العمل
الذهنى أو الفكرى ، لا يشغل وقته بنفس الطريقة التى يقوم بها من يفرغ من العمل
الآلى أو اليدوى أو الميكانيكى والصناعى ، فلكل مهنة أو عمل أو حرفة أسلوبها
الخاص فى قطع الفراغ والتسلية ، طبقاً لون الثقافة والإدراك ، والاختلاف
الايكولوجى القائم بين الثقافة الحضرية والثقافة القروية (١).

الشباب والسلوك الانحرافى :

كثيراً ما يجنح الشباب ويتمرد ، فيحاول أن يغير من أنماطه الاستاتيكية
للسلوك التقليدى . والسبب فى هذا ؛ هو رغبة الشبات الملحة فى التطوير والتغيير
وميل الشاب الطبيعى إلى الأخذ بالغريب والشاذ من أساليب الفكر والنزوع .

وإذا ، درسنا السلوك الدينى بين الشباب ، لوجدناه يميل إلى التطرف والتمسك
بأهداب الدين ، وهذه جماعات دينية تتطرف نحو الأخذ بالمتزمت من القواعد ،
بينما تأخذ جماعات أخرى بأنماط ،لا دينية، أو بالتحلل وبالابتعاد عن القواعد ،
الأساسية والفرائض الدينية وقواعد الأخلاق الفاضلة .

ومن ناحية « الأمن العام » وأمن الدولة ، علينا أن نواجه خطر الجماعات
المتعصبة والدينية المتطرفة . فهو خطر عالمى معروف ، تنتشر سمومه بين سائر
فئات الشباب المريضة من شباب العالم ، ودراسة أسباب إنحرافاته الدينية
واللا دينية .

---

(1) Anderson, Nels, The Urban Communinty, Routledge Kegan Paul, London : 1960. pp. 347-370.

وشباب مصر، هم أمل مصر، كم هم فى مسيس الحاجة إلى «رعاية»؟! وعمال مصر، هم سواعد مصر، كم هم فى مسيس الحاجة إلى «تثقيف وتنمية» خوفاً عليهم من الغريب والشاذ من الأفكار والمتقدات المستوردة من خارج مصر؟! وعلينا إذاً أن نرعى أبناءنا بالفهم والتثقيف والعناية والهداية، نحو طريق الخير، ونحو النور، ونحو الحق، وهذا هو حق الشباب على الآباء وحق طلاب الجامعات على أساتذة الجامعات.

فكيف نشغل وقت الفراغ بالنسبة للطالب والعامل والفلاح، بدلا من ضياعهم بين خرافات أو خزعبلات نهباً للأفكار الرجعية المخربة، وللاتجاهات السياسية الهدامة. تلك التى تنتشر بين أبناءنا الشباب من طلاب الكليات والمعاهد، وفى المقاهى العامة بين شباب العمال، حيث يلتقى العمال دون أى رعاية أو توجيه، بل ويترك العامل نهباً لجهالة وإدمان المخدرات والاسراف على تعاطى المكيفات، حتى يدمن بعد ذلك كل الأفكار السياسية الهدامة والفوضوية. فعلينا كآباء وكأساتذة للجامعات أن نحارب «الانتهازية»، ولنرفض «الجمود العقائدى» وعلينا أن نشجع العامل على المزيد من القراءة والثقافة، من أجل تنميته وتطويره. ولقد أصبحت الثقافة، ضرورة لازمة فى حياة العامل الشاب أو الفلاح الكادح، لسبب بسيط جداً وهو أن حياة العمال من الشباب، قد أصبحت فى هذه الأيام عارية عن الروح، حين أسدلت عليها «وطأة التكنولوجيا» و«الجماعات المتطرفة» على المستويين الدينى والسياسى، ستاراً كثيفاً حجب كل شىء، فقضى ستار المادية الكثيف والمانع على وضوح الرؤية فانهارت القيم.

ولكل هذه الأسباب، أصبحت برامج القراءة والإعلام والتثقيف، ضرورة لكشف الايديولوجيات الضارة. الأمر الذى يجعل من القراءة «غاية فى ذاتها» أو «مبدأ أو شعار»، يؤكد لنا دائماً على أن القراءة هى منطلق فهم يفسر لنا

حقيقة الأمر الآلهى الذى صدر فى القرآن الكريم مع الآية القائلة : إقرأ باسم ربك الذى خلق » . ففى هذه الآية ما يكفى للنظر إلى مبدأ القراءة كأنبل غاية ، تحقيق أهدافاً حضارية ومعرفية ، راقية ، لكل إنسان يحترم إنسانيته ، فعلينا بالقراءة دون كلل أو ملل ، فالقراءة هى غذاء الروح والقلب والذوق جميعاً ، كما وتحقق لنا فى نفس الوقت أهدافها البعيدة فى ميادين الاقتصاد والتنمية ، والتكنولوجيا والتربية .

ولا أقصد بالفراغ هنا ، الترويح والترفيه ، وقضاء الوقت حول التليفزيون أو فى المتنزهات والحقول حيث الهواء الطلق . فهذا فراغ محبب إلى النفس ، بل وفراغ مطلوب إقتصاديا ، لأنه يقلل من النشاط والفاعلية ، فيقبل الإنسان بعدها على عمله فى شىء من الغبطة والارتياح والجدية والنشاط ، وهو ممتلىء حيوية ، فهذا فراغ إقتصادى مرغوب فيه ومقصد مطلوب ، لأنه فراغ له قيمته ودوره فى زيادة الانتاج ، فنحن نرفه عن أنفسنا من أجل النشاط وزيادة الانتاجية ، وهذا هو « الفراغ الاقتصادى » الحق .

ولا أقصد بالفراغ هذا المعنى الاقتصادى ، وإنما أقصد بالفراغ الوقت الذى يضيع ويتسرب دون هدف يتحقق فهو وقت يمضى دون عمل أو أمل .

فنحن نقطع الوقت أملا فى تحقيق الأمانى التى يشعر معها الانسان بالسعادة ، وكلما إرتفع مستوى الطموح aspiration عنده كلما إزدادت وترقت قيمة الانسان ، وكلما إزداد معها أيضا « مفهوم الوقت الاقتصادى » غزارة وغنى وخصوبة .

والفراغ الاقتصادى ،وهو فراغ دينامى، يخلق للمعجزات، أما الفراغ الاستاتيكى الذى ينقضى كزمن بلا مضمون يتواتر على نحو متطابق، ويمضى فى شىء من الآلية ، أو النمطية التى قد تؤثر على شخصية الانسان، فتقتل ملكاته، فيمضى وقد فقد أعظم ما يملك،

حين يتطلق الانسان فى حياته بلا معنى ولا هدف ، بلا قيمة للوقت ، بلا تحقيق للآمال ، مما يخلق لنا نمط « الانسان المتمرد » أو الانسان الذى يطلب « المضمون» لأنه لايشعر إلا بالخواء .

والفراغ الاقتصادى لا يمكن أن يؤدى بنا إلى الخواء والضياع ، بل إلى العمل والانتاج وزيادة لخلق والابتكار .

اللعب والترويح Recreation :

ولا شك أن برامج التسلية ، والانعاش ، والتنزه ، وبذل الجهد والحركة ، إنما يقصد بها بذل النشاط عن طريق الرياضة ، والسياحة بقصد الراحة ، والمتعة أو تجديد الخلايا بالجرى ، والانزلاق والفروسية ، ثم تنظيم برامج لأوقات اللعب واللهو ثم تحديد أوقات الراحة والنوم . وكلها أمور مطلوبة وضرورية فى دراسة سوسيولوجيا شغل أوقات الفراغ . حتى يتجدد نشاط الشباب ويزداد حماسه وحبه للوطن

ولا شك أن « اللعب » نشاط ترويحى ملحوظ فى حياة الأطفال أثناء مراحل نموهم سواء فى « الطفولة المبكرة أو المتأخرة » . ومن الخطأ أن نحرم الطفل من ألعابه ولعبه ، لأن لعب الطفل نشاط له ضرورته لإعداده للحياة . ولقد أثبتت الدراسات التجريبية والتربوية Pedagogique فى علم نفس الأطفال Psychologie de l'enfant عند كلاباريد Clapalède أن اللعب ضرورة فى حياة الطفل وله قيمته وجدواه فى تربية الطفل وتعليمه .

وليس اللعب ظاهرة طفلية وحسب ، بل هو ضرورة للشباب المثقف والعامل فهناك ألعاب خاصة بالشباب كجموعات وفرق وفرادى ، حيث يستطيع الشباب أن يتفوق فى السباحة أو المصارعة أو كرة القدم أو السلة ، وهناك فرق أخرى تهوى الفن والرسم والتمثيل ، ومجموعات إمتازت بالسمر والترفيه والغناء والرقص الجماعى الممتزج بالفلكلور الوطنى والشعبى وكلها مصادر تصرف الطاقة الزائدة عن الحاجة Surplus energy بين الشباب.(1).

(1) Ellenson, Ann:, Human Relations., Prentice - Hall. 1073.

ولا شك أن الشباب طـاقة متدفقة وحيوية غامرة ، وقد تتراكم طاقات الشباب المتدفقة ، فى حالة إنعدام الحيوية والنشاط ، فلا بد من وجود أعمـال وجهود مبذولة حتى يمكن إستهلاك هذه الحركات الحبيسة والطاقات المتراكمة ، عن طريق الرياضة والنشاط المبذول فى دنيا اللعب واللهو وألوان الترويح وصنوف التسلية الجادة واللاهية مثل « القراءة » وهى نوع جاد من التسلية ، أما السمر والموسيقى والرقص والغناء فهى نوع جاد من «التسلية اللاهية» الشباب المعاصر ، وقد تكون فنون « الرقص الشعبى » من أمتع أشكال التسلية الشبابية اللاهية ، وأكثرها مرحاً وبهجة وحبا فى الحياة (١).

ويقال إن اللعب نوع غير مكتسب nacquited ʼendency ، أو ميل طبيعى بين الأطفال والشباب ، من أجل التعلم والاعداد للحياة المستقبلة . فالقطة الصغيرة تتعلم من اللعب بكرة الخيط ، وتقوم بحركات بهلوانية مختلفة ، تمكنها من معرفة الكيفية السليمة لاعدادها لصيد فأر أو عصفور ، عن طريق الحركة والتحفز ، ثم القفز واقتناص الفريسة .

وقد تقوم «إدارة السيرك Cırous بتعليم الحيوانات المتوحشة من الرئيسيات Primates الراقية وتدريبها على أعمال وحركات بهلوانيـة معينة ؛ وإكتساب الخبرة عن طريق اللعب كوسيلة لاعداد الحياة فى السيرك ، وتربيـــة الحيوان وتدريبه .

---

(١) فلقد نجحت « الفرقة الشعبية » فى جمهورية مصر العربية ؛ لأنها أولا فرقة شبابية لحماً ودماً ؛ ثم لأنها ثانيا قد مزجت بين « الفلكلور الشعبى » من جهة ، ورقصات الباليه الارستقراطى من جهة أخرى ، فجعلت تلك الفرقة مميزة تماما عما نسميه « باليه الشعبى » إن صدقت التسمية ؛ لأنها رقصات وموسيق ، تمتزج فى قوالبها مزجا أوثق بمقومات الثقافة المصرية الأصيلة ، وهذه هى سمات «الفن المعاصر» .

فاللعب هو عامل منشط لعملية النمو العضوى والحركى والعصبى للأعضاء مع تهذيب الاستعدادات الموروثة . وإذا كانت الوظائف Functions والأعضاء organs ، والعمليات Processes ، هى محاور ارتكاز رئيسية فى علم البيولوجيا Biology ، فان الوظيفة هى التى تخلق العضو ، كما ينضمر العضو بضمور وظيفته أو باتهائها .

ولذلك يتدرب « عازف البيانو » دائماً ليضبط حركة الأصابع بالتمرين ، وتدريب إستاتيكية الحركة العصبية أثناء العزف فى مرونة وإنسياب ، بين نغمات تترابط وتنسجم فى لحن شجى ، يثير الذوق والوجدان ، ويكون له صداه فى مجال الفكر والابداع والخلق Creation والابتكار .

وقد يكون اللعب والترويح والانعاش والتسلية ، هى كلها بمثابة وسيلة التعبير عن العواطف التى تتسامى sublimation بالدوافع الفطرية ، وتترقى بالغرائز والميول الطبيعية ، حين تطرق عالماً له جوانبه الفوقية والجمالية التى تتعالى على عالم المادة والحس .

والنشاط الترويحى وظيفته الأساسية وهى تحقيق التوازن Equilibrium فى حياة الانسان النفسية والاجتماعية ، عن طريق التنفيس عن الطاقات الحبيسة واستهلاكها فيما هو نافع ومفيد للجسم والنفس ، وقد يميل الشباب للغريب والشاذ من الحركات غير المألوفة ، حين يركب أحد الشباب دراجته ، ويجرى بها ويقودها « بحركة بهلوانية سريعة » ومندفعة ، حين ينطلق الشباب بدراجته بينما يرفع يديه إلى أعلا دون أن يوجه الدراجة .

علم الاجتماع الشبابى وتنظيم شغل الفراغ .

ومن أجل الشباب ينبغى أن تقوم بعملية تنظيم لشغل الفراغ بين جماعات

وشباب العمال والفلاحين ، حتى تزداد قيمة الوقت بمعناه الاقتصادى ، ويتعمق الوعى ، بين فئات الشباب ، فتتقارب وجهات النظر ، وتتحدد إتجاهات الرأى بين الشباب ، حين يشعر بأهمية « التعاون » و « التضحية » و « النصر » و « العزيمة » ، وكلها خصائص ضرورية ينبغى أن تتوافر كسمات أساسية فى شخصية « الشباب المصرى الطموح المثقف » ، سواء أكان طالباً ناجحاً فى دراسته ، أو عاملا متفوقاً فى عمله . أو فلاحا يعرف كيف يستغل أوقات فراغه فيم هو نافع ومفيد ، بعيداً عن الأيديولوجيا الضارة والهدامة .

وهناك أساليب معروفة ، لتنظيم وقت الفراغ ، حين يهتم الشباب كجماعات وفرق بالرحلات والسياحة ، وتنظيم برامج التثقيف بالمحاضرة ووسائل الايضاح السمعية والبصرية ، وتحقيق البرامج الرياضية وفرق الغناء والموسيقى لترديد الأغانى والأناشيد الجماعية ، فى بيوت الشباب والنوادى الرياضية والاجتماعية والثقافية وربما كان هذا البرنامج الشبابى هو أحدث برامج « الضبط الاجتماعى » فى دراسات « الانحراف » ، وفقدان المعايير .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن شغل وقت الفراغ ، اصبح ضرورة حتمية ومشكلة إجتماعية ونفسية علينا علاجها ، كعلماء إجتماع وكخبراء لنفوس الشباب من جماعات العمال وفئات الطلاب فى القرية والمدينة ، عن طريق نشر الوعى العمالى والطلابى ببرامج محدودة تقوم بها الدولة ، أو الجامعة أو المدرسة ، أو الكنيسة أو المسجد . وكلها مؤسسات اجتماعية وضرورية مطلوبة من أجل الشباب ، وذلك باستخدام أجهزة الراديو والتليفزيون لحل مشكلات الشباب ، وعن طريق المحاضرات العامة من أجل « الاستثارة » و « زيادة الوعى » و « تعميق الفهم » ورفع مستوى الطموح والوعى . باستخدام النوادى الرياضية والاجتماعية والثقافية ، عن

طريق اللعب والترويح والسياحة والرحلات ، وكل وسائل الفن والتثقيف ؛ لزيادة المهارات الترويحية بين الشباب ، بابتعاده عن الأيديولوجيات الضـارة ، والمذاهب الهدامة والجماعات المتطرفة .

وتتحكم « الأيديولوجيات الضارة » فى سلوك الشباب ، وتوجه الرأى العام الشبابى ، طبقا لقيم ومعتقدات شائعة تسيطر على الخيال السوسيولوجى للشاب وتصوراته الروحية ، ويكون لها صفة « القهر » و « الضغط » على أهوائه فلا يكون على سائر الشباب سوى « الولاء والطاعة » لمثل هذه الضـلالات من أوهام الايديولوجيا السياسية أو الدينية أو العقائدية dogmatism (١) أو المذاهب البراقة ، ولما يدور حولها من أساطير العصر وأضاليل السحر والخرافة ، ويقوم « علم الاجتماع الشبابى » بتحرير عقول الشباب من « أوهام العصر » ، وتنقية مايدور فى اتجاهات الرأى بينهم ، والقضاء على النمطية والاستاتيكية والعبادات الفكرية الضارة ، فلا تسيطر أو تتحكم ، وهذه هى عملية التحرير الحقيقية التى يقوم بها علم الاجتماع فى هذه الأيام .

الروح المعنوية :

ولا شك أن الانسان الصناعى ، هو العلة المتحركة لعملية التنمية فى اقتصاديات الصناعة ، فالطاقة البشرية العاملة ، هى أهم « أداة » أو « عنصر » من « أدوات أو عناصر » التنمية ، فى رفع معدلات الانتاج فى المصنع .

ولقد ثبت فى قياس « الروح المعنوية » للعمال أن سمات الشخصية الخاصة ،

---

(١) العقائدى : هو من يسلك طبقا لمبدأ أو مذهب أو عقيدة dogam واستنادا لقاعدة أو لتنظيم فكرى ؛ يتميز بالاستاتيكية والنمطية والثبات .

بالذكاء وسعة الأفق ، ودرجة الميل المهنى ، ومستوى الثقافة والخبرة والتدريب ، وكلها عناصر جوهرية ، قد تتدخل فى التركيب الديناى لشخصية العامل ، كوحدة أو كصيغة جشطالتية متكاملة الأبعاد .

ولقد ثبت من إحصائيات الحضور والغياب أن زيادة معدلات الانتـاج وارتفاع « الروح المعنوية » إنما تؤثر جميعا فى خرائط ورسوم العملية الانتاجية . بمعنى أن هناك معامل إرتباط بين إرتفاع الانتاج وزيادة الروح المعنوية تكشف عنها خرائط سير إجراءات الانتاج Flow process charts وعملياته ورسومه البيانية ، فلقد قلت معدلات التمارض وإنخفضت مؤشرات الغياب و « معدلات إستهلاك التالف من المواد الخام ، أو غير المصنعة بمعنى أن هناك معاملات إرتباط قوية بين الروح المعنوية والانتاج . تكشف عنها بوضوح كل الرسوم والخرائط الخاصة بعملية الانتاج Operatin process charts .

ومع انخفاض الروح المعنوية بين العمال تنخفض درجة التماسك ، ويزداد التحلل والانحلال بين الجماعات الانتاجية ، مما يؤثر على شخصية العامل وإنتاجه ، حين ينظر إلى علاقات المودة والانسجام كرتبة ثانية بعد الاهتمام أولا بالعمل والانتاج .

وبينما تتأثر الروح المعنوية بجو المصنع وبتأثير العوامل الانسانية الضاغطة ، والشعور بالظلم ، تتذبذب الروح المعنوية وتتردد مؤشرات الزيادة أو النقصان فى معدلات هذه الروح المعنوية طبقا لخلو البناء الصناعى من الصراعات والمخاوف ، مما يعبر عن الروح العالية ويرفع من درجة التماسك فى العلاقات بين أعضاء الجماعات الصناعية .

ولقد ثبت أن الروح المعنوية إنما لا تستند حسب الأسس مادية تتعلق بظروف العمل بقدر ما تستند إلى شعور العامل بالرضا النفسي الذي ينتج عن الاعتراف بشخصية العامل واحترامها في كل المواقف والمجالات . ولاشك أن فكرة العامل عن الادارة هي المقياس الحقيقي لقياس الروح المعنوية عند العمال ، وعن طريق تصورات العامل وفكرته عن « السلام الصناعي » وانسجامه مع إدارة المصنع واستماع شكواه ، أو ترحيبه بالعمل ، وبخاصة عند ترقيته ، فيزداد شعوره بالتضامن والانتماء . هذا الشعور الذي يؤدي بدوره إلى رفع الروح المعنوية نظراً لوحدة الهدف والمساواة في الحقوق والحوافز والأجور ، مع الازدياد المستمر لمستوى الطموح Level of Aspiration .

ولكن ماذا نقصد بالروح المعنوية ؟

لاشك أن القدرة على الإنتاج والإقبال على النشاط ، بدافع حب العمل وحافز الأجر Incentive ، كلها ظواهر تحدد لنا طبيعة الروح المعنوية ، وهي الطاقة الكامنة « فيما وراء العمل » ، وحسن توزيعه والقيام به .

وتعمل دراسات « الروح المعنوية » على استمرار نمو الدوافع التي تعمل على إرتفاع « كفاءة العامل الانتاجية » وتنمية قدراته بالاضافة إلى أن تحسين ظروف العمل ، وهي ظروف « انسانية » و « مادية » ، إنما تعمل جميعها على تنمية الروح المعنوية وانعاشها ، كما أن شعور العامل بالزيادة في مستوى الاداء ، إنما يشجعه دائماً على زيادة انتاجه ، الأمر الذي يشجع العامل بدوره على الحصول على ترقية Promotion .

وربما كانت « الظروف الانسانية » أكثر أهمية من « الظروف المادية » ، تلك التي لا يصعب علينا تحقيقها في سهولة ويسر ، حتى يمكننا اشباع حاجات

العمال النفسية ورفع روحهم المعنوية ، تلك الروح التي تعبر عن الدافع الرئيسي الذي يدفع العامل نحو حرصه على زيادة الانتاج وحبه ورغبته في أداء العمل ورفع مستوى الأداء .

وتزداد الروح المعنوية بالطبع ، عند وضع نظام يحمي الحوافز ، وحينما يشعر العامل بالأمن Secuity والأمان من المستقبل . حين يستفيد العامل من مدخراته الناتجة عن أجوره وأرباحه ، وحوافزه التشجيعية ، ومكافآته السخية ، وكلها جوانب تشبع في العمال الحاجات المادية ، تلك التي قد تدفعهم إلى تحقيق واشباع حاجات أخرى معنوية Moral ، بزيادة التأمين على الحياة والاستشفاء ، والادخار ، مع الاستفادة بالعائد المجزى والمشبع .

وقد يرجع العامل إلى تحسين ظروفه الاجتماعية باستغلال مدخراته وتحسين علاقاته بالإنتماء إلى النوادي الاجتماعية والرياضية ، كما قد يلجأ العامل أيضاً إلى رفع مستواه الثقافي فيعلم نفسه بنفسه ، قراءة الكتب واكتساب المهارات ، وزيادة المعلومات التكنولوجية . وذلك لرفع مستوى العامل المهني والفني والتعليمي لتنمية خبراته التي تؤدي بالطبع إلى توسيع وتعميق علاقاته بزملائه ، ورؤسائه وانسجامه في نسق الجماعة الدينامي ، وهو نفس النسق الصناعي الذي يعمل العامل في إطاره .

علم الصحة الصناعية :

وتهدف علوم الصناعة وسوسيولوجيا المهن Sociology of Occupation إلى محاولة خلق الفرص لتحقيق التوازن والصحة النفسية للانسان الصناعي ، إلا أن محاولة إعادة التوازن ليست بالامر الهين ، وإنما هي أمر صعب وعسير لأنه لازم وضروري للحفاظ على أمن الانسان ودوام طمأنينته النفسية وتوازنه .

الاجتماعي وانسجامه المهني ، في ضوء انتمائه إلى « التنظيم Organization » ومحاولة التحرك نحو فئات أكثر أجراً ، أو طبقات أكثر مكانة وأعظم سلطة ومهابة . فيترقى الانسان الصناعي الممتاز ، طبقا لمستوى الخدمة والأداء والسلوك الصناعي المنضبط ، ووفقا لالتزامات المهنة الفنية والخلقية .

ويدرس علم الصحة الصناعية Industrial Hygiene كل الظروف والسبل أو الطرق التي توصلنا بسهولة إلى تحقيق سعادة العمال للحصول على معدلات أكبر للانتاج وتحقيق ارضاء Satisfaction العامل بالتركيز على الصحة النفسية للانسان الصناعي ، مما يتيح الفرصة السهلة والسريعة لتحقيق التوازن النفسي ، وتعلم قواعد العمل ، حين تترقى الحركات ، وتتهذب ، بينما يقل المجهود مع اقتصاد الحركة والوقت .

وينبغي بصدد التوازن أن نميز بالضرورة بين « التوازن الاستاتيكي » الجامد والتوازن الديناميكي المتحرك ، فالأول عقيم ولا ينتج أما الثاني فضروري وحيوي ونافع له دوافعه Motives الداخلية وحوافزه الخارجية .

الدافعيات والحوافز والروح المعنوية :

لاشك أن التوترات Tensions هي الدوافع الحقيقية التي تنجم عن مثيرات خارجية أو داخلية . وتدفع هذه التوترات نشاط الانسان وسلوكه المهني سواء في الحقل أو المصنع أو المدرسة أو الكنيسة ، نحو بلوغ هدف Gall محدد بالذات . ويتبلور هذا الهدف في وجود « غاية » يراد تحقيقها ، كأمل يتحقق ، أو قد يكون الهدف هو إزالة الصراع والتوتر وحل المشكلة واشباع الحاجة الانسانية الراهنة ، لأن حالة الاشباع Saturation هي الطريق الذي يوصلنا إلى حالة الارضاء .

وفى ميادين السياسة والاقتصاد والصناعة والادارة ، «وراء كل سلوك دافع» تقليدى أو قيمى أو اجتماعى ، أو واجب أخلاقى أو دينى . ويتجه هذا السلوك مهما تنوعت مصادره نحو طريق واحد هو «إرضاء الحاجات لبلوغ الغايات » .
وهو سلوك ناجم أيضا عن حدة التوتر ، فيصدر كسلوك قهرى أو نزوع ارادى مندفع نحو تحقيق رغبة او قضاء حاجة ، وعندها يكون الاشباع ؛ مع زوال التوتر ثم العودة ثانية الى حالة التوازن Equilibrium (١) . كما يبين الشكل الآتى كوسيلة للعرض والايضاح .

---

(1). William, Michael, Human Relations, Longmaus London 19 37.

الدوافع
Motives
التوتر
Tension
الحاجات
needs
النشاط
Activity
الهدف
Goal
الإشباع
Satisfaction
الدافعيات و الحوافز و الروح المعنوية

من هذا الشكل يتبين لنا كيفية اشباع الحاجة كوسيلة من « وسائل رفع المعنويات » لأن السعادة التى يحققها الانسان فى اشباع حاجاته السيكولوجية إنما هى « سعادة حسية » . ولا يمكن أن تحقق السعادة بمعناها الحسى ، كل ألوان ونماذج السعادة بمعناها الروحى والمعنوى والنفسى(١) .

وهناك ظواهر أخرى مضادة ، قد نراها تتسرب بين العمال ، حين تتسلل اليهم بعض الافكار أو الشائعات ، ويحدث التفكك وعدم التكامل الذى قد يتطور إلى الصراع ، فالعنف . « فهناك اليمين واليسار » ، والديمقراطية والاوتوقراطية ولكى يحدث التوازن بين مختلف القوى ينبغى أن يسود التحليل المنطقى حتى يتحقق الانسجام بينهما والملائمة بين الفكر والواقع ، ولحل هذه المشكلات الادارية الصعبة اهتمت « دراسات العلاقات الانسانية » بعمليات التقارب بين وجهات النظر لاحداث التكامل وإعادة التنظيم على نحو مفيد وبناء ، الأمر الذى معه أدت هذه الدراسات التنظيمية إلى التمييز بين نوعين من الجماعات ، جماعات « لا إنسانية » عددية Aggregate gronps وجماعات « إنسانية عضوية Organic graups » وأثبتت الدراسات الحقلية والسوسيولوجية والسيكولوجية واتفقت جميعها على أن الجماعات العضوية أكثر إنتاجا وتفاعلا ونشاطا من « الجماعات العددية » لأن

---

(١) تتمثل السعادة الروحية بالغبطة بالحياة والرغبة الغامرة بالحب الصميم التى تملأ جوانب النفس بهجة واستنارة واستضاءة ؛ وبإستطالة عميقة تضىء كل ما حولنا وهنا هو نمط لسعادة العقلية والتالية . الا أن ظواهر الصراع الساعى والدولى والرعب العام من التأهب النووى ؛ مع ما يسود العالم من مشكلات الجوع والتصحر ؛ كلها عوامل اجتماعية وسياسية تخلق آلاما من [illegible] ... وهو كالكائن محرق ومضطرب ومحصور دلن يحصل أبداً وعلى الاطلاق ان الاكمال المثالى الذى يتحقق فى « فيلسوف » أو يحتل فى « عالم » أو « عصر » فى مجتمع [illegible] ... وحدة الأشياء ، تكون السعادة بالمعنى المثالى هى أمر بعيد المنال .

الأولى متماسكة ومتآلفة ، والثانية مفككة ومنقسمة وموزعة ، فتتشتت جهودها الانتاجية وتقل مهاراتها الفنية . وقامت « فلسفة العلاقات الانسانية » على زيادة الانتاج بقصد تطوير العمل وتنمية العامل ، وزيادة الألفة بين العامل والآلة ، مع التجاوب والتعاطف بين العمال والادارة دون قهر أو اجبار(١) .

وبالنسبة للادارة والتنظيم ، كشفت « ماري فوليت Marry Eollet » عن الصناعات السيكولوجية ، ودوافع السلطة في البناء الصناعي ، وأشارت إليها في كتابها « التنظيم الصناعي Industial Oraganizat.on » واهتمت هذه الباحثة الأمريكية برفع معنويات العمال ، وتنمية شخصية العامل وتطوير علاقات العمل والانتاج ، وبخاصة فيما يتعلق بالسلطة أو الادارة ، وفي هذا المعنى تقول « ماري فوليت » : ينبغي ألا نتعلم أين نضع السلطة ؟ بل أن نعرف فقط كيف نمارس السلطة ؟ ومن هنا بدأ الاهتمام بدور « العلاقات الانسانية » بدراسة سلوك الانسان الصناعي وحل التناقض بين العمال والادارة ، وتخفيف التوترات داخل التنظيمات الصناعية وتقريب « وجهات بين أجهزة التخطيط والتنفيذ » ، وعلى الرؤساء والملاحظين أن يدربوا العمال على « اتخاذ القرار » بالمشاركة الفعلية مع السلطة والادارة . ومن هنا تحل عقدة الاغتراب ، ويتعلم الاداري الاسلوب الديمقراطي ويتحرر الفكر الإداري برمته ، ويصبح العامل أكثر حرية في تفكيره وديموقراطية في علاقاته ومعاملاته(٢) .

---

(1) Friedman, C. Industrinl Society The Emergence of Human Relation of Automation Glencoe 1664.

(2) Follet, M. P. . Freedom and Co-Ordination Management Publicvtion Trusts London 1949.

الباب الرابع

مشكلات التنمية الاقتصادية

* ماذا نقصد بالتخلف ؟
* معايير التنمية
* التنمية والتخطيط
* الصراع بين الايديولوجيات
* وطأة الصناعة ومحنة التصنيع
* التكنولوجيا وتغير أنماط الحياة
* كيف صدرت الحاجة الى علم لتنمية المجتمع ؟

تمهيد :

إن العلوم المسيطرة ثقافيا واقتصاديا ، على أيديولوجيات عصرنا المتصارعة هي علوم الاقتصاد والتكنولوجيا والصناعة والإدارة والاجتماع ، وكلها علوم تجريبية وتطبيقية وإنسانية ، تعتمد على علوم متخصصة كالهندسة والبيولوجيا والالكترونيات ، إلا أن علوم العصر متعددة النتائج والخدمات ، والأدوات ، ولذلك قد تعتمد على علوم فرعية أو أصلية ، بحيث تتمايز فيما بينها ، وتتميز جميعها بأنها متخصصة تستند برمتها إلى تخصصات أكثر دقة وعمقاً .

كما امتازت علوم العصر الشمولية والتكاملية ، وبالتفاعل والتساند ، بالاتصال والتأثير المتبادل ، حتى أصبحت كلها علوم تتقارب فيما بينها في « وحدة المنهج » وتصب في « وحدة الطبيعة » كما تتشابه في ميادين التجريب والاكتشاف والتطبيق الحقلي والميداني ، سواء في تجارب الصناعة أم التكنولوجيا أم التربية ، وتنمية الثقافة .

وتمتاز علوم العصر بأنها « مستعرضة » تعالج الكثير من المشكلات المتشابكة ، ولذلك اعتمدت على علوم العصر على « وحدة المنهج » استناداً « لوحدة الطبيعة » ، ولموقف الانسان الاقتصادي منها . فتعاونت علوم العصر على حل « مشكلات العصر » نفسه ، من تكنولوجيا وتصنيع وتنمية .

مما يكون له صداه ورد فعله في ديناميكا علوم الاقتصاد والتكنولوجيا والاجتماع والإدارة والسياسة ، وهذا هو السبب الذي من أجله أضرب مثلا بعلوم تلوث البيئة وأثر ذلك الاتصال ، وهي من أهم علوم التخصصات المتعددة التي تعتمد على [illegible] نتائج ومكتشفات علوم البيولوجيا والهندسة والاقتصاد بالإضافة إلى جهود خبراء الطاقة والاجتماع والإدارة .

التطلع نحو التنمية :

وتتحقق عمليات التنمية عن طريق إعلان الحرب على التخلف ، حتى فتتحقق العدالة الاجتماعية ، بفضل السياسة العلمية التخطيط السليم ، والانفاق الرشيد ، وكلها عوامل اقتصادية ضرورية تعجل من التنمية وتحقق الرفاهية فى الرواج الاقتصادى طبقاً لسياسة محددة ورشيدة فى الاستيراد والتصدير ، توجه مجتمعنا وجماهيرنا الكادحة والمتطلعة نحو عالم أفضل .

ولاشك أن العبارة السياسية القائلة بوضع « الرجل الصحيح و المكان الصحيح أو المنتج والمربح» . هى عبارة تنظيمية لحما ودما ، كما وتدخل فى إطار نتائج علوم الادارة والتنمية ، والاقتصاد والتربية . بل وتؤكد هذه العبارة على « الدور الدينامى » للادارة فى عملية التنمية ، كما تدل هذه العبارة أيضا على قيمة « الدور التنظيمى » فى كل تنظيم سياسى أو إدارى ، اقتصادى أو صناعى .

ظهور الصراع بين الايديولوجيات :

وبصدد مشروعات التنمية إرتفعت الصيحات ، وزادت حدة المناقشات التى دارت حول « التغير الاجتماعى » الذى يطرأ ، مع قياس مقداره ومداه من وجهة نظر المدرسة الماركسية الجديدة ، وعداءها التقليدى العتيد ، ضد تجريد Abstraction المدرسة البنائية الوظيفية ، من حيث إبتعادها عن التحليل التاريخى للواقع الاجتماعى ، تحت ستار من « الخصائص البنائية » التى تدعم النسق System عن طريق تحقيق التوازن equilibrium . وهذه نظرة تنظيمية إستاتيكية ، وايديولوجية محافظة لا تقوم على الحرية ، ولذلك ثار حدل حول على نظرية بارسونز parsons التى تصور لنا « النسق الاجتماعى المتوازن المضبوط» الذى فرضته التربية Education والتنشئة الاجتماعية Socialization الصحيحين

أن يفسر لنا « بارسونز » كيف يحدث التغير فى التاريخ ؟ إذا ما عاش الانسان عمره فى « جهاز » محكوم عليه بالتوازن ، وكأنه « سجن » مفروض على الإنسان دخوله إلى الأبد . هذه هى الايديولوجية المضادة للايديولوجية الجدلية ، التى ينبغى أن تنظر إلى حركة التاريخ وتقدم العناصر التغيرية والتحولات الحضرية Urban ، التى أحدثت فى الواقع الامريكى وباسم التكنولوجيا المعاصرة ، « تغيرات ثورية » بفضل « وسائل الاعلام القوية » ، وفى ضوء التخطيط والتنظيم ، وظهوره النقابات المسلحة بالعلم والخبرة . وفى الواقع ينبغى أن نميز بين نوعين من الصراعات conflicts هناك صراع تنظيمى بناء ، وصراع فوضوى هدام . الأول ضرورى ومطلوب فى « إعادة التوازن » فى كل تنظيم بيروقراطى أو صناعى . والثانى « صراع انهزامى » لا يهدف إلى التوازن . الأول نظامى وتقدمى وضرورى من أجل بقاء « النسق » واستمرار « التنظيم » ، ودوام « التجديد innovation » . والثانى صراع إنحرافى ، لا يقصد التكامل بل هو « صراع مضاد للتكامل » والتوازن والتنظيم .

ويحرص الاتجاه الماركسى المعاصر ، كما يتمثل فى اليسار الجديد « (١) » على تشجيع « التمرد » والرغبة فى تغيير « المعايير Norms » ، لعدم الإنتماء إلى الواقع ، والتذمر وتزايد الصيحات « المضادة للواقع » ، والمنادية بتغييره . والملاحظ قد يكون « التمرد تنظيمياً » ، إذا كانت الأهداف تدعو نحو إزالة ما يعوق التنظيم أو الحركة التنظيمية . وقد يكون « التمرد مرضياً » ، إذا كانت أهدافه

---

(١) « اليسار الجديد » يعبر عن تيارات نامية فى اليمين الليبرالى المعاصر ، وفى مبادئه البورجوازية الكلاسيكية ، كما يعبر اليسار الجديد أيضاً عن الاتجاه الماركسى المعاصر ونظرته إلى التحديث الحضارى ، بإزالة التخلف والتبعية ، عن طريق التنمية وتشغيل التكنولوجيا وتطوير الإنسان .

نقضية ومتقلبة ولا تدعو إلى « بناء الجديد » ، وهنا « يصبح التمرد حركة انهزامية وانحرافية تقع تحت طائلة القانون . ولقد ظهر هذا « اليسار الجديد » واضحا فى كتابات علم الاجتماع المعاصر ، كما ظهر بين معظم « علماء الاجتماع الشبان » الذين قادوا حركات التمرد الطلابية فى قلب باريس وفى جامعة كولومبيا . وذلك بقصد تغيير المناهج الجامعية ، ومن أجل المطالبة بالمساواة والحرية والتغير . أما الاتجاه اليمينى التقليدى فيحترم الواقع ويتمسك بالنظام والتوازن والتضامن . وهذه كلها حجج المدرسة الوظيفية Functionalism فى علم الاجتماع والانتروبولوجيا الاجتماعية . فالوظيفى يحترم النظام ، ولا يقبل الصراع والتمرد ، بينما يهاجم اليسار الجديد « الفقر بجانبيه العاطفى والمادى » . وإذا كان بارسونز Parsons ، وهو شيخ المدرسة الوظيفية فى أمريكا ، يأخذ بنظرية النظام والنسق فى إطار « بناء متوازن » (١) . تحكمه ميكانيزمات التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى . فلا شك أن هذه نظرة متعسفة يمتنع معها تحقق الحرية ، بل وتخلع عن الانسان أهم ما يميزه وهو « العقل » الذى لا يتوقف عن محاولة إستكشاف الجديد ، والتخطيط ، كما يتنبأ بحدوث المتغيرات خلال التاريخ . فان كانت « مشكلة الحرية هى مشكلة تنفيذ » ، فإن « مشكلة العقل هى مشكلة تخطيط » . ولا يمكن أن توجد الحرية دون عقل أو « نظام » ، وإلا كانت الفوضى الضاربة ، فإذا كان العقل هو الذى يخطط للمستقبل ، فإن الحرية هى التى تصنع القرار فى الواقع الراهن . الحرية الآن التنفيذ والعقل غداً ، .. « النظام والتخطيط » ، وهذا هو « الاتجاه السوسيولوجى اليسارى الجديد » .

---

(1) Merton, Robert., Social Theory and Social Structure., Enlarged Edition, New York. 1968.

معايير التنمية :

تتعدد معايير التنمية مع تعدد المداخل والنماذج والتجارب ، طبقاً لإختلاف المذاهب والأيديولوجيات والسياسات الاقتصادية الرأسمالية منها وغير الرأسمالية.

ولا شك أن المعيار الأساسى للتنمية فى الاقتصاد الرأسمالى هو « تحقيق الربح » التوصل إلى أكبر « كسب » أو « عائد » ممكن ، يضاف إلى رأسمال المشروع الاقتصادى . وعلى العكس من ذلك يكون المعيار الأساسى التنمية فى الاقتصاد الاشتراكى هو التوصل إلى « أكبر قدر ممكن من الاشباع » لحاجات المواطن .

وفى البلاد المتخلفة يقوم جوهر التنمية على تغيير هيكل الانتاج ، من أجل تبدل نمط « تقسيم العمل الاجتماعى » فمن الخطأ أن تبقى البناءات والنماذج التقليدية الاقتصادية والثقافية ، هى هى دون أى تغيير واضح ، فى سائر المجتمعات الاستاتيكية ، التى تمتاز بالتخلف والأمية من جهة ، وبالنمطية والسكون من جهة أخرى .

ولقد عجلت الثورة العلمية والتكنولوجيــة بتنمية الصناعة حين أخذت بعملية التصنيع ، وبتحسين المحركات وتبديل أو نقل الحركة ، كما أخــذت أيضاً ، بتطبيق العمليــات الأوتومية Automation والاعتماد على الخامات الجديدة ، من موارد البحار والمحيطات ، لصناعة الخيوط الصناعية ، وما تقدمه الكيمياء الحديثة ، من عضوية وغير عضوية ، فى صناعة المنظفات ، مع النصيب المتزايد فى الصناعات التحويلية ، واستيراد المواد الرخيصة لمكافحة التلوث(١)

---

(١) قد يفقد الانسان سيطرته على الآثار الجانبية للتقدم التكنولوجى ، فيما يتعلق بـ...

وإنتاج معدات لتطهير الجو والنبات والمياه ، مع تقدم صناعة البتروكيماويات والالكترونيات ، وحسن استخدام الطاقة الذرية فى الصناعة ، وتكنولوجيا الطب ، وتطوير علوم الهندسة فى ميادين البيولوجيا والكيمياء والكهرباء ، للاستفادة منها فى مشروعات تنمية الزراعة وتشجير الصحراء ، حتى تستفيد «مشروعات الزراعة النامية» من جهود تكنولوجيا الطاقة والأوتومية المعقدة .

واستناداً إلى كل ذلك واجهت عملية التنمية فى المجتمعات التقليدية والنامية ، الكثير من المشكلات الاقتصادية ، كالرغبة الملحة فى الحصول على رأس المال الذى ما زال يصدر للبلدان المتخلفة ، للحصول على موارد مالية إضافية ، من أجل شراء التكنولوجيا و «استيراد الخبرة التنظيمية والادارية» ، والاسراع فى التنمية الصناعية .

ولكن ما هى المفهومات الحقيقية للتخلف ؟ وما هى المعايير الأساسية للتنمية ؟ .

= يتهديد البيئة بالنفات ، وما يشوهها من بقايا وافرازات المصانع والكيماويات ، مما يؤدى إلى التلوث Pollution وإلى استنزاف العمل فى بيئة مستنزفة ، الأمر الذى يحتاج إلى إلى ما يدعم البيئة بالتنمية Ecodevelopment ، بحمايتها عن طريق التحكم فيما يهددها ، من جهة ، واعدادها إعداداً يتوائم ومشروعات التقدم التكنولوجى من جهة أخرى . فيتبغى أن تتغير إيكولوجيا Ecology البيئة الطبيعية ، لكى تتوائم مع ما تتطلبه إيكولوجيا المصنع ، من مياه وكهرباء وصرف صحى ، وخطوط سلكية ولاسلكية . لكى تنجح مشروعات التنمية ، مع نقل التكنولوجيا الجديدة ، والاحتراس من الصناعات «الملوثة للبيئة» ، والاتجاه نحو التكلفة الاقل حين تستخدم نوعاً من التكنولوجيا «أقل تلوثاً» وتهديداً للبيئة . وينظر المخططون الآن إلى مشكلة «القلق البيئى» ، وما ينجم عن تصدعو البيئة من تلوث وتهديد ، «ينظرون إلى كل ذلك على أنه مسئولية عالمية» .

لاشك أن التخلف هو « حركة تاريخية موقوفة » ، تعبر عن النكوص إلى الوراء ، ولاشك أن النمو إنما لا يحدث فى فراغ ، وإنما يتحقق فى مجتمع وفى تاريخ ، فما هو التخلف الذى توقف خلال حركة التاريخ ، فاعتبرناه بالنسبة التقدم والتنمية تخلفاً ؟ ! وما هو التقدم الذى سار قدماً ، فاعتبرناه بالنسبة التخلف الأستاتيكى « نمواً » أو « تنمية » ؟ . وما هى مختلف الأساليب والطرق والمناهج التى ينبغى أن تستخدم لكى تحقق « النمو » المطلوب ؟. وهنا ينبغى أن يتساءل خبراء التنمية والتخطيط ، عن أهم العوامل التى تساعد على التعجيل بتنمية مالم يتحقق بطبيعته ؟ !.

فى الرد على كل هذه المسائل والتساؤلات ، يرى اليساريون الجدد ـ من خبراء التنمية ، وهم أتباع وجهة النظر الماركسية الحديثة أن « النمو » إنما يحدث على نحو طبيعى وتاريخى وفعال » ، حين تنتقل المجتمعات تلقائياً من النمط الاقطاعى إلى النمط الرأسمالى ، وهذا هو المسار الموضوعى لعملية التاريخ ورد فعلها المباشر فى « أحشاء المجتمع الاقطاعى » الذى كان يحمل بذور هدمه ، وعناصر تطوره وتنميه » لكى تنمو فى أحشائه « طلائع الرأسمالية الجديدة » .

فالتاريخ عند اليساريين الجدد ، هو العامل الحاسم ، فى دفع عمليات النمو الطبيعى لاضطراد التقسيم الاجتماعى ، والانتقال من طور الزراعة ؛ إلى مجال الحرف اليدوية ، ومن المهارات والقدرات ، إلى مرحلة استخدام الآلات والأدوات الآلية والأوتوماتية ، وبخاصة بعد تحول رأس المال من خدمة مزارع وعمليات أصحاب الاقطاع ، إلى تسخيره فى ميادين الصناعة والتكنولوجيا واستثمارات البرجوازية الصناعية الصاعدة ، تلك التى أصبحت إنتاجها سلعياً معداً للسوق إما للتبادل البلدى أو حتى التبادل النقدى ، حين تحولت سلعاً استهلاكية ، غذائية ، أو منتجات سلعية غير استهلاكية ، قد يحتاج لها السوق الخارجى أو الداخلى ،

ولكننا نتساءل عما نعنيه ونقصده بالتخلف فى عالم التنمية ؟ ونقول فى الرد على هذا التساؤل ، إنه من الملحوظ فى عالمنا الثقافى ، بثورته التكنولوجية الراهنة أن معظم الهياكل الاقتصادية والاجتماعية ، ما زالت قائمة دون تبديل أو تغيير ، فظلت النظم تعمل على نحو استاتيكى ، فلم تتغير سائر البناءات والأنساق الثقافية البدائية . وظلت أعداد كبيرة من جماعات البشر تعانى من الجوع والمرض والأمية ، ولا تجد المأوى ، فتعيش على الطبيعة أو الفطرة ، بين أكواخ وخيام ، بل وبين الجبال والكهوف ، وكلها شعوب وثقافات ما زالت غافية فى « عالم السحر والخرافة » .

فالثقافات المتخلفة ، هى تنظيمات استاتيكية ، تقوم على تقسيم العمل البدائى ، الذى يمتاز بالتضامن الآلى La Solidarité mécanique ، على حد تعبير « إميل دوركايم Durkheim .

ويقوم جوهر التنمية ، على تغيير نمط تقسيم العمل البدائى ، إلى نمط تقسيم العمل الراهن، وعلى المتخلف أن يلحق فوراً بتكنولوجيا العصر، وهى«تكنولوجيا الانتاج »، التى تدور حول ثالوث « الآلة والمحرك ونقل الحركة » ، كل ذلك من أجل التحكم الأوتوماتيكى فى الحركة والسكون ، وبخاصة فى انتاج وتشغيل وإدارة الورش والمصانع .

ولكن كيف يحدث النمو development ، فى بلدان ما زالت تعيش حتى الآن فى عصور العلم والتكنولوجيا ، وهو عصر الرأسمالية الراهن ، بنفس الأنماط التى كانت قائمة فى عصر « ما قبل الرأسمالية » ؟ فما زالت الكثير من المجتمعات والثقافات المتخلفة ، تعيش فى هياكل الجمود والتبعية ، وعلى هذا

---

(1) Durkheim, Emile., De La Division du Travail Social., Alcan, Paris, 1926. pp. 91 - 98.

الأساس من الاستغلال ، يبدأ التوجيه مشوهاً ، لأن التخلف هو بوساطة نتيجة طبيعية تؤدى إلى تشويه عمليات النمو ، بمعنى أن يكون المقصود من التخلف هو القيام بعمليات « إجهاض لكائنات إقتصادية » ما زالت فى « طور الأجنة » فى بطون أمهاتها ، فتولد مشوهة لأنها لم تستكمل بعد ، عناصر نموها الاقتصادى الطبيعى .

وعلى هذا الأساس ، يكون معنى التخلف ، هو محاولة تحويل نمط « ما قبل الرأسمالى » إلى الاندماج فى السوق فى بنية الاقتصاد الرسمالى ، وهذه هى التبعية ، ولا شك أن التبعية هى أول علامة إقتصادية وسياسية من علامات التخلف .

وتتم عملية النمو على نحو تلقائى وطبيعى ، أما عملية « التنمية » فهى عملية « إحداث تغيير » أو تحديث Modernization حضارى عن طريق التدخل الواعى لإحداث التنمية ، وتحديث الحضارة . فلا توجد على الاطلاق أية تنمية تتم تلقائياً ، وعلى نحو طبيعى ، فهذه عملية « نمو » . وإنما تتم عملية « التنمية » بتدخل الدولة ، بالتخطيط والتنظيم والادارة ، بقصد توجيه الاقتصاديات ، بما يتفق ومصلحة الجماهير الكادحة .

وتعنى التنمية من وجهة نظر المدرسة الماركسية الجديدة ، القيام بتوفير سائر الظروف الطبيعية المكثفة ، والمخططة والمرسومة ؛ بقصد تغيير نمط التقسيم الاجتماعى للعمل ، وتحقيق المجتمع النامى لمشروعات التصنيع الآلى الثقيل والخفيف ، من أجل « زيادة الانتاج السلعى » ، بحيث « يتم التصنيع للتصدير » ، ومن ثم يكون « التصنيع هو جوهر التنمية » والمحرك الطبيعى لعملياتها .

إن الشرط الوحيد لعملية التنمية ، هو شرط التحرر من التبعية الاقتصادية والقضاء على التخلف فى عقر داره ، بتحقيق أفضل تنمية ممكنة بالنسبة لمستوى

الأغلبية الساحقة من جماهير دول العالم الثالث ، عن طريق التكيف مع التوسع الاقتصادى ، ونقل التكنولوجيا الملائمة ، مما يؤدى إلى زيادة الطلب على المنتجات الصالحة للتصدير من البلدان والشعوب النامية .

السياسة الجديدة لاستراتيجية التنمية :

إن نقطة الضعف الشديدة التى تعانى منها وجهة النظر القديمة التى كانت سائدة لدى خبراء التنمية والتخطيط ، إنما تتمثل فى محاولة إحلال « الصناعة » محل « الاستيراد » ، ولذلك ظنت وتوهمت بيوت الخبرة فى الماضى ، أن التصنيع هو الاجراء الوحيد ، وأن الصناعة هى الحل ، وهى مفتاح التنمية .

ولقد كانت سياسة التوسع فى التصدير هى البديل لسياسة التوسع فى الاستيراد . ولقد تفهم مخططوا التنمية أيضا ، ضرورة الاقبال على مشروعات النمو الزراعى السريع ، وهذه هى الاجابة الوحيدة رغم بطء أو تباطؤ النمو فى ميدان هذا النوع من التنمية .

ففى القطاع الزراعى ، تبطىء عمليات التنمية والتحديث الحضارى ، نظراً لبطء التغير وقلة النمو والتطور ، على العكس من إمكان إحداث التغيير الثورى السريع بالتنمية العلمية ، وبفضل تدخل وتخطيط الدولة . فلا يمتص الانفجار السكانى كل « إستثمارات التنمية » فى القطاعات الصناعية والزراعية ، ومن هنا تبدأ قواعد الجماهير الفقيرة ، من الاستفادة والكسب من عمليات التنمية المركزة بفضل الجهود الذاتية ، أو تدخل الدولة بالتخطيط العلمى ، والربط المستمر بين أجهزة التخطيط والمتابعة والتنفيذ ، مع تيسير الاتصال فيما بينها ، مع ضرورة الالتفات إلى شرائط ضرورية من

شروط التنمية المعاصرة ، وهو الشرط القائل بضرورة بناء التنمية حول الانسان، «لابناء الانسان حول التنمية » ، مع ضبط سياسة توزيع العمالة فى استراتيجيات تنمية الموارد البشرية ، ومدى طلب السوق عليها .

وقد تكون « التكنولوجيا الوسيطة » ، هى النوع البديل الذى يحل فى البلاد النامية ، محل التكنولوجيا المستخدمة شرقية كانت أم غربية . فكان الاعتراف الأمريكى بتكنولوجيا الصين ، فتحت أمامها الأسواق ؛ وإزدهرت « إمكانيات الصين » إقتصاديا وصناعيا وتكنولوجيا ، بتطور طاقاتها ، وتصدير السلع والمنتجات التكنولوجية الصينية إلى معظم مجتمعات العالم الثالث حتى يتناقص الفقر فى العالم ، ويلتقط عصرنا « ثمار التنمية » ، بعد استاتيكية ونمطية وتخلف ، ولذلك اتجهت المجتمعات النامية ، مثل الهند وباكستان ، إلى الصمود كنجوم بارزة صدرت منذ منتصف الستينات وهى تسبح فى فلك إقتصاديات العالم كله . مما زاد الأنظار فى الانشغال بها والالتفات إليها بالانفتاح الاقتصادى وبالشروط المقربة . فلقد دخلت مجتمعات العالم الثالث ، وهو نفسه العالم النامى ، دخلت التاريخ من أوسع أبوابه ، بعد أن أكدت نفسها ووجودها فلقد ظلت « البقائية الانسانية » تعيش وكأنها فى عصر ما قبل التاريخ Prehistory يعيش فيها البدائى بلا تغير أو تبدل أو تاريخ ، ولذلك نظروا إلى المجتمعات البدائية ، على أنها « متاحف بشرية » ، متحركة ، بل ولم تنقرض بعد ، بل تعيش فى ثقافة متخلفة فى بدائية ، ونمطية وبداوة وتأخر ، ثم بدأت « حضارة التكنولوجيا » فى غزو « أيديولوجيات المجتمعات النامية » ، وثقافاتها البدائية .

ولعل الدرس القاسى الذى تعلمته المجتمعات النامية كلها ، هو توصلها جميعا إلى المفهوم الحقيقى للتنمية ، بالتغيير الثورى وهو «مفهوم دينامى للاعتماد على النفس » .

التكنولوجيا الوسيطة واليسار الجديد :

يتكون اليسار الجديد من غالبية الراديكاليين الاجتماعيين من أصحاب أيديولوجية الاصلاح وهم معظم طبقات « اليمين المعتدل » التي خرجت على كل قيم اليمين المتطرف . ولذلك تسود أوربا مبادىء اليسار الجديد بين الأحزاب ونقابات العمال ، وبخاصة في إنجلترا وفي فرنسا . باسم « الاشتراكية التعاونية تارة ، أو الاشتراكية المعتدلة تارة أخرى .

كما ذاعت مبادىء اليسار الجديد ، في قلب الفكر الأمريكي نفسه، وما يحتويه من صراعات وتناقضات نجمت عن حضارة التكنولوجية ونقمة التصنيع وبين دول آسيا وافريقيا والهند ، إنتشرت بل وإنتصرت « تجربة الصين » ، وبعدها نجحت تجربة الهند وباكستان ، بعد حروب فيتنام وكوريا ، مع تعاليم « ماو » و « هوشي منه » مع البدايات الأولى لملامح « الصين الجديدة » التي تعبر عن التجربة التطبيقية للفكر الماوى وتطويره ، بعد « سياسة الوفاق » الأمريكي والتقارب السوفيتي ، بحيث تتابع الصين بعد « ماوتسي تونج » مسارها مع المتغيرات العالمية الجديدة .

ويعتمد اليسار الجديد على كل من يخرج على جمود اليسار الماركسي المتطرف ، ويستند إلى قضايا مضادة للدراسات الكلاسيكية مقترنة بالتكنولوجيا والتقدم ، فتنفتح على أسواق المجتمعات التقليدية والمتخلفة والنامية فيتميز مستوى المعيشة لدى « الإنسان الافرو آسيوى » .

والتكنولوحيا الوسيطة ، هي التي تقوم بالتخصص في صناعة البدائل ، لكي تحل مختلف مشكلات الصراع بين تكنولوجيا الغرب والشرق . وهذا هو

السبب الذى من أجله تزحف تكنولوجيا الصين ، بغزو أسواق العالم الثالث عن طريق تصدير ما يدفع من عجلة التنمية ويعجل بها .

ولقد مرت « دول العالم الثالث» بتجارب مريرة مختلفة ، بعد دخولها فى ميدان التنمية ، جعلتها تتمسك بمبدأ الاعتماد على النفس ، بالاستخدام الرشيد للموارد المتاحة ، وإمكانيات التكنولوجيا المحلية، عن طريق محاولة تحقيق ترشيد الانفاق، وبأفضل إستخدام ممكن . مع عدم التوقع من تيسير المساعدات الخارجية إلا فى النذر اليسير ، أو بلوغ الحد الأدنى ، وهذه هى الحقيقة المرة سياسياً وإقتصادياً ، بل وستكون أكثر من مرارة حين تطبق هذه الحقيقة بصدد الخدمات والمساعدات على المستويين الثقافى والحضارى .

على الرغم من ضرورة إحداث « التقارب » والوفاق بين دول العالم الثالث ، وهذا هو الحل الوحيد ، إزاء سياسة « الوفاق » الذى بلغ حد التقارب بل والتلاحم بين المصالح العليا السوفييت والأمريكان . وهذه المصالح المشتركة نفسها ، هى السبب المباشر ، فى إثارة الكثير من المشكلات والمتاعب الادارية والتكنولوجية فى ثقافات ودول العالم الثالث ، ومدى حاجته إلى الخبرة الادارية والتكنولوجية والثقافية ، وعلى أقطاب الفكر والعلم والثقافة فى سائر « جامعات العالم » الرأسمالى والشيوعى ، أن يشجعوا « التبادل الثقافى » والبعثات وتبادل الخبرة والتكامل والمساعدات ، حتى تظهر على الأقل تباشير التنمية ، وطلائع الرفاهية مع نجاح عمليات التحديث الحضارى ، والاسراع فى قطف الثمار .

دور الثقافة بين ثورة التكنولوجيا ، ونسق القيم والتنظيم :

تتشابك النظم والقيم وتتعقد وتتوظف ، بحيث يتوافق الكل ويترتب

ويتناسق فيحدث التوازن Equilibrium (١) فى بناء المجتمع وتتعاضد أنساقه وتساند نظمه ، بعيداً عن سائر الضوابط والميكانيزمات المفروضة . فان الثقافة culture هى عملية « بناء مستمر » وتنمية دائمة لأنساق موجودة وتطويرها نحو حالة أفضل . وقد تحدث الحركة الثقافية الدينية ، فتنمو الثقافة فى جانبها الدينى ، أو فى جانبها اللغوى ، كما قد تتضخم الثقافة وتزداد أشكالها التقنية تعقداً ، إلا أن الالتزامات والارادات ، قد تتغير مع تعاقب الأزمان والعصور .

ولا شك إن إلزام القيم هو إلزام خلقى Moral ، أما الزام النظم institution فهو إلزام إجتماعى . وكل الزام منها ، هو الزام مفروض ، إما من الذات Ego ، أو الانا كالالزام الخلقى ، وإما يصدر عن المجتمع كالالزام الاجتماعى .

ولنسق القيم ضوابط خاصة بالسلوك ، كما أن الدور النظامى للالزام ، هو « دور مفروض مقدما » ، حين يصدر الدور الملزم فى النظم ، عن كبت التنظيم الجبرى ، وضغط الأنساق القهرى ، وكلها أدوار ملزمة ، تسود البناء الاجتماعى ، وترسم الصورة الأساسية لنسق القيم ودوره فى التغير الاجتماعى (٢) .

وقد يكون للقيمة وظيفتها وصداها فى ميكانيزمات النظم ، ونسق الضوابط والجزاءات الاجتماعية Social Sanctions (٣) فى النظم الدينية ، تسود القيم

---

(1) Gouldner, Alvin, Modern Sociology,. An Introduction to the study of Human interaction, U.S.A 1963.

(2) Merton, Robert., Social Theory and Social Structure., Enlarged Edition, New York. 1968.

(3) Radcliffe - Brown A.R., Structure and Function in Primitive Society, Cohen & West 1968. p. 205.

اللازمة ، تلك التي تدور كلها حول « القداسة » وتبجيل المقدسات وتوفير الطقوس والصلوات ، وتقديس كل ما هو ديني . والمقدس ، هو أمر مرغوب فيه دينياً : إما بالجذب أو العشق ، فنشعر للتدين بالفرح العميم ، وهو فرح صادر عن الحب العقلي L'Amour intellectuelle ، لسائر المقدسات الدينية ، وقيمتها لدى المؤمنين بها وبقداستها .

والنظم السياسية قيمتها الخاصة التي تتصل بالسلطة والقيادة والحزب وشعاراته ، والدولة وإقتصادياتها ، والشعوب وآمالها وأحلامها . وتدور القيم السياسية حول ما هو مرغوب فيه على نحو جمعي وقومي . مع التخطيط العلمي للبرامج والمشروعات التي تقدم الحلول العاجلة ، واقتحام المشكلات الراهنة ، التي تثقل كاهل الدولة الاقتصادي ، مما يحقق في النهاية أهدافاً قومية .

وفي عالم الاقتصاديات ، يمكننا أن نميز بين « القيم والنظم » ، فندرس القيمة الاقتصادية السائدة في البناء الاجتماعي وأجهزته ونظمه وضوابطه ، وميكانيزماته ، بحيث يمكن أن نفصل بوضوح بين « القيمة الاقتصادية » ، والنظام الاقتصادي » ، فالأولى أمر مرغوب فيه إجتماعياً ، أما الثانية فهي أمر مفروض مقدماً ، ونحن نحاول أن نخطط ، لإقتحام المشكلات والازمات ، وتقديم ما ينبغي نحو التعجيل عملياً عن طريق سرعة تحقيق مشروعات التنمية .

ثورة التكنولوجيا :

لقد تميز النصف الثاني من القرن العشرين ، بالثورة التكنولوجية ، وبخاصة في وسائل النقــل والاعلام والاتصال Communication ، مع ظهور الالكترونيات الحديثة ، ودخول الراديو الصغير الحجم إلى القرى والكفور ، لكي

ينقل دون إستغلال أي تيار كهربي ، سائر البرامج من شتى بقاع المعمورة ، وبأقل تكلفة دون نظر إلى فروق عنصرية أو حواجز لونية .

وهناك فروق هائلة وعميقة بين سائر دول العالم ، ففيها الغنى ، وفيها الفقير ، حيث بلغ متوسط دخل الفرد في بريطانيا ، ما يعادل عشرات أضعاف دخل الفرد في الهند ، على الرغم من أن بريطانيا ، ليست من الدول الغنية أو المتخمة (١). وهناك أكثر من ثلثي الكتلة البشرية يحيط بها ستار من الفقر ، ولا يجد فيها الإنسان المتخلف ما يقيم الأود .

الأمر الذي يقتضي منا الاتجاه نحو تخطيط أنسب إستراتيجيات التنمية الاقتصادية ، للدول ذات الاقتصاديات التقليدية أو المتخلفة .

التنمية والتخطيط :

ومن الأخطاء الشائعة عند مخططي إستراتيجيات التنمية الإيمان بالأرقام والكلام الاحصائي الذي يستخدم لغة العدد ، ويفتتن بنتائج الاحصائيات على الرغم من أن الأرقام والنسب ، والاعداد والاحصائيات إنما لا توصلنا إلى الحقائق اليقينية المؤكدة ، وإنما توصلنا فقط إلى حقائق تقريبية . كما أن هذه الحقائق الرقمية ، لا يمكن الاعتماد عليها في كل « نماذج القياس الاقتصادي » . فقد تكون الأرقام صادقة بالنسبة إلى نموذج بعينه ، ولكنها لا تصدق في أحكام كلية وعامة . بالنسبة للبناء الاقتصادي وما يتصل به من قنوات سياسية وإدارية وصناعية وتشريعية .

ويرتكب مخططو التنمية خطيئة أخرى إلى جانب الأفراط في إستخدام

---

(١) محبوب الحق ، ستار الفقر ، خيارات أمام العالم الثالث ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع . من مقدمة الكتاب الرائعة والممتعة ، والتي سجلها الدكتور اسماعيل صبري عبد الله .

الاحصاء والأرقام ، وهى إنشغالهم بالضوابط وإنجذابهم نحو البيروقراطية Bureaucracy [1]. فالضوابط البيروقراطية ، هى وهم من أوهام التخطيط ، بصدد تنظيم المناشط الداخلية فى « عمليات التنمية الادارية والاقتصادية » .

ولقد أثبتت التجارب أن بيروقراطية الضوابط الادارية ، قد أدت إلى زيادة العوائق، فتزداد الطين بلة ، وتتعقد الأمور ، كلما أفرطنا فى الضوابط التى تعتاق سيولة الحركة ، فتزداد مشكلاتنا الاقتصادية وتتحكم بنا وتستبد ، كل إدارة بيروقراطية معوقة للتنمية ، فتزداد الأمور تعقيـــداً وتعويقاً . فالافراط فى الضوابط ، هو إفراط فى الجمود والاستاتيكية والبطء . الأمر الذى يفرض على كل خطة من خطط التنمية عدم التزامها البيروقراطى، أو إفراطها فى الضوابط التى تـكبل الاغلال ، فتشل حركة الأنشطة الاقتصادية ، وتصاب بالخلل « عمليـات التصدير والاستيراد » ، والشحن والنقل والتفريغ ، والاعلام والتسويق . وكلها حركات إقتصادية نشطة بفضل دينامية الانتاج والاستثمار ، ولا ينبغى لهذه الحركة الدينامية أن تتوقف أو أن تعتالها الضوابط البيروقراطية، والقرارات الادارية . بل ينبغى على العكس ، وهو أن تخفف الدولة من هذه الضوابط البيروقراطية ، لكى تحل محلها الحوافز الاقتصادية المشجعة ، بتخيض الضوابط على الاستيراد ، مع التشجيع والاغـراء ، فى تشريع الضرائب

---

(١) وهذا هو بالضبط مافعلته حكومة باكستان فى الخمسينات بصدد عمليات التصدير والاستيراد ، فى مجال الصرف الأجنبى ، فأحاطت كل تلك الأجهزة الضرورية بقيود وضوابط غير مشجعـة . ثم حاولت باكستان فى الستينات أن تخفف من صرامة الضوابط ، فخففت الـكثير من القيود ، وتم تبسيط نظام التراخيص ، مع تشجيـع الرسوم الجمركية ذات الفعالية والتكامل، وعدم الاعتماد على مستويات الاستثمار وحدها ، وعوائد رؤوس الأموال المشغلة والنادرة فى البلدان النامية .

الحركة على المعدات الزراعية ، مع تبسيط نظم منح التراخيص الصناعية ، لتشجيع الاستثمار فى « مجال التنمية الصناعية » دون إرهاق المستثمر ، مع تبسيط الإجراءات وتكوين بنوك خاصة للائتمان والتنمية ، وأخرى للاستثمار الصناعى ، مما ينشط من حركة الصادرات والواردات بمعنى أننا ينبغى إحلال نظم الحوافز والإستثمار بالتشجيع الحركى ، بدلا « من نظم الرقابة » ، والضوابط الادارية والمعوقات البيروقراطية (١) ، وردود أفعالها على سمات الشخصية ، ونمط الحرية والتخطيط فى النظم الليبرالية والديموقراطية .

ومن أهم استراتيجيات التنمية والتخطيط ، النظر إلى رأس المال على أنه « المحور الجوهرى » لحركة التنمية حيث تدور بفضله عجلة الاقتصاد . وهنا ينبغى التفتيش عن « عناصر إنتاجية عاطلة » لرؤوس الأموال غير العاملة ، والاستثمارات الراكدة فى سائر المجتمعات المتقهقرة والنامية. كما ينبغى ألا تتضارب أجهزة التخطيط المسئولة عن « الارصدة الرأسمالية » ، مع أجهزة وزارة المالية المسئولة عن « النفقات الجارية » . فلا يحدث الازدواج بين التخطيط والانفاق الرشيد ، بل ينبغى توجيه الاذهان نحو استخدام الطاقات الكامنة بشرية كانت أم إنتاجية أم تعدينية .

وترفض سياسة التخطيط الرشيدة ، المساعدة السلعية الاستهلاكية ، وتفضل عليها المساعدة التكنولوجية ، فى إقامة المشروعات ، باستخدام الطاقة الانتاجية ، والاقبال على التصنيع والتصدير ، والتحكم فى الانفجار السكانى ، ولقد نجحت « تجربة الصين » رغم مواردها البشرية الهائلة ، فى نقل المهـــارات التقنية والمهنية ، ونشر التعليم الأولى إلى كل قرى الصين ، مع التركيز على

(1) Hill, Michael., The Sociology of Public Administration, London 1972.

« التدريب الوظيفى » القصير الأمد ، بدلا من « التعليم الليبرالى » الطويل الأمد ، والذى يأخذ ببرامج التدريب الشامل .

والذنب الذى لا يغتفر بالنسبة لمخططى التنمية ، هو محاولة الافتتان بمعدلات النمو العالية فى الناتج القومى الاجمالى ، وينسون فى نفس الوقت ، الهدف الحقيقى من التنمية ، وهو التقارب فيما بين الدخول ، والغاء التفاوت الشديد ، لمواجهة مشكلات الجوع والحرمان والبطالة ، ووضع حد للتخلف والفقر النسبى والمطلق والحد من الثروات الهائلة لصالح « أقلية انتهازية متميزة » ، مع الالتزام بفلسفة اشتراكية النمو » تلتزم بحل مشاكل الجماهير على نحو رشيد ، وبأفضل استغلال ممكن « للموارد المتاحة » .

الفصل العاشر

النسق الاقطاعي في التاريخ

تمهيد :

- النسق الإقطاعي في التاريخ
- تطور النمو الاقتصادي في التاريخ
- مناهج الفكر عند مانهايم Mannheim
- التخطيط ومنهج التفكير المخطط

Planned Thinking

- علم الاجتماع السياسي والتخطيط

تمهيد :

١ — إذا ما التفتنا إلى كتابات مؤرخ أنثولوجي مثل « جوردون تشيلد » Gordon Childe حين يعرض ويسجل لنا ويحلل، كل ما يتصل بماضي الشعوب والحضارات القديمة، لوجدناه يحاول تقسيم تطور الثقافات والمجتمعات خلال تاريخ التحضر البشري، فيقسم هذا المسار التاريخي تقسيما إقتصاديا استنادا إلى قياس « درجة التطور الحضاري » مع بداية ظهور التغيرات الاقتصادية الحاسمة التي تطرأ على حياة المجتمعات »(١).

الثورات الاقتصادية :

وفي كتابه الممتع « الانسان حين يصنع نفسه Man Makes Himself » أشار جوردون تشيلد ، إلى ما أسماه بالثورات الاقتصادية Economic Revolution تلك التي كان لها رد فعلها في محيط الانتاج والعمل، وتؤدي بالتالي إلى التغيرات الاقتصادية والسياسية الهائلة .

ولقد كانت الثورة الصناعية الاولى، تتمثل في محاولة الانسان « لانتاج الطعام Food Production » وبداية الاستقرار باكتشاف الانسان لكيفية استزراع الارض ، واستنباط النبات ، بطريقة صناعية . وبذلك تحولت المحاصيل الزراعية بفضل تدخل العامل البشري، من « منتجات برية » إلى « محولات » و« منتجات إنتاجية » نظرا لتدخل فكر الانسان والاستخدام المتميز لذكائه وتعديل سلوكه ، وتبديل أنماطه السبقة . وبدأت الثورة الاقتصادية الثانية مع هجرة الفلاح من القرية إلى المدينة ، ويسميها « تشيلد » « بالثورة الحضرية Urban Revolution » فانتقل النمو الانساني وتبدل، ثم تطور بين

---

(1) Childe, Gordon, Man Makes Himself, Fontaua, 1936

«حالة البداوة» وترقى إلى الحالة الحضرية Urbanism » ومن هنا نشأت المدن فى عصور «الحجر والبرونز والنحاس ، وكلها عصور «ذات طابع ومضمون إقتصادى» .

ويتجه هذا التقسيم ويعتمد عند «تشيلد» على أساس الطاقة الاقتصادية التى تمكن الانسان من اكتشافها وضبطها والاستفادة منها ، نتيجة لكفاحه المستمر مع البيئة ومحاولته الدائمة والدائبة للسيطرة عليها وعلى كنوزها .

أما «الثورة الاقتصادية الثالثة» ، فلقد إندلعت مع تباشير الثورة الصناعية الحديثة فى انجلترا منذ أواخر القرن الثامن عشر حين توصل الانسان إلى «كيفية إستخدام البخار كقوة محركة للآلة» ، ومنظمة للحياة الاقتصادية المنتجة .

وكان إكتشاف الذرة Atom ، وهو بمثابة الثورة الاقتصادية الرابعة التى نجمت عن القوة النووية بتفتيت الذرة وتفجير اليورانيوم ، وتحويل «المادة» إلى «طاقة» تتمثل فى «أضواء ، وحرارات وإشعاعات» وتفاعلات أخرى يمكن إستخدامها فى ميادين الصناعة والزراعة والطب والهندسة .

ب ــ ولقد رفض الأنثروبولوجى الأمريكى «ردفيلد Redfield » نظرية الأركيولوجى «جوردون تشيلد» تلك التى تأخذ بفكرة المراحل ، أو الثورات الاقتصادية الأربع ، وذهب ردفيلد إلى أن الحياة فى المجتمع هى إما «مدنية civilized » وإما غير مدنية uncivilized » وإما سابقة على الحالة المدنية precivilized ، ومع ظهور المدن أو نشأتها ظهرت «المدنية» ، وهى بمثابة مرحلة الانتقال الكامل نحو «الاستقرار الاقتصادى» والتنظيم الاجتماعى والسياسى(١) .

(١) ليست الفوارق الحقيقية بين الناس ، كما يذهب « ردفيلد » هى فوارق بيولوجيــة عرقية وإنما تتمثل فى ذلك التمايز القائم بين تصــورات ومعتقدات الناس ، وأوهامهم ،...

والمرحلة السابقة على المدنية ، هي حالة بدائية، لم تصل بعد إلى درجة الكتابة، حيث كان المجتمع أميا لايعرف الكتابة Prelitral ، وتلك المرحلة التي تسمى بمرحلة العشائر Folksociety حيث لايبدأ التسجيل والتدوين، وهي حالة اجتماعية لم تصل إلى مرحلة المدن و « التنظيم الحضري » .

ويميز « ردفيلد » بين مفهوم « الثورة Revolution » ، وبين مرحلة الانتقال transformation ، فالثورة تتضمن عنصر المفاجأة ، أو هي تغير فجائي جذري وعميق ، على العكس من حالة « التمهيد » أو مرحلة الانتقال ، فثورة إنتاج الطعام Food production ليست ثورة لأنها لم تكن حالة فجائية ، أو تغير جذري عنيف ، وإنما مهدت لها بالضرورة بعض المراحل الاقتصادية المسبقة.، تلك التي ساعدت على التوصل إلى اكتشاف أو ابتكار الطرق الجديدة لتخزين أو « انتاج الطعام » .

وإستناداً إلى هذا الفهم يقول « ردفيلد » يستطيع الفيلسوف أن يبدأ فلسفته بالكتابة عن أرسطو ، كما يبدأ البيولوجي بالأميبا ، أما الانثروبولوجي فيبدأ من الأندمان Andaman(١) .

النمو الاقتصادي في التاريخ :

أ - ولا شك أن الظواهر الاقتصادية إنما تدور أصلا حول حاجة الانسان

= وما يستحوذ على اهتمامهم ، ويستلفت انتباههم ، ويؤثر في تصرفاتهم ، ويحدد اختياراتهم وتفضيلاتهم الشخصية ، أنظر في هذا الصدد :

ليتون بروالف : الانثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٧ ص١٢١ .

(1) Issa, Aly., Social Anthropology, Theory and Practice Cairo 1964, p. 234

وقيمه بظروفه ونظرته إلى الحياة ، بالاضافة إلى معرفة كيفية اشباعه لحاجاته عضوية كانت أم سيكولوجية الامر الذى معه يهتم الاقتصاديون بظواهر الاستهلاك وعمليات الانتاج Production ، وذلك مع دراسة النفقة الاقتصادية(١) الخاصة والعامة ، ومن أجل تحقيق الرفاهية « بأقل قدر ممكن » من الانفاق والتضحية المادية .

ومن أجل حل هذه المشكلة ظهرت المذاهب الرأسمالية والماركسية والتعاونية والعابية ، ومع ظهور الرأسمالية تعقدت « الآلة » وتطورت التكنولوجيا وازدادت حركة التسويق ، وظهور « التاجر المخاطر » الجرىء ، و « الوسيط » الذى يشترى من المنتج كى يبيع إلى المستهلك ، وانتقلت الاهمية الاقتصادية ، والمكانة الاجتماعية من مجرد « ملكية الارض » إلى اهمية و « وظيفة رأس المال » .

ومع بداية الثورة الصناعية فى انجلترا ، تطور الفكر الاقتصادى بشكل ملحوظ بعد إنتهاء القرن التاسع عشر ، فلقد ساهمت حركة التصنيع الآلى التى صاحبتها وتمخضت عنها ظهور مختلف الازمات التى اجتاحت اوروبا ، حيث تراكمت وازدادت « البطالة » الظاهرة والمقنعة بين جماهير العمال وظهر الفراغ Vacuum الهائل الذى فصل فصلا كاملا بين « صاحب العمل » ، ومساعديه وغلمانه ، وازدادت بل وتعقدت المسافة الاقتصادية ، كما تنوعت وتمايزت العلاقات بين سائر الطبقات .

ب ــ ونظرا لوجود هذه الازمات ، شجرت الصراعات ونجمت الكراهية

---

(١) يعرف الاقتصاديون « الانتاج » بالمعنى العلمى ، بأنه محاولة « خلق المنفعة » أو زيادة منفعتها . وذلك عن طريق الاضافة أو « تحويل مادة أولية » غير قابلة للاستعمال الى مادة قابلة للاستهلاك أو الاشباع وقد يكون العمل المنتج عبارة « عن مجهود عقلى أو ذكائى أو فنى » كانتاج الفيلسوف والأديب ، ومجهودات الفنان وخبرة الطبيب .

وتعقدت العلاقة بين مختلف الفئات المنتجة ، وحين تضخمت وانتشرت المنتجات ، وتعددت مصادر الانتاج عبر الأسواق ، خضعت جماهير العمال لصرامة قانون العرض والطلب ، وأصبحت العمالة مهددة فى رزقها ، فظهرت مشكلات الأجور Wages ؛ وضاعت قيمة الانسان ..وتحت وطأة التصنيع ، نجمت الطاقات الجديدة ، وظهرت « التكنولوجيا المتقدمة » والموارد المتعددة ، كما ازدادت قيمة العلم ، وتعقدت المعرفة التجريبية مع الاهتمام بالمنهج العلمي وتطبيقاته فازدادت معدلات المواليد وقلت أو خفت حدة معدلات الوفيات حين تقدمت علوم الطب العلاجي والوقائي مما أدى إلى التضخم فى أعداد السكان .

النسق الاقتصادى فى البناء الاقطاعى :

١ الاقطاع هو النسق الاقتصادى الذى ظل سائداً طوال القرون الوسطى ، كما ارتبطت الأنساق الاقطاعية بسيادة السلطات المركزية وبالحقوق والامتيازات التى تمسك بها كل اقطاعى ، وهى سلطات وحقوق سياسية ، ظهرت وانتشرت وتعددت فى اقطاعيات الأقاليم ؛ كما انفرد كل اقطاعى بسلطاته فى كل اقليم محدد تحديداً مكانياً ومضبوطا .

وكانت الحروب هى السبب المباشر فى ظهور الأنساق الاقطاعية ، ونظم الرق وتجارة العبيد واستغلال الانسان لأخيه الانسان ، كما يسجل التاريخ الاجتماعى للاقتصاد السياسى ، حين يكشف عن نتائج حروب القرون الوسطى ؛ فلقد ازدادت أهمية « الابطال » ورجال الحرب ، وضعفت شوكة الملوك » فنحوا هؤلاء الابطال مختلف الاقطاعيات الضخمة تقديراً وتكريما لما قاموا به فى الحرب من شجاعة واقدام .

وبذلك بدأت الحقوق الاقطاعية ، بمنح المقاطعات والامتيازات ، والانفراد

بالاشراف والتمتع بكافة سلطات حقوق الإقطاع . تلك التى تطورت بعد ذلك إلى « حقوق مشروعة الملكية التامة » الأرض ومن عليها .

ومن هنا سيطر رجال الكنيسة على مساحات شاسعة من الأراضى المعفاة من الضرائب ، ولذلك كانت طقوس « طبقة اللاهوت والكهنوت » القديمة كا تتمثل فى مجمع الكرادلة وكبار رجال الدين ، تعبر عن أهم « سمات عناصر الطبقة الاجتماعية » . ومن هنا صدرت « ارستقراطية الاقطاع ، تلك التى تحترم مبادىء الشرف والصدق وترتفع عن الدنايا ، وتمجد البطولة والنبالة والبسالة .

ويحرص الاقطاع على الاحتفاظ بتراثه وتقاليده ، ونمط الحياة وأسلوبها الثابت الذى يمتاز بالبساطة . بمعنى أن النسق الاقتصادى الاقطاعى هو نسق « ثابت نسبيا » لايتجدد أو يتبدل ، ولا يشجع على تغيير أسلوب الحياة ، وإنما يتقوقع الاقطاعى وينعزل فى عالم ضيق لاينفتح على العالم الخارجى الوسيع ، الأمر الذى معه تتجمد القيم الاقطاعية فى قوالب بعينها ، فلا يخرج الاقطاعى عن قيمة الأخلاقية المتوارثة ولا يشجع على « تبادل الخبرة والعلم » وازدياد سعة الأفق والمعارف ، عن طريق الاحتكاك بالآخرين .

ب — وفى سائر المجتمعات التقليدية والقروية ، وفى كل المجتمعات ذات الثقافة البدائية ، نجد ظاهرة محددة بالذات ، هى « إضفاء هالة من القداسة » على تراث الماضى بأمجاده ، وذلك على حساب الواقع الاجتماعى الراهن ، وتوقعات المستقبل القريب .

ولذلك نجد فى المجتمعات « ذات الاقتصاد الاقطاعى » تلك الجوانب التى تقدس الثابت ، الذى مضى ، مع رفض الجديد والتجديد ، محافظة على التراث القديم ، وليضمان مكاسب نظم الاقطاع الخاصة بالتوريث وتوزيع الثروة

« وانتقال الألقاب من الأسلاف والأجداد ، فتمسك الاقطاعى بعبادة الماضى » وتقديس الأسلاف والأبطال ، ومن هنا يتسم الفكر الاقطاعى بالتزمت وضيق الأفق وعدم المرونة مما يكون له رد فعله فى مجال الفكر وجموح الخيال ، حيث لا يسمح الاقطاعى بالتعارض والتناقض ، وإنما يأخذ فقط بيقين العقيدة الثابت ، ففى منطق الاقطاع ، لم ينضج الوعى بعد ، ولم ترق القدرة على التصور والجدل أما « التعارض والتضاد والتناقض » فهى مبادىء غريبة ينهار معها النسق الاقتصادى للاقطاع ، ولذلك كانت مبادىء الشك والجدل الديكارتية والهيجلية ، هى أول الأفكار النقدية فى الفلسفة الحديثة ، التى أدت فيما بعد إلى دك حصون الاقطاع ونسف قلاعه » .

التكنولوجيا وتغير أنماط الحياة

وعلى غرار أوجست كونت ، يميز « كارل مانهايم » بين ثلاث مستويات لتطور المعرفة وتغير الفكر ، حيث أن هناك اتجاهات معينة على هديها يسير العقل(١) وبفضلها يتجه الفكر ، وتتصل هذه الاتجاهات عند مانهايم ، بمراحل فكرية ، أولها مرحلة « المحاولة والخطأ » أو منهج الاكتشاف بطريق المصادفة « chance discovery » ثم يتجه الفكر نحو « الاختراع invention » وأخيراً يصل العقل إلى مرحلة « التخطيط planning » .

ومعنى ذلك أن كارل مانهايم ، كغيره من فلاسفة التاريخ ، يضع اتجاهاً عاماً يسير فيه الفكر ، ويحاول أن يفسر لنا كيف تخلق الحاجات الانسانية ،

---

(1) Mannheim Karl Man and Socity in An Age of Recon-truction trans. From German by Edward Shils Kegan Paul London 1942

نوعاً من التفكير ، وكيف يرتبط الفكر فى جذوره الأولية بحاجات الإنسان الفيزيقية ، فإن من يتتبع الفكر فى سيره التاريخى النظرى ، المستند إلى ضرورات التغير الاجتماعى ، وأن من يشاهد الأشكال الأولى للمعرفة ، فسوف يجد أنها قد صدرت عن طبيعة العلاقة بين « البيئة الفيزيقية » وبين الإنسان القديم بنمط فكرة البدائية .

ولقد تمخضت « الحضارة » عن تلك العلاقة التى ربطت الانسان بالبيئة ، وانبثق عن ذلك الاحتكاك الانسانى والفكر البدائى ، فى ذلك المحيط البيئى الصارم، ان ظهرت أولى مناهج الفكر الانسانى الساذج ، ألا وهى صدور « مناهج المحاولة والخطأ » أو « الاكتشاف عن طريق المصادفة » .

إذ أن التكيف الانسانى والاحتكاك المستمر بالبيئة الطبيعية ، يولدان نوعا من السلوك أو موقفاً بدائيا ، يقفه الانسان حيال قسوة البيئة ، ويستند موقف الانسان وسلوكه إلى ما تفرضه العادة وإلى ما يضعه التقليد ، وتخضع كل من العادة والتقليد إلى منهج الاكتشاف عن طريق المصادفة ، أو ما يسميه مانهايم بما يشير اليه الاصطلاح الألمانى Finden [1] .

فى تلك المرحلة التى تتميز بالكفاح من أجل الحياة ، وبالصراع المباشر بالبيئة ، وبالاحتكاك المستمر بالطبيعة يكتشف الانسان أنماطا من السلوك ، ويستلهم عدداً من ردود الأفعال المختلفة التى يتسلح بها ، لمقاومة الطبيعة فى عالم مرير من الكفاح والصراع ، كما يكتسب فى الوقت ذاته بعضا من « الامكانيات » التى تمكنه من مواجهة المواقف الجديدة ، والتى تساعده على « التكيف الناجح » إزاء بيئة قاسية .

---

1 – Ibid . P 180.

ولقد قصد مانهايم بذلك المثال الذى التفت اليه ، ليعبر به عن نوع الجبلة الاجتماعية الأولى ، التى صدرت معها « أشكال الفكر البدائية » و « صور المعرفة الأولية » إنما قصد بذلك تلك المرحلة التى تتعلق بالصيد وتتميز بجمع الطعام ، والتى تستند إلى نوع من « التنظيم الاقتصادى والاجتماعى » ، وترتكز إلى أسلوب بدائى من أساليب الحياة ، تصاحبه أولى مناهج الفكر التى امتازت بالمحاولة والخطأ

وبعد انتهاء مرحلة « الاكتشاف عن طريق المصادفة » ، صدرت المرحلة الثانية من مراحل التطور التاريخى والتغير الفكرى فى أساليب المعرفة الانسانية حيث حدث تطور هائل فى البناء الاجتماعى ، وطرأ على المجتمع تغير جذرى فى نظمه وأنساقه فصاحب ذلك التطور التاريخى ، والتغير الاجتماعى تقدم واضح فى مناهج الفكر وفى طرق المعرفة . فقد حدث هذا التغير وظهر هذا التقدم ، حين استخدم الانسان مختلف الأدوات والنظم التى بفضلها يستطيع أن يحقق بها أهدافا ومن هنا ظهرت تلك المرحلة التغيرية الرئيسية ، التى أسماها مانهايم « بمرحلة الاختراع Erfinden »[1].

وفى تلك المرحلة الثانية ، يتجه الفكر الانسانى نحو تكوين الأهداف المحددة ، ومن ثم يفكر الانسان أثناء تقدمه وتطوره ، فى كيفية توزيع مناشطه الفكرية ، لتحقيق تلك الأهداف ، وهو فى ذلك لا يفكر فى موضوعات البيئة المباشرة ، بل يفكر فى أشياء لا تقع تحت بصره أو سمعه ، أى أنه بدأ يفكر « فيما وراء الموضوعات » و « فيما وراء البيئة » .

ولقد نتج عن تلك المرحلة الهامة من مراحل الفكر فى رأى مانهايم ، ذلك

---

(1) Ibid : p. 151

التطور التكنولوجى الهائل ، ونجم عن الاختراع ذلك التقدم الآلى ، من أبسط الأشكال التكنولوجية ، وأكثر الأدوات بدائية ، إلى تلك التى أكثرها تعقيداً ، وأشدها تركيباً ، فتطور مثلا استخدام « الحيوان » و « المحراث » ، إلى استخدام « البخار » و « الكهرباء » وما يتصل بها من اختراعات ومنافع تحقق أهدافاً رئيسية فى حياة الانسان والجماعة .

التخطيط ومنهج التفكير المخطط :

ويرى كارل مانهايم — أن « الشدة » و « التوتر » الذى ينجمان عن « مرحلة الاختراع » وما يصاحبها من قوى متعارضة . إنما تفرض علينا وعلى فكرنا ، أن نمر بمرحلة ثالثة ، تلك التى يسميها مانهايم « بمرحلة التخطيط Planen »(١) . أو « مرحلة التفكير المخطط Planned Thinking » .

وتتجلى مظاهر تلك المرحلة حين يتقدم الانسان ، ويتخطى الفكر الانسانى مرحلة الاختراع ، ويتعداها نحو مرحلة التخطيط Planen ، حيث يتقدم المجتمع حين يتخطى عن تلك التنظيمات العشوائية ، التى كان الفكر الانسانى يستعين بها فى مراحله البدائية الأولى .

وفى مرحلة التخطيط — تظهر إلى الوجود الاجتماعى أنماط جديدة من المعرفة حيث تتعدد أبعاد الفكر ببلوغه درجة عالية من التطور ، وحيث تتداخل ميادين الفكر ، فى عالم الاقتصاد والسياسة ، حين تتعقد أنساق البناء الاجتماعى ، وحين يتحول المجتمع من « بناء استاتيكى بدائى » إلى بناء « ديناميكى متغير متعدد الأبعاد(٢) .

1 - Ibid : p 152

2 - Ibid : p 153

ومن ثم اهتم مانهايم بمرحلة التخطيط ، حيث ظهرت فى علم الاجتماع اتجاهات عملية ونزعات تكنولوجية ، تهدف إلى تكوين « تكنولوجيا » أو « هندسة اجتماعية » بالاستناد إلى دراسات التخطيط العلمى والاجتماعى .

وأصبحت عملية التخطيط عند مانهايم ومن نحا نحوه من سائر التاريخيين — عملية ضرورية « لتنظيم التغير الاجتماعى » على اعتبار أن التغير هو الحقيقة الأولى فى الوجود . وأن التطور هو « لب الحياة وجوهرها » .

واستناداً إلى ذلك الفهم — فان التغير الاجتماعى والثقافى والاقتصادى ، يجعل من « التخطيط أمراً ضرورياً » لا مفر منه لمواجهة تلك التغيرات الهائلة التى تصيب الأسس الجوهرية ، فى البناءات والأنساق الاجتماعية ، والتى تلحق بالجوانب الرئيسية فى سائر المجتمعات المعاصرة .

ويعتقد أصحاب التخطيط — كما يقول مانهايم : « أن مهمتهم الرئيسية إنما تقوم على تحطيم العادات الفكرية القديمة والكشف عن الوسائل الجديدة التى تؤدى إلى فهم هذا العالم المتغير »(١) .

ويتضح لنا من هذا القول — كيف حولت النزعة المانهايمية باهتماماتها فاتجهت نحو « الفكر السياسى » وأشادت بدوره الخطير ، إلى الدرجة التى أصبح فيها هذا اللون من التفكير السياسى ، مصدراً هاما من مصادر المعرفة .

حيث يربط الفكر السياسى بين « النظرية » و « التطبيق »(٢) ، لأنه ينبثق من واقع « التجربة السوسيوتاريخية » ، كما يتصل بالمصالح الجمعية من جهة ،

---

1 — Ibid., P. 33.

2 — Mannheim, Karl, Ideolgy and Utopia, Kegan Paul, London, 1940 p 165

ونتيجة نحو العمل والانتاج من جهة اخرى ، ولذلك اختلفت وجهات النظر السياسية ، وتباينت اشكالها احيانا من اتجاهات « بيروقراطية » و « ليبرالية » ، او نزعات « اشتراكية » و « ديموقراطية » فى اغلب الأحيان .

ولعلها تجمعت جميعا عن طبيعة « التجربة السياسية » وصدرت عن المواقف والأوضاع الاجتماعية السائدة . إذ ان « الفكر السياسى » إنما يرتبط فى الواقع بحقيقة الوضع الاجتماعى والظرف التاريخى .

ومن ثم تصدر الفلسفة السياسية ، عن تجربة المجتمع وعن سياق التاريخ ، فالأفكار السياسية جذورها البعيدة الكامنة فى « روح العصر » و « نسيج التاريخ » و « تربة الفكر الاجتماعى » ؛ على اعتبار ان المجتمع والتاريخ ، هما المهبط الوحيد لكل « فكرة » او « اتجاه » او « مذهب » من مذاهب فلسفة السياسة .

ولعل مانهايم — فى تأكيده على الفكر السياسى ، ودوره فى التخطيط والتغيير والمعرفة ، إنما ينجم عن إيمانه بالنزعة التاريخية وبالاتجاهات العملية فى علم الاجتماع وذلك بتحويلها إلى ، اداة قوية فى ايدى السياسيين واصحاب التخطيط .

وختاما — فى ضوء استعراضنا لمساهمات مانهايم فى سوسيولوجية السياسة نجد ان اتجاهاته السياسية والتاريخية ، قد تأثرت إلى حد بعيد بالنزعات الهيجلية والماركسية التاريخية(١) ، مما كان لها اكبر الاثر فى تشكيل الفكر المانهايمى وتكوين اتجاهاته النظرية فى سوسيولوجية التاريخ والسياسة والمعرفة ، استنادا إلى « نسبية الفكر » و « المواقف التاريخية » ، وللاخذ بالنزعات « البنائية » والوظيفية فى التفسير التاريخى والتحليل الاجتماعى .

---

1 — Aron, Raymond; La Sociologie Allemande Contemporaine, Félix Alcan, Paris. p 82—83

الفصل الحادي عشر

وطأة التكنولوجيا والتحديث

- تمهيد
- محنة التصنيع
- الخبرة الصناعية ووطأة التحديث
- طبيعة الانساق والتنظيمات الصناعية
- عيوب النزعة الوظيفية فى التنظيم

تمهيد:

ا ـ ليس النشاط الإنسانى، سواء كان زراعيا أم صناعيا، ظاهرة فردية وإنما نجده ظاهرة اجتماعية وجماعية. ولا تعمل «الآلة» وحدها فى ميدان الصناعة فهى فى حاجة إلى ما يحركها من «جهود وطاقات بشرية» منتجة ومحركة للآلات، فالصناعة ظاهرة إجتماعية. والطاقة البشرية ليست كما هى «كما عدديا عشوائيا»، وإنما هى «قوة جمعية موجهة»، عن طريق تضافر الجهود والحماس والمنافسة من أجل زيادة الانتاج.

وتعتمد الصناعة على تقـــدم التكنولوجيا، فإذا كانت الآلات اليدوية والخشبية(١) كالطنبور والشادوف قد خلقت المجتمع الاقطاعى، فقد خلق ظهور «الآلة البخارية» نمطا تكنولوجيا جديدا فى الانتـاج، ومع انتشار التصنيع وتطويره وظهور عصر الصناعة الثقيلة حدثت التغيرات الهـائلة التى طرأت على البناءات والتنظيمات الاجتماعية، فقد بدأ «رأس المـال الصناعى» فى تدمير بيوت العمال بانتشار الاستغلال والاحتكار والبطالة ويتلون «رأس المـال» بلون «الطبقة» و «شكل الانتاج» ونوع الاقتصاد الموجه وغير الموجه فهناك رؤوس أموال «إقطاعية» و «بورجوازية» وأخرى «صناعية» شيوعية كانت أم رأسمالية.

---

(١) ان الأدوات الخشبية التى تدار باليد تخلق معنى الثبات الإستاتيكى ولكن حين اخترع «جول كاى» آلة نسيج عام ١٧٣٣ ثم اخترع «ادكرايت» عام ١٧٧١ آلة الغزل المستمر، دخلت الآلة كعنصر تكنولوجى فى تطوير الصناعة. وتحت وطأة الصناعة طرأ على سطح البناء الاجتماعى الكثير من التغيرات. حيث تعقدت النظم وتعددت الوظائف وتقسيم العمل division of labour لأن الآلة جاءت باختصار الوقت واقتصاد الجهد وتوفير الأعداد الهائلة من العمال.

ب ـ ومع تراكم رأس المال، يتراكم شقاء الإنسان ، فكلما إزدادالاستغلال وإستفاضت الثروة ، وتراكمت فى جيوب الرأسماليين ، كلما إزداد الفقر والفاقة بين صفوف العمال ، لزيادة عرضهم على طلبهم ، فتقل الأجور ، وتنهار القيم الخلقية ، وتتغير أنماط الفكر وتفكك سمات الثقافة ، كما يهتز ويتحلل البناء الاجتماعى مع هذا التطوير الصناعى التكنولوجى . واستناداً إلى ماطرأ على سطح المجتمع من ظواهر التحلل والتفكك ، ضاعت قيمة الإنسان » . وإذا ماعقدنا المقارنات بين هذه الظروف والمشكلات المعقدة ، وبين المقدمات الأولى للصناعة ، لوجدنا أنه فى بداية التصنيع ، ظهر شكل العمل الصناعى أولا فى « الورشة » حيث ظهرت فئات العمال الصناع وتطورت مهاراتهم الفنية وصناعاتهم اليدوية والآلية التى يقوم بها العامل الماهر المتخصص ، وكان « الأسطى Artisan » فى مبدأ أمره « سيداً » و « رئيسا على أعوانه من صغار الصناع » ، من طلاب المهنة . وكان هؤلاء الصغار ينظرون إلى رئاسة « الأسطى » نظرة روحية كنظرة الطالب إلى أستاذه ، ومثل نظرة المتدين إلى « آباء الكنيسة » ، حيث يتلقى الصغار من كبار العمال المهرة ، أسرار المهنة وفنونها ، ويسترشدون بارشاداتهم . ونظراً لوجود علاقات المحبة والمودة التى تربط « الأسطى » بصغار العمال ، ونظراً لصغر حجم الورشة ، وقلة حجم القوه العاملة ، وبساطة التنظيم الصناعى . لعدم تعدد الادوار والمراكز ، نشأ مايسمى « بالغشاء الايديولوجى Vétement Idéologique » كرابطة روحية وثقى تربط بين الأسطى وعماله .

وإذا كانت الورشة هى أول « نمط صناعى » يصاحبه تنظيم بسيط يربط بين « الأسطى » و « صبيانه » ، فلا شك أن « الورش الصناعية » هى بمثابة المدارس الصناعية الأولى ، التى يتخرج منها صغار العمال ، وهى « النواة » الأولى

فى البناء الصناعى كله ، وعلينا أن نشجع قيام « الورش الصناعية » المحدودة لأنها المصدر الحيوى الذى يفرخ « مختلف » متوسطى المهارة . من أصحاب المهن والحرف ، حيث أن هذه المدارس الصناعية الأولى ، كانت موجودة كورش قائمة بذاتها ، ثم أخذت تختفى وتتلاشى ، وخاصة بعد ظهور الصناعات الرأسمالية الكبرى . وتهتم « الإدارة الصناعية المعاصرة » بما يسمى بالكفاية الانتاجية . وبالتلمذة الصناعية ، فأخذت المؤسسات الصناعية الكبرى تقيم نظماً تعليمية جديدة ؛ تربط بين « التلمذة الصناعية » و « ورش الانتاج » القائمة بالفعل ، داخل نطاق المشروع الصناعى ؛ فيتلقى التلميذ الصناعى apprentice علومه ودراساته التى تتمركز جميعها حول مشكلات صناعية ومناهج تعليمية وثقافية ؛ يتلقاها فى رحاب المصنع وبين جدرانه ؛ فتزداد معارفه وخبراته عمقاً وإتساعاً بين حركة الآلات وعجيج الورش .

هذه هى سمات الصناعة كما صدرت فى العصور الوسطى ؛ حيث كان صنع « عربة الركاب للاقطاعى » يحتاج إلى عـــدد من المهن والصناعات اليدوية حين تتضافر جهود « الحداد » و « عامل الزجاج » وصانع العجلات و « النقاش » ، ومع تطور الطاقة الانتاجية بظهور تكنولوجيا الصناعة . إنتقل المجتمع الفرنسى من نطاق « الورشة الصغيرة » . حيث قفز قفزة صناعية هائلة ، فظهر « المصنع الكبير » وما فيه من بناء وتنظيم وتقسيم للعمل ، استناداً إلى توزيع للمهن والتخصصات حين تساهم مختلف فئات العمال فى عملية الانتاج الكبير .

محنة التصنيع :

ثم ـ وبظهور العصر الآلى الميكانيكى . ضعفت المهارات اليدوية الفنية . وخرجت « الأداة » التى كان يستخدمها العامل الماهر القديم ، لكى تنتقل من

يد العامل ؛ وتستقر وتلتحم فى جسم « الآلة » التى تعمل ذاتيا وتنتج إنتاجا هائلا فى وقت قصير ؛ فكان للآلة آثارها المباشرة على سيكولوجية العامل ؛ وتائجها السوسيولوجية على مختلف فئات العمال . حيث اختصرت الآلة الكثير من حركات العامل ؛ كما أدت الآلة إلى إعفاء الكثير من العمال ، وقاوم عصر التكنولوجيا تلك المهارات الذكية ، وتحدت الآلة الخبرات اليدوية ؛ التى كان يتميز بها العامل القديم . ولقد إرتبط التقدم التكنولوجى وتطور التصنيع وإنتشاره ، بتغيير الأنماط القروية ، وظهور الأنماط الحضرية .

فلقد ظهرت « المدن » والحواضر » حول المصانع ؛ وارتفعت الأجور وزادت دخول الأفراد ، وأصبحت « المدينة » مركزا من مراكز « الجذب » ، للأعداد الهائلة من القرويين الذين يندفعون نحوها هربا من ظلم الاقطاع . فبدأت الهجرة من القرية إلى المدينة . وقامت بانتشار التصنيع المشروعات الصناعية نظراً لتراكم رأس المال ورخص الأيدى العاملة .

ولا شك أن ظهور العلم الحديث بمكتشفاته فى ميادين الطبيعة والميكانيكا . قد أدت إلى تقدم البحث التكنولوجى والاهتمام بالصناعة والتصنيع . الأمر الذى جعل « سان سيمون Saint Simon » يعلن نهاية طبقة النبالة ويؤكد على حتمية التطور . حين ينتقل المجتمع من « نظام حكم الإنسان» Gouvernement des Personnes إلى نظام السيادة أو التسلط على الأشياء L'Administration des Choses » .

د ـ وفى عصر التكنولوجيا ازداد الاهتمام بتكثيف الانتاج إلى درجة استخدام رجال الصناعة وأصحاب المصانع لجهود العلماء والخبراء فى علم النفس الصناعى Industrial Psychology من أجل إبتكار مختلف الطرق

والأساليب التى تزداد معها نسبة الانتاج . وعلى سبيل المثال ، إبتكر « تايلور » طريقة إنتاجية ، تقلل إلى حد كبير من عدد الحركات التى يقوم بها العامل أثناء قيامه بالعملية الانتاجية . وإذا ماقلت عدد الحركات التى يتطلبها العمل ، قلت معها قيمة الجهد المبذول فى العمل (١) .

والحقيقة أن خبراء النفوس فى مجال الصناعة ، من أمثال « تايلور » و « جلبرت » لم يقللوا الحركة ولم يخفضوا نسبة التعب أو المجهود ، حبا فى العامل ، ورغبة فى تخفيف أعبـــائه ، بقدر ماكانوا يرغبون فى استخدام علوم النفس والاجتماع والفسيولوجيا Physiology فى ميدان الصناعة لخدمة رأس المال ولأصحاب مشروعات التصنيع فى الشركات الكبرى .

ولقد قل فعلا عدد الحركات المطلوبة ، ونجحت التجارب ، ولـــكن كان على العامل أن يقوم بانتاج أكبر قدر ممكن ، بمعنى أن الهدف كان يقتصر فقط على ازدياد ناتج العمل ، أو تكثيف كم العمل ، الذى يفـــرض على العـــامل فرضا . وعلى الرغم من تلك المحـــاولة السيكولوجية فى تقليل حركات العمال . إلا أن صاحب المشروع الصناعى ، هو « إنسان نفعى جشع » ولا يرتاح له بال ، ولا يهـــدأ له حال ، إلا بازدياد كم العمل الذى ينبغى

---

(١) اهتمت حركة الادارة العلمية التى قام بها « فردريك تايلور » « وتلاميذه » « فرانك جلبرت » بدراسة عنصر الزمن وصلته بالانتاج - وبتحليل حركات العمال بزيادة انتاجيتهم عن طريق دراسة « فسيولوجيا العمل Physiology of Work » وتقليل نسبة أو عدد حركات العمال لتخفيض نسبة التعب أو الجهد الى أقل حد ممكن - أنظر فى هذا الصدد :
Gilbreth, F.B., Motion Study., A method for increasing efficiency of workmen 1911.

على العامل إنجازه في أقل وقت ممكن . وهذه هي مصلحة رجال الصناعة التي تنادي بشعار « تكثيف العمل وزيادة الأرباح » .

الخبرة الصناعية ووطأة التحديث :

وما يعنينا من كل ذلك هو التركيز أولا على تطور التصنيع والميكنة Automation ؛ وما نجم عنها من تحولات جوهرية في البناء الاجتماعي ، نتيجة لاستخدام الآلة وتحول رقيق الأرض إلى صناع ، فاختفت الحرف وضعفت الفنون ، مع ظهور الاجراء والصناع ومختلف طبقات وفئات العمال .

ولا يفوتنا في هذا الصدد ، أن نؤكد ردود الأفعال الخاصة بفاعلية التنظيم الاقتصادي ، وصداها في عالم الفن والأدب والابداع ؛ ففي عصور الاقطاع راجت الفنون والآداب ، وقد عكست أشعار وقصائد فيكتور هوجو Hugo حين كشف عن شقاء الإنسان ، وكتب عن آلام البؤساء ، وما يعانونه

---

(١) للخبرة دورها وأهميتها في ميدان الصناعة والاقتصاد ودليلنا على ذلك هو دليل مادي ملموس . حيث يزداد أجر الانسان كلما إزدادت خبرته ، فأجر الطبيب المتخصص أو الجراح ، إنما يختلف عن أجر الطبيب العادي ، وكذلك فان أجر العامل الماهر يزداد بازدياد خبرته ومهارته ، ونظرا لزيادة الطلب على « الخبرة الصناعية » في هذه الأيام ، فإنها تنمو وتنتشر ، ويزداد ثمن الخبرة كلما ازدادت ندرة الخبرة ، فللندرة في ذاتها قيمة اقتصادية .

ومن العيوب الفنية للخبرة الصناعية ، أنها في بدايتها اليدوية والعملية ، خبرة بدائية « جامدة لاتتجدد » ، ونظرا لأنها بسيطة وجزئية فهي خبرة ثابتة « لاتتطور » ، نظرا لضيق أفق حامليها وحامليها . ولا تتطور الخبرة أو تنمو وتنضج إلا اذا إقترنت أي صاحبها ؛ بالمهارة والتدريب والمران ، بالاضافة إلى انتشار الثقافة والمعرفة مما يزيد ويعمق من الخبرة فتزداد اتساعا وتخصصا ودقة .

وتتميز الخبرة الفنية البسيطة منها أو المعقدة « بأنها جزئية ومؤقتة » حيث تتضح في ميدان الميكنة والتصنيع ، كما أنها لا تنقل الخبرة لأنها محدودة وعملية ومتكررة .

من فقر ، وانخفاض مستوى المعيشة وهبوط الأجور فى النسق الإقتصادى الإقطاعى ، كما وسجل لنا صورة عن البؤس فى أشعاره وكلماته ، بحيث صور وروى فى أدبه كل مايدور حول « قيم الاقطاع » كالشجاعة والمروءة والفروسية ، حيث تمجدت أخلاقيات النبالة والبطولة ، والوفاء والرجولة .

ومعنى ذلك أن لاقتصاديات القرون الوسطى كان لها صداها فى تشكيل « روح العصر » التى تميزت بالخصوبة والخيال ، فكان الاقطاعى يشجع الفنانين والرسامين ، فظهر عباقرة النحت والتصوير والعمارة وسائر الفنون التشكيلية التى اتجهت نحو الانتصار الكامل لقيمة العقل .

وسرعان ماتغيرت فنون وآداب مابعد الاقطاع ، فبرزت على السطح « قضايا جديدة » تستشف أعماق الإنسان وتكتشف ضميره وأناه ، كما تهتم باحساساته وسيكولوجيته وابراز قضاياه الوجودية . ففى الاقتصاد الاقطاعى إتجه الفكر نحو الإيمان بقواعد الدين والتزاماته ، مع تقديس النظام واحترام الملكية وتبجيل ماهو عام ، مما أدى إلى سيادة النمط السياسى المستقر .

وعلى العكس من ذلك نجد أن « الفكر الرأسمالى » قد أخذ يتجه نحو ماهو خاص ، مع ابراز الجوانب الشعورية والابعاد السيكولوجية والاهتمام بالعنصر الذاتى أو الفردى .

طبيعة الأنساق والتنظيمات الصناعية :

٩ - يمكننا أن نتساءل : ماهى طبيعة النسق الاقتصادى ؟ هل هو حقيقة إستاتيكية ثابتة ؟ وهل هناك « تماسك عضوى متكامل » يعمل داخل الانساق الصناعية والاقتصادية ؟ . أم أن هناك حالة من « عدم التوازن » الديناميكى تعمل فى قلب البنادات الصناعية ؟!

. في الرد على هذه المسائل ، خارج علم الاجتماع الصناعي ، كما انشغل علماء الاجتماع الاقتصادي ، وانقسموا فيما بينهم إلى « مدارس » أو « مذاهب » ، تذكرنا بمدارس ومذاهب الفلسفة حيث يرى فريق . أن الأنساق والتنظيمات في البناءات الصناعية والاقتصادية ، هي أنساق ثابتة نسبياً ، كما أنها متماسكة ومتكاملة ، وهذا هو فريق المحافظين التقليديين » . بينما ذهب فريق آخر . إلى أن الصراع قائم في باطن النسق الصناعي ، حيث يعمل . لا يهدأ ، في حركة تغييرية دائبة ، وهذا هو السبب السوسيولوجي في عملية التقدم الديناميكي للانساق ، ذلك التقدم الذي لايتم إلا بعد أن يعترى « بناء النسق التنظيمي » شيئاً من التفكك والانحلال . الذي يعقبه بعد ذلك حالة من إعادة التوازن في التنظيم . ويذهب هذا المذهب في طبيعة التنظيمات الإجتماعية ، أصحاب التيارات الماركسية الثورية .

فلقد ذهب المحافظون من أمثال «دوركايم» و «رادكليف براون» Radcliffe-Brown إلى أن « البناء الاجتماعي الصناعي » ، إنما يمتاز بالتضامن Solidarity ، والمشاركة Participation من جهة ، وبالتماسك والاطراد ، من جهة أخرى .

ولقد أعلن المحافظون التقليديون ، أن هناك الكثير من العوامل التي تضبط البناء ، والتي تبقى في نفس الوقت على تماسكه وإستمراره ودوامه . وكان أول هذه العوامل ، هو عوامل تماسك « التنظيم الاجتماعي Social organization » نظرا لوجود عنصر المشاركة الفعلية بين سائر أعضاء التنظيم الاقتصادي أو السياسي ، سواء داخل البناءات الاجتماعية في المصانع ، أو من خلال بناءات القوة والسلطة ، التي تعمل في قمة الاشكال الهرمية لسائر التنظيمات السياسية والاجتماعية .

وبالاضافة إلى وجود عامل تماسك التنظيم ، أو ثبات الوحـدات الجمعية Collective units ، نظراً لثبات اللغة والتقاليد والمصالح المشتركة من جهة ، وتوافر مبدأ التضامن والتعاون Cooperation من جهة أخرى . وكل هذه عوامل جوهرية تؤدي إلى تكامل النسق System Integration ، واستمراره ، نظراً لوجود الاعتماد الوظيفي Functional interdependence بين سائر المكونات الداخلة في التنظيم أو المركبات العامة في البناء ، بمعنى أن ثبات الحياة الاجتماعية واستمرارها وتكاملها ، إنما يعتمد بالضرورة على وجود السلطة والمشاركة ، في المصالح والقيم ، التي تدعم لنا كل البناءات والتنظيمات ، كما وتؤدي إلى تماسك سائر الأنساق الإجتماعية في هذه البناءات الكلية .

ب ـ هذا عن مزاعم المحافظين التقليديين ، ولكن القائلين بالتغير الثوري الكلي أو المفاجيء ، والقائلين أيضـا بالتطور الجزئي أو المرحلي ، فقد إنشغلوا جميعا بعوامل التطور والتغيير وبدوافع التمرد والثورة ، وفسروا وجود الصراع Conflict وعدم التكامل Malintegration بأسباب تتعلق بالتكيف والتفاعل الثقافي من جهة ؛ وبعوامل تكنولوجية Technological وإقتصادية كالبناء الأسفل ، وقوى وعلاقات الانتاج من جهة أخرى . بالإضافة إلى عوامل فكرية Ideational ، تؤدي الى تجديد التنمية ، نظراً لوجود التخلف الثقافي Cultural Lag ، القائم بين تقدم التكنولوجيات وتأخر الايديولوجيات . كما ويؤثر هذا التخلف بالطبع على صور البناءات الاجتماعية ، ومكوناتها وأنساقها من جهة ، وعلى سماتها وعناصرها ومركباتها الثقافية من جهـة أخرى .

يستطيع أي فرد في المجتمع عن طريق تصوره أو خياله السوسيولوجي ،

أن يدرك طبيعة البناء الاجتماعى ومكوناته ، ومدى تماسك أو تفكك هـذه المكونات والأجزاء . ولسوف يدرك فوراً أن البناء الاجتماعى رغم مايعتريه من تغير وما يطرأ عليه من تفكك ، له وظائفه الضرورية ، التى تتصل بالتكامل وتدعيم النمط ، من جهة ، وبالتكيف وتحقيق الأهداف من جهة أخرى . وعلى هذا الأساس حاول « تالكوت بارسونز » أن يؤكد فى نظريته البنـائية الوظيفية ، على الجوانب السلوكية والسيكولوجية ، وذلك بالتركيز على « بناء الفعل الاجتماعى » .

وفى تلك النظرية البارسونية ، تنقسم أنماط السلوك الاقتصادى والسياسى والدينى، طبقاً لتقسيم البناء الاجتماعى أصلا إلى ، مجموعات أو أنساق » اقتصادية وسياسية ودينية وخلقية وتشريعية ، تقوم فيما بينها « علاقات بنائية » . وحين يطرأ التغير على بنيه أى نسق من تلك الأنساق المتكاملة ، فإن ذلك يسبب بالضرورة تغيرا مصاحباً ومماثلا فى سائر الأنساق الأخرى . بمعنى أننا نجد نوعا من الترابط الوظيفى والاعتماد المتساند بين مجموعات الأنساق ، وتلك هى فـكرة الوظيفة البنائية . كما تتجلى فى كل نسق إستاتيكى ثابت ، بحيث يتكامل فى حالة « التعاصر Coexistence » ودوامه مع سائر الأنساق الأخرى فى علاقاتها الكلية ، ومن هنا يمكن دراسة أنماط السلوك ، من خلال فهم المواقف والعناصر الاجتماعية بانتزاعها من ذلك الكل التى هى جزء فيه ؛ والذى يعطيها أيضا معناها ومبناها .

وفى هذا الاتجاه البنائى الوظيفى نفسه ، أكد روبرت مرتون Merton على أن الأفراد إنما يستجيبون لمواقف معينة ، تسود النسق كله ، ثم يقومون بتعميم هذه الاستجابة نفسها بالنسبة لكل المواقف والظروف المتشابهة ، كما

يعلن « ميرتون » أن التغير الذى يطرأ على سمات الشخصية إنما يتأثر بما يطرأ على النسق أو البناء الاجتماعى من تغيرات(١) .

فالشخصية ، مثلا تعبر فى الواقع عن علاقة ثابتة بين منبهات من جهـة ، واستجابات من جهة أخرى ولقد اهتم «ميرتون» أيضاً بفكرة الضبط فى النسق الاجتماعى ، كما اهتم أيضا بهذا التيار الجديد ، أحد الذين تتلمذوا على «ميرتون» ، فتأثر به فى كتاباته تأثراً واضحا ، وأعنى به « ألفن جولدنر Gouldner »(٢) ، حيث أكد الأخير على أن وظائف الضبط إنما تحدث التوازن equilibrium بين سائر أجزاء النسق أو البناء الاجتماعى . ولا يرجع ذلك التوازن إلا لتحقيق التكامل بين « ميكانيزمات الضبط » القائمة فى النسق الاجتماعى ، الأمر الذى معه يؤدى النسق وظائفه بطريقة ديناميكية فعالة .

ووفقاً لأى تصور أو خيال سوسيولوجى لأى فرد من أفراد المجتمـع ، يكون « العنصر السيكولوجى » هو العامل الأساسى والحاسم فى دراسة «الأنماط» والأنساق الاجتماعية » تلك التى تستند إلى وظائف «المجال» و«المواقف» و « ميكانيزمات القوى الدافعة » بالاضافة إلى فهم البناء والنظم وماضى الثقافة بسماتها المختلفة التى تضم التراث والتقاليد والمعايير والقيم .

حـ ـ والنقد الهادم الذى يوجه لنظرية بارسونز الوظيفية ، إنما يتمثل فى أنها نظرية لا تقوم على « فرضيات » ، ولا تقدم لنا أية تنبؤات ، وإنما هى

---

(1) Cohen, Percy., Modern Social Theory. London-1968.

(2) Gouldner, Alvin Modern. Sociology., An Introduction to the Study of Human Interaction, U.S.A. pp. 1963. 107-122.

نظرية سردية ووصفية بحتة ، وليست بالنظرية التفسيرية المتكاملة (١) .

ومن الانتقادات الموجهة إلى النزعة الوظيفية البارسونية ، أن كل نسق اجتماعي كما يذهب الوظيفيون هو موجه بالضرورة توجيها هادفا ، حين يتجه نحو إشباع حاجاته ، وتدعيم وجوده، وتأكيد إستمراره . وهذا يعني في نفس الوقت أن كل أجزاء النسق لا تلائم بالضرورة مختلف الحاجات التي يسعى النسق إلى إشباعها .

ومن الخطأ أن نقول مع الوظيفيين ، أن تساند الأجزاء هو أمر مطلق ، فالتساند أو التعامد ليس أمرا مطلقا ، حيث أن هناك بالضرورة درجات مختلفة لأنماط التساند الوظيفي .

وحين يوصف أي نمط من الأنماط بأنه « وظيفي » لأنه يسهم بصفة عامة في تدعيم النسق ككل ، فإن مثل هذا الوصف يعتبر من قبيل « اللغو Tautology » . ذلك لأن كل أجزاء النسق متساندة ، وتسهم في تدعيم الكل ، وهذا لا يقدم لنا شيئا جديدا (٢) ، حيث أن هناك اختلافات واضحة في « درجة التعامد degree of interdependence » .

عيوب النزعة الوظيفية في التنظيم :

ومن الانتقادات المشهورة للنزعة الوظيفية هي أنهـا « نظرية أيديولوجية » تنعكس على منهج البحث في الدراسة السوسيولوجية ، حين تطبق وجهـات النظر المحافظة Conservative فحسب ، مع استبعاد الجوانب الثورية والتغيرية

---

(١) دكتور محمد عاطف غيث الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر دار الكتب الجامعية ١٩٧٨ ص ٢٨

(٢) أنظر الانتقادات التي سقناها لمجموع النظرية الوظيفية عند بارسونز في الفصل الثاني من كتابنا « تيارات معاصرة في علم الاجتماع » الهيئة المصرية العامة ١٩٧٩ ،

لأنها « جوانب غير مرغوب فيها » بالنسبة للاتجاه الوظيفي المحافظ ، الذي يؤكد فقط على ذلك الانسجام السائد في العلاقات ، والتضامن الظاهر بين سائر الأنساق الاجتماعية . ولعل النقد الحاسم للنظرة السوسيولوجية البنائية ، إنما يتمثل في أنها « اتجاه كلي النزعة Holism » ، وتلك نظرة فلسفية وافتراض « لاعلمي » واتجاه نظري لا يستند إلى مصادر تجريبية أو شواهد حقلية .

د ـــ وختاماً ، هناك بعض الانتقادات المتعلقة بمسائل الصراع Conflict ، والتغير Change ، وذلك في مقابل ثبات المعايير norms وآلية أو عضوية التضامن Solidarity ، حيث تؤكد النظرية الوظيفية على وجود التضامن والثبات ، وتقلل كثيرا من أهمية الصراع والتغير الاجتماعي ، وذلك لأنها نظرية « يمينية محافظة » تعلي من قيمة التساند والانسجام والتناغم Harmony ، من أجل تحقيق التضامن والتماسك بين سائر الأنساق والنظم والعلاقات السائدة في البناء الاجتماعي . الأمر الذي أخفقت معه « النظرية الوظيفية » إلى حد كبير في تفسير ظواهر التغير والصراع والتفكك ، تلك التي ينظر اليها الوظيفيون (١) على أنهـا ظواهر مرضية أو غير سوية abnormal ، لأنهـا تصيب البناء الاجتماعي بالاختلال والاعتلال فتصبح من الظواهر المرضية المعتلة المضادة للتضامن والتماسك والانسجام القائم على نحو مسبق ودائم في البناء الاجتماعي (٢) .

ولقد أثبتت الدراسات السوسيولوجية المعاصرة ،أن كل تنظيم من التنظيمات الاجتماعية . ليس استاتكيا ثابتا وإنما هو « تنظيم دينامي » حافل بما يحتويه

---

(1) Cohen, Percy., Modern Social Theory., Heinemann, London., 1968., p. 58

(2) Ibid : P. 56

من تغيرات ، كما ينشب الصراع ويسود فى بناء التنظيم من حين إلى آخر ، مما يؤكد على مدى حاجة كل تنظيم إلى تلك الصراعات والتغيرات التى تعمل فى أحشائه ، فيصبح « الصراع تنظيميا » كما يكون التغير هو الآخر حاجة ضرورية من حاجات التنظيم الداخلى لأى بناء اجتماعى ، يخضع لظروف اقتصادية وعسكرية وثقافية من خارجه . كما يخضع داخليا لواقع تنظيمى دينامى متغير طبقا لتوزيع القوة أو السلطة ، داخل إطار « نسق اقتصادى » أو « تنظيم دينى » أو « بناء ثقافى » أو « تطوير سياسى » فورى أو ثورى (١) .

وإذا ماعدنا ثانية إلى النظرية الوظيفية وبخاصة عند « بارسونز » فلسوف نلاحظ فورا مدى تأثر النزعة البارسونية بمواقف وتفاسير علم النفس ، ولم يضع « بارسونز » فى اعتباره ذلك « الكل المتكامل » الذى يؤلف بين حالات الفرد ومعايير المجتمع ، ولم يلتفت إلى ذلك « التركيب الفريد » الذى يجمع بين الانسان ومجتمعه . فليس الانسان كائنا منعزلا « وكأنما ألقى فى هذا العالم » . وإنما يعيش الانسان فى أسرة ، وينخرط فى زمرة ، ويتعقل مدركاته ، من خلال احتكاكه بالآخرين .

ولقد خلط « بارسونز » إلى حد كبير بين أنظار ماكس فيبر ، و « كارل ماركس » فى تركيب متناقض ، يؤلف بين حكم القيمة Value ، ودور الصراع ووظيفته ، حيث جمع « بارسونز » بين حالة القسر والاجبار والالتزام ، وبين حالة التغير والتمرد والثورة ، وقد يكون « التغير مرضيا ومعتلا » حين

(1) Weber, Max., The Theory of Social and Economic Organization trans. by Henderson and Parsons, Glencoe 1967. p. 120

وتفشي الانحرافات بانتشار جرائم العنف السياسي ، وبسود التسيب وعدم الانضباط . أما « التغير التنظيمي » فهو تغير ديناميكي صحي وتقدمي ، يعمل على « تنمية التنظيم » ، وتطوير البناء ، وتطهير جيوب الانحراف ، وتغيير عيوب القيم وتسيب الضوابط .

ولقد كشف « رالف دهرندورف » Ralf . Daherendorf (١) في كتابه « الطبقة والصراع الطبقي في مجتمع صناعي » Class and Class Conflict in an Industrial society عن أوجه القوة والضعف في نظرية بارسونز ، وناقشته لطبيعة السلطة والقوة في ضوء الكتابات الماركسية ومن زاوية دراسته لمواقف « ماكس فبر » Weber . أما « جون ركس » John Rex في كتابه : المشكلات الرئيسية النظرية السوسيولوجية (٢) فقد وجه الكثير من الانتقادات والاعتراضات ازاء النظرية البارسونية ، وأشهرها أنها نظرية تصدق فقط على المجتمعات الصناعية دون غيرها من سائر المجتمعات والثقافات المتباينة (٣) .

---

(١) نشر جون ركس كتابه هذا تحت عنوان Key Problems of Sociological theory , ولقد نقله إلى اللغة العربية الدكتور محمد الجوهري وآخرون

2- Ibid,P 197

(٣) حدثنا (دهرندورف) في كتابه صراعات مجتمعات ما بعد الرأسمالية » وتنبأ بالعزلة السياسية وقلة الصراعات conflicts التي ستتخذ طابعاً نظامياً ، وخفض حدة المصالح الطبقية وتقل المساواة بين الطبقات ، متنبأ بذلك بزوال « نهاية الأيديولوجية المدبلجة » بسبب تحسن الوضع الطبقي العمالي وانحصاره في المجتمعات الرأسمالية داخل إطار أحزاب رئيسية تمثل الطبقة العاملة ومشاكلها وتعبر عن أهدافها وآمالها ومن هنا أصبح وجود أحزاب كبرى للطبقة العاملة في المجتمعات الرأسمالية الصناعية أمراً ضرورياً بل ومألوفاً . =

فلقد التفت « بارسونز » الى دور « الصراع » داخل اطار المجتمع، وبخاصة الصراع الطبقي Class Conflict و يتحقق هذا النمط الاجتماعي الآن في المجتمعات الصناعية، حيث توجد الطبقات الاجتماعية التي تجمع فيما بينها أهداف جمعية Collective goals ، تصدر عن مجموع المشاعر والآمال التي تعبر جميعها عن « ثقافة مشتركة Common Culture » . بمعنى أن السمة الرئيسية للنسق الاجتماعي في المجتمعات الصناعية، هي وجود ظاهرة « الصراع البنائي » Structured Conflict أو « الصراع التنظيمي » ، فقد يكون النسق في مسيس الحاجة إلى التغير في سائر تركيباته وأجزائه ، وهنا يصبح « التغير » تنظيميا يقوم بوظيفته الضرورية داخل اطار تنظيم النسق الاجتماعي فقد يكون « الصراع مرضيا معتلاً » ، حين يعمل على تفكك البناء ، وتحلل التنظيم ، وتخلخل النسق الاقتصادي . أما « الصراع التنظيمي » ، فهو « صراع جيد » أو رشيد ، يعمل على تفاضل التنظيم ، بتطوير مراكز التنظيم القديم وتغيير أدواره وعلاقاته . بمعنى أن الصراع يكون تنظيمياً من أجل « تنمية التنظيمات القديمة » وتطويرها بدخول الأشكال التنظيمية الجديدة .

ومن الناحية التنظيمية ، نجد أن إدارة التنظيم ، هي جهاز حيوي ضروري

= وتحاول طبقة العمال « البرجوازية » بالتحرك نحو البرجوازية والتشبه بأنماط سلوكها الثقافية والتمتع بكل ما تتمتع به الطبقات المتوسطة في مجتمعات أوروبا . فتتابع منجزات المجتمعات الصناعية وتطوير العلم والتكنولوجيا وارتفاع مستوى المعيشة والأجور . الأمر الذي يفرض ضرورة التمسك بالقانون وتوسيع القواعد الديمقراطية ، بعد أن خفت حدة الصراع ، بفضل مقاومة الجريمة التي تفشت أثناء النمو التكنولوجي أو المجتمع المصري ، حين يصاحب كل هذا سائر التغيرات التي تطرأ على البناء الاجتماعي الصناعي ، من تفكك وانحلال من ناحية، وانضباط وتكامل من ناحية أخرى .

حيث يساعد التنظيم الناجح على تطوير الانتاج وسرعة التنمية ، كما أن تخلف التنظيم وانغلاقه إنما يؤدى بالضرورة إلى تدهور وانخفاض الانتاجية بضياع الطاقات (١) . ولذلك يجب أن نعمل على تحرير الطاقات وانطلاق القوى من أجل دفع عجلة الانتاج . وعن طريق حل التناقض بين متطلبات التنظيم ، وبين امكانيات وطاقات الأفراد ، فهناك صراع أو تعارض بين « تنظيم حازم » يبغى التوصل إلى «غايات انتاجية» أو يريد أن يحقق أو يعمق نوعا من «الخدمات» ، وبين أهداف الأفراد ومكوناتهم وطاقاتهم الانتاجية . فهل يخدم التنظيم تلك الغاية الانتاجية المنشودة ؟ ، أم أننا نحاول أن نصمم تنظيما يحقق احتياجات الأفراد ، بما يتناسب وقدراتهم ، حتى « ولو كانت هزيلة أو هشة » ، تعرقل الانتــاج وتزعزعه من أساسه . فى الواقع لابد من التوفيق بين النقيضين ، ورفع التعارض ، وحل الصراع ، بين أى « تنظيم إدارى » ومدى «كفاءة أفراده» وفاعليتهم .

ومن أجل هذه المشكلات الاقتصادية الخاصة بالتغير التكنولوجى ، وبما يصيب التنظيمات الصناعية وما يطرأ عليها من صراعات قد تعرقل من الانتاج صدرت الحاجة إلى علم سوسيولوجى خاص « بالتنمية » ويقوم بحل مشكلاتها بتقديم ما يمكن من برامج واستراتيجيات ، لدفع عملية التطوير الاقتصادى ، وترشيد الانفاق وعلاج ما قد يطرأ من مشكلات لسد الفجوات الاجتماعية و « الثغرات الثقافية » .

---

(١) دكتور على السلمى : الادارة المصرية ؛ رؤية جديدة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ . أنظر أسباب تخلف التنظيم الادارى السليم .

الفصل الثاني عشر

كيف حدثت الحاجة إلى علم التنمية ؟

- تمهيد
- مشكلات التنمية
- ماهي أهم معوقات التنمية
- بدء التغير
- الطعام لكل فم
- تنمية دول العالم الثالث
- تصنيع الدول النامية
- خاتمـــة

تمهيد :

لقد وقعت الدول الصغيرة والمجتمعات الفقيرة ، في حيرة ، حين حاولت في همة وعزم تطوير ابنيتها الاقتصادية . فظهرت الأزمات ، وتعقدت واستحكمت مع تقدم التكنولوجيا ، ووطأة التصنيع ، وظهور مشكلات الصناعة وبما نجم عن كل ذلك من عمى « خانقة » وضغوط « قابضة للنمو » . بالإضافة إلى تلك الأزمات التي تمنع من انطلاق الطاقات الذكائية . وقد يعوق « الفقر » وانتشار البطالة وقلة الموارد وضعف الدخول ، حين يحد كل ذلك من قدرات الانسان على التطوير والنمو والفاعلية . ولكل هذه الأسباب الاقتصادية والسوسيولوجية والسيكولوجية ، ظهرت « الحاجة إلى علم لتنمية المجتمع » .

فلقد حدثت التغيرات الاجتماعية الهائلة ، التي كشفت عن تناقضات حادة وواضحة لكل ذي عينين ، والتي نمت أصلا عن تلك النتائج التكنولوجية السريعة ، والتطورات الاقتصادية ذات القفزات الضخمة ، كنتيجة حتمية لذلك التحول الصناعي المذهل ، نظراً لذيوع حضارة التصنيع ، وانتشار الميكنة Automation وتقدم الآليات ونشأة المجتمعات المستحدثة التي أخذت بالتخطيط الصناعي ، وصاحبتها في نفس الوقت تغيرات جوهرية ، طرأت على مختلف الخدمات ، في ميادين الصحة والتعليم والإسكان .

وكان لاقتحام عناصر صناعية حديثة تغزو ثقافات تقليدية رد فعلها الايديولوجي الحاد ، كما كان لدخول وطأة تكنولوجيا معقدة وأساليب تقنية لاترحم ، في أبنية إجتماعية بسيطة ، صداها في خلخلة التنظيمات الصناعية والاقتصادية ، وفي تغيير اتجاهات الرأي بين الناس ، مع تحول أساليب الفكر ،

وتبدل طرق الحياة ، الأمر الذي معه تهتز انساق الثقافة ، وتضطرب الجوانب السيكولوجية ، وترعزع عادات فكرية ومعارف قديمة ، مما يؤدي في النهاية إلى تميز شامل للمواقف الاجتماعية برمتها وما يدور في مختلف مجالاتها من أنمــاط السلوك ، كنتيجة مباشرة لما قد ينشأ ويظهر من المشكلات الجديدة التي قد تنجم عن « إعادة التنظيم الاجتماعي والصناعي » بشكل يتناسق ويتكامل مع غزو العناصر التكنولوجية الجديدة .

وبدخول التكنولوجيا والتوسع في التصنيع ، تتغير مظاهر العادات والتقاليد مما يؤدي إلى تبدل وتحضر الانسان القروي والبدوي ويكون لذلك صداه في حجم الأسرة ، وارتفاع مستوى الثقافة ودرجة الفهم ، بفضل نشر التعليم ، وقلة الأفكار الغيبية ، وبازدياد الإيمان بالعلم وإستخدام الأجهزة والآلات وظهور التنظيمات الجديدة التي تحدد المراكز والأدوار وتضع المهام والمسئوليات ، وتفرض السلطة وتقسم العمل على نحو رشيد متكامل ، حتى يتخلص المجتمع من هبوط مستوى الحياة ، حين يزداد الانتاج ، بالقضاء على التخلف الاقتصادي وإنهاء حالة التبعية الاقتصادية .

وفي ضوء هذه المقدمات كانت المجتمعات التقليدية في مسيس الحاجة إلى « التنمية » development والدراسات التنموية فمن « أجــــل إعادة بناء المجتمعات » ، ظهر علم اجتماع التنمية ، حتى يتمكن علماء الاجتماع وخبراء النفوس من أن يدرسوا الآثار الجانبية للتصنيع ، عن طريق مشروعات وبرامج التنمية في كل مجالات التكنولوجيا الحضرية والقروية ، بالالتفات إلى الـكفاية الانتاجية ، وتشريعات العمل واعداد مراكز التدريب ، لدراسة مختلف التخصصات في كافة المهن والأعمال .

كل هذا من أجل مواجهة الزيادة السريعة فى النمو الصناعى والسكانى والاجتماعى ، إلى جانب تعقد مشكلات التنظيم فى البناءات الصناعية والاقتصادية القائمة فى المناطق الحضرية والقروية ، حيث يؤدى التطوير الصناعى أو المشروع الاقتصادى إلى تغيرات مصاحبة داخل بناء القيم واتجاهات الرأى العام ، فتتغير أنماط السلوك ويتبدل النظام العائلى ، وتتفكك العلاقات الاجتماعية .

فنحن من أجل رفع مستوى المعيشة فى حاجة إلى تنمية اقتصادية والحد من وطأة التكنولوجيا ، ومن أجل حل مشكلات التصنيع فى حاجة إلى « تنمية اجتماعية » .

بمعنى أن « التنمية » على العموم ، هى « برنامج عملى » من أجل التكامل الاجتماعى ، وهى « تخطيط منظم » لحماية المجتمع من اضطرابات التغير الاقتصادى ومشكلات التطوير الاجتماعى .

وهنا يتحتم علينا أن نتساءل ، عن الفروق الجوهرية التى تميز التنمية الاقتصادية ، عن التنمية الاجتماعية ، وعن طبيعة العملية التنموية ... ماهى ؟ وكيف تكون ؟ !

فى الرد على هذه المسائل نقول ، إنه نظراً لوجود مشكلات اقتصادية ، مثل عجز الانتاج الزراعى ، وهبوط مستوى الحياة ، وتناقص الدخول الفردية ، ومع ازدياد التضخم السكانى الرهيب ، تضاعفت نسب الاستهلاك ومعدلاته على نمو الانتاج واضطراب سرعاته . فماذا تعمل حين تتعدد الافواه التى تطلب الطعام ، بينما الايدى عاجزة ولا تعمل ؟! وهذا هو السبب الحقيقى فى تخلف نمو الحضارة ، وتقهقره ومن هنا ظهرت الحاجة إلى « عملية تنمية المجتمع » .

ومن أجل إشباع الحاجات الاقتصادية وتطوير الجهاز أو النسق الاقتصادى، لتحقيق «عملية التصنيع». اتجهت الأذهان نحو رفع مستوى المعيشة عن طريق الصناعة. إلا أن التصنيع محنة لها وطأتها التى معها تتخلخل الأنساق الاجتماعية، فتتحول وتتبدل. ولهذه النتائج المتغيرة، ظهرت حاجة أخرى ماسة إلى عملية أخرى لاحقة، لعملية التنمية. فالأولى تنمية اقتصادية، والثانية، تنمية اجتماعية.

ولحل مشكلات التنمية بشقيها الاقتصادى والاجتماعى، ظهرت الحاجة إلى علم لتنمية المجتمع، يهتم بكل مشكلات التنمية على العموم. ويحاول أن يضع البرامج والمشروعات الاقتصادية والاجتماعية المخططة، لاستثمار الموارد الطبيعية والبشرية من جهة، ولتطوير حياة أفضل طبقاً لفلسفة اجتماعية هادفة، ونظم تربوية مقصودة، من جهة أخرى.

ولكن .. هل الصناعة هى غاية وهدف لكل تنمية؟

فى الرد على هذا التساؤل، نستطيع أن نسوق مثالا واضحا من دول العالم الثالث، فبالنسبة إلى هذه الدول التى حصلت حديثاً على استقلالها السياسى؛ أصبحت التنمية هى هدف مشترك بين سائر هذه الدول، ولقد بقيت المجتمعات الزراعية البحتة، التى قدر لها أن تعتمد فقط على زراعة المحاصيل الأولية، لكى تقوم بعدها بعملية تبادل تجارى، بالحصول على سلع استهلاكية أو حتى صناعية، هى مجتمعات متخلفة، وتحتل دائماً مركز التبعية الاقتصادية، بالنسبة لغيرها من الدول الغنية والمنتجة.

ولقد كان «التصنيع» هو الحل النهائى والحاسم للمشكلة، إلا أنه أصبح حتماً معوقاً، يتحقق على حساب القرى والمناطق الزراعية. مما أدى إلى الحالة

أو ضيع فى خطط التنمية الزراعية ، على الرغم من أن الصناعة التى تقوم على أنقاض الزراعة ، هى صناعة خاملة وفاشلة .

فقد يحتاج « بناء مصنع » وسط منطقة قروية متأخرة إلى الكثير من المشروعات الخاصة بتنمية البيئة Ecodevelopment ، وإعداد هذه المنطقة القروية « لكى تصبح مؤهلة أو معدة ، لاستحداث التصنيع ، وتقبل أى متغير اقتصادى » أو تطوير اجتماعى لاحق (١) . ولا يمكن أن تنجح مشروعات الصناعة الناشئة فى منطقة من المناطق ، إلا بعد فترة طويلة من التنمية وتغيير الملامح الايكولوجية البيئة ، وذلك لتطوير هذه المنطقة وإعدادها . وإلا فشلت هذه المشروعات الصناعية ، وظلت هذه المناطق متخلفة عن الركب ، وبقيت على فقرها لأنها بدأت بعملية فوق طاقتها . فلا بد من أن تسبق المشروعات الصناعية والاقتصادية ، برامج سابقة لتنمية المنطقة ، حتى تتحمل نتائج هذه المشروعات من مخاطر ونفقات لتعبيد الطرق ، وتيسير وسائل النقل ، وتسهيل المواصلات السلكية واللاسلكية من أجل « بناء كيان إتصالى وصناعى ناجح » .

وعلى الرغم من ذلك فلقد أثبتت التجارب والدراسات أنه بدون أساس زراعى متين ، لن تتمكن الدول النامية من ضمان تغذية نفسها وإمداد صناعاتها بالمواد الأولية . فقد ثبت أن التنمية الصناعية المزيلة التى وقعت فى البرازيل ،

---

(١) هناك مسوح قبلية التنمية - Survay before development ؛ وهى ضرورية لإعداد المنطقة بالمشروعات التنمية ، وهناك مسوح أخرى بعدية التنمية ، ويقوم بها الباحث باستخدام عمليات الوصف والملاحظة وجمع المعلومات وتسجيلها لمعرفة نوع ومقدار التطوير الاقتصادى ، ودراسة حجم التغير الذى طرأ على البناء الاجتماعى . بالاضافة إلى وجود مسوح دورية ، وتجرى على فترات معينة ، لمعرفة مدى تقدم أو تعثر المشروع ، مع تقديم الحلول البديلة المقترحة لمشكلات التى قد تنشأ .

كانت مصحوبة بإهمال الزراعة التى يعمل فيها مايعادل ٧٠٪ من السكان لتغطية معظم إقتصادياتها (١) .

ولذلك تتم عملية التنمية على نحو رتيب منظم ، وفقاً لبرامج معينة، وخطوات خاصة . ولعل أكبر المشكلات التى تواجه كل الدول المتخلفة والتقليدية والنامية والتقليدية والنامية هى مشكلة التضخم السكانى ، الذى لايتوازن مع موارد الانتاج ومصادر الدخل القومى ، الأمر الذى يفرض على هذه الدول تنشيط المدخرات ، وتشجيع « بنوك القرية » لابتلاع مدخرات الريف وادخال نظام التأمين على الحياة ، ورفع مستوى الكفاية بين موظفى البريد والبنوك ، وتشجيع الفلاح على ترشيد الانفاق ، وإقلاعه عن عاداته الاقتصادية السيئه فى إخفاء ثروته ، وإكتناز مدخراته (٢) . ثم تحويل هذه المدخرات إلى مشروعات للاستثمار والتصنيع ، فالادخار هو أساس الاستثمار ، وهو أساس التنمية، وتدبير رأس المال اللازم للتنمية الاقتصادية ، ولايجاد عمل لكل من لايعمل ، وتدريب الأيدى الخاملة وغير المدربة ، ورفع الكفاية الانتاجية بالاهتمام بالعمالة الفنية المتخصصة .

وبهذه الطرق التنموية الضرورية يمكن خلق القدرة الذاتية وتطوير جوهرها من أجل خلق موارد وقوى ومصادر للاستثمار والتنمية داخل

---

(١) جانسون ؛ أ هـ : المشروع العام والتنمية الاقتصادية ؛ ترجمة محمد أمين ابراهيم مراجعة الدكتور فؤاد هاشم عوض . الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ يونية ١٩٦٥ ، ص ٢٦ .

(٢) أن فكرة « بنوك القرى » التى انتشرت فى جمهورية مصر العربية ، تحقق روليا اقتصاديا بين أمرين إقلاع الفلاح من مدخراته ؛ بتحويل رؤوس أموال الفلاحين إلى طاقة عاملة ومتحركة بدلا من سكونها وخمولها .

المجتمع ، عن طريق الاستخدام الرشيد لطرق الكفاية والتدريب والتعليم بقصد، تغيير جوانب تقليدية » ، وتطوير ماهو قائم ، باستغلال الامكانيات والطاقات واستحداث القيم الجديدة ، وصدور الأبعاد والأنساق الاجتماعية ، لخلق المناخ الثقافى الذى يشجع على الجديد وبدعم التجديد ، بتنمية الشخصيات والكوادر ، والقدرات الابتكارية الخلاقة (١) . كل ذلك من أجل القضاء على أسباب التخلف الاقتصادى ، ولإزالة معوقات النمو الحضارى ، عن طريق سد « الفجوات الاجتماعية والثغرات الثقافية » ، مع خلق البرامج للمواجهة السليمة ، لما قد ينجم من مشكلات أو يظهر من معوقات جديدة . وعلى هذا الأساس ، صدرت برامج التخطيط من أجل إعادة بناء المجتمع وتجديده ، ومن أجل تقدم النسق التكنولوجى وتطوير أساليب الانتاج ، مع توافر القدرة الذاتية على اكتساب الجديد ، والتكيف مع مايواكب الانتاج ، مع ترشيد كل انتاج ونفقة . فمن أجل حياة أفضل ، صدرت برامج التنمية فى المجتمعات المكتظة بفائض بشرى ضخم ، لإمدادها بامكانيات اقتصادية لرفع المستوى المادى والاجتماعى والثقافى .

ولقد صدرت برامج التخطيط والتطوير والتوجيه والارشاد ، من أجل تحقيق التكامل ، وتخفيف حدة التصنيع ، وآثاره السيكولوجية والاجتماعية ، حيث يظهر التعارض واضحاً بين قيم ومعايير مجتمع تقليدى متخلف ، ومجتمع صناعى متقدم أو مستحدث فلا يحدث التوافق عن طريق الاحتكاك الثقافى cultural contact وينشأ « التفكك وعدم التكامل » نتيجة لصراع القيم وتعارض أنماط السلوك ، وتباين أساليب التفكير . الأمر الذى تبهيم جعلها

---

(١) د . نبيل السمالوطى . التنمية وتحديث الحضارى . مطبعة الجبلاوى . ١٩٧٤ ، ص

معايير قديمة ، لكى تظهر إلى الوجود الاجتماعى ما يمكن أن يتكيف معه من الجديد من القيم والمعايير(١) .

ويؤدى التصنيع إلى زوال أو تحطيم أنساق تقليدية بأسرها ، حيث يبدأ الانحلال ، ويتسلل التفكك فى مختلف « التنظيمات الاجتماعية Social organization كما يطرأ عدم التكامل فى سائر « البناءات Structures » (٢) .

مشكلات التنمية :

لا شك أن هناك الكثير من المشكلات التى نجمت عن تطوير

---

1 — Schnsider, Engone. Indusrial Socielogy, Mc Craw Hill New york 1957.

(٢) هناك ارتباط وثيق يربط بين « البناءات stuct res » و « التنظيمات organizations » إلا أن البناءات تتميز بالنمطية والاستاتيكية . أما الثانية فقد يعتريها التغير ويحدو فيها الصراع » وقد يكون التغير من أجل التنظيم ولصالحه ، ومن ثم يصبح التغير تنظيميا ، وقد يكون الصراع أهدافه التكاملية من أجل اعادة التوازن .

أما الفرق الحاسم بين «البناء» و« التنظيم » فيتضح لنا حين يكون « البناء » هو مجموعة من العلاقات والمعايير المنظمة لسلوك الأشخاص ، كعلاقة الزوج بزوجته ، أو صلة الملك أو الحاكم برعاياه أو القاضى بالمتهم . أما « التنظيم الاجتماعى » فهو ترتيب لمناشط الأشخاص وأدوارهم roles داخل التنظيم نفسه . فداخل بناء المصنع هناك تنظيم organization للأدوار يقوم به المدير والمنفذ والملاحظ والعامل . وينقسم « الجيش » من حيث هو « بناء structure » إلى فيالق «وفرق» « لواءات» و « كتائب » و (جماعات) . أما الجيش من حيث هو «تنظيم organizaion» فينقسم إلى عدد من الأدوار Roles التى تقوم بها مختلف الرتب العسكرية . وترتيب أوجه النشاط التى يقوم بها «قائد الجيش» و«السيد» و«المقدم» و«الرائد» وهى رتب مميزة لأدوار كافة الضباط والجنود ، ولأداء مناشط معينة سواء فى الحرب أو السلم .

الإقتصاد والتنمية والتكنولوجيا ، فصدرت الحاجة التى أدت إلى ضرورة قيام علم لتنمية المجتمع ، نظراً لوجود الكثير من المعوقات التى اعتاقت عمليات التنمية الاقتصادية ، وما يتبعها من مشكلات أو ماقد يصاحبها أحيانا من تغيرات تحتاج إلى عمليات أخرى تتعلق بالتنمية الاجتماعية .

والأساس هو التنمية الاقتصادية وبرامجها السابقة ، ثم تتبعها تنمية اجتماعية وبرامج لاحقة ، نظراً للتغير الاجتماعى الناجم عن التطوير الاقتصادى ، حيث أن التغير الذى يطرأ على المجتمع ، هو بالتبعية ثمرة لنمو اقتصادى ، ونتيجة حتمية لاستراتيجية خطة التنمية الاقتصادية .

وإذا كانت التنمية الاقتصادية ، تهدف أساسا إلى زيادة الانتاج ، بترشيد الانفاق ، ورفع معدلات الدخول الفردية ، وإستغلال فائض الاستثمار بأفضل الطرق الممكنة لزيادة الدخل القومى ، فإننا نلاحظ أن التنمية الاجتماعية ، إنما تختلف تماما ، لأنها نتيجة لاحقة لمقدمات سابقة ، ترتبط بالتقدم الاقتصادى من جهة ، وبزيادة الدخل القومى ، الذى يؤدى بالطبع إلى إرتفاع معدلات الدخول الفردية ، من جهة أخرى .

إلا أن العامل أو الفلاح سوف لا يستفيد كثيرا من تطبيق هذا النظام ، بالاقتصار على مجرد زيادة الدخل الفردى الخاص ، حيث ينبغى أن تعمل مختلف أجهزة الدولة ووسائل الاعلام على تطوير العامل والفلاح ، عن طريق التثقيف وزيادة الوعى ، حتى ترقى شخصيته ويتهذب سلوكه ، بما يسهل على الدولة توجيه الانتاج وترشيده إلى أفضل نفقة ممكنة . وحتى يستطيع أن ينفق العامل أو الفلاح دخله الخاص عن طريق ، أفضل إنفاق ممكن . .

ومن المشكلات الأساسية فى عمليات التنمية ، ردود الأفعال الاجتماعية الناجمة

في « التصنيع » ،واضرار التكنولوجيا حيث يحدث الخلل وعدم التوازن في محيط الأسرة ، ويتسلل التفكك في العائلة ، كما يبدأ الانحلال في التسرب إلى كافة التنظيمات الاجتماعية . بالاضافة إلى الاغتراب alienation ، حيث تقتل الآلة وقدرات الانسان ، وتدمر طاقاته الابداعية ؛ كما تؤدى نظم التصنيع والميكنة automation إلى تفضيل الاعمال الآلية ، مما يؤدى إلى القضاء على المهارات اليدوية ، وانتشار البطالة ، وتلوث البيئة pollution ، كالأنهار والبحار ، حين تتخلص التكنولوجيا من بقاياها ، فتفرز إفرازاتها وغازاتها كى تسمم الجو وتفسد الهواء (١) .

الأمر الذى صدرت معه دراسات خاصة بتنمية البيئة Ecodevelopment من أجل حل مشكلات التكنولوجيا ، ووضع الخطط والبرامج ، من أجل التناسق والتكيف ؛ وإيجاد حالة صحية رشيدة من التوافق بين الانسان والبيئة الصناعية ، بازالة كل العناصر الناجمة عن « التلوث » فى التجمعات الحضرية والمناطق الصناعية .

ولكل هذه الأسباب مجتمعة ، يخطط علماء البيئة ecologists من أجل التنمية الرشيدة بتطوير البيئة ، وتحسين المرافق ، ونظم الصرف الصحى ، والأمن الصناعى ، حتى يتمكن المجتمع من مواجهة مشكلات التكنولوجيا بطريقة صحية وفعالة ورشيدة .

ويجذب التصنيع اعدادا هائلة من عمال القرية ، عن طريق « حركة العمل Labour mobility » التى تتمثل فى تلك الحركة المستمرة والمتجرة الهائلة

(١) د . اسماعيل صبرى عبد الله : نحو نظام اقتصادى عالمى جديد (فى دراسة قضايا التنمية والتحرر الاقتصادى ، والعلاقات الدولية) بيروت ١٩٧٧ .

من مناطق الدفع القروى ، إلى مناطق الجذب الحضرى والصناعى . نظراً لإرتفاع الأجور ، وتوافر الخدمات ، فيقوم هذا الحراك الدائم ، لضمان العمل وفقاً لاحتياجات الأفراد وللصانع والسبب الجوهرى فى عمليات الدفع والجذب هو سبب إقتصادى ، يتبلور فى « ارتفاع الأجور وتوافر الخدمات » ، مما يؤدى إلى الإندماج amalgamation » بين تجمعات ثقافية متمايزة . وقد تنجم عن ذلك ، عمليات إجتماعية مضادة كالصراع والتعارض وعدم التكيف ، وقد تصاحبها عملية أخرى ، تسمى فى علم الاجتماع الثقافى بالتهميش Marginalization الذى قد يطرأ على سائر البناءات التقليدية المستحدثة ، والذى يحدث عن طريق الاحتكاك الثقافى المستمر ، ولما ينجم عنه بالضرورة ، من ظهور « البناءات الهامشية Marginal Structures » .

ومن هنا صدرت الحاجة الماسة إلى عمليات التنمية المستمرة من أجل التكيف وسرعة الاندماج ، وتطوير الفلاح ، وتنمية المجتمع الريفى ورفع مستواه . ونظراً لتعدد مشروعات التنمية الصناعية فى جمهورية مصر العربية ، ظهرت الكثير من المناطق الهامشية ، التى تسمى بالحضريفية (١) Rurban تلك التى تنتشر على هامش المناطق القروية المتاخمة للقطاعات الصناعية ، كما هو الحال فى كفر الدوار ، والمحلة الكبرى .

---

(١) الحضريفى Rurban . اصطلاح اصطنعته اصطناعا ، اذ لم أجد من المصطلحات العربية ما يناسب أو يطابق الكلمة الانجليزية Rurban ، التى تشير إلى تلك المجتمعات التى تعيش على هامش القرى والحواضر . ولذلك أطلقت عليها اسم المجتمعات « الحضريفية » ولما كانت مشتقة أصلا فى اصطلاحها الانجليزى Rurban . من عملية دمج كلمتى « urban » بمعنى حضرى . وكلمة Rural تعنى ريفى : فلو نقلنا هذا التعبير لاستخدمنا كلمة حضريفى » وهى كلمة مشتقة من عملية دمج كلمتى « حضر » و « ريف » .

ماهى أهم معوقات التنمية ؟

لقد كان « إميل دور كايم » يردد القول بأن علم الاجتماع لايساوى أو يحتاج إلى ساعة واحدة من العناء ، إذا لم يساعد على حل المشكلات الاجتماعية . وفى كثير من المجتمعات هناك حاجة ملحة إلى « التنمية » لحل مشكلات إقتصادية واجتماعية. وذلك حين تتخلف تكنولوجيا الزراعية ، وتتلكأ نظم الادارة ، بينما تتوكأ نظم التربية ، وتتعثر عملية التعليم ، ومع بداية نمط الحياة وثباته ، يعم الكساد مما يمنع أو يقلل من إنتاجية الصناعة . ومع تضخم التعدادالبشرى ، يظهر الفقر ويطوى البؤس نفوس الأفراد ، وتنخفض الأجور ، وتنتشر البطالة ، بينما تقل الموارد وتهبط معدلات الدخول ، كل هذه مشكلات أساسية تواجه عملية التنمية .

ولاتقتصر مشكلات التنمية على الدول الصغرى والمجتمعات التقليدية والمتخلفة، فهناك مشكلات التنمية أيضا ، خاصة بالدول الغنية والكبرى ففى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا نجد إختلافا واضحا فى معدلات التنمية ، تبعاً لاختلاف الولايات الأمريكية نفسها . طبقا لطبيعة الموقع واقتصاديات البيئة ، ومن المعروف أن ولايات الجنوب ظلت متخلفة إقتصاديا لفترة طويـــلة ، عن ولايات الشمال ، وبخاصة بعد أهوال الحرب الأهليـة فاختلفت أوضاع الجنوب وتخلفت عن إقتصاديات الشمال . إلى الدرجة التى معها أثبتت نتائج إختبـارات « ألفا » التى أجراها الجيش الأمريكى ، كما سجلت الجداول الخاصة « بمذكرة يركس Yerke's Memoir » ، مدى تفوق بعض فئات من زنوج ولايات الشمال ، على بعض فئات البيض من ولايات الجنوب (١) .

---

(١) لنتون ، رالف ، الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧ ص ١٠٧

ولقد فسرت نتائج تفوق السود الشماليين فى ولايتى أوهايو وأنديانا ، على البيض الجنوبيين فى ولايتى كنتوكى ومسيسبى . بالرجوع إلى الفارق الكبير فى الأوضاع الاقتصادية ، ومستوى الأجور والمعيشة بين ولايات الشمال والجنوب .

ولقد أكدت الدراسات على وجود فوارق كبيرة فى التكلفة أو « النفقة التعليمية » الخاصة بالطفل الواحد ، بين مدارس السود والبيض فى ولايات الجنوب . فهناك عوائق ثقافية فرضتها ولايات الجنوب كى تقف كعقبة كأداء فى وجه الطفل الأسود . كما أن الطفل الأبيض الجنوبى أقل حظاً فى النفقة التعليمية ، من الطفل الأبيض الشمالى . على الرغم من أن البيض الجنوبيين أكثر حظاً فى الرعاية من السود الجنوبيين .

ولقد قدر معدل أو متوسط النفقة التعليمية للطفل الأمريكى الواحد « فى سائر الولايات المتحدة » بنحو ٧٤ دولارا ، وذلك فى عام ١٩٣٥/١٩٣٦ . وفى نفس السنة بلغ متوسط النفقة التعليمية ١١٥ دولارا للطفل الواحد فى ولايتى نيويورك وكاليفورنيا ، بينما بلغت أقل من ٣٠ دولارا فى ولايتى الباما واركنساس .

هذا بالنسبة للبيض ، أما بالنسبة للسود ، فبلغ متوسط النفقة التعليمية للطفل الأسود الجنوبى ١٧٫٠٤ دولارا فى حين بلغت نفقة الطفل الأبيض التعليمية فى نفس الولايات الجنوبية ٤٩٫٣ دولارا . بينما قلت هذه النفقة إلى حد كبير فى ولايتى جورجيا ومسيسبى فبلغت ٩ دولارات فقط للطفل الأسود .

ومن هذا المثال البسيط ، يتضح لنا الفروق الهائلة بين مستويات ولايات

الشمال والجنوب اقتصاديا ، بالاضافة إلى وجود تمييزات عنصرية ، وفروق فى النفقة التعليمية بين البيض والسود فى كل مدارس الأطفال، كما أثبتته نتـائج الدراسات أن تمايز الطبقة ، وحاجز اللون Colour Bar ، وقيمة الدخل الاقتصادى . كل هذا كان له رد فعله فى تحديد حاصل ذكاء الطفل . بمعنى أن الوضع الاقتصادى المتخلف قد يساعد إلى حد ما إلى انخفاض فى القدرات الذكائية . وفى تقرير عن فتاة زنجية تقدمت لإختبار ستانفورد - وهى فى سن ٩ سنوات وأربعة شهور . فأحرزت تفوقاً خارقاً فى درجة الذكاء التى بلغت مداها فى القمة . وفسرت أسباب هذه النتائج بوجود مستوى طبقى وثقافى مرتفع تعيشه الفتاة الزنجية ، فهى إبنة لأب أستاذ جامعى ، ولأم مدرسة فى إحـدى المدن الـكبرى ، وهذه الحالة المتفوقة ذكائيا . تؤكد لنا إلى أى حد تؤثر الطبقة الاقتصادية ، والرعاية التعليمية حين تتدخل كل منهما وتتضافر كعوامل مساعدة فى رفع مستوى التحصيل الدراسى ، وزيادة القدرات الذكائية ، ونمو السمات الفكرية . الأمر الذى أدى إلى ضرورة حل المشكلات الاقتصـادية فى ولايات الجنوب ، مع محاولة إنعاش وتنمية هذه الولايات اقتصـاديا . برفـع معدلات الأجور . وبزيادة النفقة التعليمية فى ســـائر مدارس ولايات الجنوب .

وهذا مثـال بسيط ، من أمثلة المشكلات الاقتصادية والتعليمية ، التى توليها الولايات المتحدة الأمريكية نفسها . حـين تقوم بعمليات التنمية الضرورية فى مجالات تربوية ، حتى يحدث التوازن الاقتصادى وعدالة التوزيع فى اقتصاديات التنمية والتربية ، بين سائر الولايات الامريكية . هذا فيما يتعلق بمشكلات التنمية فى دولة غنية وكبرى ، ويمكن إبراز أهم ما يواجه المجتمعات

التقليدية المتخلفة » و الدول النامية الصغرى ، حين نتساءل عن أساليب بطء التنمية ؟ وما هي أهم مشكلات الدول النامية ؟ فكيف نعجل بالتنمية بتقديم الحلول والمقترحات المخططة ؟! وفيما يتعلق بأسباب بطء التنمية ، يمكن تحديد أهم مشكلات الدول النامية فى النقاط الثلاث الآتية :

١ ـ بطء التغير :

من الظواهر المألوفة فى كل عملية تغيرية لتطوير نمط إقتصادى متبع . ظهور أو انبثاق « قوى أيديولوجية مضادة » لتعويق التغير ووقف التطور. والأمثلة على ذلك كثيرة من المجتمعات النامية والمتخلفة ، وحتى فى الدول المتقدمة نفسها . ففى الاتحاد السوفيتى مثلا ، قاومت نظم الملكية الخاصة ، وحوافز incentives الانتاج ، ونظم التوريث . وكل مايسود البناءات الاسرية والعائلية من قيم وتصورات وأنماط . قاومت كل هذه الأوضاع القديمة وتمردت ، ووقفت عقبة كأداء فى وجه « قوى التغير الثورى » لكى تحاول تعويق عمليات التطوير الفورى . تلك التى صدرت من قيادات ديكتاتورية ، وسلطات مستبدة ، فرضتها الدولة الشيوعية الناشئة (١) حين تطلعت روسيا نحو فرض القوة بطريقة اتسمت بالصرامة والقسوة . كما واشتهرت باستخدام أساليب عنيفة عرفت بالشدة والتعسف ، عن طريق فرض الضغط والقهر لدفع عمليات التنمية الاقتصادية بفضل تحريك قوى هائلة وطاقات جبارة . وبالرغم من وجود هذه القوى الدكتاتورية الضاغطة والمحركة ، كان التغير الاجتماعى والاقتصادى بطيئاً منذ البدايات الأولى ،

---

(1) Inkeles , Alex, Social change in Soviet Russia, New-York, 1964.

لوجود مثل هذه القوى المضادة للتغيير والتكوين ، عناصر المقاومة، التي تتمسك بأيديولوجيات التركيب الطبقي والطائفي والوطني ، والتي تثير النعرات والعصبيات، والتي تخلف في نفس الوقت حساسيات طائفية ووطنية وطبقية ، كامنة في سيكولوجيات الوعي ، ، بين سائر الطبقات والطوائف الوطنية، بالالتفات الكامل نحو مايسود في المجتمع من قيم واتجاهات ، قد تقف كعقبة تقليدية في طريق التنمية الاقتصادية .

١ ـ فالعامل الأيديولوجي عامل أساسي من عوامل بطء التنمية ، وهناك عوامل أخرى تؤدي إلى الابطاء في سرعة التطوير الاقتصادي ، أو إلى الركود أو السكون ، وسيادة عدم الرواج الاقتصادي ، مما يؤدي إلى تقهقر في حركة النسق الاقتصادي وتدهور في درجة النمو . وانخفاض في سرعة التنمية، وبطء معدلات التطوير . في سائر المجتمعات المتخلفة Underdevelopment . ومن هذه العوامل التي ساعدت أيضا ، على بطء التغيير الاجتماعي والتطوير الاقتصادي ، شعور أو إحساس المجتمعات المتخلفة ، بأنها مجتمعات مستغلة اقتصاديا من دول صناعية متقدمة مما يؤدي بالطبع إلى وجود وظهور ، العناصر الوطنية ، التي تطالب بالتحرر والاستقلال . فتعمل النزعات الاستعمارية المتواطئة مع القوى الرأسمالية العالمية على تأخر وتخلف مثل هذه المجتمعات الثائرة ، وهو مايسمى في اقتصاديات التنمية ، بتنمية التخلف development of Underdevelopment (1) .

فالصراعات والحروب الوطنية والأهلية ، والثورات والايدلوجيات المضادة ، كلها عوامل مساعدة للابطاء في عمليات التنمية . بالاضافة إلى أثر ونتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية . إلا أن كثيراً من الدول الكبرى

---

(1) [illegible] صبرى عبد [illegible] [illegible] عالمي جديد دراسة في النظرية والتطور الاقتصادي والعلاقات الدولية . الهيئة المصرية العامة ص ١٨٦

مثل اليابان والمانيا وحتى ايطاليا نفسها، قد خربت جميعاً أشغالية وصناعية ، فقد عانت هذه الدول و بذلت الكثير من الجهود من أجل تنمية تكنولوجية هائلة ومتقدمة ، كما أنها سريعة وعميقة ومستمرة . إلى الدرجة التى ترتفع معها قيمة الين اليابانى والمارك الألمانى ، بصورة ملفتة وواضحة فى أسواق المال والتجارة . كما وتنافس فى نفس الوقت الاقتصاديات اليابانية والمنتجات الالمانية ، أكبر معاقل التكنولوجيا المقدمة التى تعرضها الأسواق الاقتصادية الخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية ، بما تنتجه مصانعها ومؤسساتها الضخمة فى كافة ميادين الانتاج الصناعى والزراعى ، بكل أشكاله كالانتاج الثقيل والخفيف والمتوسط ، بالإضافة إلى تراكم السلع فى المجال الاستهلاكى ، مع التقدم الهائل والتطوير المستمر فى مجال الخدمات .

ب ـ ومن عوامل بطء التنمية فى المجتمعات المتخلفة ، انتشار الأمية والجهالة وتخلف نظام الزراعة ، وضعف وسائل النقل ، ووعورة الطرق ، وانخفاض مستوى الخدمات فى ميادين الصحة والتعليم ، وفى مرافق الاضاءة والمياه والكبارى والتليفونات وكافة وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية .

وكثيرا مالاتتلاءم التكنولوجيا المستوردة ، مع طبيعة الدول التابعة وظروفها . فتقف الأيديولوجيا كعقبة إزاء تكنولوجيا مضادة ، لواقع المجتمع المتخلف ، فليس كل ماهو متقدم فنياً وتكنولوجيا ، يمكن استيراده ، بل يجب ترشيد عملية الاستيراد ، عن طريق انتقاء أفضل تكنولوجيا ممكنة ، تتناسب مع ظروف المجتمع ، وتتكيف مع مايصلح له باختيار الأفضل ، طبقا للظروف البيئية ومقومات الثقافة . فمن الأخطاء الشائعة فى استراتيجية التنمية ، عدم استيراد الأفضل للمجتمع ، حين تتطلع دول العالم الثالث ، بتشجيع نحو

، تكنولوجيات ضخمة، ومتقدمة، دون نظر إلى ظروف وإمكانيات « البناء الاجتماعي » أو فهم القيم والمقومات الاجتماعية الوطنية .

ﺣ ـ ونظراً لوجود كل هذه المعوقات والمشكلات التي تؤدي إلى بطء التغير في نسق الاقتصاد ، وقصور سياسة التنمية والانتاج والتطوير ، بدأت « الخبرات الفنية الوطنية » في الهجرة ، وهي ظاهرة عامة وواضحة في سائر الدول النامية ، حيث نجد عاملا جديدا يساعد أيضاً على بطء التنمية ، ويتمثل هذا العامل الجديد، في هجرة الخبراء والفنيين ، من العلماء والأطباء ، كما ويتأثر البناء الاقتصادي بالضرورة ، ويضعف مستوى الاداء والخدمات ، بهجرة الفنيين وأصحاب الحرف من الصناع والعمال المهرة . فلقد عمل « السلطان سليم » حين حاول تخريب الاقتصاد المصري ، على نقل أصحاب الحرف والمهن اليدوية من الصناع والفنيين المصريين إلى القسطنطينية . ونحن في مصر وفي كل الدول النامية ، ينبغي أن نضع حداً لهذا « النزيف الاقتصادي » ، بالتخفيف من هجرة العقول والخبرة والأيدي الفنية ، تلك التي تسمى في الدراسات التنموية ، بهجرة التكنولوجيا الليّنة Soft-technology ، فينبغي أن نوقف هذا النوع من الهجرة باستغلال كل الطاقات الوطنية والخبرات المحلية ، بدلا من بذل الجهود والأموال المضاعفة لاستيراد مثل هذه الطاقات والخبرات . فالتكنولوجيا الليّنة أو الناعمة لها ضرورتها وخطورتها في عملية التنمية ، وتقوم بوظائفها تماما كما تعمل وتوظف التكنولوجيا الصلبة Hard technology ، في الاسراع بعملية التطوير والتنمية .

ومن المشكلات المسلمة التي يعالجها « خبراء النفوس » في ميادين الصناعة والتكنولوجيا ، مشكلة « الثغرة الثقافية cultural gap » حيث يحاول علماء الاجتماع

الصناعى والثقافى سد هذه الفجوة أو الثغرة وملأها، حتى لا يشعر الإنسان بالاغتراب alienation وعلاج ماينجم عن وطأة التصنيع وحدة التكنولوجيا ، بإقامة «قنطرة ثقافية» تربط بين الإنسان ونفسه من جهة ، حتى يتوازن ، فى عالم سريع التغير ، من جهة أخرى .

٣ ـ الطعام لكل فم :

علينا أن نأخذ بمبدأ « الطعام لكل فم » ، وهذا هو أروع ماجاء به « الفكر الاشتراكى » ، كما أنه « مبدأ اقتصادى » يعتبر من أهم الأهداف التى بشرت به المدرسة الماركسية الجديدة ، فى برامج تحديث المجتمعات وتطويرها . ولكننا ينبغى ألا نكمم أفواه الناس بالطعام ، فيصبح الإنسان عبداً خاضعاً لمنفعته وشهواته .

ولما كانت مشكلة « الحصول على الطعام لكل فم » مشكلة جوهرية ، تعانى منها مجتمعات متخلفة وتقليدية ونامية ، فقد أصبحت عملية « التنمية فى ذاتها » عملية اقتصادية أصلا تستهدف تطوير « التقليدى » و « المتخلف » فى دنيا الثقافات والمجتمعات ، وتغيير طرق الانتاج ووسائل المعيشة عن طريق « التصنيع والتكنولوجيا » . حيث تكمن المشكلة الحقيقية فى تنظيم العلاقة التبادلية المتناقضة ، بين كثافة بشرية متزايدة تتميز بها سائر المجتمعات التقليدية والمتخلفة ، وبين ضمان وصول الطعام لكل فم ، بإشباع حاجات الإنسان الضرورية ، وبإعلان الحرب ضد الجوع ، وبالكشف عن جيوب الفقر ، وإزالة «عيوب المجتمع» الكامنة فى نفوس الناس ، ولا يتحقق كل ذلك إلا بتجديد أنماط السلوك ، وتغيير القيم والاتجاهات الشائعة ، حتى تتعدل النظرة إلى الحياة ، ويتبدل مستوى الطموح level of aspiration .

وهذه هى المكاسب السيكولوجية للتنمية بشقيها الاقتصادى والاجتماعى ، بالتخطيط المنظم والتوجيه لكل ماهو مدروس ، حتى الانتاج هناكلنا

الاقتصادية بطرق إرتجالية ، أو تتركها سدى ، دون دراسة الظروف الطبيعية ؛ فتهمنها بحجة أن « التغير سيحدث طبقا لقانون التطور الطبيعى » . وهذا منطق يزيد مشكلة الحصول على الطعام تعقيدا . ولذلك تواجه هذه المشكلة فلاسفة التخطيط الاقتصادى ، لتقديم الحلول العلمية والفورية ، لذاك التعارض القائم بين زيادة الإنتاج ، حين تتفوق عليها معدلات الاستهلاك ، الأمر الذى يتطلب حل هذه « المعادلة الصعبة » .

أ ــ فمن أسباب « الفقر » و « الجوع » و « التخلف الاقتصادى » حدوث نمو غير متوازن فى الاستهلاك على حساب الانتاج ، حين يشبع « الإنسان الاقتصادى » رغباته وحاجاته فى نهم ، وما زال « الإنسان العربى » يقوم باستهلاك المستورد من السلع كالتبغ والعطور ، والمنتجات البسيطة كأدوات المطبخ والإبر والمسامير ، دون أن يبذل جهدا ، أو يقابل كل ذلك الاستهلاك بعمليات إنتاجية ، بالرغم من وفره الأموال الناجمة عن البترول المستخرج ، مما يعوق تطوير التنمية ويعطل التعجيل بها ، فيصاب البناء الاقتصادى بالخلل .

ومن هذا المثال السابق ليس الانتاج الفعلى التصنيعى ، بأسرع فى معدله وقوته من استهلاكنا ، كما أن عائد الكفاية العملى لحركة النمو الاقتصادى ، لايتوافق أصلا مع حلقة النهم فى إشباع الحاجات ، دون تعفف أو تقشف ، حين يتابع الإنسان الاقتصادى تفضيلاته ويحقق رغباته الاقتصادية . ولا غرابة فى أن نقوم « تنمية غير متوازنة » فى المجتمعات المتخلفة ، نظرا لشدة الطلب والاستهلاك رغم قلة العروض .

وتتدخل « دالة التفضيل » كى تحدد نمط الانفاق والاستهلاك ، حين يؤدى

التفضيل الاجتماعي إلى الزيادة في الطلب على سلع بعينها، والجماعات وشتى الثقافات والطبقات، مطالبها الاقتصادية وتفضيلاتها الخاصة. وليست التفضيلات الجمعية هي مجموع التفضيلات الخاصة بالأفراد، بل يتأثر التفضيل الشخصي أو الفردي إلى حد بعيد، بتفضيل آخر «اجتماعي» أو «طبقي»، ويتسلسل نسق التفضيل بين «الضروري» و «الكمالي» طبقاً لنوع الثقافة، وتدرج الطبقات. وسوف يصاب البناء الاقتصادي بالخلل، إذا ما اقتصرنا على تفضيلاتنا وإشباع رغباتنا، باستهلاك المستورد والاستمتاع بالسلع الحديثة. حيث أن الناتج من التنظيمات الصناعية، وما ينجم عن المشروعات الاقتصادية، بالاضافة إلى عائد رؤوس الأموال والكفاية الفنية والعملية، كل هذا لا يمكن تقديره بدرجة أكبر أو أسرع أو أقوى من تحقيق رغباتنا ومطالبنا وتفضيلاتنا.

ب — ويقول الاقتصاديون إن هناك علاقة توازى صارمة بين اقتصاديات الانتاج والاستهلاك، نظرا للتضخم المستمر في تعداد السكان، وثبات رؤوس الأموال، الأمر الذي يؤدي إلى ضعف أو هبوط معدلات الانتاج. وتتجلى مهمة الفكر الاقتصادي، في تنظيم العلاقة وإيجاد التوازن بين كفتي الاقتصاد الانتاجي والاقتصاد الاستهلاكي.

فالكثافة البشرية العالية التي تتميز بها المجتمعات المتخلفة والنامية، تحتاج بالضرورة إلى زيادة التركيز على الخدمات في مختلف ميادين الصحة والتعليم

---

(١) الدكتور حسن الساعاتي، التكنولوجيا والمجتمع، وأنظر دراسة المخطط العربي الدكتورين ابراهيم حلمي عبد الرحمن وإمام سليم، في المؤتمر المعقود في القاهرة ١٨ — ٢٦ نوفمبر ١٩٥٩ حيث كان لاجتماع الدول العربية واليونسكو. دار المعرفة ١٩٦٢، ص ٩

والاسكان ، بالاضافة إلى خلق فرص العمل ، وإتاحة المشروعات ، لضمان الحصول على الطعام ، وضرورة وصوله إلى كل الافواه ، حيث يبتلع الانفجار السكانى كل زيادة إنتاجية ، فتضيع الجهود سدى .

ويضبط التخطيط المنظم ، معدلات الانتاجية والاستهلاك ، ويوحد بين الجهود المشتركة ، حتى لاتضيع ثمرات التنمية دون جدوى . فالزيادة البشرية وقلة رؤوس الأموال وهبوط الإنتاج ، كل هذه مؤشرات تؤكد ضرورة الحاجة إلى القيام بعمليات التنمية ، والتعجيل بالتطوير الاقتصادى ، حتى تحل مشكلات البطالة والكساد وهبوط الأجور ، فيتحقق بالرواج الاقتصادى الرخاء ، ويضمن الإنسان حياة كريمة فى ظل الرفاهية .

ح — ولا شك أن حل هذه المعادلة الصعبة التى تنظم العلاقة بين الانتاج والاستهلاك ، هو علاج لمشكلة عويصة ، من أهم مشكلات التنمية ، فى سائر المجتمعات والدول النامية التى تعمل على دفع عجلة التطور الاقتصادى لحل مشكلة الجوع ، فكيف يمكن التوفيق بين أيدى خاملة عاطلة ، ولا تعمل ، وأفواه جائعة تطلب الطعام؟! .

فما فائدة أن ينتج الإنسان الاقتصادى كل مايستهلكه ، أو يلتهم ويستهلك كل إنتاجه ، هذه مشكلة تؤدى إلى العجز والبطالة ، وعدم تناسب الأجور مع الأسعار ، ثم أن قلة المعروض من المواد الإستهلاكية ، يفرض بالضرورة استيراد السلع لمواجهة الضرورات الملحة ، مما يحتم علينا تغيير سياسة الاستهلاك بضبط النفس وبالتقشف والتعفف ، والادخار بأشكاله ، والاستثمار بطرقه المباشرة وغير المباشرة ، بالاضافة إلى زيادة الشعور بالتضامن والتماسك والإنتماء .

د - ومن أجل التعجيل بالتنمية الاقتصادية ، ينبغي الاسراع بتنقية التاجر في أسواق التجارة ، حتى تتخلص من استغلال الانسان لأخيه الانسان ، فتكشف عن « المشروع » و « غير المشروع » من الكسب والدخل الاقتصادي بالقضاء على « الدخول الطفيلية » و « الكسب الحرام » في أقوات الشعب ، عن طريق الاستفادة غير المشروعة من « المخزون السلعي » من أجل الاستغلال والاحتكار ، أو التضارب والتلاعب من أجل زيادة الأسعار ، ثم الامتناع برفع قيمة السلع المخزونة .

ويمكن انعاش الركود الاقتصادي ، بالتنمية والتصنيع ، وترشيد استخدام التكنولوجيا واستيرادها ، من أجل دفع عجلة التطوير ، بقصد التوصل الى أكبر معدلات ممكنة للانتاج الصناعي والزراعي ، وبقدر يفوق بكثير ، بل ويتجاوز إلى أكبر حد ممكن حين يزيد على معدلات الاستهلاك - حيث يجب أن تتوافق اقتصاديات الانتاج مع إقتصاديات الاستهلاك ، وذلك هو أقل تقدير في التصور والتوازن الاقتصادي ، حين تتساند في معية Togetherness متوازنة . إذ أن زيادة الدخل القومي ، وارتفاع مستوى الدخول ، بالاضافة الى الرواج والانعاش ، كل ذلك يضمن حياة كريمة للمجتمع بطبقاته وأفراده ، مع ضرورة الالتفات الى ترشيد النفقة الفردية ، حتى تتكامل عمليات التنمية إقتصاديا واجتماعيا في وقت واحد .

٣ - تنمية دول العالم الثالث :

من اليسير علينا أن نشبه مختلف دول العالم ، سواء في غناها الفاحش ، أم في فقرها المدقع ، بأنها تماما كالأفراد ، فهناك دول غنية ، ودول متخمة [illegible] .

---

(٢) إن ما يميز الدول المتقدمة اقتصاديا developed countries هو ارتفاع دخلها اقتصاديا

أو متقدمة كالولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفيتي ، بينما تعيش دول أخرى « متخلفة » و « نامية » وتكافح جميعها من أجل الحياة(١) .

أ - وهنالك علاقات تنظمها قواعد وقوانين دولية ، ويفرضها نظام اقتصادي دولي بين « دول متجهة » و « دول نامية » ، حيث تقوم بالضرورة علاقات اقتصادية بين دول متقدمة advanced صناعياً وحضارياً ، وأخرى كادحة لم تستكمل بعد نموها الاقتصادي والاجتماعي . ولكل من هذين النمطين المتمايزين آماله ومشكلاته . ولقد صدر « علم اجتماع التنمية » من أجل حل المشكلات ، ومن أجل تحقيق الآمال .

فالغني المتخم يزداد غناه ، ويتراكم كسبه ويفيض إنتاجه ، ويتزايد عائد رؤوس أمواله ، وقد يواجه المشكلات العويصة التي تتصل بتحديد قيمة الأجور وتثبيت الأسعار ، وتفشي البطالة وانتشار الكساد وتضارب البورصات . بينما يعاني الكادح المكافح كثيراً حين يتطلع نحو حياة أفضل ، وهو عمل دائب ومستمر من أجل التنمية بنوعيها الاقتصادي والاجتماعي .

ومن أجل حل المشكلات الناجمة عن الفقر المدقع والغنى الفاحش ، تحاول الدول المتقدمة الكبرى أن تقوم بمساعدة الدول المتخلفة ـ عن طريق « برامج » أو « خدمات » أو « مساعدات » فنية أو تكنولوجية تتم في شكل « معونات

= المستمرة في دخول الأفراد ، كنتيجة حتمية لنمو الانتاج القومي ؛ نظراً للنمو المطرد في المدخرات ؛ بحيث يصبح معدل الاضافة في الدخل القومي Per capita income ؛ هو معدل يفوق النمو البشري التدريجي .

(٢) تعاني الدول المتخلفة اقتصادياً من فائض بشري هائل ؛ مع [illegible] الزيادة وهبوط الانتاج ؛ وعدم توافر رأس المال ؛ ومن أجل تنمية هذه الدول اقتصاديا واجتماعيا ؛ يجب أن تقدم اليها المعونات الاستهلاكية والفنية والتكنولوجية من الدول الغنية بفائض إنتاجها .

التنمية ، وهي معونات اقتصادية وخبرات فنية ، تقدمها الدول الكبرى إلى مجتمعات العالم الثالث(١)

ب ـ وتعمل معظم دول العالم الثالث جاهدة ، لكي تحقق لنفسها تنمية إقتصادية ، فتضع البرامج والمشروعات ، وتحاول استخدام التكنولوجيا المتطورة لتعديل ، أنماط الحياة ، وتبديل مستوى الطموح Level of aspiration ، وتجديد أساليب الرعاية الاجتماعية ، وتطوير التربية الأساسية بتغيير الأساليب القديمة ، واستخدام وسائل الايضاح السمعية والبصرية ، وتعليم الكبار ، ومحو الأمية ، بالاضافة الى بذل الجهود نحو تجديد الأنماط الثقافية ، وتغيير معايير السلوك ، بتبديل القيم أو تعديلها ، وإزالة ما أخنى عليه الدهر ، من نماذج سلوكية جامدة وتصورات وأفكار عتيقة وبالية ، تعمل جميعها على إعاقة التربية والتنمية ، وخطط التطوير الاقتصادي والاجتماعي .

ولقد أشرنا إلى أن الكثافة السكانية العالية ، إنما تشكل عاملا خطيرا في إعاقة التنمية ، حيث يواجه المجتمع بكل أفراده مشكلات الخدمة الطبية ، والنفقة التعليمية ، وتطوير المرافق وتحسين مستوى الخدمات ، مما يتطلب الامكانيات

---

(١) يضم العالم الثالث نحو ٧٠٪ من تعداد سكان الارض ، ولا يتعدى إجمالي دخله عن ٣٠٪ من الدخل العالمي . ويعاني نصف سكان العالم الثالث من انتشار الجهالة والامية ولا يجد ثلثي أطفاله مكانا في المدارس . ويموت عشرات الالوف كل عام جوعا في سائر بلدان العالم الثالث ، كما تحصل الدول النامية رغم كل ذلك على ما قيمته ٤٪ من قروض البنك الدولي ولم يبلغ معدل انتاج العالم الثالث سوى ٧٪ من الانتاج العالمي .

أنظر هذا الصدد :

د. اسماعيل صبري عبد الله : نحو نظام اقتصادي عالمي جديد ، قضايا في دراسة التنمية والتحرر الاقتصادي والعلاقات الدولية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ صفحات ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٩٦ .

التكنولوجية الضخمة ، والجهود البشرية المكثفة ، وذلك لتحديث أو حتى ترشيد التنمية ، من أجل تطوير إقتصادى سريع ومستعرض(١) .

وينبغى فى كل عملية من عمليات التطوير فى التنمية الصناعية ، أن يتحول الانتاج الاستهلاكى ، فيقترب شيئاً فشيئاً الى انتاج مايسمى بالتكنولوجيا الصلبة Hard Technology ، كالمعدات والآليات الجاهزة ، والصناعات الثقيلة وشبه الثقيلة ، بالاضافة إلا محاولة بذل الجهود المشتركة نحو تصنيع هذه التكنولوجيا الجديدة وإدخال التحسينات عليها ، ثم تقوم بتصديرها إلى العالم الخارجى بعد استكفاء الحاجة بتحقيق أغراض الأسواق المحلية .

التكنولوجيا والتصنيع فى الدول النامية :

من المشروعات الصناعية البرامج الاقتصادية التى اشتهرت بها الدول النامية ، صناعة الأدوية والأسمدة ، ومواد البناء ، الأمر الذى يؤدى بالقطع إلى إمتصاص الاعداد الكبرى من الايدى العامله ، وارتفاع الاجور ، حيث أكدت نتائج الدراسات التنموية ، وأثبتت أن انخفاض معدلات الادخار ، قد نتج عن هبوط مستوى الاجور ، وضعف أو قلة الدخول الفردية .

أ ـ ولا شك أن لكل دولة نامية ، طريقتها الخاصة بالتنمية الصناعية ، طبقاً لظروفها البيئية وسياساتها الاقتصادية التى تنظمها ، طبقاً لما تواجهه من مشكلات

---

(١) دكتور نبيل السمالوطى : التنمية والتحديث الحضارى دار مكتبة الجيلاوى ١٩٧٥

تحتاج إلى حلول سريعة وناجحة ، عن طريق عمليات التنمية ، والتطوير في سائر ميادين الانتاج والخدمات .

ب ـ ولا يؤدي التصنيع في المجتمعات التقليدية والنامية إلى نفس النتائج ، بحيث لا ينجم عن التصنيع تغييرات بنائية متشابهة ، إذ أن المجتمعات لا تتطور صناعيا على نحو متجانس . فتختلف طبيعة النتائج الثقافية والتغيرات الاقتصادية التي تطرأ على بنية مجتمع صناعي ، إذا ماقارناها بنتائج تغير مماثل يطرأ على بنية مجتمع آخر حيث يتوقف كل « تغير اجتماعي » في ميادين التكنولوجيا والاقتصاد والصناعة ، على عوامل بنائية وظروف بيئية وإيكولوجية خاصة بالمجتمع موضوع الدراسة ، حين نحاول أن نلقي ضوءاً على تاريخه وتراثه ، ونتفهم قيمه ونظمه وماضيه ، بالاضافة إلى تحليل وتقييم القواعد المحلية ، والمعايير الوطنية ، والكشف عن موارد المجتمع الاقتصادية لتحديد نوع التربة ، ومعرفة الثروة الطبيعية ، واستخراج المعادن ، والمواد الخام من المناجم ، ومما في جوف الأرض ، من طبقات جيولوجية .

وتتمثل المشكلة الحقيقية والكبرى في كل الدول النامية والمتخلفة ، في وجود فائض بشرى هائل ، تعاني منه ، نظراً لقلة الموارد وندرة رؤوس الأموال ، والمشروعات الصناعية ، الأمر الذي يؤدي إلى هبوط أو انخفاض في معدلات الدخول الفردية ، إذ أنها مجتمعات تستهلك الكثير ، بينما تنتج القليل .

وإذا كانت هذه المشكلات ، هي أهم نقاط الضعف التي تعاني منها عمليات التنمية الصناعية والاقتصادية في دول العالم الثالث ، فان هناك مشكلات أخرى معاكسة تواجهها الدول الغنية الكبرى ، بالرغم من تقدمها وغناها الفاحش .

ومن أهم المشكلات الكبرى التى تواجه الدول المتقدمة والغنية بالموارد، مشكلات تتعلق بالانتاج وكثافته، حيث تتنافس الدول الصناعية الكبرى فيما بينها تنافساً رهيباً يسبق الزمن، وهنا نستطيع أن نتساءل : وعلام تتنافس هذه الدول، فى إنتاج السلع الإقتصادية (١) ؟! :

ـ إن تراكم هذه السلع وتحسين إنتاجها، فى سوق المنافسة الاقتصادية، سوف يخلق مشكلات عالمية صعبة، حين يختل الميزان التجارى الدولى، كما وقد يساعد هذا الانتاج الصناعى الهائل على إيجاد تكتلات بشعة وغير مشروعة فيظهر الجموح الجامح فى المدن الصناعية الكبرى، وتنتشر جرائم العنف والجنوح وتتفشى المادية، ويظهر الالحاد والجماعات المتطرفة، حيث تخف درجة الضبط وتضعف هيبة القانون، وتقل قداسة الدين،فيظهر الشذوذ أو الانحراف الناجم عن التمرد وجنون العزلة، حين تتدهور القيم الروحية والمثاليات الجماعية، بانفصام عرى التنظيمات القديمة، وتتقهقر الأنماط التقليدية، مع شيوع الأمراض الاقتصادية المعروفة، كالتضخم والقروض، وصراع النقابات، والاضرابات، بالاضافة إلى زوال القيم الأصيلة، وإحلال القيم الغربية والدخيلة، نظراً لذيوع مرض التقليد الثقافى وشيوع البدع والنزعات الفردية وانهيار أو تصدع الاتجاهات الجمعية، التى تؤكد التضامن وتدعم التماسك والتكامل، وهذه هى أهم عيوب المجتمع الرأسمالى الصناعى، وعلله وأمراضه. وكان الحل الوحيد لكل هذه المشكلات التى تعانى منها هذه الدول الغنية الكبرى، هو أن تتجه بانتاجها المكثف نحو أسواق الدول النامية، والمجتمعات المتخلفة، من أجل تنميتها وتطويرها.

(١) هانسون، أ. ه.: المشروع العام والتنمية الاقتصادية، ترجمة [illegible] وتقديم مراجعة الدكتور فؤاد هاشم عوض، الدار المصرية، يونيه ١٩٦٥.

اقتصاديا واجتماعيا ، نظراً لكثرة مافيها من العلل والأمراض ، وما ينتشر أو يسود من العيوب الاجتماعية .

فاتجهت الدول الكبرى ، بما تعانيه من مشكلات غناها المتخم ، نحو دراسة الصعوبات الناجمة عن الجوع والفقر من جهة ، حتى تحاول تلك الدول الكبرى ، من جهة أخرى ، التخلص من فائض إنتاجها ، حين تتقدم بمعونات اقتصادية وفنية لتنمية الدول التقليدية والنامية . وليس الدافع هنا « دافعا إنسانيا بحتا » من أجل المساعدة والتنمية بتقديم المعونات الاقتصادية ، وإنما هو « دافع اقتصادى » بحت ، دفع مثل هذه الدول الغنية الكبرى إلى أن تحل مشكلاتها الانتاجية الخاصة ، بالتخلص من «الفائض الاقتصادى» كبرامج التنمية ، ومشروعات صناعية « ومعونات اقتصادية ، تقدم ككل أو بالتدريج إلى دول العالم الثالث .

د ـ وإزاء مشكلة الزيادة الرهيبة فى انتاج السلع . والتنافس القائم فى أسواق التجارة العالمية ، تسعى الدول الكبرى بفائض انتاجها نحو الدول الفقيرة والنامية ، حتى لاتحدث الهزات الاقتصادية العنيفة التى تؤثر على انخفاض الأسعار العالمية ، بالاضافة ، إلى زيادة عرض العمال ، والبطالة بأشكالها الظاهرة والمقنعة ، وانخفاض الأجور ، وانتشار الخود والكساد ، نظرا لإنعدام الحركة ، مع ثبات وتوافر الركود أو السكون الاقتصادى ، إلا أنه من أجل الحركة وإحلال الرواج الاقتصادى ، ومن أجل حل هذه المشكلات العويصة وطبقا لصرامة قانون العرض والطلب ، وصونا للسعر العالمى للسلع المنتجة ، تحاول الدول الكبرى أن تقدم « فائض إنتاجها » فى شكل معونات اقتصادية ، كما حدث بالنسبة لمشروع «مارشال» الأمريكى ، بعد الحرب

العالمية الثانية ، لتنمية المشروعات الاقتصادية لدول غرب أوربا ، بل ولانعاش أوربا بأسرها .

وكانت أسواق الدول النامية والمجتمعات التقليدية التى تحتاج إلى تطوير أو تنمية نظراً لبساطتها وبدائيتها ، هى محط أنظار الدول الغنية الكبرى ، وذلك بحجة تطوير مشروعاتها الاقتصادية ، بتقديم « معونات » كانت فى الأصل مشكلة إنتاجية أدت إلى « فائض » فاتجه هذا الفائض الذى يهدد فى وجوده وكثافته الدول الغنية ، نحو تنمية الدول الفقيرة ، حيث أن الفقر والجوع والفاقة إنما هى ظواهر اقتصادية مفزعة ، تهدد رخاء العالم .

وقد تشترط الدول الكبرى من أجل الموافقة على تقديم هذه المعونات ، بعض « الشروط السياسية » التى تمليها على الدول الفقيرة والنامية . وقد ترفض هذه الدول النامية رغم فقرها قبول هذه المعونات الاقتصادية المشروطة سياسيا . إلا أن انتشار مبادىء الحرية وذيوع الأفكار الليبرالية ، قد غيرت جميعها تلك النظرة الاستعمارية لهذه الدول التى نظروا إليها على أنها بدائية أو « متخلفة Underdeveloped » ، فأطلقوا عليها اسما آخر هو « الدول النامية developing couutries » .

وقد أكد ميثاق الأمم المتحدة ، على ضرورة حل المشكلات الاقتصادية والانسانية فى الدول النامية ، وقد تتعاون الدول الصغرى ، وتعمل على تبادل المعونات فيما بينها ، وتخلق الأسواق المشتركة ، وتعمل على تمويل برامج التنمية بجهودها الذاتية ، أو بالاعتماد الكلى أو الجزئى على الدول الكبرى .

وقد تظهر المشكلات الاقتصادية الجديدة كنتيجة للزيادة المحتومة فى

إنتاج السلع ، وتصدير التكنولوجيا والمعدات ، إلا أن هذا الفائض المتزايد لن يستمر على الاطلاق ، حين تقل أو تتوقف أو تكتفى الدول النامية ، فلاتحتاج إلى مثل هذا الفائض ، حين تبلغ « حد الاشباع » فلا تطلب أسواقها شيئا جديدا ، من انتاج الدول الكبرى .

هـ ـ الامر الذى تواجه معه الدول الكبرى « مشكلة فائض انتاجها ، المتزايد بدون أسواق لتصديره وبفرض تراكم هذا الفائض غير المصدر ، على الدول الكبرى إعادة النظر فى سياستها الانتاجية ، وتعديل نظم التصدير والاستيراد فيها ، عن طريق التواؤم Readluetment ، بحيث يحدث التقارب بين الانتاج والاستهلاك ، الامر الذى يفرض التكيف مع الظروف الاقتصادية والانتاجية الجديدة .

الباب الخامس

حلول مقترحة لمشكلات الإدارة والتنمية

- كيف نعجل بالتنمية ؟
- التخطيط واستراتيجيات التنمية
- التخطيط الصناعى
- التنمية الادارية وثورة التخطيط
- الادارة كنسق اجتماعى
- ترشيد الانفاق

تمهيــــد :

لا أحب أن أكرر ما قد نشر من قبل ، أو أعيد ما كنا قد استعرضناه من أهم المشكلات الخاصة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، حين ناقشنا في كتابنا علم الاجتماع الاقتصادى ، معظم العوامل الرئيسية التى تؤدى إلى الإبطاء في التنمية ، كما أشرنا الى أهم مقومات التطوير والتغير ، التكنولوجية منها والايديولوجية(١) . فتكلمنا عن عوامل بطء التغير ، مثل العامل الديموجرافى ، والكثافة البشرية ، وإنتشار التخلف الفقر والفاقه ، وإزدياد الطلب على السلع الاستهلاكية ، مما يتعذر معه « وصول الطعام لكل فم » ، بالاضافة إلى عامل ثالث وجوهرى ، وهو عامل سياسى يتعلق بموقف الدول الغنية والمتقدمة من دول العالم الثالث وتنمية مجتمعاتها ، وكيف تعيد الدول الكبرى النظر حين تتضخم مشكلاتها الانتاجية ، فتعمل على « إعادة التوازم Readjustment » بين سياساتها فى التصدير والاستيراد من جهة ، واقتصادياتها الانتاجية والاستهلاكية من جهة أخرى .

ومشكلة التنمية ، أصبحت « عالمية » ، وأصبحت الحاجة إلى تنمية دول العالم الثالث ، حاجة ملحة ، إلى الدرجة التى معها بدأت « الدول المنتجة للبترول فى العالم العربى » أن تعيد النظر فى برامجها الاقتصادية والاجتماعية ، فبدأت الاهتمامات الآن بتنمية البـداوة ، وما يسمى بالتنمية الرعوية nomadic development حيث تحتاج « الصحراء » ومناطق الرعى إلى عمليات خاصة لرفع مستوى هذه البيئات المتخلفة ثقافياً وحضارياً وإقتصادياً ، والقيام بمشروعات التحديث Modernization ، وبرمجة Programmation البرامج العلمية لتنمية « ثقافة الصحراء » ، واستزراع أكبر مساحة ممكنة ، من أجل تحقيق الأمن الغذائى ،

---

(١) أنظر فى هذا الصدد ، الأبواب والفصول الاخيرة من كتابنا « علم الاجتماع الاقتصادى » ، ومشكلات الصناعة والتنمية منشأة المعارف ١٩٨ .

باستخدام المخزون الهائل من المياه الجوفية . وعن طريق تنويع « وتنمية مصادر المياه Water resources development » ، اما باستخدام « المفاعلات الذرية » أو « الإمطار الصناعية » .

وتحدث مع « إنحسار البداوة » و « إنتشار « الحضرية urbanism » ، ظواهر التغير ، وبوادر التحديث الحضارى ، بفضل البرمجة العلمية لعمليـــات التنمية الضرورية. كما ويتحقق إنحسار البداوة ، ويتجلى فى جانبين ، الأول وهو « جانب سوسيولوجى » ويتصل بالانحسار الاجتماعى للبادية ، عن طريق « التوطن Concentration » وانتقال الكتل البشرية أو انجذابهـا نحو منـاطق بعينها لها جاذبيتها الاقتصادية .

والثـانى ، وهو « جانب إقتصادى » ، يتصل بظاهرة إيكولوجيـة صحية ، حين تتغير ملامح البيئة حضارياً وايكولوجيا Ecology ، بانحسار المراعى، واستزراع الأراضى البور ، وتشجير الصحراء وإستغلال الطاقة الشمسية . وفى إطار ترشيد مشروعات الرعى ، إقامة مصانع العلف ، والتوسع فى مساحات المراعى ، للزيادة الكمية والكيفية للأعلاف ، والاهتمام بزراعة «الفول» والبرسيم الحجازى . ولاشك أن المشكلة الأسـاسية فى كل دولة نامية ، هى مشكلة تحضر urbanization ؛ لأن التحضر على حد تعبير « ماك جى Mc Gee » هو الغاية النهائية التى تهدف إليهـا دول العالم الثالث (١) .

وليست عمليـة « التوطين » عملية تهجير ، بل ينبغى أن نظر إلى التوطين ، كعملية « إنشـائية » ، لأن التوطن ليس مجرد نقل السكان من مكان الى آخـر ، ولـكن عمليـة التوطن ، إنمـا تشتمل على تـكثيف العمالة ، فى مراكز إستقرار ترتبط بموارد إقتصادية دائمة ، وغير قابلة للنضوب . بمعنى أن التوطن ، هو

(1) Mc Gee, T.G , The urbanization Process in the Third World, London, 1971.

عملية تفريغ منطقة من سكانها ، تحت ظروف جذب قوية من خارجها(١) .

وإرتكانا إلى هذا الفهم ، تستند عمليات « التوطين» و«التحديث» الحضارى» فى ثقافة الصحراء ، وتنمية نمط البداوة uomadism » إلى برمجة البرامج فى مجال التنمية الاقتصادية ، التى ينبغى أن تمشى فى نفس الوقت مع برامج « التنمية الاجتماعية » ،مع دراسة للموارد الممكنة والمتاحة ، إستنادا لنظم «الملكية » و « الحيازة » وبخاصة ملكية الآبار والمراعى ، أو حيازة الأراضى المزروعة طبيعيا ، إما لسقوط المطر أو السيول السنوية ، وإما لقربها من الواحات ، أو باستزراعها بالتين والزيتون والخضر والموالح ، باستخدام السدود والخزانات والعيون ،مع محاولة تغيير الأنماط التقليدية traoitional patterns إلى « أنماط» جديدة فى مجال الزراعة ، وتنمية الثروة الحيوانية ، وتشجير الغابات ، وتسمين الأغنام ، وتنمية المراعى ، وتربية العجول،وتصنيع الأعلاف،والاهتمام باستغلال طاقة البترول محليا ، والالتفات إلى مجالات اقتصادية أخرى تتعلق بالزراعة والتجارة والصناعة ، وكل مايتصل بها جميعاً من أنشطة ، يتراكم معها العمل ، ويزداد ناتج الثروة ، ويتكاثر الفائض من دوران رأس المال ، مثل عائد «الربح Profit » أو « الريع Rent » .

ومع تطبيق برامج « التصنيع » و « التحديث » و« التوطن » تبدأ عملية التحضر ، وتزداد عمليات النمو الحضارى بمعنى أن « التوطن » هو بداية التحضر فى مجتمعات الصحراء ، وفى كل أنماط البداوة ، لأن « الاستقرار » هو علامة

---

(١) أشار دافيد بولتون David Boulton ، وكاثلين بكت Kathleen Pickett إلى هذا المعنى فى كتابهما :

الهجرة والتكيف الاجتماعى

Migration and Social Adjustment Liverpool,Univrs. Press , 1974

« التركز » الذى يبدأ مع توقف القبيلة عن « الحركة » و« الترحال » سعياً وراء الماء والكلأ ، حين تحمل كل أنماطها وتصوراتها التقليدية ، بينما تبقى أبنيتها الثقافية والإجتماعية ، ثابتة ولا تتهدم ، رغم دوام السعي ، واستمرار التنقل ، وبعد عمليات « التوطن » و « التركز » والاستقرار ، تبدأ عمليات أخرى تتهدم معها كل الابنية وتنهزم كل التصورات ، مع غزو « الثقافة الجديدة » والتكيف مع تصورات أخرى قد تتعارض مع « نمط البداوة » ، فيحدث الصراع مع « الغزو الثقافى » الذى يؤدى حتما إلى التجديد innovation والتطوير والتحديث .

ومع استقرار القبيلة البدوية فى الأرض تبـدأ عمليـات التحضر acculturation ، حيث يحمل الاستقرار كل سمات التحضر المادية وغير المادية .
وتعتبر مرحلة التكيف adjustment من أهم مراحل عملية التوطين للجماعات الرعوية nomadic ، وشبه الرعوية Semi nomadic لأن عملية التـكيف ، هى أخطر مراحل التوطين ، حيث تشتمل مرحلة التكيف فى ذاتها على كل أو معظم « سمات التحضر والتحديث » ، وعلى كل ما تواجهه عملية التحضير من مشكلات ، وكل مايعترض « التوطن الرشيد » من صعوبات .

وتحاول معظم « دول البترول » العربية ، فى هذه الأيام ، أن تستخدم كل الوسائل والبرامج التى تعمل على إنهاء « مرحلة الرعى والبداوة والترحال » إلى مرحلة أخرى أكثر تحضراً وأرقى ثقافة ، هى مرحلة الاستقرار والزراعة ، واستغلال موارد الصحراء ، مع تطوير وتصنيع وتنمية هذه الموارد .

ومن الخطر الداهم ، أن تظل « دول البترول » العربى مجتمعات دون تنمية .
ومن الظن الخاطىء أن يتوهم الواهم ، أن « مناطق البترول » وآبارها إنما ستبقى أبداً ودائماً كمصادر لضخ النفط ، فسوف تنضب هذه الآبار يوما ما ، وتتوقف

ضخ أو استخراج البترول، فى « آبار » محددة الكمية من الموارد الخام، وليست مجرد « عيون » البترول، تدر النفط ، لكى تعطى بلا حدود، ويبدو واضحا أن «فائض البترول» هو الأساس المادى Material Substratum الذى يعول كل دولة من دول البترول العربى ، حيث يعيش سكانها الآن ، فى مستوى من المعيشة مرتفع .

ولا شك أن « ضخ البترول » ليس عملا إنتاجياً ، له عائده الاقتصادى، وإنما هى عملية مؤقتة وليست دائمة ، فلسوف ينتهى ضخ النفط قطعا . الأمر الذى يبدو معه أن « العمل الانتاجى » أو الاقتصادى أو التصنيعى ، لاوجود له فى دول البترول . وهنا يكمن الخطر الداهم يوماً . فالكل مستهلك فى دول البترول العربى ، حتى الآبار نفسها إنما يقل مافيها من بترول نظراً لما يستهلك منها وبشراهة ، من ملايين أطنان البترول الخام، والكل فى دول الخليج وصحراء العرب وليبيا ، يعمل من أجل التجارة والخدمات . وتعتمد كل هذه الدول « إقتصادياً » وايكولوجيا على النفط ؛ فظهر فى العالم العربى ؛ وبوضوح مجتمع « الاستهلاك والخدمات » ؛ ويستند هذا المجتمع ، وهذا أخطر مافى الأمر ، إلى « مورد إقتصادى » قابل للنضوب ؛ تماما كمن يعتمد على « منجم » من المناجم ؛ ولا يضع فى اعتباره أن اعتماده هذا على المنجم، سوف ينتهى فى فترة أو مرحلة من مراحل التاريخ، حين يتحول « المنجم » إلى كهف فقد قيمته الاقتصادية ؛ بعد أن تم إستغلاله تعدينياً وجيولوجيا . وهكذا يكون أمر « دول البترول العربى » حين تنضب الآبار ؛ وهذه مسألة خطيرة ، ينبغى أن يواجهها الخبراء فى سرعة وتخطيط وفعالية .

ويمكن استغلال « فائض البترول الحالى » ، وانقاذ مايمكن إنقاذه فى تمويل مشروعات إقتصادية ؛ أو « مؤسسات إنتاجية » يمكن الاعتماد عليها فى المستقبل؛ كقواعد إنتاجية حقيقية وثابتة كالصناعة والزراعة والرعى ، بدلا من مجرد الاعتماد على « فائض طبيعى » سوف ينضب ، أو عائد بترولى ، سوف يتوقف .

وتحاول « الحكومة السعودية » الاعتماد على اقتصاديات الرعى ، وتربية الإغنام وتسمينها ، فاهتمت بالمراعى ، وزيادة الثروة الحيوانية ، كما اهتمت المملكة السعودية أيضا ، بتوزيع الأراضى البور على البدو ، وقد تقرر توزيع نصف مليون دونم فى منطقة «تبوك» وحدها ، وبلغ عدد المستفيدين نحو ١٩٨٥ أسرة عام ١٩٧٠ (١) .

وبالنسبة للصناعة ، فلم يحدث فى السعودية النمو المطلوب رغم النمو الحضرى المتزايد فى «مكة المكرمة» ، والمدينة المنورة ، وفى ينبع وتبوك ، نظراً للزيادة فى استثمارات رؤوس الأموال ، التى تتجه نحو «قنوات غير انتاجية» ، بل تتجه نحو تجارة الاستهلاك وحركة البناء ، وللمشروعات التى تحقق دورة الربح السريعة ، ويبدو الإحجام واضحا فى السعودية عن النمو الصناعى ، نظراً لقلة الأيدى العاملة ، وندرة الكوادر الفنية ، وانعدام المهارات الإدارية managerial skills ، بسبب القصور الواضح فى نسق الحرف والمهن ، وأثره على الأنشطة الاقتصادية فى « المملكة العربية السعودية » .

---

(١) الدكتور عمر الفاروق حسين رجب ؛ اتجاهات التنمية الاقتصادية فى المنطقة العربية «بالسعودية» ، وأنظر أيضا فى هذا الصدد .

النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية ، الدكتور محمود عبد الفضيل ؛ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ابريل ١٩٨٠ .

الفصل الثالث عشر

ولكن كيف نعجل بالتنمية ؟

* تمهيد
* التخطيط واستراتيجيات التنمية
* التخطيط الصناعى
* التخطيط التربوى

تمهيد :

لا ينبغي أن نتوقف إطلاقاً عند حد إثارة المشكلات ، ومناقشة الصعوبات دون أن نضع في إعتبارنا ضرورة القيام بعملية « تفكير إنشائي وبناء » بعد عمليات «الفحص والتشخيص». فلقد أشرنا من قبل إلى معوقات التنمية، وأسباب بطء النمو ، وعلينا الآن أن نتقدم بخطوات ثابتة ، نحو كيفية علاج مشكلات التنمية وإزالة معوقاتها ، وتطهير الجهاز الإقتصادي كله من أمراضه وعيوبه . ومن هنا يمكننا أن نتساءل فوراً ، كيف نعالج ما كنا قد شخصناه ؟ ، وما هي الطرق والأساليب التي بفضلها نسرع بالتنمية ؟ ! ، وعلى أي أساس يمكننا أن نرسم سياسة القضاء على التخلف ؟ ! .

للرد على كل هذه المسائل ، ينبغي أن نلتفت إلى النقاط الأساسية التاليه ، وأن نضع برنامجاً أو منهاجاً لكل مسألة منها وأن نشتغل ببرمجة أو تخطيط كل برنامج على حدة .

١ — التخطيط واستراتيجيات التنمية .

٢ — الثورة الادارية ومعوقات التنظيم .

٣ — ترشيد الانفاق .

هذه هي الخطوط العريضة ، والحلول العملية الناجحة ، والوسائل التطبيقية لعلاج كل مشكلات المجتمعات النامية . وسنحاول أولاً وقبل كل شيء تفتيت هذه المشكلات حتى نعالج في نهاية الأمر كل ما يتصل بمشكلات التنمية ككل .

(١) التخطيط وأستراتيجيات لتنمية :

أ — حين نعالج مشكلات التخطيط واستراتيجيات التنمية ، ينبغي أن نضع في إعتبارنا ، التأكيد على « ضرورة سوسيولوجية وسيكولوجية» ، حين ينبغي أن

يقيم « المخطط الاقتصادى » وزناً للانسان الذى يقوم بعملية التنمية ، فلا يمكن أن نتصور برنامجاً صناعياً أو مشروعاً إقتصادياً ناجحاً ، دون النظر إلى الدور الايجابى للانسان الذى يقوم به . فلا يصبح « دور الانسان مساوياً داخل إطار التنمية » ، وهى عملية « إنسانية لحماً ودماً » فلابد من إعادة النظر إلى دور الانسان الحضارى وقيمته وفاعليته ومكوناته الثقافيـــة ، وهل تساعد هذه الامكانات والطاقات ، على تطوير البناء الاقتصادى ؟ ! أم أنها قد تعوق المشروعات ، وتفسد تنبؤات الخطة وتوقعات التخطيط ؟ ! بمعنى أننا ينبغى أن ننظر قبل القيام بأى عملية من عمليات التخطيط فى سائر القطاعات والميادين ، إلى « للمعطيات البشرية والذكائية والاقتصادية والحضارية ، وكلها عناصر « لا تعطيها المادة وحدها » ، وإنما هى معطيات إنسان ديناميكى متطور . ولذلك يعمل خبير التخطيط الاقتصادى ويحاول أن يخطط ، ويستخدم التكنولوجيا بقصد الإسراع بالتنمية وتطوير الإنسان التقليدى وتغيير أسلوب حياته .

وتدور الصراعات فى مختلف الثقافات المتخلفة والمجتمعات النامية ، حول ، صور أو نظم الملكية والأجور والضرائب والأسعار ، كما قد تعم للشكلات العويصة حول الانتاج والإستهلاك . الأمر الذى يفرض علينا ضرورة الالتفات إلى الحلول العملية الناجحة لمشكلات التنمية ، عن طريق ربط الأجر بالانتاج ، ورفع معدلات الدخول الفردية ، وترشيد الانفاق .

بالإضافة إلى ضرورة حل مشكلات التنظيم الادارى وما يترتب من صراعات واضطرابات فى نظم البيروقراطية ، مثل بطء الروتين وتضارب اللوائح الأمر الذى يكون له صداه فى محيط الأسرة والقانون ، وورد فعله فى تجديد النظرة إلى الإدارة والتنظيم .

ويشمل التخطيط الاقتصادى بالضرورة ، دراسة كل مايتصل بنظم الانتاج والاستهلاك ، حيث يتطلب التخطيط إلزام الدولة بالتدخل لحل المعادلة الصعبة القائمة بين الانتاج والاستهلاك ، عن طريق تنمية الادخار ، وزيادة الاستثمار investment ، ورفع الأجور ، ومقاومة التضخم البشرى الذى يستهلك كل ما ندخره ، ويلتهم كل ماننتجه بل ويزيد . كما يجب أن يأخذ المخطط الاقتصادى فى إعتباره أن بمجرد قيام مشروعات إقتصادية وصناعية جديدة ، ينبغى أن تكون له مقدماته ودراساته المسبقة ، مع تقدير النفقات والمخاطر ، وتقديم الحلول والمقترحات .

ب — ولا يفوت المخطط الاقتصادى أن يأخذ فى إعتباره أيضا ، أن إستراتيجية التصنيع ، هى إستراتيجية موجهة للتصدير export oriented ، كما تهدف فى نفس الوقت إلى تحقيق إنتاج بدائل للواردات import substitution ومن أجل حماية الصناعة فى الدول النامية ، يقترح « جونار ميردال Gunner Myrdal » ، ضرورة التوازن بين العرض والطلب ، حتى لا يفيض إنتاج جديد ، ليتحول بدوره إلى إنتاج ساكن ولا يتحرك دون طلب ، فيزيد العرض وتنخفض الأسعار وتزداد بطالة العمال . كما اقترح « ميردال » تشجيع الاستثمار وزيادة المدخرات مع زيادة الفوائد ، ورفع الأرباح بنسب مغرية . وذلك لخلق وتطوير الاقتصاديات الخارجية . بالإضافة إلى ضرورة وجود الزيادة المستمرة فى الأيدى المدربة والخبرة الفنية [1].

حـ — ولا تتم الدراسات المخططة من أجل برامج التنمية ، فى فراغ ، وإنما تبدأ من أرضية الواقع الاجتماعى ، وتستند إلى نمط الثقافة والقيم والمعتقدات .

---

(١) هانسون ، . هـ : المشروع العام والتنمية الاقتصادية » ترجمة محمد أمين إبراهيم مراجعة الدكتور فؤاد هاشم عوض ، الدار المصرية يونيه ١٩٦٥ ص ٣٢ .

السائدة فى بنية المجتمع . فينبغى أن يواجه المخطط ظروف ومشكلات المجتمع ويتفهم جوانبها المادية وغير المادية . فالتنمية ليست عملية إقتصادية ومادية فحسب ، وإنما هى عملية تتصل أيضاً بسائر أنساق ونظم المجتمع، حين تلتحم عملية التنمية مثلا بالنسق الايكولوجى و «تنمية البيئة ecodevelopment »، كما تتصل إتصالا وثيقاً بالنسق التكنولوجى ؛ وما تلحقه من الآثار الخاصة بقضايا العمال وأصحاب العمل ، وما ينظم هذه العلاقة من نظم الضبط والتشريع ، وهى أمور تتصل بالنسق القانونى : وقد تحدث ردود أفعال أخرى ، فى أنساق الثقافة والأيديولوجيا ، إلى جانب ما يعترى النسق السياسى من تغيرات . تهدف جميعاً نحو هدف واحد ، هو تغيير ، إتجاهات الناس ، وتطوير نظراتهم ونفسياتهم .

وهناك جوانب متعددة لسياسات التخطيط فى ميادين الزراعة والصناعة والتربية ، وضبط موازين الانتاج والاستهلاك ، وتنمية البيئة، بالاضافة إلى تنمية الجوانب السيكولوجية والقيمية ، ولا يتحقق كل ذلك إلا بعلاج المشكلات الناجمة عن وطأة الصناعة ومحنة التصنيع .

وفيما يتعلق بسياسة التخطيط الزراعى ، وإستراتيجية تنمية القرية المصرية مثلا ، يلتفت المخطط الزراعى إلى إستهداف أفضل تكنولوجيا ممكنة، وإستخدام الآلات الحديثة لتطوير معدلات الانتاج الزراعى كماً وكيفاً . هنا يقوم المخطط أيضاً بتنظيم عمليات الارشاد الزراعى، للاستخدام الرشيد للبذور المحسنة وتهجينها مع بناء الوحدات المجمعة والعمل على نشر الوعى وتطويره ، حتى يواكب إستخدام الآلات الحديثة ، وتربية السلالات وتهجينها ، أو تسمينها ، لتحسين الانتاج الحيوانى وتصنيع الريف، بإدخال مشروعات التنمية الزراعية ، كصناعة الجبن والزبد ، وتربية النحل ، وتعليب الفواكه والخضر .

بالإضافة إلى بذل الجهود المشتركة لزيادة رقعة الاراضى المزروعة باستزراع

الصحراء، وإستصلاح الاراضى البور وزيادة غلة الفدان ، وتوفير الآلات وتسويق المنتجات ، وإستخدام الأدوات. ولا يتم ذلك إلا بتوعية جماهير الفلاحين ، وزيادة قدراتهم ، على التكيف الناجح ، مع توجيه وإرشاد القروى وزيادة قدرته على مواجهة المشكلات وحلها بالجهود الذاتية لأبناء القرية . ويهتم التخطيط فى قطاع الزراعة ، تحرير الفلاح من القروض والديون ، برفع مستواه الإقتصادى ، وترشيد إنتاجيته لمختلف المحاصيل .

ويتطلب التخطيط الصناعى. إستغلال فائض الزراعة وتصنيعه، بتنمية الصناعات الريفية، أو تنمية الريف صناعياً ، بالاضافة إلى تحسين ظروف الحياة ، ورفع مستوى أجور العمال ودخولهم ، لتشجيع وتنمية القدرة على الادخار ، ورفع الكفاية الانتاجية، وتوطين الصناعة، وبناء الوحدات الصناعية وتشجيع المشروعات الإقتصادية ، ورفع مستوى الأداء بالنسبة للأيدى العاملة المدربة الفنية ، مع الإهتمام بالعاملين الإداريين داخل التنظيمات الصناعية والإقتصادية .

د — وإذا كنا نخطط إقتصادياً وإجتماعياً من أجل الإسراع فى التنمية ، ورفع مستوى الخدمات ، حتى تزول معوقات النمو . الأمر الذى يفرض علينا كمخططين أن نعمل دائماً وبإستمرار ؛ على تنمية الإستثمارات ، بزيادة حجم المدخرات ، ورفع معدلات الإنتاج ، لكى تقابل الزيادة المستمرة فى معدلات الإستهلاك ، حيث أن الدول المتقدمة صناعياً وإقتصادياً **developed countries** إنما تميزها الزيادة المستمرة فى دخول الأفراد، كنتيجة حتمية لنمو الإنتاج القومى . نظراً لوجود زيادة دائمة فى المدخرات ، بحيث يزداد الدخل القومى **per Capita income** حين يتفوق معدل الإضافة فى المدخرات والاستثمار اجمعلى معدلات النمو البشرى وزيادته التدريجية . بمعنى أن الزيادة المستمرة فى الاستهلاك إنما يجب أن تقابل بزيادة أخرى فى معدل الادخار والاستثمار .

- وهناك فجوة مشهورة ، تقف بين الاستثمار والادخار، وتعبر هذه الفجوة، عن اتساع أو ضيق المدى بين إمكانيات الاستثمارات، وجهد المدخرات، وتسمى « بفجوة الاستثمار investment gap » فهناك تعارض سيكولوجي بين رغبة إستهلاكية ، وأمل إدخارى، حين يقف هذا التعارض السيكولوجي حائلا بين حاجات راهنة، وتطلعات مستقبلة. حيث تتناقض طاقة الإستهلاك الفردى والعائلي مع الرغبة فى الإدخار ، على الرغم من ضرورة توافر الإلتزام الفردى والجماعي لتحقيق ولتقبل التوازن المطلوب بين الإنتاج والإستهلاك ، بزيادة الإستثمارات والمدخرات ، بحيث لا ننتج ما نستهلكه ، ونلتهم كل ما ننتجه ، فيجب ألا تمتص زيادة الأخذ « كل العطاء » ، بل ينبغى أن تحتفظ « دائماً بجزء معين ودائم من الدخل » ، من أجل طوارىء المستقبل المجهول وأخطاره وتنبؤاته ، فهناك « قيم إستهلاكية تعوق التخطيط والتنمية » . وهى قيم ثقافية أصلا ، تتصل بالتفضيل الإجتماعى ، ومن « أجل تحقيق إنضباط السلوك الإقتصادى »، ومن أجل التعجيل بالتنمية والرخاء ، ينبغى أن يقلع الإنسان عن النهم الإستهلاكى الواضح، والتبذير على حساب ميزانية الأسرة ، كما قد يفقد الإنسان الاحساس بقيمة الزمن الاقتصادى ودوره فى عمليات التنمية وزيادة الإنتاج، كما ينبغى ألا نشبع حاجات سيكولوجية ضارة ، كالمباهاة وإدعاء الكرم ، فهى عناصر تعاق أى تقدم فى نمو النسق الإقتصادى .

هـ - ولا يغيب عن المخطط الإجتماعى ، أن يعمل على تنقية المناخ الإقتصادى ، حين يتهيأ الجو التجارى ويعد إعداداً قانونياً لمنع إستغلال الإنسان لأخيه الانسان ، وإعلان الحرب على الكسب الحرام ، وزيادة الرقابة على المشروعات والدخول والاستثمارات غير المشروعة ، تلك التى تخلق « مرضاً أو ورماً إقتصادياً

خبيثاً »(١) فى المجتمع وتنمى طفيليات غريبة بتنمية رؤوس أموال غير مشروعة، مع ظهور طبقة بورجوازية طفيلية Lumpen bourgeoisie ، تلك التى ظهرت كنتيجة حتمية لإستغلال المستهلك ، والتجارة « فى قوت الشعب » أو إحتكاره وتخزينه، الإستفادة من هذه السلع الضرورية، فى كافة عمليات التضارب والتلاعب والتهريب ، من أجل الربح وزيادة الأسعار .

وقد تظهر هذه الطفيليات غير المشروعة عن طريق التسيب والتحايل والسمسرة ، وتهريب السلع ، أو التهرب من الضرائب ، وتلك هى المصادر غير الشرعية لما يسمى « بالتنمية الطفيلية Lumpen Dévelopment » ، وهى دخول وردت بطرق جانبية من مشروعات غير إقتصادية ، بل وقد تكون « مشروعات وهمية » غير قائمة أصلا فى الواقع الاقتصادى .

فالدخول الطفيلية ، دخول « لا أخلاقية » لأنها ليست بالدخول الاقتصادية المشروعة إجتماعيا ، وليس لها أى عائد مشروع عن طريق إستغلال رؤوس الأموال ، أو القيام بعمليات منتجة أو حتى خدمات . وإنما هى دخول غير إجتماعية ، وليست مشروعة إقتصاديا « لأنها صدرت من عمليات تخلق « الثروه بطريقة غير قانونية » . وليس المهم ، هو « خلق الثروه » بل إن المهم هو إيجاد المشروع الاقتصادى الناجح فى ميدان التنمية أو الانتاج أو الخدمات ، بغرض الحصول على « عائد إقتصادى مشروع » ، ومقبول إجتماعيا ، ولا يقع تحت طائلة القانون .

---

(١) هناك عيوب أو أمراض إقتصادية ، تسبب أوراما رأسمالية ، وهناك أيضا جيوب طفيلية تنمو بالتسيب ، تظهر طفيليات بورجوازية ، بفضل صفقات جانبية ، أو مشروعات وهمية . أنظر فى هذا الصدد : دكتور إسماعيل صبرى عبد الله : نحو نظام إقتصادى عالمى جديد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ص ١٦٤ .

ولقد صدرت فى هذه الأيام ، مجموعة من القرارات أصدرها مجلس الوزراء فى جمهورية مصر العربية ، وهى قرارات منظمة العمليات الاقتصادية. إذ أنها مجموعة متكاملة من القوانين التى تحارب وتمنع من وجود مثل هذه الدخول الطفيلية الهاربة من القانون والضرائب ، بتوقيع الجزاء على صاحب كل « مشروع » وهمى يكون الغرض منه خلق ثروة غير مشروعة ، كما يقع تحت طائلة مثل هذه القوانين كل من يتهرب من مواجهة القانون أو دفع الضرائب المستحقه .

التخطيط الصناعى :

أ — حين نخطط من أجل الصناعة والتصنيع ، علينا أن نتساءل أولا وقبل كل شيء : ماذا ننتظر من ثقافة بدائية أو متخلفة ، فى المساهمة فى مشروعات التنمية الصناعية ؟ وكيف يقف من هذه المشروعات إنسان لايعيها أو يستوعبها ؟ وماذا نعمل كخبراء للتخطيط الصناعى مع الإنسان البدوى ، أو القروى أو حتى البدائى Primitive ؟ !

فى الواقع ينبغى أن تتمشى « مطالب الخطة » وأهداف التخطيط مع إمكانيات وطاقات الإنسان ، فتتفق مع ثقافته وتقاليده ، ومفاهيمه الدينية وقيمه الخلقية ؛ بحيث تتلاءم سمات الثقافة وعناصرها مع برامج التخطيط الصناعى، دون أى عائق. وإن كانت هناك « سلبيات » فعلى خبراء التنمية وقادة الفكر ومخططى الثقافه ، وأجهزة الأعلام ، تقديم المقترحات والحلول لعلاج مختلف المعوقات الناجمة عن « سلبيات » وردت من بنية الثقافة السائدة . فتحاول « أجهزة الأعلام » أن تنمى فى الأفراد الوعى والفهم والادراك ، فتعمل على إحداث « حركة نفسية » ، تتمشى وتتكيف مع « حركة تكنولوجية» ، وتملأ الفجوة الثقافية القائمة بين «الآيديولوجيا» و « التكنولوجيا » ، بين إنسان « متخلف » وآلة « متقدمة » ، وبالتالى يميل

الأعلام (١) على تغيير آفاق وتطلعات الأفراد، وتطوير طموحاتهم وبالتالى بتغيير أنماط قديمة، وبتطوير المجتمع التقليدى Traditional وتبدأ «عملية التنمية» دورها الاقتصادى والاجتماعى.

ب - وعملية التنمية فى ذاتها هى «استراتيجية مضادة للتخلف» وعمودها التخطيط الصناعى والانتاج الاقتصادى وتطويره، مع ترشيد الانفاق وتغيير نمط الإدارة، وينبغى أن يأخذ المخطط الصناعى فى إعتباره أن إستراتيجية التصنيع إنما تتميز باستيراد أفضل تكنولوجيا ممكنة، فلاينبغى مثلا أن نستورد ما لا يتفق وأوضاعنا الإقتصادية والثقافية (٢)، وأن ندفع الكثير لأدوات ومعدات متقدمة ولا نستخدمها، كما لا ينبغى أن نستورد تحت ضغط ظروف أيديولوجية أو سياسية معينة، حين نستورد كرهاً ما يعوق عمليات التنميه الصناعية، فتقع المجتمعات الناميه فى حيرة بين أسواق شيوعية وأخرى رأسمالية؛ وتتردد بين أسواق معاديه وأخرى صديقة، مما يفرض عليها نوعا معينا من التكنولوجيا، قد لا يتمشى مع طبيعة تطوراتها الاجتماعية الثقافية وعملياتها التنموية، حين يفرض عليها السوق الإقتصادى الصديق، تكنولوجيا بعينها، قد لا تواكب التخطيط الصناعى.

فينبغى ترشيد الإستيراد، فلا يطلب المخطط الصناعى سوى مايتفق والأوضاع الإجتماعية والظروف الإقتصادية، طبقا لإحتياجات نابعة من عملية التنميه والتخطيط الصناعى، وصادرة عن مطالب وضرورات إجتماعية وإنسانية لها وجاهتها.

---

(١) دكتورة جيهان أحمد رشتى: نظم الاتصال، الاعلام فى الدول النامية - دار الفكر العربى الطبعة الأولى ١٩٧٢ ص ٤٠.

(٢) دكتور نبيل السمالوطى: علم اجتماع التنمية، دراسة فى اجتماعيات العالم الثالث، الطبعة الثانية ١٩٧٨ صفحات ٢١٥ — ٣١٥.

وقد تكون عملية التنمية الصناعية ، عملية عسيرة أو مستحيلة ، إذا ما اقتصر المخطط الصناعى على تصنيع صناعات منفردة . ولكن النمو الصناعى يصبح ممكناً ورشيداً إذا ما تناول المخطط الصناعى ، عدداً متسانداً ومتعاضداً من الصناعات المتكاملة . ومن أجل التوصل إلى تخطيط على التنمية الصناعية الرشيدة ، وتحقيق النمو الإقتصادى المتكامل والمتوازن ، ينبغى على المخطط الصناعى أن يتخطى صعاب السوق المحلية وضيقها مع مواصلة العمل على إرتياد أسواق جديدة للتصدير ، مع تركيز الجهود المخططة صناعيا وإقتصاديا لنمو إقتصاديات متكاملة ، تلتحم بفروع صناعية ووحدات إنتاجية تصب فى النهاية فى إطارات إقتصادية وصناعية متساندة ومتعاضدة ، لصالح البناء الإقتصادى برمته ، الأمر الذى يفرض ضرورة توافر الأيدى العاملة والمواد الخام ورؤوس الأموال ، والذى يلتزم بارتياد الأسواق ، وبالسياسة الإقتصادية والإنتاجية التى تسهر على عملية التوفيق بين إقتصاديات الإنتاج وإقتصاديات الاستهلاك ، وتحقيق مطالب الدولة ورغبات الأفراد ، والتقريب بين « سياسة الصالح العام » ومطالب الناس و « تفضيلاتهم » ، مما يدفع إلى تحقيق تخطيط صناعى إستهلاكى ، يعتمد على قيام صناعات إستهلاكية ، كصناعة الجبن ، وتعليب اللحوم والخضر والفواكه ، الأمر الذى يخلق أيضاً الحاجة إلى صناعات وسيطة ، أو تحويلية قد تحتاجها صناعات أخرى متكاملة ونهائية .

د ـ ولقد أهملت دول العالم الثالث ، وكافة المجتمعات النامية ذلك الطور الحضارى والثقافى ، حين ظنت هذه الدول والمجتمعات وتوهمت أن عملية التنمية تقتصر فقط على الجوانب المادية والاقتصادية فحسب فمن الخطأ الجسيم أن نتصور مع الماركسيين أن الانسان لا تحكمه سوى المادة وحدها ، وأن الفلسفة والقانون والفن والأدب ؛ هى بنية فوقية Supra-structure ، لا تقوم لها قائمة ، إلا على

أساسٍ متين القواعد ولبنات مادية خرساء ، فكيف يكون الاصم الأجوف مبعثاً لنمونا الحضاري والفكري ؟ !

ولقد اتخذت معظم مشروعات التنمية الإقتصادية في مجتمعات الشرق الأوسط طبقاً لهذه النظرة المادية والكية في التنمية الاقتصادية ، دون الالتفات إلى ما هو أهم وأعظم ، وهو تنمية وتخطيط الجوانب الثقافية والحضارية وتنمية الخبرات السيكولوجية ، والذوقية والفنية ـ وكلها عناصر ضرورية في عمليات التنمية الاقتصادية ومشروعات التخطيط الصناعي .

هـ ـ وينبغي أن يأخذ المخطط الصناعي في إعتباره أيضاً ، تلك الأبعاد النفسية والاجتماعية ، حيث أن عمليات التنمية الاجتماعية ، هي الأخرى في مسيس الحاجة إلى تخطيط من نوع آخر ، يتفق مع التخطيط الصناعي للموضوع ، وذلك لمواجهة المشكلات والأفكار والظروف والمذاهب الاقتصادية والتيارات الأيديولوجية. الأمر الذي يفرض ضرورة التوفيق بين نمطي التخطيط الاجتماعي والتخطيط الصناعي في تكامل وتوازن ، مما يتطلب توافر الجهاز الفني والتنظيم الاداري الدقيق لدراسة ظواهر التكنولوجيا والتغير الاجتماعي Technology and Social change ، (1) عن طريق رصد مؤشرات التغير وأحواله وإتجاهاته وترقماته ، كما يحدد نماذجه وأشكاله وسرعاته سواء في تقدمه أو نكوصه .

وهناك فجوات ثقافية وتاريخية ، تعاني منها كل الدول النامية والمجتمعات التقليدية ، ينبغي الا تغيب عن أذهان فلاسفة وخبراء التخطيط الصناعي . وإذا ما حاولنا أن نحدد طبيعة هذه الفجوات ودورها ، لوجدنا أن الفجوة الأولى

(1) Williams, Michael, Human relations. Longmans. London 1967.

تاريخية وإقتصادية ، حيث كانت معظم المجتمعات التقليدية مغلوبة على أمرها، ومقهورة سياسياً ، وخاضعة لكل ألوان الاستعمار ومذاهبه. كما كانت وظيفة العالم النامي قبل أوائل الستينات ، هي تصدير المواد الخام، كالمعادن وكافة مصادر الثروة الطبيعية وإمداد الدول الغنية الكبرى ، بما يستخرج من باطن المناجم من ذخائر وثروات طبقات الأرض ، على أن تستورد المجتمعات المقهورة ، سلعا مصنعة من الدول الغنية . وبينما تبيع المواد الخام والموارد الطبيعية بأسعار زهيد تحددها الدول الكبرى المشترية ، فإنها تشترى فى نفس الوقت سلعا غالية الثمن ، كما وتفرض سائر الدول الصناعية الكبرى قيوداً على تجارة الدول النامية .

هذا وتمثل حاجة الدول النامية إلى القروض ورؤوس الأموال الضرورية لتمويل خطط التنمية ، فجوة أخرى تعمل على تعويق التنمية والتخطيط الصناعى . بالاضافة إلى وجود هوة متزايدة بين إمكانيات الدول الصناعية الكبرى ، ودول صغرى فقيرة ، وتزداد هذه الهوة وتتسع كلما إزداد تقدم التكنولوجيا الحديثة بتحسين الصناعة ، وتطوير التصنيع وتعديله بإدخال الجديد ، مما يزيد من حدة التعقيد التكنولوجى ، الأمر الذى يشكل فجوة ثالثة من الفجوات الثقافية التى ينبغى أن يعالجها ويخطط لها خبراء الصناعة ، وعلماء الإجتماع الثقافى .

التخطيط التربوى :

١ ـ التربية Education ، هى نظام إجتماعى له تنظيماته وميكانيزماته فى سائر المجتمعات والدول ، وله أيضاً وظائفه حين ننظر إلى التربية « كعملية نمو » ، ويواكب هذا النمو ما يدور أو يطرأ من « تغيرات » فى بنية المجتمعات ، وما تحققه من ظواهر نجمت عن « تطوير سريع » فى سائر الثقافات والدول التى نالت شوطاً من الحضارة والرقى والتقدم .

فالتربية عند فلاسفة التخطيط التربوى ، هى « تنمية النفوس والعقول » ،

حين تهدف إلى القيام بعملية التطبيع الإجتماعى Socialization ، وحين يكون لها دورها فى « نقل التراث الثقافى » بقيمه الإجتماعية ، وأبعاده التاريخية ، وأنساقه السياسية ، التى صدرت فى بنية المجتمع . بمعنى أن القيم قد ولدت فى جوف المجتمع ثم إنطلقت فى مسار حركة الزمان الإجتماعى .

ومن عملية التربية والتعليم ، يتلقى الإنسان الفرد دروسه الأولى فى آداب السلوك ، ويتلقى فى طفولته المبكرة والمتأخرة ، سائر القواعد والأنماط السلوكية فى خطوطها العامه ، كما يكتسب الطفل السمات الأولى للثقافة ، حين يتشرب مع « لبن أمه » الأساليب الكلامية والصور اللفظية الأوليـة ، حيث يحاكى مع نموه اللغوى المبكر ، نماذج معينة من الكلمات والعبارات والمدركات التى تعينه على معرفة العالم من حوله .

والمدرسة التى يرتادها الطفل ، هى « قطعة من الحياة » ، فنى مجتمع المدرسة يتكيف الطفل ويتطبع ، ويتفهم معنى القيم السلوكية الأولى ، حين يلقن « قواعد الضبط الاجتماعى » مع مبادىء الأخلاق والدين .

فالتربية هى عملية سوسيولوجية ، تهدف فى النهاية إلى « التطبع الاجتماعى » و « التكيف الثقافى » حين يتلقى الدارس ويلقن تربوياً « المفهومات الأولى لقيم المجتمع ، ومبادىء الدين ، وأنماط السلوك الخلقى . » وبفضل التربية الفنية ، وإستخدام الوسائل السمعية والبصرية ؛ يتعلم الطفل القواعد التى تحدد الخطوط الأولى لرسم القيم الفنية والجمالية ، وبفضل تربية « الدواجن » ومبادىء التربية الزراعية ، يتوصل الطفل شيئاً فشيئاً ، إلى معرفة وتربية ما له قيمة إقتصادية . وبالتالى يتابع الدارس التربوى بنفسه مفهومات مختلفة تدور فى ثقافته حول القيم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فإذا كانت القيمة الاقتصادية تدور حول « التبادل » بوجه غير المتوازن ، فإنها

القيمة الاجتماعية ، تتسم بالقبول الاجتماعى ، وتزداد وتنقص هذه القيمة الاجتماعية ، مع إزدياد أو نقصان درجة القبول الاجتماعى ، وبخاصة لما هو مرغوب فيه إجتماعيا . بينما تدور القيم الدينية حول « موضوعات » ذات قداسة تقام حولها طقوس وشعائر أو عبادات وصلوات . أما القيمة الفنية فدارها حول ما هو « جميل » وما هو « قبيح » ؛ مستحسن أو مستهجن ، فترقى القدرات الذوقية بالتنمية الفنية والجمالية .

وتقاس القيمه السياسية ، بمدى الاتصال الجماهيرى ، وبدرجة إستقطاب الناس وتجمعهم حول شخص « زعيم » ، أو تآلفهم حول « قادة » لهم أدوارهم الكبرى فى ميدان من ميادين الخدمة العامه .

ب ـ ويمكننا أن نتساءل بصدد التخطيط التربوى ، هل تترافق برامج التعليم وظروفه وإمكانياته ، مع مطالب التنمية الاقتصادية ؟ !

فى الرد على هذا التساؤل ، نقول إن برامج التعليم فى جمهورية مصر العربية ، مازالت معوقة لبرامج التنمية الاقتصادية والصناعية ، فهى برامج تعليمية قاصرة ، ولا تتلاءم مع حاجات النسق الاقتصادى ، فلقد إتسعت الهوة بين ما يدرسه الطالب فى المدرسه ، وبين « ما يتحقق بالفعل » فحدث التعارض ، بين ما يدور فى العقل ، وبين ما يراه فى الواقع المشخص، الذى نشاهده فى تيار حياتنا . فينبغى أن نملأ ذلك الفراغ القائم بين النظرية » و « التطبيق، حتى نمارس بالفعل ما نفكر فيه ، وتترجم ثقافتنا إلى سلوك . ومن هنا يقترب « ما هو فى العقل » إلى « ما هو فى الواقع » ، وتلك هى العملية التربوية الناجحة . فلقد لاحظت ولاحظ الناس جميعاً ، تلك الحركات الطلابية المتذمرة التى اجتاحت معظم جامعات أوربا ، فلقد تعالت الصيحات التى تردد صداها مدوياً رغبة فى تغيير المناهج » . فبرامج المدرسة لا تكفى ، ومقررات الجامعة ، لا تنهض بمكانات الطالب ، وإنما تعتمد

فقط على « إجهاد الذاكرة » ، وإستهلاك عقل الطالب فى عمليات الحفظ والتلقين وحقل المعلومات . فينبغى أن نتعلم كيف نفكر How to think ؟ ، دون أن نتشبث بما كنا نفكر فيه What to think ، فنخضع لعادات فكرية صارمة.

ويأخذ فلاسفة التخطيط التربوى، فى إعتبارهم أثناء وضع برامج ومشروعات لتنمية التربية ، أن مجتمعات العالم الثالث تتميز ببطء التنمية وسوء التغذية ، وأن خاصـــة التعلم لا تنفصل فى أهميتها عن مواكبة حاجات أخرى ضرورية للمجتمع فى ميادين الاقتصاد والسياسة . فنحن بالتخطيط التربوى الناجح السليم ، نستطيع أن نعالج المشكلات والأخطاء . حين يحقق أصحاب التخطيط « الطموح الاجتماعى » ، بخلق الأجيال على أسس رشيدة وسليمة ، وفى إطار عقلى متفتح ، حيث أن « التربية من أجل التغيير » « هى فى ذاتها عملية تنمية للمجتمع »

وتستند التربية كعملية ديمقراطية ومتحررة ، إلى الفهم والفاعلية وإحترام الذاتية ، القائم على الفكر الحر الخلاق، والمناقشة الواعية ، والأخذ بمناهج تربوية وعصرية ، حين نرفض تماما تلك الأنماط التقليدية الجامدة فى التربية القائمة على الحفظ أو التلقين الببغاوى ، والتحصيل الآلى غير الواعى ، مما يخلق صوراً استاتيكية واحدة لأشكال عقلية متشابهة . وأنماط فكرية متجانسة ، وشخصيات مكررة بنفسها ، أو نماذج بشرية خاوية ، و « زائغة العيون » تتدافع وتتواثر ، وقد فقدت الفاعلية والخلق والابتكار .

ـ حــتى التربية بالتلقين هى سرقة للذكاء ، وتعمية البصيرة ، ومصادرة على الفكر والحرية . وهناك تخطيط لعمليات التربية والتعلم ، بتغيير البرامج التقليدية حيث تتعالى الصيحات فى هــذه الأيام من أجل التربية المجددة Recurrent Education نسوجين خطوة إلى التعلم المستمر والتربية المتجددة والتخطيط الأفقى العمودى للتعلم ، وكلها عناصر أساسية وضرورية فى « عمليات التنمية والتربية »

والتطوير . كما وتهدف كلها إلى محو الأمية . وزيادة نسبة تعليم الكبار ، ورفع المستوى الثقافى والإجتماعى للفلاح والإنسان البدائى و « العامل الكادح » فى سائر المجتمعات التقليدية والمتخلفة . وبذلك تعمل التربية على تحقيق أغراض تعليمية وإقتصادية ، بإستخدام شعارات « الحرية وتكافؤ الفرص » التى صدرت مع عصر التنوير .

الحرية وشعارت عصر التنوير :

أ ـ لقد قيل إن البورجوازية الفرنسية ، قد عجلت بظهور عصر التنوير Enlightenment ؛ الذى هو « عصر العقل » والاستنارة ، حيث أثيرت فى هذا المناخ الفكرى الخصب ، أفكار الحرية ، كما نادوا بالديمقراطية ، وشجعوا طبقة العمال على الوقوف ضد تحالف الرجعية المتمثل فى سلطان الملوك والاقطاع الدينى.

ومع شيوع فكرة « التقدم Progress » وإنتشار مكتشفات العلم الوضعى ، وذيوع أفكار البورجوازيين وآمالهم فى النجاح والسيطرة على « المادة والصناعة والاقتصاد » . فقد ساعدت فلسفة التنوير على ظهور وبلورة الأفكار التقدمية التى تتناقض مع الارستقراطية والنبالة ، والتى تهدم فى نفس الوقت تصورات رجعية، صدرت فى العصور الوسطى ، منذ سادت فيها قلاع الإقطاع وهذا هو برنامج التحرير والاستنارة على مافعل إثنان من كبار فلاسفة وكتاب فرنسا المشاهير من أمثال « فولتير » Voltaire و « جان جاك روسو Rousseau » ـ حين أعلن بداية عصر الايمان بالعقل والحرية، والتأكيد على إحترام حقوق الانسان ، الأمر الذى جعله ينتقد الكنيسة ، إنتقاداً لاذعا ، كما سخر من الاقطاع ، وأعد الفكر الجماهيرى إعداداً أيديولوجيا ، للانتمات إلى ما يتفشى فى ربوع فرنسا من أمراض إجتماعية ، كما نبه الأذهان نحو التعجيل بقيام الثورة الفرنسية .

أما « جان جاك روسو » فقد نظروا إلى كتابه الأشهر عن « العقد الاجتماعى »

على أنه « إنجيل الثورة » ، حيث هاجم طغيان ملكية الفرد ، واستبداد الاقطاع واعتبر « الملكية هى أصل الشرور » ، ونادت فلسفة التنوير بالأخاء والعدالة والمساواة .

ب ـ ولقد صدرت « الحرية Freedom » مع مبادىء القرن الثامن عشر وهى الحرية التى صدرت أصلا عن « عصر الاستنارة » الذى تبلور مع ظهور حركة الفيزيوقراط physiocrate ، وتعاليمها التى تبارك التنافس الحر ، والتى تؤكد النظرة الطبيعية إلى الأشياء ، والتى تقلل من سيطرة المجتمع ، تطبيقاً المبدأ الاقتصادى القائل دعه يعمل ، دعه يمر Laissez faire laissez Passer (1) .

ومن هذه النزعة الاقتصادية ، قلت حدة الصراع بين الفرد والمجتمع وهناك صيحة أخرى « مضادة للمجتمع anti-Society » . أعلنهـــا « جان جاك روسو Rousseau » ، حين أثار هذا الفيلسوف الكثير من القضايا التى تؤكد « العودة إلى الطبيعة Back to nature » ، على اعتبار أن المجتمع ، هو مصدر الشرور والآثام ، والرذائل والافســاد ، ومبعث الانحلال : إذ أن كل شىء جميل مادام من صنع الخالق ، وكل شىء يلحقه الدمار إذا مامسته يد الانسان

Everything is good as it comes from the hands of the Author of nature, everything degenerates in the bands of Man,

تلك هى الكلمات المشهورة التى افتتح بهـــا « روسو » كتابه الخـــالد « إميل Emilé » ، حيث هتك روسو فى هذا الـــكتاب حجاب المجتمع ، وسخر من تقاليده التى هى مبعث القلق وأصل الضجر . فهاجم روسو النظم الاجتماعية المنيقة ، إذ أن روسو لايؤمن أصلا بالمجتمع أو بمعاييره ، فــكانت فلسفته

1 – Wolf, Kurt, The Soci o'ogy of Georg Simmel. 1954 ٣٥4.

التربوية «مضادة للمجتمع» فلقد خلق الانسان طاهرا وبريئا، ثم تدنس بخطايا المجتمع، وهـــذا هو السبب الذى من أجله نادى روســـو «بالعودة إلى الطبيعة» .. حيث الجو الحرية، والطهر والنقاء ... وحيث يستطيع «إميل» أن يحقق إنسانيته، وأن يؤكد ذاتيته، حين يتربى فى أحضان الطبيعة.

وفى ميدان التربية Pédagogie «يصيح روسو، معلنا سخريته اللاذعة وتهكمه على سائر المربين» فيقول: «سيروا ضد ما أنتم عليه تصلوا إلى النجاح» و«ابعدوا الكتب عن الأطفال فهيا لعنة الطفولة» كما يقول روسو فى هذا الصدد: «نحن لانعلم شيئا عن الطفولة، وكلما سرنا فى تربية الأطفــال، ونحن على جهل بطبيعة الطفل، كلما إزددنا تورطاً فى الأمر، وبعداً عن الصواب.

ج - ومن هنا كان روسو هو فيلسوف التربية الذى يؤكد العودة إلى الطبيعة ويعلن صيحة الحرب على المجتمع. كما يكشف عن تذمره وسخطه، ويسجل لنا منهجا تربويا. يدخل فى صلب فلسفة أو دراسة «البيداجوجيا» على اعتبار أنه يعبر عن لون كلاسيكى، من ألوان التربية، وفن خاص من فنون التعليم.

ولذلك كان روسو هو رسول الحرية وفيلسوف التربية فى العصر الحديث، وكان كتابه «انجيلا الثورة» كما ولقد حققت ثوره فرنسا كل تعاليم روسو فى التربية، حيث يقول: «خلق الإنسان حرا، وهو مستعبد فى كل مكان» وكانت هذه الكلمات هى مطلع النور ومبعث الحــرية، حيث انسحبت فلول الظلمة التى ترنحت مع تراجع أو إنحسار تصورات العصور الوسطى، ثم تنفس الصباح، وسطعت شمس الحرية، وتقهقرت حلكة الليل البهيم.

الحرية والادارة المدرسية:

ا - يمكننا أن نتساءل: كيف نربى الطفل؟ وإلى أى حد يمكننا التوفيق بين التربية كنظام Order إجتماعى مفروض، وبين التربية كمنهج Method يعتمد على

الحرية؟ حرية الفكر والخلق والابداع ، وهل يمكن أن تنتصر الفردية على خلق وتكوين الانسان ، الناجح اجتماعيا ؟ أم قد تتدخل الفردية كنسق System من أنساق الثقافة ، حتى تملأ تلك الثغرة القائمة بين الانسان ونفسه ، حيث أنه على الرغم من نجاح الانسان فانه بابتعاده عن نفسه ،قد يشعر بالاغتراب والاضطراب، نظراً لما ، قد يؤرقه شعوريا ، من مشكلات قد تعوقه ؟!

وفى الواقع قد يكون النجاح هدفا إجتماعيا واقتصاديا، يسعى إليه الإنسان ويكابد ولكن هذا النجاح الصعوى، الذى قد يبلغه الإنسان نحو الصفوة، حين يلمع اجتماعياً واقتصاديا ، قد يحدث فجوة بين الناجح، ونفسه ، فهو أثناء كفاحه واستغراقه، فى نجاحه الاجتماعى والمادى ، قد يبتعد عن نفسه ومشكلاته الذاتية ، التى تعوق حياته الخاصة ، حين تبقى بلا حل .

والنجاح متصل بقيم وأهداف اجتماعية ، ولكننا نطالب أيضا بالرضا وتحقيق الأمن الذاتى والسكينة ، لضرورات سيكولوجية تؤكد التوازن، حيث يتحقق بالرضى Satisfaction والأمن والطمأنينة ، ذلك التوازن الديناميكى القائم على التوفيق بين قوى نفسية متصارعة ، بين الواقع والوهم ، بين الشهوة والجموح ، والاثم والطموح .

فإذا كان النجاح أمر مادى ، فالرضى أمر معنوى ، وإذا حقق النجاح هدفا اجتماعيا ، فان الرضى والسكينة والشعور بالامن والأمان والسعادة ، هى أمور تحقق مطالب نفسية ، كما وتشبع السكينة ، غايات أو أهداف ذاتية ، نوطينا أن نعرف كيف نقرب بين الماديات ، والمعنويات ، بين المجتمع و الصحة النفسية ، فقد يبلغ الإنسان ما يريده ، ويحقق ما يسعى ، ويكابد نحو تحقيقها ، إلا أن هذا الإنسان المكافح ، هو فى نجاحه وسعيه وكفاحه، وأثناء طموحه ، وتحقيق آماله ورغائبه ، إنما يواجه عوالم تعوقه ، وعناصر سيكولوجية أخرى

تبعده عن نفسه ، فيشعر بالاغتراب ، وهو المقيم بين أهله وعشيرته . حيث أن إحلال النجاح كحالة فجائية ، إنما يتطلب إحـلال حالة من التوازن حين تنزل علينا السكينة فتحقق لنا فورا « حالة الرضا عن النفس»وهنا تكن سعادة الانسان الحقة ؛ التى ينبغى أن تهدف إليها كل عملية تربوية ناجحة ؛ حين تعمل « التربيـة بالرضى » ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا ؛ على تحقيق سعادة الإنسان؛ حين يحدث التوازن بين « الواقع » و« المثال » وحين يتم ملأ الثغرة بين « الانسان ونفسه » فيتحقق النجاح والرضا ، حيث أن هـدف التربية النهائى هـو تحقيق الذاتيـة الراضية ، Self–Realization حين تكنسح المخاوف الكامنة فى أغوار نفوسنـا . فتصبح شخصية كل فرد منا « راضية مرضية » آمنة من الخوف ومن المجهول .

ب — ويقول برتراندرسـل Betrand Russel « إن الخوف هو الداء Fear is the enemy » فلا يمكن أن نعد الأطفال لمواجهة عالم مجهول، وكل ماهو مجهول هو مخوف ومحفوف بالمخاطر ، وتحدث الطمأنينة « بالتكيف » ، كما وتنزل السكينة ، ويتحقق الرضى ، كلما ازدادت ساحة أو مجال المعلوم ، وضاق نطاق المجهول ، الأمر الذى معه يتفتح الذهن ، وتنقشع القـدرات العقلية ، وتنكشف الطاقات الكامنة . وتقوم التربية الحقة ، على الحركة الايجابية ،والفاعلية والديناميكية ، فى التربية ، إنبساط لا إنقباض ؛ سيادة لا استعباد ، قوة لاذلة تطور لاجمود قبول لا تزمت .وهذه هى الأسس الحقيقية التربية للتحررية والادارة التربوية المعاصرة .

ولكن الحرية ليست هى الدعامة الوحيدة للتربية ، فهناك «النظـام» «Order» و«السلطة» و«الضبط» وتمـارسها جميعها « إدارة المدرسة » . وهنـــا ينبغى أن نؤكد أن التربية الضاغطة الـكابتة ، ؛ فيها لعنة الانسانية ، فبالحرية تتطور الجماعات ، وبالتربية الديناميكية الحقة تتقدم الثقافات ، « فالتربية هى أمل العالم

الوحيد ، على حد تعبير الرئيس الأمريكى « إيزنهاور » .

وفيما يتعلق بنظـــام الإدارة فى التربية ، تقول « مارى فوليت Follet » « يجب ألا نتعلم أين بضع السلطة ، بل كيف تمارس تلك السلطة ؟ ! » وفى هذا المعنى نفسه ، يقول المشرع الانجليزى « آكتون Acton » إن السلطة مفسدة والسلطة المطلقة تفسد إطلاقا Power corrupts, absolute Power corrupts absolutely .

ويتضح لنا من تلك الكلمات التى تحمل الكثير من المعانى ، التى تؤكد على « ديموقراطية الإدارة » ، فلا شك أن التربية اللامركزية الحرة، إنما تخلق شخصية نامية متطورة ، متحررة رافعة الرأس . والانسانية زاخرة بنماذج لقيادات ناهضة وناجحة لأنها صنعت التاريخ . فينبغى أن ينظر الشباب إلى هؤلاء القادة والزعماء والعلماء ، وكبار الأدباء والكتاب ، الذين خلقوا لنا تراثا ثقافيا ، ونشروا المبادىء والتعاليم التى تجعل « حق الحرية مساوياً تماماً لحق الحياة » .

حـ — فلقد نهض « جاليليو » ورفع رأسه أمام طغيان الكنيسة ، وأثبت أن الارض تدور رغم أنف الكهنة ، ومارتن لوثر Luther ، إنفصل بكنيسته عن البابا ، وصرخ فى وجه الكنيسة ، وأنكر استاتيكية الكاثوليك ، وحمل على صكوك الغفران ، وأنكر قشرة الطقوس . فالدين موقف صوفى خالص ، بين العبد وربه ، دون هيابه من شعائر جماعية ، وطقوس مرسومة . حيث ينظر العبد إلى الله سبحانه وتعالى وحده ، كموضوع محبة objet d'amour تناجيه سبحانه ، دون غفلة أو حجاب ، وبدافع من التجرد الخالص والحب العميم (١) .

ولقد تحرر « إبسن Ibsin » فأخرج الناس من الجمود وكرم المرأة برواياته

(1) Le Senne, René, Traité de Morale Générale, press-univers Paris 1949 p 312.

ومسرحياته، وقصد قصداً تحريرياً هائلا بروايته « بيت الدمية Doll's House » .
ومن هنا حرر المسرح والأدب النرويجى المرأة، بانتزاعها من الأنوثة إلى الانسانية .
ولقد صاح « برناردشو » صيحة حرة قوية، وهتك عرض الاستعمار ساخراً. وهناك
الكثير من حملة المشاعل الذين « أيقظوا أممهم من رقدة العدم » وهم نماذج بشرية
و « قادة كاريزمية Charismatic leaders » بالمعنى الذى قصده « ماكس فبر »
وتعمل كلها على تحقيق الخيرات وتربية الأمم وتوجيه العالم(١) . وهم حصيلة
تربية حرة وخلاقة. وعلينا أن نؤمن بالحرية وأن تخلق الأحرار، وأن نحرر العقول
المستغلقة .

فالحرية ضرورة حتمتها نتائج علم النفس ، وفقه التاريخ ، وفلسفة البحث
العلمى ، ففيها تأكيد للذاتية ، وفيها ما يدعم نمو الناس ذكائيا واجتماعيا واقتصاديا
فلنرفض كل « تربية أوتوقراطية مريضة » ، ولنرفض كل ديكتاتورية مستبدة
ومستغلة ، تؤدى إلى الشعور بالهوان ، عن طريق « الإدارة المدرسية »
اللا إنسانية ، وأساليبها الضاغطة الكابتة ، التى تؤدى الى « مرض التوهين » .

فليس أضل ضلالا ، ولا أسفه سفاهة ، من أوتوقراطية معوقة للنمو ، ومن
كفاية خانقة قابضة ، مهما كان حظها من القدرة والادارة والسلطة . لأنها ادارة
تعاق نمو الجماعة ، بل وتحيل الجماعة الانسانية العضوية Organic ، الى جماعة
« لا إنسانية » عددية aggregate. كما يقول آكتون Acton المشرع الانجليزى التربوى.

د — وعلى كل ادارة مدرسية ، أن تتفهم الحرية الضابطة أو الضبط الحر ــ
والتعاون المشاع ، وفى هذا التعاون « ضبط ذاتى مثالى خالص » ، لأن الجماعة

(1) Weber, Max. The Theory of social and Economic Organization, Glencoe 1967 p. 358.

هى التى تخلق الضبط التعاونى ، كما أن الجماعة هى مصدر القانون والحكم الذاتى .
والحرية هى التى تخلق النظام ، فلسنا عبيداً لنظام . ولكن الحرية تجعل منا دائماً « سادة لنظام » وعلينا ألا نفكر فى أبدية وضع السلطة ، بل ينبغى فقط أن نفكر فى كيفية « ممارسة السلطة » . لأننا إذا ما وضعنا السلطة فى مكان ما ، فلا بد وأن يكون هناك « خاضع » و « مضغوط » فيتولد عن ذلك « الخوف » ويستشرى « النفاق » .
والنفاق سرقة للذكاء ، لأنه يعطل النمو ويعتاق القيادة ، ويقضى على « كوادر الادارة » ، ويهبط بالإنتاج ، كما ويقتل « النفاق الجماعى » سائر الملكات والقدرات .

ففى الحرية ينفسح المجال للتربية ، بالادارة الرشيدة والحقة ، وفى مناخ ديموقراطى صحى يتحدد « دستور الشخصية » فى الطفولة المبكرة ، وخاصة قبل أن « يتحجر أسلوب الحياة » وتتجسد أنماط السلوك ، فالطفولة هى الأرض الطيبة والخصبة التى تنبت فيها وتثمر « بذور الصحة النفسية » وينبغى أن نبعد عنها تماما « جرثومة المرض » ، تلك التى تخلق لنا الشخصية « غير السوية » .

التربية والمدرسة والطفل ؟

ا ــ يقول « جون ديوى John Dewey » شيخ المربين الأمريكان :

We must teach the child how to think, not what to think

« ينبغى أن نعلم الأطفال ، كيف يفكرون ، وليس مايفكرون فيه » .

وهذا قول حق ، فلا شك أن كيفية التفكير ومداه ، وطـرقه وأدواته ومناهجه ، هى أمور ضرورية ، بل وأكثر عمقاً ورحابة من « مادة الفكر وفحواه » .

وفى نفس هذا المعنى يقول « ألفرد نورث هوايتد Whitehead » يجب أن نعلم الطفل الكيف لا الشىء ، الطريقة لا النتاج ، السبيل والمنهج لا المعتقدات .

والنتائج .

We must teach the child, the how not the what, the process not the Product, the methcd of attack and enquiry not belief and Concl-sions.

ويتضح لنا من هذا الاتجاه ، أن هناك ضرورة تربوية تفرض على المربين « تنمية وترشيد مناهج الفكر » فى المدرسة ، حتى تترقى المدارك ، وتنمو قدرات الأطفال ، كلما اتسع نطاق المنهج ومداه ، فلا ينبغى أن تقتصر على مجرد حفظ المادة وتلقينها ، فعلينا أن نحترم «المنهج والكيف والطريقة » ، وهذا ما تؤكده سائر الإتجاهات المعاصرة فى التربية وطرق التعليم . « وليكن الطفل هو نقطة البداية وهو المحور وهو الغاية من عملية التربية وهذا مايقوله « جون ديوى » فى كتابه : Education to day حين يعبر بكلماته «Let the Child be the starting o'nt the centre, the end of any education».

فالمدرسة إعداد للحياة ، والتربية هى الحياة نفسها ، وعلى المدرسة أن تقدم الطفل كل مايتصل بشرائح الحياة ، كحقائق مبسطة وحية وخصبة .فنخلق التربية فى الطفل ذاتيته وفرديته الأصيلة . فعلينا معشر المربين أن نحقق ذاتية الأطفال، بتربية رشيدة وهادفة ، وبطريقة ديناميكية وخلاقة .

ب ـ والتربية أمر نسبى بحت ، يختلف باختلاف الباحثين والعلماء ، فهناك تربية دينية وأخرى فنية ، وثالثة علمية ، ورابعة ثقافية . ولذلك تعددت مداخل التربية مع تعدد المربين « من معلمين ورجال دين ، وبيولوجين وسيكولوجيين ، وفلاسفة واجتماعيين . فيعرفها البيولوجى بأنها « تكيف وملائمة » ، بينما يراها السيكولوجى على «أنها طرق التعلم عنوان » : كما يعتقد الفيلسوف أن المدرسة « هيئة اجتماعية تتجه وجهة فلسفية خاصة » ، وفى هذا الصدد يقول فخته Fichte

الشعب الألمانى Adrerse te the German people » إن فن التربية لن يصل إلى درجة الوضوح المطلق دون مساعدة من الفلسفة ، فالفلسفة موجه أساسى وجوهرى من موجهات التخطيط فى ميدان التربية والتعليم .

وقد يرى طالب « علم الاجتماع التربوى Educationel Sociology » أن كل هذه الوظائف البيولوجية والسيكولوجية والفلسفية ، قد تدخل فى صلب عملية التربية . وهذه هى نسبية التربية من خلال منظورات مختلفة ، كل يعرفها وفقاً لون الثقافة والفهم وطبيعة الإدراك والتخصص . ولكن التربية عندى هى «عدسة لامة » لكل مايدور فى بنية المجتمع والتراث والثقافة ، وهى عدسة لاقطة لكل القيم ، السائدة والاتجاهات الشائعة . كما حلت التربية ووسعت وعمقت الكثير من المفاهيم والمعانى ، بل وغيرت وطورت الكثير من القيم والتقاليد البالية .

فالتربية عملية « هادفة وتطورية وخلاقة » فهى تهدف إلى خلق ونمو الفرد المتحرر فى عالم سريع التغير ، كما أنها تخلق فى الإنسان فرديته ، وتنمى ذاتيته الأصيلة ، بالحفاظ على كل سمات شخصيته « الفريدة Unique » دون أن نفسدها بالتدخل ، أو تشكلها حسبما نريد ، حين نصبها الدولة فى القالب الذى تشتهيه . ولكن يجب أن تعمل « هندسة التخطيط الإنسانى » فى التربية والتعليم ، على خلق الشخصية المنسجمة مع نفسها ، بحيث يصبح الانسان كائناً منتجاً متحرراً ، ديناميكياً يسعى نحو الجديد والتجديد ، سعيداً قانعاً وراضياً Satisfied . وذلك حين نرفض التقاليد الآبقة ، والنظم الآسنة العتيقة ، وبذلك يتحرر المجتمع بالتربية السليمة ، من قيود الماضى وقوالب الثقافة ، وغبار التقاليد العتيقة ، التى لاتتفق وروح العصر الجديد .

– وفيما يتعلق بتربية الطفل بالذات ، ينبغى أن تكون قائمة على التفكير وتشجيع التأمل « والابتكار ، والقدرة على التكيف مع المواقف الجديدة ، حين

يقع الطفل في مشكلات بسيطة ، وحين يطالب بحلها باستخدام الذكاء والتفكير والتدبير . فيجب أن تقوم التربية ، على تنمية قدرات التفكير ، وتطوير الذكاء ، وتهذيب التصورات ، عن طريق الرعاية الفكرية والثقافية فالتفكير هو أعظم ملكة ، وأعظم عملية ، ويقوم بأهم الوظائف . حيث أن الفكر هو الشعاع الخلاق ، الذى يكون معنا على الدوام . فى كل موقف ووراء كل سلوك . وعلى المربين أن يخططوا لفكر الطفل وثقافته ، حتى ينضج عقله ، وتزداد معارفه ، حيث يقول « بوانكاريه po ncare » . إن وقائع الطبيعة لاتجدى شيئاً ، كما وتبقى غير مثمرة ، إذا لم تجد العقل الذى يفضها والفهم الذى يفسرها ويسبر غورها (١) .

ويتغير معدل الذكاء مع اتساع حجم الخبرة ، فيحدث التعلم والتكيف ، حتى يصبح العالم من حولنا طبيعياً ومألوفاً ، مقبولا لعقولنا وأفهامنا ، بازدياد مجال المعلوم ، واضمحلال ساحة المجهول وضيقها ، كلما اتيحت للذكاء فرصته للتكيف والتعلم وازدياد الخبرة .

وللتعليم وظيفته السيكولوجية لتحقيق التلاؤم بين الإنسان وبيئته ، ولإزالة عدم التوازن Imbalance الناجم عن القلق والتوتر ، وكلها ظواهر سيكوسيولوجية صدرت عن عدم التكيف Maladjustment حيث يحقق التكيف الناجم عن الخبرة والعلم والصواب حالة من التوازن equilibrium (٢) .

ولا شك أن الفرصة المتاحة للصغير ، هى أهم كثير مما يجب أن نفسحه ونتيحة للكبير حيث تقل الحاجة إلى الرعاية النفسية والتعليمية ، بازدياد سنوات

(1) Poincarè Henri. Science et Méthode, Flammarion, Paris 1927 pp. 22-23

(2) Lundberg George, Foundations of Sociology, New, Ykro Macmillan 1956 pp. 207-234

العمر ، وهذا هو سر الاهتمام البالغ « بمدارس رياض الأطفال » ، حيث يتسع المجال الاجتماعي وينبسط ، وينكشف الذكاء وتنبثق الميول ، وتتفتح القدرات الكامنة ، وبخاصة فى تلك السنوات المبكرة بالذات ، حيث يزداد بعدها الذكاء إتساعا ، مع إتساع وعمق الخبرة التى تزداد على مر الأيام .

وهذه كلمة موجهة إلى السادة المخططين فى ميدان التربية والتعليم ، فللطفل « حقوقه و طالبه » ، التى ينبغى أن تكفلها له أسرته ومدرسته ، عن طريق الرعاية والحنان ، والتوجيه والضبط ، مع الحرص والحذر ، خوفا على « ثقافة الطفل » المبكرة ، التى ينبغى أن تنمو باستخدام الأجهزة والوسائل التكنولوجية السمعية والبصرية ، حتى تصبح «ثقافة رشيدة وصحية وخصبة» . وعلى كل المربين أن يحققوا هذا الرجاء ، حتى نراه « كحقيقة واقعة بعد تخطيط تربوى » منظم وهادف .

* * *

د ــ وجملة القول ، فان « خبراء التربية وقادة الفكر والثقافة » حين يخططون من أجل الأجيال القادمة ، إنما يحققون أهدافا حضارية ، تغير من طرق التعليم القديمة ، ولا نستورد طرقاً فرنسية أو إيطالية ، لاتتوافق مع مصريتنا وظروفنا كما لايقتنع بها أيضاً « المعلم » و«الموجه» وناظر المدرسة ، وكل من يقوم« بتطبيق المناهج» من أجل تحقيق أهداف الخطة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لقد واجهت طريقة « الرياضيات الحديثة » الكثير من الصعوبات ، وصادفتها المتاعب ، فلم يقتنع بها المدرس المصرى ، بل ولقد تراجعت عنها الكثير من الدول المتقدمة حضارياً كالسويد والولايات المتحدة . ولذلك يجب أن يضع المخطط التربوى المصرى خطة تعليمية نابعة من واقع مجتمعه وقيمه الأصيلة . وهذا ما أعلنه وزير التعليم فى جمهورية مصر

العربية فى مؤتمر عقدته لجنة التعليم المنبثقة من « الحزب الوطنى الديموقراطى » وحضره رجال الجامعة والمؤسسات العلمية والتربوية ، وذلك لمناقشة خطة تطوير التعليم(١) .

هذا عن التخطيط فى ميدان التربية ، وهناك ميادين أخرى للتخطيط الاقتصادى والسياسى ، بالاضافة إلى ميدان تخطيط آخر لتنمية البيئة ، حيث يجب أن يلتفت « المخطط الاقتصادى » ، ويتنبه إلى تعدد الحاجات والمشكلات ، حتى يحدث التكامل المطلوب فى تنمية سائر نواحى الحياة بتنسيق الجهود المشتركة « من أجل المتابعة الشمولية والمساهمة المتكاملة ، مع الاشراف الفعلى على كافه المرافق والخدمات .

وفى ميدان « التخطيط السياسى » ، يمكن تنمية التنظيمات السياسية ، تطوير مفهوم « السلطة » ، وتغيير نظم الاشراف ، وخلق الأدوار والمراكز الجديدة فى التنظيمات والانساق السياسية ، مع ادخال صور متطورة للرقابة ، وتجديد الاشكال البدائية والقبلية فى نظم « الضبط الاجتماعى » بتطوير الأنساق التقليدية والقواعد المنظمة للعرف والمعايير ، مع تغيير « بناء القوة » فى المجتمع ، والاتجاه نحو قيم وتنظيمات سياسية جديدة ، تضىء لنا جوانب أخرى لمفهومات جديدة فى « العدل السياسى » و « العدل الاجتماعى » و « الحكم المحلى » ، بتعديل الانماط السياسية القديمة ، التى كانت تدور حول مفهومات « السلطة » و « الحكم » و « الصالح العام » ، وذلك بتدعيم « الرقابة الشعبية » ، لأن الشعوب والأمم والمجتمعات ، وهى صاحبة المصلحة الحقيقية ، ومصدر السلطة ، ولذلك نشأت فى جمهوريتنا المصرية « أشكالا جديدة من التنظيمات الشعبية » تفرض الرقابة وممارسة السلطة ، مثل « مجالس القرى والمدن والأقاليم والمحافظات » ، بحيث تتوظف فى كل هذه المجالس « لجان خاصة » بقطاعات الزراعة والصناعة والخدمات

---

(١) جريدة الأهرام رقم ٣٣٨٠٢ ، الصادر فى يوم ١٣ - ٢ - ١٩٧٩

أما فيما يتعلق بتخطيط تنمية البيئة Ecodevelopment ، فيكون ذلك بالتركيز على تطوير أنماط الحياة . وتيسير الطرق ورصفها ، وشق الترع وإقامة الجسور . وحفر المصارف فى المناطق الزراعية وذلك من أجل « تنمية البيئة القروية » . أما بالنسبة لتنمية المدن والبيئات الحضرية ، فينبغى إعداد وتهيئة البيئة حضارياً من أجل إدخال مشروعات إقتصادية أو صناعية، وذلك بتطوير وسائل النقل وللمواصلات السلكية واللاسلكية ، وبناء الأنفاق والكبارى والمطارات ومد الخطوط الحديدية .

وختاما ، من أجل التعجيل بالتنمية ، والاسراع بتنفيذ خطط التطوير الاقتصادى يجب « أن يكون التخطيط مرناً » ، ومعتمدا على أرضية تجريبية صلبة من البحوث العلمية والدراسات الحقلية ، والمسوح الدورية للواقع الاجتماعى والاقتصادى ، حتى تتوافق عملية التخطيط مع طبيعة مشكلات المجتمع ، محل التخطيط » .

هـ ـ وإذا ماتساءلنا عن مختلف الأسباب والدوافع التى تساعد خبراء التخطيط والتى تعجل بالتنمية ، وكيف تتضافر هذه الدوافع فى استراتيجيات التخطيط الاقتصادى والاجتماعى ؟!

نقول فى الرد على هذا التساؤل ، إن القبائل والقرى والمناطق البدائية ، هى مجتمعات تقليدية متخلفة ، ومن خصائصها ، وجود ظواهر الاستاتيكية والثبات والولاء والعصبية ، فى مجتمع يقوم فى علاقاته على المركز Status ، كما تتشابه فيه أنماط السلوك الاقتصادى ، وتقل بل وتنعدم فيه حوافز زيادة الانتاج والادخار والاستثمار .

إلا أن تطوير هذه المجتمعات التقليدية الثابتة ، وتحويلها إلى مجتمعات ديناميكية dynamic متمدينة Civilzed ومتعلمة ، وتقوم العلاقات فيها على

العقد Contract كما يظهر الطموح ambit.on والولاء للمجتمع ككل(١) .

وتنحصر معظم « دوافع التطور الحضارى » فى وجود أسباب خارجية ، مثل الاعلام وأثره فى تسهيل إتصال المجتمع التقليدى بمجتمعات أخرى متقدمة . وقيام «حكومات مركزية قوية » تدفع عجلة التطور الاقتصادى ، وتساعد على هدم القديم ، وانهيار القيم التقليدية . كما يؤدى انتشار مبادىء العدالة والمساواة ونظم الاصلاح الزراعى فى معظم الدول النامية إلى تغيير علاقة الفلاح بالأرض .

أما عن الأسباب الداخلية التى تعمل على نجاح التخطيط فهى « سيكولوجية وسوسيولوجية »من جهة، كما أنها « بيئية وايكولوجية » من جهة أخرى، فلاشك أن الصراعات الداخلية والتغيرات الثورية ، إنما تؤدى بالضرورة إلى إحلال القانون محل العرف ، والتقليل من هيبة ماله قيمة ، أو ماقد « تحاط به هالة من قداسة » ، حتى لاتتسلط على عقول الناس «عادات فكرية جامدة» . أما عن السبب الايكولوجى فيتصل بتنمية البيئة ecodevelopment مثل تعبيد الطرق وبناء الكبارى ، وتوسيع المبانى ، وتشييد المدن ،وربط المدن بالقرى ، مع الاكثار من الاسواق حتى يزداد حجم ومعدلات التبادل التجارى والرواج الاقتصادى ، وهذا هو الهدف الحقيقى من « كل استراتيجيات التنمية والتخطيط » .

---

(١) دكتورة جيهان أحمد رشتى - نظم الاتصال ، والاعلام فى الدول النامية دار الفكر العربى ـ الطبعة الأولى ١٩٧٢

الفصل الرابع عشر

التنمية الإدارية وثورة التخطيط

• نموذج من التحديث السياسي

- تمهيد
- التخطيط والتنمية
- الثورة الإدارية ومعوقات التنظيم
- الإدارة كنسق اجتماعي
- ترشيد الانفاق

تمهيـــد :

لقد كان النظام الادارى القديم ، هو نظـــام « البصمة والتخمين Rule of Thumb Method » ويقوم النظـام الثورى الحديث على الأسـلوب الموضوعى والمنهج الوضعى ، فتصبح الادارة علية ، مما يؤدى قطعـا إلى ضرورة إحداث ثورة فى الفكر الادارى ، وتغيير جوهرى فى أنماط الفكر الإدارى القديم ، نحو الفهم والوضوح والحقيقة ، مع السرعة وتحطيم النمطية ، وإحلال المرونة والتفاعل فكانت « الادارة العلمية » المعاصرة بمثـابة « الثورة المكرية » التى نجمت عن « الثورة الصناعية » . الأولى تنظيمية وإدارية ، والثانية إبتكارية وفنية ، فكانت المزاوجة بين فن الادارة والتنظيم ، والقـدرة عـلى خلق صناعات ذات إنتـاجية عالية وباستخدام تكنولوجيا متقدمة .

فلسفات التخطيط وبرامج التنمية :

تعمل برامج وفلسفات التخطيط فى الدول النامية ، على تطوير التخلف ، وتحديث التنمية ، وتغيير « الأمر الواقع » . وهناك شرط ضرورى وجوهرى يتعلق بعملية التنمية . وهذا الشرط يفرض علينا « تنمية التحديث Modernization لا « تنمية التخلف development of underdevelopment » وتعنى الأولى تهيئة الظروف وإتاحة الفرصة لاستحداث وخلق فرص التنمية . أما الثانية فهى محاولة استعمارية لبقاء التأخر واستمرار التخلف بخلق الظـروف التى تسـاعد عـلى بطء التغير ، وتشجيع دوام ثقافة الفقر والتخلف(١) .

وفى تنمية التحديث . نجد الرغبة الملحة فى استخدام التكنولوجيا والتـدريب على أفضل تكنولوجيا ممكنة . بحيث تتناسب مع ثقافة المجتمع محـــل الدراسة

(1) Myrdal, Gunner., An International Economy. New York, Harper and Brothers. 1956,

والتطوير . وفى تنمية التخلف ، تتعثر خطى المشروعات ، لعدم احترام « التخطيط العلمى » ، باستيراد ما لا يتفق ونمط الثقافة ، واستخدام الأدوات الباهظة التكاليف ، مع التخلف الواضح فى البناء الثقافى ، و « ضياع المال العام » بشراء ما لا يلزم من أدوات ، وما لا يتفق من تكنولوجيا ، والدخول فى مشروعات غير مبرمجة ، واستخدام البرامج غير المخططة ، والأدوات غير المناسبة .

نماذج من السياسات الاقتصادية المخططة :

وتتبنى الدول النامية ، سياسات اقتصادية مختلفة ، ذات منظورات ونماذج متعددة ، طبقاً لظروف كل دولة نامية ، فمنها من يطبق أساليب الاقتصاديات الاشتراكية ، ومنها من يعمل بمبدأ حرية العرض والطلب ، ومنها من يزاوج بينها فيحتل منزلة من المنزلتين . وتدخل كل هذه النماذج والمنظورات الاقتصادية تحت مظلة واحدة ، يستظل بها انسان العالم الثالث حيث تهدف جميعا نحو تحقيق حلم التنمية والتعجيل بتطويرها ، وهذا هو هدف « التخطيط الاقتصادى الرشيد » .

ولقد تأثر مفهوم التخطيط ، بكل ظواهر التقدم الحضادى للانسان ، وتطور هذا المفهوم منذ كان مخلوقاً بدائياً ، يعتمد فى معيشته أساساً على صيد الحيوان ، بذكائه وفطنته ، دون مخالب أو أنياب ، فاصطاد الانسان الأول فريسته بمختلف أساليب القنص ، ولا يمكن أن ينجح فى صيده ، إلا باستخدام « طريقة » وتخطيط « كيفية » ، واحتراف أسلوب مخطط لعمليات الصيد والقنص .

ولقد أصبح الانسان « كائنا مخططا » ، منذ بدأ يستقر فى « مجتمع القرية » بعد اكتشافه الزراعة ، واستقراره فى تجمعات قروية ، زراعية كانت أم تجارية لها عاداتها وتقاليدها ، وهذا هو التخطيط بمعناه البدائى التقليدى الذى قصده « كارل مانهايم Karl Mannheim » والذى أطلق عليه اسم « منهج الاكتشاف

بطريق « المصادفة chance discovery »(١) .

ولقد دخل التخطيط بمعناه « المعاصر » إما لحل مشكلات التغير الناجمة عن ثورة التكنولوجيا ، وإما لضبط التعارض بين « اقتصاد السوق الحر » ، من جهة ، و « الاقتصاد الموجه dirigé » أو « المخطط planned economy » ، من جهة أخرى . وقد ينطلق التخطيط ، حين تتعالى الصيحات مع الدعوة للادخار ، والهجوم على الاسراف . وتنمية كل فروع الانتاج ، واستغلال كل الأيدى العاملة ، والموارد الاقتصادية والتعدينية ، والمصادر الطبيعية .

ولقد زالت « الفلسفة الاقتصادية » التي كانت سائدة أيام « التجاريين Merchantalist » و « الفيزيوقراط Physiocrate » ، بعد أن كانت ثروة الأمم تقدر بالذهب والفضة(٢) ، وحجم التجارة ، مما أدى إلى « بذخ إقطاعى » تبدد مع أساليب انفاقه غير الرشيد ، كل « تراكم قومى » لاقتصاديات قامت أبنيتها وأنساقها ، على « تقديس ميتافيزيقى للفردية individualism » ومبادىء الأخلاق النفعية utilitarianism ، ثم بدأ الاقتصاد الرأسمالى بعدها فى الظهور على أجنحة الفردية والنفعية ، فأخذ يسعى نحو تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، وبأقل نفقة ممكنة .

---

(1) Mannheim, Karl, Man and Society In An age of Reconstruction, trans from German by Edward Shils, Kegan Paul, London. 1942. p 163.

٢ ــ مدرسة التجاريين ، هى أول مدرسة اقتصادية ، اعتمدت على تنمية الثروة wealth بالتجارة ، ثم صدرت مدرسة الفزيوقراط ، على أساس أن التجارة ليست هى المصدر الحقيقى للثروة ، وفى هذا الصدد أنظر كتابنا « علم الاجتماع الاقتصادى ومشكلات الصناعة والتنمية » منشأة المعارف ١٩٨٠ .

ولكن كيف تخطط الدول المتخلفة من أجل التنمية ؟ !

تعتبر الجمهورية العربية اليمنية من الدول الأقل نمواً underdeveloped ، وذلك إذا ما صنفنا دول العالم الثانى ووجدنا ، ما بينها من تفاوت شديد بين مستوياتها ، واختلاف درجة النمو لدى كل منها .

وحول ثقافة المجتمع اليمنى ، اجتمعت الأسباب وتراكمت العلل « لكى تفسر لنا الأسباب الحقيقية للتخلف ، وكلها أسباب سياسية وثقافية واقتصادية ، بدأت قبل مقتل « الامام يحى » ، واستمرت بعد اغتياله ، نظراً لصلابة الرجعية ، فتلاه ولده « الامام احمد » بعد فشل انقلاب ١٩٤٨ ، الذى كان يهدف إلى الثورة على رجعية اليمن ، وتحريرها من حكم « دكتاتورى متأخر » ، يتميز سياسياً بأنه متحجر ومستبد ؛ بالاضافة الى أنه قبلى وتقليدى فى نمط ثقافته، كما يتميز نظامه الاجتماعى بالبيروقراطية الدينية المتخلفة ، التى تبقى فى رجعية ، وتستمر على حال واحدة ، فيبقى فيها الانسان ، ويظل كما هو ، ويعيش ثم يموت ، دون أى تطوير أو تغيير .

ولقد هبت رياح التغيير على اليمن ، بعد أن فتح الامام احمد بعض النوافذ التى أدخلت الضوء على نظم متخلفة وعتيقة ، وذلك بعد ثورة مصر التحريرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، من جهة ، كما واجهت وأطلت قلاع الرجعية اليمنية فجأة وبدون مقدمات ، على مطلع النصف الثانى من القرن العشرين ، من جهة أخرى . وبفضل وجود « قوى التحرر اليمنى » ، وخوفا من إثارة الفتن ، وتحريض زعماء حركة الأحرار اليمنيين ، عقد « الامام احمد » اتفاقية عام ١٩٥٧ مع الاتحاد السوفيتى ، لتشييد ميناء الحديدة ، طبقا لأحدث التصميمات الحديثه . ومن أجل الاصلاح أيضا ، اتفق الامام احمد ، مع الصين الشعبية ؛ على تمهيد الطريق بين الحديده وصنعاء ؛ كما زود « تعز » عاصمة حكمه بالمياه النقية ، بدلا من استخدام الآبار الطبيعية ، والمياه الجوفية .

وبعد إجراء هذه الاصلاحات أخذت « ثقافة اليمن » فى التخلى عن أنماط

تقليدية ووجهية ، وبعد أن تخلف وتأخر ، وعاش عمره التقاتى فى ظلام الجهالة ، فبدأ الانسان اليمنى يفيق من تأثير الاستعمار والكسل ، وتخدير « القات » ، وهو المخدر اليمنى المشهور[1] .

وفى عام ١٩٦٢ ، قامت ثورة اليمن المشهورة ، وبدأت بعدها مشروعات التنمية والتخطيط ، ودخلت اليمن بعد نجاح الثورة ؛ عصر الكهرباء والقطار ، ثم بدأت بعدها عملية « التحديث Moderni zation » الحضارى تخطو خطواتها المتعثرة الأولى ، من أجل « إعادة بناء الانسان اليمنى .

وعلى واضعى برامج التنمية ، وخطط التطوير الحضارى فى اليمن . أن يتنبهوا . الى ما هو خطير بصدد نقل التكنولوجيا . فليس المهم هو عملية النقل الحضارى . فحسب . وإنما المهم هو تطويع هذه التكنولوجيا بالنسبة لنمط الثقافة السائدة فى البناء الاجتماعى اليمنى ، مع تهيئة التكنولوجيا الخاصة باليمن . وإعداد ما يلزم لها . بالنسبة لتنمية البيئة ecodevelopment فى المجتمع اليمنى . كما هو الحال تماما بالنسبة لتكنولوجيا الهند . وتكنولوجيا الصين فالأولى متطلعة وصاعدة والثانية متقدمة ومنتشرة فى معظم دول العالم الثالث . وهى ما تسمى أحيانا بالتكنولوجيا الوسيطة وهى تكنولوجيا خاصة بحل مشكلات التنمية فى دول آسيا وإفريقيا .

الأمر الذى معه . تنعقد الآمال لوضع الخطط وبرمجة البرامج ، لتدريب الشباب اليمنى المعاصر على مختلف فنون الادارة وتطوير الصناعة . وتحديث النظم والقيم بتغيير التنظيمات التقليدية والاستفادة من الخبرات فى ميادين الصناعة والطب والتكنولوجيا المنقولة . حتى تستفيد كل القطاعات السياسية والادارية والاقتصادية بدخول هذه التكنولوجيا الجديدة . فيمتزج الدخيل بالأصيل original .

---

(١) هناك عادة يمنية وجهية واستعمارية ، اشتهر بها السلوك التقليدى الشائع ، وهى شيوع تعاطى القات ، التى اعتاد اليمنى على « تخزينه » وكلمة « تخزين » هى الكلمة اليمنية الدارجة التى تعنى استخدام « القات » وتناوله عن طريق الفم وامتصاص أو استحلاب رحيقه ثم يلتقط بعضها ، من جماعات يجاملها ألوانه

وربما تتخلف فى الانحسار وتأخذ النظرة الجديدة طريقها إلى كل فكر ، وتطرق كل عقل ، مع تحديد « الاندماج amalgamation » فلا يهدم الجديد كل قديم ، ولا تؤثر القيم الدخيلة على القيم الأصيلة ، ويصبح الانسان اليمنى سيداً لنظام ، لا عبداً خاضعاً لأوضاع وتقاليد أخنى عليها الدهر .

٢ - الثورة الادارية ومعوقات التنظيم :

أ — تحتاج كل الدول والمجتمعات النامية إلى ثورة ديناميكية فى كل الأجهزة والتنظيمات الادارية ، حيث تعتمد عملية « تنظيم الانتاج » وزيادته ورواج السلع والمنتجات أو تسويقها إلى « عمليات وخدمات إدارية » ، بمعنى أن الفكر الادارى ، إنما يكون له وظيفته ورد فعله فى خدمة وتنشيط وترشيد « العمليات الانتاجية » حيث يعتبر « الجهاز الادارى » نفسه بمثابة جزء لا يتجزأ من البناء الانتاجى كله .

فالعملية الادارية بدورها هى « عملية انتاجية » ، إلا أنها لا تؤدى إلى « نتاج » مادى أو خدمات عينية منظورة ، فالإدارة الرشيدة لا تنتج سوى « نتاج تنظيمى لا مادى » حين تقوم على أساس علمى من العلاقات الانسانية التى تخلق « الجو الانسانى للمنتج » ، وتنظم « العلاقات المريحة » ، كما وتعمل على خلق « الكوادر الفنية » وتكوين المراكز والأدوار ، وتعمل أيضا على احداث التطور والتغيير فى بنية كل تنظيم وفى إقرار كل مشروع من المشروعات الاقتصادية والصناعية وعلى العكس من ذلك ، فان « سوء الادارة dismanagement » إنما يؤدى بدورة إلى هبوط الانتاج وضعف مستواه .

وقد تؤثر الفلسفة السياسية السائدة ، على نوع التنظيم الادارى ، إن كان إستبداديا وديكتاتوريا ، أم ديموقراطيا وحرا . حيث يشارك العمال فى كل تنظيم إدارى ، ويساهمون على نحو ديموقراطى فى ادارة المشروعات ويتخلون

الانتخاب الحر بمجالس الادارة .

ويذهب « ريمون آرون Aron » إلى أن هناك استحالة فى إدخال الديموقراطية الادارية ، والحرية الانتخابية ، فى قلب الادارة ، بحيث يشعر العمال بأنهم يدبرون هم بأنفسهم كل ما يحتاجه « التنظيم الصناعى » و « المشروع الاقتصادى » من كفاءات ومطالب . فلم تثبت حتى الآن صلاحية هذه « الكفاءة الإدارية العمالية » وذلك لأسباب خاصة بسيكولوجية الوعى الطبقى العمالى ، واتجاهاتهم السوسيولوجية ، وعدم رغبتهم الاصيلة فى المساهمة فى إدارة العمل ، لانهم سيكولوجيا وسوسيولوجيا ، لا يشعرون كأفراد أو كجماعات بأنهم يعملون « من أجل أنفسهم » فى سائر المصانع والمؤسسات .

ولاشك أن التنظيم الادارى الديموقراطى الناجح ، فى كل مشروع ، ومن أجل كل عمل ، وعلى رأس كل تخطيط أو برنامج ، هو أكثر كفاءة وفعالية من « التنظيم الاستبدادى القهرى » . ومن هنا يسهم فى كل تنظيم إدارى عدد محدد من المشرفين والمديرين الفنيين بكل ما عندهم من روح ديموقراطية خلاقة فى الادارة والتنظيم ، وفى كل الدول على إختلاف فلسفاتها السياسية وتنظيماتها الادارية .

فالمشكلة الاساسية فى كل تنظيم إدارى managerial Organization هى مشكلة سيكولوجية أخلاقية وسوسيولوجية ، تؤكد العدالة وتدعم الشرعية والتضامن ومن هنا تنبهت الاذهان نحو ضرورة الاهتمام بتحقيق « الانسجام والتكامل » بين العمال والادارة[1] ، الامر الذى معه ، تنهمك علوم « العلاقات الانسانية Human relations » والصناعية فى أمريكا فى محاولة تحقيق أكبر انسجام ممكن

---

(١) آرون ، ريمون : المجتمع الصناعى ، ترجمة فيكتور بلبيط ، منشورات عويدات ١٩٦٥ ، ص ٢٤٧ .

داخل « التنظيم الادارى » ، حتى يتحقق أكبر كم ممكن من الانتاج(١) .

ب — إذا كانت الادارة المتخلفة ، هي عائق من معوقات التنمية ، فلا شك أن تحديث النظم الادارية ، قد أصبح يشكل حاجة ملحة وضرورية ، فى المجتمعات النامية وفى كل مجتمع صناعى مستحدث ، وذلك القضاء على مشكلات أساسية ، تخلفت عن بقايا «صعوبات روتينية» صدرت عن أنماط « بيروقراطية قديمة » ، معوقة وقابضه للنمو ، ولذلك أصبح من الضرورى أن نعمل إدارياً على إزالة كل المعوقات التى « تقدس الشكل دون المضمون » ، وتطبق الظاهر دون الفحوى .

والادارة جهاز أو نظام ، يتأثر بكل ما يدور فى بنية المجتمع من أجهزة ونظم . وتتحقق وظيفة الادارة كجهاز حيوى ، يعمل كنسق له بناؤه وتنظيمه حين يحقق الترابط والانسجام بين سائر التنظيمات والأجهزة . حيث يتوظف النسق الادارى بالقيام بعملية «ضبط وتنسيق الأعمال الإدارية» ، وربط سلطات التخطيط والرقابة ، بسلطات أخرى تشريعية وتنفيذية .

وتحقق الادارة الناجحة ، فى أى تنظيم اقتصادى أومشروع صناعى ، غايات إنتاجية كمية وكيفية ، عن طريق التوفيق بين ، فئات الإشراف » و « فئات العمل ، حين يعمل الجميع بروح الفريق المتعاون ، لتحقيق الأهداف البعيدة لمختلف التنظيمات والمشروعات .

الادارة كنسق اجتماعى :

أ — النسق الإدارى ، كالنسق السياسى ، يعتبر من الانساق الاجتماعية الضرورية ، حيث يقوم بعملية ترتيب لاوضاع معينة . كما يضع تنسيقا لمختلف

---

(1) Williams Michael., Human relations Longmans, London, 1967.

العلاقات التي تربط « التنظيمات الفوقية » و« الفئات التحتية » . كما ويضع النسق الاداري سائر القواعد والنظم التشريعية التي يفرضها « القانون الاداري » فرضاً وعلى نحو تنفيذي ، بينما يدعمه أيضاً النظام السياسي المجتمع . كما يضع « الفكر الاداري » القواعد الادارية المشروعة سياسيا ، ويحدد اللوائح والقوانين المنظمة للعلاقات بين سائر أجزاء التنظيم في كل عمل أو مؤسسة أو مشروع . بمعنى أن التنظيم الاداري إنما يتساند مع القانون والتشريع، ويتعامد مع نظم السياسة والحكم ، فالقانون والسياسة والاقتصاد ، هي دعائم كل تنظيم إداري، بمعنى أن « الادارة » كنسق اجتماعي ، هي إستطالة راقية ، لنظم أولية وصور بدائية ، وضغوط عنيفة كانت تفيض بالقسر والظلم ، فالادارة قديمة قدم الحضارة، فهي تحكي مأساة الانسان الاجتماعي ، وتحوي تاريخه وصراعه ضد الطبيعة وضد أخيه الانسان، ثم تطورت الادارة وتجسمت في أشكال أرقى ، حين تحققت والتحمت بأنساق القانون والسياسة والاقتصاد . ومع تطور قضايا الحرية والعدالة والمساواة ، صدرت أشكال جديدة من التنظيمات الادارية ، طبقاً لمبادىء تحرير الانسان من الظلم والطغيان .

ب - ولما كان للادارة تاريخها وماضيها والتحامها بأنساق القانون والاقتصاد والسياسة ، فان التنظيم الاداري نفسه ، إنما يشتمل في طيـــاته على معاني النظام Order بمعناه القانوني ، والنسق System بمفهومه البنائي ، كما وتحوي مفهومات سياسية تتضمنها كلمة « Regime » بكل ما فيها من « قهر » أو تســـلط أو « إجبار » .

والادارة بمعناها الوسيع ، هي ترتيب الأعمال « Orders » ، وتنسيق العلاقات Systems ، وفرض الأحكام Regime والقواعد ، التي تخضع لها التنظيم الاداري برمته . بمعنى أن الادارة كظاهرة اقتصادية أو سياقية ، إنما تتضمن عناصر « التنظيم » و « التنسيق » ، كما تتضمن أيضا ككل ظاهرة اجتماعية

عناصر « الضغط » أو « القهر » والجزاء Sanction (١) .

ـ وللادارة مهمة خاصة وضرورية فى استراتيجيات الدول والمجتمعات النامية تتمثل فى إزالة كل مايعوق النظام والتنظيم ، بتحطيم « الروتين » ، وبالتنمية المستمرة الفكر الادارى ، وترشيد الخبرات الادارية ، كهدف مطلوب فى كل عملية تنموية إقتصادية واجتماعية .

حـ ـ وتقوم الادارة الناجحة بحل التناقض القائم بين « متطلبات التنظيم » وأهدافه ، وبين « إمكانيات أفراد التنظيم » وتحقيق فعاليتهم واستغلال طاقاتهم على نحو يحد من الاسراف فى الطاقة البشرية ، ويعمل فى نفس الوقت ، على إنهاء الأسلوب الادارى البيروقراطى التقليدى ، بالقضاء على تلك النمطية القائمة فى سائر القطاعات ، فلكل تنظيم ظروفه وأهدافه ، فلا ينبغى مثلا أن نخطط تخطيطا إدارياً واحداً لسائر التنظيمات الادارية ؛ فلا نلجأ إلى تنظيم إدارى واحد بعينه ، كى يطبق فى قطاعات متمايزة إقتصادياً ؛ كقطاع الانتاج أو قطاع الخدمات .

ولما كان ذلك كذلك ، تعمل الثورة الديناميكية الادارية ، التى تحتاجها المجتمعات النامية ، على إزالة التخلف الواضح فى الفكر الادارى . وعلى إلغاء كل ماهو ثابت وقبلى Apriori فى سائر التنظيمات القديمة . كما تعمل الثورة الادارية على نجاح المشروعات الانمائية ، واقتصاديات التنمية الصناعية ، حين تساعد على فتح نوافذ الانفتاح ، وتزيل كل مايعوق النظام، وهذا هو إتجاه « الفكر الادارى » فى جمهورية مصر العربية فى هذه الأيام (٢) .

---

1 — Durkheim, Emile, Division du Travail social, Alcan, Paris. 1926.

٢ ـ د. على السلمى : الادارة المصرية رؤية جديدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩

وهناك عمليات موجهة نحو كفاية وتحديث الادارة ، كحركة مضادة للتخلف عن طريق بذل الجهود المشتركة من أجل « تطوير الفكر الادارى » « وتنمية الخبرة الادارية وترشيد كل نظم وأساليب الأداء ، باتباع الأشكال الناجحة والملائمة وإعداد « المهارات الادارية Managerial skills » واستخدام « تكنولوجيا الادارة » وتطوير أساليبها التقليدية بتغيير أدواتها العتيقة .

د ــ ولا شك أن أعباء الادارة من اشراف وتخطيط ، ورقابة ومتابعة ، هى أكثر بكثير من أعباء « فئات الانتاج » حيث يتطلب الاشراف الدقيق للمنتج جهداً مضاعفا ، قد يفوق الجهد المبذول من الـكادحين ممن يشاركون فى عملية الانتاج . ويحتاج الادارى الناجح ، إلى طاقة خارقة ، وإلى همة فائقة ، وإلى جهود غير عادية ، بالاضافة إلى خصائص الحزم والمرونة والذكاء والخبرة والثقافة ، وكلها أبعاد ضرورية ينبغى أن تتوافر كسمات عامة لشخصية الادارى الناجح .

ولقد بذل الانسان اليابانى ، الكثير من الجهود الانتاجية ، وضحى بالأجر المرتفع ، واحترم الزمن الاقتصادى ، واتجه نحو ترشيد الانفـاق بالادخار والاستثمار ، الأمر الذى معه نجحت التجربة الاقتصادية اليابانية إلى حـد بعيد فى استراتيجيات التنمية والتخطيط والادارة ، نظراً لارتكانها إلى أرضية أيديولوجية صلبة من الأسس السيكولوجية ، واكتساب القيم الاقتصادية ، مع سيادة الانضباط الاستهلاكى ، والتزام قواعد التنمية باكتساب الخبرات ، وإجراء التجارب لتحسين الانتاج كما وكيفا .

فالجوانب الايديولوجية والسيكولوجية والخلقية ؛ هى عناصر إنتاجية من الدرجة الأولى ، ولها دورها الخطير فى التخطيط والتنظيم والادارة ، فلا تتعطل طاقات الإنتاج بالاستخدام الرشيد للآلة دون إهمالها فتستهلك قبل انتهاء الزمن المفروض أو العمر الطبيعى لتشغيلها . فالانسان وليس الآلة هو المنتج

الأول The First Producer ، وعلينا أن نتجه نحو تأهيله وتكريسه ، واستيعابه التكنولوجيا ، فلا بد من إعادة النظر نحو « بناء الإنسان » بالالتفات إلى مكوناته الحضارية والثقافية ، وتغيير أنماطه السلوكية ، بتهذيبها وتنميتها حتى نعيد لعملية التنمية الاقتصادية فعاليتها ودورها فى تغيير الانسان ، وتطوير طموحاته وآماله وأحلامه بما يغير من أسلوب ونمط الحياة .

هـ ــ والتجربة اليابانية التى أشرنا اليها منذ قليل ، هى تجربة رائدة فى علوم الاجتماع الصناعى والاقتصادى والثقافى ، كما أفادت فى علوم التنظيم والادارة والتنمية والعلاقات الانسانية . وذلك بسبب احتفاظها « بنظم إدارية » ، وأساليب تنظيمية ، تنبع من « القيم اليابانية نفسها » .

وبالرغم من استيراد اليابانى للمواد الخام نظراً لاعتماد الاقتصاد والصناعة فى اليابان على استيراد التكنولوجيا الصلبة Hard Technology ، فقد أصبحت الادارة فنا يابانيا أصيلا فى أساليبه وقواعده التى يتشربها اليابانى وتسرى فى دمه حيث تنبع من القيم اليابانية نفسها ، كالاحساس بالزمن الاقتصادى ، واستغلال الخبرات والطاقات . فأصبحت الادارة فى اليابان هى أسلوب للحياة اشتهر بها اليابانى كطريقة للمعاملة فى حياته وعلاقاته ، وفى تطوير أعماله ومشروعاته(١). كما وتعلمنا التجربة اليابانية أيضا عدم التزامنا ضرورة باستيراد النظم الادارية ، لأن تنظيمات الإدارة ، ينبغى أن تتمشى مع انساق المجتمع وقيمه ، حين تتكيف وتنسجم مع سائر النظم التشريعية والاقتصادية والسياسية ، بحيث يصدر « كل تنظيم إدارى » عن واقع البناء الاجتماعى والتراث التاريخى والحضارى للمجتمع موضوع الدراسة .

---

(١) دكتور اسماعيل صبرى عبد الله ، نحو نظام اقتصادى عالمى جديد ، دراسة فى قضية التنمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧

٣ ـ ترشيد الانفاق :

أ ـ هناك بين سائر الدول والمجتمعات ، نماذج غنية فى مواردها ، بينما هى فقيرة متخلفة فى مرافقها وعاداتها الفكرية والثقافية ، فهى فى مسيس الحاجة إلى ماينميها حضاريا ، بينما نجد دولا فقيرة الموارد ، تواكب أرقى ما فى الحضارة من أنماط . ولقد تشرع الحكومات فى المجتمعات المتخلفة فى القيام بمشروع صناعى أو انجاز برامج اقتصادية ، دون الالتفات إلى عناصر الثقافة وأنساق الفكر وفحوى القيم المحلية . ومن هنا يبدأ التعارض ، ومن هنا أيضاً يبدأ الترشيد والتنسيق . وقد لاينجح أى جهد مع التعارض بين « إمكانية الثقافة » وتخطيط « اقتصاديات التصنيع » ، مما يحقق معه كل أمل من أجل التنمية المادية ، دون أن تزيل أو أن نعمل على رفع « أيديولوجيات عتيقة جامدة » ، وتحرك « ثقافات بدائية » بسيطة غافية فى غيبياتها ، لأنها مستويات حضارية متخلفة ، يجب تنميتها برفعها من الحضيض شيئاً فشيئاً حتى تتخلص من تخلفها وهبوطها . وتتوائم فى عملية التخطيط والترشيد كل وجهات النظر الاقتصادية والسوسيولوجية والسيكولوجية والقيمية ، حيث يحتاج التعجيل فى عملية التنمية أصلا إلى تلك الجهود المشتركة من علماء النفس والاجتماع والسياسة ، بالاضافة إلى تضافر جهود رجال الدين وخبراء الاقتصاد ، لدراسة ترشيد الانفاق ، بالتركيز على السلوك الاستثمارى والإستهلاكى والادخارى ، فى ضوء دراسة التفضيلات الاجتماعية ، وفهم القيم وموجهات وضوابط السلوك » . فماذا نعنى بترشيد الانفاق ؟ وكيف نحقق أفضل نفقة ممكنة ؟..

فى الواقع ، لقد فاض الخاطر ، بفيض من الخواطر ، التى تتدافع فى قوة كى تدفعنى إلى أن أسوق بصدد ترشيد الانفاق ــ مثالا بل من أمثلة من الاقتصاد القرآنى العظيم ، تهدف جميعا فى روعة ، إلى ضرورة تحقيق أفضل نفقة ممكنة ،

حين يقول المولى سبحانه وتعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط »(١)، وفي قوله : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين »(٢) ، ويقول في سورة التوبة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونهـا في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (٣) » .

ففي الآية الأولى يستنكر الاقتصاد القرآني « الاسراف » وينهـانا المولى تبارك وتعالى عن التقتير . وفي الآية الثانية تحذير من التبذير ، حتى لايبـذر الانسان تبذيرا ، وإلا سقط في الشرور والآثام ، وصار من اخوان الشياطين ، وأصبح ملوماً محسوراً . فالتبذير « سفه » ، ويجيز « القانون » الحجر على أموال السفهاء من الناس بتعيين « ولي أو حارس » لاينفق إلا بقدر معلوم .

فالإسراف « مرض » تنكره الأديان ، و« سلوك » يرفضه العقل ، و« سفه » يستنكره القانون : أما الشح أو البخل ، فهو سلوك إقتصادي متطرف ، ومضاد للسرف والترف والتبذير ، بل هو أشد فتكا ، وأكثر وبالا .

ولا ترفض الآية الثالثة ، موقف من يكنزون الذهب والفضة ، لإستنكار البخل في ذاته ، بل تعبر الآية الكريمة عن مفهوم اقتصادي عميق ، فالانسـان الناجح ، ليست مهمته جمع وتكديس الثروة ، ولكن مانعجب به ونقدره حقاً ، ليس المال المخزون ، أو الثروة المكدسة ، وإنما « ماوراء الثروة » من أعمال ومشروعات ناجحة صدرت عن قدرات شخصية ذكية وشجاعة ، كما وتؤدى في نفس الوقت إلى تنمية الثروة ، كما يتراكم معها رأس المال ويتضاعف ، وبذلك توجه الآية الكريمة أنظار الناس نحو ضرورة عدم تخزين المال ، بالافراج عن

---

١ ـ سورة الاسراء ، الآية ٢٩.
٢ ـ سورة الاسراء ، الآية ٢٧.
٣ ـ سورة التوبة ، الآية ٣٤ .

المكدس من الثروات المخزونة ، حتى يتحول « رأس المال » المخزون الخامل » إلى « رأس مال » متحرك عامل وديناميكى ، يخلق الثروة ، وينمى حجم التبادل التجارى ، ويزيد من معدلات الانتاج الصناعى . ومما يؤكد تشجيع الاقتصاد الاسلامى لحركة رأس المال وعدم تكديسه « زيادة قيمة الزكاة المفروضة على الودائع ، والمصوغات والجوهرات والأحجار الكريمة ، كالماس واللؤلؤ ، بينما تقل معدلات الزكاة على رؤوس الأموال العاملة ، وتزداد معدلاتها على رؤوس الأموال الخاملة ، أو المكدسة .

وعلى هذا الأساس ، يرفض الاقتصاد الاسلامى ، مبدأ كنز المال وتكديسه كرأس مال راكد ، ويستنكر موقف كل « من يكنز الذهب والفضة » ولو كان كريماً سخياً ، ومن ثم تبشر الآية الكريمة كل من يكنز المـــال بالعذاب الأليم ، بمعنى أن الاقتصاد القرآنى إنما يزدرى مبدأ تكديس المال ، ويرفض هذا الثراء الكريه الذى لايعمل .

ولا شك أن « بناء مصنع » أو « تشييد فندق » أو إقامة « مدرسة » أو « مستشفى » ، كلها مشروعات ومواقف تعبر فى الاقتصاد الاسلامى ، عن معنى « النفقة فى سبيل الله » . حتى لاتتكدس الثروات دون أن تتحرك بالعمل كنفقة فى سبيل الله . فينبغى توجيه رؤوس الأموال من أجل العمل ، ومن أجل ماينفع الناس حتى يمكث الخير فى الأرض . ويطالبنا الاقتصاد الاسلامى بتعبئة كل الموارد والطاقات الاقتصادية للانفاق وترشيده . فلماذا لايعمل « رأس المـــال العربى » المخزون فى بنوك « أمريكا » و« سويسرا » و« انجلترا » ، من أجل تنمية وتطوير دول البترول نفسها ، وهى فى مسيس الحاجة إلى مشروعات إنمائية باستثمار رؤوس الأموال ، بفضل برامج مخططة إقتصادياً وصناعيا ، تستوعب كل الأيدى العاملة . والخبرات العربية والفنية والعلمية .

والآمال معقودة نحو إنعاش السوق العربيـة المشتركة ، وتحقيق الاندماج Amalgamation أو « التكامل Integration الاقتصادى » وإنشاء بنوك التنمية العربية والاسلامية (١) ولسوف تتكامل إقتصاديات الدول العربيـة ، إذا ما تضافرت الجهود المشتركة ، وتدفقت رؤوس الأموال ، ومن أجل تخطيط مشروعات وإنشاء مؤسسات للانتاج الثقيل والخفيف والاستهلاكى .

وإذا ما تضافرت رؤوس الأموال وتدفقت ، وتوافرت الأيدى العاملة الرخيصة ، والمشروعات الانتاجية ، فلسوف يفيض الانتاج ويتراكم ، وقد يعود فائض الانتاج « كمعونات اقتصادية وفنية » ، من دول عربية منتجة إلى أقطار عربية شقيقة فى حاجة إلى ماينميها وينعشها إقتصاديا ، كما هو حادث الآن بين الدول الغنية الكبرى فى أوربا وأمريكا ، وبين دول أفريقيـا وآسيا ومجتمعاتها المتخلفة إقتصاديا . وهنا يصبح الاقتصاد العربى فى « خدمة الانسان العربى » على العموم من المحيط إلى الخليج ، فالذين يكنزون الذهب والفضة من أثرياء العرب إنما يقومون باجراء إقتصادى مضاد للتنمية ، بينما يحتاج العالم العربى كله ، إلى معونات إقتصادية ، وإلى مشروعات صناعية ، وإلى رؤوس أموال عربية مخلصة تتدفق من أجل تطوير « الوطن العربى » برمته .

ولقد فوجئت حين نطالع فى الصحف عن الاسراف الواضح الذى يعيشه أثرياء العرب ، وبخاصة فى مناطق البترول الغنية بانتاجها ، إلى الدرجة التى معها دفع أحدهم مايقرب من ١٥ ألف دولار ثمنـا لمكالمة تليفونية ، حتى ينقل لولده الذى يتعلم فى أمريكا وصفاً إذاعياً كاملا لمباراة رياضية . لاحـدى النوادى التى ينتمى إليها ولده ، وسواء أكان الخبر الصحفى صادقاً أم كاذبا ، فان حرية الانسان

---

١ ـ دكتور عبد الكريم صادق بركات ، اقتصاديات الدول العربية ، الاسكندرية ١٩٦٩ .

فى إنفاق أمواله أمر طبيعى ، وحق أساسى من حقوق الملكية ، إلا أن هناك مايسمى « بترشيد الانفاق » الأمر الذى تباركه الأديان السماوية ، وتؤكده للمذاهب الاقتصادية حيث تنتظم ضوابط السلوك الاستهلاكى ، فتتجه الأذهان نحو التعفف وعدم الاسراف . وفى الواقع إن تبذير المال وإنفاقه المحموم ، دون عمل أو عائد ، يجعل من المال نقمة لانعمة ، حيث أن الانفاق فى سفه دون ناتج أو جهد ، ودون ترشيد ، هو الجحيم بعينه وفى هذا المعنى سئل « برنارد شو » عن تعريف الجحيم what is the defintion of the he l ? فأجاب على الفور بكلمات ذكية ورائعة « إنها أجازة أبدية لا نهائية ، مع المال الوفير ، وبلا عمل »

Everlasting holiday„ with plenty of money and nothing to do.

د ـ وهذا هو السبب الذى من أجله ، كان العقيدة البروتستانتية ، التى حلت بالتدريج مع شعارات « مارتن لوثر Martin Luther » محل التراث التقليدى العقيدة الكاثوليكية ، صداها فى ظهور المذاهب والإتجاهات الرأسماليه . فلقد أزاح الروح البروتستانى تلك العوائق الاستاتيكية التى طالما وقفت فى العصر الكاثوليكى حائلا دون الرغبة فى الملكية ، فشجعت البروتستانتية على التملك ، مع تأكيد روح الادخار والاستثمار ومشروعية دافع الربح ، ونظرت إلى السعى والعمل وترشيد الانفاق ، من أجل زيادة الدخل ، على أنها جميعاً من الأمور الدينية المقدسة التى تباركها الارادة الالهية .

فالافراط فى الترف والسرف والتبذير ، كلها أمور تنهى عنها سائر الديانات أما الاستخدام الرشيد للثروة ، فهو من الأمور المستحبة التى تدعو إليها سائر العقائد والشرائع الدينية ، الأمر الذى معه نجحت البروتستانتية لترشيد الانتاج وتكوين رؤوس الأموال اللازمة لتمويل المشروعات ، فى ترشيد الانفاق من أجل التنمية الاجتماعية أو من أجل توجيه الأذهان نحو تحقيق مستويات اقتصادية

أفضل ، مع تشجيع الربح وزيادة الثروة ، عن طريق نمو الانتاج وتطويره .

وهذا هو السبب الذى من أجله حلت الفلسفة البروتستانتية على فلسفات أفلاطون وأرسطو ، وكل النزعات والمذاهب التى تحتقر الأعمال اليدوية ، وتزدرى الحرف والمهن . كما وتمردت القيم البروتستانتية الجديدة على «السلبية» وانتبذت ورفضت قيم « التواكل » والتكاسل ، والاسترخاء وكلها قيم أرستقراطية لايقدرها سوى الكسالى والخاملين ، وهى قيم « غيرعملية » ولا تتفق مع مبادىء وقواعدالمذهب البروتستانتى .

ومن خصائص «النظام الرأسمالى » إحترام الملكية الخاصة ، مع الاعتراف بحرية الانسان فى العمل حين تتوافق وتتوازن المصلحة الفردية ، مع المصلحة العامة ، ولا يتحقق ذلك إلا باتاحة « سوق اقتصادى مفتوح » ومنافسة إقتصادية حرة ، كل ذلك من أجل الربح المتزايد ، وحوافز العمل القائمة على قانون العرض والطلب .

وإذا ماعقدنا المقارنات بين الانساق الرأسمالية والإشتراكية ، لوجدناها تتركز حول تقريب الفوارق الشاسعة بين سائر طبقات المجتمع ، وتحقيق السعادة والرفاهية لأكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع ، مع عدم إغفال التوافق ، بين الحاجة الماسة إلى زيادة الانتاج ، والرغبة الملحة فى الاشباع والاستهلاك ، طبقاً لقيم التفضيل الاجتماعى ، مع ضرورة تغيير القيم الاستهلاكية ، بالالتفات إلى قطاع الخدمات ، والعمل على الانتفاع بالمتزايد من إنتـاج قطاعات التصنيع والزراعة ، من أجل مجتمع ترفرف عليه الرفاهية ويسوده الرخاء ، على أرضية صلبة وثابتة من الانتاج الاقتصادى .

ﻫ — وإن كانت هذه هى حسنات النظام الرأسمالى ، فلا شك ن من عيوبه عدم التوجيه الرشيد لموارد الانتاج ، وإساءة توزيع الثروة نظراً لتضخم رأس

المال ولزيادة الفروق بين طبقات المجتمع ، ولانتشار البطالة ، واضطراب الأحوال الاجتماعية ، وتفكك الأسرة ، بالاضافة إلى حدة التقلبات الاقتصادية ، كما تؤدى الرأسمالية حتما إلى التوسع والحروب والبحث عن الأسواق والاستعمار والامبريالية العسكرية .

ونظراً لتعدد هذه العيوب، فقد تنبأ ماركس « باندحار الرأسمالية » وبشيوع الاشتراكية التي هي بمثابة تحرير الانسان من الاستغلال ، وتقديس « الملكية الجماعية الشاعة » داخل نظام ديموقراطي ، مع إنتاج موجه لاشباع حاجات المجتمع ، وتوزيع الثروة والأرباح طبقاً لمبادىء المساواة والعدل الاجتماعي ، مع ضرورة توافر الادارة الناجحة ، باستخدام أساليب معاصرة فى ميدان العلاقات الانسانية Human Relations وفقاً لنتائج علوم التنظيم والادارة فى تخطيط السياسة الانتاجية وتحقيق أكبر إنتاج ممكن ، مع الارتفاع المستمر لمعدلات الدخول ، والمدخرات والاستثمارات ، مما يؤدى حتما إلى تغيير جذرى فى مجال التنمية الاجتماعية .

ويذهب « جونار ميردال Gunner Myrdal » إلى أن عمليات التنمية الاجتماعيه والاقتصادية ، إنما تساند لترشيد الانفاق ، وتحقيق عائد دائم يحتاج إلى عملية ترشيد آخر للانتاج والاستهلاك(١) . ومن أجل الاسراع بالتنمية، ينبغى الالتفات إلى العوامل الايديولوجية والثقافية التى تساعد على التطوير الاقتصادى وبهذا الصدد يذهب « الكس إنكلز Alex Inkeles » إلى أن الملكية الخاصة ونظام التوريث ، ونظم الاقطاع وأنساق الثقافة وطرق الإنتاج قد قاومت جميعها ، قوى التغيير الجبارة التى صدرت عن سلطة الدولة القاهرة فى روسيا الشيوعية . مما أدى بالطبع إلى بطء التغيير الاجتماعي فى جمهوريات روسيا السوفيتية(٢).

(1) Myrdal, Gunner., An International Economy. New-York Harper and Brothers . 1958

(2) Inkeles. Alex. Social Change in Soviet Russia New .kroy 1964.

ولا شك أن صيحات الترشيد المكتومة التى يرددها خبراء التنمية لايكاد يحفل بها أحد ، فيجب أن يسيطر الانسان على سلوكه ، وضبط استهلاكه ، وتغيير دالة التفضيل عنده ، واستبعاد الضار ، واحياء النافع ، بحيث تتلاحم عناصر التكنولوجيا والأساليب التقنية ، ونظم الانتاج والادارة ، مع الجوانب الحضارية للانسان الاقتصادى ، ومكوناته الثقافية . فالمسألة ليست بسيطة أو هينة ، وإنما تحتاج إلى تضافر جهود خبراء التربية والتنمية، وعلماء النفس والثقافة والاقتصاد والصناعة ، بالاضافة إلى مجهودات رجال الدين والاعلام والسياسة وقادة الفكر والفن والأدب .

فمشكلة التنمية ، هى فى أصلها مشكلة ، ترشيد وتحضير وتحديث ، ترشيد للانفاق ، وتحديث للتربية والتعليم ، وتحضير للثقافة ، وتطوير للاقتصاديات من حالة أولية بسيطة ، إلى حالة أكثر تطويراً وتقدما . . .

الفصل الخامس عشر

التنظيم والإدارة

* تمهيد
* السلوك التنظيمى
* ولكن ماهو التنظيم الصناعى ؟
* التنظيم الصناعى وتقسيم العمل
* دينامية التنظيم

تمهيد :

يقال إن التنظيم ، هو شكل متعدد الصور والسطوح والاضلاع ، فيتغير مفهوم التنظيم ، طبقا لاختلاف موقف الباحث ، بمعنى أن يكون التنظيم معناه الخاص ، عند الاقتصادى والسياسى ، كما يتغيره اصدق « التنظيم » ومفهومه ، طبقا للون الثقافة والادراك ، بحيث يدرك رجل الدين من « التنظيم الدينى » ، مالايدركه خبراء النفس والصناعة ، وعلماء الاجتماع والتنمية ، عن مفهوم « التنظيم الصناعى » أو « التنظيم الاقتصادى » .

وهنا ينبغى الاشارة إلى قصة طريفة من قصص الأطفال ، وهى قصة « العميان والفيل » ، حين يدرك كل منهم جزءاً من جسم الفيل ، فيتصوره كل منهم على نحو لايتصوره زميله ، نظراً لضخامة حجم أو هيئة الفيل وشكله الخارجى ، مما يثير التصورات التمايزة ، فلا يتفق الكل ، على تصور واحد ، نظراً لتعدد الزوايا ، واختلاف الجوانب حول البنية الهائلة لهيكل الفيل ، فلا يكاد يدركها أى تصور جزئى أو بسيط .

وهكذا حال التنظيمات ، هناك أشكال منها متعددة ، لايكاد يدركها تصور واحد ، فليس لكل التنظيمات تصور كلى متحد ، نظراً لاختلاف مضامينها وفحواها ووظائفها وأهدافها .

فالتنظيم معناه البيروقراطى ، عند الادارى ، ومعناه السياسى عند « رجل الدولة » ، ومعناه الصناعى أو الاقتصادى ، عند خبراء الصناعة والتنمية الاقتصاد كما وقد تضفى على التنظيم مفهومات « سيكولوجية » وتصورات « سوسيولوجية » ومعان « تربوية » و « فلسفية » يتردد صداها بين مدارس الفلاسفة ، وقضايا علماء الاجتماع ودراسات علوم النفس وخبراء التربية والتعليم .

السلوك التنظيمي :

السلوك التنظيمى ، هو سلوك رسمى Formal ، كما أنه موضوعى Objective

ولا شك أن كل سلوك بيروقراطى هو سلوك تنظيمى ، لأنه لايتصل بالعلاقات الشخصية ، ولا تتغلب العواطف . وإنما يقوم السلوك البيروقراطى على أساس المنطق والعقلانية Rationalization . لأن التنظيم البيروقراطى الرسمى، لايتعلق بأشخاص ، كما هو الحال فى العلاقات غير الرسمية .

ويتوافق كل « تنظيم إدارى » مع « التنظيم الاجتماعى» بحيث يتغير التنظيم الإدارى فوراً ، إذا لم يتوافق مع البنية الداخلية للتنظيم الاجتماعى أو الصناعى . وهناك وسائل للاتصال فى كل تنظيم ، يحققها السلوك البيروقراطى خلال « قنوات مشروعة » ومحددة . ولذلك كان للاتصال Communication دوره الخطير فى كل تنظيم ، فالادارى لايعمل فى فراغ ، وإنما يتحرك كل « سلوك إدارى » من خلال مراكز وأدوار ووظائف ، وكلها عناصر إنسانية تعمل فى كل تنظيم بيروقراطى .

بمعنى أن السلوك البيروقراطى ، هو سلوك رسمى لايتم فى فراغ ، وإنما يتم فى « تنظيم إنسانى » . فلا تنجز الأعمال ، ولا تنفذ القرارات، دون احتكاك إنسانى، أو اتصال تنظيمى بين سائر أجزاء وأقسام وقطاعات المؤسسة البيروقراطية، ولاشك أن مرونة الاتصال وسهولة حركاته ، كلها أمور مطلوبة فى كل تنظيم بيروقراطى . ويمكن تقسيم الاتصال الى قسمين ، رسمى وغير رسمى ، أو مخطط وغير مخطط، والأول داخلى مثل التقارير والتعليمات الدورية ، أما الثانى فيتم فى مناسبات معينة ، وطبقاً لظروف شخصية وعلاقات خاصة » ، بمعنى أنه إتصال غير مخطط ولا يتم فى قنوات رسمية ، كما لايمكن أن يستغنى الادارى الناجح عن الاهتمام بأنماط الاتصال الذاتية .

وهناك صعوبات واضحة تقف حجر عثرة ازاء كل اتصال فعال ورشيد ، مثل

صعوبة اللغة ، التي قد لايتفهمها الاداري . بالاضافة إلى وجود مصطلحات فنية وطبية ، قد لايفهمها خبير الاقتصاد أو عالم الاجتماع . وإلى جانب اللغة نجد أن البعد بين مراكز الاتصال ، إنما قد يسبب صعوبة أخرى ، ويترتب على هذا البعد الوظيفي عزلة أجهزة التنظيم وانفصالها وتباعدها مما يعوق الحركة ، ويؤدي إلى تفكك التنظيم . بمعنى أن كل تنظيم بيروقراطي ناجح ، إنما يحتاج إلى عمليـة « تنظيم وبرمجة » Programmation للاتصال الرشيد عن طريق التخطيط ، وازالة العوائق ، وتيسير خطوات العمل ، وسهولة الإرسال والاستقبال ، إما عن طريق الرسائل المكتوبة أو الشفوية .

مفهوم التنظيم البيروقراطي :

يقول « رايموند ماك » و « جون بيز » في كتابهما الضخم الممتـع ، « علم الاجتماع والحياة الاجتماعية » ، أن « برقطة » أو بيروقراطية الحياة الاجتماعية Buraucratization of social life » هي مبعث الممارسة اليومية ، ومصدر التنميط في السلوك الاجتماعي ، وتواتر أسلوب الحياة (١) .

فالبيروقراطية أسلوب إداري ونمط سلوكي ، وممارسة محددة ، يفرضها القـانون ، ويدعمها بناء القوة Power structure » الذي يحدد لنـا نوع التنظيم وشكله . ففي كل مؤسسة صناعية وظائف ومراكز ومستويات من الاختصاصات مختلفة ، كما تتوزع المسئوليات لاتخاذ القرار ، على أساس « هيراركي » ، مع ضبط شبكة الاتصـال بين سائر أجزاء التنظيم ، طبقا لتحديد المسئوليات والتخصصات ، وتوحيد القيادات ، مع تفويض السلطة من أجل تحقيق اللامركزية Decentralization ، وتسلسل القيـادة ، وسياق الأوامر Chain of Commaud ، طبقـا لمدى اتساع أو ضيق نطـاق الضبط

(1) Mack, Raymond & John Pease, Socioicgy and sociaj life, Van Nestrand Company, 1973.

span of control ، ولذلك فالتنظيم هو الرقابة Organization is control امتاز كل تنظيم بمكانيزمات الضبط البيروقراطية وعناصر التسلط النظامية Institutional.

ومهمة « السلطة التنظيمية » تنسيق جهود الأفراد وتضافرها استناداً إلى مبدأ التخصص لتحقيق هدف أو تنفيذ خطة متكاملة ، مع ضرورة التوازن والتكامل بين السلطة والمسئولية ، وتنميط الأعمال ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، مع استمرار الرقابة ، وتبسيط الوظائف والأعمال ، في كل تنظيم بيروقراطي مرن وبسيط .

وعلى « القائد الاداري Administrative leader » يقع الجانب الأكبر من مهمات « التنسيق » وتوجيه الأوامر ، وإرشاد المرؤوسين ، وإشعار من يعملون معه بالحب والتضامن والثقة ، فينفذون مايطلبه ، بطريقة فعالة ومنتجة ، على أن تتم بلا صراعات ، أو عن طريق التعليمات المتضاربة ، بل توضع وتتخذ وتنفذ الأوامر على نحو رشيد .

ويرى علماء الادارة ، أن « السلطة حق وقدرة authority is right and Power » ، وينبغي أن توضع البرامج في كيفية ممارسة السلطة ، كحق وقدرة . فقد تكون السلطة مفسدة Power corrupts ، كما « أن السلطة المطلقة مفسدة على الاطلاق absolute Power corrupts absolutely على حد قول « لورد آكتون Acton » المشرع الانجليزي المشهور . فينبغي ألا نفكر في أبدية وضع السلطة ، وعلينا فقط أن نتعلم كيف نمارس السلطة كما تقول الباحثة الأمريكية « ماري فوليت Follet » ، في كتابها « الادارة الدينامية Dynamic Administration».

وكل إنسان محب السلطة والسلطان ، وقد تأتيه السلطة بسعيه وتدبيره ، وقد تأتيه مصادفة وعرضاً ، وقد تأتيه بكفاحه وعرق جبينه ، وهذا هو أروع أشكال

« القيادة والسلطة » . فلا شك أن السلطة قـــد تسعى على نحو بيروقراطى أو روتينى إلى من يستحقها ويتولاها ، حين « تنجذب نحو الرجل القوى » ونحو كل من يقوى ويقدر ويستطيع authority gravitates to any Powerful Man وللقائد الادارى ، حق الاشراف ، وحق تقدير العمل ، ومـــدى إتفاقه مع توجيهات السلطة ، بالاضافة الى حق الازاحة displacement والحلول والاحلال بالتجديد المستمر ، وتغيير عناصر التنظيم القديمة ، فيحل البعض محل الآخر وتتغير القيادات فى المستويات الاوفى فى كل تنظيم جزئى .

وإستناداً إلى هذا الأساس ، تقوم السلطة أو القيادة ، بوظائف « الادارة » و « الإزاحة » و « التوجيه » ، حتى يتحقق التنظيم البيروقراطى الأمثل ، والسلطة الادارية الرشيدة ، فلا تتضارب الأوامر ، وتضطرب الرؤية الصحيحة المطلوبة فى عملية « التنظيم الادارى » التى تحتاج أصلا إلى « الطاعة » و « التبعية » وحسن الاداء .

والسلطة هى قوة تستند إلى القانون ، وتقوم على أساس فكرة « الحق » و « الواجب » والولاء والانتماء ، الذى يربط بين الرئيس والمرؤوس ، فى تدرج هرمى يشمل المؤسسة كلها . وتحتاج كل المسئوليات إلى سلطات ، وتمنح السلطة لتحقيق أهداف أوغايات ، كما وتوزع المسئوليات طبقاً لخطة مرسومة أو تخطيط مسبق ، أو وفقاً لاعداد مشروعات « مبرمجة » أو « مبرمنة » Programmation »

وليست السلطة هى غاية فى ذاتها ، وإنما هى وسيلة لتحقيق غاية ، أو لتنفيذ مهمة ، أو لتحمل مسئولية ، فيكون الموظف هو صاحب السلطة ، المكلف بأدائها ، وهكذا ترتبط المسئولية بالسلطة ، وعلى كل موظف تحقيق أفضـل أداء ممكن لما هو مسئول عن أدائه .

والسلطة ، هى إما تقليدية بدائية ، ترتبط بالمكانة والسن ، أوسلطة كاوزمية كسلطة القائد الكارزمى charismatic leader الملهم ، لما له من قـوة خارقة

كقائد أو كبطل أو زعيم . أما السلطة الرشيدة Rational Power ، فهى السلطة العقلانية المبنية على القانون ، والتى تستند الى نظرية « الحق الطبيعى » .

وقد تهتز أركان السلطة ، إذا ما صدرت الأوامر المتضاربة ، والتوجيهات الغامضة ، التى لا تتفق مع « فلسفة التنظيم » وتتعارض مع تحقيق الأهداف ، فتضر ولا تنفع ، ويتعرض التنظيم الادارى الى الانهيار ، فتتميع المواقف والادوار ، وتهتز السلطة الادارية ، حين يلحق الضرر مصالح الأفراد ، أو أهداف التنظيم ، ومن هنا يكون « التنظيم البيروقراطى » الناجح ، هو التنظيم الديموقراطى الحر ، الذى يجعل كل مزايا اللامركزية ، بحيث يكون للسلطة الادارية وظائفها التى تؤديها لاقتصاد الوقت ، وتنمية القدرات ، وتربية الكوادر ، مع السرعة والمرونة وتيسير الاتصال .

ولما كان ذلك كذلك ـ تحقق كل الأجهزة البيروقراطية أهدافاً ، وتتجه السلطة الادارية نحو إتجاه محدد ، حين تصبح السلطة ، هى الممارسة اليومية والدائمة لحسن انتظام سير العمل المنتج ، ورفع مستوى الكفاية والأداء ، بالنسبة لسائر قطاعات التنظيم الصناعى أو المؤسسة البيروقراطية .

ويتمثل الشعور بالمسئولية فى الامتثال Compliance ، وفرض الطاعة Obedience والرضا والقبول Consent ، مع ايجاد درجة من الاعتماد المتبادل dependability ، بين مختلف الجهود والانشطة التى تبذلها وتقوم بها كل الجماعات المنتجة .

التنظيم والادارة :

غالباً مايسأل من تقع على كاهله مسئولية تحقيق أهداف الانتاج ، وهى مسئولية كل فرد يتميز بكل مسئولية عن التنظيم الاقتصادى أو الصناعى فى كل مؤسسة ، وغالباً ما يكون المسئول هو « هيئة » أو شخص أو قد يكون على رأس المؤسسة

أو قمة التنظيم ، «مجلس » أو « إدارة » . وتقع مسئولية تحقيق أهداف الإنتاج والتنظيم ، على عاتق « الرئيس » ، أو « مجلس الادارة » المسؤول ، وقد يعهد «الرئيس» ببعض مهامه إلى مرؤوسيه ، فيؤدون واجبهم» بعد أن يعطى للمرؤوس من الرئيس « سلطه تصريف الأعمال الادارية والشئون الفنيه » مثل إنهاء أوامر التشغيل job order ، كما هو الحال فى التنظيم الصناعى .

وقد تصدر من رؤساء العمل من « ذوى البلاطى السوداء » ، قرارات ثانوية ولهم الحق فى التفتيش والمتابعة ومراجعة الأعمال . ولما كان « رئيس » التنظيم لا يستطيع أن يشرف على كل كبيرة وصغيرة فى سائر أقسام البناء الاقتصادى ، أو المؤسسة الصناعية لذلك تقسم الرئاسة إلى أقسام للاشراف Control والتخطيط والادارة management والتنفيذ ، ولأقسام الاشراف فرضت « الادارة المتوسطة » ، كما فرضت فئات العمال والمهندسين «كطبقة إنتاجية متخصصة لادارة العمل وتشغيل المصانع ، ويوفق « رئيس » التنظيم بين كل الأقسام من إدارة أو إشراف ، وينسق الجهود فى مجال العمل والعمال والتشغيل من جهة . ومجال التخطيط والمتابعة من جهة أخرى.

ويعين « رئيس التنظيم » فوق كل إدارة أو قسم مسئول يعمل تحت إدارته مكتب من الموظفين ، ويشرف على قطاع من قطاعات المؤسسة الصناعيه ،ويخضع على نحو مباشر لرئيس التنظيم « وبفضل تعاون الرئيس والمرؤوس يعمل التنظيم بروح الفريق « فتتحقق الأهداف الانتاجية والكفايات التنظيمية .

التنظيم بين الصراع والتوازن :

ينبغى أن يكون التنظيم الصناعى مرناً ومتغيراً ، حتى يتوافق ويتكيف كل تنظيم مع ظهور الجديد « فلا يصح أن يتخلف التنظيم الصناعى ؛ فيصبح جامداً inerte حيث يتقبل « التنظيم » الحق كل ما هو جديد ، فيتعدل ويتبدل مع تغير

السياسات والظروف والنظم ، كظهور وظائف جديدة بانشاء أو ضم أو عزل إدارات ووصل ما تجانس منها ، وفصل ما لا يتجانس ، الأمر الذى يحتم حدوث « التفاضل » ونمو الجديد ، فى قلب نسق الادارة القديم ، وبفضل التغيير الداخلى فى جوف كل نسق ، ينبثق التنظيم الجديد ، وبأدوار وأقسام أكثر فاعلية وحركة وبأنساق وقطاعات أوفر دينامية ، وأغزر إنتاجاً .

وإذا كان « بارسونز Parsons » قد إستبعد أو أغفل أبعاد التغير والصراع فى التنظيمات الصناعية ، وأكد فقط على الثبات والتكامل والتساند . فان « ميرتون Merton » قد أكد على وجود التغير الذى يفرض نفسه وينبثق من داخل التنظيم عن طريق التقدم التكنولوجى ، كما أكد على وجود الضغوط التى تفرض على التنظيم من الخارج عن طريق تدخل الدولة او الحكومة ، او بتأثير تبدل مواقف واستراتيجيات ومتغيرات التنظيم الدولى ، ومؤشرات ميزان القوى الذى يتذبذب ويتردد بين اليمين واليسار ، مع تأثير « التوازن الدينامى » الذى يحقق التعادل بين الضغوط الخارجية وما ينبثق من الداخل من قوى جديدة تقدمية ، ومن هنا يحدث « النمو » بفضل التغير الخارجى ، وانبثاق الجديد من المطالب التى تحقق « توازن التنظيم » من جهة اخرى .

ويؤثر التنظيم البيروقراطى على سمات الشخصية بالنسبة لأعضاء التنظيم حيث يتأثر كل إنسان بما يفرضه كل تنظيم بيروقراطى من ضغوط ولوائح ، حين يؤثر « نوع التنظيم » او شكله إن كان اوتوقراطياً مستبداً . او ديموقراطياً متحرراً على الشخصية الانسانية فهناك عوامل كاملة فى البناء البيروقراطى للتنظيم ، تترك بصماتها على سمات الشخصية بين سائر اعضائه . فتتأثر بنية الشخصية Personality بشكل السلطة ، وبقوة التنظيم ، وبهذا الكمون Latency القائم واثره فى البناء البيروقراطى للتنظيم .

ولقد رفض ميرتون Merton نموذج « ماكس فبر Weber » المثالى . بصدد

أن أكتشف مافيه من قصور أو ضمور ، ونظراً لصرامته العسكرية ، ووظائفه الرسمية والعقابية (١) . وبخاصة حين تهبط القواعد الرسمية ، التى تتصف دائماً منذ عصر فيبر وما بعده ، بأنها قواعد ضاغطة ، تتصف بالجمود ، مما يعوق وظيفة التنظيم البيروقراطى ، وهذا هو السبب الذى من أجله يتصف البناء البيروقراطى بالقصور والضمور ، نظراً لسكونه المستمر وانعدام الحركة فيه .

والتنظيم البيروقراطى الرشيد ، هو شكل أو نمط من العلاقات الاجتماعية الرسمية ، التى تتم على نحو هندسى وفى شكل منطقى وهيراركى ، يربط بين سائر الفئات الفوقية والتحتية من العاملين فى « إدارة » أو « هيئة » أو « مؤسسة » أو « قطاع » ، ولا يتكون التنظيم البيروقراطى من علاقات سلوكية ثابتة أو آلية لاتتغير إلا ببطء ، فهناك دينامية واضحة وفعالة داخل كل تنظيم . بحيث لا يقتصر التنظيم على عنصر « التوازن » والثبات ، وإنما ينبغى أن تعمل أيضاً عناصر الحركة والتضاد والصراع ، فتنبثق فى قلب كل تنظيم « القوى المضادة الجديدة » التى تعمل على تغيير وتطوير الشكل المسبق للتنظيم القديم .

ويستند كل تنظيم بيروقراطى ، من أسفله إلى أعلاه ، إلى مبادىء التنسيق والتدرج الهيراركى الذى يشمل التنظيم من القاعدة إلى القمة ، طبقاً لتخصصات دقيقة ، أو وظائف ومهمات متخصصة .

ولكن ماهو التنظيم الصناعى (٢) ؟

لكل مشروع صناعى أو إنتاجى أو إقتصادى تنظيمه الخاص ، ومن العسير

---

(١) التنظيم البيروقراطى ، مايدعمه من قوة القانون وسلطة التنظيم الرسمية ، ويرى جولدنر Gouldner ، أن هناك مايصدر من القواعد البيروقراطية ، التى يفرضها التنظيم ، لما لها من وظيفة عقابية ، تفرض على من يخرج على القواعد كجزاءات Sanctions ، أو ضوابط ، تتحكم فى ميكانيزم التنظيم البيروقراطى .

(٢) لقد شهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر مولد آلات الاحتراق الداخلى ، مما =

أن يتفق تنظيمان موضوعان لمشروعين متمايزين ، حيث ينبثق كل تنظيم من روح المشروع وطبيعته وظروفه ، والتنظيم الصناعي هو بمثابة « الجهاز العصبي » الذي يعمل داخل البناء الصناعي ، لتنسيق العمل وضبط الجهود ، وتيسير الاتصال ، وربط العلاقات ، ورفع الروح المعنوية ، ولذلك يستند كل تنظيم ناجح إلى أساس موضوعي هو « الالتزام » و « المسئولية » و « الجزاء » ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، بحيث تكون البساطة هي أساس كل تنظيم، حيث يخلق التعقيد سائر الصعوبات والعقبات أمام سرعة التشغيل ودقة الأداء ، مما يؤثر بالطبع على عمليات الصيانة ، ويقلل من معدلات الانتاجية .

أهداف التنظيم الصناعي ووظائفه :

ويسعى كل تنظيم نحو التكامل ، باحترام التخصص، واقتصاد الوقت والجهد، ودراسة عناصر وأجزاء العمل ، في ضوء قياس وضبط وتحليل الزمن والحركة ، مما يقتضي إلى مرونة التنظيم والتنسيق بين عناصر المشروع وإدارة الانتاج ، وتعاون الأفراد ، وتكافؤ الفرص ، وتشغيل الآلات ، وإتاحة الفرصة للترقية ، ورفع أجور العمالة .

والتنظيم الصناعي Industrial organization دوره ووظائفه في تطوير

= كان له رد فعله في ظهور « الانتاج الضخم Mass production » . ولم تكن هناك « صناعة بالمعنى العصري » قبل نهاية القرن الثامن عشر ؛ فنشأت مختلفة ومبعثرة ، بفضل جهود فردية متفرقة ومتواضعة ؛ وبدأت « الصناعات اليدوية » في المنازل ؛ ثم ظهرت المنازل فبدأ « التطور الصناعي » منذ منتصف القرن التاسع عشر ؛ في إنجلترا ثم فرنسا ثم أمريكا في الفترة ما بين عامي ١٧٦٠ حتى ١٨٦٠ وفي إنجلترا نشأت الصناعة مع ظهور المنازل الخشبية ؛ وقبل ثورة النسيج والأنوال الآلية ؛ ثم ظهرت الصناعة بعد عام ١٨٢٠ في الاتحاد السوفيتي « روسيا البيضاء » ؛ وفي عام ١٨٧٠ بدأ التطور الصناعي في ألمانيا .

عمليات الانتاج ، ورفع معدلات الانتاجية Productiviy وتطوير التنمية الاقتصادية ، وإذا ما استطعنا أن نميز بين هذه العمليات الثلاث للتنظيم الصناعى ، لوجدنا أن عملية الانتاج ، هى العملية الأساسية والكلية الناتجة عن كل النشاط والقوى التى تعمل فى « البناء الصناعى » من إدارة وعمالة و « تشغيل operation » وترشيد rationalization وكفاية .

هذا عن الانتاج كعملية أو هدف ، أما عن الانتاجية ، فهى معيار أو مقياس، يمكن تحديده وضبطه ، عن طريق معرفة الناتج الكلى ، لسائر القوى المنتجة فى البناء الصناعى . ثم قياس متوسط الانتاج الكلى فى الساعة ، ثم استخراج متوسط إنتاج الفرد فى فترة محدودة ، بقسمة كمية الانتاج على عدد العمال . إلا أن علماء الاجتماع الاقتصادى ، قد أكدوا على أن هذا المقياس الخاص بالانتاجية ، هو مقياس تقريبى ، وليس مقياساً دقيقاً أو نهائياً ، وإنما يعطينا هذا المقياس صورة تقريبية للانتاجية ، بالنظر إلى العمالة ، دون الالتفات إلى عوامل أخرى إنتاجية، مثل رأس المال والادارة والتنظيم ، وأدوات الانتاج ، وكلها عناصر ضرورية فى العملية الانتاجية ، وتدخل عملية تحديد وقياس الانتاجية ، كأهم عملية من عمليات التنظيم الصناعى .

والوظيفة الثالثة للتنظيم الصناعى ، هى محاولة تطوير وتنمية المجتمع، بقصد « إعادة بناء المجتمع » عن طريق مشروعات وبرامج ، تعجل بالتنمية ، وتخفف فى نفس الوقت ، من حدة التصنيع ووطأة التكنولوجيا ، باستخدام أنسب برامج التنمية الاجتماعية ، حيث تتحطم مع محنة الصناعة ، أنساق تقليدية traditional systems ، كما يبدأ الانحلال ويتسلل التفكك فى مختلف التنظيمات الاجتماعيه ، ويقوم على تنمية البيئة Ecodevelopment ، باعداد المجتمع وتهيئة البيئة الاجتماعية وتطويرها وتنميتها ، عن طريق مختلف البرامج الاقتصادية ، وحل المشكلات الناجمة عن عمليات التنمية الصناعية .

ترشيد الصناعة والتنظيم :

يقصد بعملية ترشيد الصناعة raticnalization of industry محاولة تطوير أسلوب وبرامج العمل ، من أنماط تقليدية إلى أنمـــاط أكثر تقدماً ، الأمر الذى يستوجب الغاء كل تنظيم صناعى قديم ، وإعادة التنظيم الجديد على نحو مباشر، وبطريقة مفروضة وإجبارية . بقصد العمل على إزدياد الانتاج كما وكيفاً ، مع رفع معدلات الانتاجية .

ويتمايز «ترشيد الصناعة» تماما عما قصدته «مبادىء الادارة العلمية» بصدد تنمية الكفاية الانتاجية فلا تعنى عملية الترشيد الصناعى . مع ماتدعيه فلسفة الكفاية ، وإنما نقصد بالترشيد الصناعى ، ترشيد التنظيم نفسه ، وإعادة بناؤه على نحو جديد . وبشكل يؤدى إلى علاج مشكلات كانت قائمة فى التنظيم القديم ، وحل مشكلات التنظيم الجديد . لخلق ظروف صناعية أفضل، وتحقيق أكبر انتاجية ممكنة ، بفضل استخدام تقسيم العمل .

ويمكننا أن نستبدل عملية تقسيم العمل . بعملية تكامل « العمليات» ، وهى مهمة ضرورية ووظيفة إنتاجية خاصة بضم مختلف الأعمال والأنشطة ذات الطبيعة الواحدة ، وربطها بعضها بعضا ، حتى تتمكن عمليات التشغيل الآلى المتكاملة، من تخفيض الوقت واقتصاد العمل. كما توفر الآلة ماكان يقوم به العمال من مجهودات، حين تحل فى جسم الآلة مجموعة من العمليات الانتاجية، فتحل الآلة محل الحرف والمهارات اليدوية القديمة .

ولقد أشـــار « آدم سميث Adam Smith » فى كتـابه ثروة الامم « Wealthof nation s » إلى ضرورة الأخذ بتقسيم العمل الصناعى ، وتنميـــة المهارات الفنية وزيادة الكفاية . ولعل أهم وظائف تقسيم الصناعى ،هى اختصار العمل وتسهيله ، عن طريق «الاختراع» وتطوير الآلات. وتقليل استخدام الأيدى

العاملة ، بقصد اقتصاد التكلفة والوقت والجهد . وتطوير الموارد التقليدية التى تتدخل فى عملية الانتاج ، وهى المصادر الكلاسيكية المعروفة فى علوم الاقتصاد كالأرض والأدوات والخدمات ومركز رأس المال . فقد يكون السبب فى ازدياد نسبة انتاجية العامل ، هو عامل « التنظيم والادارة » وقد تزداد الانتاجية استنادا لتضافر عوامل أخرى، مثل عامل « الأمن Security » أو نسق العلاقات الانسانية Human relations ، وقد ترجع الى علو درجة الكفاية الانتاجية ، أو زيادة الخبرة الفنية ، عن طريق برامج التدريب وتوجيه الخبرة ، ومتابعة « الصيانة » ، استناداً الى نوع التخطيط . هذا ما قصدناه بترشيد الصناعة ، وتخفيض تكلفة العمل مع الالتزام بالأجور الرخيصة .

التنظيم الصناعى وتقسيم العمل :

لكل « وحدة اجتماعية » مهما بلغت درجة بدائيتها أو تحضرها ، ومهما بلغت فى حجمها من الصغر أو الكبر ، تنظيمها الخاص ، طبقاً لنوع تقسيم العمل ، ووفقاً لحجم الوحدة ، ومبدأ التخصص ، ومدى بساطة أو تعقد التنظيم الذى يؤثر بالتالى فى بساطة تقسيم العمل ، وقلة الحاجة الى التخصص الدقيق . ويتحكم كل تنظيم صناعى . فى كل الوحدات الاجتماعية الانتاجية . فى سائر الأقسام والادارات والتجمعات . كما تتحكم أيضا فى نسق العلاقات القائمة بين أفراد التنظيم ، كما يضبط « ميكانيزمات » وموجهات السلوك فيه .

ويحكى لنا تاريخ الحضارة فيسجل لنا ويكشف ، عن نماذج مشهورة من التنظيمات القديمة ، كالنموذج الدينى والعسكرى والسياسى ، قامت جميعها لكى تقوم بمختلف الأنشطة ، مثل التنظيم الدينى وأدواره ووظائفه وأنساقه الداخلة فيه ، ومناشطه وطقوسه ومراتب التسلسل الهيراركى فى « تركيب البناء المورفولوجى » لفئات ومناصب الكرادلة والقساوسة من رجال الدين ، مع ضبط صور العلاقات التى تربط بين سائر هذه المناصب التى تتوزع فى « بناء هرمى واحد » يربط بين سائر الهياكل الدينية الجزئية . كما

نجد أيضا فى سائر التنظيمات العسكرية والسياسية ، مختلف الأدوار Roles التى تدور فى كل تنظيم ؛ حيث يشرف « التنظيم السياسى » على الوحدات السياسية ، ابتداء من القاعدة الأساسية للجماهير ، حتى تصل الى أعلى مستويات القيادة السياسية العليا .

وهناك تحولات تنظيمية طرأت على البناء الاجتماعى ؛ وأصبحت « ظاهرة واضحة » فى الوقت الراهن ، حيث صدرت التنظيمات الصناعية،مع تعقد وتباين أشكال التنظيمات الاجتماعية Social organization ؛ كالتنظيمات البيروقراطية والصناعية والإدارية والفنية ، بالاضافة الى وجود تنظيمات أخرى « موفولوجية Morphological » ، كالتنظيم الدينى ، والتنظيم السياسى ، والتنظيم الاقتصادى ، وكلها أشكال مورفولوجية (١) ، وتنظيمات تتعلق بأنشطة اجتماعية تقوم بها « مؤسسات » كالدولة والكنيسة والحكومة . أما الدولة فهى تنظيم سياسى له دوره ووظائفه فى تحقيق الأهداف القومية . والكنيسة تنظيم دينى ، يرعى العلاقات والطقوس والشعائر ، ويرعى المشاعر والروابط الدينية،فالدين هو الرابطة الروحية المقدسة ، التى تربط بين سائر أفراد المجتمع،ويخلق بينهم تياراً شعورياً وفكرياً واحداً . والحكومة هى تنظيم ادارى وتنفيذى ، يقوم على عاتقه تحقيق أهداف الدولة القومية،والسهر على مصالح الجماهير .

ومع تعقد الظواهر الصناعية والاقتصادية والانتاجية ، وما يتعلق بهما جميعاً من ادارة وكفاية وتوجيه ، وتدريب مهنى ، ظهرت أهمية « التنظيمات الصناعية » فى سائر المؤسسات والمشروعات . ولا شك أن هناك اختلافات واضحة بين « التنظيمات » و « المنظمات » ، فالمنظمة تختلف كلية عن « التنظيم » حيث تتضمن

(١) Halbwachs, Maurice Morphologie Sociale, Collec A. Colin. Paris. 1946,

كل منظمة تنظيماً يحكم ظواهر الإدارة ويضبط نسق العلاقات ، الذى قد يفرضه القانون ، فيصبح « التنظيم » ملزما ، ومفروضاً .

ويمكننا أن نميز فى بساطة ويسر بين « التنظيم الاجتماعى » من جهة ، و « تنظيم المجتمع » (١) من جهة أخرى ، فالتنظيم الصناعى ، هو شكل من أشكال التنظيم الاجتماعى ، يرتبط بتحقيق الخطة وأهداف الادارة ، طبقاً لمعايير اقتصادية ، كالكسب والخسارة . أما « تنظيم المجتمع » فيتصل بتنسيق الخدمات والمناشط على سائر الخدمات وتطوير مرافق المجتمع ، حيث يعتمد تنظيم المجتمع ، ع لى التضامن والتعاون ، واحلال روح العمل ، وغرس الديموقراطية ، فالانسان هو أساس التقدم والتنمية . والأرصدة الانسانية أكثر أهمية من أرصدة العملات الحرة ، ولا يمكن إطلاقا إقراض الشعوب روح المثابرة والعمل ، والمشاركة ، دون أن نبدأ أولا بتنمية اجتماعية وإنسانية لهذه الشعوب .

القصور الذاتى للتنظيم Inertia of organization :

هناك خصائص ومعايير ، تتخذ كمحكات Criteria تقاس بها التنظيمات الاجتماعية ، ولعل أهم هذه الخصائص والمعايير حالة « التوازن equilibrium » التى يتميز بها كل تنظيم أو نسق بمعنى أن « بناء التنظيم » يمتاز بخاصيتى الاستمرار والدوام ، وهذا مانعنيه بالقصور الذاتى للتنظيم ، الذى يوجد ويتوافر فى كل الأشكال المنتظمة . وبفضل هذا « القصور الاستاتيكى » أو « التوازن الذاتى » يعمل كل تنظيم على الاحتفاظ بشكله وانتظام مضامينه وفحواه . بحيث يكون كل جسم منتظم فى حالة متوازنة وثابتة .

ويحاول الانسان أن يتوازن ، ويسارع جسمه ، إذا ماحدث ماءخل بتوازنه واتزانه ، أن يتكيف مع الحر القائظ والبرد الشديد، وتلك الظاهرة هى مايسمى بحكمة

---

(١) دكتور أحمد كمال ، تنظيم المجتمع ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

الجسم Wisdom of the Body على حد تعبير البيولوجيين والاطباء ، حين تتجه كل الاجسام فى الطبيعة نحو التوازن ، كما يعود التوازن دائماً إلى « جسم الانسان » كلما صادف الجسم ، تغيراً خارجياً مفاجئاً .

وفى عالم التنظيمات الاجتماعية ، هناك الجديد الذى يهاجم التنظيم من الخارج ، ويهدد الشكل التنظيمى ، ويثور على ما إنتظم فيه من « أنماط الفكر والتصور » ، وما إستقر من أنساق الفلسفة وأشكال الأهداف ،فيغير التنظيم الجديدمن الأدوار Roles ويجدد من الوظائف Functions ، ويقلب هذا « الغزو الخارجى الجديد » كل أمور وقواعد التنظيم القديم رأسا على عقب،فتتغير أنماط السلوك والفعل الانسانى .

ومع انهيار التنظيم القديم ، يتهدم البناء البيروقراطى وتتغير النماذج المثالية ideal Types ، التى تتسلط وتتحكم وتسود ، وتصــدر المهام والقرارات والأجهزة الهيراركية الجديدة ، التى تتولى القيادة والسلطة والاستعلاء . ولذلك إرتبطت كلمة البيروقراطية ، بمفهوم سائد ، هـو مفهوم إساءة استعمال القوة أو السلطة ، وهذا مرض من أمراض البيروقراطية حين تنزل « القرارات » فى شكل أوتوقراطى مستبد ، وتهبط الأوامر من أعـلى التنظيم ، كجلمود صخر حطه السيل من عل ، وهذا هو الاستبداد بعينه ، حين لايشارك الناس فى عملية صدور القرار ، بالمناقشة والحوار الواعى ، فالحوار هو أكبر معلم ، لأنه يربط دائما بين سائر الأجيال والطبقـات والمستويات الفوقية والتحتية ، وبذلك ينبغى أن تثور عـلى البيروقراطية القديمة ، وأن ندعم « قضايا علم النفس البيروقراطى المعاصر » ، الذى ينظر إلى كل تنظيم عـلى أنه « محتوى إنسانى » له دوره ووظيفته وأهدافه .

ويمكننا أن نوجه سائر الانتقادات الى طبيعة « التنظيم البيروقراطى » ،حيث إزدادت ضغوط مثل هذا التنظيم الرسمى « مما يجعله يبدو كأنموذجاً للعصاة، تعمل فى

أستاتيكية وانتظام ، فى حركة ميكانيكية وآلية دقيقة . ولعل السبب فى ذلك ، هو أن « ماكس فيبر » قد أهمل الجوانب الانسانية فى التنظيم ، فأكد على الجانب الموضوعى ، وغاب عنه الجانب الانسانى ، حيث لم يثق « فيبر » كضابط فى الجيش الالمانى ، فى طبيعة الانسان البشرية ، وتهافته وضعفه ، فحاول فيبر أن يطبق نظامه البيروقراطى ، كى يضبط جموح النفس الانسانية وطموحها ، حين بدأت الاذهان تنشغل بالاحتفال بميلاد قوى الثورة الصناعية الجديدة .

ولقد استفاد « الفن جولدنر Alvin Gouldner بنظرية ماكس فيبر فى البيروقراطية، وألقى عليها أضواء جديدة ؛ ومزج البيروقراطية بالجوانب الانسانية والعلاقات غير الرسمية، ولقد تغير المفهوم الاكاديمى للبيروقراطية ، وظهرت أمراض وعيوب البيروقراطية ، كالمركزية ، واستغلال النفوذ ، والسيطرة ، والتزام حرفية القواعد [1] .

نظرية التنظيم :

فى نظرية التنظيم كشف « سملزر Smelser عن عناصر « التنظيمات الرسمية Formal organizations » ، ومصادرها ، وطبيعة كل تنظيم [2] . فكتب عن الادارة والمسئولية Responsibility ، ونسق السلطة anthority System

---

(١) وهناك عبارة نورية ونافذة أطلقها وصاغها الدكتور محمد نبيل جامع ، أستاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة الاسكندرية ، حين يصف الشخصية البيروقراطية الزمته الى حد الالتزام بالوائح ؛ ولا تبدى استعدادها لكى تفهم الغرض الحقيقى منها . فيطلق على هذه الشخصية اسم « عبادة البيروقراطية » أو « الوثنية البيروقراطية Bureaucratic Paganism » ؛ وهى عبارة طريفة ودقيقة ومعبرة أنظر كتاب « التقنيع فى علم المجتمع » دار المطبوعات الجديدة ١٩٧٣ صفحات ٢٣١—٢٣٤ .

(2), Smelser, Neil., Sociology, An Introduction, India, 1970 .

فى سائر قطاعات الحكومة ومجالس الادارة ، وفى « طبيعة المسئولية الإدارية » Nature of administrative Responsibility لكل هذه القطاعات الحكومية والرسمية ولذلك كتب « فريدريتش Freiedrich » وعالج مشكلة المسئولية . وذهب « سملزر » إلى أن التنظيم البيروقراطى ، هو تنظيم حكومى ومفروض ، حيث أن البيروقراطية فى ذاتها هى عملية رشيدة تصدر من الإدارة العليا ، وذلك من أجل التخطيط ، ووضع نظام للمراقبة Routine Supervision والرقابة لمتابعة الأعمال وللاشراف على وظائف وأدوار الادارة المتوسطة وبخاصة أسلوب الرئيس المباشر immediate Superior وكيفية تعامله مع مرؤوسية . على اعتبار أن « البناء البيروقراطى Structure of Bureaucracy » إنما هو نموذج مثالى ideal Type لكل تنظيم رسمى ، على حد تعبير « روبرت ميرتون » ؛ فى كتابه الممتع عن « النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى » .

وفى ميدان « التنظيم والادارة » كتب « سلزنيك Selznick » عن الوظيفة الرشيدة ، والدور التنظيمى لكل من « القيادة والادارة Leadership and Administration » ونشر « سلزنيك » هذه الدراسة فى مجلة American Scciolcgical Revie وفى نفس هذه المجلة ، كتب « سلزنيك » أيضا ، عن « أسس نظرية التنظيم The Foundation of the theory of organization » وكتب « وايت Whyte » فى نفس هذا المعنى عن الادارى الناجح هو الذى « رجل التنظيم Organization Man » وهى التسمية التى اشتهر بها « وليم وايت William Whyte » ، كما كتبت « مارى فوليت Follet » وساهمت فى هذا الصدد بكتابها عن « الادارة الدينامية Dynamic Administration » .

دينامية التنظيم :

إن النظرة التقليدية القديمة للتنظيمات المثالية ، هى « النظرة العقلانية الرشيدة »

التى أكدتها تصورية « ماكس فبر Max Weber » عن الأنماط الرسمية والموضوعية المحايدة التى تمتاز بالصرامة والجمود ، والتدرج الهرمى ، وسيادة القواعد ، واستمرار الضوابط والميكانيزمات القائمة فى كل « تنظيم بيروقراطى رشيد » مع ضرورة عدم إغفال تركيز السلطة ، وفرض الواجبات ، التى تصدر من أعلى التنظيم ، فلا يكون على الافراد والأعضاء سوى الامتثال والتبعية ، والنمطية والولاء ، نظراً لتسلط التنظيم البيروقراطى ، فتتلاشى الشخصية تحت ضغوط البيروقراطية ، وهذا ما يؤكده « روبرت ميرتون Merton » فى كتابه الضخم عن « النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى » ، وما أشار إليه أيضا فى كتابه « البناء البيروقراطى والشخصية Bureaucratic structure and Personslity » .

ولقد إتفق « هربرت سيمون Simon » ، مع « روبرت ميرتون » ، فى رفض النمط التقليدى المثالى عند « فبر Weber » لأنه اقتصر على ضروره وضع القواعد المنظمة السلوك الادارى Administrative Behaviour . وفى كل تنظيم أهمل « فبر » محتوياته الاجتماعية والسلوكية ، وأكد فقط على صرامة ، جوانبه المادية والاقتصادية .

وليس « التنظيم » شيئا جامداً inerte أو نسقاً ثابتاً على ما توهم « فبر » فى تصوريته العسكرية ، التى تأثر بها بحكم عمله وممارسته لوظيفته فى تنظيم الجيش الألمانى ، ذى التقاليد البروسية الصارمة التى وضعها الاباطرة منذ « فردريك الاول والثانى » والتى امتدت حتى « بسمارك » و « فون مولكته » .

1 — Merton, Robert ' Social Theory and social Structure. Enlarged Edition, 1968.

هذه هى النظرية التقليدية ، التنظيم المتسلط الذى يغفل تماما كل مقدمات ونتائج علوم الاجتماع والنفس والادارة ، والصحة النفسية Mental Hygiene » .
أما التنظيم بمعناه العلمى المعاصر ، فهو تنظيم دينـاميكى متطور ، يحقق الذاتيـة ، ويشجع تنمية وتدريب كوادر العمل على المساهمة والمشاركة ، فى وضع واتخاذ القرار وتنفيذه .

فليس التنظيم أمر صورى Formal بحت ، وإنما نلحظ وبوضوح « المحتوى الانسانى » فى كل تنظيم ، وعلى نحو واقعى أو « تجـريبى » ومشـاهد . فالتنظيم هو بناء دينامى متفاعل الأجزاء ، وهو « مجال سـلوكى » له علاقاته المتبـادلة التى تتكامل وتتساند وتتفاعل ، فليس التنظيم « صورة مجردة » فارغة عن مضمـونها الانسانى الحى ، أو منفصلة عن محتواها الدينـاميكى ، وما يدور فيـه من أنمـاط إجتماعية وسلوكية ، تحكم وتضبط سائر العلاقات بين مختلف الأدوار والوظائف وإنما تظهر لنا ظواهر « الصيغة التنظيمية » فى وحدة جشطالتية ، تعبر عن خصائص التنظيم فى تكاملها وتساندها ، حين يعبر « الشكل عن المضمون » ، وحين يكشف المضمون عن طبيعة الشكل .

وهذه هى النظرة الموضوعية والواقعية لكل تنظيم معاصر ، يمتـاز بالوحـدة والتكامل ، كما تدعمه فى نفس الوقت « هيئة إعلامية » يلحق بها مكتب للعلاقات العامة ، « يكون له كفايته ووظائفه » فى سائر عمليات الاتصال وتقسيم العمل ، والمشاركة والتعاون بين سائر القطاعات ، وسهولة نقل القرارات إلى سـائر أفراد التنظيم ، مع رسم وتخطيط وتحديد ، نوع وأسلوب العمل ، وطريقة تنميطه أو تبسيطه .

وقد تظهر فى تحديد مفهوم النمط السلوكى للتنظيم الدينامى « أهمية القيم Values » ، ودور الدافعيات Motivations فى مجال الفعل والحركة ، بمعنى أن

النظرة المعاصرة للتنظيم ، إنما تؤكد لنا دائما ، وتبرز قيمة وأهمية الدور الذى تلعبه « القيم » فيما وراء السلوك ، وداخل كل تنظيم ، أو مؤسسة بيروقراطية .

ومن هنا ينظر « خبراء الاقتصاد » وسوسيولوجيات التنظيمات ، بين الاعتبار إلى التنظيم كوحدة أو كشكل متساند ، يعمل « ككل دينامى » يجمع بين الشكل والمضمون ، ويربط بين الفوق والتحتى ، أو يصل بين السلطة والادارة من جهة والقاعدة الإنتاجية العاملة ، من جهة أخرى(١) .

فاذا كان التقليديون ينظرون بعين الاعتبار إلى « دور الفحوى » و « المضمون المتغير الخصب » ، على اعتبار أن التنظيم ليس « شكلا » كانطيا صوريا Formal وفارغا » ، أو « نمطا » فبريا تقليديا traditional » وثابتا ، وإنما نجد فى كل تنظيم « مضمون إنسانى وتاريخى ومتحرك » لأنه بوساطة مضمون دينامى متغير ، بمعنى أن فحوى كل تنظيم أو مضمونه ، هى العلة الحقيقية التى بفضلها يعمل التنظيم ويحيا ويدوم ويتحرك . فليس التنظيم نسقا جامدا ، وإنما هو « نسق دينامى » وتنظيم إنسانى له حاجاته وضروراته ومعنوياته التى ينبغى الالتفات إليها .

ويحمل باطن كل تنظيم مضمونه التغيرى المتفجر الذى يحوى عناصر تجديده، كما يشير « تومسون Thompson » فى مقالة عن « البيروقراطية والتجديد Bureaucracy and innovation الذى نشره فى مجلة العلوم الادارية Administrative Sceince quarterly العدد العاشر ، الدورية الخاصة بعلم ١٩٦٥ .

ويعبر فحوى كل تنظيم عن « طاقات بشرية » وإمكانيات إنسانية ، لها دورها الديناميكى الفعال فى مستقبل كل تنظيم ، بمعنى أن يكون التنظيم هو إطار

---

(1) Smelser, Neil., Sociology. An Introduction, India, London 1967.

وأنظر أيضا فى هذا الصدد :

Restivo, Sal. P., Christopher K Vanderpool., Comparative Studies in Science and Society. U.S.A 1974.

يتحرك داخله « محتوى انسانى » ، أو هو شكل صورى ، يدور فيه « فحوى » أو مضمون دينامى .

فالتنظيم هو هيكل الادارة ، الذى تدور فيه سائر أنساق الوظائف والأدوار والعلاقات الوظيفية فى نمط رسمى ، وصور إتصالية ، وحركة تعاونية تضامنية ، توحد بين سائر الجهود للتوصل إلى هدف أو غاية ، وهذه هى فلسفة كل تنظيم بمعنى أن يكون الافراد هم العنصر الجوهرى فى كل تنظيم تقوم بداخله علاقات رسمية وأخرى غير رسمية ، وينبغى الاعتراف بدور تلك العلاقات فى التكامل ، ووظائفها بين الجماعات الصغيرة الداخلة فى « كل تنظيم إنتاجى أو صناعى » ، ويمثل كل تنظيم نمط التعاون البشرى ، فى شكل رتيب وموحد ، وتحت ضغط كيان تنظيمى صارم ، يمارس السلطة ، ويقوم بالرقابة والتنسيق ، وتيسير الاتصال بين سائر القطاعات استناداً إلى بذل الجهود وتنظيمها وتوحيدها وتركيزها مع تقسيم الوظائف والاعمال طبقا لنوع التخصصات وأنواع الوحدات الانتاجية. ولاشك أن نقطة الضعف الشديدة التى تعانى منها سائر التنظيمات ، إنما هى تعدد الرياسات ونشوب الصراعات وتضارب السياسات ، وتؤدى جميعها إلى التفكك Disorganization ، كما أن « أوتوقراطية الاداره » ، والخوف والكراهية ، كلها حوائل تحول دون تكامل التنظيم أو تحقيق أهدافه .

البيروقراطية والتنظيم :

يقول « روبرت ميرتون Merton » إن « البيروقراطية » هى نموذج مثالى Ideal type لتنظيم رسمى formal organization (١) ، ولقد صدرت « البيروقراطية » كنظرية ومنهج وأسلوب ، عن مختلف أشكال التنظيمات الصناعية ،

(1) Merton, Robert., Social Theory and social structure, Enlarged Edition. 1968 P. 249.

التى عاصرها عالم الاجتماع الالمانى «ماكس فبر Weber» وشاهد آثارها الايجابية واضحة فى نمو «المؤسسات البورجوازية الالمانية الصاعدة» ، والتى كان لها صداها فى تدعيم صرح الصناعة الالمانية ورد فعلها فى تركيب وتكوين «البناء الاقتصادى الدولة» ، ثم إن خبرة «ماكس فبر» كضابط فى تنظيم عسكرى ألمانى صارم ، جعلته يعرف طبيعة الاداره ، وضرورة نجاح التنظيم الاقتصادى المدعم بالتنظيم الادارى والبيروقراطى ، والذى يستند فى نفس الوقت إلى قواعد «الضبط Control» ، والامتثال لكل ما يفرضه القانون ، مع احترام إرادة الدولة ، وهذه هى وظيفة التنظيم البيروقراطى ، فى «إدارة الدولة» ، وتحقيق إرادتها ، فى إطار نظام إقتصادى موجه ، وتنظيم سياسى صارم .

ولقد صدرت البيروقراطية ، كمفهوم سياسى وإدارى ، كنتيجة حتمية لتطور الصناعى ، الذى أحدث ثورة فى المفهومات الحديثة «للدولة» ، و «السلطة» ، و «التنظيم» ، وهى مفهومات سياسية لحما ودما ، كما أنها مفهومات سوسيولوجية التصور ، جماعية المحتوى ، تتصل بمعنى «الحكومة» و «الحزب» و «الوزارة» كمؤسسات سياسية من الدرجة الاولى ، وكلها ظواهر يدرسها ويرصدها عالم الاجتماع السياسى .

ولاشك أن البيروقراطية ، هى همزة الوصل التى تربط بين الحكومات والوزارات والمصالح ، تلك التى تتصل فيما بينها عن طريق «إدارات» و «أقسام» و «مكاتب» . والعملية الادارية ، هى عملية بيروقراطية تتم كنتيجة حتمية للاتصال وسهولة الاشراف ، وتيسير الحكم الادارى الذى ينفذ عن طريق «حلقة إدارية متتابعة» ، تربط بين سائر مكاتب الادارات ، ذات الاختصاصات والقطاعات المتشابهة ، فالبيروقراطية ، هى وسيلة الحزب أو الدولة أو الادارة ، أو الحكومة ، وهى «وسيلة إدارية ضابطة» تسير فى «قنوات روتينية منظمة» ، تربط بين فئات إدارية فوقية وتحتية ، فتنتظم العلاقات بين سائر أجزاء التنظيم ، كما تحقق سهولة

وتيسير الاتصال بين الإدارة والتنظيم، ومعظم « الأعمال المكتبية الروتينية Routine bureaucratic Tasks »(١) التي تتواتر وتسجل، حين ترد أو تصدر طبقا لنمط بيروقراطي محدد، ينفذ كاجراء إداري، أو كعملية نمطية.

وهناك أحوال للتنظيم الرأسي والوظيفي، تتباين فيها أشكال «السلطة والادارة» من النمط المركزي الصارم، إلى النمط اللامركزي في الاشراف والادارة، ففي حالة ما إذا كان التنظيم رأسيا، تكون السلطة متمركزة في يد « المدير » أو « المشرف على التنظيم »، وذلك بقصد تيسير التنفيذ والسيطرة، ووضوح المسئولية وسرعة الاجراء والتصرف(٢)، ومن عيوب التنظيم الرأسي، الصرامة وعدم المرونة، واصدار « غير المستطاع » مما يعوق تنفيذ الاوامر، ويحمل أفراد التنظيم ما لا طاقة لهم به. كما ويستخدم كل تنظيم رأسي، عدداً من الخبراء والمستشارين، يشتركون في وضع البرنامج وتصميم الخطة، كما يقدمون للرئيس أو المدير، مختلف المقترحات أو التوصيات.

أما النظام اللامركزي في التنظيم والادارة، فيحدد لكل قسم عدداً من المشرفين، فيكون التنظيم وظيفياً يأخذ بلامركزية الاشراف والادارة، ويحدد الوظائف الخاصة بالتشغيل والصيانة، واعداد الخامات، وتصميم الرسومات، والتخطيط والمتابعة والتفتيش على خط سير الانتاج بشكل دوري ومنتظم.

ويمكن الجمع بين مزايا التنظيم الرأسي، والتنظيم الوظيفي، وعلاج عيوب كل منها، لاتاحة الفرصة للكوادر الانتاجية الجديدة، ويوفر الخبراء، ويقضي

---

(1) Mack, Raymond, John pease., Sociology and Social life.. fifth Edition, Van Nostrand company 1973.

(2) Smelser, Neil, Sociology, An Introduction India, 1970.

على التداخل بين التخصصات ، وتعدد السلطات ، وتميز بين ما هو « استشارى » دون سلطة ، وما هو « تنفيذى » دون تخصص ، بالقضاء على كل مايعطل عمليات الانتاج ، وتضارب الأقسام ، والرئاسات والتخصصات ، فالتمادى فى اللامركزية ، إنما يؤدى إلى الاضطراب والارتباك وعدم الانضباط(١) .

واستناداً إلى هذا الأساس ، ومن أجل ضمان عدم تفكك التنظيم ، وعلاج عيوب التنظيم الرأسى والوظيفى ، يوجد ما يسمى بالتنظيم الرأسى الاستشارى والوظيفى ، وتنقسم فيه السلطة والادارة ، بين رئيس التنظيم ورؤساء الادارات والأقسام واللجان .

ضرورة التنظيم :

ولايمكن أن يعمل الناس تلقائياً ، أو دون توجيه ، وإنما ينبغى تنسيق العمل وضبط الجهود ، وهذه هى ببساطة عملية تنظيم المناشط activities والوظائف Functions والأدوار Roles ، كما يجمع التنظيم بين الاتصال والرقابة Control ، وفقا لخطة هادفة ، يخطط لها التنظيم ، لكى ينفذ أو يحقق مختلف أدواره ومناشطه ، أو حتى ليجرى عملية من عمليات التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية ، وذلك بأسرع وقت ، وأقل تكلفة ، استناداً إلى مبدأ التخصص specialization والالتزام بالقواعد التى تضعها إدارة التنظيم ، على نحو حازم وفعال .

واستناداً إلى هذا الفهم ، يكون التنظيم ، هو بناء صورى ورسمى Formal

---

(١) يقصد باللامركزية الرأسية ، طريقة ادارية وفنية وصناعية ، تطبق فى شركات الولايات المتحدة الأمريكية ، واشتهرت باسم « نسق الدجاجة وأفراخها Hen and chicken system » حيث تعمل الفروع بالاشراف على جزئيات مختلفة من العملية الانتاجية ، بحيث تتكامل وتجمع فى مركز رئيسى ، يقوم باعدادها وتجميعها أو تغطيتها ، « لكى تصبح المنتجات سلعاً جاهزة للتصدير فى السوق المحلى » .

والادارة هي « العنصر الديناى الحى » فى كل تنظيم ، بمعنى أن يكون التنظيم هو صورة الادارة ، والادارة هي مضمون التنظيم .

وإذا كان التنظيم ، كبناء صورى ورسمى ، يهتم بفرض الشكليات وتطبيق الرسميات ، فان الادارة كعملية تطبيقية تنبض بالحياة ، إنما تهدف إلى تنفيذ إراده التنظيم وتحقيق أهدافه ، وإذا كان التنظيم هو نسق من العلاقات والوظائف الرسمية فى بناء بيروقراطى ، فالادارة هى عملية توجيه وإشراف وتنسيق ، فالتنظيم صورة والادارة أداة . التنظيم حالة استاتيكية ، والاداره حالة ديناميكية ، والتنظيم شكل ، والاداره فاعلية ، وإذا كانت الاداره « مشخصة Concrete » وواقعية ، فالتنظيم هو أمر « مجرد Abstract » ، كل تنظيم هو تنظيم صورى أو غير مشخص ، ولا يتحقق التنظيم فى الواقع الاجتماعى ، إلا فى إداره تعمل وتحقق وتنفذ .

فالتنظيم قائم وخالد . بدوام « القانون » أو « المؤسسة » ، أما الادارة فهى واقعية تنبض بالحياة ، لأنها تعمل وتصنع ، وتتوقف وتنتهى ، فالتنظيم أمر لا يخضع الزمان ، لانه مطلق ، أما الاداره ، فهى أمر واقعى وتاريخى ، لانه يتحقق فى الزمان .

بمعنى أن التنظيم والادارة ، هما المادة والروح ، والصورة والهيولى بالمعنى الارسطى . والاطار والمحوى ، أو الشكل والمضمون بالنسبة لكل مؤسسة أو مشروع صناعى أو إقتصادى .

ولا تكتفى عملية التنظيم بذاتها ، ولا تعمل وحدها ، فليس هناك تنظيم بلا إدارة ، لأن الادارة ببساطة هى « روح التنظيم » ، ومبعث الحركة الدينامية خلال أنساقه وأدواره ، بمعنى أن الاداره فى الحقيقة ، هى أداة كل تنظيم ، ومصدر فاعليته ، ومبعث الحركة فى مضمونه ودينامية محواه .

ولقد بدأت الاهتمامات بالتنظيم والادارة ، منذ إكتشف « تايلور » أن أعمال

(1) Smelser, Neil Sociology, An Introduction, India 1970

الصلب يخطئون فى عمليات التشغيل ، فيطرقون الصلب بطرق مختلفة . فحاول عن طريق « براج التشغيل والتدريب » ، أن يتوصل إلى طريقة واحدة ومثالية One ideal way . وباستخدام الطرق الأولية فى نظم الادارة التطبيقية وبرامج الكفاية الانتاجية ، وبعد الخسائر المتعددة والفادحة لنقص الخبرة ، أعلن « تايلور » عن ضرورة الالتفات إلى تحقيق مايدعم الخبرة وتدريب العمالة ، الأمر الذى يكشف لنا بوضوح أهمية « التنظيم الادارى » أو شدة الحاجة إلى « إدارة منظمة Systematic management » ، عن طريق تحقيق أو تطبيق منهج إدارى منضبط ورشيد . فوضع « تايلور » فلسفة جديدة للادارة العلمية ، تقوم على الاختيار السليم للأفراد ، واختبارهم ، مع التحديد العلمى لمعظم بل كل أجزاء العمل وعناصره ، كما رسم سياسة لتقسيم العمل ، ووضع اللبنات الأولى التى إليها يستند كل « تنظيم صناعى » يقوم على الإلتزام بمبادىء الادارة العلمية ، فحاول « تايلور » ولأول مرة فى تاريخ العلاقات الصناعية ، أن يلتزم بمبدأ جديد وهو الالتزام بقواعد التعاون الرشيد ، بين « العمال والادارة » .

ولا يهتم « التنظيم » بأفراد ، بل بوظائف وأدوار « Role » وأعمال مراكز ، كما ويفصل التنظيم بين عمليات الانتاج والتمويل والتسويق ، ويضع لكل عملية منها تخطيطاً يرتب مراحل جزئية ، وأجزاء مرحلية ، وخطوات لكل عملية .

خاتمـــة

سنحاول فى هذه الخاتمة أن نستعرض مختلف منجزات و نتائج علم الاجتماع السياسى فى ميادين التنمية الاقتصادية ، حيث وجدنا أن ماضى هذا العلم الاجتماعى غنى وحافل بالتراث الفكرى ، كما أن تاريخ الفكر الاقتصادى نفسه إنما يتميز بالسخاء ووفرة المادة السوسيو إقتصادية التى أخذت تترى و تتراكم منذ فترة ، تزيد على قرن من الزمان .

و لعل « هربرت سبنسر Herbert Spencer » وتحليله للمجتمعات العسكرية Military والصناعية Industrial ، قد ألقى ضوءاً على فكرة التطور الاقتصادى للمجتمعات ، و كيف تؤثر فكرة « التطور Evolution » أو « التقدم progress » حين تتفاعل و تتداخل فى الظواهر الاقتصادية . فتتحول من مستوى الاقتصاد المتجانس « Homogeneous » إلى مستوى الاقتصاد « اللامتجانس Heterogeneous » (١) بالاضافة إلى أن المبدأ الذى بفضله تسيطر تكامل المجتمع فى حالته العسكرية هو مبدأ « التعاون المفروض أو القهرى Compulsory Cooperation » وهو شكل من أشكال التضامن الجبرى يتميز به التكامل الاجتماعى Sooial Integration بما يتضمنه من أشكال اقتصادية ، وصور عامة يتميز بها النشاط الاقتصادى .

ولكن التكامل الاقتصادى الذى يتعلق بالنمط الصناعى ، إنما يتمايز تماما عن المجتمع فى الحالة العسكرية ، بحيث نجد أن « النشاط الصناعى Industrial activity » إنما يستند أصلا إلى نظام الضبط السياسى Political Control وقواعد الانتاج وقوانين العمل ، وأسس توزيع الثروة وحدود التمتع بحق

---

1 — Spencer. Herbert. The *Principles* of Sociology, London 1885.

الملكية ، وكلها أساليب مشتقة من أصول ومصادر إقتصادية (١) .

ثم إن المبدأ الذى سيطر على « البناء الاجتماعى » فى حالته الصناعية ، هو مبدأ « التعاون الاختيارى أو الارادى Voluntory Cooperation » وهو « شكل من أشكال التضامن الحر ، الذى يتميز به النمط الاقتصادى فى المجتمعات الصناعية الرأسمالية . وهذا هو المظهر التطورى للاقتصاد ، كما وصفه سبنسر فى كتابه « مبـادىء علم الاجتماع Principles of Sociology » ، أما « إميل دوركايم Durkheim » وبخاصة فى كتابه « تقسيم العمل الاجتماعى Division of Labour in Society » فقد عالج الظاهرة الاقتصادية على نحو مختلف تماما ، حيث ميز دوركايم بين الظاهرة الاقتصادية ، فى المجتمعات البدائية وبينها فى المجتمعات المتحضرة ، حين وضع بعض الشروط التى يمتاز بها المجتمع البدائى ، من ناحية « التضامن الآلى Mechanical Solidarity » حين تتشابه وتتجانس أنماط السلوك الاقتصادى فى المجتمعات البدائية ، أما المجتمع الحديث فيتميز بالتضامن العضوى Organic Solidraity حين تتعقد وتتنوع ظاهرة تقسيم العمل ، وبالتالى تصبح أنماط الاقتصاد فى المجتمعات الصناعية أكثر تركيبا وتعقيداً من تلك السائدة فى المجتمعات البدائية .

وما يعنينا من كل ذلك ، هو أن الظاهرة الاقتصادية . إنما هى ظـاهرة من نوع خاص ، حيث صدرت بصددها الكثير من الكتابات ، وعولجت عند الكثير من علماء الاجتماع ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، من أمثال « سبنسر » و « دوركايم » و « ماكس فـيبر Max Weber » وكارل ماركـس « Karl Marx » ، كما عالجها عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانى «

(1) Ibid. pp. 12-13.

«رايموند فيرث Raymond Firth» وبخاصة فى كتابه «عناصر التنظيم الاجتماعى Elements of Social organization» وحين نظر إلى المجتمع نظرة خاصة ودرس البناءات الاجتماعية، لا من زاوية «القيم» و «صور التنظيمات الاجتماعية Fomrs of soefal organization» على مافعل رادكليف براون Radcliffe- Brown (١)، ولا من زاوية الأنساق الاستاتيكية الثابتة القائمة فى البناءات السياسية وما يدور فيها من علاقات سوسيومكانية وسوسيوزمانية ومسافات بنائية structural distance، تنظم هذه العلاقات، على مايقول «إيفانز بريتشارد Evans-Pirtchard(٢)». فلم يدرس «رايموند فيرث» البناء الاجتماعى فى «تيكوبيا Tekopia»، من زاوية صور العلاقات والتنظيمات. ولا من زاوية البناء السياسى والمناشط الايكولوجية، وإنما درسه من زاوية البناء الاقتصادى، وما يقوم فيه من نظم التخصص المهنى، وما ينجم عنها من المراكز والمراتب وأشكال المكانة Rank والاختلاف الطبقى، والأدوار الاقتصادية بين مختلف فئات «الجنس Sex» والسن «age» و «الموطن» «والقرابة».

هذا مثال من الاقتصاديات البدائية، أما بالنسبة لمسائل الاقتصاد بأنماطه الحضرية والصناعية، فقد تعرض «ماكس فيبر Max Weber» لمسائل النقود Money وعلاقتها بمشكلة السوق Market وبخاصة أسواق التجارة والمال فى عمليات البيع والشراء، والربح. وكشف فيبر عن مفهومات اقتصادية

---

(1) Radcliffe-Brown, A R, Structure and Function in Primitive Society., Cohen and West, London. 1956. p. 193

(3) Evans-Pritchard, E.E., The Nuer, Oxford 1940 P. 261.

خالصة ، مثل « القيمـــة الاقتصادية » أو المنافع الاقتصادية Economic utilities » مثـل « السلع goods » ، أو الخدمات Services » كمجهـودات عليـــة أو إنسانية تحقق منفعة ، كما كشف عن « الاحتـكار Monopoly » والاستغلال ، وناقش مشكلة الاقتصاد الحر والاقتصاد الموجه ، مما فتح الباب على مصراعيه أمام مسائل « الادارة » و « التنظيم » و « البيروقراطيـة Bureaucracy » و « الاشتراكية Socialism » و « الرأسمالية Capitalism » و « حرية الملكية Freedom of Property » (١).

وبصدد « التركيبات الاقتصادية فى المجتمع » ، يعتبر « ماكس فيبر » الطبقة تركيب إقتصادى يدور بين جماعات من الناس حـول مصالح خاصـة لتحقيق منفعة أو زيادة دخل income ، وبخاصـة فى تلك الفرص التى يتيحها « العمل » وظروف السوق .

موقف علم الاجتماع السياسى :

أ ــ يمكننا أن نحدد فى كلمات سهلة ويسيرة ، خلاصة موقف « علم الاجتماع السياسى من مشكلات التنمية » ، فنقول فى بساطة ، إذا كان « التخلف » يعنى الركود الاقتصادى ، وانخفاض متوسط الدخل الفردى، وهبوط معدل المدخرات، فالتنمية الاقتصادية ، هى عملية تهدف بالضرورة إلى زيادة الدخل الحقيقى للمجتمع بالعمل المستمر الدائب على رفع الكفاية الانتاجية ؛ مما يؤدى بالقطع إلى مضاعفة حجم الانتاج ، والقضاء على « التخلف » بزيادة معدلات الدخول الفردية ، ورفع

---

(1). Weber, Max., The Theory of Social and Economic Organization, trans. By Henderson and Parsons, Glencoe, 1957, P. 30.

حجم الإستثمارات والمدخرات (١) .

وإذا كان « خبراء النفوس » يبحثون عما هو « عام وشائع » فى طبائع البشر، حتى يمكن علاج ما هو « شاذ » أو « غير مألوف » ، فعلى خبراء الإقتصادوالتنمية دراسة ماهو « عام وشائع » فى إقتصاديات المجتمعات النامية والدول المتقدمة ، حتى يمكن التوصل إلى عدد محدد من الأحكام والتعميمات الإقتصادية ، حين تتشابه الظروف والأوضاع الإجتماعية ، وبالتالى يمكن علاج ماهو « تقليدى » أو « متخلف » فى ميادين الثقافة والإقتصاد .

وعلى هذا الأساس ، تصبح التنمية الإقتصادية على العموم ، هى عملية النهوض بالموارد المتاحة ، واستغلالها إلى أبعد حد ممكن ، لمواجهة الحاجات الجديدة . فالتنمية إذاً هى تنمية الموارد الإقتصادية ،وهى «محصلة الجهود العلمية»المستخدمة لتنظيم الأنشطة الحكومية ،وتشجيع « الجهود الذاتية والرقابة الشعبية»،مع تنظيم « النشاط الأهلى» وتنمية المجتمع بتكثيف برامج للمساهمة أو للمشاركة الاهلية،من أجل تعبئة الموارد وفقاً لتخطيط مدروس . فالجهد الجماعى وتنمية القيادات ، مع الإيمان بالتخطيط العلمى المرن والمنظم ، بالإضافة إلى التركيز على ضرورة التطوير ، بتنمية الإحساس بالزمن الإقتصادى ، والشعور بالحاجة إلى التغير ، وكلها عناصر سوسيولوجية وسيكولوجية ، أساسية وضرورية ، فى عملية التنمية الإقتصادية .

ب ـ وهناك فوارق بالطبع بين « التنمية الاقتصادية » و « الانتعاش الاقتصادى » حيث تحتاج التنمية الاقتصادية إلى عمليات وبرامج ومشروعات فى

---

(١) دكتور عبد الكريم صادق بركات : إقتصاديات الدول النامية . الاسكندرية ١٩٦٩ صفحات ١٤ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٣ .

التنمية الثقافية والحضارية والسيكولوجية . أما عملية ، الانعاش ، فهى عملية مادية بحتة ، لاعادة البناء الاقتصادى ، إلى مسيرته الاولى ، والعودة إلى ، حالة أفضل ، مضت وانقضت ، حتى نستعيد كل موقف أو ، وضع إقتصادى ، قد إفتقدناه ، لكى يحدث التوازن المطلوب ، والتكيف الأول ، مع الاوضاع الاقتصادية الجديدة ولا تستند ، إقتصاديات التنمية ، على مجرد ، القروض ، واستعارة التكنولوجيا ، والمعونات الفنية والاقتصادية ، بالنظر اليها على أنها وسائل ، دفع ، لتنمية والتعجيل بها .

وهذه نظرة خاطئة فى علوم تنمية المجتمع ، فالقروض والنقد والديون ، واستعاره التكنولوجيا ، والمعونات الفنية ، ينبغى أن تنظر اليها جميعا على أنها ، نتائج التنمية ، ، وليست بالتنمية فى ذاتها . فالقروض والتكنولوجيا ليست بمثابة مقدمات للتنمية ، بل إن التكنولوجيا هى مخلوق تراكمى ثقافى واجتماعى ، وليست التكنولوجيا كالعلم ظاهرة عالمية ، بل هى عملية واجتماعية ، لان التكنولوجيا هى إفراز إجتماعى ، وليست بالمخلوق المادى ، كأشياء أو سلع نقتنيها ، .

وهذه المساعدات المادية والقروض ، قد تبنى أشياء ، وقد تشيد لنا ، بناء ، وتقيم المشروعات والصناعات ، ولكنها للاسف الشديد ، لا تبنى أو تقيم ، إنسانه فمن السهل بناء ، كوبرى ، أو ، نفق ، ، ومن الصعب ، بناء إنسان ، . حيث أن الاعتماد على مجرد القروض والمعونات الفنية ، إنما يضر بعملية التنمية الاقتصادية حيث تصبح الديون هى ، أعباء ، تنوء تحتها الدولة . ومن أجل التنمية تعتمد الدول النامية عـــلى عرق أبنائها وسواعدهم وعلمهم ومدخراتهم ، وحرمانهم وتقشفهم . فعلينا أن نعبىء القدرات ونطلق الطاقات ، ونشحذ الهمم من أجل زيادة الانتاج ، والتقليل من الاستهلاك والنهم وإشباع الحاجات ، والتهافت على شراء الكماليات . فما أحوجنا إلى العمل الشاق ، والتقشف بالتعفف ، وبالتقليل من

استهلاكنا ، وتفضيلاتنا » .

وفيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية ، و « وتنمية النظم الادارية» ، فيمكن النظر إلى الادارة من وجهة نظر « علم الاجتماع الادارى » على أنها نسق إجتماعى ، يتغير مع تغير النظم الاجتماعية . كما ويطرأ عليه سائر ما يطرأ على النظم الاجتماعية الأخرى من « ظواهر » . فهناك إدارة « رجعية » أو متخلفة » ، وإدارة أخرى « تقدمية » و « متحررة » ، طبقاً لما يسود البناء السياسى والنسق الاجتماعى ، من صور ومضامين ونظم سياسية واقتصادية .

ومن هنا تتأثر الادارة « بروح العصر » ، كما تتطور مع تطور العصور ، فنظم الالتزام « ادارة » ، والسخرة والجباية « ادارة » . بمعنى أن نظام الادارة يتأثر ويؤثر فى طبيعة الحياة الاجتماعية وما يسودها من أنماط ثقافية عامة .

وقد تتأثر الادارة أيضاً ، بنظم اقتصادية فهناك ادارة اقطاعية وادارة صناعية و « ادارة اشتراكية » ، مما يؤكد لنا بوضوح مدى التماسك بين شكل الادارة ونمط الاقتصاد السائد . فينبغى تنمية أنماطنا الاقتصادية حتى يكون لها صداها فى فن ادارة المجتمع والتنمية الادارية .

ح ـ وتتطور المجتمعات بالتنمية ، من مجتمعات تقليدية Traditional الى مجتمعات انتقالية Transitional ، يعيش فيها الانسان على هامش ثقافتين متمايزتين ، أحداهما ثقافته التقليدية الأولى أو القديمة ، والأخرى ثقافة عصرية جديدة يتطلع اليها . وهذا يصبح « انساناً هامشياً Marginal Man » يتمنى أن يصير له شأن يعزه عن زميله التقليدى القديم . ولذلك يعيش الانسان الهامشى على هامش عالم خاص يسكنه أغراب عنه يتخيلهم ، ويحلم ويرى ويتخيل أشياء غير حقيقية ـ فقد ب من دنيا أخرى ، لا يراها أقرانه ، لأن واقعه هو « واقع تصورى

متخيل ، كما يعيش وينصرف فى عالم خاص به وحده لأنه عالم « غير واقعى » يبتعد كثيراً عن « وجوده الاجتماعى المحسوس » .

وهناك طبقات انتقالية وهامشية ، تمزج الأدنى بالأعلى وتخلط بين أسفل المجتمع بأعلاه ، حيث تتداخل الثقافات والطبقات ، فيعيش فيها من كان ينتمى إلى طبقة أقل أو أدنى ، ثم شاءت الظروف الاقتصادية ، أن تتغير أحواله وترتقى طبقته ، فيدخل فى دائرة ثقافة أخرى أو طبقة أعلى فيصبح هامشياً مغتربا ومضطربا ، لاينتمى إلى طبقة بعينها ، ولا يعيش ثقافة بالذات ، وإنما على هامش طبقتين ، فلا يستطيع أن يتكيف مع الطبقة الارقى ، لوجود أصول طبقية تؤسس طبقته الأدنى ، وتتوحد مع ذاته الاصيلة ، فيقع فى الحيرة والتردد والقلق ، بصدد طبقة أعلى « دخيلة » .

هذا عن الإنسان الهامشى ، وتصوراته ومدركاته ، أما الانسان المتحضر ، فى مجتمع حديث متحرك mobile ، فلا يشعر بمثل هذا القلق أو التناقض الوجدانى Ambivalence حيث يمتاز الانسان العصرى ، بالتقمص الوجدانى ، حين يتصور الاشياء على نحو موضوعى ؛ فيتفهم الناس ويتوقع سلوكهم ؛ بل ويبرر هذا السلوك حين « يضع نفسه دائما فى مقام الآخرين » ويتوحدبهم ، ويفسر كل سلوك من خلال ظروف الآخرين . وبذلك يختلف أسلوب الحياة عند الانسان المتحضر ، ويمتاز بالقدرة على التقمص ، وسرعة التكيف مع مجتمع صناعى متطور (١) .

د ــ أما عن المنهج العلمى التجريبى ، الذى يمكن بفضله أن ندرس حقل الثقافة والمجتمع . وأن نعالج سلوك الناس إنما ينصب على معرفتهم وفهم أسلوب الحياة Style of life . ودراسة أنماط الفعل الاجتماعى Social action

---

(١) : د. جيهان رشتى : علم الاتصال ، الجزء الأول الطبعة الأولى ١٩٧٣ ص ٣٩٣

وصلة هذه الأنماط بالثقافة أو الطبقة موضوع الدراسة بالقاء الضوء على « السلوك الفعلى » وبالتأكيد على دور « الفاعل الاجتماعى » .

ولقد أكد « بارسونز » و « فيبر » على أهمية دور الفاعلى وبنية الفعل الاجتماعى كما أثار فيبر فكرة « الفعل العقلى Rational Action » حيث ركز على أهمية دور الأفكار » فى فهم وهضم الثقافة . وبفضل عملية النموذج المثالى Ideal type Procedure » يمكن فهم توقعات السلوك . وردود الأفعال الاجتماعية فى مواقف الحياة اليومية . فالأبعاد الفكرية والعقلية فى السلوك الانسانى هى التى تتفهم فحوى مايدور من وقائع وظواهر وأحداث .

وبصدد مايقع أو يظهر أو يحدث يعتبر « القصد » أو « الأفعال القصدية Intentional acts » عند « فيبر Weber » من أهم عناصر الفهم وتفسير الظواهر والوقائع والأحداث . وبذلك نظر « فيبر » إلى « منهج الفهم » على أنه الطريقة المثلى لدراسة التاريخ بأحداثه ووقائعه . وعلم الاجتماع هو الذى يحاول فى زعم « فيبر » تحديد « الفهم التفسيرى explanatory understanding » الكشف عن طبيعة مواقف السلوك وأنماط العمل الاجتماعى ويصبح « الفعل » إجتماعيا . إذ كان « معناه الذاتى Subjective meaning » مرتبطا بالفاعل الاجتماعى ، حين يأخذ فى اعتباره الأشكال المختلفة لأنماط السلوك السائدة والعامة . ويفهم « المعنى الذاتى » فى علم النفس المعاصر ، ويعرف بانه يتضمن اتجاهات ومقاصد لاشعورية unconscious intentions ، كما وقد يتضمن « الفعل الاجتماعى » بالضرورة ، بعض الجوانب والاتجاهات الفعلية الشعورية (1).

---

(1) Weber Max,. Basic concepts in Sociology trans by H P Secher Peter Owen , London 1962

إلا أننا مع مع ذلك ، نستطيع أن ننتقد « ماكس فيبر » حين حاول أن يفسر الحقيقة الاجتماعية فى حدود الدوافع الفردية individual factors وحدها، الأمر الذى يؤدى بالضرورة إلى «اضطراب الحدود الفاصلة بين علم الاجتماع وعلم النفس» .

ولقد أنكر « فيبر » غلبة الاتجاهات الاقتصادية وسيطرة المصالح والفرص والمنافع على توجيه القيم والأفكار والايديولوجيات . فرفض الموقف المادى الماركسى وتحداه ، فى ضوء تحليلاته المقارنة للمجتمعات الحضرية ، وفى ضوء تنظيماتها السياسية والاقتصادية ، فاكتشف الرابطة الوثقى بين الدين والاقتصاد ، وكيف يكون الدين عاملا «ثورياً وتغيرياً» بالنسبة لقيم المجتمع وتصوراته بل وأنماطه الاقتصادية . فالرأسمالية هى «نتاج الروح الدينى البروتستانتى» بأخلاقياته وقيمة ، ومعتقداته وعباداته . حيث تشجع الديانة البروتستانتية على الادخار والاستثمار ، وتقدس العمل ، وترفض التواكل والتكامل ، وتفرض الحركة والكسب واحترام المهنة ، وإتقان ما يكلف به العامل من حرف أو أعمال .

فربط فيبر بين الاقتصاد وقيم الدين ، وحاول أن يجعل « من الدين عاملا تغيرياً» فى الانساق الاجتماعية ، وبخاصة فى دراسته المشهورة للبناءات القروية Rural structures فى الصين والتى نشرت فى كتابه الضخم « ديانة الصين The Religion of China » فكشف عن كيفية إدارة المقاطعات ، وموقف القانون والحكومة فى التنظيمات الاقطاعية (١) . وفى قسم آخر من الكتاب كشف « فيبر » عن أثر تعاليم كونفوشيوس Confucius فى تغيير النظم

(1) Weber, Max., The Religion of China, trans. from German by Hans Gerth, Glencoe. 1952. P. 33.

الاقتصادية الصينية العتيقة . كما عقد المقارنات بين الديانات القديمة ، والديانات المنزلة ، فلقد لعب الدين الاسلامى دوراً فى تغيير أنماط إقتصادية كانت سائدة فى عصر الجاهلية . ثم أمر الاسلام بالصلاة والزكاة ، ونهى عن شرب الخمر ولعب الميسر (١) ولذلك يكون الدين الجديد هو عامل ثورى تغييرى وله دوره الفعال فى تفكك تنظيمات اقتصادية قديمة ، بظهور القيم الدينية الجديدة ، والتى تحتاج بدورها إلى تنظيم إقتصادى جديد ، يمتص الجهد الانسانى والنشاط البشرى .

ويربط فيبر Weber فى دراساته فى التنظيم Organization بين علوم الاقتصاد والنفس والادارة والاجتماع الاقتصادى حيث يحدد التنظيم الاجتماعى ، دور الأفراد ووظائف الجماعات وينظم أفعالهم ومناشطهم ، ويضبط أنماط سلوكهم . فالأفراد ليسوا فى النهاية إلا نتاج لتنظيم يحدد أسلوب الحياة وطريقة العمل . كما يرتبط الأفراد فى كل تنظيم بأدوار Roles ومراكز يحكمها سياق محدد من الأفكار وبنسق خاص من القيم والضبط والسلوك ، وفرض المعايير المنظمة للأفعال وردود الأفعال داخل التنظيم ، سواء فى الأشكال الرسمية Formal أم غير الرسمية ، وفى الجماعات المفتوحة أو الانساق المغلقة Closed Systems .

ومع تقدم أنماط الحياة الاقتصادية ، ووطأة التكنولوجيا وإزدياد درجة التوتر tension ، والأزمات الانسانية الناجمة عن محنة التصنيع ، كالفقر والبطالة صدرت دراسات المسوح الاقتصادية التى بدأ بها ، تشارلس بوث Charles Booth ، لدراسة عمال لندن ، وهى دراسة أو بحث نشره بوث ، تحت عنوان Life and Labour of the People of London ، فصنف العمال احصائياً

---

(1) Weber, Max, The Sociology of Religion, trans by Ebraham Fischoff, London: 1966) P. 262.

إلى طبقات عليا ودنيا ، ودرس مشكلة الطبقات والعمليات الايكولوجية والحراك الاجتماعى فى مستوياته الأفقية والرأسية ، ثم طلع علينا « مالتس Malthns » بدراساته ذائعة الصيت عن السكان وتعدادهم ، وكيف تزداد الثروة بمتوالية حسابية ، بينما يزداد الناس على نحو يبشر بالجوع ، ويهدد المجتمع الدولى كله، حين يتزايد البشر بمتوالية هندسية وكذلك حذرنا مالتس من الانفجار السكانى، ونبهنا إلى ضرورة التنمية وزيادة الانتاج والثروة وتحديد النسل وتنظيمه ، حتى يحدث « التواؤم Readjustment » بين الانتاج والاستهلاك ، ويزول عن العالم شبح البؤس والحرمان .

وفى الاقتصاد الحضرى ، قام « راونترى Rowntree » بدراسة الظروف الاجتماعية التى أحاطت بالطبقات الفقيرة والمعدمة ، واستخدم Bowley منهج المسح عن طريق العينات Samples لدراسة الطبقات العاملة ، من ناحية الحـــالة المعيشية ومستوى الأجر ونسبة الدخول لمختلف فئات القوى العاملة .

وما يعنينا من كل ذلك ـ هو أن الدراسات الإقتصادية فى علم الاجتماع كانت تتقدم وتنمو ، مع نمو وتطور الظواهر والعمليات والتنظيمات الصناعية والاقتصادية ، حيث إزدادت جهود الانسان فى قطاعات الزراعـــة والصناعة والتجارة ، وتقدمت وسائل التسويق والمواصلات والنقل ، التى عملت على رفع معدلات الانتاج وإنعاش مشروعات التنمية .

ومع تعقد المناشط الاقتصادية ، يميز سيمياند Simiand بين نظام الانتـــاج وصورته Form فالأول يتصل بحركة العمل والعمالة والتشريع وإدارة العمل من أجل زيادة الانتاج .

هذا عن نظام الانتاج ، أما صورته فرتبطة بالشروط الفنية والتكنولوجية

وحجم العمليات الانتاجية طبقاً لطريقة الميكنة Automation ومداها . فلقد ظهرت الرأسمالية بفضل صناعة الغزل والنسيج Tissage ، ونظراً لقــلة كثافة السكان ، وتطور الصناعات اليدوية والمنزلية ، إلى الانتاج الواسع فى بنـــاءات وتنظيمات صناعية معقدة . حيث بدأت الصناعة أولا داخل جدران البيوت ، ثم انتقلت إلى الورش والمعامل الصغيرة ، ومع تقدم التكنولوجيا ظهرت المصانع ، كتنظيمات قائمة بذاتها . فهنـاك شروط ووظائف تكنولوجية يحددها النسق الاقتصادى ذاته .

وتنشأ الحواضر الكبرى بالقرب من مناجم الفحم وآبار البترول ، ومراكز الصناعة الواسعة فى المدن الصناعية الكبرى ، حيث تنشط حركة البيع والشراء ويتوافد مختلف أصحـاب المهن والحرف ، فيزداد حجم المدن بتراكم العمالة وازدياد الكثافة السكانية ، ومن هنـا يزداد التعقيد شيئاً فشيئاً حين يطرأ على مختلف التنظيمات والبناءات الصناعية .

وقد تتدخل العوامل الديموجرافية نفسها فى تحديد طريقة الانتاج ومداه وفى تنظيم وتخلخل عملية الحراك الاجتماعى ، ففى المدينة الصناعية إذا مازاد عرض العمال على طلبهم ، يظهر شبح البطالة الذى يفرض علينا الاعتراض على الهجرة إلى المدينة ، والاقلال من درجة الاقبال ، حتى وتنضبط ظواهر الانتاج مع عرض العمال ، ويتحدد نظام الأجور وتقل الفوارق الهـائلة بين الدخول والطبقات ، ويقترب أبناء الطبقة الفقيرة من الطبقة الوسطى ، تلك التى تتطلع دائماً هى الأخرى إلى طبقة أكثر ثراء وغنى .

ومع ذلك ـ فلا شك أن « ماكس فيبر » قد ساهم بسهم وافر ، فى ميدان علم الاجتماع الاقتصادى ، حيث كتب عن مشكلات التنظيم ، والبيروقراطية ،

كما أشار إلى الصراعات ودور القيادة الرشيدة ، الأمر الذى يكشف بوضوح عن موقف « ماكس فيبر » من المشروعات الاقتصادية ، والمشكلات التى تتعلق بالانتاج، مع بداية ظهور الاهتمامات بتقسيم العمل الاجتماعى ، حتى تتحقق أفضل إنتاجية ممكنة ، وحيث تسرع عجلة التنمية الاقتصادية ، من أجل تطوير الصناعة .

هـ ـ وإذا كنا فى ميدان « التنمية الثقافية » تتخلف عن الركب حين نتغير أو ننمو فى بطء ، بينما نلهث وننطلق فى ميادين الصناعة والتكنولوجيا ، حين تتغير فى سرعة هائلة ، فقد تزداد الفجوة الثقافية cultural gap ، ويحدث مايسميه « أوجبرن Ogbern » فى علوم الاجتماع الثقافى والصناعى ، باصطلاح « التخلف الثقافى cultural lag » ، حين يحدث تحت ضغط الصناعة ووطأة التصنيع ، ومع إزدياد حدة التغير التكنولوجى . وعلى علماء الاجتماع والنفس ورجال الدين والثقافة ، أن يعملوا بلا إنقطاع على زيادة وتكثيف الحركة بدفع عجلة الثقافة وتنمية الانسان والقضاء على تخلفه ، بدينامية علوم الاجتماع وتقدم علوم النفس ، وتطوير علوم الانثروبولوجيا الحضارية ـ حتى نواكب على الأقل هذا التقدم التكنولوجى السريع ، فنقل وطأة التكنولوجيا وتخف محنة التصنيع .

وقد تنجح خطانا وتسرع ، حين ينزع مسعانا نحو المزيد ، فى تقدم علوم الاجتماع الثقافى ، والنفس الصناعى ، والانثروبولوجيا الحضارية ، حتى تتحضر الفنون ، وتتطور الآداب ، وتتأكد أصول الثقافة ، وتتركز مصادر الفلسفة ، حين تتعامل مع فقه الدين وضوابط القانون والأخلاق ، وغيرها من سائر القيم التى تفرض أنماط السلوك التى تتكيف مع الوجود الاجتماعى الراهن .

فعلينا أن تثبت من الزمن ومن التاريخ ، وتتشبث بالأرض ، حتى تنبت القيم ، وتنبث فى المحيط الاجتماعى ، وينبثق الأساس الموضوعى للفكر والتصورات

حين تمتد الجذور ، وتنتشر الأصول ، بعيدة فى أرضية الثقافة . ومن هنا يظهر لنا « تأصيل القيم » ، وتتحقق مصادر القواعد الدينية ، والأصول الخلقية المرعية التى ينبغى أن يلتزم بها « الانسان الصناعى المعاصر » ، الذى يجمع بين « الفكر والعمل » ، ويمزج بين « النظر والتطبيق » ، وهذا هو نمط الفكر العملى البراجماتيكى ، الذى يساير عصرنا التكنولوجى فى تقدمه السريع وتغيره الهائل .

ولا شك أن هذا التغير الاجتماعى المزعج ، ينبغى أن نخطط له تخطيطا دقيقاً ، وإلا انحرف المجتمع الصناعى ، نحو الهاوية فقد « (١) أسس بنيانه على شفا جرف هار » فلقد إنجذب الانسان ككائن طحنته التكنولوجيا المعاصرة نحو « ظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوق موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور » (٢) .

فعلينا أن نخفف الوطء بعد أن كنا نلهث منذ قليل ، وراء المادة والتكنولوجيا ، فلنلتقط أنفاسنا ، ولتهدأ نفوسنا وعقولنا ، حتى تزداد حضارتنا عمقا وأصالة ، وعلينا أن نعمل على تخفيف الآلام وتهدئة الخطى والخواطر ، وضبط النفوس ، وتنبيه العقول ، وتحذير الانسان بتنميته وتطويره ، حتى تثبت أقدامنا ، وتمتد جذورنا ، فى صلب التاريخ ، و « تنبث أصولنا فى بنية الثقافة » ، وتتأكد قواعدنا ، « على أرضية صلبة من القيم » .

ويبدو أن « دفعة العمل » هى عجلة الحياة ، ولا أقول مع برجسون Bergson « دفعتها الحيوية Elan Vital » . فكلما إزدادت كثافة العمل ، كلما تحركت وأسرعت عجلة الحياة ، حين تجرى وتنطلق ، بكل حيويتها وقوتها ،

---

(١) من سورة التوبة الآية ١٠٩ .

(٢) من سورة النور الآية ٤٠ .

متدفقة ومتجهة وخيرة . ولما كانت « آلة العمل » هي غاية متحركة لكي تحقق أهدافا حيوية واقتصادية ، فهي غاية نشطة ومرغوبة ، وهي كحركة ديناميكية دائبة ، تجدها عاملة ومستمرة بل وخطرة ، وقد تقضي يوما ما على أعظم ما في الإنسان ، وهو « عبقريته » بعد أن تكون قد سيطرت تماما على « أنماط سلوكه » ، كما تعمل في آلية مدمرة على ضياع كل سمات الإنسان ، فتقضي على طاقات روحه ، ومبادئه أخلاقياته ، وتزول أو تضعف قيمه وتنحل أو تتلاشى مثله العليا . وفي هذا المعنى يقول « ت . إليوت T. S Eliot » في قصيدته المشهورة « الرجال الخاوون Hollow men » . « نحن الرجال الخاوون . المكتظون بحشو فارغ ، نرتمي كما ترتمي حشية عتلئة بالقش » وبذلك يصف « إليوت » الخواء حين يتهاوى « بناء القيم » ، وينهار « نسق المثل العليا » ، حين تكشف الحجب المادية على الروح الانساني ، فتصبح عارية عن المثل والجوانب الروحية العليا .

وهذا هو نموذج « إنسان التكنولوجيا » في مجتمع العصر اللهوف وراء سراب ، حتى أصبحت نفسه خرابا ، وروحه فارغة ، فهو شكل بلا مضمون أو حتى تظلم ، وظل بلا لون . أما كلماته فراكدة بلا طعم ، تراها قد فقدت المعنى ، لأنها قبض الريح حين تهب على هشيم ، وهذا هو « الخواء » (١) كحقيقة عينية مزعجة ينبغي أن يعلن علماء التخطيط والإجتماع ورجال الدين والثقافة عن أخطار « عصر الآلة » التي ستقتل كل شيء ، وتقضي على الانسان وتدمر قدراته وملكاته .

وختاماً — في ميدان التنمية الاقتصادية للانسان الحالي ، لقد ساهمت في قيام علم الاجتماع الصناعي وعلوم التنمية والإدارة والتخطيط الكثير من الدراسات المتوعة

---

(١) دكتور محمد زكي العشماوي : الأدب وقيم الحياة المعاصرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، صفحات ١٧ ، ١٨

مثل علم الاقتصاد نفسه.(١) بالاضافة الى جهود وخبراء علاقات العمل Labour Rclations ، والانثروبولوجيا الثقافية ، والمورفولوجيا الاجتماعية، وعلماء الاجتماع الصناعى ، وعلماء النفس الصناعى industrial psychologists وعلماء الانثروبولوجيا الاقتصادية Economic Anthropology . وهناك دراسات أخرى فرعية ساهمت فى تطوير علم الاجتماع الاقتصادى ، مثل علم « الديموجرافيا Demography » ودراسات شغل أوقات الفراغ Leisure ، التى تنهض بدراستها علوم متخصصة ، مثل « سوسيولوجيا العمل Sociology of Work » وسوسيولوجيا أوقات الفراغ Sociology of Leisure ، وسوسيولوجيا المهن Sociology of occupations ، وسوسيولوجيا التنظيمات الرسمية Sociology of forrmal organizations وسوسيولوجيا التنمية الاقتصادية Sociology of Economic development .

وتدور كل هذه الدراسات والعلوم الجزئية ، حول تلك العلاقات العلية Causal Relations التى تربط بين ما هو اقتصادى Economic بما هو غير اقتصادى non economic ، فى سياق أو تيار الحياة الاجتماعية .

والأسئلة المطروحة فى هذا الصدد، تبدأ بالسؤال عما نحتاجه ، والبحث عما نحاول أن نعرفه فى ميدان التخلف والتنمية ، بصدد علم الاجتماع السياسى، وماهى النتائج الرئيسية فى هذا الصدد ؟! وماذا نحاول الآن أن نعرف ؟! . وماهى تلك المكتشفات النهائية التى جادت بها قرائح علماء الاجتماع السياسى والدينى والصناعى؟! . وهل تتقبل تلك النتائج والمكتشفات على أنها قضايا يقينية، لاتقبل المناقشة والجدل ؟! .

---

(1) Smelser , Neil . , The Sociology of Economic life ., Printice: Hall. 1963

هـذه هى المسائل الرئيسية التى يشتغل بها علماء الاجتماع على العموم ، فى محاولاتهم التوصل إلى تلك « القوانين السوسيولوجية العامة » ، التى تتحكم فى مسار الظواهر الصناعية ، والتى تكشف عن بعض القضايا المجهولة فى إقتصاديات علم الاجتماع ، والتى تحيط اللثام فى نفس الوقت ، عن بعض المواضع والمجالات التى قد تكون مبهمة ، فما زال فى علم الاجتماع الصناعى الكثير من « المجالات غير المطروقة » ، ونقاط البحث التى يحيط بها الغموض والابهام. فهناك العديد من المشكلات الاقتصادية والمسائل التى تكتنف وغير المعروف unknown فى نظرية البحث الاقتصادى وعلينا أن نتطرق إليها ، باقتحام معاقلها ، وغزو ميادينها المجهولة ، حين نتسلح باستخدام منهج العلم ، وباثارة قضايا « النظرية الاجتماعية » ، وبانتهاج طرائق الفرض والملاحظة والتجريب . إلا أننا مع ذلك ينبغى ألا ندرس المجتمعات والثقافات على أنها مجرد « أشياء » يمكن دراستها من الخارج ، وإنما ينبغى أن أن نفتح باب « الفهم » واسعاً لهضم محتويات المجتمع والثقافة . . والله أعلم ؟

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

ملحق للمراجع والمحتويات

المراجع العربية :

• آرون ريمون ، صراع الطبقات ، ترجمة عبد الحميد الكاتب ، منشورات عويدات بيروت ١٩٦٥ .

• آرون ريمون : المجتمع الصناعى ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٦ .

• الدكتور السيد بدوى ، علم الاجتماع الاقتصادى ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى ١٩٧٧ .

• أوسبورن ، الماركسية والتحليل النفسى ، ترجمة د . سعاد الشرقاوى ، مراجعة الدكتور مصطفى زيور ، دار المعارف ١٩٧٢ .

• بوبر ، كارل : عقم المذهب التاريخى ، ترجمة الدكتور عبد الحميد صبرة ، منشأة المعارف ١٩٥٩ .

• بوسكيه وفانييه ، الانسان فى المجتمع المعاصر ، ترجمة مصطفى كامل فوده ، مراجعة الدكتور راشد البراوى دار المعرفة ١٩٦٩ .

• دكتور حاتم الكعبى ، الطبقة الاجتماعية عند كارل ماركس ، فصلة من مجلة الأستاذ ، التى تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد ـ المجلد الثانى عشر ١٩٦٣ .

• دكتور حسن شحاته سعفان ، دراسات فى علم الاجتماع الاقتصادى معهد البحوث والدراسات العربية للطبعة العالمية ١٩٧١ .

• الدكتور حسن الساعاتى ، التكنولوجيا والمجتمع ـ دار المعرفة ١٩٦٣ .

• دكتورة جيهان رشتى ، نظم الاتصال ، الجزء الأول ١٩٧٧ .

• سبايس ، جورج ، تطور الفكر السياسى ، الكتاب الثالث ، ترجمة الدكتور راشد البراوى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ .

• ستالين، جوزيف أسس اللينينية، حول مسائل اللينينية، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت .

• سول، جورج : المذاهب الاقتصادية الكبرى ، ترجمة الدكتور راشد البراوى ، النهضة ١٩٦٥ .

• سيجموند، بول ، ايديولوجيات الأمم الآخذة فى النمو ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٤ .

• جان . مينو : مدخل إلى عالم السياسة . ترجمة جورج يونس ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٧ .

• حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ، المطبعة الأميرية ١٩٤٩ .

• دوفرجيه ؛ موريس ، فى الدكتاتورية ، ترجمة الدكتور هشام متولى ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٥ .

• دكتورة عايدة بشارة « دراسات فى بعض مشاكل تلوث البيئة » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

• دكتور صوفى حسن أبو طالب ، الوجيز فى القانون الرومانى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .

• د . صلاح عدس : الطب الصناعى وأمراض العمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

• دكتور عبد الجليل الطاهر « علم الاجتماع بين الفينومينولوجيا والتجربة » مستل من مجلة كلية الآداب العدد الرابع — آب ١٩٦١ مطبعة العانى ١٩٦١ »

* الدكتور عبد المنعم شوقى ، الادارة التنفيذية وأثرها فى أداء الخدمة العامة ، للمنظمة العالمية لحرية الصحافة ، المشكلات الادارية ، دار المعارف القاهرة ١٩٥٩ .

* الدكتور عبد الكريم درويش وليلى تكلا ، أصول الادارة العامة ١٩٦٨ .

* دكتور عبد الكريم صادق بركات ، إقتصاديات الدول العربية ، اسكندرية ١٩٦٩ .

* دكتور عبد المحسن صالح ، الفطريات والحياة ، دار القلم القاهرة ١٩٦٤ .

* دكتور على عبد الرازق الجلبى ، دراسات فى علم اجتماع الصناعة، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٠ .

* ماوتسى تونج ، مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسى تونج ، القاهرة الطبعة الثانية ، وكالة الصحف العالمية ١٩٦٧ .

* محبوب الحق ، ستار الفقر ، خيارات أمام العالم الثالث ، ترجمة أحمد بلبع ، تقديم الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧ .

* د . محمد ثابت الفندى ، الطبقات الاجتماعية ، دار الفكر العربى ١٩٤٩ .

* د. محمد رشاد الطوبى ، صراع مع الميكروب ، دار القلم القاهرة ١٩٦٤ .

* د . محمد زكى العشماوى ، الأدب وقيم الحياة المعاصرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الطبعة الثانية .

* د. محمد عاطف غيث ، الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر ، دار الكتب الجامعية ١٩٧٧ .

* دكتور محمد طه بدوى ، المنهج فى علم السياسة ، مطبوعات كلية التجارة الاسكندرية ١٩٧٩

• الدكتور كمال دسوقى ، سيكولوجية لادارة الاعمال ، التخطيط السيكولوجى للمجتمع الصناعى ، دراسات فى الهندسة البشرية وتعبئة الافراد ، الانجلو ، ١٩٦٠ .

• كلود ، جورج الابن ، تاريخ الفكر الادارى ، ترجمة الأستاذ أحمد حموده ، مكتبة الوعى العربى . القاهرة.

• كوبلرجورج ، نشأة الفنون الانسانية ، ترجمة عبد الملك الناشف ، بيروت ١٩٦٥ .

• لنتون ، رالف ، الانثربولوجيا والعالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف المكتبة العصرية ـ بيروت ١٩٦٧ .

• لينين فلاديمير ، المختارات ، الجزء الأول ، المجلد الثانى ، دار التقدم ، موسكو ١٩٦٠ .

• د . نبيل السمالوطى ، التنمية والتحديث الحضـــارى ، مطبعة الجبلاوى ، ١٩٧٥ .

• نجيب مخول ، «ابن طفيل» ، بيروت ١٩٦٢ ،

• هامبسون ، نورمان ، التـــاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية ، ترجمة فؤاد أندراوس ، ومراجعة الدكتور محمد أنيس ، وزارة الثقافة . القاهرة .

• هانسون أ . ه ، المشروع العام التنمية الاقتصادية ، ترجمة محـمد أمين إبراهيم ، مراجعة الدكتور فؤاد هاشم عوض . الدار القومية التأليف والترجمة ١٩٦٥ .

• هوريتز ، أصول فلسفة الطبقة الوسطى فى عصر التنوير ، تعريب الدكتور عبد الجليل الطاهر ، مطبعة الرابطة ـ بغداد ، ١٩٦٠ .

• مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسى تونج ، وكالة الصحف العالمية ، القاهرة ١٩٦٧ .

• « المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية » « العنف » العدد السابع والثلاثون ، السنة العاشرة ١٩٧٩ اليونسكو .

• « موسوعة الأمن الصناعى للدول العربية » الجزء الأول والثانى والثالث ١٩٧١ .

• الموسوعة الفلسفية المختصرة ، راجعها وأشرف على نقلها من الانجليزية إلى العربية ، الدكتور زكى نجيب محمود ، سلسلة الألف كتاب ٤٨١ مكتبة الانجلو المصرية .

• يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف بمصر .

المراجع الفرنسية

1. Blondel, ch., Introduction a la Psychologie. Collect. A. Colin. 1952.

2. Bouglé, Celéstin., Essays on the Cast System. trans by Pocock. Cambridge, 1971.

3. Brunschvicg, Léon, Le progrés de la Conscience., Tome Second Paris. 1963.

4. Cazeneuve. Jean., Sociologie de Marcel Mauss, Press univers-de France Paria 1968.

5. Comte, Auguste, Cours de Philosophie Positive., Tome Prémier 5e Edition. Paris 1907.

6. ________ : Systéme de Philosophie Positive, Edition Commemorative Paris 1942.

7. Davy, Georges., Emile Durkheim. Collection Louis - Michaud. Paris 1927.

8. Descartes, René., Discours da la méthode, Hachette. Paris. 1957.

9. Durkheim, Emile, Les Formes Elémentaire de la Vie Religieuse, Félix Alcan. Paris. 1912.

10. ________ : Les Régles de la Méthode Sociologique. Edition Paris. 1927.

11. ________: De La Divsion du Travail. Félix Alcan, Paris. 1926.

12. Duvignaud., Jean., Sociologie de l'art., prese Univers. de France Paris. 1967.

13. Gurvitch Georges, Essai de Sociologie, Annales Socio-logique Fasc. 4.

14. ________, Le Vocation Actuelle de la Sociologie. press. univers. de France. paris. 1963.

15. Halbwachs, Maurice, Les Cadres Sociaux De la Mémoire. Nouvelle. Edition, Paris 1935.

16. ________, La Morphologie Sociale, Collec. A. Colin Paris. 1946.

17. Mauss, Marcel, Sociologie et Anthropologie., Press. univers. Paris. 1950.

المراجع الانجليزية :

18. Appleby. Robert., Modern Busiuess Administration, Printice Hall, 1969.

19. Anderson, Nels., Urban Community, Routledge & Kegan Paul, London. 1960.

20. Benge, Eugene, How to manage for to - morrow ? U.S.A, 1975.

21. Bergel, Egon Ernest, Urban Sociology, Mc Graw-Hill 1955.

22. Booth, Charles., Life and Labour of the people of London, Macmillan. 1902.

23. Borgatta and Meyer, S ciological Theory, New York, 1956.

24. Bottomore, T.B., Sociology, A. Guide problems and literature, London. 1963.

25. Bourdieu, Pierre., The Attitude of Algerian Peasant toward Time, Article from Mediterranean Country men, Monton, 1963.

26. Boskin, Joseph, Urban Racial Violence in the Twentieth century, Second Edition, Glencoe, 1937.

27. Box, Steven and Stephen Cotgrove, Occupational Choice and Selection, Article from, Restivo, Sol, Christopher, L Vanderpool, Comparative Studies in science and society, USA 1973

28 Burns, Tome, Sociology of Literature & Drama, Penguin, USA 1973

29 Childe, Gordon, Man Makes Himself, Fontana 1966

30 Cicourel, Aaron V, Method and Measurement in Sociology, Free Press of Glencoe, London 1964

31 Cohen, Percy, Modern, Social Theory, Heinemann London 1968

32 Corbett, Patrick, Ideologies, Hutchinson, 1965

33 Danziger, K, Ideology and Utopia in the South Africa, The British Journal of Sociology, March 1963

34 Durkheim, Emile, Sociology and Philosophy, Trans By PF Pocock, London 1953

35 Duverger, Maurice, Introduction to the social Sciences, trans. by Malcolm Anderson, London 1961.

36 Ellenson, Ann, Human Relations, Printice-Hall, 1973

37 Emmet, Dorothey, Alasdair Macintyre, Sociological Theory and philosophical Analysis, Macmillan. 1970.

38. Engels, Frederick, Dialectic of Nature, Progress Publishers, Fourth Printing, Moscow 1966

39 Evans-Pritchard, E E, Essays in Social Anthropology, Cohen & West, London 1952

40 Fayol, Henri, General and Industrial Management, trans by Storrs, Pitmein Paperpacks 1969

41 Firth, Raymond, Hunan Types, Thomas Nelson, New York 1943

42 ——— Man and Culture, Routledge London 1957

43 Follet, M, P, Freedom and Co-ordination Management Publication, Truste, London 1949

44 Friedman, C, Industrial Society, The Emergence of Human Relation of Automation, Glencoe, 1964

45 Gillbreth, F B, Motion Study, A Method for Increasing Efficiency of Workmen, 1911

46 Goode, William J, Methods in Social Research, Mc Graw Hill London 1952

47 Good, Williams, J, The Family As An Element in the World Revolution, in Rose Peter (edt) The Study of Society, Random House, inc-New York 1967

48 Couldner Alvin, Modern Sociology, An Introduction to the Study of Human interaction USA 1963

49. Gurvitch, Georges., The Twenteith Century Sociology The Philosophical Library, New York, 1945.

50. Handy, Ro lo., Philosophy's neglect of Social science, article from philosoph of Science. April, 1958,

51. Harlow, Eric, and Compton., Practical Communication Vol : 2 Longmans. 1967.

52. Hayek, F.A., Von. Scientism and the study of society, Eco-omica Vol X 1943.

53. Heap, James, and Philip Roth., On Phenomenological Sociology, American Sociological Review 38 (June 1973).

54. Hill, Michael, The Sociology of Public Administration, Michael Hill 1972.

55. Homans, G, Scoial Behavior, Its Elementary Forms, Harcourt, New York 1961

56. Inkeles, Alex, Social Change in Soviet Russia New York 1964

57 ________ ,The Modernization of Man, in Modernization dynamics of Growth, edited by M Weiner New York Basic Books 1966

58 ________ What is Sociolo y? prentice-Hall 1964

59 Issa Ali A, Social Anthropology, Theory and practice Cairo 1964

60 Kluckhohn Clyde Culture, and Personality, reprinted From the American Anthropologist, Vol 46-1944

61 Kiev, Ari Transcultural Psychiatry Penguin 1972

62 Kardiner, Abram & Edward Preble, They Studied Man Mentor New York 1963

63 Keesing, Felix, Cultural Anthropology, New York 1960

64 Kerr, Clarck, Productivity and labor relation, Sydnays Anoxis Robertson 1957

65 Kuhl, Herbert., The age of Complexity, Mentor 1965

66 Krech D and Crutchfield, Theory and Problems of Social Psychology, 1948

67 Lee, Dorothey., Freedom and Culture., Prentice-Hall, Harvard 1959

68 Lenin., Selected works Vol : 1 Progress Publishers Moscow 1967

69 Lindenfeld Frank., Radical Perspectives on Social Problems USA 1969

70 Linton, Ralph, and Harry Hoijer., An Introduction to Anthropology, Macmillan Second edition New York 1959

71 Lowie, Robert., The History of Ethnological Theory London 1938

72 Mack, Raymond & Johnpease., Sociology and Social Life., Van Norstrand Company 1973

73 Marx, Karl., The Poverty of Philosophy., Moscow, 1966

74 Marx, Engels, Selected, works Vol : 1 Moscow 1962

75. Lundberg, George., Foundations of Sociology, New York, Macmillan, 1956

76. Lundberg, George., Social Research, Longmans. 1947.

77. Marcuse, Herbert., Reason and Revolution, Boston 1960.

78. Martındale, Done., The Sociology, Nature and Types of Sociological Theory, Routledge and Kegan Paul, London 1961.

79 Mannheim Karl., Essays On The Sociology of Knowledge, Trans By Paul Kecskemeti, Routledge & Kegan Paul, London 1952.

80. ——— . The Sociology of Knowledge, The Twenteith Century Sociology. New York 1945.

81. ——— Essays On Sociology and Social Psychology, Trans. by Paul Kecskemeti London 1953.

82. ———, Ideology and Utopia, Kegan Paul Trans. by Louis Wirth and Edward Shils. Second Impression London 1940.

83. ——— Man and Society In An Age of Reconstruction Trans. From The German By Edward Shils Kegan Paul London 1942.

84. Merton, Robert., Social Theory and Social Structure, Revised and enlarged Edition The Free press of Glencce The Fifth Printing. New York, 1962.

85. Meyer., Edgar Sociological., Theory Present day Sociology from the past, New York 1956.

86. Mill, John Stuart, Utilitarianism, The Fonta a Collins 1964.

87. Mills, Wright, Power Politics and People, Howitz- First Published 1959.

88. Mills, Wright White Collar., New York 1951.

89. Myrdal Gunner. An International Economy., New York Harper 1958.

90. Myidal Curner., Volume., in Social Theory Routledge and Kegan Paul London 1968

91. Naesl S.F, Foundation of Social Anthropology, London 1953

92. Parsons, Talcott., Structure of Social Action Free Press 1949

93. Piddington, Ralph., An Introduction to Social Anthr opology Vol 1 Oliver and Boyd Third Edition 1960.

94. Plamentaz, John., Ideology Macmillan 1971

95. Popper, K.R The Open Society and its Enemies Routledge Vol I II London 945

96. Popper., K.R The Poverty of Historicism Routledge Kegan Paul London 1957

97. Radcliffe - Brown A.R - Andaman Islanders, Free Press 1948

98 ________ Methods in Social Anthropology, Selected by Srinivas The University of Chicago Chicago 1958

99. ________ Structure and Function in Primitive Society, Cohen & West Second Impression London 1956

100 Restivo Sol P Christopher K Vanderpool, Comperative Studies in Science and Society USA 1974

101 Riley Matilda White., Sociological Research A case Approach, New York 1961

102 Roche, Maurice., Phenomenology Language and Social Science, Routledge & Kegan Paul 1973

103 Schneider Eugone., Industrial Sociology McGraw Hill New York 1967

104 Service Elman R The Hunters., Printice Hall 1966

105 Smelser Neil., The Sociology of Economic Life, Printiee Hall 1963

106 ________ Sociology An Introduction., Pakistan London 1967

107 Sorokin Pitrim., Contemporary Sociological Theories, New York London 1928

108 ________ Society Culture and Personality, Their Structure and dynamics Harper & Brothers publishers New York & London 1947

109. Spencer Herbert., The Principles of Psychology, Third Edition Vol I London 1881

110 Stogdill RM Individual Behavior and Groups Achievement University of Oxford press 1959

111 Stark Werner., The Sociology of Knowledge Second Impression Kegan Paul London 1960

112 Timasheff Nicholas., Sociological Theory Its Naiure and Growth, Forhbam University New York 1955

113 Tiryakian Edward Existential Phenomenology American Sociological Review 30 october 19.50

114 ________ Sociologism and Existentialism Prentice Hall 1962

115 Tonhies Ferdinand., Community and society trans by Loomis Hurper New York 1963

116 Vogt Evon The Automobile in Contemporary Navaho Culture. Article from A Reader in Culture Change Vol 1 2 by Ivan Brady and Barry Isaac Cambridge 1975

117 Weber Max., The Theory of Social and Economic Organization trans by Henderson Glencoe 1947

118 ________ Basic Concepts in Socioiogy trans by Hp Secher Peter Owen London 1962

119 Wellin Edward Water Boilinge in a Peruvian Tom Article in A Reader in Culture Change Volume 1 2 by Ivan Brady and Barry Isaac Combridge 1975

120 White Leslie., The Agricultural Revolution, article A Reader in Culture Change by Ivan Brady and Barry Isaac Cambridge 975

121 Whyte William., The Organization Man, New York Anchor Book 1956

122 Willam Michael., Human Relations Longmans, London 1967.

123 Wolf Kurt., The Sociology of Georg Simmel Free, Press Paperback 1934.

124 ________ Essays on Sociology and Philosophy. Harper 1964

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الثانى

الباب الثانى

الفصل الثالث

صفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الباب الثالث

صفحة

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

صفحه

الفصل التاسع

الباب الرابع

صفحة

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

صفحة

الباب الخامس

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

صفحة

الفصل الخامس عشر

رقم الايداع ٤٠٥٠/١٩٨٠ الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧-٧٣٢٨-٠١-٥


Bibliotheca Alexandrina
02444267